PHILBY

جزيرة العرب الوهابيين

ARABIA OF THE WAHHABIS

هاري سانت جون فيلبي

« عبد الله فيلبي »



مكتبة العبيكان

جزيرة العرب الوهابيين

هاري سانت جون فيلبي

ترجمة

د. يوسف مختار الأمين

تقديم ومراجعة وتعليق

أ.د. غيثان بن علي بن جريس

أستاذ التاريخ بجامعة الملك خالد

السعودية - أبها



الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م

الناشر: العبيكان Obeikan للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ /٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمـــز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان Obeikan

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ /٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٥٦٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمـــز ١١٥٩٥


بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

يطيب لمكتبة العبيكان للنشر والتوزيع أن تقدم للقارئ الكريم سلسلة كتب فيلبي التاريخية ذات العلاقة بتاريخ وجغرافية المملكة العربية السعودية لأول مرة باللغة العربية.

ويأتي إصدار كتب فيلبي وبخاصة، لعدة اعتبارات أدبية، من أهمها أن فيلبي سبق له أن أقام في المملكة العربية السعودية مدة طويلة، واتصل بالملك عبدالعزيز، وقد أتاح له ذلك فرصة إشباع رغبته في الترحال والاطلاع على كثير من المناطق والمواقع الأثرية في مختلف أنحاء المملكة، وقد أفادت رحلات فيلبي وكتاباته تاريخ وجغرافية بلادنا بشكل متميز، باعتبار أنه قدم من خلال ما كتبه وصفاً حياً لكثير من المواضع الجغرافية، والمواقع الأثرية، مما نتج عنه نقل عدد كبير من أسماء المواضع في مختلف أرجاء الوطن.

ومما يميز كتب فيلبي التي سبق أن صدرت بلغتها الأصلية قبل أكثر من سبعين عاماً أنها احتوت على معلومات تاريخية وجغرافية مهمة، ومن هنا تم انتقاء مجموعة منها لترجمتها إلى اللغة العربية نظراً لأهميتها التاريخية.

كما تمتاز كتب فيلبي أيضاً بأنها تضم عدداً لا بأس به من الصور الشمسية (الفوتغرافية) لبعض الأعلام والمدن والمعالم الجغرافية، وهذه الصور لا شك أن لها دوراً ايجابياً يعين على تصور بعض المعالم الجغرافية إضافة إلى بعض الجوانب الحضارية التي كانت سائدة تلك الفترة.

وسيلحظ القارئ الكريم عندما يقرأ في كتب فيلبي أنه أمام موسوعة مختصرة لتاريخ المملكة العربية السعودية غطت حقبة زمنية مهمة حيث كتب فيلبي بأسلوبه السلس الرصين عن تاريخ المملكة، وجغرافيتها، وأعلامها، وآثارها، واقتصادها وقد كان أثناء سياقه للأحداث العامة أو ذكرياته الخاصة لا يغيب عنه - كلما سنحت له الفرصة - إبداء إعجابه بشخصية الملك عبدالعزيز - يرحمه الله - وبجهاده في توحيد البلاد، ثم إعجابه بسياسته في الارتقاء ببلاده حتى صارت دولة حديثة تحظى بتقدير العالم، وهذا الإعجاب له ما يبرره وسوف يتنبه القارئ إلى بعض مواطن الإعجاب والتقدير في مواضعها من كتب فيلبي التي تمت ترجمتها في هذه السلسلة.

إن مكتبة العبيكان للنشر والتوزيع لترجو أن تكون قدمت بهذا الجهد - الذي تم بإشراف لجنة علمية متخصصة - جزءاً من خدمة بلادها من خلال إحياء تاريخها. وقد حرصت المكتبة على إخراج الكتب وترجمتها إلى اللغة العربية كما جاءت في النص الانجليزي. ومع ذلك فإن جميع الآراء والأحداث التي ذكرها المؤلف في كتبه التي تنشرها المكتبة تمثل وجهة نظر المؤلف الخاصة، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

وفيما يخص هذا الكتاب، فإن المكتبة تشكر كل الذين أسهموا في مراجعة الترجنة على ملاحظاتهم القيمة وتخص بالشكر سعادة الأستاذ الدكتور/غيثان بن علي بن جريس أستاذ التاريخ بجامعة الملك خالد الذي بذل الجهد الرائع في مراجعة وتدقيق معلومات هذا الكتاب.

والله الموفق

الناشر

مكتبة العبيكان

تقديم بقلم

الأستاذ الدكتور/غيثان بن علي بن عبدالله بن جريس

أستاذ التاريخ/بجامعة الملك خالد

السعودية - أبها

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض، والصلاة والسلام على رسوله، وأفضل خلقه، الرسول الأمين محمد بن عبدالله، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، أما بعد:

فإن أرض الجزيرة العربية تعد من أفضل بقاع الأرض لما رزقها الله عز وجل من مميزات لا توجد بعضها في أي ناحية من نواحي الكرة الأرضية، ومن أعظم تلك المميزات أنها تحتضن الكعبة المشرفة التي هي قبلة عموم المسلمين، وكذلك مسجد الرسول الكريم محمد بن عبدالله (عليه أفضل السلاة والسلام) وقربه الشريف، إلى جانب موقعها الاستراتيجي الذي يتوسط العالم ويربط الشرق بالغرب، بالإضافة إلى ما حباه الله عز وجل من ثروات وخيرات متنوعة. هذه المزايا جعلت جميع أمم العالم تنظر إلى هذه البلاد منذ العصر القديم باهتمام، فمنها من سعى إلى السيطرة بالقوة على بعض أطرافها الشمالية والشرقية، بالإضافة إلى بلاد اليمن، كالإغريق، والبطالمة، والرومان، والأحباش، والفرس[1]. وعندما ظهر الإسلام سعت بعض تلك الأقوام، كالروم والفرس، إلى محاربة سكان الجزيرة، وأحياناً إلى عقد

(١) لمزيد من التفصيلات انظر: جواد علي. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (بغداد: جامعة بغداد، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م) (عدة مجلدات).

معاهدات وتحالفات معهم، مع أن الدين الإسلامي انتشر في أركان هذه الأمم وأصبح هو المنهج السائد على جميع أرجاء الشرق الأدنى والأوسط، كما امتد إلى بعض أجزاء الشرق الأقصى وأجزاء من قارتي إفريقيا وأوربا[١].

ومنذ فجر الإسلام عبر عصوره المبكرة والوسيطة والحديثة والمعاصرة كانت هناك صلات سياسية وحضارية، سلبية وإيجابية، بين العالم الأوربي، أو الغربي بشكل عام، وبين العالم العربي والإسلامي[٢]. ولسنا في هذه الصفحات بصدد الحديث عن جوانب تلك الصلات، وإنما الذي يهمنا العلاقات العلمية والتي قد تكون أحياناً علمية حضارية في ظاهرها، لكنها دبلوماسية سياسية في باطنها. والرحالة والمستشرقون يأتون في أول قائمة هذه الصلات حيث نجدهم منذ القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) يسعون بجد واجتهاد لاكتشاف بلاد الشرق وبخاصة بلاد العرب، وكثيراً ما نجدهم مدعومين من دولتهم لخدمة أغراضهم السياسية الاستعمارية[٣].

وجزيرة العرب تأتي ضمن أهم المواطن التي كان يسعى المستشرقون والرحالة

---

(١) للاطلاع انظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الأجزاء من رقم (٣ - ١٠)، محمود شاكر. التاريخ الإسلامي بيروت: المكتب الإسلامي، (عدة مجلدات).

(٢) انظر سعيد عبدالفتاح عاشور. الحركة الصليبية، صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٦م) (جزءان)، عبدالحميد البطريق، وعبدالعزيز نوار. التاريخ الأوربي الحديث، من عصر النهضة إلى مؤتمر فينا بيروت: دار النهضة العربية، د.ت، ص ٤٣ وما بعدها، ف. بارتولد. تاريخ الحضارة الإسلامية. ترجمة حمزة طاهر (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٥م) ص ٣٥ وما بعدها.

(٣) لمزيد من الإيضاح عن الاستشراق والمستشرقين وكذلك الرحالة الغربيين، وبخاصة إلى جزيرة العرب، انظر مجموعة من الدراسات بعنوان: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية (الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) (جزءان)، عبدالرحمن بدوي. موسوعة المستشرقين (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٩م)، ص ٥ وما بعدها، جاكلين بيرين. اكتشاف جزيرة العرب: خمسة قرون من المغامرة والعلم، ترجمة قدري قلعجي (بيروت: دار الكتاب العربي، الرياض: منشورات الفاخرية، د.ت) ص ١٢ وما بعدها، كما انظر: مجموعة دراسات منشورة في كتاب: دراسات تاريخ الجزيرة العربية (الكتاب الأول) مصادر تاريخ الجزيرة العربية (الجزء الثاني) (الرياض: مطابع جامعة الرياض -الملك سعود حالياً- ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩م) ص ٤٢١ - ٤٨٤.

لاكتشافها، ومن يستقرئ عدد الرحالة الغربيين الذين بدأوا يفدون إليها منذ عصر النهضة الأوربية، يجد أن أعدادهم بالعشرات بل سوف يجد تباين مهماتهم وأهدافهم السياسية والحضارية التي جاؤوا من أجلها[1].

والكتاب الذي بين أيدينا، والموسوم: (جزيرة العرب الوهابيين) **(Arabia of Wahhabis)**، لهاري سانت جون فيلبي، أو (عبدالله فيلبي) كما عرف في المنطقة العربية، وأحياناً كان يدعى باسم (الحاج فيلبي)، يعد واحداً من أعمال ونتاج أولئك الرحالة الغربيين الذين وفدوا إلى بلاد العرب، وبخاصة الجزيرة العربية، خلال القرون المتأخرة الماضية، ولكن صاحب هذا الكتاب يختلف نوعاً ما عن بقية الرحالة الغربيين الآخرين، وذلك لعدة جوانب منها:

أولا: لا نستطيع التجاهل بأنه كان موظفاً وجاسوساً لحكومته بريطانيا، كي يقوم بدراس أحوال البلاد العربية، وبخاصة جزيرة العرب، وقد أقرب بذلك في مواطن عديدة من كتبه ودراساته، لكن وضعه كان أفضل من غيره من حيث الرعاية وتسهيل أموره خلال رحلاته، والفضل في ذلك يعود للملك عبدالعزيز ابن عبدالرحمن آل سعود، الذي التقى به فيلبي في الرياض ولأول مرة عام (١٣٣٦هـ/١٩١٧م)[2]. وقد استمرت صلات وعلاقة هذا الرحالة مع ابن سعود حوالي أربعين سنة، جاب خلالها معظم أنحاء الجزيرة العربية، ودون عنها عشرات الكتب والدراسات القيمة في محتوياتها العلمية، والتي يندر أن نجد ما يماثلها من حيث غزارة المعلومات، وعمقها، وتنوعها، وبخاصة في العقود الوسطى من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، ولا نبالغ إذا قلنا

---

(١) المراجع نفسها. للمزيد انظر: روبن بدول. الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية. ترجمة عبدالله آدم نصيف (الرياض: د. ن، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م) ص ٩ وما بعدها.

(٢) انظر التقدمة التي أوردناها عن فيلبي في بداية الجزء الأول من كتاب: مرتفعات الجزيرة العربية، والذي قامت مكتبة العبيكان بترجمته، وقمنا بمراجعته وتدقيق معلوماته، وتم نشره عام (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).

أن مؤلفات ودراسات هذا الرحالة تعد مصادر رئيسة وأساسية لا غنى عنها لأي باحث أو دارس للجزيرة العربية[١].

ثانياً: الدعم الذي كان يجده فيلبي من الملك عبدالعزيز، ونلمس ذلك إلى حد ما في هذا السفر الذي بين أيدينا، مع العلم أن معرفة فيلبي بالملك عبدالعزيز أثناء تدوين معلومات هذا الكتاب لا تزيد عن العام الواحد[٢]. ولو قورنت مؤلفات هذا الرحالة المتأخرة مع هذا الكتاب لوجدنه يذكر فيها بإسهاب ما كان يجده من دعم ورعاية من قبل الملك عبدالعزيز ورجال حكومته في أنحاء البلاد.

ثالثاً : معظم دراسات فيلبي قائمة على الرحلات والتجوال في نواحي الجزيرة العربية، وهذا بدون شك أمر صعب جداً لما يقابل من عقبات جغرافية، وسياسية، وأمنية، واقتصادية، واجتماعية. ولكن فيلبي تجاوز كل هذه العقبات بسبب رعاية وحماية الملك عبدالعزيز له[٣]، ثم صبر فيلبي وعزيمته، وكذلك سعة معارفه وثقافته وإتقانه اللغة العربية، بالإضافة إلى دبلوماسيته سواء مع الملك عبدالعزيز ورجال دولته، أو مع عامة الناس، كل هذه الأمور مجتمعة جعلته ينجح في جميع رحلاته، وبالتالي ترك لنا كنزاً معرفياً كبيراً أمثال هذا الكتاب الذي بين أيدينا وغيره[٤].

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن فيلبي ونشاطاته العلمية، انظر: حمد الجاسر. «فيلبي: رحلاته في البلاد العربية» مجلة العرب (١٤٠٩ - ١٤١٠هـ) مج (٤) ص ١٠٥ وما بعدها، جورج رنتز. «فيلبي مؤرخا للمملكة العربية السعودية» ترجمة حسين محمد الغامدي. مجلة الدرعية (السنة الأولى) عدد (٢) ١٤١٩هـ/١٩٩٨م).

(٢) كان أول مقابلة بين ابن سعود وفيلبي في عام (١٣٣٦هـ/١٩١٧م). ورحلة هذا الكتاب كانت في منتصف عام (١٣٣٧هـ/١٩١٨م).

(٣) لو لم يجد فيلبي الدعم والرعاية والحماية من الملك عبدالعزيز، لكان مثله مثل بقية الرحالة الذين جاؤوا إلى جزيرة العرب في عهود مختلفة، لكن ما حضي به من الملك ابن سعود، ثم رغبته واجتهاده في تدوين بعض المعارف جعلته يُخلف لنا كنزاً هائلاً من المعلومات، وبخاصة عن الجزيرة العربية.

(٤) للاطلاع على أسماء بعض كتب ودراسات فيلبي. انظر: غيثان بن علي بن جريس. صفحات من تاريخ عسير (الرياض. مطابع العبيكان، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م) الجزءان الأول والثاني، ص ٢٨٩ - ٢٩٢، وللمزيد انظر: p .٣ff Elizabeth Monroe. Philby of Arabia (Iondon, ١٩٧٣)

وهذا الكتاب الذي نحن بصدده: جزيرة العرب الوهابيين. (Arabia of the Wah-habis)، طبع لأول مرة بلغته الرئيسة (الانجليزية) في لندن عام (١٩٢٨م)، والكتاب يقع في (٣٩٥) صفحة من القطع المتوسط، وهذه الطبعة هي التي استخدمت أثناء ترجمته من الانجليزية إلى العربية والتي كتبت لها هذه المقدمة.

وهذه الدراسة عبارة عن رحلة لفيلبي مع ابن سعود أثناء خروجه من الرياض صوب حائل لمهاجمة ابن رشيد عام (١٣٣٧هـ / ١٩١٨م). وقد اجتاز هذا الرحالة العديد من المناطق والنواحي مثل: مرات، وشقراء، والمذنب، وبريدة، والزلفي حتى عاد إلى الكويت ثم بغداد[1].

ومن خلال مراجعتي وقراءتي لهذا الكتاب خرجت بعدد من الآراء والانطباعات التي أذكر منها:

١- قضى فيلبي عدة شهور خلال عام (١٣٣٧هـ/١٩١٨م)، لانجاز رحلته هذه التي دون معلوماتها بين دفتي هذا الكتاب، والتي مر خلالها على عدد من المواطن في منطقة الرياض وبلاد القصيم. ولا يعد هذا الرحالة أول من جاء هذه البلاد من الغربيين، بل سبقه إليها عدد من الرحالة أمثال: سادلر، ودأوتي، وشكسبير، وليتشمان، والكولونيل هملتون وغيرهم[2].

٢- ليست هذه الرحلة التي يحتويها هذا الكتاب أول رحلات فيلبي في جزيرة العرب، بل سبقها بعض الرحلات التي قام بها فيلبي في الحجاز وأجزاء أخرى من الجزيرة العربية. وجميع تلك الرحلات، وهذه الرحلة التي يشملها هذا الكتاب كانت لأهداف سياسية من صنع الحكومة البريطانية، والمنفذ لمفرداتها

(١) انظر تفصيلات فيلبي عن هذه المدن والحواضر في هذا الكتاب.

(٢) لمزيد من التوضيحات عن بعض الرحالة الذين جاؤوا إلى جزيرة العربي وبخاصة بلاد الرياض والقصيم قبل فيلبي، انظر: جاكلين بيري. اكتشاف جزيرة العرب، ص ١٣ وما بعدها، روبن بدول. الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ص ٨ وما بعدها.

هو سانت جون فيلبي. وقد التقى هذا الرحال بعدد من الشخصيات العربية أمثال: حكام الكويت، وابن سعود في نجد، والشريف في الحجاز، لكنه لم يعجب بأحد منهم سوى ابن سعود الذي ذكر في كثير من دراساته وكتبه مدى إعجابه بهذا القائد العربي، وبخاصة في ذكائه، وحنكته، ولطف معشره، وقدرته على التعامل مع الأمور والأشخاص حسب الظروف والملابسات التي يستوجبها كل موقف. وهذا الإعجاب من فيلبي نحو ابن سعود، وكذلك إدراك الملك عبدالعزيز بقدرات وإمكانات هذا الرحالة جعل الاثنين يتقاربان في وجهات النظر، وبالتالي تتكون بينهما علاقة صداقة وود حتى آثر فيلبي البقاء في جزيرة العربي نحو أربعة عقود من حياته، أثرى فيها المكتبة بمؤلفاته ودراساته القيمة عن جزيرة العربي، وبخاصة في عهد الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود.

٣- دقة هذه الرحالة في تدوين معلومات قيمة عن جغرافية وسكان مواطن عديدة في نجد والقصيم مثل: الأرطأوية (منبع الإخوان)، والزلفي، وبريدة، وعنيزة، والسر، والمذنب، وشقراء، ومرات، والرياض. ولم تكن هذه المعلومات مقتصرة على حملة ابن سعود العسكرية التي خرجت من الرياض تجاه ابن الرشيد في حائل، ولكنها شملت كثيراً من التفصيلات عن قضايا اجتماعية، واقتصادية، وأثرية، وفكرية وعلمية. والكتاب يقع في أربعة فصول، الأول: يدور في فلك الرياض. والثاني: يناقش مواطن عديدة بين الرياض والقصيم. والثالث: يرتكز في تفصيلاته على بلاد القصيم، وبخاصة مدينتي بريدة وعنيزة، وقد حظيت بلدة عنيزة بالنصيب الأوفر من شروحات فيلبي لأنه أقام فيها معظم وقت اقامته في القصيم بل ذكر بشكل واضح سهولة العيش فيها، وحسن المعشر والتعامل مع أهلها، بعكس مدينة بريدة التي وصف أهلها بالتعصب وصعوبة التعامل معهم. والفصل الرابع والأخير؛ ناقش فيه كثير من المعلومات عن

المنطقة الممتدة من بريدة حتى الكويت، أثناء خروجه من بلاد القصيم متجهاً إلى ممثل الحكومة البريطانية في بغداد.

٤- في في كثير من المواقع بهذا الكتاب يتضح جهل قبلي بالشعائر الدينية الإسلامية مثل: الصلاة، والصوم، وصلاة العيد، وصلاة التراويح ويغرها، وهو معذور في ذلك لأنه لازال حديث عهد على الجزيرة العربية، حتى لو أنه يقرأ ويكتب اللغة العربية. ومن يقرن أحاسيسه ومشاعره وفهمه للإسلام في هذا الكتاب، وفي كتب له أخرى متأخرة، مثل كتاب: مرتفعات الجزيرة العربية (١)(١) وغيره، يجد الفرق كبيراً حيث أصبح في كتبه المتأخرة أكثر فهما للدين الإسلامي وأركانه وممارساته بسبب اعتناقه الإسلام، وكذلك بقائه فترة طويلة بين ظهراني العربي المسلمين في الجزيرة العربية.

٥- يذكر فيلبي صراحة في صفحات كثيرة من الكتاب نظرة بعض السكان إليه، حيث كان البعض منهم يحتقره ويتجنب مقابلته أو مصافحته، أو الجلوس معه، أو الأكل والشرب معه في إناء واحد، لأنهم كانوا ينظرون إليه أنه كافر، أو نصراني. وكان يشعر بذلك، بل كان بعضهم يتذمرون من إخوانهم وأبناء بيني جلدتهم الذين يجالسونه أو يتعاونون معه في أي شيء. مع أن الملك عبدالعزيز وبعض أعيان ووجهاء المدن التي مر عليها كانوا لا يتأخرون في الجلوس والنقاش معه في قضايا وجوانب مختلفة، بل كانوا يشركونه في الكثير من جلساتهم وموائدهم، وأحياناً يسألونه في أمور ونواحي علمية وفكرية في العالم آنذاك.

٦- وقوع هذه الرحالة في عدد من العبارات والمصطلحات الخاطئة التي كثيراً ما يقع فيها الرحالة والمستشرقون أمثاله، وبخاصة في قيام الحكومات السعودية

(١) الفرق الزمني بين الرحلتين التي قام بها فيلبي في كتابيه: جزيرة العرب والوهابيين، ومرتفعات الجزيرة العربية، حوالي عشرين سنة، حيث كانت رحلته لإنجاز الكتاب الثاني (مرتفعات .....) في عام (١٩٣٦م/١٩٥٦م).

على إثر دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، فتجده أحياناً يقول: (الحكم الوهابي) أو (المذهب الوهابي) أو(الوهابيون) أو ما شابه هذه المصطلح. فهو يطلق مثل هذه الكلمان، وكأن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب مذهب عقدي مميز بصفات معينة، وليست في الأساس إلا دعوة إسلامية تنادي بما جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

٧- من مميزات فيلبي في هذا الكتاب ومعظم دراسته أنه يدور معلوماته بدقة ووضوح، وفي حالة عدم تأكده من بعض الجوانب الفكرية أو الإحصائية فإنه يورد كلمات تدل على عدم تأكده مما دون مثل مفردات (ربما) أو(أحيانا) أو(من المحتمل) أو(تقريبا) أو(حوالي)، وهذه بشكل عام قليلة في الكتاب، إذا ما قورنت بمستوى وضوحه ودقته في إيراد معلوماته وتفصيلاته.

كما أن من عيوب هذه الرحالة أنه يسترد أحياناً في تفصيل بعض الجوانب العلمية بشكل جيد، ثم يعرض له بعض الأوقات مشاهدة أمر ما، فيترك صلب الموضوع ويتحدث عن هذا الشيء العارض، وعندما ينتهي من الحديث في ما عرض له يعود إلى الموضوع الرئيس الذي كان يتحدث فيه. وهذه الطريقة قد تشتت القارئ ويصاب ببعض الاضطرابات والصعوبة أحياناً في متابعة وحدة الموضوع وتسلسله. ومثل هذه الصفة لا ترد بكثرة في الكتاب، ولكنها موجودة أحياناً، وتعد من السلبيات التي تؤخذ على هذا الرحالة القدير.

٨- ذكر فيلبي تنبآته عن مستقبل الجزيرة العربية، وكيف سوف تصبح بلاداً متطورة تحت رعاية ابن سعود. ومثل هذه الأقوال كان يطلقها هذا الرحالة في مواطن عديدة من هذه الدراسة، ويستند في أقواله على ما يشاهده على الأرض من تحركات سياسية بين القوى المتصارعة، وما جمع من معلومات وانطباعات عن قادة الجزيرة العربية آنذاك، والذي يعد ابن سعود أفضلهم وأكثرهم واقعية في التعامل مع الأحداث الداخلية والخارجية. وقد عبر فيلبي

عن سير الجزيرة العربية في تطورها، وبخاصة بعد دخول الحجاز تحت نفوذ ابن سعود عام (١٣٤٥هـ/١٩٢٦م)، فقال: «إنه بحلول ذلك الوقت كانت الجزيرة العربية القديمة التي عرفها دأوتي والتي رأيتها بنفسي قد زالت، فقامت الجزيرة العربية الجديدة من الآن فصاعداً عملاقاً متجدد القوى جارياً في دربه»[١].

٩- كان فيلبي في رحلته هذه من الرياض إلى القصيم قد أفادنا في تدوين معلومات قيمة ومتنوعة، ويصعب أحياناً أن نجد في أي مصدر آخر كثيراً مما دونه في ذلك العام (١٣٣٧هـ/١٩١٨م)، وكان يطمح أن يواصل رحلته في بعض النواحي الشمالية كبلاد حائل وغيرها، لكن الظروف السياسية حالت استمراره، وقد أشار إلى أقصى نقطة وصلها من ناحية الشمال في أرض القصيم، فقال: «هذه القصيباء أبعد نقطة شمالية من القصيم، والحد الشمالي لجولاتي وأسفاري في الجزيرة العربية في هذا الوقت»[٢].

أما طريقتنا في مراجعة وتحقيق وتدقيق معلومات هذا الكتاب في نصه العربي، فقد سلكنا عدة طرق نذكر منها:

أ- تم قراءة النص العربي ومطابقته مع النص الإنجليزي للتأكد من نطق بعض المصطلحات والمواقع والشخصيات. وكي نتأكد أحياناً من الأسماء الصحيحة لكثير من المواقع التي مر عليها فيلبي، وكذلك من الأشخاص الذين قابلهم أثناء رحلته، فقد اضطررنا الرجوع إلى حوالي (١٥١) مصدراً ومرجعاً ناقشت تاريخ وحضارة هذه البلاد التي مر عليها هذا الرحالة بين بلاد الرياض والقصيم.

(١) انظر صفحة (٣٤٤) من هذا الكتاب. وما كان يتنبأ به فيلبي أصبح حقيقة، حيث وحد ابن سعود شتات معظم الجزيرة العربية تحت راية واحدة، ثم مضى بها قدماً، وجاء أولاده من بعده فصاروا على نهجه حتى صارت المملكة العربية السعودية من الدول المرموقة محلياً وإقليمياً وعالمياً.

(٢) انظر صفحة (٣٦٢) من هذا الكتاب. وبالتالي فهو شاهد في رحلته هذه البلاد الممتدة من الرياض حتى حدود منطقة حائل، ثم المنطقة الصحراوية الممتدة من القصيم حتى الكويت. (ابن جريس).

وقد دونا جميع هذه المصادر التي استعنا بها في نهاية هذا الكتاب مع إيراد جميع معلومات الطباعة والنشر عن كل كتب تم استخدامه. كما دونا في حواشي صفحات الكتاب جميع ملاحظاتنا وتصوراتنا مع إيراد المصادر والمراجع التي رجعنا إليها. وغالباً نورد اسم المصدر أو المرجع كاملاً لأول مرة يرد معنا في الحاشية، ثم إذا تكرر استخدامنا لهذا المرجع أو المصدر فنذكره باختصار.

ب- جميع التصويبات أو التعليقات التي أوردناها في حواشي الصفحات نوثقها من مصادرها ومراجعها، ثم نضع في نهاية كل حاشية كلمة (ابن جريس)، دلالة على أنها من عمل المحقق والمراجع، وأحياناً يكون في أصل الكتاب تعليقات للمؤلف، فنضع في نهاية أمثال تلك التعليقات كلمة (فيلبي) دلالة على أنها من عمل المؤلف، وقد يجري المحقق بعض التعديلات والإضافات على تلك المعلومات فيوضع بين قوسين كلمتي (فيلبي + ابن جريس)، كي نوضع أنها من عمل الاثنين.

جـ - وجدنا في الأصل بعض الخطوط والأشكال لبعض الزخارف المعمارية أو الآبار، أو الرسومات أو ما شابهها، كما وجدنا خريطة لبريدة وبعد استقراء تلك النماذج وجدنا عدم أهميتها العلمية، وبخاصة بعض الزخارف والرسومات الجدارية، كذلك عدم وضوح الخريطة أو المخطط الخاص ببريدة، لهذا تم استبعادها في النسخة العربية والاكتفاء بالإشارة إلى هذه الملاحظة لمن يرغب الاطلاع عليها في الأصل.

د- وجدنا (٢٩) صورة فوتغرافية متناثرة بين صفحات الكتاب، فجمعناها في مكان واحد بنهاية الكتاب، مع إيراد فهرس سابق لتلك الصور، موضحين في الفهرس أرقامها وعناوينها.

هـ- تم إيراد هذا التقديم في أول الكتاب مع ترحيل محتويات الكتاب العامة لتكون في هاية الدراسة بدلاً من البداية، وبالتالي يكون الكتاب مرتباً بفصوله الأربعة، ثم ملاحقه الثلاثة، فالصور الفوتغرافية وفهرسها، ثم قائمة المصادر والمراجع

التي رجعنا إليها أثناء مراجعة الكتاب، وأخيراً الفهارس العامة ثم فهرس محتويات الكتاب.

وفي الختام فإنني أشكر القائمين على مكتبة العبيكان الذين بذلوا الغالي والرخيص في خدمة العلم والفكر، ونقلوا علوماً كثيرة من لغاتها الأصلية إلى لغتنا العربية أمثال هذا الكتاب وغيره من المعارف والعلوم. وأسأل المولى عز وجل أن يجزيهم خير الجزاء وأن يغفر لنا ولهم، وأن يجعل أعمالنا وأعمالهم خالصة لوجهه الكريم، كما أسأله السداد والتوفيق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على رسوله الأمين.

غيثان بن علي بن عبدالله بن جريس

أبها - السعودية

مقدمة هذه الطبعة

إن كتاب جزيرة العرب الوهابيين يُعد في الواقع المجلد الثالث من كتاب هاري سانت جون فيلبي: قلب الجزيرة العربية، الذي نُشر منذ ستة أعوام خلت. فهو يستأنف ويستكمل الوصف الذي أورده في الكتاب السابق لجولاته ورحلاته وتجاربه في الجزيرة العربية بين عامي (١٩١٧م) و(١٩١٨م) عندما أُرسل بصفته موظفاً سياسياً بريطانياً إلى عبدالعزيز بن سعود، أمير نجد. وعلى الرغم من أن المدة الزمنية التي يغطيها الكتاب قصيرة من يونيو حتى أكتوبر (١٩١٨) إلا أنها تمثل المرحلة الحساسة والنهائية في مهمة فيلبي السياسية، التي بدأت في أكتوبر (١٩١٧) عندما بُعث لإقناع بن سعود بالتصرف سلمياً نحو الشريف حسين بمكة، الزعيم الروحي للثورة العربية ضد الأتراك، وأن يبدأ القتال ضد جاره الشمالي، الموالي للأتراك، أمير حائل، ابن رشيد[1].

إن كثيراً من وصف فيلبي قد استحوذت عليه الاستعدادات للحملة العسكرية ضد بن رشيد، وتجميع وحشد القبائل، وزحف القوات السعودية صوب الشمال عبر

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن أحوال الجزيرة العربية عام (١٣٣٦هـ/١٩١٧م) وعن أوضاع القوى السياسية المتصارعة فيها، وموقف بريطانيا من تلك الصراعات، انظر: فتوح عبدالمحسن الخترش. تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية (١٨٩٠ - ١٩٢١م) (الكويت، د.ن، ١٩٧٤م)، ص ٩١ وما بعدها، خالد محمود السعدون. العلاقات بين نجد والكويت (١٣١٩ - ١٣٤١هـ/١٩٠٢ - ١٩٢٢م) (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص ١٩٦ - ٢٨٥، محمود شاكر. شبه الجزيرة العربية: نجد (بيروت: المكتب الاسلامي، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، ص ٢٠٧ وما بعدها). ج. ج لوريمر. تاريخ البلاد السعودية في دليل الخليج: جمع وتعليق محمد الخضيري (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ص ٥٢٩ - ٥٣٧، ٥٤٩ - ٥٥١ (ابن جريس).

القصيم في أغسطس (١٩١٨)، لقد كانت هذه أول مرة تقع فيها عيني فيلبي على القصيم، المنطقة الخصبة (حسب الأوصاف العربية على الأقل) الواقعة بين نجد وجبل شمر، وقد سجّل باهتمام شديد انطباعاته عن هذه المنطقة، وسكانها ومدينتيها الرئيستين (بريدة وعنيزة)[1]. ولم يكن هناك في خطة فيلبي سوى القليل من الوصف المفصل لفشل غزوة بن سعود ضد حائل، الشيء الذي لم يرد فيلبي أن يُسلّم بمداه الكامل. وانطباعاته عن النهاية غير الحاسمة لمهمته لم تكن أيضاً سعيدة بالقدر نفسه، وهذا ناتج بصورة كبرى عن تردده في الاعتراف بأن الأحداث التي وقعت في أماكن أخرى قد جردتها من أهميتها الأصلية. فقد استولى جيش ألنبي (Allenby) على دمشق، ووضعت الحرب ضد تركيا أوزارها، كما قلّ وضع ابن سعود في عيون البريطانيين بالتالي.

لقد أنهى فيلبي كتابة هذا الكتاب: **جزيرة العرب الوهابيين** في جدة، التي أقام فيها منذ استقالته من الخدمة السياسية الهندية في (١٩٢٥م)، هذه الاستقالة التي جاءت نتيجة استيائه وإحباط طموحاته. وعلى الرغم من ذلك كانت هناك بعض المواساة له عندما أدرك أن مرور الزمن قد برر تقديره لشخصية ابن سعود وقدراته، الذي أصبح الآن حاكماً للجزيرة العربية من البحر إلى البحر، والتي ذكرها صراحة قبل ذلك بستة أعوام في أول كتابين من ثلاثيته الرائعة عن قلب الجزيرة العربية.

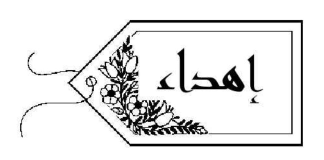
جي. بي. كيلي

(J.B. Kelly)

(١٩٧٧م)

---

(١) بريدة وعنيزة تعدان أهم مدن القصيم، إلا أنه لازالت هناك مدن أخرى رئيسة ومهمة مثل: الرس، والزلفي، والمذنب، والربيعية وغيرها (ابن جريس).



إلى

فيلومينا

صديقي وليس صديق الصدفة

تتعثر خطواته على الشاطئ المهجور

حتى جعله الخوف يحيد، وأخشى أن

يكون قد ضل طريقه بالفعل وأن أكون

قد تأخرت في النهوض لنجدته، وذلك

لما سمعته عنه في السماوات العُلَى[١]

دانتي

---

(١) هذه العبارة غير سليمة في الصياغة، وبخاصة من الناحية الشرعية لأنه لا يعلم ما في السعوات العلى إلاّ اللّه عز شأنه، أما الإنسان فإن قدرته محدودة لمعرفة أو سماع ما في سموات رب العالمين. والغربيون يستعملون مثل هذه العبارات التي لا تتفق معها نصوص الكتاب والسنة (ابن جريس).

المقدمة

هذا الكتاب يواصل ويكمل سجل إقامتي المؤقتة في الجزيرة العربية بين عامي (١٩١٧م) و (١٩١٨م). وبالتالي فهو في الحقيقة يمثل الكتاب الثالث من سلسلة: **قلب الجزيرة العربية**، ومع ذينك الكتابين من السلسلة يمكن للمرء على كل حال أن يقدم صورة لجزيرة العرب عند نهاية حقبة محددة تماماً من تطورها.

لقد كنت ـ على ما أظن ـ آخر أوروبي على الإطلاق يقيم إقامة مؤقتة في جزيرة العرب الوهابيين قبل أن تُدنّس مساحات صحرائها السيارات، التي ظهرت لأول مرة في مناطق ابن سعود بعد سنة من رحيلي[١]. وكان هذا الغزو متردداً وخجولاً في البداية، ولكن النقل بالسيارات غدا الآن عاملاً معترفاً به في حياة العرب[٢]. وسوف يزداد هذا الأمر بصورة أكبر في المستقبل، كما ستفقد جزيرة العرب ببطء ولكن بالتأكيد ذلك الجو من الغموض الذي فتن كثيراً من الناس وجذبهم إلى صحاريها[٣].

---

(١) ربما هذه مبالغة من فيلبي، لأنه كان هناك بعض الأوربيين غيره كانوا يعملون في مهام مختلفة داخل الجزيرة العربية (ابن جريس).

(٢) كان الجمل هو الوسيلة الرئيسة التي يستخدمها سكان جزيرة العرب، بالإضافة إلى بعض الوسائل الأخرى كالحمير، والبغال وما شابهها. للمزيد انظر: جواد علي. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (بغداد: جامعة بغداد، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م) حـ٣، ١١١ – ١١٧ (ابن جريس).

(٣) من يرتاد جزيرة العرب اليوم، وبخاصة المملكة العربية السعودية، فإنه يلاحظ ما تنبأ به فيلبي، بل أصبح الأمر أكثر مما يتوقع الإنسان من التقدم والتطور في مجالات الحياة؛ وتوفر جميع وسائل المواصلات الحديثة. (ابن جريس).

اندلعت الحرب الكبرى وشبه الجزيرة الصحراوية لا تزال غارقة في سبات من مرحلة التأسيس القبلي، وأهلها يرزحون تحت حياة البداوة التي فرضتها عليهم ظروف بلدهم الطبيعية. لقد أحدث القدوم المتقطع للبندقية عالية السرعة صدمة لنظامها الرعوي واستلزم بعض التعديل في طريقة ممارسة الحروب الأهلية الداخلية. بيد أن هذه التغيرات كانت طفيفة بدرجة يصعب معها ملاحظتها وإدراكها.

إن جزيرة العرب التي رأيتها خلال تلك الفترة كانت في جميع الأمور الجوهرية هي نفسها جزيرة العرب التي رآها داوتي (Daughty) ونيبور (Niebuhr) واليوم أضحت جزيرة العرب بلداً مختلفاً تماماً.

إن عمليات لورانس (Lawrence) [(١)] في الشمال ربما هي التي أيقظت العرب من نومهم الطويل للمشاركة، مثل عملاق انتفض ـ في سباق العالم الحديث. ولكن، مهما يكن من أمر فمن المفترض علينا تماماً أن ندرك أن مجموعة المبادئ والمعايير التي اعتدنا أن نحكم بها سابقاً على الأحداث العربية وميول العرب لم تعد واقعية. ومهما بدا هذا غريباً، فقد أصبحت جزيرة العرب الوهابيين بالفعل راسخة تقريباً بين منظومة الدول المتعاونة في العالم[(٢)].

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن نيبور وداوني ولورنس وغيرهم من الأوربيين الذي قدموا إلى جزيرة العرب في فترات وحقب مختلفة، انظر: جاكلين بيرين. اكتشاف جزيرة العرب: خمسة قرون ما المغامرة والعلم. ترجمة قدري قلعجي (بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت) ص ٢٢ وما بعدها؛ روبن بدول. الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية. ترجمة عبدالله آدم نصيف (الرياض: د.ت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م) ١٤ وما بعدها؛ انتوني ناتنغ، يويل ثوماس. لورنس لغز الغزيرة العربية (بيروت: مكتبة المعارف للطباعة والنشر، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ص ٢٧ وما بعدها (ابن جريس).

(٢) وهذا بتوفيق الله عز وجل، ثم الجهود الجبارة التي بذلها الملك عبدالعزيز لإخراج البلاد من الفوضى التي كانت ضاربة أطنابها في كل مكان، حتى وصلت إلى المستوى الذي ذكره فيلبي، وإلى ما نشاهده في وقتنا الحالي. للمزيد انظر: بدر بن عادل. عناصر القوة في توحيد المملكة العربية السعودية: دراسة تحليلية في الجغرافيا السياسية. (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ص ٣٣ وما بعدها، فان درمولين. الملك ابن سعود والجزيرة العربية الناهضة. ترجمة ويسي. أي. س (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ص ٤١ وما بعدها. محمد محمد السرياني. ملامح التحضر في المملكة العربية السعودية (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، ١٤١٢هـ) (ابن جريس).

إن الخطوات القليلة، الوجيزة والحاسمة، التي أدت إلى هذا التحول سوف تحتاج يوماً ما إلى اهتمام المؤرخين. وقد يفيد هذا الكتاب كمقدمة لتلك القصة المثيرة؛ ففيه يرتفع الستار عن أول مشهد غير هام من الأحداث المتلاطمة العنيفة التي قُدّر لها أن تتوج في الثامن من يناير (١٩١٦م) العاهل الوهابي في المسجد الحرام بمكة ملكاً على الحجاز(١).

لقد كان الهجوم الأول على حائل في سبتمبر (١٩١٨م) فاشلاً؛ إن لم يكن إخفاقاً ذريعاً، بيد أنه أسلم ابن سعود إلى سياسة التوسع الملكي الضخم. فلقد طرح الحذر جانباً وتحدى أشد منافسيه خطورة، فالأمر يخضع في النهاية لمشيئة الله، ولم يعرف ابن سعود أبداً في حياته الوظيفية الطويلة المليئة بالتقدم المطرد الحيرة أو الشكوك فيما كان يقوم به من أعمال، ومع ذلك فليس هناك عمل واحد قام به له الأثر عليه مثل هذه الأحداث في تحقيق المجد النهائي(٢). وهذا الكتاب سجلٌ للشهور والأسابيع الحبلى بالتوقعات السابقة مباشرة للمغامرة التي قلبت الموازين.

إن التأخر الطويل في نشر هذا الكتاب، الذي ترجع بدايته إلى أغسطس (١٩٢٠م)، يعود بصورة أساسية إلى انشغال الناشرين لأعمالي، اللذين لم يلحا عليّ أبداً للتحول من الأنشطة الممتعة بسنوات ما بعد الحرب إلى مذكراتي اليومية عن الأحداث الماضية. ولهم واجب شكري وعرفاني لمثل هذه المراعاة لشعور

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن دخول الملك عبدالعزيز إلى الحجاز وضمها تحت نفوذه، انظر: عبدالله الصالح العثيمين. تاريخ المملكة العربية السعودية (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) جـ٢ ص ١٧٣ - ٢٠١، محمد شاكر، نجد، ص ٢٠٧ وما بعدها (ابن جريس).

(٢) هناك أعمال كثيرة أنجزها الملك عبدالعزيز قبل ضم الحجاز وبعد، وللمزيد، انظر: عبدالواحد محمد راغب. نجد الرياض: دراسة تاريخية (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، لوريمر، ص ٤٨١ وما بعدها، عبدالله الشهيل. فترة تأسيس الدولة السعودية المعاصرة (١٣٣٣ - ١٣٥١هـ/١٩١٥ - ١٩٣٢م) (دراسة تاريخية) الرياض: دار الوطن، د.ت) ص ٤٢ وما بعدها. (ابن جريس).

الآخـريـن، التـي آتـت ثـمـارهـا بـســرور؛ ذلـك لأن الأحـداث فـي السنوات الأخـيـرة قـد بررت كثيراً التقدير لشخصية ابن سعود وقدراته التي جازفت بوصفها في كتبي السابقة[١].

ويوفر لي الكتاب الحالي فرصة لشد انتباه القارئ إلى جزأية من التنبؤ وردت في المجلد الأول من سلسلة: **قلب الجـزيرة العـربيـة**، فقـد قلت:[٢] «إن أحـداث العـام التالي قد جعلتني أندم بحسرة على أن الظروف لم تسمح بإقامة أطول كي أفحص عن قُرب قرية (الخرمة) التي قُدّر لها ـ على الرغم من كل بساطتها الظاهرة ـ أن تـأخذ نـصيبها المحتوم في صنع التاريخ، وربما كانت بحق المقبرة الأرضية لمبدأ وحدة العـرب المثـاليـة وربما، من يدري؟ تكون السندان الذي سوف يُطرق عليه هذا المثـال المـرتجى ليصبح حقيقة واقعة. وإذا لم تكن الوحدة العربية مثالاً خيالياً، فمن خلال ابن سعود وحده سوف يتحقق ذلك الأمل، وعلى العرب أنفسهم أن يواجهوا أقدارهم».

إن نظام كتابة الأسماء العربية بحروف إنجليزية في هذا الكتاب يلتزم تقريباً بالطريقة التي حددتها اللجنة الدائمة للأسماء الجغرافية التي أنشأتها الجمعية الجغرافية الملكية في (١٩٢٠م)، ومع ذلك لم أستطع أن أجبر نفسي على تشبيه حرف اللام في أداة التعريف العربية بالحرف الأول من الكلمة المضافة إليها، في الحالات التي يقع فيها هذا التشبيه خلال النطق، وكنت دائماً أكتب هذه الأداة بحرفي ال. وفي نواح أخرى التزمت بنظام اللجنة الدائمة للأسماء الجغرافية دون الاستفادة من حرفي (e) و (o) اللذين تسمح بهما في بعض الحالات كبديلين عن حرفي (a) و (u).

---

(١) نلاحظ فيلبي كان يتنبأ في كتبه المجد والتطور والنصر الذي سوف يجنيه ابن سعود، وفعلاً حصل ما كان متوقعاً، وهذا ما يقصده فيلبي في هذه العبارات وما شابهها في العديد من كتبه ودراساته (ابن جريس).

(٢) قلب الجزيرة العربية، المجلد الأول، ص ١٦٧ – ١٦٨. (فيلبي).

والخريطة الواردة في نهاية الكتاب هي طبق الأصل للخريطة العالمية مقياس مليون[١]، شمال ج، ٣٨، الرياض، التي سمحت لي وزارة الحرب باستخدامها ولها أدين بالعرفان عن ذلك. أما مخطط بريدة فقد أعده موظفو الرسم في الجمعية الجغرافية الملكية، التي يجب عليّ أن أشكرها لسماحها بإعادة نسخها[٢]، وأخيراً، فإن الأشكال والرسومات البيانية التي توضح المظاهر المعمارية والمعالم الأخرى في الحياة العربية قد أعدّها من رسوماتي التقريبية ومذكراتي الشخصية إبني[٣]، اتش. آيه. آر. فيلبي (H.A.R.Phillby)، الباحث في كلية وستمنستر.

جدة في الأول من أغسطس (١٩٢٨م)

(١) هذه الخريطة لم نوردها في النسخة العربية لعدم وضوحها (ابن جريس).

(٢) خريطة بريدة يظهر عليها عدم الوضوح أيضاً، ولهذا تم استبعادها تماماً في النسخة العربية. (ابن جريس).

(٣) بعد الاطلاع على الأشكال والرسومات البيانية التي في النسخة الأصل (الإنجليزية) رأينا عدم جدواها، فقمنا باستبعادها، وأبقينا على الصور الفوتوغرافية التي جمعناها من صفحات الكتاب المتفرقة، لتكون في مكان واحدة بنهاية الكتاب في نسخته العربية. (ابن جريس).

الفصل الأول

الرياض في منتصف الصيف

١- الصوم العظيم في رمضان

٢- نُذُر وتحركات

الفصل الأول

الرياض في منتصف الصيف

١ـ صوم رمضان الكريم

لقد كان في اليوم الرابع والعشرين من شهر يونيو عام (١٩١٨م)، أن دخلنا العاصمة الوهابية مرة أخرى عند عودتنا من الجنوب، وكان هو اليوم الخامس عشر طبقاً للحساب الرسمي من شهر رمضان؛ لأن الهلال الجديد قد شوهد في القصيم قبل أن نراه بليلة في مرتفعات طويق حيث تم تعديل التقويم الوهابي حسب فتوى من السلطات الدينية[١]. ولم يمض من شهر التوبة إلا نصفه، وينظر أهل الرياض المنهكون إلى ما لاقوه من عنت في الأسبوعين الماضيين معتبرين إياها مقياساً لما سوف يعانون منه، فالحق أن الأسوأ لم يأت بعد، إذ إن (لدغة) رمضان تأتي في آخره في الجزيرة العربية[٢].

وذات مرة من عهد بعيدٍ جاء شهر رمضان في هجير أيام منتصف الصيف، وكان المسلم الورع أينما وجد عليه أن يشمر عن ساعديه ليواجه، بكل ما أوتي من قوة التحرر من الانفعال السلبي أو الإيجابي، صعوبة الاختبار القاسية في تجربة لم يُقصد منها ربما أبداً أن تكون أكثر من مجرد اختبار معقول لمعتنقي الدين الحق

(١) المؤسسات الدينية وبخاصة مجلس القضاء الأعلى هو المسؤول عن الإعلان عن مواعيد الأعياد، وبداية رمضان، والحج الأكبر. للمزيد، انظر: عبدالله بن محمد بن عائض الزهراني. تاريخ القضاء والقضاة في العهد السعودي (مكة المكرمة، مطابع بهادر، ١٤١٩هـ) حـ١، ص ١٢ - ٩٥ (لابن جريس).

(٢) هذه وجهة نظر فيلبي، أما الصوم في الجزيرة العربية فيتقبله الناس بصدر رحب لما جبلوا عليه من التدين والطاعة لله عز وجل. أما الجو فهو يختلف من مكان لآخر، والمناطق الحارة مثل الرياض وغيرها قد تكون أشد على الصائمين من غيرها. (ابن جريس).

تحت الظروف السائدة في وقت ابتدائها من قبل الرسول (صلى الله عليه وسلم)[١] المُعلِّم. لقد كان شهراً من شهور الشتاء[٢] أن اختاره الرسول (صلى الله عليه وسلم)[٣] ربما عن عدم اهتمام بالعيوب المتأصلة في التقويم القمري ليكون أول رمضان، وعلاوة على ذلك فقد سنّ هذا للجزيرة العربية، وربما لم يضع في باله أن ما سنّه سوف يتجاوز حدودها على الإطلاق[٤]، ولكن من المؤكد أنه كان يجهل أن فترة النهار تختلف باختلاف خطوط الطول. ولقد سألت ذات مرة ابن سعود عندما كان يشتكي من قسوة الامتحان في مثل هذا الفصل من السنة حيث قلت: ماذا كنت ستفعل إذا كنت في القطب الشمالي، حيث لا تغرب الشمس في هذا الفصل أبداً؟ ولبرهة نظر إليّ باستنكار ظاناً أنني قد تجرأت على المزح على حساب الإسلام، ولكن عندما وجدني جاداً استشهد بالكتاب الكريم كدليل كاف على شروق الشمس وغروبها يومياً في العالم كله. واستطرد قائلاً: «ولكن إذا وجد المسلم الحق نفسه خلال هذا الشهر في مكان لا تغرب فيه الشمس، فعليه أن يصوم اثنتي عشرة ساعة من كل أربعٍ وعشرين، ويعتبر الاثنتي عشرة ساعة الباقية كما لو كانت ساعات الليل". يبدو أن هذا الحل للمشكلة يتوافق بصعوبة مع التفسير الحرفي للأحكام القرآنية[٥]، ولا أعرف كيف سيتعامل معها علماء الدين البارزون، ولكن ابن سعود، الذي كان ضالعاً في الأمور المتعلقة بالدين، كان قانعاً بقصر فضوله وحب اطلاعه على الموضوعات التي تقع في حدود إدراكه.

---

(١) عبارة (صلى الله عليه وسلم) إضافة من المراجع (ابن جريس).

(٢) ديسمبر (٦٢٣م). انظر: حياة محمد، للسير موير (Sirw. Muir) ص ١٩٢ - ١٩٣. (فيلبي).

(٣) عبارة (صلى الله عليه وسلم) إضافة من المراجع. (ابن جريس).

(٤) لقد أخطأ فيلبي في شروحاته هنا لمفهوم شهر رمضان، فالذي فرض الصوم على المسلم هو الله (عز وجل وليس الرسول (صلى الله عليه وسلم). كما أن الصوم وغيره من العبادات مفروضة على كل المسلمين داخل الجزيرة العربية وخارجها، ثم إن دين الإسلام هو لعموم سكان الأرض. وما يذكر فيلبي هنا من أقوال ليس غريباً من المستشرقين فقد قالوا روايات وافتراءات كثيرة على الإسلام وشرائهم وعلى عبادات المسلمين. ومن يرجع إلى دراساتهم المختلفة فإنه سوف يجدها مليئة بهذه المغالطات. (ابن جريس).

(٥) ليس لفيلبي الحق أن يفتي بما لا يعلم، وبخاصة في قضايا الشرع والأحكام الفقهية. (ابن جريس).

وكان بين الفينة والأخرى يُوجِّه إليّ أسئلة واستفسارات تتعلق بمختلف دول العالم. وكان وضع الأمراء الهنود وظروفهم المادية هما موضوعه المفضل، وعلاقاتنا مع أفغانستان موضوعاً مفضلاً هو الآخر، وكرم البريطانيين مع ملك الحجاز كان مصدراً دائماً لعدم الارتياح، ولكنه أحياناً قد يذهب في السؤال بعيداً. فذات مرة، عندما كان أحمد بن ثنيان حاضراً، سألني: ماذا كانت لغة الأمريكان؟ فقلت له أن لغتهم هي الإنجليزية. فقال : «كيف يكون ذلك هل هم من أصل إنجليزي؟ كنت أظن أنهم من أصل هندي». وشرحت له من هم الهنود الحمر وعبارة وست إنديز West Indies أي جزر الكاريبي رداً على سؤاله، ثم سألته إن كان الأمريكيون قد ذكروا في القرآن. فقال أحمد بلا تردد «نعم» وتدخل ابن سعود لإنقاذه عندما قلت إن (العالم الجديد) لم يكن قد اكتشف بعد زمن محمد ﷺ. وقال : «ولكن الله يعلم كل شيء» و «أن القرآن هو كلمته». وكان هذا مصدراً للاضطراب إلى حد، ما حيث لم أستطع أن أخفي حيرتي إلا بقولي إن الله لن يكشف بالضرورة كل علمه لذوات فانية. وتعلق أحمد بهذه القشة بصورة ذكية، واعترف أن أمريكا لم يرد ذكرها صراحة، واستشهد بنص غامض ولكنه شامل كدليل غير مشكوك فيه يهدف إلى شمول جميع الدول التي لم تكن معروفة للعالم في تلك الأيام. واندفعت فوراً في نصب شرك آخر، وسألته : «هل تعلم أنك تستطيع أن تصل إلى أمريكا إذا سافرت غرباً أو شرقاً؟» وهنا أصيب ابن سعود بالحيرة، ولكن احمد ذكرّه «بكرية» أي كروية الأرض. ولم يكن ذلك كافياً لإقناعه بكمال قواي العقلية. وعندها أكدت له أنه بالسفر شرقاً أو غرباً حول العالم فسوف يأتي مرة أخرى إلى نقطة الانطلاق التي بدأ منها دون أن يرجع من حيث أتى. فقال بصوت عالٍ: "والله لن أرهق ذهني بمثل هذا التفكير، لأن عندي ما يكفي من العمل لحكم هذا البلد بعدالة وورع خوفاً من الله إلى أن يحين أجلي. من المؤكد أنه لا يوجد فرق بين البشر والحيوانات، إلا أن البشر لديهم رؤية واعية عن الإله والدين ومستقبل الحياة، أما فيما عدا ذلك فهم متشابهون، ولهم

أعين، وأنوف، وأفواه، وأسنان، وأطراف، وكلهم يأكلون ويشربون ويتزوجون وينامون ويستيقظون بنفس الطريقة». وسألته، «هل رأيت قرداً قط؟" فردّ قائلاً: «لا» ، «ولكن ذات مرة في الكويت رأيت قطاً فارسياً». بيد أن أحمد ، على كل حال، قد شاهد القرود في حديقة الحيوان بالقاهرة، واتفق معي على أنها تحمل قدراً ملحوظاً من التشابه البدني مع الإنسان، وهكذا انتقلنا للحديث عن مصر وأمجادها الماضية، وعن الأهرامات العظيمة وما شاكلها(١).

مثلما يكون "عيد الفصح" لليهود، ومثلما يكون الصوم الكبير (Lent) للمسيحيين، و "محرم" للشيعة، و "الحج الأكبر" لأهل السنة، فهكذا يكون "رمضان" للوهابيين، موسماً لا يعلى عليه في إظهار صدق عقيدتهم بشكل عام(٢). فمن شروق الشمس حتى غروبها لا يجوز لأحد أن يأكل أو يشرب أو يمارس جماعاً جنسياً، والتدخين بالطبع محرمٌ في جميع الأوقات على الوهابيين، والمشروبات الكحولية لا مكان لها بينهم ومع ذلك، فهم في هذه الأمور يشتركون مع إخوانهم المسلمين من جميع المذاهب، ولو بصورة رمزية على الأقل(٣). ويختلفون عن الآخرين في التزامهم الصارم بالعقيدة، التي يقر بها أقرانهم ولكنهم لا يتبعونها دائماً، ويختلفون أيضاً في

---

(١) هذا النقاش من الملك عبدالعزيز مع فيلبي يدل على بعد نظره، وحبه للاستزادة من المعارف والعلوم عن العالم المعاصر آنذاك. وللمزيد عن شخصية الملك عبدالعزيز وحنكته، انظر: عبدالله بن عبدالمحسن التركي. الملك عبدالعزيز أمة في رجل (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ص ٢٦ وما بعدها، إبراهيم بن عبدالله السماري. الملك عبدالعزيز الشخصية والقيادة (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ص ٢٣ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) ربما جهل فيلبي بمكانة رمضان الدينية جعله يقارن بينه وبين بعض الأعياد عند اليهود والنصارى وكذلك الشيعة من المسلمين، مع العلم أن شهر رمضان أحد أركان الإسلام الخمسة، ثم إنه ليس للوهابيين وحدهم وإنما هو لجميع المسلمين من سنة وشيعة وغيرهم ممن يدين بدين الإسلام (ابن جريس).

(٣) هذا التحريم للدخان والمشروبات الكحولية ليست من صنع وتحرير الوهابيين كما قال فيلبي، وإنما هي أوامر من رب العالمين في القرآن، فالدخان من الخبائث، والخبيث من المحرمات. أما المسكرات كالخمور وغيرها فهي محرمة بنص قرآني. (ابن جريس).

أنهم يزجون ساعات النهار الطويلة المملة بالصلاة، والتفكر والتأمل، وقراءة القرآن الكريم؛ لأن «الصلاة خير من النوم»، وهم فوق ذلك يختلفون عن أقرانهم في الطريقة التي يقضون بها ساعات الليل القصيرة. «وليلة القدر خير من كل الليالي»، ولهذا السبب فإن ليالي شهر رمضان أفضل من ليالي أي شهر آخر في السنة، مثلما أن الأيام العشرة الأولى من شهر ذي الحجة، أيام الحج الأكبر، أشد فضلاً من بقية الأيام، وهكذا سار بنا الحديث في دوائر تزداد ضيقاً تجاه الظاهرة الرئيسة في رمضان، أي «ليلة القدر» نفسها، وهي أن الليالي العشر الأخيرة من الشهر أفضل من باقي الشهر، بينما ليالي الأيام الفردية - من الحادي والعشرين حتى التاسع والعشرين إذا أمكن معرفتها بتأكيد مطلق تكون أفضل من الأخريات.

والفضل الخاص «لليلة القدر» التي تعادل في أهميتها عندنا تقريباً (يوم البعث) ينبثق من حقيقة أنه في هذه الليلة يعتق الله تعالى أكبر عدد من الناس كل عام من عذاب جهنم. على أن الميعاد الدقيق لهذه الليلة العظيمة من الشهر المقدر لم يُكشف أبداً للنبي، الذي، تبعاً لذلك، لم يستطع أن ينقل لأتباعه معلومات أشد دقة أكثر من احتمال أنها قد تقع في اليوم التاسع والعشرين، على الرغم من أنها قد تقع في أي ليلة من الليالي الأربع التي تسبقها[(١)]. ويزداد الشك عندما نلم بحقيقة أن الشهور القمرية، التي تعتمد بداياتها على الظهور الفعلي للقمر أمام العين البشرية المجردة، تتعرض دائماً الخطأ في حساب عدد أيامها الكلية وذلك في حدود يوم واحد، بشكل أو آخر. وهكذا فإن اليوم العشرين قد يكون هو اليوم الواحد والعشرين أو العكس صحيح،

(١) ما يشير إليه فيلبي عن أهمية وفضل شهر رمضان وعشر ذي الحجة، ثم مشاهدته المسلمين يقضون ليليهم ونهارهم خلال هذه المواسم في العبادة، ربما جعله يستغرب من هذه التصرفات دون أن يدرك أن هذه تعاليم ربانية وردت في القرآن والسنة. ونستطيع القول أن فيلبي كان معذور لأنه يدون معلوماته هذه في أيامه الأولى من مجيئه إلى جزيرة العرب. (ابن جريس).

والطريقة الوهابية[١]، حتى تكون في الجانب الآمن، تفرض برنامجاً خاصاً من العمل الديني النشط في كل ليالي الشهر بدءاً من الليلة العشرين حتى نهاية الشهر. وهكذا، إذا ظهرت ليلة القدر فجأة وعلى حين غرة، فسوف تجد جماعة المصلين الوهابيين دائماً مستعدين، وهم منهمكون في أداء الصلاة والعبادة، ليدخلوا أبواب الجنة.

إن الدخول السنوي للأرواح، أرواح أولئك الذين ماتوا من قبل وحلوا مؤقتاً في جهنم يتطهرون من الذنوب التي أفسدت القيمة الأساسية للإيمان الحق، يوحي على نحو يثير الفضول بفكرة التطهر عند الكاثوليك. وربما ينفرد بالتزامه لذكرى سنوية لحدثٍ لم يأت بعد، والذي، على الرغم من أنه يمكن تحديد تاريخه في السنة القمرية في نطاق الحدود الضيقة المذكورة أعلاه والمقدرة بالنسبة لعام وقوعه منذ بدء الزمان، سوف يقع بلا إنذار، وفي تلك الليلة سيكون هناك التجمع النهائي في الجنة لجميع المؤمنين الصادقين، الأموات والأحياء، ربما باستثناء هؤلاء من الأحياء الذين قد يُقبض عليهم وهم يرتكبون ذنباً من الذنوب أو يهملون أوامر الله[٢].

إن النظرية الكاملة للعقيدة الوهابية[٣] تبدو واضحة من الظاهر أنها تركز على الالتزام بشعائر رمضان، وإنني لأعد نفسي محظوظاً لأنني نلت ميزة مشاهدتهم عن كثب في العاصمة الوهابية نفسها،[٤] وفي فصلٍ ساهم في جعل الشعيرة المفروضة على المؤمنين امتحاناً قاسياً لمدى قوتهم وطاقتهم، البدنية والروحية، لتحمٌّل ما قد

(١) الوهابية ليست طريقة ولا مذهباً كما يقول فيلبي أو غيره من المستشرقين، ولكنها نظام سياسي وديني يسير على منهج كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. للمزيد من التفصيلات عن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، انظر: حمد بن حجر آل أبوطامي. الشيخ محمد بن عبدالوهاب، عقيدته السلفية الاصلاحية وثناء العلماء عليه (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ص ٣٥ وما بعدها، محمد بن عبدالله السكاكر. محمد بن عبدالوهاب، حياته آثاره، دعوته السلفية. (الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، ص ٢٧ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) فيلبي يتكلم بهذه الصيغة لأنه لا يعرف ولا يشعر وقتها بوقع الدين والروحانيات على قلب ونفس المسلم. (ابن جريس).

(٣) العقيدة الوهابية: مصطلح خاطئ عند فيلبي وغيره ممن هم على شاكلته والوهابيون كما يذكرهم هذا الرحالة وغيره ليس لهم عقيدة تميزوا بها، وإنما عقيدتهم هي عقيدة السلف الصالح. (ابن جريس).

(٤) يقصد بالعاصمة الوهابية، أي مدينة الرياض. (ابن جريس).

يتدبرونه. وخلال هذا الامتحان برز شخص منهم بروزاً شامخاً، مثالاً يُحتذى في القوة والحماسة لأتباعه الذين يتأوهون بكل ما في الكلمة من معنى تحت وطأة تكفير الذنوب في تلك الأيام القاسية، لأن ابن سعود نفسه، على الرغم من أنه لا يعقد المجلس العام لمقابلة الناس بصورة منتظمة مثل الأيام الأخرى، لم يفشل أبداً في الجلوس للناس مرتين في اليوم، مرة بعد استيقاظه مباشرة من نومه الصباحي، والأخرى بعد صلاة العصر، لكي ينهي معاملات عامة الناس، ولكي يتلقى الشكاوى وعرائض الالتماس والمطالب وما شابه ذلك[(١)]. ولم يكتف بذلك، فنادراً ما يفشل في استدعائي مرتين خلال النهار في الصباح والعصر لمناقشة الأمور الكثيرة التي تحتاج دائماً لعنايته الشخصية، والفترات التي بين ذلك كان يقضيها في التمتع بغفوات نوم قصيرة وفي أداء العبادات الدينية.

إن أمر الصوم العظيم عن طريق الامتناع الجسدي لتطهير الروح حتى تدخل الجنة ـ كما يرى الوهابيون[(٢)] ـ فعالٌ تماماً ومقبول، ويجب أن يرافقه فترات طويلة من الصلاة تتخللها أخرى لقراءة القرآن، كما يجب أن يصاحبه أيضاً الابتعاد التام عن أمور الدنيا وجميع أنواع الشرور والآثام. وكلما تكررت قراءة القرآن[(٣)] من أوله لآخره خلال الشهر زادت درجات المرء في الحساب بالآخرة.

وكان الورعون، أمثال عبد الرحمن، الطاعن في السن، يستطيعون إكمال هذه الجهد المهول بما يقرب من ثلاثين مرة في ثلاثين يوماً، ولكن ابن سعود اعترف بأن

---

(١) هذه كانت طريقة الملك عبدالعزيز في سياسة البلاد أثناء اقامته في الرياض، وللمزيد عن سياسته الداخلية والخارجية في حكم بلاده انظر: محمد رفعت المحامي. أسد الجزيرة قال لي (الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ص ١٧ وما بعدها، أمين الريحاني، ملوك العرب (بيروت: دار الجيل، ١٩٨٧م) جـ٢، ص ٤٨٩ وما بعدها، عبدالفتاح حسن أبو علية. دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر (الرياض: دار المريخ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ص ٣٥، ٩١، ١٢٥، ١٤٥. (ابن جريس).

(٢) هذه التعاليم الدينية ليست من صنع الوهابيين، ولكنها تعاليم ربانية وردت في الكتاب والسنة. (ابن جريس).

(٣) وتعني قراءة "القرآن" أيضاً إكماله أمام شخص يحفظ القرآن ويجوّده. (فيلبي).

الاهتمام الضروري بشؤون الدولة والذي يتعذر تفاديه، جعل من المستحيل عليه أن يكمل أكثر من أربع أو خمس مرات من مثل هذه القراءة خلال الشهر.

ومع أول خيط من الفجر الكاذب، الذي يأتي في هذه الفترة بعد نحو سبع ساعات ونصف من الغروب، تُعطى إشارة بقدوم يوم جديد للصوم لسكان العاصمة عن طريق رفع فانوس مقوس كبير على ما يشبه عمود المشنقة (سارية العلم) فوق سقف القصر الملكي متزامناً مع الآذان الأول للصلاة. عند ذلك ينهض السكان كلهم من رقادهم ليستعدوا لليوم، ودون شهية يأكلون ويشربون بعد فترة من الصلاة النافلة، وإلى أن يُعلن الفجر الصادق بالآذان الذي يُرفع من المساجد المختلفة. بعد ذلك تحين الصلاة، والتي بعدها لا يجوز لمس أي طعام أو شراب حتى أذان المغرب[١]، وهي فترة تمتد في هذا الوقت لنحو خمس عشرة ساعة ونصف الساعة في أقسى مواسم السنة حراً وجفافاً وغباراً. وفي ظل هذه الظروف كان النوم هو الملاذ الطبيعي للناس الضعاف، ولكن ما كان ابن سعود يسمح به لنفسه. وكان يُقسّم نومه بصورة صارمة إلى ساعة بعد آذان الفجر مباشرة، وساعتين ونصف الساعة قبل منتصف النهار، وساعة قبل صلاة العصر، مع نحو ساعتين أو على أقصى تقدير ثلاث ساعات في الليل، وذلك ليس قدراً كافياً من الراحة الكاملة، ولكنه قد ألزم نفسه طوال حياته كلها على أن يتمتع بنوم قليل مقسماً على فترات قصيرة. وبين الفينة والأخرى كان يعترف أنه لا يشعر بأنه على ما يرام، ولكن من الناحية الفعلية كان يمدح الصوم كعلاج ناجع للأمراض الاعتيادية التي تصيب الجسم البشري.

وكان من عاداته المنتظمة في هذه الأيام أن يذهب قبل المغرب بحوالي ربع ساعة إلى سقف الغرف السكنية الخاصة به في القصر، حيث يلحق به هناك أعضاء مختلفون من العائلة المالكة، وهكذا يجتمعون وينتظرون أول صوت من الآذان ليعلن

(١) هذه طريقة الصوم التي نص عليها القرآن والسنة (ابن جريس).

الغـروب، وكل رجل يمسك بتـمـرة بين أصـبـعـيـه السـبـابة والإبهـام وهو يردد عـبـارة «أسـتـغـفـر الله» مـرة بعـد أخـرى طبـقـاً لما فعله وأمـر به النبي عليـه الصـلاة والسـلام. وتوضع التـمـرات في الفم عند أول كلمـات من الآذان[١] كإشـارة إلى انقـضـاء الصـوم رسمياً، وبعد ذلك تؤخذ رشفة من الماء لإطفاء ظمأ النهار، وهذا يليه ظهور الصواني العظيمـة من شرائح البطيخ والتي يتم التهامها التهاماً حسبما تسمح به تلك الشهية المنهكة. وكانت صـلاة المغـرب هـي البند الثـاني في البـرنامج، يليـهـا مـبـاشـرة وجبـة العشاء، على الرغم من أن القلة فقط هم الـذين يستطيعون أن يقدروها حق قدرها بسبب كمية السوائل الماء والبطيخ التي تم استهلاكها قبل ذاك مباشرة[٢].

بعد ذلك تتفرق الجماعة، ويعود كل رجل إلى خاصة بيته ليستـأنف رفقة زوجته وأطفاله التي قطعها الصيام. ويبدو أن الحظر الديني على الجماع الجنسي الحقيقي يفسره الوهابيـون على أنه يشمل البُعد التام عن مجتمع النسـاء[٣]، إلى أن يعيد آذان العشاء توحيدهم مرة أخرى في مسجد القصر، بينما يجتمع العامة طبعاً في المساجد المختلفة بالمدينة. وصلاة العشاء في رمضان يليها فترة من قراءة القرآن والتي بعدها بفترة قصيرة يقوم خلالها ابن سعود عادة بزيارتي فوق السطح الذي يحمل ساري العلم، والذي كـان يُخـصـص لي للمـبـيـت، ومنه كنت أسـتطيع أن أشـاهـد عـبـادات أو صلوات جموع المصلين في المسجد، وكان يليها سلسلة إضافية من الصلوات تعرف باسم التـراويح، وهي صلوات وأدعـيـة مـخـصـصـة لإنقـاذ وتخليص الـروح من الأخطار

(١) يبدو أن الآذان يُرفع مباشرة بعد غروب الشمس في التزامٍ صارمٍ بالعقائد الوهابية. ويبدو أن الشيعة (الذين يُطلق عليهم الرافضة بشكل عام)، ينتظرون حتى ظهور أول نجم، بينما يفسر الوهابيون عبارة غروب الشمس بصورة حرفية تماماً ويعتبرون أن أي تأخير سوف يفسد أو يبطل صوم النهار. (فيلبي). يظهر أن فيلبي يجهل أو يتجاهل بعض تعاليم الدين الواضحة والجلية في القرآن والسنة، وتأخير الإفطار عند المغرب لا يفسد ولا يبطل تأخيره عن وقته (ابن جريس).

(٢) هذه العادات تكاد تكون من تشابهة عند جميع طبقات المجتمع، مع الاختلاف في نوعية الأطعمة والأشربة كل حسب إمكاناته المادية (ابن جريس).

(٣) الوهابيون ضمن مصطلحات فيلبي ليسوا هم الذين يقرون ويشرعون الحضر الديني على الجماع الجنسي خلال النهار من شهر رمضان، وإنما هي نصوص شرعية وردت في الكتاب والسنة حيال هذه الجوانب الفقهية الشرعية. (ابن جريس).

التي تحيط بها. هذه الصلوات تُؤدى كل ليلة خلال الشهر، وتستمر عادة قرابة الساعة، ويتكرر (التسليم) أو السجود مراراً أكثر مما في الصلوات العادية، ويمتد في كل مرة إلى عدة دقائق. وخلال الليالي العشر الأخيرة من الشهر يُضاف بند جديد إلى البرنامج، حيث يلي التراويح فترة قصيرة من صلاة القيام، وهي مرحلة التتويج لشعائر رمضان. تستمر هذه الصلاة طول الليل كله حتى السحور أي الوجبة التي تسبق الفجر التي ذكرناها آنفاً، وتتكون من ركوع وسجود طويلين طولاً شديداً يصل أحياناً إلى حوالي ربع الساعة في كل مرة، ومتعبة بشدة حتى إن الأشخاص الضعفاء يضطرون إلى الاستعانة في الفترات الفاصلة بين كل مجموعة من الركعات بالقهوة والشاي اللذين يدوران حقيقة على المصلين بساحة المسجد[١].

هذا وصفٌ موجزٌ لامتحان رمضان، الذي كان يهيمن تماماً على الساحة خلال الأسبوعين الأولين من إقامتي المؤقتة في الرياض بعد عودتي من الجنوب.

وحيث إن المناسبات الاجتماعية كانت قليلة، فقد مضى الوقت صافياً بدرجة كافية لي فيما يشبه البطالة، وهذا ترك لي كثيراً من الفراغ لأتعامل مع المتأخرات في العمل الرسمي والتي تراكمت خلال مدة غيابي الطويلة، ولكي أقيّم كلاً من النتائج التي تحققت في غضون رحلتي الأخيرة وتقدير الموقف السياسي العسكري الناشئ من التطورات الحديثة في اتجاهات مختلفة.

وفي الأسبوع الأول في الحقيقة لم أغادر القصر إلا مرة واحدة، وعلى مضض شديد، لحضور حفل عشاء أقامه إبراهيم الجميعة احتفالاً بسلامة عودة فرقتنا من رحلتها إلى وادي الدواسر[٢].

---

(١) يظهر في كتابات فيلبي الدقة في وصفه صلاة التراويح، وشدة ملاحظاته ودقته في تدوين المعلومات من الصفات الجيدة التي يتصف بها في أغلب كتبه ودراساته. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن وادي الدواسر، انظر: (عبدالرحمن صادبق الشريف. جغرافية المملكة العربية السعودية (الرياض: دار المريخ، ١٤١٧هـ/١٩٨٧م) حـ١، ص ٨٩ وما بعدها. (ابن جريس).

إن ذكرى بعض الحوادث في تلك الرحلة كانت على كل حال حية بقوة في عقول معظمنا؛ لتمنح هذه المناسبة نجاحاً غير محدود. وكان توزيع الهبات سيأتي بعدها، وكان بعض رفاقي يدركون حقيقة أنهم قد نالوا بالكاد نصيبهم الذي كانوا يتوقعونه بناءً على المبدأ العربي العام الذي يقول بأن الماضي لا يستحق القلق عليه[1]. وبصورة عامة كان الأمر بمثابة عذر واضح للهرب من العيد، ولكي نسير قدماً ـ كما فعل بعضنا ـ إلى بيت العبد عبد الرزاق، حيث سررت بالتعرف على أحد زملائه من العبيد يُدعى مخيّت بالاسم، والذي كان قد أصيب بجرح شديد في معركة جرّاب الشهيرة[2]، وهو لا يزال، وربما سوف يستمر طوال حياته، معطوباً بدرجة ميؤوس منها، غير قادر على الحركة بسبب عرج رجله اليمنى الدائم. بدا أن طلعته البهية تعوض عن بليته المؤسفة، وكان مفرحاً أن نلاحظ الصداقة المخلصة والإعجاب الذي يبديه ويبثه في زائريه.

في وقت لاحق من هذا الأسبوع نفسه جاء وقت الاختبار القاسي بتوزيع الهبات على رفاقي الجدد. وكان طامي الذي أُمر فجأة بالسير إلى معسكر تركي الصغير على حدود بلاد شمر، هو أول من تلقى نصيبه وراح راضياً. وابن جلهم الذي جاءت دعوته لتناول العشاء معي في الليلة التي سبقت رحيله إلى الأفلاج والسليل مع جماعة من خمسة وعشرين رجلاً بقيادة عبد الرحمن بن ثنيان لجمع الزكاة على

---

(١) الماضي لا يستحق القلق عليه: هذا مثل شعبي أو حكمة تعرف عند سكان الجزيرة العربية وغيرهم من شعوب العرب، ويقال بعبارات مختلفة مثل: (الذي فات مات) أو (طرد في الفائت نقص في العمر)، إلى غير ذلك من الألفاظ المتنوعة حول إيراد هذا المثل. (ابن جريس).

(٢) معركة جراب: وقعت بين الملك عبدالعزيز الفيصل وابن رشيد عام (١٣٣٣هـ/١٩١٥م) وانتصر الملك عبدالعزيز على خصمه، مع أنه قتل من رجال الملك عبدالعزيز محمد بن جلوي، ومحمد بن شريده، وصالح الزامل أمير غزو أهل عنيزة، وكذلك الضابط البريطاني شكسبير الذي كان قد أتى إلى نجد للتفاوض مع الملك عبدالعزيز، وأصرَّ على حضور المعركة، للمزيد انظر: سعود بن هذلول. تاريخ ملوك آل سعود (الرياض: د.ت، ١٣٨٠م) ص ١٠٥، أمين الريحاني. تاريخ نجد وملحقاتها (الرياض: د.ت، ١٩٨١م) ٢٢٠ وما بعدها، العثيمين، تاريخ المملكة، حـ١، ١٤٦ - ١٤٧. (ابن جريس).

قطعان ومواشي وادي الدواسر، قد استلم نصيبه وكان هو المبلغ نفسه. ولقد قبله شاكراً، وقال إن عباءة (aba) ستكون إضافة مرغوبة إلى العطية، لكني رددت عليه بقولي: إنه لم يكن ليضطر إلى طلبها إذا كان أكثر نشاطاً وتعاوناً معي فيما يتعلق بأحداث معينة خلال تلك الرحلة. وعلى الرغم من ذلك، أردفت قائلاً: حيث إنني لا أكن له ضغينة في هذا الخصوص، فإني سوف أعطيه عباءة عندما يعود من الجنوب. ومضى لحاله وهو يدرك أنه لن يراني بعد الآن.

وفي اليوم التالي استدعيت رشيد ليعاونني في إعداد قائمة بمكافآت باقي الجماعة. ذاعت تلك الأخبار وانتشرت، وجاء الجماعة كلهم إلى غرفتي لتوفر عليه العناء. وعلى الرغم من ذلك، وفي تلك اللحظة كنت قد استدعيت إلى مقابلة ابن سعود، وهكذا تأخر التوزيع الفعلي للهدايا إلى صباح اليوم التالي[١].

وكان مترك الذي حاول أن يخدعني في مسألة الطريق البديل للعودة من الحائر وعبيد الذي تركني في الوادي دون إذن مني، قد حذرتهما من أنهما لن ينالا شيئاً؛ ولذلك كانا حكيمين وبقيا بعيداً حتى يتفاديا الشعور بالخزي من رؤية الباقين وهم ينالون مكافآتهم. بيد أن إبراهيم الذي لم تثبط همته أبداً مع علمه أنه كان في حكمهما نفسه، قد دخل عليّ عندما كنت أدفع للبقية وجلس مستنداً للحائط إلى أن تم الانتهاء من دفع آخر مبلغ واختفى مستلمو المكافآت. وسألني عند ذلك قائلاً: «ما إلي شيء؟». وفي ردي عليه وبخته بعنف وقسوة، وهو الذي كان قائداً للجماعة، على جهوده المستمرة لإفساد متعتي بالرحلة. وقلت له: إن ما فات قد فات[٢]، ولكنني لو كافأت على الخدمة الطيبة والسيئة على السواء فلن أنال شيئاً في المستقبل إلا

(١) كان فيلبي مدعوماً سياسياً وإدارياً ومادياً من الملك عبدالعزيز، بل كان بحوزته أيضاً بعض الأموال من قبل الحكومة البريطانية كي يستعين بها على إنجاز مهماته ورحلاته السياسية والعلمية. وتلك العطايا والهبات التي كان يوزعها على رفاقه تعتبر مقابل خدماتهم التي يقدمونها له أثناء رحلاته. (ابن جريس).

(٢) ما فات قد فات: مثل شعبي يقال في جزيرة العرب، وقد تُغير بعض كلمات هذا المثل، فيقال: (ما فات مات). (ابن جريس).

الخدمة السيئة. والمستقبل هو ما أهتم به الآن؛ ولذلك سوف لن يكون له شيء. ولقد أصابته الدهشة بصدقٍ على الأرجح، وقام من مجلسه وهو يطلق سلسلة واضحة من أصوات التذمر والأنين، واندفع خارجاً من الغرفة مصحوباً بخيبة الأمل وبلا تعزية أو ترضية. وقد بذل رشيد سابقاً جهداً جباراً لكي يصدني عما نويت عليه خشية أن يشتكي إبراهيم لابن سعود، ولكني كنت مستعداً لخوض هذه المجازفة، على الرغم من أنها ليست مجازفة أكثر من أن يرهقني مرة أخرى في رحلتي القادمة. وكما أثبتت الحوادث، فقد أغلقت هذه الحادثة نهائياً جميع الحسابات بيني وبين إبراهيم. وخلال السنوات التي تلت ذلك، قُدِّر لي أن أراه بين الفينة والأخرى وأن أمدح ما يستحقه من احترام من على بُعد أكثر مما كان ممكناً خلال رحلتين سابقتين قمت بهما كان دليلنا خلالهما. بل إننا بمرور الزمن أصبحنا قادرين على مناقشة الأحداث الصغيرة المضحكة التي تقع أثناء الرحلات وكنا نختلف عليها قديماً، وإنه لمن الرضا الحقيقي، بعد أن أصبحنا بعيدين تماماً عن كل مخاطرة من الترحال في الصحراء مرة أخرى تحت قيادته، أن أصرح علانية أننا الآن مثل «صديقين فور افتراقهما صارا مخلصين». ومنذ تلك الأيام ترقى إلى وظيفة عالية في خدمة سيده، وهو اليوم رئيس الديوان الملكي في بلاط الملك.

وجاء رشيد أخو حسنة ليحل عملياً محل إبراهيم من هذه اللحظة فصاعداً، وفي زيارة لشرب القهوة في منزله قد نلت من القصر فرصة الذهاب في رحلة أخرى خلال تلك الفترة.

وقد قابلته وحيداً مع شقيق زوجته، محيميد، في قاعته الصغيرة، المزدحمة بالأواني، حيث، كما اعترف لي بلا خجل أنه كان يقضي كل وقته، باستثناء فترات قصيرة يخدم فيها ضيوف ابن سعود، يداعب زوجته[١]. وقال لي صراحة: إنه قنوع

(١) الأوربيون لا يتحرجون الخوض في مثل هذه المواضيع الأخلاقية الاجتماعية وهي شبه عادية عندهم. (ابن جريس).

تماماً بحظه ونصيبه الحالي، وأردف أنه رفض مؤخراً دعوة شخصية من ابن رشيد ليعود إلى حائل، موطنه الأصلي. وتتكون أسرته من أم زوجته وأختين بالإضافة إلى محيميد وشخصه.

لقد حدث شيء رائع بصورة استثنائية نوعاً ما قبل عودتنا إلى الرياض بفترة قصيرة؛ فقد تعرضت زوجته فجأة لنوبة صرع استمرت خمسة أيام، وظلت خلالها غير قادرة على الكلام وشبه ميتة. وكانت هناك شائعات أيضاً عن أنها تقدمت إلى ابن سعود تطلب طلاقها من زوجها بحجة عدم قدرته على الإنجاب منها. وفي هذه الحالة قد تكون تلك الشائعات خبيثة، وتستفيد من عدم إنجابه أطفالاً لكي تتهمه بالعجز الجنسي. بيد أن الزمن يأخذ ثأره بنفسه، فعندما قابلت رشيد بعد سبعة أو ثمانية أعوام في الحجاز، سمعت أنه والدٌ فخور بولده، الذي يبلغ فعلاً ثلاثة أو أربعة أعوام من العمر، من امرأة أرمنية أوقعها قدرها في جزيرة العرب وفي حظيرة الإسلام، وأن هذا الولد[١]، حسبما أحتفظ به من ذكرى تلك الأيام التي أكتب عنها كان قد سُمي باسمي[٢]. أما رشيد، بكل ما فيه من تفاهة حقيقية ومادية فظيعة، إلا أنه له جانبٌ حساسٌ في شخصيته، بل كان شيئاً ما قريباً من شاعر بالمعايير العربية الحديثة. وتكمن جدارته الرئيسة في ذاكرته القوية؛ إذ هي معين لا ينضب من القصائد المعاصرة. ولقد استطعت أن أحصل منه خطياً على قصيدة للشاعر المشهور حمود بن عبيد من حائل وقصيدة أخرى من "عبد" يُدعى مفضّي، بيد أن كتابته البدائية للكلمات قد استعصت على الخبراء في كيمبردج، وكنت دائم الندم على عدم مواصلتي لدراسة هذا الأدب فوراً على الطبيعة باهتمام أكبر، ولكنني لم

(١) توفي ذلك الولد في عام (١٣٤٥هـ/١٩٢٦م) (فيلبي + ابن جريس).

(٢) قول فيلبي (قد سُمي باسمي)، أي أن هذا الولد الذي يتحدث عنه سُمي عبدالله، وهو أيضاً الاسم الذي تُسمى به فيلبي بعد دخوله الاسلام، وغالباً ما يعرف عند سكان الجزيرة باسم (عبدالله فيلبي) وأحياناً يقال له (الحاج عبدالله). (ابن جريس).

أندم على شيء مثل ندمي على تقصيري في تقديم مجموعة تمثل الأعمال الشعرية لطامي الذي لم يعد شاعراً الآن.

كانت نزهتي التالية إلى بيت محمد بن شلهوب أمين خزينة ابن سعود والمحاسب العام، وسواء كان ذلك بترتيب من ابن سعود أم لا[١]، فقد جاء عن عمدٍ ليأخذني لتناول القهوة. وقضيت ساعة سعيدة في مجلسه مع نحو ستة من الضيوف الآخرين والذين يبدو أنهم كانوا قانعين بجلوسهم في صمتٍ بليد ليتركوا شأن الحديث لي ولمضيفي[٢]، بينما كانت تدور علينا أقداح الشاي ثم القهوة التي تلتها صوانٍ كبيرة من شرائح البطيخ والعنب اللذيذ. وانتهت الجلسة بدورة البخور[٣]، وبعدها عدت أنا وشلهوب إلى القصر معاً؛ لأنه كان مضطراً إلى أن ينضم إلى ابن سعود في صلاة العشاء؛ ولأنه من مواطني الرياض الأصليين بالميلاد، ووهابي المذهب بالدين[٤]، فقد كان رجلاً ذا أخلاق وعلى قدرٍ عظيم من الروعة، وهو دائماً شديد الود والصراحة معي. وفيما يبدو حقاً فإنه خالٍ تماماً من النفاق والتعصب الأعمى اللذين يكثران بشدة في المواطن العادي بالرياض. ويظهر ذوقه الرفيع واضحاً أو ذوق زوجته - وأظنه كان يملك بيتين منفصلين في هذا الوقت في نوعية الأثاث شبه الفاخر مثل السجاد والفرش والوسائد التي تجعل المجلس مريحاً حقاً.

وهكذا مضى شهر رمضان بطيئاً وئيداً ولكنه بالتأكيد كان يمضي إلى نهايته المرهقة. وفي اليوم السابع من يوليو، الموافق (٢٨) رمضان، كان ابن سعود يتحدث بشكل عام عن قسوة الصيام، ويتساءل ما إذا كان القمر سوف يظهر في الليلة

---

(١) كنت قد اشتكيت من عدم وجود مناسبات اجتماعية مسلية. (فيلبي).

(٢) هذه من العادات التي تعارف عليها سكان الجزيرة العربية، فالضيف عندهم ينال قدراً من الاحترام، فيعطى الفرصة دون غيره في الحديث، ويكون أول من يقوم من الحاضرين لتناول وجبات الطعام، إلى غير ذلك من الأعراف الاجتماعية المختلفة. (ابن جريس).

(٣) عادة تقديم البخور إلى الضيف من العادات الحسنة القديمة عند سكان الجزيرة العربية. (ابن جريس).

(٤) كما ذكرنا سابقاً، الوهابي أو الوهابية ليست مذهباً أو معتقداً خاصاً كما يسميها فيلبي وغيره ممن هم على شاكلته. (ابن جريس).

القادمة أم لا. وحيث إنني كنت فعلاً قد درست التقويم الهجري بدقة وتأكدت أن القمر سيكون كبيراً بدرجة كافية للظهور في الظروف المواتية، فقد تجرأت على التنبؤ بأن الليلة القادمة ستكون بُشرى العيد، على الرغم من توقع (الرجال الحكماء) المحليين بأنها ستكون اليوم الثلاثين من رمضان. وقبل الغروب بقليل في الليلة التالية كان هناك حشدٌ عظيمٌ من الناس المجتمعين على أسطح البيوت تشرئبُّ أعناقهم باتجاه الحافة المسننة لجبل طويق التي تظهر للعيان في غروب الشمس في روعة نادرة. وقد كان معظم الحشدُ من النساء، اللائي يقال إن بصرهن أشد حدة وقوة من الرجال. وخامرني شعور خفي بأن تنبيء باحتمال ظهور القمر كان معروفاً لدى كثير من الراصدين الذين، على الرغم من أن عدم ظهوره يعني لهم صوم يوم إضافي، سيكونون سعداء تقريباً بدحض وقاحة الكافر[1] عندما يظهر الحكم الإلهي.

وكما قد يفعلها الحظ، فقد امتدت حزمة من السحب الرقيقة فوق موقع القمر طوال تلك اللحظات الحرجة. وغربت الشمس في وهجٍ من اللهب الأصفر مخترقة هذه السحب الهشة وحوّلتها ببطء إلى مسحة رائعة من اللون الوردي، تمتد في أحزمة رفيعة عبر السماء التي كان يبدو بين ثناياها أشعة براقة من أشد الأضواء الزرقاء وضوحاً. بيد أنه عندما أرخى الليل سدوله علينا كان من الواضح أن القمر لن يُرى في تلك الليلة، وزحفت الجموع التي خاب رجاؤها نازلة من الأسطح لكي تكسر صيامها الذي كان عليهم أن يتحملوه ليوم آخر. وعلى الرغم من ذلك لم تكن خيبة رجائهم شيئاً يقارن بخيبة رجائي، لأن (كتبي) قد خذلتني في اختبار قاس، وبشعور من الإرهاق الذهني وليس البدني تمددت لأنام تلك الليلة على سطح القصر، ولقد جفلت فجأة من نومي الخفيف بسبب انطلاق طلقة مدفع، تلتها ثانية

(١) كلمة (الكافر) تطلق على من يكفر بدين الله. وهذا المصطلح كان وما زال يستخدم على الأجنبي الذي لا يدين بالديانة الإسلامية. (ابن جريس).

وثالثة، حوالي ست أو سبع طلقات في مجموعها على فترات زمنية متقطعة. كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وتحتي في المسجد كنت أستطيع أن أسمع التراتيل الرتيبة في صلوات القيام[1]. كان من الواضح أن شيئاً خارجياً ما قد حدث فجأة، وإذا كنت قد واجهت صعوبة في تخمين طبيعة ما حدث، فإن (صالح)، الذي يضيء المصابيح، عندما صعد للسطح ليغيّر اللمبة المقوسة، التي كانت تترك مضاءةً طول الليل في تلك العشر الأواخر، لم يضيّع وقتاً في إخباري بالبشرى السعيدة. فقد جاء بعض البدو من دكينة على جناح السرعة ليشهدوا أنهم قد رأوا هلال القمر الجديد، وأنهم قد أُرسلوا إلى رئيس القضاة الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب الذي استدعى على الفور محكمة شرعية مكونة منه اثنين من القضاة ليأخذوا شهادة هؤلاء القادمين الجدد. وقد أعلن القضاة عن اقتناعهم ورضاهم التام، وكانت طلقة المدفع، التي أقضت مضجعي، أول إعلان لسكان الرياض بأن غداً سيكون الاحتفال بالعيد. واستمرت صلاة القيام حتى الانتهاء من (التسليم) الذي كانت جموع المصلين منهمكة فيه تلك اللحظة. ومن المستحيل أن تتصور البهجة الباطنة للناس كلهم عندما نهضوا واقفين على أقدامهم من آخر مقطع من آخر كلمة من آخر آية من آخر تسليم، فقد انقضى الصوم العظيم وانتهى لعام آخر، عامٌ من الاستمتاع غير المقيد بمباهج الحياة أمامهم. الله أكبر !! قد يكون من الصعب تصور عَرْضٍ للعبادة والشعائر الدينية أشد عجباً من المحافظة على الصوم العظيم لرمضان من قبل سكان الرياض.

وأشرقت شمس الغد على السكان وهم يرفلون في أفضل حللهم وملابسهم أملاً في بدء يوم العيد بصلاة العيد المعتادة. وفي ساعة مبكرة جداً، نحو الخامسة صباحاً،

---

(١) القرآن الكريم ليس تراتيل رتيبة كما يدعي فيلبي. ومثل هذا القول يصدر ممّن لم يدخل القرآن والإيمان قلبه، أو كان على ملة مخالفة للإسلام. (ابن جريس).

جاء من يوقظني من سُباتي وينبهني للنزول إلى مكان سكني قبل أن تعود الجموع من صلاتها إلى القصر. وللحظات تباطأت على السطح وأنا أرمق المدينة بنظراتي من بين فتحات الجدار الساتر فوق القصر. وامتدت سحابةٌ رقيقة من الغبار مثل حجاب قاتم يبعث في النفس الحزن والكآبة على الأفق والشمس الواهنة تكافح جاهدة لاختراقها. وقد بدت المدينة مهجورة ومقفرة تماماً، ولم يقطع عزلتها إلا ثغاء الأعداد الهائلة من الماعز، التي كان انطلاقها إلى المراعي ينتظر عودة الرعاة من صلاة العيد والوليمة التي سوف تقدم لهم بعد ذلك فوراً في القصر. وقد توجه الرجال كلهم في المدينة إلى ذلك الفضاء المسوَّر المخصص لصلاة العيد خارج البوابة الشمالية الشرقية. والصلاة نفسها قد بدأت بعد شروق الشمس واشتملت على خطبة لابن سعود، واستمرت حوالي نصف ساعة. ثم تدفقت الجموع عائدة إلى القصر، حيث كانت أعدادٌ لا حصر لها من الصواني العامرة بالأرز ولحم الضأن تنتظر الضيوف في الفناء العظيم من قسم القصر الذي يوجد به جناحي. وكان كل رجل عندما ينتهي من طعامه ينهض من مكانه، وهو يلعق أصابعه التي كان - عندما يمر من خلال الفناء الصغير أمام نافذتي - يغمسها في مرجل للماء موضوع هناك لهذا الغرض. وهكذا، واحدٌ تلو الآخر في سيل لا ينتهي أبداً، كانوا يمرون أمامي، وهم يجففون أيديهم في ملابسهم الخاصة بالعيد أو على جدران الفناء الطينية، متجهين نحو صالة الاستقبال الكبرى، حيث كان ابن سعود يجلس في مجلسه ليتلقي ولاءهم وطاعتهم له.

وقد احتفل إبراهيم الجنيفي بهذه المناسبة بتناوله الإفطار معي للمساعدة في إعداد قائمة بالهدايا، التي جرت العادة أن أقوم بتوزيعها على خدم القصر. وباقي اليوم، بخلاف مقابلة قصيرة جداً مع ابن سعود في فترة ما بعد الظهر، قضيته خالياً مع نفسي، راضياً تمام الرضى عن الفراغ الإجباري لمدة أسبوعين مما مكنني من استئناف عملي، ولكن، على الرغم من ذلك كنت آمل أن الحياة ستكون أكثر تنوعاً ومتعة مما كانت عليه في ظل الصيام.

وبالإضـافـة إلى الـزيارات القليلة التي قـمت بهـا، فـقـد قـسـمت وقـتي أقـسـامـاً مـتـسـاوية تقـريبـاً بين غـرفـتي والسـطح الذي توجـد عليـه (سـارية العلم)، الـذي كنت أصـعـد إليـه بصـورة منتظمـة مع كـتـبي، وأدوات الكتـابة فـور أن تميل الشـمس نحـو الغروب بدرجة كـافية لتوفر لي ظل الجدار السـاتر حول السطح، والذي منه كنت أنزل بالقدر نفسه من الانتظام كل صباح عندما كان الجدار الساتر نفسه لا يكفي لتظليلي من الشمس الطالعة. وخلال النهار كان هناك طبقٌ دائم من البطيخ الرائع والعنب ذي الجودة المعقولة متاح دوماً لراحتي وإنعاشي. وكانت وجبات طعامي تأتي طبعاً بصورة منتظمـة من مـطبخ القـصـر على الرغم من ظروف الصـيـام. وفي الحـقـيـقـة كـان من النـادر أن يبـقـى المطبخ أقل نشـاطاً مما هو عليـه في الأيام العـادية؛ لأنه كـان هـناك غرباء دائماً داخل أبوابه والذين يُباح لهم الفطر أثناء رمضان. وكان البطيخ الرائع من المناطق القـريبـة طبق الطعام الدائم خلال هـذا الفصـل، لاسيمـا في أثناء الأمسيـات، وحيث إنه قد قيل: إن كل واحدة من هذا البطيخ تكلِّف ما يصل إلى روبية واحدة، فإن نفقات القصـر على هذا البند وحده لا بد أن تكون باهظة[١]. وفي إحدى الأمسيـات، على سبيل المثال، وعندما كنت أمر في طريقي إلى السطح، لاحظت مجموعة من نحو عشـرين عـبـداً مـجـتـمـعين حول صـينيـة عظيـمـة من شـرائح البطيخ وهم يأكلون بنهم واستمتاع شـديد، وحيثـما مضى المرء في الأمسيات كان هناك الطبق نفسـه لتوزيعه بعـد الشـاي والقـهـوة الاعـتـيـاديين. وبطيخ الرياض، أو بـالأحـرى بطيخ المصنعـة ومنفوحة[٢] مشهور في الجزيرة العربية بحجمه الكبير وطعمه اللذيذ.

(١) نشاهد دقة ملاحظات فيلبي عندما يذكر أسماء بعض الأطعمة التي شاهدها في قصر الملك، بالاضافة إلى أسعار بعضها. (ابن جريس).

(٢) منفوحة والمصنعة من أحياء مدينة الرياض، وللمزيد عن الرياض وضواحيها، تاريخاً وحضارة، انظر: فهد عبدالعزيز الكليب، الرياض (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب) ١٤١٣هـ/١٩٩٣م)، ص ١٣ وما بعدها، وليام فيسي، الرياض المدينة القديمة. ترجمة عبدالعزيز الهلابي (الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ص ٢٨ وما بعدها، حمد الجاسر. مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٢هـ) ص ٢٢ وما بعدها) خالد حمد السليمان. معجم مدينة الرياض (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ص ١٤ وما بعدها. (ابن جريس).

وكـانت مظاهـر الاحـتـفـال بالعـيـد فـي هـذه المرة قـد كـدرتهـا ـ لسـوء الحظ على الرغم من أن ذلك لم يحدث إلا بعد المناسبة ـ حادثة مشؤومة وغير عادية. فطبقاً للمعتقدات الوهابية يجوز أن يتواصل صوم رمضان العظيم الإلزامي- بعد انقضاء يوم العيد الذي لا يجوز صيامه بصومٍ ثانوياً واختيارياً تماماً لمدة ستة أيام من اليوم الثاني حتى السابع من شوال(١). ويقال: إن هؤلاء الذين يملكون القوة أو القدرة على تحمل هذه الكفارة(٢) الإضافية من المؤكد عملياً دخولهم الجنة في الوقت المناسب. والإخوان الذين لا يتركون أي شيء للصدقة كانوا قد بدؤوا بالفعل في هذه الفترة الثانية للصيام عندما أحدث أحد كبار الشيوخ في الرياض وهو ابن نمر تحديداً ـ وكان شيخاً وواعظاً لابن سعود في أسفاره وترحاله ـ شيئاً ما من الرعب أو الذعر في صفوفهم عن طريق توبيخهم على صومهم يوماً كان في الحقيقة هو يوم العيد. وكان حنقه قد ثار بسبب إهمال رئيس القضاة في استدعائه لحضور المحكمة التي انعقدت لتسجيل شهادة بدو دكينه (Dakina) الذين سبق ذكرهم. وقد اختار هذه الطريقة للانتقام والثأر لنفسه وذلك بإلصاق تهمة مزدوجة للإخوان الأبرياء الذين - إن كان هو محقاً - لم يخطؤا فقط بصومهم يوم العيد بل إنهم قد ارتكبوا أيضاً خطيئة لا تغتفر باحتفالهم بالعيد في آخر يوم من رمضان. وكان هذا الاتهام خطيراً بدرجة لا يمكن التغاضي عنها أو السكوت عليها. وتقدم الإخوان المذعورون إلى ابن سعود نفسه طالبين حلاً لهذا المأزق العظيم والذي تصرف في هذه المسألة بصورة متميزة، فقد أرسل إلى ابن نمر ليشرح تصرفه هذا، وجاء وهو غير نادم، بل كان توجهه وقحاً ومتحدياً. ووجد نفسه دون لغط كثير داخل السجن، حيث كان،

(١) لقد أخطأ فيلبي بوصف صيام ستة شوال بأنها «حادثة مشؤومة وغير عادية» وإنما هي سنة وردت عن الرسول ﷺ ومن صامها فله أجر عظيم. ووصف فيلبي هذه المناسبة بهذا الوصف يدل على جهله بأمور الدين الإسلامي، ثم أنه مازال أيضاً على ملة الكفر. (ابن جريس).

(٢) صيام ستة أيام من شوال ليست كفارة كما ذكر فيلبي، وإنما هي تطوع وسنة عرفت عن الرسول ﷺ. (ابن جريس).

بالصدفة، الضابط التركي، قدسي أفندي، الذي أُلقي القبض عليه وهو في طريقه من اليمن إلى سوريا عبر الصحراء في أبريل الماضي. ولا يزال ينفطر قلبه كمداً بوضوح في حبسه الإنفرادي. وكانت ساعاتٌ قليلةٌ من هذه التجربة نفسها كافيةٌ لإقناع ابن نمر بخطأ طريقته، ولكن صرخاته التي يُرثى لها طلباً للرحمة والعفو لم تجد طريقها إلى قلب ابن سعود. وقد أفرج عنه بعد ذلك بأيام قلائل وخرج رجلاً أشد حزناً وأكثر حكمة، وكان مثاله هذا تحذيراً (لعلماء) الجزيرة العربية بأن خلق الفزع في عقول عامة الناس لن يكون سلاحاً مشروعاً في الخلافات الناشئة عن مجاهداتهم المستمرة لاحتلال مكان الصدارة[١].

٢ـ نُذُروتحركات

علاوة على المتاعب البدنية التي جلبها الصيام، فقد كانت هذه الأيام من رمضان أيام قلق في العاصمة الوهابية، وكان هناك سحابة ومع أنها غامضة لكنها تنذر بشؤم، يحلق فوق الحاكم ورجاله. والصوم، مع أنه ليس مرغوباً بدرجة كافية في الوعي الإدراكي لكنه قد وفر مهلة للملك من المتابعة النشطة لمغامرة ما[٢]، محفوفة بالخطر والاضطراب، كما هي ملزمة بسبب وعده، وترفضها الظروف التي وجد فيها نفسه. وبكل القوة والتجرد من الانفعالات التي أخضع بها نفسه، لقسوة التوبة المطلوبة منه فقد كان يعتصره الألم الذهني الذي لم يستطع أن يخفيه في لحظات الإرهاق البدني الشديد، وهو الآن عند مفترق طرق، وعلى الرغم من أنه قد

(١) كان الملك عبدالعزيز حكيماً في تعاملاته مع العلماء، وعليه القدم، لكن إذا خرج أحد عن المألوف فإنه يُروع ويعاقب حتى يعود إلى رشده. للمزيد عن صفات الملك عبدالعزيز، انظر: إبراهيم عبده. إنسان الجزيرة: عرض جديد لسيرة الملك عبدالعزيز آل سعود (الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ص ٩٥ وما بعدها (ابن جريس).

(٢) لا ندري ما المقصود عند فيلبي بأن الصوم كان غير مرغوب بدرجة كافية عند الملك عبدالعزيز ورجاله. واستخدام مثل هذا المصطلح يعتبر أسلوباً غير صحيح في فهم الصوم، وما يجده المسلم فيه من روحانيات كبيرة مع ما يقابله من عناء الجوع والعطش. (ابن جريس).

أعلن الطريقة التي ينوي أن يتبعها إلا أنه يستطيع دائماً أن يتراجع عنها قبل أن يبدأ فيها فعلاً. ولكنه بمجرد أن يبدأ لا يستطيع التراجع. وفي الوقت نفسه كان يركز انتباهه على الصوم ورفض أن يناقش خططه المستقبلية. وهكذا يفعل طائر النعام، ملك الصحراء المجنح، الذي يُقال إنه يدفن رأسه في الرمل الودود عند وجود خطر ما، ولأنه يعي قوته وسرعته فإنه يسعى إلى تفادي رؤية عدوه له حتى يضطر إلى مواجهة لحظة الاختيار بين الكر أو الفر(١). لقد كان ابن سعود حقاً يقف عند نقطة تحول في حياته العملية؛ فالطريق المستقيم يؤدي إلى حائل، حيث لا يزال العدو التقليدي لأسرته حاكماً دون مواجهة من أحد، بمؤازرة قوية من الأتراك(٢). ومن المحتمل أن يؤدي القضاء على ابن رشيد إلى تحطيم ميزان القوى إلى الأبد، إذ إن موقف الدولة الوهابية غير موطد أو مستقر تماماً في وسط الجزيرة العربية. وعلى هذا الطريق كان ابن سعود يتوقع درجةً ما من المساندة المادية من الحكومة البريطانية التي، على الرغم من أنها تنفر من حيث المبدأ من أي اختلال في ميزان القوى القائم في الصحراء، لكنها كانت تبحث عن بعض الوسائل لتحويل انتباه الوهابيين عن شكواهم ضد الشريف حسين بالحجاز وآخرين الذين تصادف أن يكونوا حلفاءنا(٣). وأي نجاح كبير ضد ابن رشيد سوف يميل بصورة عامة إلى إضعاف الموقف التركي في الجزيرة العربية وعلى طول خط سكك حديد الحجاز(٤).

---

(١) هذه العبارات التي استخدمها فيلبي عن الملك عبدالعزيز تدل على حنكته في اختيار الوقت المناسب لمواجهة أعدائه. ويعتبر شهر رمضان من الأوقات التي يتفرغ فيها الإنسان للعبادة وترك ما سواها حسب الاستطاعة. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن ابن رشيد في حائل، انظر: فهد العريفي. حائل (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ص ٧٣ – ٩٣، عبدالله الشهيل. فترة تأسيس الدولة السعودية المعاصرة (١٣٣٣ – ١٣٥١هـ/١٩١٥ – ١٩٣٢م) ص ٣١، ٦١، ١٥٣ – ١٥٥. لابن جريس).

(٣) يقصد فيلبي بكلمة (حلفاءنا) أي الحكومة البريطانية التي ينتمي إليها. (ابن جريس).

(٤) لمزيد من الإيضاح عن أوضاع الدولة العثمانية في الجزيرة العربية، انظر: لوريمر، ص ٥٠١ – ٥٢٣، أبو علية، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية ص ١٠٩ – ١٢٤، ٢٣٩ – ٢٦٠، غيثان بن علي بن جريس. صفحات من تاريخ عسير (الرياض: مطابع العبيكان، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م) حـ١ + ٢، ص ٩١ – ١٢٠، ٢٣٥ – ٢٧٤. (ابن جريس).

وهكذا وبسبب الظروف كان المسرح مهيئاً لابن سعود، ولكن حقيقة تتضافر هذه الظروف لتحثه على اتخاذ طريق معين، تجعله مرتاباً وقلقاً.

والعدو التقليدي لم يكن هو العدو الحقيقي، وفي أي حال يمكن التعامل معه غداً إن لم يكن اليوم بالطريقة العربية المعتادة. والخطر الحقيقي يكمن في بيض الأفاعي الذي تحتضنه الحكومة البريطانية بصدرها. إنها قد تفعل ذلك وتفلت بنفسها من العواقب، ولكن أصدقاءها سوف يعانون(١).

وكان ابن سعود يشعر أن خصماً في الصحراء لا يمثل إلا تهديداً قليلاً بالمقارنة مع الخصوم على سواحل البحر العظيم، الآمنين إلى الأبد باعتمادهم على الحماية البريطانية، وهذه المناسبة ليست ملائمة لأكتب فيها عن الطريقة التي تعامل بها مع هؤلاء الخصوم في الوقت المناسب، ولو كان عميلاً حراً لكان قد فضّل توجيه مسيرته ضد حدود الحجاز أو ضد الكويت، ولو نفّذ هذه النزوة لكان من غير المحتمل أن يصبح على الإطلاق أكثر من حاكم لجزيرة العرب الوهابية. وقد وجّه القدر خطواته نحو الطريق المستقيم، وعلى الرغم من أن تحركه في البداية كان بطيئاً ووئيداً إلا أنه بالتأكيد قد شرع من تلك اللحظة في حياة عملية مليئة بالفتوحات وباحتمالات لا نهائية لا يجرؤ على تخيلها في ذلك الوقت إلا أشجع الرجال(٢).

---

(١) وهذا بالفعل ما حدث، فلقد انقلب السحر على الساحر وتغيرت بريطانيا على أصدقائها، فزرعت لهم الخراب والدمار المتنوع في بلادهم، وما زالت أجزاء عديدة من العالم العربي تعاني من تلك السياسة التي رسمتها الحكومة البريطانية، وأعظم تلك المشكلات توطين دولة إسرائيل في فلسطين (ابن جريس).

(٢) هذا الإقدام والشجاعة من الملك عبدالعزيز في مواجهة أعدائه آنذاك، وهم كثير، هي من الأسباب الرئيسة في نجاحه حتى جمع شمل القبائل والبطون في معظم الجزيرة العربية، حيث أصبحت تدين بدين الإسلام تحت مظلة لا إله إلا الله، محمد رسول الله، بعد أن كانت تسودها شريعة الغاب من الفوضى والتناحر والصراعات الدامية. للمزيد من الاطلاع، انظر: آر. اي. تشيزمان. في شبه الجزيرة العربية المجهولة. ترجمة عبدالله المطوع، ومحمد الفريح (الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ص ٨٣ وما بعدها، أبو علية، دراسات في تاريخ الجزيرة، ص ٩ - ٢١، حافظ وهبة. جزيرة العرب في القرن العشرين (القاهرة: د. ن، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م) (ط٢)، ص ٢١٥ وما بعدها، هاري سانت جون فيلبي. العربية السعودية: من سنوات القحط إلى بوادر الرخاء. ترجمة عاطف فالح يوسف (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م)، ص ٤١٩ وما بعدها. (ابن جريس).

وفي هذه الأثناء كان هناك الكثير مما يجب التخطيط له ومناقشته فيما يتصل بالحملة العسكرية القادمة، والتي افتتحت بشكل ما وبصورة تجريبية قبل بداية رمضان عندما ركب تركي، الشاب الوريث للعرش الوهابي(١)، متقدماً مع جماعة مقدرة من الإخوان ليغير على حدود شمر. في ذلك الوقت، عاد سعود بن رشيد إلى عاصمته، بعد أن أثارته بلا شك الشائعات عن نوايا ابن سعود وسروره بوجود عذرٍ معقول للفرار من مركز قيادة حلفائه الأتراك في مدائن صالح، حيث كان من الواضح أن موقفه كضيف مبجل صار مصدر ضيق وضجر أكثر مما يبدو. وكان عميله السري، رشيد بن ليلى، قد وصل في الوقت نفسه إلى دمشق قادماً من إسطنبول ومعه شحنة مرغوبة من المدفعية والذخيرة، وقد كان على وشك الرحيل بها للانضمام إلى سيده. والقلق العام في شمر يتضح من الشائعات الدائمة أن ابن رشيد على وشك أن يتقدم للسلطات البريطانية في بغداد بمقترحات للسلام. وكان الشريف حسين يطلب بإلحاح أن يتم إحالة أي محادثات تمهيدية من هذا النوع إليه ليتفاوض بشأنها، ولكن بقدر ما كان الأمر يتصل بابن رشيد فإن هذه الشائعات على الأرجح دون أي أساس(٢).

وعلى الرغم من ذلك، ومن ناحية أخرى، كان بعض كبار معاونيه يميلون بالتأكيد إلى عقد اتفاقات بغرض تخفيف الحصار، الذي نتجت عنه مصاعب عظيمة في كل من حائل والمناطق القبلية المحيطة بها على الرغم من تكرار حالات التهريب. ومن بين آخرين، كان عقاب بن عجيل، الذي عاد مع سيده من المعسكر التركي، قد تقدم فوراً تقريباً إلى لينه، حيث أرسل أخاه، ماجد، إلى معسكر فهد بن حضّال، وهناك قابل الكولونيل ليتشمان

(١) توفي تركي خلال وباء الانفلونزا في ديسمبر (١٩١٨م) الموافق (١٣٣٨هـ) وخلفه أخوه سعود كولي للعهد. (فيلبي + ابن جريس).

(٢) لمزيد من التوضيحات عن الصراعات في جزيرة العرب آنذاك ودور كل من ابن رشيد والشريف حسين في تلك الأحداث، انظر: مديحة درويش. تاريخ الدولة السعودية (جدة: دار الشروق، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص ١١١، ١٦٧ حافظ وهبة، جزيرة العرب، ص ٢٥٠ – ٢٥٧، السعدون، ص ٣٥ وما بعدها. (ابن جريس).

(Colonel Leachman)، ومعه رتب السفر إلى بغداد لمناقشة شروط اتفاق تسهيلات تجارية مع الزبير. وفي الوقت نفسه وصل إلى الرياض رسول من ابن رمال وهو أحد شيوخ قبيلة العبدة[١] حيث قال في وجودي، بينما لم يكن ابن رشيد متهماً بالاطلاع على الأمر، أن سيده يرغب في فتح مفاوضات. وهذا التصريح قد تأكد بمحتويات خطاب ابن رمال المصاغ بكلمات منتقاة بعناية، والذي رد عليه ابن سعود بأنه ما دام ابن رشيد يحتفظ بتحالفه مع الأتراك فليس لديه أي بديل إلا أن يرهقه بغارات متكررة بأقصى ما عنده من قوة. وعلى الرغم من ذلك، إذا كان يرغب في السلام والصداقة فليس أمامه إلا أن يأتي قُدُماً ويقول ذلك إما له شخصياً أو للسلطات البريطانية[٢].

وعلى العموم من المحتمل أن يكون هؤلاء الراغبون في السلام من ناحية شيوخ شمر على اختلافهم ليست لديهم رغبة حقيقية في السلام، ولكن رغبتهم الكبرى كانت ضمان مرور الإمدادات والمؤن إلى دمشق وأماكن أخرى حيث يمكن أن يحققوا مكاسب عظيمة جداً في ذلك الحين. وفي الحقيقة أبلغنا رسول ابن رمال عن حالة واحدة مهمة من حالات الإفلات من حصار الفرات، وكان المتهم يدعى ضاري بن طواله الذي وضعته أنا شخصياً في حفر ليمنع التهريب إلى إقليم شمر، ولكنه نزل إلى صفوان وأقام عملاً تجارياً مربحاً كشركة تخليص جمركي خاصة للبضائع المتجهة إلى العدو. وفي المرة التي ذكرها هذا الرسول كانت قافلة من ٥٠٠ جمل قد وصلت إلى معسكر ابن رمال بالقرب من حائل محملة بالطعام والأقمشة وبضائع أخرى واردة من سوق الزبير بتوصية من ضاري[٣].

---

(١) قبيلة العبدة: إحدى عشائر شمر، وهم أبناء مقدم وقديم وجعفر من عبيدة قحطان، ويلتقون مع زوبع والأسلم في جد واحد من وراء طي. وطي وعبيدة يلتقون في جد من معن بن كهلان بن قحطان بن يعرب الذي تنتسب إليه العرب العاربة. حمد الحقيل. كنز الأنساب (الرياض: مطابع الجاسر، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م) ص ١٧٥. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التوضيحات عن العلاقات السياسية بين كل من الدولة العثمانية وبريطانيا وابن سعود، لوريمر، ص ٥٠١، ٥٢٩، العثيمين، تاريخ المملكة، حـ٢، ص ١٠٧. (ابن جريس).

(٣) للاطلاع على معلومات أكثر عن العلاقات التجارية بين حائل وما جاورها من البلدان، انظر: سعد بن خلف العفنان. التجارة في منطقة حائل (حائل: إصدارات الغرفة التجارية بحائل، ١٤١٩هـ) ص ١١ وما بعدها. (ابن جريس).

هكذا كان الموقف عند بداية حملة تركي العسكرية، التي بدأت بحشد ستة بيارق[١] قوامها نحو (٤٠٠٠) رجل تقريباً، عند آبار عجبه. وفي المراحل المبكرة جداً أرسل فيصل الدويش[٢]، وهو قائد الإخوان المهيب في الأرطاوية[٣] ورئيس الأركان في جيش تركي، رسالة عاجلة إلى ابن سعود يناشده فيها على تحذير تركي من نشر قواته على مساحة واسعة جداً، وبمثل هذا المعنى تم إرسال طامي على وجه السرعة فوراً بعد عودتنا من الوادي. وكان الخطر يتمثل في أن ابن رشيد ربما يعد هجوماً مضاداً أو ينتهز الفرصة ويغزو القصيم، بينما ينشغل تركي في عمليات ضد القبائل المتناثرة في الصحراء، والذين تحركوا عبر الدهناء من عجبة عند تلقيهم أخبار اقتراب الإخوان.

ولقد تتبعهم تركي باتجاه الطريق من حائل إلى لينة، وعندما وصل إلى بئر بشوك وجد المكان مهجوراً الآبار غير كافية لاحتياجات قواته. وكان من رأيه الشخصي أن يواصل السير حتى آبار أم الرضمة[٤] وهي على مسيرة يوم نحو الشمال الشرقي، ولكن ابن مسيّس (Ibn Musaiyis) رئيس مجموعة مطير في القوة، حذره من أنه لا هنالك ولا في حدقة نحو الشرق سوف يجد ماءً كافياً، وبعد جدال ساخن غلبه على العودة إلى عجبه. وهناك أتت الحملة العسكرية القصيرة إلى

(١) البيرق يساوي في العادة ألف رجل بيد أن قوة الوحدات قد تتفاوت كثيراً (فيلبي) وهذا المصطلح كان مستخدماً في الفتوحات والحروب العربية خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة. والبيرق هي كلمة مرادفة لكلمة (الراية). (ابن جريس).

(٢) فيصل الدويش (١٢٢٩ - ١٣٤٩هـ/١٨٨٨٢ - ١٩٣٠م): هو فيصل بن سلطان بن فيصل بن نائف الدويش، آخر شيوخ مطير، اشتهر بالشجاعة والبطش، شارك مع ابن سعود في العديد من غزواته، ثم انقلب عليه وحاربه في أكثر من موقع حتى وقع في نهاية المطاف في قبضة ابن سعود فسجنه بالأحساء حتى مات عام (١٣٤٩هـ/١٩٣٠م). انظر: خير الدين الزركلي، الأعلام (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤م) حـ٥، ص ١٦٦ (ابن جريس).

(٣) الأرطاوية: هي من أكبر هجر الأخوان، وتقع بين الزلفي والكويت (ابن جريس).

(٤) لقد قدمت التفاصيل المتعلقة بهذه الأماكن حسبما أعطيت لي. والتفاصيل الأكثر دقة يمكن العثور عليها في خريطة البصرة الدولية عام (١٣٤٦هـ/١٩٢٧م) (فيلبي).

نهايتها المبتسرة والمخزية؛ لأن القائد الشاب، سواء كان يعمل بأوامر واردة من ابن سعود أو مستاء من فشله في العثور على العدو، سار مصحوباً بجميع قواته من المواطنين النظاميين وعناصر الإخوان من الدهناء والفريشان إلى بريدة، تاركاً مجموعتي الغطغط والأرطاوية ليلحقوه بأمتعة الجيش. وهكذا انقلب الهجوم إلى حشد دفاعي في القصيم، وتأجل افتتاح الحملة الحقيقية إلى ما لا نهاية.

في هذه الأثناء كانت التطورات غير المواتية على جبهة الحجاز قد بدأت في إثارة المخاوف من حريق هائل واسع النطاق. وكان ابن سعود قد ردّ بطريقة مراوغة على طلب المساعدة الذي جاءه من خالد بن لؤي أمير الخرمة الذي كان يتوقع هجوماً من قوات الشريف[١]. ولم يكتف بنصحه فقط بتنبيهه إلى أخذ الحيطة في أعماله، ولكنه هو نفسه قد أخذ الحيطة بتحويل عناصر كل كتيبة الغطغط من إخوان عتيبة التي انطلقت أصلاً لمساندة خالد، إلى المعسكر التابع لتركي. وهكذا أصبح الوهابيون في الخرمة معزولين، وقبل بداية رمضان بحوالي عشرة أيام تعرض معسكرهم في وادي سبيع لهجوم مفاجئ ودون تحذير من قبل قوات الأشراف، بقيادة الشريف حمزة، والتي أتت دون أن يلحظها أحد وأعلنت قدومها بعاصفة مدوية من نيران المدفعية[٢].

وعندما أفاق السبيعيون من مفاجأتهم ثاروا وهجموا على العدو، وأجبروه على الفرار، حيث خسر ٢٨ رجلاً قتيلاً ومدفعاً واحداً ورشاشين، بينما وصلت خسائرهم

(١) خالد بن لُوى من العبادلة الأشراف. كانت له ولأسلافه إمارة الخرمة، كان يدين بالولاء للشريف حسين بن علي في الحجاز، ثم صار من رجال ابن سعود بعد أن قابل بعض الإهانات من أبناء عمومته الأشراف. شارك في حروب عديدة مع ابن سعود ومات في حبيا عام (١٣٥هـ/١٩٣٢م). انظر، الزركلي، الأعلام، جـ٢، ص ٢٩٩ - ٣٠٠ (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإضافات عن بلاد سبيع وبلدة الخرمة، وكذلك عن قبائل سبيع، انظر: عبدالله سعد الحضبي السبيعي. الخرمة (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م) ص ١٧ وما بعدها، الحقيل، كنز، ص ١٣٠ - ١٣٤. (ابن جريس).

إلى خمسة قتلى. وكان خطاب خالد الذي يعلن فيه ذاك الصدام الحقيقي الأول بين العناصر المتقاتلة، الذين كانوا يناورون بصورة غامضة لكسب موقع منذ ديسمبر الماضي، قد جعلنا متأكدين من خطورة الموقف. وكان هناك خطر كبير من أن الإخوان، وهم فرحون بالنصر المبدئي، قد يجمعون تعزيزات ويستأنفون الهجوم، وفي هذه الحالة سوف تشتعل فوراً الحدود كلها من تثليث في اتجاه الشمال.

ومن ناحية أخرى، لم يكن من غير المرجح أن الشريف، وهو يتألم تحت وطأة عار هذه الهزيمة، سوف يحاول الانتقام والأخذ بثأره بقوات أكبر، وفي تلك الحالة لا يستطيع ابن سعود أن يتمنى منع جميع عناصر الإخوان في نجد من التدفق لمساعدة إخوانهم في العقيدة[1]. ولم يكن هناك شيء يمكن عمله إلا بيان خطورة الموقف للسلطات في بغداد والاتفاق مع ابن سعود على كبح جماح رعاياه عن أي عمل للأمام إلى أن تصبح نتائج إيضاحاتي للسلطات معروفة[2].

في تلك اللحظات تم احتواء الأزمة وتسويتها بهذه الطريقة، ولكن سوف تستغرق رسالتي أسبوعين حتى تصل إلى بغداد، وأسبوعين آخرين حتى يصلني الرد، ناهيك عن الوقت الذي سينقضي في الاتصالات التلغرافية بين بغداد، والقاهرة، ومكة. وفي تلك الأثناء كان علينا أن نلزم أنفسنا بالصبر، ونحن ندرك أنه في أي لحظة قد تأتي الأنباء بتجدد الصراع.

وفي آخر يوم من رمضان شق ركود ظهر الصيف فجأة صوت طلقات البنادق المبشرة بوصول رسل معهم أخبار طيبة جرياً على عادة الجزيرة العربية، وعندما اقتربت الأصوات مني أكثر شاهدت جماعة من الرجال الراكبين في سرور وهم

(١) مصطلح غير مقبول من فيلبي، فالجميع في الحجاز ونجد كانوا يدينون بدين الإسلام، مع ظهور بعض المخالفات التي لا تخرجهم من ملة الإسلام (ابن جريس).

(٢) يبدو أن فيلبي كان من الأقطاب الرئيسة والمهمة لحكومته بريطانيا، وبخاصة في التخطيط لما يحصل من أحداث في البلاد العربية، كجزيرة العرب وغيرها. (بن جريس).

متجهين إلى بوابة القصر، حيث نزلوا ودخلوا دون أي جلبة أكثر من ذلك، وذهبوا مباشرة إلى مقابلة عاهلهم؛ ولأنني كنت أعتقد ان هؤلاء الرسل لا بد أنهم قادمون من عند تركي، فقد طردت الموضوع من ذهني، وأصابني شيء من الحيرة من الطريقة التي حياني بها ابن سعود عندما ذهبت لرؤيته بعد ذلك بساعة أو ساعتين. وقال: «هذا ليس طيباً» مفترضاً على ما يبدو أنني قد قرأت أفكاره. إن قوات الشريف، التي يقال: إن عددها ثلاثة بيارق، تحت قيادة الشريف زيد بن فواز، قد هجمت على الخرمة خلال الليل في منتصف رمضان، واندلع قتال عنيف تكبد فيه كلا الجانبين خسائر جسيمة وكسب الإخوان النصر مع مدفعين ورشاشين تعزيزاً لذلك النصر.

وكان ولد زيد، قائد قوة الشريف، من بين القتلى. هذه هي (البشارة) التي كانت إعلاناً للساعات الختامية من الصيام العظيم.

إن حقيقة معاملة أخبار الصدام بين الإخوان وقوات الحجاز على أنها بشارة وأخبار طيبة كانت مهمة في حد ذاتها، وعندما علقت على هذه الناحية من الموضوع مع ابن سعود، رد قائلاً ببساطة واستقامة شديدة أن أخبار انتصار الإخوان على حساب الشريف أفضل من أخبار الهزيمة(١).

لقد كان في الحقيقة مرحاً مسروراً، وحدثني طويلاً عن الخطأ المبدئي الذي ارتكبته الحكومة البريطانية بالتفاوض مع الشريف. وقال: «في يوم من الأيام سوف تندمون بحسرة على سياستكم الخاطئة، ليس عندي رغبة في التدخل بشؤون الحجاز، ولكن يجب أن تعلموا أنه ليس أمامي إلا أن أصدر أمراً، وسوف يتدفق حشد عظيم إلى لوائي من جميع الأنحاء من بيشة ونجران، من رنية وتثليث ومن

(١) في الحروب عادة يكون هناك غالب ومغلوب، والمهزوم يلحقه الخسارة المادة والنفسية بعكس المنتصر. (ابن جريس).

أماكن أخرى[١]. وكل واحد منهم واثق تمام الثقة أن الموت خير من الحياة، ليس واحداً فقط بل إنهم كلهم سيموتون من أجل الجائزة الكبرى، وكل منهم واثق أن الفرار أو التردد ليس له جزاءٌ إلا جهنم بكل تأكيد».

إن الأخبار في الحقيقة لم تأت من الخرمة نفسها، ولكن من أحد موظفي ابن سعود الذي كان يعمل على جمع الزكاة من قبائل عتيبة وقحطان في المنطقة المجاورة والتقى مصادفة مع لاجئ عتيبي من قوة الشريف. ولم أستطع إلا أن أشير إلى أن هذا الهجوم الثاني قد وقع قبل أن يتسع للشريف الوقت لتلقي أي اتصال من السلطات البريطانية. وكنت لا أزال متحفظاً بصبري، وشعرت أن معرفة أن أهل الخرمة بإمكانية تأنيهم، لحظة الحاجة، في مواجهة هذه القوات التي يرسلها الشريف ضدهم قد ذهبت بعيداً لأخذه للتصالح وضرورة التحلي بالصبر. وقد أدرك تماماً أن اندلاع الأعمال العدائية بينه وبين خصمه ستكون سيئة على مصالح كل الأطراف المعنية، بالرغم من وجود قليل من الشك في أن الحسين كان يرغب في إثارته لخرق السلام علانية لكي يضطر بريطانيا العظمى إلى التدخل[٢].

وقال لي ذات يوم: «لو لم يكن الخلاف العلني بيني وبين الشريف مصدراً من مصادر البهجة للأتراك، ففي الحقيقة ليس هناك شيء أبغض من هذا لي. وبالنسبة لعبدالله، فهو خسيس ومؤذي».

وكما ستبرهن الظروف فيما بعد، فإن (ملاحظته العابرة) هذه لم تكن أبداً بعيدة عن الصواب.

---

(١) إن فيلبي في هذه الفترة كان يعمل بشكل كلي لمصلحة بريطانيا، والملك عبدالعزيز يعرف ذلك، لكن من مصلحته أن يكون قريباً منه مثل هذا الرجل، ليكون على صلة وثيقة بما يحاك له أو ضده من البريطانيين، أو ممن لهم صلة به، كالأشراف في الحجاز، وآل الصباح في الكويت وغيرهم. (ابن جريس).

(٢) كانت الخدمة من المواطن الحساسة في الصراع بين ابن سعود والأشراف في الحجاز، للمزيد من التفصيلات انظر: العثيمين، تاريخ المملكة، جـ٢، ص ١٨٣ وما بعدها، ابن هذلول، ص ١٢١ - ١٢٢، أحمد السباعي، تاريخ مكة (مكة المكرمة: نادي مكة الثقافي، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) جـ٢، ص ٦٢٧ وما بعدها. (ابن جريس).

في عصر اليوم التالي ليوم العيد، جاء إبراهيم الجنيفي[١] عن عمد ليأخذني في رحلة خلوية بحديقة الحوطة حيث وجدت ابن سعود ورفاقه يجلسون على راحتهم دونما تكلف على العشب النضير في حديقة من أشجار الخوخ. وهذه أول مرة أخرج فيها من أسوار المدينة منذ عودتي من الجنوب، وأول تجاربي مع مجتمع الرياض بعد عودتها إلى أحوالها الطبيعية عقب الصيام. كانت المجموعة تضم كلاً من فيصل بن الرشيد، وأحمد بن ثنيان، وعبدالله أخ ابن سعود، والأميرين الصغيرين محمد وخالد وفيصل بن حشر شيخ قبيلة قحطان وولده الصغير، وآخرين[٢]. لقد جلسنا وتحدثنا زمناً حول صينية كبيرة من العنب اللذيذ من بستان العنب المجاور لنا، ثم انتقلنا إلى حديقة أخرى، وهي حديقة بائسة إلى حد ما تسمى قميح لكي نتفحص قطيعاً من النوق الحلوب الملكية التي جمعت في فناء قصر متهدم، كان قد بناه تركي الكبير ودمره بعد ذلك ابن الرشيد.

إن فيصل بن حشر، وهو محارب ذو صيت ذائع ووهابي مهيب، والذي لا يسبقه في مجالس سيده إلا الدويش العظيم، كان يحضر أحياناً مقابلاتي مع ابن سعود خلال رمضان، وقد لفت انتباهي كرجل موهوب ببديهة غير عادية، وكان يسمح لحقائق السياسة بأن تخفف من المبادئ المثالية للدين. ومهما يكن من أمر، ففي حضرته عموماً كان ابن سعود يناقش بحرية نواحي مختلفة من سياسته وإدارته، والتي لم تكن يسيرة الفهم على ذوي الذكاء المحدود لأغلبية أتباعه ومن مثل مثيري القلاقل كالدويش. ولقد رافق سيده إلى البصرة في (١٩١٦م)، وهو يبدو في حضرته دائماً، ربما لأنه لا يمكن تركه ليحكم ويبقى بأمان في محيط قبيلته. وعندما غامرت بالسخرية منه على زيارته لمثل هذا المستنقع من الخبث وعدم

---

(١) إبراهيم الجنيفي كان رئيساً للديوان الملكي في بعض فترات حكم الملك عبدالعزيز. (ابن جريس).

(٢) هؤلاء الأفراد من الأولاد ورجال الملك عبدالعزيز أثناء فترة تأسيس الدولة. (ابن جريس).

الصواب أسرع ابن سعود بالشرح قائلاً: إن معظم وقتهما كانا يقضيانه في صحبة وثيقة مع مضيفهما الإنجليزي، وإنهما لم يريا إلا قليلاً من المسلمين المحليين.

عند ذلك انتهز الفرصة وانطلق في أحد موضوعاته المفضلة، وهو المزايا النسبية للنصارى والمسلمين غير الوهابيين، والذين جمعهم جميعاً في فئة المشركين[١]. لماذا؟ قال: «إن كان لكم أيها الإنجليز أن تعرضوا علي بناتكم للزواج منهن فإنني أقبلهن زوجات، مع شرط واحد فقط وهو أن الأطفال نتيجة هذا الزواج يجب أن يكونوا مسلمين، ولكنني لن آخذ من بنات الشريف أو من أهل مكة أو المسلمين الآخرين، الذين نعتبرهم مشركين[٢]. إنني قد آكل من لحم ذبحه النصارى دون استفسار نعم ولكن المشرك، الذي يشرك آخرين مع الله في العبادة، هذا هو ما نبغضه. أما بالنسبة للنصارى واليهود، وهنا اقتبس نصاً من القرآن، فإنهم (أهل الكتاب)، ومع ذلك، وهنا سمح لنفسه بطريقة ساذجة نوعاً أن ينحدر بشكل مضحك إلى التناقض، من (أنني لا أحب اليهود، إنهم جديرون بالاحتقار والازدراء بسبب حبهم الشديد جداً للمال).

ومع أن ابن سعود كان مخلصاً في دينه كما العهد به إلا أنه مقتنع تماماً بالمزايا العملية لتحالفه مع البريطانيين، وبدا لي في تلك الأيام أن أي شيء مثل رد الفعل الودي من جانبنا سوف ينتج عنه بالتأكيد وبصورة دائمة تأسيس التسامح مع النصارى كعنصر أساسي في العقيدة الوهابية. وعلى كل حال في تلك الأيام كان مثل هذا الاعتراف بسلوكه الشخصي في حضرة أحد من القادة البارزين في قضية الإخوان لن يمر دون أهمية.

(١، ٢) الحكم على المسلمين، بصرف النظر عن مواقعهم الجغرافية، بهذا الوصف غير مقبول ومرفوض شرعاً. (ابن جريس).

وفي مناسبة أخرى كان ابن سعود، الذي كان يشعر بشيء من التعب نتيجة إصابته بمرض الصفراء، والذي أراد أن يعالجه بدواء مقيِّئ، منهمكاً عندما وصلت في المناقشة مع ابن حشر لشروط تسوية نزاع حديث نشب بين قبيلتي مُرّة وبني هاجر؛ والأخيرة هذه كانت قريبة لقحطان، وشمر أيضاً. وعندما دخلت وجدت العاهل الوهابي يرتل آيات من القرآن، والتي استمر فيها حتى النهاية، بإلقاء شبه موسيقي ينخفض أحياناً إلى النبرات العادية[١]، وبعدها أغلق الكتاب وقبّله بتبجيل قبل أن يناوله مع غطائة من القماش الأحمر إلى الجنيفي ليضعه بعيداً. والآيات محل الترتيل سواء كان قد اختارها من أجل تهذيب فيصل وتنويره أم لا إذ من الصعب أن نقول ذلك، كانت عن موضوع النصارى، وقد ذكر ابن سعود، عن طريق شرح الآيات والالتفات إليّ، أنه على عكس فيصل، كان من نسل إسماعيل «أي أولاد عمكم، لأنكم من نسل إسحاق». وقال: إن الأتراك كانوا أولاد إبليس؛ لأن أصلهم من التتار[٢]. وهكذا دخلنا في مناقشة طرائقه الإدارية، ذلك المزيج من القسوة التي لا تلين، والكرم غير المعقول، وهي التجربة التي بدت أنها النظام المثالي في بلد أهله من البدو. وخلال تلك الأيام من عمليات تركي على حدود شمر كان فيصل قلعة من القوة لسيده، يغربل التقارير، الرسمية وغير الرسمية، الواردة من الجبهة، ويقدم المشورة عن المسار الصحيح الذي يجب اتباعه ويساعد على تبديد الانطباع الذي يكتسب أحياناً أرضية في الدوائر الدينية من أن مغازلة ابن سعود مع بريطانيا العظمى تحرفه عن الطريق المستقيم لقضيتهم. ففي إحرى المناسبات، بعد يوم العيد فوراً، أثارت زيارة إلى رئيس القضاة والعلماء الآخرين مناقشة تقدم سير الحرب،

(١) إطلاق لفظة (موسيقى) على قراءة القرآن وترتيله كلمة غير سليمة، لأن تلاوة القرآن وترتيله لا تعد من الموسيقى كما يفعل النصارى واليهود في كنائسهم عند ممارسة طقوسهم الدينية. (ابن جريس).

(٢) هذه ليست حقيقة علمية، فالأتراك جاؤوا من الشرق، ومنهم التتار وغيرهم، وللمزيد عن تاريخ الأتراك، انظر: زكريا كتابجي. الترك في مؤلفات الجاحظ (بيروت: دار الثقافة، د.ت) ص ٣٤ وما بعدها، عبدالعزيز اللميلم. نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثرها في قيام مدينة سامراء من (٢٢١ - ٢٧٩هـ) (د.م. دن، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م). جزءان. (ابن جريس).

وأعلن ابن سعود خلالها أنباء هزيمة النمساويين في معركة بييف (Piave)[(١)]، وعند ذلك نطق سليمان، وهو الشاعر والواعظ في الرياض، دعاءً بوجوب ثبوت حقيقة هذه الأنباء. وأخبرهم ابن سعود أيضاً بالقصة التي قلتها له قبل وقت قصير عن ادعاء قيصر (الإمبراطور) بأنه رسول الله، وردوا جميعاً على ذلك بصورة محمومة «الله[(٢)] يقطعه» أما بالنسبة للإنجليز، هكذا قال علماء الدين «فإنك تستطيع أن تعتمد على كلمتهم وهم لا يشغلون أنفسهم بعقائد الآخرين»[(٣)]. وهكذا بكل وسيلة متاحة في حدود طاقته كان ابن سعود ت أكثر إستعداداً لحملته العسكرية القادمة، يضع أسس القبول العام لسياسته الأساسية في التحالف مع بريطانيا. وانتهت الرحلة الخلوية بصلاة عند الغروب، وقبلها انسحبت بحذر وكتمان إلى حديقة خزام حيث متعت نفسي بمشاهدة ثعلب يجول خلسة في أحواض نبات الفصفصة خارج السور إلى أن حان وقت العودة للبيوت. وفي عصر اليوم التالي، وبعد مناقشة عقيمة في الصباح مع أحمد بن ثنيان بخصوص الترغيب في إنشاء مجلس من ممثلي الدول المستقلة المختلفة في الجزيرة العربية للنظر والبت في جميع الأمور محل النزاع بينهم[(٤)]. وسيكون رئيسه بريطانياً. وافترض أحمد كمبدأ أساسي لا يقبل النقاش أن جميع المنازعات سوف تصدر فيها قرارات تكون في صالح ابن سعود. والتقينا مصادفة مرة أخرى لرحلة خلوية في حديقة البديعة التي تخص الإمام عبد الرحمن. وهي الحديقة مشهورة بأنها أفضل الحدائق في الواحة كلها، على الرغم

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن هزيمة النمسا في معركة بييت، وعن الحروب الدامية التي وقعت في أوربا ما بين عامي (١٣٣٣ - ١٣٣٧هـ) (١٩١٤ - ١٩١٨م)، انظر: هارولد تمبرلي، و. أ. ج. جرانت. أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين (١٧٨٩ - ١٩٥٠م) ترجمة محمد علي أبو درة، ولويس إسكندر (القاهرة: مؤسسة سجل العرب، د. ت) جـ٢ ١٨٠ - ٢٢٩. (ابن جريس).

(٢) الذين ادعوا النبوة كثر على مر التاريخ، وقد شاهدنا في صدر الإسلام أكثر من شخص ادعوا لأنفسهم هذه الميزة العظيمة، وهم كاذبون أمثال: الأسود العنسي في اليمن، ومسيلمة الكذاب في اليمامة وغيرهما. (ابن جريس).

(٣) هذا غير صحيح فالإنجليز هم سبب الفتن السياسية والعقدية التي مازالت نشاهدها في بلاد المسلمين، مثل قضية فلسطين، ومشكلة كشمير وغيرها. (ابن جريس).

(٤) أغلب هذه الدول ممثلة اليوم في مجلس دول التعاون الخليجي. (ابن جريس).

من أن مظهرها هذه السنة ذابلٌ نوعاً ما وسبائط تمرها رفيعة. ومع ذلك كانت أشجار الخوخ محملة بالفاكهة وشيكة النضج، وتعريشة العنب التي تغطي مساحة هائلة. وكان هذا منظراً جميلاً بعناقيد العنب الكبيرة المتدلية في الظل الظليل لأغصانها المتشابكة[١]. وجلسنا في ظل شجرة سدر كبيرة بجوار مجرى ذي خرير من قنوات الري، نأكل الفاكهة ونتجاذب أطراف الحديث بلا تكلف. وكان صيام رمضان قد نال إلى حد ما من قوة ابن سعود ونشاطه، واقترح عليه أحمد[٢] فيما يشبه المزاح أنه يجب أن يرسل إلى الكويت لإحضار مجموعة من الأدوية (المقوية). وهنا أعربت عن دهشتي من عدم وجود إمداد كافٍ من الأدوية وعدم وجود طبيب كفء في الحقيقة بالعاصمة، وتطوعت بجلب الأخير إن كان مرغوباً[٣]. وإنني أود أن يكون عندي طبيب جيد، ومسلماً إن أمكن، على الرغم من أنني لن أعترض على رجل إنجليزي إذا تعذر جلب طبيب ومسلم من الدرجة الأولى. وهذه مسألة سوف أناقشها معك في وقت آخر[٤]. ومن سوء الحظ كما ثبت بعد ذلك أن الموضوع هذا لم يتجدد أبداً بيننا، وأن وباء الإنفلونزا الإسبانية الذي غزا وسط الجزيرة العربية في الشتاء من تلك السنة، قد وجد الأسرة المالكة والناس بصورة عامة بلا وقاية[٥]. وقد أرسل على عجل إلى الدكتور هاريسون بالبعثة الأمريكية في البحرين، ولكنه وصل متأخراً جداً لإنقاذ بعض من كبار ضحايا هذا المرض القاتل.

---

(١) كان يوجد في الرياض آنذاك العديد من الحدائق والمتنزهات الجميلة التي أصبحت اليوم ضمن منطقة المربع وسط الرياض. للمزيد عن جغرافية وحضارة مدينة الرياض، انظر: الجاسر، مدينة الرياض، ص ٢١ وما بعدها، وليام فيس، ص ٣٢ وما بعدها، فهد الكليب، الرياض، ص ١١ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) يقصد بـ (أحمد) هنا: أحمد بن ثنيان. (ابن جريس).

(٣) لمزيد من التفصيلات عن بداية الخدمات الصحية في المملكة العربية السعودية، انظر: العثيمين، تاريخ، جـ٢، ص ٣٤٦ - ٣٥٠، بدر بن عبدالعزيز الربيعة «تطور الخدمات الصحية في المملكة العربية السعودية (خلال مائة عام)» بحث مقدم في مؤتمر المملكة العربية السعودية للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م). (ابن جريس).

(٤) كلام الملك عبدالعزيز كان موجهاً إلى فيلبي. (ابن جريس).

(٥) الأمراض، كالحمى، والانفلونزا، والجدري، والطاعون وغيرها كانت من الأوبية الأكثر انتشاراً بين الناس أثناء ذلك العهد الذي يتحدث عنه فيلبي. (ابن جريس).

في الساعة الخامسة عصراً من اليوم التالي أي الموافق الثاني عشر من شهر يوليو قيل لي إن ابن سعود قد ركب خارجاً من المدينة، وإن حصاناً صغيراً كان قد أعدّ لي إن رغبت في اللحاق به. وهكذا ركبت، وكان السرج غير مريح بالمرة، والركاب المتدلي كان حبالاً عادية من نوع شديد الخشونة، وخرجت من البوابة الشمالية الشرقية مروراً بمصلى العيد، وفيه أحصيت نحو خمسة وعشرين صفاً كما يتضح من أقدام المصلين، ثم تجاوزت خيام البدو في البطحاء إلى حديقة تسمى العود والتي بجوارها انتظرنا عند قدومنا أول مرة إلى الرياض حتى أعطيت لنا إشارة الإذن بالدخول إلى المدينة. والمساحة شرق الحديقة كانت مليئة بخيام البدو، وفي إحدى أكبر هذه الخيام، التي خصصت لهذه المناسبة، جلس ابن سعود وسط جمع غفير. وكان أطفال أخيه سعد الصغار موجودين هناك، وفهد أيضاً، وعندما ألقيت عليه التحية جاء متقدماً بقليل من الخجل وعرض وجهه لقبلة، والتي أعطيتها له كما ينبغي. ومحيميد الشاب كان هناك أيضاً، وإبراهيم الجميعة، الذي لم أكن أتحدث معه حتى الآن بالطبع. وفي وسط الخيمة جاء رسولٌ من البحرين، وأصروا على قراءتي بصوت عال لمحتويات مجموعة من برقيات رويتر التي تلقيتها. وكان الانتصار الإيطالي على أرض معركة بييف قد تأكد مع بعض التعديل على اكتمال المعلومات الأصلية، وكان الحاضرون قد سعدوا بتقرير عن أن الألمان أنهم أخذوا يأكلون القطط والكلاب بسبب نقص الغذاء الخطير عندهم(١). وعن أحد البنود الواردة في حقيبتي للبريد، وهو بند كنت أرحب به ترحيباً غير عادي، سكت عنه بحذر وكتمان، لأنه كان عبارة عن مؤونة من التبغ والسجائر الواردة من الوكيل السياسي البريطاني في البحرين المعروف بذكائه وتقديره للآخرين(٢).

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن الحرب بين الألمان واعدائهم في معركة بييف (Piave)، انظر: هارولد تمبري، أوربا في القرنين (١٩م/٢٠م)، جـ٢، ١٦٢ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) فيلبي في هذه الفترة كان يعمل بشكل كلي لمصلحة حكومته بريطانيا (ابن جريس).

في تلك الليلة جاءني ابن سعود زائراً في القسم المخصص لي من سطح القصر، ومكث لما يزيد على ساعتين يناقش الموقف الذي يواجهه الآن. وقال منذ العيد وهو لا يشعر بأنه طيب، ليس بسبب أي مرض أو تعب ولكن بسبب القلق وحده. وكان قد بدأ يحس بالقلق منا[١] في ذهنه، ويشعر بأن سلوكنا نحوه لم يعد ودياً كما كان من قبل في الأيام الأولى لبعثتي. وكان يعزي هذا التغير إلى احتمال تدهور ثقتنا فيه وقال: ليس هناك أحد في الوجود، مسيحي أو مسلم، لديه أسباب أكثر وجاهة لبغض الأتراك أكثر منه؛ إنه يكرههم ليس لأسباب دينية فقط، ولكن لأنهم دائماً يردون على الحسنة بالسيئة. ففي سنة (١٩٠٤م) عندما كانوا يرسلون قوات نظامية لمساعدة ابن الرشيد ضده، هزمهم في البكيرية ولكنه سمح لهم بالرحيل سالمين إلى البصرة والمدينة. ومرة أخرى عندما استولى على الإحساء في سنة (١٩١٤م) سمح للقوات التركية بأن ترحل مع أسلحتها. إن الاستيلاء على الإحساء نفسه قد فُرض عليه فرضاً للدفاع عن نفسه، لأن الأتراك قد استخدموا موقعهم هناك للضغط عليه بأسلحة اقتصادية، وكان يخشى عودتهم إلى هذه الأصقاع مرة أخرى لأنه قلق على مستقبل دينه، ولأنهم حتماً سوف يجهزون أنفسهم مرة أخرى؛ للقضاء على حياته وحياة وأرواح شعبه[٢]. وفوق كل هذا وذاك، وعلى الرغم من أنه كان يتابع طبعاً تطورات الحرب الأوروبية باهتمام شديد، وكان قلقاً من نتائجها إلا أنه لا يشك أبداً ولو للحظة واحدة أن الخليج والعراق سوف يظلان في أيد بريطانية؛ لذلك لديه حافز واضح على أساس ذاتي محض لأن يسعى إلى علاقات أكثر وداً وصداقة معنا[٣].

---

(١) المقصود بكلمة (منا) أي الانجليز الذين ينتمي لهم فيلبي. (ابن جريس).

(٢) حول الصراعات بين الملك عبدالعزيز والدولة العثمانية في الأحساء وما حولها عام (١٣٣٣هـ/١٩١٤م)، انظر: أبو علية، دراسات في تاريخ الجزيرة، ص ١٠٩ - ١٢٤، ٣٣٩، لوريمر، ص ٥٠١ وما بعدها. وللمزيد عن بلاد الأحساء، انظر: ف. ش. فيدل. واحة الأحساء (الرياض: مطابع الجمعة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م) ص ١٣ وما بعدها. (ابن جريس).

(٣) ما يذكر فيلبي هنا يدل على عمق سياسة الملك عبدالعزيز وقدرته على استقراء الأحداث السياسية، وعما سوف تسفر عنه. (ابن جريس).

وقد أكدت له أن ولاءه لم يكن أبداً محل تساؤل فيما يتصل الأمر بنا، ولكني رجوته أن يدرك أن أعداءه لم يملوا أبداً من التحريض والإشارة إلى عجزه عن الإنجاز، وعلى عدم قدرته السيطرة على المهربين في دولته أو على إحراز أي نجاح عسكري كاسح. وقبل سفري إلى الجنوب ذكرت له حادثة نجمت عن مشكلة الحصار في الكويت خلال شهر إبريل. فقد جاء اثنان من قبيلة العقيل وهما قاسم بن رواف ومحمد بن دخيل واللذان لهما اهتمام ببعض البضائع التي يحتجزها ضابط الحصار (المقاطعة) نازلين من سوريا حتى وصلا إلى الزلفي أو ما جاورها، ولديهما نية صريحة على تهريب البضائع إلى العدو[1]. واعترف ابن سعود أنه يعرف أن هذين الشخصين محل التساؤل وليس عنده أية أخبار عن تحركاتهما المزعومة، ولكنه وعد بالتحري. وعند عودتي أخبرني أن كلا الرجلين في الرياض، وفي اليوم التالي أرسل لي أحمد بن ثنيان ومعه عريضة شاذة من أهل القصيم يعلنون فيها أن البضائع المحتجزة ملكٌ لأيتام وأناس بريئين تماماً. بعد ذلك رفضت أن أتدخل على أساس أنني لو فعلت ذلك فإنني أقوم بشيء ضد ابن سعود، خاصة وأن القصة كانت واهية تماماً وبشكل واضح ولا يمكن قبولها على علاتها. وقال ابن سعود: إنه لن يحقق في هذا الموضوع احتراماً لما شهدت به، بيد أنه اقترح أن نقوم بمقابلة المتهمين معاً. وقد قمنا فعلاً بذلك كما ينبغي في صباح اليوم التالي، وكانت قضيتهما كما ذكراها بنفسيهما كالآتي:

أولاً: أنهما كانا في بغداد في وقت احتلالها من قبل البريطانيين.

ثانياً: أنهما انتقلا بعد ذلك إلى البصرة بتصاريح بريطانية رسمية.

ثالثاً: أنهما في الكويت قابلا الشيخ سالم، الذي نصحهما بعدم وضع اسميهما في

(١) لمزيد من التفصيلات عن التجارة والطرق التجارية بين بلاد الشام والعراق وبين نجد والقصيم في الجزيرة العربية، انظر، العقيمين، تاريخ، جـ٢، ص ٣٥٠.

طلبات الحصول على تصريح المرور من الحصار، وهذه النصيحة أخذاها بلا ارتياب، بينما نسبا شخصيتيهما إلى جماعة أمير الزلفي.

رابعاً: أنهما كانا فعلاً في الكويت عندما تم حجز البضائع، ولكن الشيخ سالم أمرهما، عندما توسلا إليه، أن يغادرا المدينة مع باقي أهل نجد. وقد قلت لهما إنهما قد ارتكبا عملاً غبياً بالتعامل مع الشيخ سالم بدلاً من التوجه مباشرة إلى سلطات الحصار البريطانية، والآن اقترحت وجوب عودتهما إلى الكويت مع عهدٍ بالأمان مني ليشهدا بقضيتهما. وإذا كانت قصتهما حقيقية فإن بضائعهما أو قيمتها سوف تُردّ إليهما.

وقد وافقا على هذا الاقتراح، وهكذا انتهت قصة ناشئة فقط من مكائد الشيخ سالم، الذي كان كل همه الشاغل أن يفقد ابن سعود مصداقيته[١].

وعلى العموم فقد أكد لي أن عندي مبررات تامة لرأيي الذي طرحته من أنه منذ بداية السنة كان حصار القصيم فعالاً تماماً باستثناء حالة واحدة التي كان نادماً عليها والتي بشأنها كان يتخذ إجراءات صارمة ليلقي القبض على المجرمين ويجعلهم عبرة من خلال عملية إعدام بسيطة. وقد أعلنت جماعة من البدو عن عزمها على الذهاب إلى الحجاز، واشترت حمولة نحو سبعة جمال من البضائع والأقمشة في القصيم. وبعدما انطلقت على درب المدينة تحولت عند هيت وهويت ودخلت في بلد ابن الرشيد، ومنذ ذلك الحين لم يُسمع عنها شيء أكثر من ذلك. وقد أصدر ابن سعود الآن أوامره نتيجة لهذه الحادثة بأن لا ينتقل أحد من نجد إلى الحجاز[٢].

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن العلاقات بين ابن سعود وأمير الكويت الشيخ سالم الصباح، انظر: السعدون، العلاقات بين نجد والكويت، ص ١٩٦، حافظ وهبة، جزيرة العرب، ص ٢٨٧ الخترش، ص ٩١، جمال زكريا قاسم. الخليج العربي: دراسة لتاريخ الإمارات العربية (١٩١٤ - ١٩٥٤م) (القاهرة، د.ن، ١٩٧٣م) ص ٥٠، حسين خلف الشيخ خزعل. تاريخ الكويت السياسي (بيروت، د.ت، ١٩٦٢ - ١٩٦٥م) جـ٣، ص ١١٦، جـ٤، ١٠٧، ١٢٤، ١٣٥، ٢٠١ - ٢١١. (ابن جريس).

(٢) للاطلاع على معلومات أكثر عن المواصلات والصلات التجارية بين نجد والحجاز، انظر: العثيمين، تاريخ، جـ٢، ص ٣٥٠ وما بعدها.

انتهت مقابلتنا الطويلة عن هذه الحادثة بتكرار تأكيداته أنه سوف يهاجم ابن رشيد في المستقبل القريب، وكنت قد استطعت أن أوضح له أنه انطلاقاً من مسؤوليتي الخاصة وبثقة كاملة في وعده، قد وضعت بعض الأموال تحت تصرفه، ومن ثم ليس بمقدوره أن يتوقع أي مزيد من العطف أو التنازلات إلا بعد أن يبرر ثقتي فيه بالكامل. وقلت له: إن التجربة قد علمتنا أن نرتاب قليلاً في وعود العرب وتعهداتهم، ولكننا لن نقصر معه أو نخذله إذا أثبت أن ارتيابنا أو شكنا في أمره كان بلا مبرر[١].

في عصر اليوم التالي، عندما استدعاني الجنيفي للحضور[٢]، وجدت ابن سعود يعترض بغضب على بعض التصرفات التي من الواضح أنها تظهر بين الفينة والأخرى في صفوف الإخوان من أناس غير ضالعين في العلوم الوهابية الذين يقدمون للناس تفسيراتهم الخاصة للنصوص الدينية. إنه لن يتسامح مع مثل هذا النوع من الأشياء ولن يدعه ـ كما أعلن ـ يفسد أخلاق شعبه، الذي تتاح له فرصة وفيرة في أن ينهل من معين الحقيقة من وعاظ موثوقين[٣]. ولم أعرف أبداً ما هي مناسبة هذا الانفجار، ولكنه انتهى ببعض الحديث عن اليهود منتقصاً من قدرهم

(١) لا شك أن بريطانيا كانت متعاطفة نوعاً ما مع الملك عبدالعزيز ومساندة له، لكن لا أحد يجهل ذكاء الملك عبدالعزيز وحنكته السياسية التي أوصلته في نهاية المطاف إلى التغلب على خصومه، ثم نجاحه في توحيد أجزاء المملكة العربية السعودية. لمزيد من التفصيلات، انظر: لوريمر، ص ٥٠١، حافظ وهبة، ص ٢٥٠، العثيمين تاريخ، جـ٢، ص ٥٧ وما بعدها، محمود شاكر، نجد، ص ٢١٢، فان دورمولين، ص ٥٥، فيلبي، العربية السعودية، ص ٥١٥ وما بعدها، الشهيل ص ٢٥ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) الجنيفي: هو إبراهيم الجنيفي رئيس الديوان الملكي. (ابن جريس).

(٣) من يطالع مراسلات ووثائق الملك عبدالعزيز إلى جميع شرائح المجتمع يجده يصر على توحيد الألوهية والربوبية لله الواحد القهار، ثم إن مصادره في سياسة دولته مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ للمزيد انظر: محمد الخميس. عناية الملك عبدالعزيز بالعقيدة السلفية ودفاعه عنها (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٣١٩هـ/١٩٩٩م)، ص ١٧ وما بعدها، إبراهيم السماري، الملك عبدالعزيز، ص ٣٣ وما بعدها، كمال الكيلاني. عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود والإصلاح الإسلامي المعاصر (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، عبدالله التركي، الملك عبدالعزيز، ص ١٠٥ وما بعدها، عباس محمود العقاد. مع عاهل الجزيرة العربية (بيروت: منشورات المكتبة العصرية، د.ت)، ص ١٣ وما بعدها، محمد رفعت المحامي. أسد الجزيرة قال لي ص ٢٣ وما بعدها. (ابن جريس).

وهم كما قال، حرمهم الله تعالى إلى الأبد من أن تكون لهم أمة. وبحسب المعتقدات الوهابية فإن جميع الطوائف الأخرى من المسلمين تعد من بين المرتدين بينما التسامح يمتد إلى النصارى[١].

وبعد الظهيرة لحقت أنا والجنيفي بالجماعة الملكية في حديقة الخزام[٢]، ولدهشتي وسعادتي العظيمة كانت الجماعة تضم محمد بن فهد من الأسياح، الذي استضافني بلطف شديد خلال زيارتي للأفلاج، والذي جاء الآن في زيارة للعاصمة. وقد قام ابن سعود، الذي كان في مسحة بهيجة، بممازحته بشكل لطيف لأبناء عمومته، أي أسرة الأشراف، عندما كنا نجلس كالعادة حول طبق كبير من العنب. وكانت الأطلال التي كنا نجلس بينها قد دفعتني إلى بعض الملاحظات عن كثرة مثل هذه المشاهد في الجزيرة العربية. وعندها قال ابن سعود، وهو يشير إلى فيصل ابن رشيد: "إنه هو وقومه المسؤولين عن جميع هذا الدمار، أدعو الله أن يدمر بيت ابن رشيد كما دمر بيوتنا". وعندما اقترب الغروب، نادى مطالباً بـ (الورْد)[٣] وهو مختارات من القراءات في القرآن أو الحديث تقرأ عادة قبل صلاة المغرب، واستأذنت منصرفاً بصحبة الجنيفي وعطا الله. وفي أثناء عودتنا لبيوتنا عن طريق حديقة الشمسية صادفنا اثنين من الشوام[٤] هما صبري أفندي من دمشق وموسى فرعون من القدس، واللذين كان قد أتيا إلى نجد منذ عامين لشراء جمال للأتراك وقبض عليهما ابن سعود بطلب من السلطات البريطانية وحبسهما منذ ذلك الحين

---

(١) فيلبي خلط معلوماته هنا، فاليهود هم الذين قتلوا الأنبياء وحرَّفوا التوراة، أما قوله بأن المعتقدات الوهابية تعتبر طوائف الإسلام الأخرى مرتدة، فهذا غير صحيح، لأن المرتد لا يكون بهذه الصفة إلا إذا ترك الإسلام واعتنق غيره، ولكن هناك فرق إسلامية عليها ولها مخالفات شرعية بسبب عدم التزامها بما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن أحياء وقرى مدينة الرياض وما حولها، انظر: وليام فيسي، الرياض، ص ٣٢ وما بعدها، خالد السليمان، معجم مدينة الرياض، ص ١٧ وما بعدها، فهد الكليب، الرياض، ص ٨٥ - ٨٧ (ابن جريس).

(٣) الورد: هو قراءة شيء من القرآن والسنة يومياً. (ابن جريس).

(٤) الشوام: هم أهل بلاد الشام، وكل من يأتي من جهة الشمال يقال له شامي، أو شمالي. (ابن جريس).

في سجن مفتوح، أي لهما حرية التجول هنا وهناك ولكن ليس مغادرة الرياض. وكان هناك رجل آخر في المجموعة، وهو رجل قصير وبدين وكانت رجله موضع سخرية يدعى محمد توفيق فرعون والذي أخذ يتظاهر بمعتقدات الإخوان، والرابع، ويسمى عبدالله سمعان، قد اعتنق فعلاً المذهب الوهابي وأصبح مطوعاً يقضي وقته كله في صحبة علماء الرياض. هذان الاثنان لم أرهما أبداً، ولكن صبري وموسى قد برهنا على رفقتهما الممتازة خلال نصف الساعة التي قضيناها معاً في السير بهدوء نحو البيت. وقد بدا أنهما سلّما تماماً بإقامتهما المؤقتة الجبرية دون نشاط في الرياض راضيين بشكل أو بآخر عن نصيبهما.

وكان صبري رجلاً ذا أطراف كبيرة وملامح جميلة بصورة غير اعتيادية، ومن الواضح أن أصله كان تركياً، بينما كان رفيقه صغيراً ونحيلاً، داكن اللون، يهتم حسب رأيي بحالة القدس حيث كان بيته في الحي الألماني فيها عند زيارتي الأخيرة. وعند دخولنا المدينة قابلنا سلطان بن حسن من الكويت، الذي تبدو عليه إمارات الصحة والأناقة، وهو خارج من باب بيته في الشارع الرئيس. وقد فشل في التعرف عليّ في البداية وبعد ذلك اعتذر بشدة قائلاً: «لقد اعتقدت أنك واحد من البدو». لأنه في الحقيقة لم يرني من قبل هذا إلا أثناء الليل على السطح مكان إقامتي عندما كنت أطرح غطاء رأسي جانباً[١]. وقال لي: إنه سوف ينطلق في هذه الليلة نفسها إلى بريدة ليمهد الطريق للحجاج المتوقع وصولهم عما قريب في القصيم قادمين من الساحل. إن فكرة هذا الحج بالبر عبر الجزيرة العربية قد نشأت بموافقة من السلطات البريطانية في العراق التي كانت شغوفة بالقدر نفسه بوجوب إرسال كتيبة من العراق لتقديم البيعة والولاء لنظام الحكم الجديد في الحجاز، وأنه لا ينبغي له أن يقدم أي طلب جديد يضغط على مواردنا التي تأخذها تكلفة الشحن بالكامل.

---

(١) المعروف عن فيلبي أنه كان يلبس زي أهل الجزيرة العربية أثناء تجواله فيها ومن يشاهد بعض صوره الفوتوغرافية يلحظ ذلك. (ابن جريس).

وقد تقدم رجل يدعى عبد العزيز بن حسن، وهو والد سلطان وكان أمير الحج البري(١)، بطلب تعيينه في وظيفة مماثلة بهذه المناسبة، وكل ما تبقى عمله هو اتخاذ الترتيبات الضرورية مع ابن سعود، وكانت الفكرة سليمة من الناحية الجوهرية في ظل الظروف، وابن سعود، الذي لم يبد أي اعتراض من حيث المبدأ، قد تحفظ فقط وبصورة معتدلة على اختيار طريق الكويت، الذي يستطيع أن يتحمل فقط، بالنظر إلى الحالة المضطربة وغير المرضية في عجمان وما يسمى بعناصر شمر "الصديقة"، التي لا تتحمل المسؤولية الكاملة ابتداءً من الدهناء باتجاه الغرب. وكان يضغط لتحويل الحجاج القادمين إلى طريق البحرين الرياض، والذي سوف يتقبل راضياً المسؤولية الكاملة عن سلامتهم وأمنهم مع توفير النقل والترتيبات الأخرى(٢). وقد قمت بإخطار السلطات في بغداد بذلك، وأضفت إليه رأيي الشخصي من أنه إذا ما تبين أن طريق الكويت أكثر راحة وأمناً بصورة مؤكدة فإن تعاون ابن سعود التام يمكن بكل ثقة الاعتماد عليه.

وفي أثناء المراحل الأولى من المراسلات بخصوص هذا الموضوع كنت قد قابلت سلطان لأول مرة، الذي أعلن عزمه الاستقرار بصورة دائمة في بيته القديم ببريدة بسبب السلوك العنيد للشيخ سالم تجاه جميع الأشخاص من أصلٍ نجدي، والذي دائماً ما اعتاد على زيارتي بعد المغرب عندما يكون باقي الناس في الصلاة بشكل

---

(١) إمارة الحج كانت معروفة من عهد الرسول ﷺ، وهكذا استمرت خلال العهود الإسلامية المبكرة والوسيطة. فكان كل موكب يأتي من الشام، أو الطرق، أو مصر يصحبه أمير خاص به. والخلفاء في عهد بني أمية وبني العباس كانوا أحياناً هم الذين يتولون إمارة الحج، أو يرسلون من قبلهم من يتولاها نيابة عن الخليفة. للمزيد انظر: أبو العباس أحمد المقريزي. الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك. تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة: د.ن، ١٩٥٥م) ص ١٤ وما بعدها، عبدالقادر بن محمد الأنصاري الجزيري. الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة (الرياض: منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) (٣ أجزاء). (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن التجارة والطرق التجارية في الجزيرة العربية خلال عصر الملك عبدالعزيز، انظر: العثيمين، تاريخ، جـ٢ ص ٣٥٠.

مؤكد. وفي مناسبة أخرى كان قد أحضر لي علبة صغيرة من التبغ المحلي، وقد كانت تعزيزاً مقبولاً للمخزون المتناقص عندي[1]. وقد أوضح التأكيدات الجادة لرغبته في أن تعارفنا الذي بدأ الآن يجب أن ينضج ليصبح صداقة أبدية، وكنت دائماً أشعر أن رغبته التي يعلنها مراراً في أن يكون في خدمتي تنذر بشيء ما أو خدمة أخرى كان يريدها مني، بيد أن تعارفنا كان يزيد وينحسر خلال الشهور التي تلت ذلك دونما أدنى إشارة أو تلميح لنوع الخدمة المطلوبة. ومن المؤكد أنني قد غادرت الجزيرة العربية دون أي شعور داخلي من أنني قد لبيت مصالحه بأي شكل كان.

عند مقابلتي لابن سعود في اليوم التالي وجدته يصدر أوامره لعد طلقات الذخيرة التي أعادتها جماعة من البدو كانت قد صرفت لهم لغرض ما. ومقابل كل طلقة ضائعة أو مفقودة كانت تفرض غرامة مقدارها ريالاً واحداً إلا إذا أمكن إيضاح أسباب ذلك بصورة مقبولة. وكانت هذه طريقته الوحيدة لاكتشاف السرقة أو الإهدار غير اللازم للذخيرة من قبل أولئك الذين صرفت لهم؛ لأن صيد الطرائد بصورة مسرفة وجميع حالات إطلاق النار تعبيراً عن الفرح كانت مرفوضة في الدولة الوهابية[2].

وخلال رمضان تلقى ابن سعود معلومات من ابن عسكر، أمير سدير، أن جماعة من بدو قبيلة حرب قد وصلت من الحجاز ودخلت منطقة نفوذه في قافلة من عشرين جملاً محملاً باثني عشر ألف طلقة من ذخيرة الأسلحة الصغيرة البريطانية، والتي استلموها من الشريف لاستخدامها على ما يبدو في عمليات ضد

---

(١) المعروف عن فيلبي إدمانه في شرب التبغ الذي كان يحرص على اقتنائه وحمله معه في جميع رحلاته. (ابن جريس).

(٢) إطلاق النار في المناسبات الاجتماعية أو أثناء ممارسة العيد لم تكن مرفوضة كما يقول فيلبي، وإنما كانت تستخدم وقت الحاجة في الأوقات والأماكن المناسبة. (ابن جريس).

خط سكك حديد الحجاز. كان هؤلاء البدو متجهين للكويت لبيع غنيمتهم، ولكن ـ طبقاً لتعليمات ابن سعود بعدم السماح لأي ذخيرة بالمرور من منطقته ـ قام ابن عسكر بشراء الشحنة كلها. وكان سوق الكويت هو المصدر المحتمل الذي يسحب منه رجال القبائل الخليجيين (الفرس) على الساحل الآخر إمداداتهم[١]. وكان من المعروف في بغداد أن هذه الإمدادات كانت تصل إليهم من الخارج، على الرغم من أنه كان من المفترض بصورة عامة أنها تأتي أساساً من العراق نفسه، حيث كان الكثير من الذخيرة قد ترك مهجوراً في ميادين قتال متنوعة لتسقط في يد رجال القبائل. ولم نبدأ إلا بصورة تدريجية أن ندرك أن جزءاً عظيماً من الذخيرة التي مدنا بها الشريف كانت تجد طريقها إلى السوق نفسه الذي لا يشبع والمعادي لنا أحياناً. وفي الحقيقة كان ابن سعود بالطريقة التي وصفناها هنا قد اشترى خمساً من مثل هذه الشحنات من الذخيرة حتى هذا الوقت، أي حوالي (٢٠٦,٠٠٠) طلقة في مجموعها، حتى يستبدل بها قدراً كبيراً من الذخيرة القديمة والفاسدة (التركية) التي تلقاها على سبيل الهدية منا.

كما أشرت سابقاً فيما يتصل بترتيبات الحج المقترح عبر مناطق ابن سعود، كانت الصحراء الشرقية بين الكويت والدهناء في حالة من انعدام الأمن بصورة خطيرة. وكان ضاري بن طواله الذي سُحب من نطاق سلطتي وسُمح له بالإقامة المؤقتة في صفوان تحت سيطرة العراق، يجني أرباحاً طائلة عن طريق تسهيل تهريب البضائع إلى العدو[٢]. وفي إحدى المرات سمح لحمولة خمسمائة جمل بالمرور خلسة إلى ابن رمال، وكان غيابه عن حفر الباطن ـ حيث كنت نصَّبْته هناك ـ قد نتج عنه

---

(١) الخليج العربي يحيط به من جهات الجزيرة العربية قبائل عربية أصيلة، بينما السواحل الأخرى التي تطل منه على بلاد إيران والعراق فإنه ليستوطنها عناصر فارسية ويخالطهم بعض العناصر العربية. (ابن جريس).

(٢) تهريب الأسلحة كانت من أكبر المشكلات التي تعاني منها بريطانيا في البلاد العربية، وكذلك ابن سعود لهذا كان كل واحد منهما حريصاً على ضبط المنافذ القريبة منه، ومراقبة تحركات تجار تهريب الأسلحة في كل من الكويت والعراق وسوريا وغيرها. للمزيد انظر، خزعل، جـ٣، ٢٨ السعدون، ص ١٨٨ وما بعدها. (ابن جريس).

تمكن قبيلة عبدة من الهرب من تهديد حشود تركي لها. بيد أن المسؤولية الرئيسة عن القلق والاضطراب في هذه الأجزاء تقع على عاتق الشيخ سالم، الذي لم يترك أي فرصة لمضايقة ابن سعود، ومن المؤكد تقريباً أنه قد تفاهم بخصوص هذا الموضوع مع الشريف.

وخلال شهر شعبان وقع خلاف بين فخذي علوة وبريح من قبيلة مطير بسبب نزاع حول حقوق السقيا[١]، وقد قتل ستة من الفخذ الأول بينما خسر الثاني عدداً من الإبل. وقد عرض سالم للوكيل السياسي البريطاني أن بعض رؤساء فخذ بريح، الذين عليهم بموجب عادات الصحراء أن يدفعوا تعويضاً عن الدم المراق في هذا النزاع، قد جاؤوا إليه عارضين وضع فخذهم تحت حمايته، وأن يدفعوا له الزكاة. وكان سالم ـ بعدما أشار إلى اتفاق قديم يعود تاريخه إلى عهد مبارك كان بموجبه قد خضعت مطير بدفع الزكاة للكويت عند إقامتهم إقامة مؤقتة في ذلك الإقليم ـ قد استفسر بصورة بريئة عما إذا كان هناك اعتراض على موافقته على طلبهم. وكان الكابتن لوك (Loch) الوكيل السياسي البريطاني، قد استشعر رائحة المشكلة وأفاده بعدم قبول هذه الطريقة. وجاءت المشكلة إليّ في الرياض في الوقت المناسب، حيث كان ابن سعود قادراً بكل يسر على البت فيها والتخلص منها مرة واحدة وإلى الأبد. وكان اثنان من رؤساء بريح الثلاثة المعنيين، وهما طامي القريفة ومطلق بن مهيلب موجودين حقيقة في الرياض في ذلك الوقت فيما يختص بتسوية هذه القضية طبقاً لإجراءات الصحراء المعتادة، وأرسلهما ابن سعود إليّ لإعادة التحقيق معهما. وعندما تحدثا عن نفسهما وعن الشيخ الثالث، مشعل المريخي فقد أنكرا بصورة صريحة تقديمهم طلباً إلى سالم الذي ـ كما أضافوا ـ كان شغوفاً بوضعهم تحت سيطرته سواء من الناحية المالية أو السياسية. وهكذا تكشفت حالة أخرى

---

(١) كانت المنازعات بين القبائل في جزيرة العرب، وبخاصة على الماء والكلأ، من أكبر المشكلات التي تخلق دماراً عظيماً في البلاد. (ابن جريس).

كمثال على دبلوماسية سالم الساذجة، وقد كان فيما يبدو فاسداً لا سبيل إلى إصلاحه، تستبد به فكرة إلحاق الأذى بقوة بأي أحد لا يرضخ له وينظر إليه على أنه منافس عنيد ولا يشتكي إلا من الأهمية المفرطة التي توليها له السلطات البريطانية، ربما لدوافع خفية، لن تظهر صفتها الحقيقية إلا خلال تطورات ما بعد الحرب[١].

كان سالم في معظم الأحوال لا يملك قوة يؤذي بها جاره الأكبر، ولكنه لا يعدمها في جميع الأحوال لمضايقته؛ لأنه لا يضطر إلا إلى منح اللجوء السياسي للجماعات المهاجمة التي تنطلق من شمر أو عجمان ضد القوافل المسافرة في دروب التجارة المشروعة إلى نجد، وأن يؤمن كسر طوق حصار الكويت بواسطة قوافل أقل مشروعية، والتي يستطيع أن يقول عنها إنها قد أجيز لها المرور إلى العدو من قبل السلطات الوهابية. وهكذا في إحدى المناسبات، في أواخر رمضان أو أول الشهر الذي يليه، أرسل ابن سعود إلى هناك وكيلاً موثوقاً به، وهو عبد العزيز بن الربيعي لكي يقود قافلة كبيرة قادمة من الكويت إلى القصيم، وليتأكد من عدم وقوع تهريب للبضائع، هذه القافلة قد تعرضت لهجوم من مجموعة من أسلم (Aslam)[٢] في إقليم الكويت وخسرت حوالي خمسين جملاً بحمولتها، وفي الوقت نفسه تقريباً قامت هذه المجموعة بجمع عدد عظيم من الإبل من المناطق المجاورة للأرطاوية. وعلى العموم فقد قيل: إن حوالي (٢٠) جمل قد سقطت في أيدي أسلم خلال هذه الأيام، ويزعم بأنها كلها موجودة في صفوان تُحمِّل البضائع إلى العدو بموجب تصريح من ضاري ابن طواله، تحت حماية حكومة تسعى بكل قواها إلى سد جميع

(١) لمزيد من التفصيلات عن العلاقات بين الكويت وابن سعود في عهد سالم الصباح، انظر: جمال زكريا قاسم، ص ٥٠ وما بعدها، خزعل، جـ٤، ص ١٨٦ وما بعدها، الخترش، ص٩٠ وما بعدها، هـ.ر. ديكسون. الكويت وجاراتها. ترجمة عبدالله الحاتم (بيروت: د.ن) ١٩٦٤م) ص ٢٤٧. (ابن جريس).

(٢) أسلم، أو (آل أسلم) نسبة لمواطنهم جبل (سلمي) أحد جبال شمر، وللمزيد عن أماكنهم وفروعهم انظر: الحقيل، كنز، ص ١٧١ - ١٧٤. (ابن جريس).

الطرق المتفرقة لتموين الأتراك. ولقد بدا من المستحيل ـ وظل كذلك حتى نهاية الحرب ـ[١] أن ندحض مكائد بعض أصدقائنا الذين كان غرضهم الأصلي أن يثروا بتجارة رابحة جداً، وأن يلقوا بخزي عملياتهم على ابن سعود.

إن حياة الرحلات الخلوية في الرياض خلال الشهر الذي تلا الصيام الكبير كانت متعة دائمة، ورأيتها في أفضل صورها في اليوم الخامس عشر من شهر يوليو عندما قرر ابن سعود الخروج إلى البر يوماً كاملاً في بساتين نخيل باطن. وقد ركب هو وجماعته خارجين في الساعات الأولى من الصباح، ولكني لم أركب أنا إلا عندما اقتربت الساعة من الثامنة صباحاً، بصحبة الجنيفي ومناور للحاق بهم. وقد أخذت الحذر وطلبت وضع السرج الخاص بي على ظهر فرس صغير تم توفيره لي، وهو حصان فحل ذو خطوات لينة يسيرة ولكن بدون أي مزية كبيرة أخرى. وكنت قد أقنعت نفسي بقبول اللجام المحلي[٢]. ويتكون هذا من شكيمة سيئة النوع ولكنها مربوطة بإحكام في سير[٣] قصير جداً والذي لا يُمس عادة إلا لكبح الجواد عن الجري السريع. وكانت الشكيمة سلسلة مربوطة بحبل قاسٍ خشن وفي معظم الحالات كان يبدو أن هذا هو كل ما يُحتاج إليه المرء.

وغادرنا المدينة من بوابة مريقب، وسرنا من هناك عبر بساتين نخيل وأنقاض المدينة القديمة التي شيّدها دهام بن دواس خلال أيام المنافسة بين الرياض والدرعية.[٤] ومن هناك كان الفرس يسير في خبب أو نختار دربنا فوق سهل قاحل حتى دخلنا قناة باطن حيث التزمناها حتى وصلنا إلى الحدائق الخاصة بابن سعود.

---

(١) كان ابن سعود واقفاً إلى جانب بريطانيا ضد الأتراك وحلفائهم. (ابن جريس).

(٢) اللجام: أداة مصنوعة من الحديد توضع في فم الحمار أو الحصان أثناء الركوب، كي تكبح جماح هذه الدابة المركوبة من الانطلاق بشدة فتؤذي من يركبها. (ابن جريس).

(٣) السير: هو أداة مصنوعة من جلود الحيوانات، وتستخدم لأغراض عدة. (ابن جريس).

(٤) لمزيد من التفصيلات عن الرياض في عهد دهام بن دواس، انظر: وليام فيسي، الرياض المدينة القديمة،ص ١٤٥ وما بعدها، حمد الجاسر، مدينة الرياض، ص ٦٧ وما بعدها. (ابن جريس).

وفي إحداها وجدنا العاهل الوهابي يخوض نسبياً غمار أسوأ مباراة رماية، حيث رمى خمسة طلقات كل واحدة منها على هدف يبعد حوالي مائة ياردة، من بندقية نوع زيقرت (Zigirt) [١] ولمدة بعد ذلك جلسنا نشرب القهوة مع روائح البخور في كوخ مشيد بالطين. ثم انتقلنا إلى حديقة داخلية مسورة تنتشر فيها بكثرة ملحوظة أشجار الخوخ، وأشجار التين، وشجيرات الرمان، والعنب. وهناك تحت ظل شجرة تين باسقة ومظلّة من القش، تمددنا على سجادة بجوار جدول من ماء البئر المتدفق البرّاق، ونحن نتجاذب أطراف الحديث واللعب مع أطفال الملك. وقد كانت صحبة ساحرة تضم أولاد ابن سعود محمد وخالد، وأولاد أخيه محمد، خالد، وعمره حوالي أحد عشر عاماً، وسعد، وكان طفلاً ساحراً رابط الجأش معتزاً بنفسه على الرغم من تشوهات بسبب المرض في العين، وحمود، وهو ولد فيصل بن رشيد ويبلغ من العمر حوالي ثمانية أعوام، والأيتام فيصل وفهد وسعود أبناء سعد قليل الحظ. وكانوا يلعبون مثلما قد يلعب أي طفل، ويعبثون بالطين في الجدول الصغير ويطيرون مثل جنِّي صغير حول ابن سعود، الذي كان، يقذفهم بالماء بمروحة يدوية إلى أن يبتعدوا مندفعين إلى عمل مزعج آخر، ويعودون حالاً بغنيمة وفيرة من الخوخ غير الناضج.

كان ابن سعود ورفاقه قد تناولوا طعام الإفطار فعلاً قبل وصولنا؛ ولذلك جلست أنا والجنيفي منفردين على وجبة من التمر والزبد الطازج، والعنب واللبن المقشود، وبعدها عدنا للانضمام إلى الجماعة لنشاركهم محتويات صينية ضخمة من العنب والتين، بعد ذلك انسحب الأطفال، وبعد فترة، عندما تُركنا أنا والجنيفي حيث كنا، آوى ابن سعود إلى نوم القيلولة في الكوخ الطيني حيث وجدناه أول مرة. وبما أنني لم أحضر معي التبغ فقد لملمت أشتات نفسي ونمت تحت الظل اللطيف إلى أن أيقظتني حركات صاحبي عندما نهض لصلاة الظهر. ونهضت أنا أيضاً

(١) الرماية واستخدام السلاح من الوسائل المهمة المستخدمة عند سكان الجزيرة العربية منذ القدم ومازالت تمارس حتى اليوم، لمزيد من التفصيلات انظر، جواد علي، المفصل، جـ٥، ص ٤٢٦ وما بعدها. (ابن جريس).

واغتسلت في الجدول العذب وتجولت بحثاً عن الفاكهة، ولكن ليس قبل قيام البستاني الممتاز والنبيه بتنظيف بقعة مناسبة، وشد انتباهي لأداء الصلاة فيها، وقال (إنها نظيفة). وعندما أدركت أنه ليس لديه أي شك في الحالة التي كنت عليها، تملصت من إصراره الكريم وانزويت في ركن بعيد من الحديقة، حيث كوفئت بالعثور على عدد من ثمار الخوخ الناضجة في الشمس الدافئة، ومع إضافة العنب الرائع من التعريشة والرمان الناضج صنعت وجبة كبيرة إلى أن حان وقت الانضمام إلى ابن سعود مرة أخرى، الذي بعد راحة القيلولة كان قد انتقل إلى حديقته الأخرى على بُعد حوالي ربع ميل في أعلى القناة. وقد وجدناه وجماعته جالسين تحت شجرة تين كبيرة بجوار جدول من الماء يصدر من بئر عمقها عشرة قامات، وفيها ما لا يقل عن عشرة جمال تعمل في وقت واحد. والبئر في الحديقة الأخرى كانت تعمل فيها الحمير البيضاء الكبيرة من الأحساء، على الرغم من أن ابن سعود كان ينوي التخلي عنها في الوقت المناسب وإحلال الإبل مكانها[(١)].

وقد تولى رشيد موقد القهوة، وكان إبراهيم يطير بسرعة من مكان إلى مكان في تذلل وخنوع، فالآن يأتي إلى الأمام ليلوِّح بقطعة من القماش أمام سيده ليبعد عنه الذباب غير الموجود أصلاً، وهو يرشف القهوة، والآن يريحه من فنجان فارغ وينسحب إلى الخلف. وقام أحد الشعراء، الذي جاء منذ زمن من حائل ولم أعرف اسمه، بإلقاء قصيدة أو قصيدتين لإدخال البهجة والسرور علينا. وقد قاد محمد ابن فهد النقاش عن قنوات الري المرتبطة بالإمكانيات العظيمة في الأفلاج منطقته الأصلية وفي الخرج. إن مزايا استخدام الآلات وجدواها في ضخ الماء من هذه الخزانات الطبيعية كان دائماً موجوداً في ذاكرة ابن سعود ووالده، ثم تحول النقاش إلى قنوات أخرى، قنوات الحرب والدستور البريطاني والدساتير الأخرى، وهلم جراً، وكان سعود بن

(١) كانت الحمير والجمال من الوسائل الرئيسة في نقل الأمتعة وجلب المياه من الآبار. (ابن جريس).

عبد العزيز بن سعود بارزاً على وجه الخصوص. وهكذا ظل الأمر إلى حين وقت صلاة العصر، عندها اختفيت للسير بمفردي في الحديقة[١]. وبعد الصلاة فوراً، حوالي الرابعة عصراً، تم تقديم العشاء في مبنى بالحديقة الأولى. وكانت الوجبة من الأرز المتبل الناضج والمخلوط بالخبز غير مكتمل النضج والذي تعلوه قطع لحم الضأن اللذيذ، قد قُدِّمت على صوان عظيمة مرفوعة فوق قواعد. وقد جلست بجوار ابن سعود، وفيصل بن الرشيد على جانبه الآخر، عند أعلى المائدة، على الرغم من أن الساعة الشديدة المؤلمة قد أنصفت المأدبة السخية إنصافاً كاملاً، لأنني لم أتناول أي شيء طول اليوم إلا الفاكهة. بيد أنني لم أكن مستعداً للبند التالي في البرنامج، وإلا لكنت قد أكلت بصورة أكثر تواضعاً؛ لأنه بعد ذلك فوراً أحضرت الخيول وركبت الجماعة كلها في رحلة العودة إلى المدينة. وكانوا كلهم، بغض النظر عن بطونهم المملوءة، يتسابقون في الركض ويتصارعون بسيوفهم وهم يسيرون، وعندما اقتربوا من المدينة تجمعت حشود كبيرة، معظمها من النساء والأطفال، لرؤية موكب الفرسان ماراً، ويحيون ويباركون أميرهم عند مروره أمامهم وهو يرد على تحيتهم بهدوء.

في اليوم التالي، وعندما كنت أجلس متحدثاً مع ابن سعود، دوّت طلقتان من طلقات البنادق فجأة خلف المدينة من ناحية الشمال، ثم المزيد من الطلقات يتتابع بكثافة حتى اقترب. وقد أسرعنا إلى النافذة المطلة على الفناء أمام بوابة القصر، وفي لحظات قليلة شاهدنا أربعة من راكبي الذلول وهم يهرولون في خبب رشيق على طول الشارع.

و «هؤلاء» ـ قال ابن سعود ـ لا بد أنهم من سبيع[٢] يحملون أخبار قتال بينهم

(١) لم يكن فيلبي قد دخل الإسلام، وما زالت على نصرانيته في حين أننا نجده في كتبه المتأخرة يذكر حضوره الصلاة مع المسلمين وكذلك الحج. (ابن جريس).

(٢) قبيلة سبيع هم من أهل النجدة والنخوة، وتتألف من أرومة عدنانية، وهم بنو سبيع بن عامر من بني عامر بن صعصعة ابن معاوية بن بكر بن هوازن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وأماكن هذه القبيلة بعضها في نجد وبعضها في الخرمة ورنية.انظر: الحقيل، كنز، ص ١٣٠ - ١٣٥. (ابن جريس).

وعصابة مشتركة من شمر وعجمان بين الإحساء والقطيف. لقد سمعت إشاعة عنه هذا الصباح ولكني لم أعتقد أنه يستحق إخبارك به قبل أن تتأكد الأخبار». وهكذا ثبت النبأ. ودخل الرجال الأربعة على ابن سعود وأنا جالس عنده. وكان أحدهم يبدو لي شيخاً بطلاً مهندماً ونظيفاً يرتدي كوفية بيضاء جميلة، بينما الآخرون أفراد أفضاظ ضخام البنية من نوع البدو العاديين. وبطريقة مباشرة قدموا التحية لسيدهم وبدؤوا حكايتهم البسيطة في فترات قصيرة حادة من البلاغة التي لا يمكن تقليدها. ثم قال ابن سعود: «انظروا ... هل هذه حكاية بدو التي تأتون بها إليّ أم هي حقيقة الله؟ إنني لا أبغي شيئاً من أوهامكم الزائفة». فردّ الشيخ قائلاً: «والله ... إذا كانت حكايتنا غير صادقة فإننا لا نستحق أي مكافأة، لأنه ليس هناك ربح من الأكاذيب». وكانت حكايتهم تقريباً على النحو التالي.

كان المهاجمون، نحو مائة يتكونون بصورة جزئية من العجمان، ثلاثة أفخاذ منها كانوا في الحملة، وهم على وجه التحديد فخذ صالح، تحت قيادة خميس بن منيخر، وفخذ هادي تحت إمرة عيد بن مطلقم، وفخذ سفران تحت إمرة كُمعان بن مسيعيد، وقليل من أسلم تحت إمرة بن سالم بن طواله، وهو ابن عم ضاري. وهذه الفرقة هي التي شنت الهجوم واستولت على خمسين جملاً من قافلة عبد العزيز بن ربيعي على طريق الكويت. وبعد أن أرسلوا غنيمتهم مرة أخرى إلى الأمان في معسكر ضاري بصفوان فقد عملوا عملهم في الساحل تحت حماية قبيلة العوازم وشيخها، فهد بن معتقة المشهور بلقب راعي الفحمة، وقد حطت رحالها فجأة في خيام قبيلة زعب، وهي فخذ من بني هاجر بالقرب من القطيف[1]. ولما كانت إبل زعب ترعى في المراعي البعيدة فقد واصلوا سيرهم وانقضوا دون إنذار على مخيم سبيع، واستولوا على ثلاثة قطعان من الإبل، نحو ١٥٠ جملاً في مجموعها. بعد ذلك طلبت سبيع

(١) قبيلة زغب نسبة إلى زغب بن مالك بن خفاف من امرئ القيس بن بهتة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن نزار بن معد بن عدنان. للمزيد انظر: الحقيل، كنز، ص ٢١٦ - ٢١٨. (ابن جريس).

المعتدى عليها المساعدة من زعب التي قام شيخها، عجران بن فيصل بن سحوب فوراً بتنظيم جماعة لملاحقتهم. قامت القوة المختلفة بمتابعة المهاجمين وانقضت عليهم، وهزمتهم بخسارة خمسة من الرجال منهم ابن خميسة من فخذ السليمان في قبيلة العجمان[١]، كما قتلت أحد عشر جملاً. وقد استردت أيضاً القطعان المسلوبة وأخذت عشرين من ذلول العدو علاوة على ذلك. وعندما كانت القوة لا تزال تتابع سيرها في تعقب العدو وجدوا لدهشتهم أنهم قد طلبوا حماية من العوازم وحصلوا عليها، وكانت العوازم شديدة القوة بحيث لا يمكن مهاجمتها. وعلى الرغم من ذلك فقد قوبل المهاجمون بمعاملة أشد قسوة مما كانوا يتوقعون، وكان المعركة نجاحاً ملحوظاً للمدافعين، الذين بدا أن زعب من بينهم قد تحملت الوطأة العظمى لذلك اليوم. وكان الشيخ الذي أخبرنا بهذه القصة هو نفسه من هذا الفخذ، لأنه من بيت شياخه، منديل بن صحوب بالاسم. من وجهة نظري كان الموقف شديد الخطورة، ومن المفترض مني أن أقنع ابن سعود بمزايا عدم اتخاذ أي إجراء بينما كان الشريف يهاجمه من الغرب بحصانة تامة وبقدر ما يتعلق الأمر بنا، وكانت عصابات العجمان وأسلم، المدفوعة بمكائد ضاري وأسلم المشتركة تهاجمه من الشرق. وفوق كل هذا وذاك كنا نعطي اللجوء السياسي لشمر الذين يهربون إلى أبوابنا أمام زحف تركي، وهناك تذمرٌ في نجد، حيث تعرضت ثقة ابن سعود العظيمة في الإخلاص الطيب للبريطانيين الخائنين لنقدٍ متزايد وانتقاص وذم شديد، عندما تراكمت الأدلة على عدم استعدادنا أو عدم قدرتنا على مساعدته. وأنا نفسي في أحيان كنت أجد صعوبة في تخليص نفسي من تيار الشك الخفي من أن السلطات البريطانية في

---

(١) قبيلة العجمان من أشد قبائل العرب بأساً، وهم من يام القحطانية، ومنازلهم في النقرة من الطف إلى العقير ويتصلون بالصمَّان، وفي الشتاء يتوغلون حتى القصيم والخرج. وكانت من أعنف القبائل التي سببت العديد من المشكلات للملك عبدالعزيز آل سعود. للمزيد انظر: الحقيل، كنز، ص ١٨٠ - ١٨٢، السعدون، ص ١٨٥ وما بعدها، خزعل، جـ٣، ص ٢٨. (ابن جريس).

بغـداد، وهي تقـوم بـدور ثانوي بعـد «المكتب العـربي في القـاهرة» كـانت تحـاول في الخفاء إخماد النار التي قد بدأت بالفعل تشتعل بشراسة في أفران نجد[١].

ولم أكد أنتهي من الحمّام والتزين في صباح اليوم التالي إلا وسمعت صوت ابن سعود بنفسه ينادي عليّ بصوت عالٍ من الفناء في الأسفل وهو يقول: «لقد أتيت لك بأخبـارٍ طيبـة، لقد وصل عفشك». وبسـرعـة دفعت غليوني وتبغي جانبـاً ونهضت لتحيتـه عند المدخل قـائلاً: «**إن أخبـارك طيبة حقـاً، والحـمد لله !! وسـوف لن أنسى جزاءك التشريفي**»[٢].

منذ سبعـة أشـهر مضت كنت قد تـركت هذا العـفش ورائي في الـرياض عندمـا انطلقت في رحلة إلى الحجاز، وكان العقيد كونليف أوين (Colonel Cunliffe Owen) قـد أخـذه مـعـه عـائـداً به إلى السـاحل، حـيث ألقى به فـي النهـاية في أحـد مـخـازن الوكالة بالكويت. وقد كتبت لطلبه من الوكيل السياسي في أوائل إبريل ولم أنل شيئاً إلا قـولهم لـي: إنه لم يستطع أن يجـد له أثراً. وبعد ذلك بشـهـرين تقـريبـاً وجده في مخازنه، واتخذ إجراءات إرساله لي. وفي غضون ذلك كنت مضطراً للسفر إلى وادي الدواسـر والعودة دون أفلام لكاميـرا التصوير أو تبـغ لغليونـي. ومنذ أن رجعت كتبت إليـه مـراراً وتكراراً دون جـدوى، وفي النهـاية ها هو قـد وصل، ولم تكن لفرحـتي به حـدود، وعدت إلى كتبي، ودخـاني، وأفلامي، ومـاذا يعني إذا مـا استـغرق (١٠٤) يومـاً حتى تصلني أغراضي؟

---

(١) يتضح لنا من ذكر هذه الأحداث عن بعض القبـائل، وبخاصـة في شـرق الجـزيرة العـربية، أنها كانت مثيـرة للفتن والقـلاقل في وجـه الملك عبدالعزيز. كمـا أن بريطانيـا كان لها دور في الحصول على مكاسب تعود عليها بفـائدة بصـرف النظـر عن حلفائها أو أعدائها من العرب. للمـزيد انظر، لوريمر، ص ٥٢٩، السـعـدون، ١٩٧ ومـا بعدهـا، جمـال زكريا قاسم، ص ٥٠، خـرعل، جـ٤ ص ١٩١، الختـرش، ص ٩٢، عبـدالعزيز الرشـيد. تاريخ الكويت (بيروت: د. ن، ١٩٧١م) ص، ٢٣٣، ٢٣٧. (ابن جريس).

(٢) إن الملك عـبـدالعـزيز كـان على علم بمـهـام فـيلبي السـرية لحكومـة بريطانيـا، لكنه لـم يؤثر ذلك على اسـتـضـافـتـه والتقرب منه والاستفادة من معارفه، حتى يجده في نهاية المطاف يدخل الإسـلام ويجلس في جزيرة العرب حوالي (٤٠) سنة، حتى صار أفضل من كتب عن هذه البلاد في عهد الملك عبدالعزيز. (ابن جريس).

بدأ الطقس الآن يكون أشد حراً بشكل مقدر في الرياض؛ فقد هبت رياح الصيف مثلما تفعل في هذا الفصل عندما تبدأ التمور في النضج، ويصبح البطيخ فاسداً وكريهاً؛ نظراً لشدة نضوجه وميله إلى إخراج رائحة يمكن إدراكها بسبب العطب. وكان ابن سعود ينسب إلى هذا البطيخ بعض آلام التعب الذي هاجم معدته مؤخراً، وأوصاني أيضاً بالانقطاع عن أكله، وهي نصيحة كان من السهل بدرجة كافية قبولها؛ لأن فواكه أخرى لذيذة مثله قد أصبحت متوفرة. وكانت درجات الحرارة بعد الظهر تصل إلى نحو (١١٠) درجة فهرنهايت، وأصبحت الحياة في الرياض مألوفة ومتكررة بصورة كافية جعلتني أتوق لافتتاح الحملة العسكرية الموعودة وحياة الحركة والنشاط وسط المراعي الجديدة التي سوف تجلبها معها.

بيد أنه حتى الآن لم يتحدد حتى ولو تاريخ تقريبي لها، والأيام تتعاقب وراء بعضها برتابة البرنامج الذي لا يتغير من المقابلات والرحلات الخلوية. واستمر أحمد بن ثنيان في جلب الملل والضيق عليّ برحلاته التافهة في دنيا السياسة العالمية، والتي منحته إقامته المؤقتة في إسطنبول مؤهلات ترضية شخصياً. وعندما غادر تركيا قبل اندلاع الحرب كان إخوانه الأربعة قد ظلوا ولا يزالون هناك، بالرغم من أنه ليست لديه أي أخبار عنهم. وكان سعود، أخوه الأكبر، في حدود علمه، يعيش حياة مواطن عادي دون وظيفة، وفيصل الأصغر منه مباشرة قد قاتل ببسالة في حرب البلقان، وأصيب بجروح وترقى إلى رتبة رائد، وكل ما يعرفه عنه أنه لابد أن يكون قد مات أو لا يزال يخدم في الحرب ضد الحلفاء. وكان الآخران، عبد القادر وعبد الرحمن، ما يزالان طفلين صغيرين[١].

في هذه الأثناء كان ابن سعود، الذي لم يمل أبداً من العزف على مشكلة الشريف،

(١) نجد في الوثائق وبعض المراجع المختلفة أن هناك أعداداً من العنصر العربي في جزيرة العرب تركوا أوطانهم وخرجوا مع الأتراك أيام جلائهم عنها وعودتهم إلى بلادهم. (ابن جريس).

يعتقد أنه يوجد حوالي خمسمائة نجدي يخدمون مع الشريف عبد الله في المناطق المجاورة للمدينة، وحوالي ثلاثمائة مع فيصل. ومنذ شهور مضت كانت مجموعة الأخير قد حصلت على تصريح بالرحيل بأسلحتهم التي دفعوا ثمنها. وعلى الرغم من ذلك قامت السلطات البريطانية أو سلطات الشريف شرف بالاستيلاء على أسلحتهم في العقبة، وعند ذلك فقط أبدى الشريف احتجاجاً قوياً ضد هذا الإجراء. وتم التوصل إلى حلٍ وسطٍ بموجبه أعيدت قيمة البنادق إليهم. «تذكر. قال ابن سعود ـ أننا نحارب ابن رشيد فقط من أجلكم؛ لأننا ليست لدينا مطالب غير مستوفاة منه، على العكس إنه هو الذي له مطالب علينا بسبب القتلى الكثيرين في بيت رشيد، إن العدو الحقيقي لنجد، على كل المستويات هو الشريف، والكثير من أهل بيتي شخصياً والكثير من شيوخ الدين متذمرين مني بسبب الهجوم على الإخوان دون أن يُسمح لهم بالرد، إنني أحافظ على تهدئتهم بإفادتهم أن كل شيء سيكون على ما يرام. إلا أن الشريف يجب أن يُمنع من مهاجمة بلدي. ارسموا الحدود بيننا وقولوا له ألا يتجاوزها».

وقد سألته ما هي الحدود التي يعتبرها حدوداً معقولة بالنسبة لتلك المعالم الأرضية البارزة مثل عشيرة وسهل ركبة وسلسلة جبال حضن؟

فردّ عليُ قائلاً: «إنه يستطيع أن يملك كل ذلك، وفي الحقيقة كل شيء من مران إلى ما نحو الغرب. ويمكن أن يكون حضن أشد الحدود ملائمة». إن الشريف لو استطاع أن يقنع نفسه في تلك الأيام بقبول خطٍ يربط بين مران وتربة مروراً بقناة شعب لكان تاريخ الجزيرة العربية قد كُتب في اتجاهات مختلفة جداً خلال السنين العشر الأخيرة، ولكن تفكير الشريف كان مركزاً على هدف واحد، وهو التدمير التام للدولة الوهابية، ولم يكن يعلم قليلاً بأنه كان يعمل دون هوادة على تدمير أسرته الحاكمة[1].

---

(١) لمزيد من الإيضاح عن الصراعات بين ابن سعود والشريف حسين وابن رشيد، ثم دور بريطانيا البارز في تلك الصراعات، انظر: العثيمين، تاريخ، جـ٢، ص ٥٧ وما بعدها، لوريمر، ٥٢٩ وما بعدها، السباعي، تاريخ مكة، جـ٢، ص ٦٢٧ وما بعدها (ابن جريس).

في غضون ذلك كانت الأمور تبدو متجهة كلها نحو الإخفاق من ناحية إنجاز هدفي في الجزيرة العربية.

وفي اليوم الثامن عشر من يوليو حملت الأخبار القادمة من الكويت صدمة أخرى لابن سعود ولي أيضاً؛ فقد لاقت جهود سالم التي لا تنقطع لإبطال مفعول نطاق حصارنا نجاحاً غير متوقع، وتعرضت سياستنا للحصار إلى تغيير كامل ومفاجئ؛ ففي المستقبل لن يكون هناك حصارٌ بوصفه حصاراً، وما ارتكبه سالم في الماضي من مخالفات قد عفى عنه مقابل وعده بعدم تكرارها، وقد حُمِّل مسؤولية التأكد من أن البضائع لا تصل إلى أيدي العدو، وسوف يُسمح لأهل نجد بأن يشتروا دون قيد، والتفتيش الوحيد الملزم من الآن سوف يُنّفذ في بومباي، حيث يُسمح بالصادرات فقط بكميات يحددها على فترات زمنية منفصلة الوكيل السياسي البريطاني في الكويت على أساس الاحتياجات الطبيعية لمواطني وقبائل الكويت ومتطلبات أهل نجد. وهذه الأخيرة سوف يُبلغها له عبد الله النفيسي، وكيل ابن سعود. قد يكون من الصعب تدبير خطة أفضل إعداداً من ذلك لتزويد الأتراك باحتياجاتهم، ولكن يبدو أن حكومة الهند تنظر إلى هذا التهريب إلى العدو على أنه مسألة ثانوية بالمقارنة مع نقض الاتفاق مع سالم، والذي ربما ينطوي على احتلال عسكري للكويت. في ذلك الميناء قوبل رفع قيود الحصار بالفرح، وفُسِّر على أنه تنازل جزئي يرجع إلى الموقف غير المرضي في مسرح الحرب الفرنسية.

وفي نجد كان من المُسلم به ولسبب غريب أننا نرغب صراحة في أن يحصل الأتراك على ما يريدون من ناحية الإمدادات. وسوف تنتعش حائل مرة أخرى وتكون قادرة على مواجهة الهجوم الوهابي المرتقب برباطة جأش الآن؛ لأن ابن سعود لم يعد يستطيع أن يستخدم السلاح الاقتصادي لدعم جيوشه[1]، وكان ابن سعود نفسه قد

---

(١) عن استعدادات الإمام عبدالعزيز لمهاجمة بلاد حائل وانتزاعها من ابن رشيد، انظر: العثيمين، تاريخ، جـ٢، ص ٦٣، أمين الريحاني. تاريخ نجد وملحقاتها (الرياض: د.ن، ١٩٨١م) ص ١٣٣ وما بعدها، خير الدين الزركلي. شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز (بيروت: د.ن، ١٣٩٠هـ، جـ١، ص ١٢٥ وما بعدها. (ابن جريس).

رفض أي مسؤولية إضافية عن تسرب المؤن إلى العدو ما لم تنزل جميع البضائع المتجهة إلى نجد في البحرين.

في عصر اليوم التالي ركبنا جميعاً خارجين إلى حديقة الشمسية وجلسنا على كومة طينية مرتفعة خارج السور نشاهد باسترخاء الصف الطويل للنوق الحلوب الملكية، حوالي مائة منها من جميع الأحجام، وهي تتهادى ببطء عائدة من مراعيها باتجاه جبل مخروق. وطول الوقت كان ابن سعود يردد بتكرار ملاحظاتة عن هذه الحيوانات وهي تمر أمامه، وظل على وجه الخصوص يراقب ناقة عظيمة قرب المؤخرة، والتي عندما لم تجد وليدها، استدارت إلى الخلف بحثاً عنه إلى أن رأت صغيرها يتبعها خلفها، وهنا التفتت الناقة الضخمة مرة أخرى واستأنفت سيرها في رحلة العودة.

وفي أثناء جلوسنا هناك جاء اثنان من البدو من قبيلة سبيع، واندفع أحد العبيد للأمام لكي يمنعهما، ولكن ابن سعود أشار له بأن يرجع ونادى الرجلين إليه. وعند ذلك بدأ أحدهما ـ وهو يحك فروة رأسه ـ يصب حكاية محنة مكذوبة. بلا دراية، أو كما قالا، فقد تعديا بقطعان ماشيتهما على الحمى الملكي في الخفس عندما ألقى الحراس الملكيين القبض عليهما حيث ضُربا وجُرِّدا من أغنامهم. فقال ابن سعود : «سوف أصلح أمركما، وأعيدكما إلى قومكما». بعد ذلك نهضا ومضيا في شأنهما، ولكنهما في حماقة تركا لسانيهما يتفوهان ويتذمران بصوت عال وهما يمضيان قائلين: «آه لو لم تكن لك لكنا وهبناها بنفس طيبة مثلما حصلنا عليها، ولكنا قد جلدنا الخاسئين وهم يرتعدون». وكان هذا كثيراً جداً على ابن سعود ولم يستطع تحمله فزمجر بغضب: «أنتم كلاب، اضربوهم في الحال»، وانهالت العصي المستعدة فوراً بصوت عال على ظهري الرجلين.

إن الحاكم الوهابي[١]، الذي تغمر قلبه الرحمة والندم على الذنب، يدرك أن

(١) إيراد عبارة (الحاكم الوهابي) مصطلح غير سليم، وغالباً ما يستخدمه أعداء ابن سعود، أو بعض الجاهلين. بمبادئ دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب أو المناوئين لها. (ابن جريس).

سلامة وأمن مملكته يعتمد على قمع البدو، وكان دائماً حذراً من التساهل مع أبسط إشارة من الجرأة والعدوانية من جانبهم[١]. في هذه القضية كان هناك أحد عشر خروفاً هي موضوع المشكلةا، وقد حُلّت المسألة نهائياً بالإفراج عن ثمانية، والثلاثة الباقية قد أخذت تسوية مقابل غرامة التعدي.

في صباح اليوم التالي كنت قد استدعيت للحضور خلال تناول الفطور لأسمع (البشارة) الرسمية، والتي أكدت أخبار الهجوم الثاني على الخرمة في حوالي منتصف رمضان مع تفاصيل إضافية. لقد كانت القوة الشريفية كثيرة العدد لدرجة أنهم (لا يعدهم ولا يحصيهم إلا اللّه) وعلى الرغم من ذلك فإن مقاتلي سبيع، وعددهم أربعمائة وخمسون رجلاً فقط، أثبتوا أنهم أهل حرب إذ ضربوهم بقوة، وبعون الله هزموهم هزيمة منكرة، وقتلوا منهم (١١٥) وغنموا مائتي ذلول، بالإضافة إلى البنادق والمعدات الأخرى التي ورد ذكرها. وخسارتهم كانت عشرة رجال فقط (شهداء في سبيل الله)، منهم الشريف محسن بن تركي من أعيان الخرمة. وكان الخطاب الذي حملته الرسل يختتم بتهليل وتسبيح وحمد لله على ما صنعته يداه وبعض الكلام الصريح جداً عن تقصير ابن سعود عن أن يهبّ لمساعدة إخوانه الذين تعرضوا للتهديد بهذا الشكل. **«وإذا كان خبث كنوز الدنيا هو ما جعلك لا تأتي لمساعدتنا، إذن أخبرنا بذلك، أنت يا عبد العزيز وسوف نلتمس لك العذر، إننا لم نجد أي فائدة من تكرار إرسال الرجال لطلب مساعدتك، ولكن اعلم أننا في المرة القادمة سوف نرسل لك نساءنا حتى نثير نجد».**

وكانت البنادق المستولى عليها قد أرسلت إلى ابن سعود برهاناً على النصر المزعوم، والذي في الحقيقة لم يكن بحاجة إلى أي برهان، وكان يبدو شيئاً لا يصدق

(١) صرامة الملك عبدالعزيز مع جميع المناوئين والمثيرين للقلاقل في بلاده كانت شديدة جداً، ونتج عن ذلك استقرار الأمن واستتباب الأمور في أنحاء البلاد. (ابن جريس).

لدرجة أن القوات (الهاشمية) المجهزة تجهيزاً جيداً لابد أنها قد تلقّت مرتين خلال شهر واحد هذه الهزائم المنكرة على يد حفنة من المزارعين والبدو. ومع خطابه أرسل أمير الخرمة أصول الخطابات الثلاثة المؤرخة في شهر ذي الحجة، أي منذ حوالي عشرة شهور مضت، والتي فيها يُبلّغ الشريف عبد الله إنذاره لأهل القرية[١].

كنت قد شاهدت مؤخراً هندياً في المدينة، وعندما استفسرت من ابن سعود قيل لي: إن عدداً منهم قد وصل حديثاً في طريقهم إلى مكة، مثلما يفعلون كل عام. وكان معظمهم من نوع (الدراويش) الذين يسافرون بشق الأنفس وبأرخص الطرق مشياً على الأقدام بشكل رئيس واعتماداً على سخاء اليدين المبسوطتين في البلاط الوهابي؛ لينالوا هدنة قصيرة من تجربتهم القاسية؛ وليحصلوا على المؤن الضرورية من الطعام والمال ليواصلوا آخر مرحلة من رحلتهم[٢].

وكان هناك زائر أجنبي آخر جاء لغرض مختلف، وهو بغدادي له مظلمة، وكان يُدعى الشيخ طاهر لطفي ابن الشيخ إسماعيل، وغرضه أن يضمن تدخل ابن سعود لاسترداد أرضه التي ضاعت منه بالخطأ والحصول على تزكية منه للتوظيف في بعض الوظائف المريحة بالحكومة والتي حجبت عنه بطريق الخطأ. وقد كان من النوع المألوف، وكان متعلماً بدرجة كافية حتى إنه كتب خطابين وقحين نوعاً ما لابن سعود كي يوقع عليهما، وبدلاً من ذلك سلمهما لي، وكان هدفه أن يواصل السفر إلى مكة حتى يضمن دعماً إضافياً من الشريف لطلبه المزدوج. وعلى الرغم من ذلك، اتفق ابن سعود معي على أنه من الأفضل أن نعيده إلى البحرين، وكان هذا القرار

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن الصراعات بين الأشراف في الحجاز وأهل الخرمة أثناء قيام الدولة السعودية الحالية، انظر: السبيعي، الخرمة، ص ١٨ وما بعدها، العثيمين، تاريخ، جـ٢، ص ١٨٣ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) نجد الوثائق وبعض المراجع تشير إلى بعض رحلات الهنود الذين كانوا يأتون من بلدانهم لأداء مناسك الحج والعمرة، وكان البعض منهم ينزل على موانئ البحر الأحمر الممتدة من عدن إلى القنفذة، ثم يسيرون على الأقدام، وأحياناً يستخدمون بعض المواصلات للوصول إلى مكة المكرمة وجدة والمدينة المنورة. (ابن جريس).

قد تأكد بعدما قابلت الرجل بعد ذلك بعدة أيام ولأكتشف أنني نفسي كنت ممن ساعدوا على خلق الظروف التي يرغب تغييرها.

فقد أتى هذا الرجل إلينا في البصرة بصفته لاجيئاً، وعومل بكل تقدير واحترام، وحصل بذلك على منحة مالية خصصت له، ولكن عندما قمنا باحتلال بغداد ومكنّاه من استعادة ملكية قطعة أرضه توقفنا طبعاً عن دفع المنحة الخيرية له، وهذا كان من الواضح هو كل السبب في مظلمته وضيقه الحالي، لقد كان ماهراً في إلحاق الأذى والإزعاج والفساد، وإذا وجد نفسه عاجزاً عن تحقيق الغرض من زيارته للرياض فمن المؤكد أنه لن يضيع الفرصة للتحدث بسوء عن الإنجليز في آذان المتعصبين المستعدين لقبول كلامه بالرياض. وهذا ما حدث بالفعل، فقد وصل إلى مسامع ابن سعود أنه مستمرٌّ في دعاية نشطة ضدنا، وتبعاً لذلك كانت مغادرته إلى البحرين قد رُتبّت بلا تأخير.

لا يزال الضابط التركي، قدسي أفندي، يموت كمداً في سجنه بالحصن الكبير، وقد رجوت ابن سعود أن يسمح له بقدر أكبر من الحرية إذا كان ممكناً. فسألني: «ماذا لو هرب؟». وذكرت له رأيي من أن هذا ليس مرجحاً، وعرضت أن أقدم له الترفيه بنفسي وآخذه في نزهة سيراً على الأقدام، وعندها أمر ابن سعود الجنيفي أن يحقق في الأمر. ربما أكون قد وفرت على نفسي مشقة استجداء راحته بكثرة، ففي الحقيقة قد نال مؤخراً، بناءً على ما عرضته، سكناً أكثر راحة وحصل على سجين آخر، وهو تركيٌّ هاربٌ من الجيش كخادم له علاوة على مبلغ أربعين ريالاً لشراء الكماليات التي قد يطلبها، إلا أنه قابل عروض الجنيفي هذه نيابة عني بروح من العداء الشديد. وقال: «إنه مسيحي[1]، وبالتالي فهو عدو، ليس

(١) يقصد بـ (المسيحي) هنا، أي فيلبي نفسه الذي يقول: إنه متوسط عند ابن سعود من أجل التخفيف بعض الشيء على هذا السجين، الذي هو الضابط التركي قدسي أفندي. (ابن جريس).

عندي أي رغبة في رؤيته، ولكن، لأني سجين، ليس لي اختيار إذا أجبرتموني على فعل ذلك».

كان الجنيفي شديد الإعجاب به، ووصفه بأنه رجل رائع وأخبرني، أنه قد خدم عشر سنوات في اليمن، وخلّف زوجة وأسرة هناك عندما بدأ المهمة التي أسر فيها. وطبقاً لما قاله كان هناك في ذلك الوقت حوالي (٨٥٥٠) جندياً تركياً في اليمن، جزء منهم في لحج تحت قيادة سعيد باشا، وجزء آخر في صنعاء تحت قيادة غالب باشا. وكان الضابط القائد في عسير يُدعى محي الدين باشا، الذي كان مع ستة آلاف رجل تحت أمرته.

في اليوم التالي كانت رحلة ابن سعود الخلوية في حديقة قرنين[١]، غرب الرياض حيث ركبت إلى هناك، كالعادة مع الجنيفي ومنوّر، لأنضم إليه وحيث تعرّفت على عبدالرحمن بن سويلم[٢]، وهو رجل طويل ونحيف في حوالي الخمسين من عمره، وابن نموذجي من أبناء العارض والذي ظل حاكماً للقطيف منذ الاستيلاء على ذلك الميناء من الأتراك، وقد تميزت أسرته تميزاً شديداً بخدمة آل سعود الحكام منذ أيام الدرعية. وكان سعود العرافة حاضراً مرة أخرى، وهو رجل قوي البنية متوسط العمر، ذو طريقة جذابة في الحديث، وقد أصبحت أشد إعجاباً كلما ازدادت معرفتي به بشكل أفضل. وكان نادراً ما يوجه حديثه لي مباشرة، ولكنه بصورة عامة يفعل ذلك عن طريق ابن سعود، وهو يسألني أسئلة دقيقة عن الحرب، وعن الأجهزة والطرق الحديثة في الحرب، وعن الزراعة والري.

(١) قرنين: يطلق علهيا أيضاً القرينين. انظر: فهد الكليب، الرياض، ص ٨٧. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التوضيحات عن القوات العثمانية في كل من اليمن وبلاد عسير خلال الثلث الأول من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، انظر: سيد مصطفى سالم. تكوين اليمن الحديث (القاهرة: دار الأمين للنشر ١٩٩٣م) ص ٤٦ وما بعدها) أيوب صبري. مرآة جزيرة العرب (الرياض: دار الرياض للنشر، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ص ٧٦ وما بعدها، سليمان شفينف باشا. مذكرات سليمان شفينف باشا (متصرف عسير) (أبها: نادي أبها الأدبي، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م) ص ١٣ وما بعدها (ابن جريس).

وقد لاحظت أنه في مثل هذه اللقاءات كان دائماً يتأخر ليتقدم فيصل بن رشيد، الذي يُعامل على الأرجح كضيف مبجّل. وهناك شخصية مهمة أخرى، كنت قد استطعت أن أضع ثقتي الخاصة فيه بهذه المناسبة على الرغم من أنني قد لاحظته أحياناً من قبل. ذلك هو شيخ قحطاني يدعى ابن سدحان الذي يرتدي بانتظام الكوفية البيضاء التي يلبسها الإخوان[١]. والذي كان يتفادى بشكل ملفت للنظر نسبياً الجلوس على أي طبق مشترك بيننا من الفاكهة أو الأطعمة الأخرى عندما أكون حاضراً. وعلى الرغم من ذلك، فقد أسّر الجنيفي إليّ أن الرجل كان وغداً شريراً وأنه أقنع نفسه بالمظهر الخارجي للفضيلة الدينية ليقف موقفاً حسناً في قبيلته. وطوال حياته التي قضاها في شن الغارات والسرقة يقال إنه قد أجهز على حياة اثنين وتسعين رجلاً بيده، وهذا عددٌ لم يتجاوزه إلا الدويش المرعب، الذي يحسب له حتى ذلك الوقت قطع (٩٩) فروة رأس آدمي. وعندما تحوّل النقاش إلى موضوع الفاكهة، حذرني ابن سعود من أكل الشمام بعد العسل، لأن هذا الخليط، كما أكد لي، سمٌّ قاتل. إن أكل الحمير حرام في الإسلام، سواء لحمها أو لبنها. أما بالنسبة للحم الخيول فالموقف غير واضح. إن سيدنا محمد ﷺ نفسه لم يأكل منه أبداً ولكنه رفض أن يعلن أنه حرام، وقد تُرك الأمر إلى يزيد أو أحد الذين جاؤوا بعده لتقديم عادة أكله؛ أما بالنسبة للضب، وهو يشبه السحلية وله ذيل صلب، والذي لم يُقل أبداً أنه حرام؛ لأنه لم يكن موجوداً في الحجاز كما أنه غير معروف للنبي (ﷺ)[٢]. وكان ابن سعود يأكله في شبابه، ولكنه قد هجر هذه العادة من زمن

(١) ليس هذا اللباس كوفية كما كان يسميه فيلبي، وإنما اسمها الصحيح هو (عمامة)، وقد تكلمت عنها كتب التراث الإسلامي فذكرت أشكالها وطريقة لبسها منذ العصر الجاهلي وعلى مر العصور الإسلامية المختلفة. للمزيد انظر: غيثان بن علي بن جريس. بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م)، ص ٢٠٤ - ٢٠٦، للمؤلف نفسه «العمائم تيجان العرب» مجلة بيادر الصادرة من نادي أبها الأدبي (محرم ١٤١٣هـ عدد (٨)، ص ٦٦ - ٧١، (ابن جريس).

(٢) عبارة (صلى الله عليه وسلم) إضافة من المراجع. (ابن جريس).

طويل، والجربوع كان أيضاً حالة مشابهة للضب بقدر ما يتصل الأمر بالملك. يذكر داوتي[١] أنه لم ير قططاً أبداً في نجد، ولكن من المؤكد أنها توجد في الرياض على الرغم من أعدادها القليلة[٢]، وقد وضع ابن سعود خطة لشراء حديقة صغيرة تجاور حديقة القرنين (القرينين بغرض تحويل هذه المساحة المشتركة إلى محمية يزرع فيها نبات الفصفصة[٣] (Lucerne) لأن الطلب كان شديداً والعرض قليل جداً من علف الحيوانات التي كثرت أعدادها في العاصمة[٤]، وقد أصبحت التمور صالحة للأكل الآن (٢١ يوليو) في مرحلة النضج الابتدائية التي تسمى (لون) ومن هذه المرحلة سوف تنتقل إلى مرحلة نصف النضج وتعرف باسم (بسر) والمرحلة النهائية من التمور الطازجة تسمى رطب.

كان جابر المري في الرياض خلال تلك الأيام، وفي إحدى المناسبات وجدته مستنداً على عمود في بهو القصر، ويبدو شديد البؤس ويشعر بضعف شديد بسبب الحمى. وهذه هي أول مقابلة لي معه منذ أن أبعده إبراهيم بشكل مفاجئ عن الوادي، وعندما أخذته إلى غرفتي لتناول جرعة من الكينين (دواء الكينا) سمعت لأول مرة القصة التفصيلية لخطيئة إبراهيم وظلمه.

لم يكن هناك بعوض في الرياض، إذ لم أره بأي حال من الأحوال خلال فصل الصيف هذا. ولكن كانت توجد ذبابة الرمل التي ـ على الرغم من أنها ليست كثيرة

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن الرحالة دواتي، انظر: روبن يدول، الرحالة الغربيون، ص ٧٧ - ٨٩. (ابن جريس).

(٢) لا تخلو بلاد نجد من الزواحف والحيوانات المختلفة والمتنوعة في أحجامها وأشكالها، انظر: أر. إي تشيزمان. في شبه الجزيرة العربية المجهولة، ٤٥٧ وما بعدها (ابن جريس).

(٣) الفصفصة: هو ما يسمى بـ (البرسيم) أو (القضب) في أجزاء عديدة من الجزيرة العربية (ابن جريس).

(٤) لمزيد من التفصيلات عن أنواع النباتات والأشجار في الجزيرة العربية انظر: أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري. كتاب النبات. وهو يقع في عدة مجلدات ثم الاطلاع على ثلاثة منها نشرت في المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة عام (١٩٧٣م)، والبعض الآخر نشر في مدينة بغيسبادن بالمانيا عام (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م)، ومازال هناك أجزاء أخرى مفقودة لم يتم العثور عليها حتى الآن، ويعد هذا الكتاب أفضل المصادر التي تحدثت عن النباتات في الجزيرة العربية، أنواعها، أشكالها، فوائدها التي لا نجدها في أي مصدر آخر (ابن جريس).

بدرجة كافية لتسبب الإزعاج والضيق ـ إلا أنه من الضروري أن ترتدي غطاءً في الليل عند النوم فوق السطح. وكانت العثة تزور أحياناً اللمبة القوسية على سطح القصر والتي كانت ترفع في الليالي المظلمة وتخفض بعد قراءة ابن سعود للقرآن، وكانت تزور الرياض أيضاً أسرابٌ من الدودة البيضاء الصغيرة، طولها حوالي نصف بوصة، ومع حشرات أخرى صغيرة كانت مجالاً للخفافيش تتحرك وتنقض عليها بحماس[١] شديد.

وفي أحد الأيام أصبت ببرد خفيف في الرأس، والذي كان ابن سعود يرجعه إلى النوم مكشوفاً للقمر، وقال: «عندما أنام في العراء فإنني دائماً ألّف رأسي بمنديل».

وبعد صلاة المغرب في معظم الأيام كان ابن سعود يجلس لبعض الوقت ليستمع إلى قراءات من الحديث النبوي الشريف؛ والمجموعتان الوحيدتان من التفسير المقبولتان لدى المذهب الحنبلي هما التي كتبها ابن كثير في اثني عشر مجلداً والبغوي في ستة مجلدات[٢]. في هذه المناسبات كانت الآيات التي يكثر الرجوع إليها هي تلك التي تفسر الظروف التي نزلت فيها آيات مختلفة من القرآن، وأيضاً تلك التي تصف عذاب جهنم. «لكي تجعل الناس يخافون نار جهنم» كما أضاف ابن سعود على سبيل التوضيح.

إن تسلسل الأشخاص الذين يُقبل شرحهم للأحكام الربانية يبدأ بالنبي ﷺ[٣] نفسه ثم صحابته ثم التابعون أي أصحاب الصحابة، وأخيراً (تابعو التابعين) أي أصحاب أصحاب الصحابة. وكان أحمد بن حنبل من هذه الفئة الأخيرة[٤]. والاتصال

---

(١) شدة ملاحظة فيلبي جعلته لا يغفل عن تدوين بعض الملاحظات عن الحشرات والطيور في منطقة الرياض. لمزيد من الاطلاع، انظر: آر.اي تشيزمان، ص ٤٥٧ وما بعدها (ابن جريس).

(٢) كتب البغوي وابن كثير من التفاسير المعتمدة عند أهل السنة من المسلمين، بالإضافة إلى تفاسير أخرى مثل: تفسير ابن جرير الطبري وتفسير القرطبي، وتفسير البلنسي. (ابن جريس).

(٣) عبارة (صلى الله عليه وسلم) إضافة من المراجع (ابن جريس).

(٤) أحمد بن حنبل صاحب المذهب الحنبلي عاش في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث للهجرة (الثامن والتاسع الميلادي)، قابل العديد من المشكلات عن فرقة المعتزلة التي كان يدعمهم الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد (١٩٨ - ٢١٨هـ/٨١٣ - ٨٣٣م)، له كتب عديدة من أهمها: كتاب المسند. (ابن جريس).

مع النبي ﷺ[١] نزولاً حتى الجيل الثالث يعتبر بشكل واضح أنه آخر درجة من البعد عن النبع الأساسي التي يمكن بأمان الاعتماد عليها في الفهم الحقيقي للنصوص الشرعية. وقد ظلت العقيدة بلا تغيير حسب ما قاله ابن سعود، لحوالي ثلاثة قرون بعد إظهارها من قبل سيدنا محمد ﷺ بيد أن الألف سنة التي تلت ذلك كانت تعج بنشر كثير من الضلالات والبدع التي أعيدت إلى منزلتها الصحيحة بواسطة المذهب الوهابي[٢].

في الثالث والعشرين من يوليو، وبعد تحايلي على العيش شهراً كاملاً في العاصمة الوهابية، اعتقدت أنه قد حان الوقت لتذكير ابن سعود بوعده ببدء حملته العسكرية فوراً بعد نهاية رمضان. وقد ردّ عليَّ قائلاً: «لقد كان عندي عزم أكيد على افتتاح الحملة العسكرية بعد الصيام، وكنت سأفعل ذلك لولا الوقائع غير المواتية في الخرمة وفي منطقة العجمان؛ هذه الأشياء جعلتني أخشى ثورة محتملة في الجنوب عندما أن أكون بأمان في الشمال» كانت هذه الإجابة تبدو لي اعتذاراً وليست سبباً واقعياً، وعدت إلى تأكيد النقطة هذه قائلاً : «إنني مقتنع أنك تعزم فعلاً على التحرك، ولكن من الصعب جداً على أن أقنع السلطات في بغداد بعزمك هذا وهم لا يرون أي إشارة على التحرك من جانبكم». فقال مجيباً: «حسناً، إنني أعطيك وعداً مني بالتحرك في مدة خمسة عشر يوماً من الآن إذا كنتم سوف تضمنون أن الشريف لن يهاجم الخرمة، وأن العجمان لن تعمل ضدي في الشرق، وأن شمر لن تدللها سلطات العراق». لقد كان هذا الأمر كبيراً نسبياً بالنظر إلى التردد والحيرة الشائعة في نصائح بغداد، ولكنني تعلقت بقشة، وهي أن التحرك كان لازماً وضرورياً. فقلت

(١) عبارة (صلى الله عليه وسلم) إضافة من المراجع (ابن جريس).

(٢) من يستقرئ التاريخ الإسلامي فإنه يجد ظهور الفرق الضالة والمبتدعة منذ فجر الإسلام، وما زالت تظهر وتتجدد بأشكال وادعاءات مختلفة حتى يومنا الحاضر. وللمزيد من الاطلاع، انظر: مانع بن حماد الجهني. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (الرياض: دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٨هـ ص ٦٣٦ وما بعدها. (ابن جريس).

له: «إنني أضمن لك فيما يخص الشريف والعجمان[١]، وإذا اكتشفت أن ضماني غير ذي جدوى فيمكنك أن تقول لي إنك لم تعد بحاجة إليّ في بلاطك وسوف أرحل».[٢] وهكذا تم الاتفاق على وجوب التحرك نحو الشمال في خمسة عشر يوماً، وكما ثبت فعلاً بعد ذلك، كان ابن سعود أسبق من الوعد الذي قطعه بيومين.

وبما أنني كنت قد اكتفيت بالوعد الذي كسبته بتملق مضيفي ومرهقاً بالكفاح الذهني، فقد تخليت عن فكرة خروجي الاعتيادي في المساء، وآويت مبكراً إلى النوم على السطح، حيث متعت نفسي بمشاهدة السطوح حولي وهي تدب فيها الحياة عندما مالت الشمس للغروب. وكان كل سطح مزود بجدران ساترة، مرتفعة لمستوى يضمن خصوصية ساكنيه. وعندما غربت الشمس وألقى الشفق ظلاً على النساء رأيتهن وهن يجاهدن بأحمالهن العظيمة من الحصر والفرش لكي يفرشنها لأنفسهن ولأزواجهن. وبعد ذلك ينزلن مرة أخرى لإحضار أواني الطبخ وأوعية الماء، بل وحتى ماعز العائلة. هذه الماعز ترسل إلى الخارج كل صباح في قطعان كبيرة مشتركة برعاية أولاد محترفين، معهم دائماً وبشكل ثابت حمارٌ يحمل طعامهم وماءهم طول اليوم. وفي كل مساء يعودون قبل الغروب ليقوموا بتوزيع الماعز على أصحابها في بيوتهم حيث يتم فوراً حلبها وربطها في أوتاد خلال الليل.

في كثير من الحالات كانت النساء تؤدي هذه الواجبات وهن يحملن طفلاً رضيعاً يحضنّه بصورة شديدة تحت ذراع واحد، بينما يكون الذراع الآخر أو الرأس خالياً لحمل الأثقال التي عليهن أن يُحضرنها ويرتبنها على السطح. وفي بيوت الأثرياء كان

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن العلاقات بين ابن سعود والشريف والعجمان وموقف بريطانيا من أولئك الأطراف الثلاثة، انظر، لوريمر، ص ٥٢٩، العثيمين، تاريخ، جـ٢، ص ١٢٤، حافظ وهبة، ص ٢٦٢، السعدون، ١٧٠، ١٨٥. (لابن جريس).

(٢) يتصح للقارئ أن فيلبي جاء إلى نجد لمقابلة ابن سعود والعمل معه كحلقة وصل بينه وبين حكومته بريطانيا. للمزيد عن شخصية وأعمال فيلبي، انظر: روبن بدول، الرحالة الغربيون، ص ٩٠ - ١٠٣. (ابن جريس).

يقوم بهذا العمل بالطبع الإماء اللاتي كن بصورة عامة يلبسن ملابس ذات ألوان زاهية. وقد شاهدت إحداهن في ثوب خارجي فضفاض رائع اللون، كذلك يقوم العبيد من الرجال بمثل هذه الأعمال. وبين الحين والآخر قد يبرز رجل أو اثنان على السطح قبل الغروب لأخذ نفسٍ من الهواء المنعش، ولكن في معظم الأحوال كان النساء والأطفال يحتفظون بالمشهد لأنفسهم إلى أن يحل الظلام على المدينة[١].

وفجأة، وعندما تغيب الشمس خلف حافة طويق المشرشرة، تنفجر المدينة كلها بالأصوات عندما يطلق المؤذنون الذين لا حصر لهم صوتهم بالنداء للصلاة من المآذن القصيرة السميكة. وهي أبراجٌ غريبة ذات بروز غير منتظمة إلى أعلى في أحد الأركان وعادة ما يكون الركن الشمالي[٢]. ويلي ذلك فوراً انطلاق الناس، الرجال فقط طبعاً، في الشوارع، متباطئين في البداية ثم مسرعين فيما بعد نحو المساجد. بعد ذلك يسود الصمت، ولا يقطعه إلا عبارات "الله أكبر" و "آمين" من عامة المصلين، وفي الوقت نفسه تقوم النساء على السطوح بجميع حركات وأدعية الصلاة، على الرغم من أنهن يفعلن ذلك دائماً منفردات وفي صمت. وبعد الصلاة يستأنفن عملهن أو لعبهن، وفي إحدى المرات رأيت ولداً صغيراً يلعب بسيف كبير مسلول والذي قام فجأة ودون سبب واضح بتسديد ضربة قوية لواحدة من الإماء عندما كانت تؤدي واجباتها. لقد ضربها ضربة شديدة، على ما يبدو، وابتسم فرحاً بينما اندفعت هي هاجمة عليه في احتجاج، ثم ضربها مرة أخرى وفرّ مذعوراً نازلاً على الدرج تلحقه لعناتها. وعلى سطح مجاور رأيت امرأة تنتهز فرصة خروج زوجها عندما كان ينهض للنزول للصلاة، ولقد كانت إشارات يديها وذراعيها رائعة كما يبدو

---

(١) يظهر في معلومات فيلبي الدقة في وصف بعض الجوانب الاجتماعية التي كان يشاهدها في مدينة الرياض. وما شاهده قد يكون متشابهاً إلى حد ما عند معظم سكان الجزيرة العربية. للمزيد انظر: محمود شاكر، نجد، ص ٢٠٧، حافظ وهبة، ص ٢١٥، حمد الجاسر، مدينة الرياض، ص ٨١ وما بعدها، فهد الكليب، الرياض، ص ٥٣ وما بعدها، وليام فيسي، الرياض، ص ٣٢٥ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) المئذنة تعد من أجزاء المسجد، وبها يستدل الناس على معرفة المسجد وتميزه عن غيره. (ابن جريس).

وهي تستعطف بعض أنواع المعروف أو الفضل منه، وربما كانت تتوسل إليه أن يعود دون تأخير ليستمتع بالعشاء الذي سوف تعده عند عودته[١]. وهكذا أسدل الليل سدوله على المدينة العظيمة، وقد دعيت للعشاء.

في هذه الليلة قُدّم لي لحم غزال. في أحد الأيام خلال رمضان وعندما كنت مع ابن سعود أتى إلينا أغرب عينة من جنس البشر، والذي شاء قدري أن تسقط عيني عليه أول مرة. لقد كان قزماً في الهيئة يرتدي ثوباً من جلد الغزال يصل تماماً حتى قدميه، وهو يصدر صوتاً كصرير الباب عندما يفتح فمه ليتكلم، ومن مظهره العام يبدو نصف عاقل وهو في منتصف العمر أو أكثر بقليل، وكان من الصلب، واسمه محرق ووظيفته صيادٌ مثل الآخرين من نوع شاكلته. وكان قد جاء ليأخذ بندقية وإمداداً من الذخيرة فيما يتصل باتفاق كان عليه بموجبه أن ينطلق إلى الدهناء ليحصل على لحم غزال لأهل البيت الملكي. وقد انتهزت الفرصة لأرجوه أن يحضر لي خمسة رؤوس من أنواع الغزلان المختلفة التي قد يصادفها، وبصورة عرضية ذكّرت ابن سعود بعجل صغير من البقر الوحشي الذي كان أخبرني قبل أيام مضت أنه قد حجزه لي ولكنه للأسف قد مات، وقد وعدني أن يحصل لي على عجل آخر. منذ ذلك الحين كان محرّق، مصحوباً بولده، قد أنجز مهمته، وجاء بحوالي ثلاثين ذبيحة كاملة، ومن هذا اللحم كان العشاء الذي وضع أمامي في تلك الليلة.

إن العملية التي تخضع لها الغزلان بعد الذبح في غاية البساطة والفعالية. فبعد أن يُسلخ الحيوان، تفتح بطنه وتنظف، وبعد ذلك يُرشّ بالملح لطرد الرائحة، ثم تعلق الذبيحة في الشمس إلى أن تجف وتبدو مصونة من الفساد، وصالحة للاستهلاك لأي مدة تقريباً من الزمن[٢]. وقبل طبخها تغسل الذبيحة بعناية لتنظيف اللحم من

---

(١) يبدو أن فيلبي كان لديه من الفضول والرغبة ما جعله يراقب حركات وسكنات الناس الخاصة، ثم يدون بعض مشاهداته. (ابن جريس).

(٢) هذه الطريقة في تجفيف اللحم كانت موجودة عند العرب من قبل الإسلام، وعبر العصور الإسلامية المختلفة، ويطلق عليها أيضاً اسم (قديد). (ابن جريس).

الدم والرمل والملح، وفي أثناء ذلك تستبعد أي أجزاء قد تكون فاسدة، وعندما تطبخ يكون لونها مائل إلى الأحمر الداكن، وذات طعم شديد الروعة والمذاق، ويُسمى لحم الغزال هذا (جالا).

بين الحين والآخر كانت أحداث صغيرة تذكرني بأنني حقاً غريب في أرض غريبة؛ ففي ذات صباح جاءني الجنيفي بحكاية محزنة. فكان قد اقترب منه أحد النواب أو النُظّار، (طلاشي)، وقال له: «طهر روحك يا إبراهيم!!» . وعندما ردّ عليه بأنه لا يعي أي حاجة تدعوه للتطهر في هذه اللحظة قال له الرجل: «فكّر قليلاً يا إبراهيم، وسوف يفتح الله عيون روحك». فتجرأ جنيفي وقال: «ربما تقصد تعودي مصاحبة الإنجليزي». وكانت الإجابة: «نعم هو كذلك»، «اذكر الله واتركه». وقد ردّ عليه الجنيفي بجرأة أن هذا أمرٌ لا يهم السائل عنه، لأنني ضيف على ابن سعود، ومن أجله ومن أجل تعزيز سياسته كان يكرر مصاحبتي. ولقد كان لا يهتم أبداً بديني وأنا أيضاً لا أهتم بدينه. وبعد ذلك بأسبوع عاد (طلاشي) للهجوم على خطوط مختلفة، فقال: «إنني ألاحظ أنك لا تحضر صلاة الجماعة»، وكان هذا غير صحيح، «وأنك في أحيان كثيرة تصلي في البيت، أصلّح من طريقتك». وهنا تحداه الجنيفي، بكل الشجاعة المشهورة عن بني تميم، أن يرفع شكواه إلى ابن سعود؛ لأنه لم يستطع أن يدرك اختصاصه بهذا الأمر.

وقام هو نفسه بإبلاغ هذا النزاع إلى سيده على سبيل الحذر والحيطة من الحوادث. فكانت الإجابة: «لا تقلق، انتظر وسوف ترى». في الصباح التالي عاد الجنيفي إلى بيته بعد صلاة الفجر وعندها وجد طرقاً على بابه. ولما نظر من فوق الجدار الساتر على السطح وجد طلاشي مع ثلاثة أشخاص آخرين، وهم زميلٌ نائب يسمى شدى، ورجل آخر كان مؤذناً في مسجد مجاور، وتركي بن عبد الله ابن سعود، وهو واحدٌ من فرع عريق من العائلة المالكة. في البداية رفض أن يفتح لهم

الباب، ولكن نظراً لأنهم ظلوا يدقون على الباب ويحدثون قدراً عظيماً من الجلبة فقد فتح لهم وأدخلهم. عند ذلك اتهمه طلاشي بأنه لم يذهب إلى المسجد هذا الصباح، وأعلن ـ مع إصراره ـ على أن الأمر كان كذلك على الرغم من إنكار إبراهيم المتكرر، أنه يجب معاقبته. فقال الجنيفي: «حسناً، ارفع شكواك إلى ابن سعود؛ لأنه ليس لك أي اختصاص قضائي بمعاقبتي أو محاسبتي» عند ذلك ضربه طلاشي بالعرض على الرقبة والكتف بعصاة طويلة، وكان لا يزال يتألم وهو يخبرني بالقصة[(١)]. وانقض الجنيفي على مهاجمته، وخنق رقبته وسدد له لكمة بعد لكمة على وجهه وأنفه إلى أن تدخّل الآخرون وأخذوا الناظر[(٢)] المصاب إلى الخارج. وعلى الرغم من ذلك لم يكن قد اقترب من نهاية مشاكله لأنه بعد فترة قصيرة من ذلك كان هو ورئيس النواب قد استدعيا للحضور أمام الملك، وأصدر ابن سعود حكماً بأن يقوم رئيس النواب بإيقاف مرءوسه غير المنضبط ويربطه في وتد إلى أن يعلن الجنيفي بنفسه رضاه. وقد رفض رئيس النواب هذا الواجب الذي فُرض عليه[(٣)]، والذي تبعاً لذلك عُهد بهذه المهمة إلى وكيل القصر حمد بن فارس، وفي حينه كان طلاشي يُجلد حتى رضي الجنيفي ثم فُصل من الوظيفة التي أساء استخدامها[(٤)]. في نفس الوقت تلقى تركي بن عبد الله تحذيراً خطياً بأن يهتم

---

(١) هذا الأسلوب الذي استخدمه طلاشي في انتقاد إبراهيم الجنيفي كونه لم يصلّ الصبح مع الجماعة في المسجد، ثم الاعتداء عليه بالضرب، فيه قسوة وعدم حنكة في معالجة الوضع. ومثل هذه الأساليب ما زالت تحدث إلى اليوم من بعض رجالات الدعوة والعاملين في مؤسسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. واللين في مثل هذه الأمور مطلوب من الداعية، وإذا عجز عن الإصلاح فإنه يستخدم الأسلوب الرسمي مع جهته الرسمية، أو الأجهزة الحكومية المسؤولة. (ابن جريس).

(٢) الناظر: سماه فيلبي بهذا الاسم، وهو الواعظ أو المرشد. (ابن جريس).

(٣) في بداية تأسيس الدولة السعودية الثالثة، كان بعض الإخوان أو رجال الدولة ربما يمتنع عن تنفيذ أوامر الملك عبدالعزيز، كما حدث في هذه الحالة، ولكن الملك عبدالعزيز كان يمتلك من الفراسة والحنكة ما جعله يتجاوز مثل هذه الحالات، دون أن يتراجع في تنفيذ أوامره وقراراته. وبهذه السياسة استتب الأمن واستطاع أن يسوس البلاد بذكائه وحنكته ودهائه. (ابن جريس).

(٤) هذه العقوبة تعتبر مناسبة لمثل هذا الشخص وأمثاله الذي يفتقدون إلى الصبر، والتعقل في معالجة الأمور (ابن جريس).

بشأنه فقط في المستقبل، ويذكره بأنه ليس له أي نصيب في الحكومة التنفيذية بالبلد(١).

ومن الأسباب الأخرى التي تضايقني هو ميل هؤلاء القائمين على رعاية شؤوني بتثبيط الأصدقاء الآخرين عن زيارتي من أمثال جابر ومترك وغيرهما؛ ولذلك كنت دائماً مضطراً أن أكون على حذر(٢).

ففي أحد الأيام، عندما قابلت جابر في الشارع دعوته أن ينضم إليّ في الإفطار صباح الغد. وقد جاء فعلاً، ولكن محمد بن مسلم انتهز فرصة وجودي مع ابن سعود في تلك اللحظة فصرفه وقال لي بعد ذلك: إنه لم يأت أبداً. في اليوم التالي اكتشفت صدفة تماماً من أحد العبيد أنه قد جاء فعلاً. وكان هذا أكثر مما أستطيع تحمله، وقد ذكرت رأيي بكل صراحة للجنيفي وابن مسلم عندما جاءا بإفطاري. وقلت لهما: «انظرا، أنا أعلم أن جابر على مقربة منا، وحيث أنكما قد صرفتماه أمس فإنني أريد أن يتناول الإفطار معي اليوم، والأكثر من ذلك، إنني لن آكل الفطور إلا بعد أن يأتي». وبعد ذلك جرى بحث محموم عن جابر بطريقة تلفت النظر، فقد بحثا سدى في كل ركن من الفناء الذي تطل عليه نافذتي. وعاد الرسولان ليقولا: إنه ليس هنا ولا يمكن العثور عليه، ولذلك تركت الفطور يبرد وبعد دقائق قليلة استدعيت، وأنا لم آكل بعد، إلى ابن سعود. وعندما جلست بجوار نافذته رأيت جابر يمشي داخلاً إلى القصر، وعندما عدت إلى غرفتي سألت إن كانا قد أحرزا أي نجاح في بحثهما. فقال ابن مسلم «والله، قد بحثنا في كل مكان ولكنه ليس موجوداً لكي نعثر عليه». فرددت عليهم قائلاً: «لا، لقد رأيته للتو يمشي داخلاً القصر». عند

(١) هذه سياسة واضحة من قبل الملك عبدالعزيز في حكمه البلاد، فلا يسمح لبعض رجالات الدولة أن يستخدم بعض أقارب الملك كي ينفذ بعض القرارات أو العقوبات المختلفة على من أراد، كما فعل طلاشي عندما اصطحب معه تركي بن عبدالله بن سعود وبعض الرجال الآخرين أثناء معاقبة إبراهيم الجنيفي. (ابن جريس).

(٢) هذه من المشكلات التي كان يقابلها فيلبي مع بعض رجالات ابن سعود، وربما سعى بعضهم إلى تثبيط بعض رفاق فيلبي من الذهاب إليه ومجالسته كونه ما زال على دين النصرانية ولا يدين بدين الإسلام. (ابن جريس).

ذلك تذكر الجنيفي أنه مضطر لتنفيذ بعض العمل العاجل فانسل خارجاً، وترك ابن مسلم يسمع أي شيء قد أقوله له عن الموضوع. ولم يبق إلا دقائق قليلة حيث رحل تاركاً العبيد يحرسون الأطباق التي أصبحت باردة الآن.

في الساعة الواحدة بعد الظهر قاموا بتغطية الأطباق بعناية وخرجوا خلسة، وبعد ذلك بساعة عاد ابن مسلم بسلطانية من الفاكهة، وسألني ما إذا بإمكانه أخذ الفطور فرددت عليه قائلاً: إنه يستطيع أن يُمتّع نفسه ما دمت قد عزمت على عدم أكل أي شيء إلا بعد أن يظهر جابر، وعند مغادرته رقدت، جائعاً وحزيناً، لنوم القيلولة، ومنه استيقظت عند الساعة الثالثة ظهراً بعودة وكيل القصر وجابر في معيته. وقال جابر بعد أن لقنوه بعناية أقسم بالله أنه لم يُصرف أبداً في اليوم السابق، ولكنه كان غائباً عن المدينة لأنه كان مشغولاً ببناء سقف لبيته، وأنه أيضاً كان يعاني شيئاً من الحمى. وقد صرفته مع دعوته على العشاء في اليوم نفسه، وكسرت صيامي على عنب وخوخ وتمر غير ناضجين[1].

خلال فترة العصر عندما كنت في الخارج أتمشى نحو التل المطل على منفوحة مع منوّر دار الحديث عن إبراهيم، وقد دهشت عندما سمعت أنه مؤخراً قد تدنى تقديره نسبياً لدى العبيد الذين ـ بعد أن كانوا أقوى مؤيديه سابقاً ـ بدؤوا الآن يشتكون من أنه يحجز جزءاً من الهبات والعطايا المخصصة لهم. كانت هذه التهمة على الأرجح بلا أساس، على الرغم من أن مظلمتهم الحقيقية ربما كانت من تقديره لمبالغ مستحقة لهم على أساس غير مقبول؛ وذلك لأن العبيد قومٌ فخورون ومغرورون بأنفسهم، ويعتبرون أنفسهم بكل المقاييس متساويين مع العرب الأقحاح، ناهيك عن

---

(١) أعتقد أن فيلبي كان على قدر كبير من السذاجة، عندما يدخل في مشادة مع بعض رجال ابن سعود ويضرب عن الطعام بسبب أن صديقه جابر لم يأت، بل يدعي أنه عملوا على إبعاده عنه وإشغاله بأمور لا تجعله على مقربة منه. (ابن جريس).

بني خضير من ذوي الأصل المختلط[١]. واستمر منوّر في حديثه مخبراً إياي عن حياة سيده الملك في المخيم بصحبة هذه الأرواح الباسمة السعيدة مثل، طامي وناصر بن سدحان اللذين يمزح معهما أحياناً بصورة مفرطة لاسيما خلال أوقات الطعام[٢]، عندها قد يأمر العبيد أن يحملوهما بعيداً حتى قبل أن يتمكنا من تذوق الطعام الموجود أمامهما. وفي إحدى المرات كان قد أخذ طامي لمهمة بسبب شواربه شديدة الأناقة والروعة، وعندما تلقى الإجابة الوقحة التي كانت دائماً جاهزة على لسانه طلب مقصاً وبيديه هو نفسه قص شاربه الجميل. وهنا طالب طامي ودون خوف بتعويض مالي قدره بأربعين ريالاً مع عباءة.

وقد جاء جابر للعشاء في تلك الليلة وبقي الجنيفي بعيداً، معتذراً بالألم الذي يعاني منه في رقبته نتيجة هجمات طلاشي. وكان جابر في آخر رحلة له في خدمة ابن سعود للأحساء، قد عاد بزوجته معه، وكان مشغولاً الآن بالاستقرار في بيته الجديد خارج بوابة الظهيرة بجوار المقبرة. وكانت تكلفة هذه العملية أمراً خطيراً بالنسبة له، كما شرح لي، فالخشب المطلوب قد جاء له من حفر الباطن، حيث توجد هناك أشجار الأثل الجيدة، وبالنسبة لقش السقف فقد استفاد من سعف النخيل[٣] المأخوذ من حدائق الرياض، وبعد ذلك هناك تكلفة إضافية للملاط والماء[٤].

(١) إن المساواة بين العبيد والأحرار ليست موجودة في الشريعة الإسلامية. أما ظهور بعض العناصر المختلفة في عموم أنحاء الجزيرة العربية وبخاصة أصحاب المهن أو أخلاط الناس، فإنهم في نظر العربي الأصيل أقل درجة منه. ويؤثر ذلك على كثير من العلاقات الاجتماعية، فلا يتم بين هذه العناصر والعرب الأقحاح أي تزاوج أو مصاهرة. ومثل هذه العادات كانت موجودة من قبل الإسلام واستمرت على مر العصور الإسلامية المختلفة حتى اليوم. (ابن جريس).

(٢) الظرفاء وأصحاب الفكاهة ظاهرة اجتماعية موجودة في مجالس الحكام والخلفاء والوزراء منذ عهود قديمة. ومن يطالع كتب التراث الإسلامي، وبخاصة الأدبية منها، فانه يجدها مليئة بهذا النوع الثقافي الإجتماعي. (ابن جريس).

(٣) جريد أو خوص. (فيلبي) سعف النخل يعد من الأدوات الرئيسة في بناء البيوت في نجد وبيشة والأحساء وغيرها. (ابن جريس).

(٤) لمزيد من التفصيلات عن الحياة العمرانية قديماً انظر، فهد الكليب، الرياض ٧٥ وما بعدها، وليام قيس، الرياض، ص ٣٤٥ وما بعدها، حمد الجاسر، مدينة الرياض، ص ٨٣ وما بعدها، محمد بن عبدالله النويصر. =

وعلاوة على ذلك كان أخوه قد أعجب بالبشت الذي أعطيته إياه وحرمه منه. ولكل هذه الأسباب كانت هناك قضية عادلة لهدية إضافية مني، ليس هناك حدٌّ لجشع البدو وطمعهم؛ ففي السابق كانت عنده زوجة أخرى في القصيم، ولكنه طلقها منذ زمن طويل، كما أن لأسباب اقتصادية هي التي أجبرته أيضاً أن يعالج الحمى التي تكررت عليه كثيراً في الآونة الأخيرة بدواء رخيص مع توكل ضمني على الله[١]، وهو لم يتناول دواء سوى قرصيّ الكينين اللذين أعطيتهما له منذ أيام.

في اليوم التالي كانت هناك علامات سارة على الاستعدادات الابتدائية للحملة العسكرية الموعودة، فبينما كنت أجلس مع ابن سعود جيء بعشرين جملاً جرى شراؤها حديثاً إلى المناخ[٢] في الطابق الأسفل حيث تم وسمها كلها واحداً تلو الآخر بالعلامة الملكية[٣]؛ فبعد أن يُضجع الحيوان ويتم ربط إحدى رجليه بإحكام، يقوم أحد الرجال بإمساك رأسه ويلوي رقبته العظيمة نحو السنام، ويظل ممسكاً بالشفة السفلى وغضروف الأنف ما تجعله يبدو كما لو كان يحاول أن يصرف انتباه الحيوان بأقل ألم ممكن وغير مؤذ في هذا الاتجاه، بينما ينشغل رجل آخر بقضبان الوسم على الربع الخلفي الأيسر. ويصدر بعض الصوت أثناء كي اللحم الحي وانبعاث فورة من الدخان عندما يُوضع القضيب الساخن على لحم الحيوان. وينتج عن ذلك تمايلٌ عنيف من الحيوان الذي من شدة الألم قد ينفك في معظم الحالات من رباطه ويفر هارباً على ثلاثة أرجل إلى أن يُمسك به ويُعاد مرة أخرى لإنجاز العملية. وهي في

= خصائص التراث العمراني في المملكة العربية السعودية (منطقة نجد) (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، ص ١٥ وما بعدها (ابن جريس).

(١) التوكل على الله أمر أساسي عند المسلم المؤمن الصادق، كما ورد في القرآن والسنة، وليس ضمنياً كما يذكر فيلبي. (ابن جريس).

(٢) يقصد بـ (المناخ) هنا أي الحوش أو المكان الذي تحجز فيه الإبل حول البيوت والمنازل. (ابن جريس).

(٣) وسم الجمال عادة عربية قديمة، بل كانت لكل قبيلة وربما كل أسرة وسوم خاصة بها لا يشابهها ولا يشاركها غيرها فيها. للمزيد انظر: جواد علي، الفصل، جـ ٧، ص١١١ وما بعدها، هند بنت حمود الحيسوني. وسوم الإبل عند قبيلة حرب (الرياض: دار البدراني للنشر والتوزيع، ١٤٢٤هـ)، ص ٢٥ وما بعدها. (ابن جريس).

حالة وسم ابن سعود، تشتمل على أربع عمليات منفصلة للمبسم[١]، تستخدم كل واحدة منها العمل كجزءاً منفصلاً من العلامة. وذات مرة سألت ابن سعود: «ماذا يسمى وسمك؟». فردّ قائلاً: «نعم، إنه اسمٌ غير مألوف من الأزمان الماضية، هل قال لك أحد أي شيء عنه؟». ولم يزد على ذلك شيئاً، وتذكرت بشكل غامض أن طامي قد استهزأ من هذا الاسم ذات مرة. من المؤكد أن الاسم كان ذا دلالة ذكورية، والعلامة نفسها بلا شك انحدرت من عهود الجاهلية، ولا يمكن أن تكون من أي مصدر آخر. فهي مكونة من قضيب معه دائرتان ودائرة ثالثة تحيط بهم جميعاً. وطبقاً لما قاله ابن سعود فإن وسم الوجه البشري وجميع تلك العادات مثل رسم الوشم يحرمها الشرع الإسلامي.

لقد بقي لفترة الآن عكر المزاج بشكل واضح، ربما، حسب تصوري، من قسوة رمضان التي تلتها استعادة الوجبات العادية، التي تشمل جزءاً وفيراً من الفاكهة. إنه هو نفسه ـ على كل حال ـ كان ينسب ذلك إلى الفترة الطويلة بصورة عادية، التي قضاها في الرياض، حيث الماء والهواء ملوثان بالمقارنة مع أحوال الصحراء. وأضاف قائلاً: «ربما أيضاً أن هذا يعود إلى القرب الشديد من المقبرة الكبيرة». ويبلغ عمق حفرة الدفن (اللحد) حوالي أربعة أقدام من سطح الأرض حيث يوضع فيها الجثمان ثم يُمدد فوقه سعف النخيل قبل أن يُردم التراب عليه، وبالنسبة للمذهب الوهابي فان التابوت حرام[٢] وكذلك عادة حرق الجثمان[٣] مثل ما هو معتادٌ بين الهندوس،

---

(١) الميسم: قطعة الحديد التي يستخدمها الواسم لوسم الجمل، تترك في النار حتى تحمر، ثم توضع على مكان محدد من جسم الجمل كي تكون علامة بارزة يعرف بهذا الجمل من بين غيره من الجمال الأخرى التي قد تحمل نفس الوسم أو تختلف عنه. (ابن جريس).

(٢) يقول فيلبي إن التابوت لا يجوز في المذهب الوهابي، وهذه صياغة خاطئة، فالتابوت لا يجوز في نص الشريعة الإسلامية الصافية. ثم إن مصطلح المذهب الوهابي) أيضاً غير سليم، لأنه لا يوجد في شريعة الإسلام مذهب بهذا الاسم، وإنما دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب كانت حركة تجديد وليست مذهباً. (ابن جريس).

(٣) حرق الجثمان من العادات القديمة الموجودة عند بعض المجتمعات والحضارات غير الإسلامية. أما الدين الإسلامي فهو يحرم حرق الميت، لأنه لا يعذب بالنار إلاّ الله عز وجل. (ابن جريس).

يعد ذلك شيئاً بغيضاً. وقد جادلته بأن خبراءنا يعتبرون حرق جثث الموتى أفضل وسيلة صحية للتخلص من الموتى، واعترفت له أنها عادة شائعة إلى حد كبير في أوروبا، وفي أثناء ذلك شرحت له أننا في جميع هذه الأمور نتمتع بقدر كبير من الحرية؛ لأنه لا توجد قوانين تحد من ممارستنا لها. وقد اتفق معي بسهولة على أن الطريقة الفارسية (الزرادستية) كانت أسوأ شكل من أشكال الدفن كلها.

في العصر تجمعنا لنذهب إلى منتجع ابن سعود المفضل، وهو الضفة الواقعة خارج سور حديقة الشمسية. وقد ركبت فرساً صغيرة رمادية جميلة على نحو خاص كما كان ابن سعود على فرسه المفضلة، وهي حيوان رائع يتحمل حمولته بصورة فائقة. وكانت تسمى «كحيلة» رباها شمر جربع الجزيرة، وكانت مملوكة سابقاً لسعود الصالح ابن سبهان[١]، وقد أخذت غنيمة عندما فرّ من ميدان القتال في معركة جراب[٢]، وجاء بها آسرها البدوي وقدمها هدية لابن سعود. وقد قال لي ابن سعود: «ثلاثة أشخاص باسم سعود ميّزوا أنفسهم بالفرار ذلك اليوم، سعود السبهان، وسعود بن الرشيد نفسه والثالث ـ قالها في مرح وسرور ـ كان سعود العرافة، الذي يجلس هناك بجوارك». وكان صاحب الاسم الأخير لا يزال حتى هذا الوقت في عداد الأعداء، والذي كان يُطالب بالعرش الوهابي[٣] دونما حق، ولكنه استسلم بعد معركة جراب، ومنذ ذلك الحين أصبح مؤيداً مطيعاً لابن عمه الأكبر.

وفي أثناء جلوسنا هناك شاهدنا مرة أخرى الموكب الذي أصبح الآن مألوفاً من النوق الملكية الحلوب وهي تتابع طريقها الشاق في العودة لمرابطها. وتباطأ واحد من

---

(١) لمزيد من المعلومات عن أسرة آل سبهان في بلاد حائل، انظر: فهد العلي العريفي، حائل (الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ص ٨٢. (ابن جريس).

(٢) للاطلاع على أحداث معركة جراب بين ابن سعود وابن رشيد، انظر: العثيمين، تاريخ، جـ٢، ص ١٤٥ وما بعدها. (ابن جريس).

(٣) يقع فيلبي في أخطاء عندما ينسب بعض الأعمال أو الأسماء إلى كلمة (الوهابي) نسبة إلى محمد بن عبدالوهاب، فيقول: (المذهب الوهابي)، (الملك أو العرش الوهابي) وجميع هذه المصطلحات وما شابهها خاطئة علماً وشرعاً وتاريخاً وعرفاً. (ابن جريس).

صغارها من التعب خلف القطيع، وظل يتأخر في المؤخرة إلى أن توقفت آخر ناقة في انتظاره. وهرع الصغير فوراً إلى رضاعة لبنها، وبينما هو يفعل ذلك توقفت ناقة أخرى وسارت للخلف لتتأمل المشهد. فقال ابن سعود: «هذه هي الأم الحقيقية والأخرى أم من الرضاعة فقط، لأنك ينبغي أن تعلم أنه عندما تلد ناقتان من نوقنا الحلوب في وقت واحد تقريباً فإننا نذبح واحداً من صغارها وندع الآخر ليكون ولداً لكلتا الناقتين. وهذا يعني توفيراً كبيراً في اللبن». وكان ابن سعود يعتقد أن جمال الحمل والركوب الخاصة به في ذلك الوقت يبلغ عددها حوالي (١٥٠٠) جمل بعد الخسائر الفادحة التي تكبدها خلال السنة بسبب وباء الجرب[١] الذي ضرب نجد، والذي جاءت به حيوانات من الحجاز كانت قد أرسلت إلى هناك مع الحجاج النجديين في العام الماضي. لقد عادت جميعها مصابة بالعدوى من ناحية عملية، ومع أول حرارة من الصيف الحاضر كان ما لا يقل عن (٤٠٠) أو (٥٠٠) حيوان من جماله الخاصة قد نفقت. والأسعار التي كان يشتري بها الجمال في تلك اللحظة للحملة العسكرية القادمة كانت تتراوح بين (١٠٠) إلى (١٦٠) ريالاً.

وفي أثناء جلوسنا هناك كان الخدم يدربون الخيول، يعدون بها على الأرض المنبسطة وينفذون حركات قتال وهمي، وكان عدد كبير غير معتاد من الحيوانات موجودة في الخارج هذه المرة، وكان معظمها يبدو رائعاً بشكل استثنائي في حركاته، على الرغم من أن قليلاً من صقل مهاراتها كان سيحسّن من أدائها جميعاً بعد التدريب على الحركات. وفي وقت لاحق خاض ابن سعود وأخوه عبد الله مباراة في الرماية على هدف صخري يبلغ ارتفاعه (١٨) بوصة وعرضه ست بوصات تقريباً، مقاماً على مسافة (٥٠) ياردة، ولكن من أصل عشر طلقات لكل منهما لم تصب إلا طلقة واحدة من ابن سعود والتي مسّت طرف العلامة مساً رقيقاً. بعد ذلك تطوع إبراهيم الجميعة الذي كان كثيراً

---

(١) الجَرَبُ: مرض يصيب الحيوانات وبخاصة الإبل، وأحياناً يفتك بها ويقضي عليها، والقطران (عصارة شجرة العرعر والزيتون) يعد من الأدوات الجيدة في علاج هذا المرض. (ابن جريس).

ما يذهب إلى المقدمة ليسلم الذخيرة وغيرها إلى المتسابقين، بأن يتفوق عليهما، وعندها ووسط هتافات السخرية أطلق أسوأ طلقتين يمكن أن يتمنى المرء رؤيتهما. وسأله ابن سعود باستهزاء إن كان يصوب على العلامة أو على التل البعيد خلفها(١).

وبعد مدة طويلة جيء بالورد كمقدمة تمهيدية لصلاة المغرب(٢)، وركبت وجعلت الفرس يخب في العودة إلى البيت، وعدت داخلاً المدينة من الشرق ماراً بمجموعة من أكواخ البدو التي جرى منها الأطفال الصغار، عراة أو مرتدين أثواب بيضاء متسخة خارجين في لهو ليسدوا الطريق علينا. وقد عدونا في خبب لطيف نحوهم، وعندها تفرقوا وهم يتصايحون بمرح ويهتفون بالتحية إلينا. كان الوقت قد اقترب من أداء الصلاة، ولم يبق في الخيام إلا النساء، اللائي يلبسن ملابس فضفاضة حمراء مع القناع الأسود القاسي المعتاد وبه فتحات كبيرة للعيون(٣)، والذي كان يتناقض بقوة مع غطاء الوجه الذي تلبسه نساء المدينة من القماش الموسلين الأسود الناعم الضيق، والذي يربطنه حول الوجه والرأس ويتركن طرفاً واحداً منه حراً متدلياً ليسحبنه إلى جنب أو بعرض الوجه لإخفائه عند الحاجة(٤). وواصلت طريقي حتى استدرت جانباً على أمل أن أرى بيت جابر الجديد، وقابلت بعض الأولاد وسألتهم أن يدلوني عليه. فردّوا عليّ في خفة وبهجة «جابر المري؟، نعم، حقاً، البيت الذي يبنيه، إنه هناك، تعال وسوف ندلك عليه». لقد ذهب جابر نفسه إلى الصلاة، بيد أني رأيت المنزل، مجرد هيكل غير مكتمل من الجدران الطينية التي ما زالت رطبة ولا تزيد في ارتفاعها عن ياردة واحدة.

---

(١) إن القنص والصيد بالنبال والبنادق وغيرها كان من الرياضات الموجودة والمحببة عند مجتمع الجزيرة العربية قديماً. (ابن جريس).

(٢) قراءة شيء من القرآن، أو ما يسمى بـ (الورد) صباحاً ومساء، وأحياناً قبل الصلوات المفروضة، كان من الصفات التي يداوم عليها الملك عبدالعزيز. (ابن جريس).

(٣) يقصد بهذا اللياس أي (البرقع) الذي تلبسه المرأة على رأسها ووجهها. (ابن جريس).

(٤) هذا نوع من الحجاب، ونشاهد استخدامه بكثرة عند نساء اليوم. (ابن جريس).

وعندما دخلت القصر وجدت ابن مُسلم وبلال، وهو أحد العبيد، يلوكان بذور البطيخ، الذي يُعتقد أن به بعض الخواص المثيرة للشهوة الجنسية. وكان ابن مُسلم سيء السمعة حتى في الرياض بسبب انغماسه المفرط في الجماع، وكان أحياناً يستفسر مني إذا ما كنت أعرف أي دواء ناجع يساعده في الشهوة. وقد أجبته بغير صدق : «نعم، أعرف كثيراً منها ولكن ينبغي أن تعرف أنها كلها أخلاط من أدوية تحرمها شرائع الإسلام». أحياناً يشعر المرء برغبة لا تقاوم في إيقاظ هؤلاء القوم من انغماسهم حتى الثمالة في الشهوة الجنسية بمجرد الادعاء أن استخدام مساعدات اصطناعية للمتعة قد يُعرّض مستقبلهم في الدار الآخرة للخطر(١).

في التاسع والعشرين من يوليو، ومتأخراً بحوالي شهر تقريباً عن ميعاده الطبيعي طبقاً لكافة الحسابات، تلقينا أول تمر من الرطب، وكانت نزهات العصر تتجه نحو قصر خزام حيث ـ من بين الجماعة ـ قابلت محمد بن عبد الله بن مهنا، آخر أمير من سلالته على بريدة، والذي تمرّد على ابن سعود وفرّ بعد هزيمته، ولكنه فيما بعد قد خضع، وهو يعيش الآن متقاعداً في راحة واحترام بالرياض(٢). ولم يعد بالإمكان العثور على عائلته في مدينتها الأصلية، فمعظم أفرادها الباقون على قيد الحياة قد هاجروا إلى سوق الشيوخ. وعندما كنا نجلس هناك نتحدث تقدّم رجل غير جذاب ذو خدين أجوفين، في ثياب بسيطة وجلس بالقرب من ابن سعود ودار بينهما حوارٌ هامسٌ طويل. لقد كان هو إبراهيم، القائد الثاني للنواب(٣)، وهم جماعة مهابة مكونةٌ من حوالي ثلاثين أو أكثر من الأفراد ذوي الوجوه المتجهمة الكريهة، والذين كان رئيسهم عبد العزيز بن عبداللطيف، أخو الشيخ الكبير عبد الله بن عبدالوهاب. وكان

(١) إذا كانت ممارسة الجنس بالطرق الشرعية والحلال، فالشريعة الإسلامية لا تحرم ذلك، وإنما المحرم هو الجنس غير المشروع كالزنا وما شابهه. (ابن جريس).

(٢) نجد في تاريخ البلاد السعودية الحديث أسماء أشخاص عدة تمردوا على الملك عبدالعزيز في أجزاء عديدة من شبه الجزيرة العربية، ثم خضعوا في نهاية الأمر لسلطته ونالوا رعايته واحترامه وتقديره. (ابن جريس).

(٣) يقصد بالنواب هنا: المشائخ ورجال الدعوة والحسبة. (ابن جريس).

فيصل بن الرشيد شديد الاهتمام عندما ذكرت له أنني أقرأ وصف داوتي[١] لحائل منذ أربعين عاماً عندما كان هو نفسه لا يزال طفلاً، والآن يبلغ ما يزيد عن أربعين سنة. وهو ربما يكون واحداً من أطفال حمود المشار إليه في القصة. وسألني: «هل كان هو الذي يقوم بالتطعيم؟ الذي اعتدنا أن نسمع عنه حكايات».

في اليوم التالي وصلت غنائم الخرمة، وهي مدفع سبعة رطل وبندقية آلية، مع خطاب من خالد بن لؤي يصف فيه المعركة وسجل بأسماء القوات الشريفية الذي عُثر عليه بين الأوراق التي تم الاستيلاء عليها، ويبين أن إجمالي القوة كان (١٦٨٩) رجلاً[٢]. وطبقاً لما قاله ابن سعود، الذي كان قد انتهى لتوه من التشاور مع الشيخ عبدالله وإلى حد ما غاضب نتيجة تحدثه صراحة، أن قوات الشريف كانت تعيد تجمعها في عشيرة، وأن عدداً كبيراً من المتعاطفين معها قد تجمعوا حول الخرمة وجاؤوا إلى بيشة ورنية والقرى المجاورة الأخرى[٣]. وكان يعتبر هذا الموقف شديد الخطورة، وكل ما كنت أستطيع عمله هو أن أرجوه أن يتحلى بالصبر؛ لأنني مقتنع بأن الحكومة البريطانية، نظراً لمجريات الأمور لن تُقصّر في كبح جماح الشريف عن ارتكاب المزيد من الاعتداء[٤].

في ذلك الوقت كان يجري تنفيذ قدر كبير من العمل فيما يتصل بالتغييرات الإنشائية في القصر؛ فالفناء بين سكني والقسم الأوسط من القصر كان من الواضح أنه سيتم تغطيته من فوق ليشكل صالة ذات أعمدة، والمساحة الأرضية كلها الآن مليئة بأعمدة قيد التشييد بمستويات مختلفة.

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن داوتي، انظر: روبن يدول، الرحالة الغربيون، ص ٧٧ - ٨٩. (ابن جريس).

(٢) لاطلاع أكثر عن الحرب بين ابن سعود والأشراف في الخرمة وما حولها، انظر: السبيعي، الخرمة، ص ٢٣ وما بعدها، العثيمين، تاريخ، جـ٢، ص ١٨٣ وما بعدها. (ابن جريس).

(٣) المراجع نفسها. (ابن جريس).

(٤) لمزيد من التفصيلات عن علاقة بريطانيا بالجزيرة العربية خلال العقد الرابع من القرن الهجري الماضي، انظر: لوريمر، ص ٥٢٣ وما بعدها، الشهيل، فترة تأسيس الدولة السعودية المعاصرة، ص ٢٥ وما بعدها. (ابن جريس).

وهذه الكتل المستديرة من الحجر الجيري توضع فوق بعضها البعض مع وضع طين المونة لتثبيتها معاً حتى تصل إلى الارتفاع المطلوب، وهكذا كانت الأساسات تخترق الأرضية الطينية للفناء حتى الصخور السفلية. وعندما ارتفعت الأعمدة والجدران التي تربط بينها إلى ما يزيد عن طول البشر كان البنّاء يتسلقها ليواصل العمل، وهناك فتى في الأسفل يرمي له ألواح الصخر وكتل كبيرة من الطين شبه السائل، والذي كان نصفه بصورة عامة يسقط ويتناثر قبل أن يصل إلى الأيدي التي تنتظره في الأعلى. وقد كانت هذه عملية بدائية وشاقة. وتسير أعمال الهدم جنباً إلى جنب مع أعمال الإنشاء بطريقة بدائية تماماً، محفوفة بالخطر على المارة العابرين للفناء إلى أسفل. وكانت مساكن العبيد في الطابق العلوي من القسم الذي كنت أسكن فيه هي أول ما سقط في الهدم. ووضعت كمراتٌ كبيرة من شجر الأثل مقابل الجدار المائل بزاوية (٤٥) درجة، وكانت بعد ذلك تتعرض لضغط بشري، والحركة المتناغمة للعمال تجعل الجدار يترنح ويترنح مرة أخرى إلى أن يتشقق عند نقطة اتصاله بالكمرات. وبعد قليل من الضغط الإضافي سقط الجدار منهاراً بقوة في الطريق الواقع أسفله[1].

وعندما ركبت بعد مشاهدة هذه العملية فوجئت بمن يحييني من الخلف قائلاً: «سلام عليك يا فيلبي !!». واستدرت لأجد الملامح الفظة لمترك وهو يبتسم ابتسامة عريضة بالتحية لي. كل هذا الوقت كان غائباً عن العاصمة في خدمة ابن سعود؛ ووصل لتوه عن طريق القصيم مع قافلة عبد العزيز الربيعي، التي تعرضت لهجوم من أسلم وهي تحمل البريد القادم لي والذي راح متجولاً في جزيرة العرب. وفي رحلة خروجه كان قد اجتاز الصحراء مع رفيق واحد فقط، وعندما عبر الدروب

(١) للمزيد عن طرق البناء والتشييد في مدينة الرياض وما حولها، بل في عموم نجد، انظر: النويصر، خصائص التراث العمراني في المملكة، ص ٢١ وما بعدها، وليام فيسي الرياض، ص ١١٤ وما بعدها. (ابن جريس).

التي لا تزال تحمل آثار سير مجموعة كبيرة مغيرة مسافرة في اتجاه الجنوب التي قد رأياها فعلاً وكان عليهما أن يستخدما براعتهما ومكر الصحراء كله لكي يبتعدا عن أنظار عصابة أخرى. وقال: إن قبيلة مطير تنتشر في المنطقة المجاورة لبئري الصفا والعوينة، بينما كانت سبيع في حفر العتش (العتك)، ولكن الصحراء الشرقية كلها في حالة اضطراب. وقد كنت في حينها قادراً على إسداء معروف إلى مترك بالهدية التي حجبتها عنه عند عودتنا من الوادي، وقد أدهشني بعدم طلب المزيد. وشكرني بابتسامة عريضة ودعاني إلى تناول القهوة معه في خيمته بالبطحاء، وهي الدعوة التي استفدت منها في الليلة التالية.

كان العدد الكبير من خيام البدو[1]، التي يُقال إنها مشهدٌ عادي يحدث بانتظام عند بداية موسم التمور في الرياض، بمنخفض البطحاء يمثل حقاً منظراً رائعاً، وبقدرٍ عظيم من الصعوبة عثرت في النهاية على مسكن مترك، والذي كان سقيفة صغيرة جداً وكان حوالي ثلثيها مخصص للنساء، في حين كان قسم الرجال مفتوحاً من جانبين. ويسكن فيها مترك نفسه، وزوجته وطفلاه الصغيران، وهما ابن - ولد تقريباً أيام معركة جراب - وبنت ذات ربيعين. عند وصولي كان مترك غائباً، ولكن هناك خادمٌ لقسام ابن رواف، الذي انضم إليه في رحلة العودة، يصنع قهوة لضيفين آخرين؛ ولذا كان هناك ترحيب بي. وسألني: «هل سوف تسير إلى القصيم مع ابن سعود أو تذهب إلى الكويت؟». فقلت: «سوف أذهب مع ابن سعود، ويجب أن تعتبرني الآن نجدياً، لأنني لن أغادر هذا البلد». فردّ في ورع قائلاً: «إن شاء الله، سوف تعتنق الدين الحق». وسرعان ما وصل مترك مع قليل من الأصدقاء وجلسنا نحتسي القهوة، بالإضافة إلى نوع من الشاي المصنوع من الهيل. ودار النقاش عن حوادث الحملة العسكرية للعجمان في عام (١٩١٦)، والتي شارك فيها كلٌّ من منوّر ومترك،

(١) كان من القبائل الموجودة في هذا الموسم شمر، وقحطان، وسبيع، والسهول، والدواسر. (فيلبي). للمزيد من التفصيلات عن هذه القبائل، انظر: الحقيل، كنز، ص ١١٩، ١٣٠، ١٦٧، ١٩٢، ٢٣٣. (ابن جريس).

وعن بسالة نساء البدو. وكان أحد رجال ابن سعود، الذي جرح في الصراع، يرقد محتضراً عندما اقتربت منه امرأةٌ من عجمان وهي تحمل بريقاً من الماء. وقد توسل إليها أن تعطيه شربة ليطفئ بها ظمأه الحارق فصرخت في وجهه قائلة: «أعطيك ماءً، كي أنقذك من الموت حتى تعود مرة أخرى ضد رجالنا؟ لن تحصل على نقطة واحدة وبهذا ضربت ما تبقى فيه من الحياة بعصا غليظة».(١)

على الرغم من ذلك، فقد أثبتت امرأةٌ من الأحساء أنها مساوية لأختها البدوية. فقد كان هناك رجلٌ عجميٌ يرقد على شفا الموت قريباً من حافة بئرٍ جاءت إليه تلك المرأة لتأخذ ماءً. فقال لها متوسلاً: «ساعديني على الابتعاد عن هذا المكان، لأنني لا أستطيع التحرك». فاقتربت منه كما لو كانت ستساعده، وفكّت حزام الخرطوش عن جسمه كما لو كانت تخفف عنه الألم، ثم دحرجت الرجل البائس إلى الأمام فأوقعته في البئر وعادت إلى بيتها مفتخرة بالبندقية والذخيرة التي استولت عليها من الرجل. «هؤلاء» كما قالوا، «هن نساء بلدنا». وكنت أعتقد أن زوجة مترك قد تكون من هذا النوع نفسه عندما لمحت ظلها في شمس الغروب وهي تخرج مسرعة من الخيمة مع ابنتها الرضيع، جسمٌ مشدودٌ متماسكٌ بقوة لا ترتدي أكثر من ثوبها الأحمر الفضفاض الوحيد. وكان فهد الصغير، وهو أمل بيت مترك، يلعب حول الخيمة، ولكنه رفض أن يأتي إليّ أو حتى يسلّم عليّ، على الرغم من أنه في إحدى المرات دفع في لهوٍ أخته الصغيرة، وهي عارية تماماً وخائفة، إلى وسطنا. وقد دفعها مترك مرة أخرى من تحت الستارة ولاحظت أنها عند ظهورها مرة أخرى كانت ترتدي ثوباً فضفاضاً أحمر وضيقاً جداً(٢).

---

(١) للمزيد عن الحرب بين ابن سعود والعجمان عام (١٣٣٥هـ/١٩١٦م)، انظر: الريحاني، نجد وملحقاتها، ص ٢٢٥، محمد بن عبدالله الأحسائي. تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد (الرياض، د.ن، ١٩٦٠م) ص ٢١٤، الرشيد، ٢١٤، حافظ وهبة، ٢٣٩. (ابن جريس).

(٢) يظهر على فيلبي دقة ملاحظته لتدوين بعض المعلومات التي لا يلقي لها المشاهد بالاً لسذاجتها وعدم أهميتها. (ابن جريس).

عندما استأذنت منهم وخرجت قابلت صدفة سعيد القحطاني، رفيق الرحلة إلى جدة، في مجموعة متجاورة من الخيام، وبعد كلمات قليلة من التحية المتبادلة واصلت سيري في المدينة، حيث لاحظت أن المارة، ومعظمهم من البدو وهذه حقيقة، كانوا أشد تجاوباً في الرد على سلامي مما كان عليه الحال عادة. في عصر يوم أمس عندما كنت أركب خارجاً إلى حديقة الشمسية رأيت صدفة سعود العرافة وركبت في صحبته. وكان معه ولده، محمد، الذي يبلغ اثني عشر عاماً، وأمه نورة أخت ابن سعود، يثب على جواد شديد الوثوب وهو يركبه فيما يبدو دون جهد. والولد الكبير لسعود، وهو سلطان، من زوجة أخرى يبلغ السادسة عشرة من العمر في ذلك الوقت وكان غائباً في الجبهة مع تركي. كذلك له أيضاً بنتٌ من نورة، أكبر قليلاً من محمد. وكان سعود نفسه يركب بلا شكيمة أو ركاب فرساً جميلاً من سلالة كحيلة، والتي تشتهر بأنها واحدة من أسرع الحيوانات في البلد. وتعتقد العرب دائماً أن الركوب القتالي يعتبر خطراً إيجابياً في حالة ما إذا أصبح الراكب بلا جواد. إنهم يحملون دائماً معهم عصي الخيزران عند الركوب، ولكنهم لا يستخدمونها أبداً على مطاياهم إلا عند السباق(١).

وقد قيل: إن درجة الحرارة بصورة عامة أشد من الطبيعي خلال هذا الصيف، وكان فصل الصيف الحار يقسم على فترات، كلٍ منها مكونة من ثلاثة عشر يوماً، وترتبط، كل فترة منها بطلوع بعض النجوم. فقد كان فصل الربيع يفسح المجال للصيف أي أوائل الصيف مع طلوع الثريا. ومع الفواصل المذكورة يأتي التبية، ثم الجوزاء الأولى، ثم الجوزاء الثانية، ثم المرزم، يليها الكُلبيين وأخيراً سُهيل. وبعده بثلاثة عشر يوماً يبدأ فصل يسمى (صفري) ويُنطق (صَفَرِي) والذي إما أن يكون مرادفاً لفصل الخريف أو فترة انتقالية بين (القيظ) أي أواخر الصيف، الذي يستمر

(١) هذه من العادات السائدة عند الفرسان، أو من يقوم باستخدام الخيول في الرياضة أو السباق. (ابن جريس).

من المرزم حتى سهيل، والخريف. إن إجمالي طول الصيفين معاً (٩١) يوماً، وكنا في هذا الوقت في القسم المعروف باسم (مرزم)[1].

عندما عدت إلى البيت شاهدت رجلاً شاحباً بصورة غير طبيعية، وجلده قرنفلي اللون قليلاً حتى ظننت أنه مصاب بالجذام، ولكن منور أكدّ لي أن حالته ليست مرضاً كهذا لأن الشخص محل التساؤل قد وُلد هكذا، وأنه كان واحداً من حاشية الإمام عبدالرحمن، وظل دائماً في صحة تامة ويُعامل على أنه طبيعي تماماً. ربما كان أمهق. كان الجنيفي ينتظرني للعشاء، وبعد تناول الوجبة فوراً ارتفع الآذان ونهض ليذهب للصلاة. فقلت له: «أنتم أيها القوم تصلون كثيراً، هل سوف تضطرون إلى المحافظة على أداء الصلاة طوال وقت بقائكم في الجنة أيضاً؟». فردّ قائلاً: «لا، فهناك سوف نضطر فقط إلى الاستمتاع بالطعام والخمر والنساء، ويكفي أن نحافظ على أوقات الصلاة في هذه الدنيا فقط». واستمر قائلاً: «وقبل كل شيء، يوجد التعصب الأعمى نفسه في دينكم أيضاً، انظر إلى الكفارات المفروضة على القساوسة والرهبان والراهبات، ليس عندنا شيء من هذا القبيل». فقلت له: إنه في حالتنا يكون الأمر حسب الاختيار الشخصي تماماً[2].

كان لدى ابن سعود ـ عندما رأيته في الغد ـ تفاصيل هجوم آخر للعجمان يريد أن يبلغني بها. إن المتلقم وبعض شيوخ سفران قد أغاروا مرة أخرى على مخيم لسبيع في الديرة، كما يسمون المنطقة الصحراوية بين القطيف والأحساء، عند نقطة على مسيرة خمسة أيام تقريباً جنوب الكويت. ومع ذلك فقد لاحقتهم سبيع وأحرزوا نصراً، حيث استولوا على (٣٠) جملاً، وقتلوا أحد عشر منها، كذلك قتلوا ثمانية

---

(١) لمزيد من الإيضاح عن النجوم ومواسم الأمطار، انظر: أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة. كتاب الأنواء في مواسم العرب (الهند: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد، الدكن، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م)، ص ٩ وما بعدها. (ابن جريس).

(١) جدل فيلبي مع إبراهيم الجنيفي حول جواز المحافظة على الصلاة في أوقاتها المحددة، وما يجب على المسلم تجاه هذه الشعيرة وغيرها إنما يدل على جهله بتعاليم الدين الإسلامي. (ابن جريس).

رجال، منهم ثلاثة شيوخ معروفون، عويض بن هادي، وضميد بن جويعه من قبيلة سفران ومحمد بن المتلقم، المشهور بلقب أبو حقطة، وقد استولوا أيضاً على (٣١) بندقية. وكان ابن سعود مسروراً من هذا البلاغ الثاني عن استطاعة قبائله أن تحتفظ بقدرتها ضد أي خطر مثل هذه الهجمات المفاجئة[١]. وهو يعزو حالة الموقف غير المرضية إلى الغياب المؤقت للسير بيرسي كوكس عن العراق، وكان يأمل في بعض التحسن إثر عودته، المتوقعة في هذا الوقت تقريباً، إذ كنا ننتظر معلومات عنها في هذه اللحظة. وقال لي: «إذا رفضتم أن تدافعوا عني بصد أعدائي فإنني حرٌ في الدفاع عن نفسي دون أن أتهم بعدم الولاء لكم[٢]. وحتى إذا خذلتموني فتأكدوا من أنني لن أحلم أبداً بالدخول في عداوة مع البريطانيين، فهذا قد يساعد الأتراك، الذين قد يعني نجاحهم خرابي. بيد أنني سأقول لكم ما سوف أفعله، سوف آخذ مستحقاتي من العرب؟. بمعنى آخر سوف يعتبر نفسه حراً في الهجوم على الشريف والعجمان. وقال لي أيضاً: إن ابن ضويبي وهو أحد كبار شيوخ قبيلة حرب، قد وصل لتوه الرياض ليدافع عن ابنه، الذي عثر عليه تركي في القصيم يشتري إبلاً لعمليات الشريف ضد الخرمة ووضعه تحت الاعتقال كرهينة إلى أن يتم تقديم (١٦,٠٠٠) جنيه استرليني المدفوعة لحرب لهذا الغرض. وعلى الرغم من ذلك، أقترح أن يلغي أمر تركي وأن يُوجّه بالإفراج عن ابن الشيخ، ولكنه أيضاً سوف يمنع شراء الإبل للشريف من المناطق والأقاليم التابعة له.

كانت الأيام الأولى من أغسطس تعج بالنشاط بما يبشر بالخير، فهناك إشارات على أن ابن سعود قد هيأ بيته في الحقيقة بغرض البدء بداية مبكرة؛ ففي اليوم

---

(١) لمزيد من الاطلاع على الصراع بين العجمان وابن سعود، انظر: الريحاني، نجد وملحقاتها، ص ٢٢٥، عبدالعزيز الرشيد، ص ٢١٤، الأحسائي، ص ٢١٤، أحمد عبدالغفور عطار. صقر الجزيرة (القاهرة، د.ن، ١٩٤٦م) ص ٢٢٢، السعدون، ١٧٠، ١٩٧. (ابن سعود).

(٢) لا شك أن الملك عبدالعزيز كان بينه وبين بريطانيا علاقة صداقة من أجل التصدي لبعض أعدائه في الجزيرة العربية، انظر: لوريمر ص ٥٢٩. (ابن جريس).

الأول من الشهر كانت ترتيباته الإدارية للمناطق الجنوبية قد اكتملت، وكان ابن عفيصان وهو حتى الآن حاكمٌ للأفلاج[١]، قد بدأ يتولى إمارة وادي الدواسر. وكان يرافقه عبد العزيز بن دغيثر الذي من المقرر أن يصير خليفته في المنطقة السابقة، بينما ابن معمر، الذي أظهر ضعفاً في السيطرة على العناصر المتمردة في الوادي خلال زيارتي هناك قد أحيل في الوقت الحالي إلى التقاعد ليعيش حياته الخاصة، وكان بيته في سدوس.

واتضحت علامة أخرى للتحرك القادم عندما طلب الجنيفي قرضاً على أساس أن ابن سعود لم يقدم في هذه المرة المصروفات المدفوعة مقدماً والتي كانت تدفع عادة لأولئك الذين سوف يسيرون معه في رحلته. وسواء كان ذلك صحيحاً أم لا فقد كان يعلم علماً أكيداً وتاماً أن إقراضي المال له لا يمكن أن يكون محل تساؤل، ونفّست عن غيظي الطبيعي جداً من توسله الموارب لهدية. لقد كان شخصية غريبة[٢]، محبوباً من وجوه كثيرة، ولكن على الرغم من ذلك كانت له أخلاق عصبية تحاول أن تنتزع الشيء انتزاعاً مثل رجل لا تستطيع أن ترى ما يدور في باطنه على وجهه. وفي أوقات كثيرة فشل في أداء خدمات بسيطة تماماً لي؛ لأنه يدرك أن موافقة ابن سعود، التي سوف تأتي في الوقت الملائم بلا نقاش، كانت ضرورية، ولكنه يخشى أن يفاتحه في طلب تلك الموافقة.

وعلى سبيل المثال سألته أن يأتيني بقائمة تضم الثلاثين قرية أو نحو ذلك التي تشكّل منطقة القطيف، وقد وعدني بكل سرور أنه سيفعل ذلك، ولكنه لم يبذل أبداً

(١) سعد بن عفيصان من أمراء الملك عبدالعزيز على الأفلاج، وثم عسير، مات في أبها، لمزيد من التفصيلات عن هذا الأمير، انظر: غيثان بن جريس. أبها حاضرة عسير (دراسة وثائقية (الرياض: مطابع الفرزدق، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م) ص ٦٠، للمؤلف نفسه، عسير في عصر الملك عبدالعزيز (جدة: دار البلاد للطباعة والنشر، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) ص ٣٧. (ابن جريس).

(٢) إبراهيم الحنيفي كان موظفاً صغيراً في بلاط ابن سعود، ثم أصبح رئيساً للديوان الملكي، ثم صار فيما بعد (١٣٤٤ - ١٣٤٥هـ/١٩٢٥ - ١٩٢٦م) سفيراً للملك عبدالعزيز في مصر. (فيلبي + ابن جريس).

أي محاولة للوفاء بوعده. ثم جاء بعده إبراهيم، الذي كانت زوجته تتوقع منه أن يمدها بمؤن كافية لها ولأسرتها في أثناء غيابه. وقد جاء بتبجحه المعهود ولكن بخجل من ناحية أخرى، مستفسراً؛ لأنه الوحيد الذي تركته دون هدية فيما يخص رحلة وادي الدواسر، فأتى يسألني إن كان غضبي منه قد زال الآن. عندما رأيته لأول وهلة كنت أخشى أنه ربما قد جاء ليعلن أنه سوف يصحبني في المسير مرة أخرى، وكان ارتياحي عظيماً، بيد أنني رفضت أن أنظر في طلبه، وأضفت أنني الآن أعلم التفاصيل الكاملة لحادثة جابر. فاستشهد بالله أنه لم يكن يدري أنني كنت مهتماً اهتماماً خاصاً بجابر في ذلك الوقت، وكل ما استطعت أن أرد به عليه هو: «بما أنك تعلم أن الله فوقك فكيف تستطيع أن تكذب هكذا؟». فقال مجاوباً: «الله يقطع رقبتي إذا كنت كذبت». ودهشت من أنه كيف ينبغي له أن يقسم كاذباً هكذا على نفسه، فليس من النادر في الحقيقة أن يفعل العرب ذلك، لواحدٍ ليس من ملتهم. إن الحلف كذباً بين المسلمين يكون إثماً أشد خطورة، ولكن يوجد كثيرون منهم لا يتورعون حتى عن ذلك(١). وواصل كلامه، محافظاً على موقفه، قائلاً: «كل ما فعلته كان طبقاً لعادة العرب». فرددت عليه: «نعم طبقاً لعادة العرب في الكذب والخداع. لقد تعلمت كثيراً الآن». وعندما رأى أن قضيته ميؤوس منها نهض ثم خرج ماشياً في اختيال(٢).

في صباح هذا اليوم نفسه، الثالث من أغسطس، نظرت من السطح الذي كنت فيه على الفناء، الذي كان مليئاً بالإبل وهي تنوخ وتضطرب وتئن بسبب تحميلها استعداداً للسفر، بينما في وسطها توجد الراية الملفوفة مثبتة والتي سوف تكون في

(١) لا نستطع أن نكذب فيلبي فيما قال. لكنّ هناك أفراداً كثيرين يتصفون بالصدق والأمانة، مقابل أناس آخرين يمارسون الكذب والخيانة. وهذه صفات توجد في جميع الفئات والمجتمعات. (ابن جريس).

(٢) لم يكن فيلبي ذلك الرجل العادي في فهمه للأمور، وإنما كان على دراية جيدة بأعراف وعادات الأمم، وبخاصة سكان الشرق الأوسط، وقد كسب منهم الشيء الكثير أثناء إقامته بينهم لفترات طويلة. (ابن جريس).

المقـدمـة[١]. بعـد ذلك بنصف سـاعـة كـان هنـاك مـوكبٌ يتكون مـن نحـو (٤٠٠) دابة تحمل الخيام، والمتاع ومواد وأدوات المطبخ قد انطلقت في تحركها، حيث من المتوقع وصولها الجبيله غداً، وهناك سوف ينتظروننا. كان النهار قد أشرق وتقدم دافئاً كالعادة، ولكن سحابة كثيفة تعلقت بين السماء والأرض، وحامت حولنا غيوم سوداء. وساد ضوء أصفر غريب على الأفق، ولقد كان واضحاً وملحوظاً بشدة حتى إن الإمام عبد الرحمن أرسل من يبحث عني ليسألني إن كانت الشمس قد كسفت أم لا. ولم يكن اليوم إلا الخامس والعشرين من شهر شوال، ولكني تظاهرت بالرجوع إلى التقويم البحري قبل أن أعلن أنه ليس هناك سبب يدعو إلى القلق؛ ومن الواضح أن قراري قد قُبل بصورة نهائية.

وفي الختام، بعد مدة طويلة، بزغ فجرُ آخر أيامي في العاصمة الوهابية[٢]، يوم الرابع من أغسطس، الذكرى السنوية الرابعة لاندلاع الحرب العظمى التي لا تزال تزلزل العالم وتهزه بعنف. هنا في وسط الجزيرة العربية كنا بعيدين جداً عن هذا الاضطراب العظيم، ولم أشعر إلا بالارتياح من أن إقامتي المؤقتة شديدة الطول في الرياض قد جاءت نهايتها. وبصفتي ضيفاً في القصر كنت أعامل معاملة طيبة وقُدّمت لي كل وسائل الراحة على نحو رائع، وفي الوقت نفسه كانت الفرص التي أتيحت لي لتطوير وتقوية صداقة مع ابن سعود - والتي قُدّر لها أن تدوم بلا شائبة خلال جميع التقلبات والتغيرات في السنين القادمة - لا تُقدّر بثمن[٣]. بيد أنني طول مدة إقامتي كنت أشعر بشعور التقييد والكبت كما لو كنت سجيناً، والذي لا يمكن للمرء أن يبدده إلا بالترحال بحرية في الصحراء.

---

(١) هذه عادة من عادات العرب منذ العصور الجاهلية وأقرها الإسلام، فالجيش لا بد أن يسير تحت راية واحدة يحملها من يتصف بالقوة والشجاعة. (ابن جريس).

(٢) العاصمة الوهابية: المقصود بها مدينة الرياض. (ابن جريس).

(٣) فعلاً استمرت العلاقة بين فيلبي وابن سعود حتى اضطر الأول إلى البقاء في جزيرة العرب حوالي (٤٠) سنة دوّن خلالها دراسات وكتباً علمية قيمة. للمزيد انظر: روبن بدول. الرحالة الغربيون، ص ٩٠ - ١٠٣. (ابن جريس).

لقد دامت إقامتي (٤٢) يوماً حتى نهايتها في العاصمة، وطوال هذه المدة لم أخرج إلا أربع أو خمس مرات لتناول القهوة مع مقيمين آخرين، الذين كانوا يخافون من الرأي العام خوفاً شديداً يمنعهم من دعوتي لبيوتهم، على الرغم من أنهم كانوا دائماً ودودين بدرجة كافية عندما يقابلونني علانية أو تتاح لهم فرصة زيارتي في مسكني. ولقد عرفت المدينة وواحتها وسبرت أغوارهما بقدر ما هو متوقع مني، وشعرت بأنني قد فهمت المجتمع الغريب الذي يسكنها؛ لأن حياتهم كانت شديدة التوحد والتماثل لدرجة أنه كان هناك مجال ضئيل من الاختلاف والتنوع بين أسرة وأخرى[1]؛ ولقد غمرتني السعادة من أن إقامتي المؤقتة قد انتهت.

على الرغم من ذلك، وفي هذا العصر من آخر يوم خرجت للسير طويلاً مع العبد عطا الله لكي أودّع المشاهد المألوفة. كان السوق يغص بالناس يشترون ويبيعون. هنا كان واحدٌ يبيع مبخرة بالمزاد، ويصيح بآخر سعر معروض قدره سبعة عشر قرشاً، وهناك وقف بدويٌ حارساً مجموعة من الأغنام البيضاء بينما راح الزبائن المحتملون يفحصونها ويبتعدون ثم يرجعون تارة أخرى. وخلفهم جلست امرأتان على أحد الجوانب تبيعان محتويات سلة بالية كما بدت لي، وهي قطعٌ وشرائط من قماش الخيام وما شابه ذلك. والعاطل يتسكع ذهاباً واياباً عندما كنا نمر بجوار المسجد الكبير متجهين إلى البوابة الشمالية الغربية، حيث كانت النساء يسحبن الماء من الآبار ذات الفوهات الضيقة المبنية بالحجر[2]، وكان كثيرٌ منها قد غاضت في الطبقة الصخرية التي تقوم عليها المدينة الآن. وبجوار كل بئر درجٌ من

(١) كانت هذه طبيعة الأسر والأفراد أيام فيلبي داخل الجزيرة العربية، كان الناس أكثر تقارباً وتعاوناً من يومنا هذا، مع أن الحروب والنزاعات القبلية كانت على أشدها بعكس وقتنا الحاضر الذي خفت فيه بشكل كبير بسبب قوة النظام والمؤسسات الحكومية المسيطرة والقائمة على حفظ الأمن، (ابن جريس).

(٢) الآبار في الجزيرة العربية تحفر في باطن الأرض، وقد تنزل لعشرات الأمتار، وأحياناً يعترض الحفارين بعض الصخور الصلبة القوية، لكنهم يتحايلون عليها حتى يصلوا إلى مطلبهم من الماء الذي يبحثون عنه في جوف الأرض. للمزيد عن حفر الآبار وكيفية تحديد أماكن المياه، انظر: جواد علي، المفصل، جـ٧، ص ١٨٢ وما بعدها. (ابن جريس).

الألواح الصخرية وحوض بدائي من الأحجار لتشرب منه الحيوانات. وبعد البوابة كان علينا أن نكافح لنشق طريقنا عبر الأعداد الهائلة من الماعز العائدة لمنازلها، والتي لم يكن بينها إلا خروف واحد والراعي، الذي لابد منه، على حماره. ولأن ابن سعود قد قصر أهل بيته على شرب لبن النوق وما يماثلها فلم يكن يملك أي أغنام أو ماعز حلوب، ولكن القطعان التي عنده كانت كلها للمطبخ، الذي تحضر إليه حصته اليومية منها. وبعد الماعز جاء رجل كبير في السن يمشي مجهداً عائداً إلى بيته، محنياً تحت حمل ثقيل من الحطب جمعه في الصحراء النائية. وقد تجولنا بعد ذلك بين الحدائق، حيث كانت الفراشات تطير بسرعة فوق نبات الفصفصة[١] الجميل، بجوار خزام، وهناك جلست أتأمل المنظر البديع بينما راح رفيقي يتوضأ ويصلي المغرب نحو الشمس التي غربت. وعندما استأنفنا طريق عودتنا للمنزل جاء واحدٌ يجري خلفنا وهو يصيح:

«يا فيلبي». لقد كان ناصر البشري العجوز، أحد رفاقي من حرب وسيد أصحابي في الرحلة إلى الحجاز. وبعد التحايا الوفيرة والودية دخل في الموضوع مباشرة وقال: «انظر يا هذا، لقد تزوجت لتوي زوجة جديدة وغداً سوف أسير مع الشيوخ وليس عندي المال الكافي لتقديم المؤونة لها». «أنت في سنك» لا بد أنه قد بلغ الستين على الأقل، «تتزوج زوجة!!». فردّ قائلاً: «نعم وهي عذراء فوق ذلك». ثم ضحك هذا الآثم العجوز ضحكة خافتة تنم عن الرضا. وقد واصلت سيري واقترحت عليه أنه، إذا كان يريد أن يعود بهدية لزوجته الشابة من الغزو فربما كان عليه أن يمنحني مزيداً من السرور بصحبته خلال الترحال أكثر مما فعل منذ افترقنا آخر مرة[٢]. وهكذا عدنا للمدينة ودخلناها من طريق حديقة الحوطة ومشينا نحو البيت

---

(١) الفصفصة: البرسيم. (ابن جريس).

(٢) يتضح من هذه الرواية وغيرها أن فيلبي كان يملك المال الوفير لتسهيل مهامه التي جاء من أجلها في خدمة حكومته بريطانيا، كما أنه كان يسخر بعض سكان الجزيرة لخدمته والوصول إلى مبتغاه من أجل الحصول على ما يعمل من أجله. (ابن جريس).

على مـهل وبشكل غيـر مباشـر ونحن نجوب الشـوارع الجـانبـية، وفي إحـداهـا كانت امـرأة شحاذة تصيح بأعلى صوتها طالبة للصدقة أمام بيت سعود آل العرافة.

إن بوابات المدينة تقفل كل يوم بعد صلاة المغرب، وفي أيام الجمع خلال صلاة الجمعة، بيد أن بوابات القصر تغلق خمس مرات يومياً عند مواعيد الصلوات، وتظل مغلقة من المساء حتى صلاة الفجر، وخلال هذه الساعات لا يجوز فتحها لأي سبب مهما كان، ولا حتى لابن سعود نفسه دون أن يطلب إذناً بالدخول. هذه كانت أوامره، التي لا يجرؤ أحد على عصيانها، ومن الواضح أن هذا كان الاحتياط الوحيد الذي رآه ضرورياً للحذر من هجوم عدو محتمل.

في الداخل كانت جدران الفناء الرئيس مطلية بالجبس الجيري الأبيض إلى ارتفاع يبلغ حوالي عشرة أقدام، والحافة العليا من الجدار متوجة بإفريز من الأبراج ذات الدرجات الرقيقة، التي يسمونها شُرف، ويعتقد أنها ذات قيمة أثرية عظيمة. وكان الطين البني الأجرد فوق الإفريز صبوباً بصورة بدائية في أشكال متنوعة، مثل أزهار الزنبق وقناطر ببروز منخفض، وأوراق شجر وما شابهها، بينما كانت النصوص الدينية في كل مكان مدهونة بغير إتقان على الجدران. والأبواب أيضاً مزينة بشكل كبير بنماذج متداخلة من البقع الحمراء والصفراء والزرقاء تتنوع هنا وهناك ببقع محروقة[١].

وهكذا أرخى الليل سدوله علينا، والجميع مستعدون للرحلة غداً. وخلال فترة الصباح، كان رشيد الذي تحاشى رفقتي لمدة طويلة بشكل مبالغ فيه، قد فاجأني عندما جاء داخلاً غرفتي. وقد وبخته بقسوة على إهماله الطويل، فدافع عن نفسه

(١) يظهر في هذه الصفحة والصفحات التي قبلها أن فيلبي أورد معلومات اجتماعية واقتصادية عن حياة الناس في الرياض أيام بداية تأسيس الدولة. ونجد صعوبة العثور على بعض هذه المعلومات في أي مصدر أو مرجع آخر، وهذا مما يدل على دقة ملاحظة هذا الرحالة واهتمامه بأمور خارجة عن مهمته السياسية الدبلوماسية الرئيسة، للمزيد عن مدينة الرياض، انظر: الجاسر، مدينة الرياض، ص ٦٥ وما بعدها، فهد الكليب، الرياض، ص ٣١ وما بعدها، وليام قيس، الرياض، ص ٣٠٧ وما بعدها. (ابن جريس).

قـائلاً: «والله، لم ألمس الدخان منذ أن زرتك آخر مـرة». وهذا في نظره كان عـقـوبة كافية، وزف إليّ الأخبار الطيبة أنه هو ومنوّر سوف يرافقاني في الرحلة. وسرعان ما انضم إلينا الجنيفي على الفطور، وشعرت بأن المناسبة ملائمة لعرض أسباب قلقي وانزعاجي في الرحلات الماضيـة، والتي كنت آمل تجنب تكرارها خلال الرحلة التي أمامنا الآن. وكان العبيد، الذين يجلسون حولنا عندما كنا نأكل، لم يستطيعوا أن يكتموا ضحكاتهم من بعض الحوادث التي ذكّرتهم بها. وكان رشيد الذي تحلل من قدر كبير من الهموم بسبب قرب مغادرته الرياض ذات الجو الذي يخنق الروح، في حالة صحية أو معنوية ممتازة، وهو يعدُ بكل شيء دون أدنى نية على أداء أي شيء قد يسبب له إزعاجاً للحظة. وقال لي: إن ابن سعود يستمتع كثيراً بسرده قصص بعض أحداث رحلة الوادي، وإنه كان يستدعيه مرة بعد مرة، وفي إحدى المرات طلبه ليؤانس الأميرة نورة وأخواته الأخريات. وجلس يحكي قصة حوار معين اشتركنا فيه أنا وهو وطامي وناصر بن طلق. وفي هذا الحوار كنا نناقش الدين، وكان طامي قد حسم الجدال عندما أكد لي أن جهنم ستكون من نصيبي في العالم الآخر. وقد أعجب ابن سعود لعدم غضبي من مزحة فظيعة كهذه، لأنني قد رددت عليه قائلاً: «قد يكون ذلك كما تقول، ولكن لا أهتم بذلك، لأنني أعلم شيئاً واحداً وهو أن أول شخص سوف أقابله على باب جهنم سيكون أنت يا طامي، وسوف أكتشف أن الشيطان قد عيّنك لتخدمني بصورة أبدية أثناء ركوبي ذلولك وتسير خلفي في رحلات لا نهاية لها عبر النار المستعرة». فلم يكن هناك شيء يكرهه أكثر من ركوبي، عندما أكون راحلاً، خلال ساعات القيظ من النهار. وكما توقعت من قبل، فقد شرح إبراهيم استيائي لسيده على أساس أنه قد صدني عند زيارتي للحوطة والحريق في أثناء عودتنا.

كانت مقابلتي الأخيرة مع ابن سعود قصيرة، لأنه كان مشغولاً بأشياء أخرى. وقد وجدته مع الطفل محيميد، الذي سيرافق والده وبالتالي سيخوض أول تجربة له في الغزو، ولكن هذه الفكرة قد تم التخلي عنها لأن أخاه الصغير، خويلد، كان يبكي من

الحـزن عندمـا يفكر بالافتـراق. وسـألتـه: «هل تُعلّم أطفـالك الركوب؟» فـرد قـائلاً: «لا، نحن فقط نضعهم فوق ظهـر الحصـان في البـداية مع عبدٍ يركب على وسـادة توضع وراء السـرج، وبعد ذلك بمفردهم، وهكذا من سن مبكرة يصبـح الطفل مـعتـاداً على الخيـول ويتطور إلى فـارس طبيعي». إن ركوب الخيل والرماية مفروضان كواجب على جمـيع المسلمين بموجب القـرآن، الذي يقـول : «تعلمـوا ركـوب الخيل والرمـايـة، ولكني أفضل الرماية»[١]. والسبـاحة مفروضة بموجب التقاليـد، ومعظم العـرب يقدرون على السبـاحة. وقد تعلّم ابن سعود نفسه السبـاحة في البـحر بالكويت، ولكن العرب الذين لم يروا البحر أبداً يتعلمونها في القليب (القلبان)[٢] بقراهم بل أحياناً يقفزون فيها.

وقـد سرى اقتـراح في البـحرين يقول بأن ابن سـعود كـان مهتـماً بمـوضوع إعـادة فتح الأضرحة والعتبات المقدسة في العراق للحجاج الشيعة بسبب رعاياه الشيعة في الأحساء. وكانت إجابته على سؤالي المتردد جداً عن هذا الموضوع حاسمة حيث قال: «لن أثيـر أي اعتـراض إذا قضيـتم عليـهم كلهم عن بكرة أبيـهم، وأنا قـد أقضي عليـهم بنفسي إذا جاءت الفرصة». وعندما سنحت الفرصة بعد ذلك بسنوات في مكان آخر أظهـر أن هذه الكلمـات لم تقل عـبـثـاً، على الرغـم من أن الظروف أجـبـرتـه على أن يُلطّف من قناعاته لتتلاءم مع الرياح الباردة للمنفعة السياسية.

إن مهـاجم المعتقدات التقليدية التي كان يتحدث عنهـا بصـراحة في (١٩١٨م) سيـخضـع بعد ذلك لقيـود تفرضهـا عليـه قوته المتنامية وإحساسـه بالمسؤولية تجاه العـالم الإسـلامي الكبيـر الذي ربما يوجد فيـه من ينظـر إلى المذهب الوهابي[٣] كأنه

---

(١) لم يرد نص في القرآن بهذا القول، أما كتب السنن فقد وجد بها أحاديث كثيرة تحث المسلم على تعلم فنون الحرب لمجابهة أعداء الله. (ابن جريس).

(٢) القليب: هي البئر وجمعها (قلبان). وقد يتعلم الإنسان السباحة في البئر أو العين أو الغدير، وبخاصة في المناطق التي لا توجد بها بحار أو بحيرات. (ابن جريس).

(٣) لا يوجد هناك مذهب وهابي كما يذكر فيلبي، وإنما الدعوة التي جاء بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب هي مذهب أهل السنة والجماعة والمنهج الذي سار عليه السلف الصالح. (ابن جريس).

النواة أو أكثر من ذلك كخميرة قُدِّر لها التأثير في كتلة العجين كلها. بيد أنه قبل أن يحدث مثل هذا التخمير لابد أن يكون هناك حلٌّ لكثير من الخيوط المتشابكة في الأخلاق والتصورات الإسلامية. ولابد لأشجع قلب أن يجبن أمام الهوة العظيمة التي تفصل حزب علي عن باقي الإسلام[١]. في أغسطس (١٩١٨م)[٢] بدا أن هناك فرصة كافية نسبياً لأي تطور قد يضع الوهابيين في مقدمة الإسلام القويم وابن سعود الذي ليس لرعاياه الشيعة في الأحساء أي شيء يشتكون منه ما داموا يتحاشون التباهي ولفت الأنظار إليهم في أدائهم لطقوسهم الغريبة، كان حراً في التحدث بصراحة وازدراء كبير عن البدعة العظمى التي قسمت ذات يوم أخوة الإسلام إلى نصفين وربما تلعب مرة أخرى دوراً رائداً في أزمة مستقبلية من الدرجة الأولى[٣].

---

(١) المقصود بحزب علي هنا، كما ذكر فيلبي: الشيعة، مع أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه بريء مما تدعى فرق الشيعة اليوم، أو على مر العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة. (ابن جريس).

(٢) (١٩١٨م) يقابل هذا التاريخ بالهجري عام (١٣٣٧هـ). (ابن جريس).

(٣) يقصد بنصفي الإسلام، أي أهل السنة والجماعة، وفرق الشيعة المختلفة. (ابن جريس).

الفصل الثاني

التوجه صوب الشمال

١- أعالي وادي حنيفة

٢- المحمل الغربي

٣- السر

٤- المذنب

الفصل الثاني

الاتجاه صوب الشمال

١ـ أعالي وادي حنيفة[(١)]

لم ينقشع الظلام عندما حاول منور أن يوقظني بلطف من سُباتي وهو يناديني بنداء غريب: «يا مصطفى ... يا مصطفى»، لأنه في الجزيرة العربية، مثلما في بلاد الشرق عموماً، يعتبر من غير اللائق أن توقظ النائم بطريقة فظة، وكانت محاولات منور قد دعمتها النداءات العالية للمؤذن المجاور لنا في الساعات الباكرة من صباح الخامس من أغسطس، أي اليوم المحدد لبدء الحملة العسكرية على حائل. كانت الساعة قد بلغت بالكاد الرابعة والنصف صباحاً، ولكن ما إن بدأت لتوي في احتساء فنجان الشاي الصباحي إلا وجاءتني الأخبار أن ابن سعود قد انطلق، ولم أضيّع الوقت سدى بل أخذت في ارتداء ملابسي والانتهاء من تعبئة متاعي على ضوء الفانوس. وما هي إلا ساعة واحدة وكنت أقول وداعاً نهائياً للخادم المخلص محمد ابن مسلم، قبل أن أركب في ساحة القصر.

وكان قد وضع تحت تصرفي ذلول عمانية[(٢)] رائعة ذات خطى سريعة على

---

(١) يبلغ طول وادي حنيفة نحو (٢٠٠كم)، يتجه بشكل عام من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي فيما بين حافة جبال طريق الوسطى في الغرب، وهضبة العرمة، وجبال الهيت في الشرق. للمزيد، انظر: عبالرحمن صادق الشريف. جغرافية، المملكة العربية السعودية (الرياض: دار المريخ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) جـ١، ص ٨٨ - ٨٩. (ابن جريس).

(٢) هناك لجام للإبل في الجزيرة العربية يسمى (خطمه) ويتكون من حبل واحد من الصوف يربط على حلقة بواسطة سلسلة قصيرة في رباط الرأس الذي يتكون من حزام من الجلد حول أنف الجمل ويثبت في مكانه بشريط من الجلد يمر فوق وخلف الأذنين. وحول الرقبة يُربط عادة شريط من الحبل يسمى عقال أو رسن وهو الذي يُستخدم لربط واحدة من أرجل الجمل عند التوقف للمبيت. (فيلبي). للمزيد من التفصيلات عن هذا اللجام، انظر جواد علي، المفصل.

الرغم من أنها كانت صعبة وحروناً[١] قليلاً وخاصة بالقرب من المباني، وكان رشيد أخو حسنة قد حل الآن محل إبراهيم كدليل، وهو صديق وحكيم. ومجموعتي في هذه المرة قد اكتملت بإبراهيم الجنيفي، ومنور وشاب يدعى حميد وهو بن عم رشيد، وقائدين للجملين اللذين يحملان الأمتعة. وقبل أن ينبلج الصباح كان عندي سبب للشكوى من عدم وجود دليل يملك معرفة بالمناطق المحلية، وقد تم تصحيح هذا النقص فوراً بانتداب مترك بن عمارة الصديق القديم، إلى مجموعتي[٢].

وهكذا غادرت الرياض، لآخر مرة كما ثبت لاحقاً، بعد إقامة دامت (٤٢) يوماً منذ عودتي من الجنوب. وكم كنت سعيداً حقاً أن أنفض غبار العاصمة الوهابية عن أقدامي، وقد سلك ابن سعود الطريق المباشر إلى الدرعية، ولكني كنت ميالاً إلى استكشاف وادي حنيفة بطوله كله[٣]. وعند الخروج من المدينة ببوابة الظهيرة سارت مجموعتي الصغيرة ملتزمة الحافة الخارجية لبساتين النخيل في الاتجاه الجنوبي إلى أن وصلنا إلى الباطن بعد ساعة من المسير.

وعندما سرنا في قاع الوادي الملتوي لميل أو أكثر عكس اتجاه المجرى باتجاه الشمال الغربي، كانت بساتين النخيل الوفيرة في هذه الواحة ـ الضاحية ـ على كلا الجانبين، وبين الفينة والأخرى كنا نمر بجوار الخيام السوداء للبدو، التي كانت مرتبة واحدة بعد الأخرى أو في مجموعات صغيرة وسط القاع الرملي الجارف. ومعظم هؤلاء البدو من قبيلتي السهول وقحطان[٤]، وكانت الماعز كما لاحظت

---

(١) حروناً: أي عنيدة أحياناً عندما تدفع للنهوض أو المشي. (ابن جريس).

(٢) كان فيلبي في جميع رحلاته يحرص على أن تكون معه فرقة متكاملة أثناء الرحلة، من حيث المعاونين والمرشدين وغيرهم. وهذا من الأسباب التي جعلته ينجح في كثير من رحلاته. كما أن مساعدة الملك عبدالعزيز في جميع رحلاته جعلته يخلف لنا كما هائلاً من المعلومات القيمة التي يصعب أن نجدها في أي مصدر آخر. (ابن جريس).

(٣) لمزيد من الإيضاح عن وادي حنيفة جغرافياً وتاريخياً، انظر: عبدالرحمن الشريف، جغرافية المملكة، جـ١، ص ٨٨ – ٨٩، حمد الجاسر، مدينة الرياض، ص ٣٠ وما بعدها (ابن جريس).

(٤) للاطلاع على معلومات أكثر عن قبيلتي الهول وقحطان، انظر: الحقيل، كنز، ص ١١٩، ٢٣٣. (ابن جريس).

مربوطة بحبال طويلة تسمح لها بالرعي وهي مربوطة من الرقبة على كتل خشبية أو صخور كبيرة، بينما الصغار منها تلعب في مرح مع أطفال البدو العراة، وتندفع نحوهم في غضب جميل، وتنطحهم وتقفز هنا وهناك في سعادة وسرور. وعندما مررنا باحدى مجموعات البدو، كانت امرأة قد خرجت من الحدائق ومعها حزمة من نبات الفصفصة[١]، وعندما رآها الأطفال تركوا ألعابهم واندفعوا نحوها حيث جلست على الرمل تطعمهم.

وانتهى نخيل الباطن عند النقطة التي تلتقي فيها الدلتا الغنية لشعيب ميضر مع الوادي، الذي تتناثر فيه بغزارة رقع من حدائق القرع العسلي والدُخُن والقطن، والتي كان يقوم على حمايتها في عصور الاضطراب الماضية برج حراسة. وما زالت أنقاض البرج واضحة للعيان على قمة الضفة اليمنى لوادي حنيفة[٢]. من هنا يرتفع الوادي على نحوٍ يمكن إدراكه بين سلاسل التلال التي لا يزيد ارتفاعها عن ثلاثين قدماً، وعرضها نحو ثلاثمائة ياردة، ويقطع التل الثالث منها مجرى جارف تنتشر فيه بغزارة هنا وهناك أيكات من أشجار الصفصاف القصيرة، وتلتقي به شعابٌ غير مهمة على كلا الجانبين.

بعد نحو ثلاثة أميال من دخولنا في الوادي صادفنا مجموعة كبيرة من البدو منهمكة في عمل قرية جديدة على موقع مهجور منذ مدة طويلة، وكان قد تحصلوا بالفعل على الماء بالحفر في بئر على عمق غير بعيد، كما تمكنوا من بناء القليل من

(١) الفصفصة: أي البرسيم، وهو من الأشجار المحببة إلى الحيوانات، كذلك بعض السكان يقتاتون به. (ابن جريس).
(٢) أبراج الحراسة الموجودة على المزارع نشاهدها منتشرة في وسط نجد، وفي الأجزاء الجنوبية من الجزيرة العربية. كما نلاحظ في البلاد الممتدة من الطائف ومكة إلى نجران وجازان بعض الحصون القديمة التي يصل ارتفاعها إلى عشرين متراً وربما أكثر، عملت خصيصاً لحراسة المزارع من اللصوص، وأحياناً للاستخدام أثناء الحروب والصراعات القديمة. انظر: غيثان بن جريس. عسير: دراسة تاريخية ١١٠٠ - ١٤٠٠هـ (١٤١٥هـ/١٩٩٤م) ص ٣٧ - ٥٨، كما انظر عدد مجلة المنهل الخاص عدد (٥٧١) جم (٦١) (١٤٢١هـ/٢٠٠١م). عدد خاص عن العمارة، وبه مواضيع جيدة (ابن جريس).

المنازل[1]. كان هؤلاء من الإخوان، ولكنهم أظهروا عدم اهتمامهم بشخصي عندما أصروا على أن نؤخر سيرنا وننزل لشرب القهوة معهم، وقد اعتذرنا منهم ومضينا في سيرنا لنجد بعض الآثار القديمة من المباني الطينية وبئراً مطوية بالحجر مهجورة في خليج من الوادي، وغير بعيد عن ذلك هناك قرية ثانية من قرى الماضي المجيد. وبعد ذلك وجدنا هناك أيضاً بعض الآثار الأخرى الباقية من بيوت وآبار قريبة من سابقتها عند فم شعيب لبن الذي يختلط هنا بالوادي بعد مسافة طويلة عبر جبل طويق.

بعد ذلك مباشرة أتينا على قرية قرشية التي لا تزال مأهولة، وهي تقع على بُعد أربعة أميال تقريباً من الباطن، وتتكون من حوالي مائة من جذوع النخل في مجموعها مقسمة إلى مجموعتين قديمتين، والتي حولها قامت خيام قليلة بالية وقصر يظهر فيه بعض التميّز. حيث يبلغ إجمالي سكانها نحو خمسين شخصاً. وفي هذه البقعة كانت الضفتان على كلا الجانبين ترتفعان لحوالي (٧٠) قدماً، وكان الوادي تسده رواسب مرتفعة من الطمي والتي يشقها حوض السيل منحدراً بصورة حادة. وبعد ميلين إضافيين وصلنا إلى نقطة التقاء شعيب عُبير العريض مع الوادي، وبعد بعض التردد في أيهما كان وادي حنيفة فقد اكتشفنا أنه هو المتجه نحو الشمال تماماً إلى بساتين نخيل عرقه التي يمكن رؤيتها من بُعد. وقبل الوصول بنحو ميل أو يزيد إلى هذه الواحة الفعلية كنا قد مررنا عبر حقول الحنطة فيها التي تُقسّم إلى مساحات صغيرة مستطيلة في طمي الوادي. وتوجد هنا وهناك آبار قليلة لدى هذه الأراضي.

(١) وكانت من أهم مشاريع الملك عبدالعزيز هو توطين البدو في قرى وهجر مختلفة في أنحاء البلاد، للمزيد انظر: أحمد عبدالرحمن الشامخ، وعبدالإله أبو عياش. توطين البدو في المملكة العربية السعودية، (الهجر) (الكويت: جامعة الكويت) كلية الآداب والتربية، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ص ١٢ وبما بعدها، محمد محمود السرياني. ملامح التحضر في المملكة العربية السعودية (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، ١٤١٢هـ)، ص ١٦ وما بعدها. (ابن جريس).

تمتد واحة عرقة من جانب الوادي إلى جانبه الآخر بعرض ربع ميل ولنحو نصف ميل عكس اتجاه التيار، ويشق حوض السيل طريقه في وسطها. وكانت الجدران الداعمة من البناء الذي يعلوه الطين تحجز مياه السيل على كلا الجانبين، بينما القرية نفسها تقع على الضفة اليمنى منها. كانت القرية قد شيّدت منذ زمن وهي بائسة المظهر، لكنها مسوّرة وبها قليل من أبراج الحراسة. وفي الوقت نفسه هناك قلة من البيوت المعزولة تقع داخل بساتين النخيل الكثيفة في الضفة اليسرى. وفي أحد هذه البيوت ـ أي بيت أمير المنطقة المحلي ـ أرخينا عنان دوابنا طلباً للماء، ولكنه ألح علينا أن نبقى معه لتناول القهوة. وقد قبلنا الدعوة واستضافنا أخو الأمير، عثمان بن عثمان، ورجل آخر طاعن في السن لم أكتشف هويته. وقد قاموا بهرس حبوب القهوة بمدق من الصخر الأسود المصقول تشبه تلك المستخدمة ـ كما قالوا ـ في حائل، في هون صلب من الرخام ذي لون شبه رمادي عرضه قدمان وارتفاعه قدم واحد تقريباً وهو مزخرف بخطوط بسيطة(١).

وقد قاموا بتمرير القهوة علينا مرتين، مع دورةٍ، رحبنا بها، من التمور الطازجة من الأنواع المختلفة التي تسمى وخيني خلال ذلك، وبكل كرم أصروا علينا(٢) أن نقضي معهم الليل ونتناول طعام الفطور معهم في الغد، وعندما لم يوفقوا في ذلك، قاموا بسرعة بتدوير البخور المعتاد علينا لنحث الخطى في طريقنا.

ربما يكون سكان عرقة حوالي (٥٠٠) نسمة، وهم يزعمون أنهم ينحدرون من

---

(١) الحديث عن الجوانب الاجتماعية والاقتصادية في نجد وغيرها من أجزاء المملكة جديرة بالدراسات العلمية الأكاديمية الرصينة المستندة على مصادر ومراجع موثوقة، وإذا لم تبادر المؤسسات العلمية ومراكز البحوث في الجامعات وغيرها بمثل هذا الجانب، فسوف يضيع الشيء الكثير من الأفكار والموضوعات الحضارية المختلفة (ابن جريس).

(٢) عادة تبخير الضيف بأنواع البخور الجيدة موجودة عند العرب منذ القدم وما زالت تمارس في المجتمع السعودي حتى اليوم. (ابن جريس).

بني هلال[1]، على الرغم من أنه من الشائع أنه يوجد فيهم مزيج كبير من عنزة. وكان مجلس القهوة غير كبير، ولكنه على غير العادة باردٌ وذو تهوية وسقفه مدعوم بعمود صخري في الوسط، ومليّس بالجبس، ويعلوه تاجٌ بسيط الشكل. وقد أبدى مضيفونا شيئاً قليلاً من الفضول بالنسبة يمكن لي كوني أكون، غريباً حسبما رأوني، بيد أن الجنيفي لم يتلطف بمنحهم أي معلومات أكثر من أنني كنت ضيفاً موقراً على ابن سعود، في حين لم يُثر فيهم ما قلته من أنني قد أتيت من بلد على مسافة سنة بحساب السفر بالإبل أي دهشة على الإطلاق.

تقع آثار الدرعية على مسافة ثلاثة أميال عكس اتجاه التيار من عرقة في اتجاه الشمال الغربي. بين هاتين النقطتين يتراوح عرض الوادي بين مئتين وخمسمائة ياردة بين جانبين بارزين يرتفعان من سبعين إلى مائة قدم. وهناك ثلاث قنوات سيول غير مهمة يعترضها الوادي من الضفة اليسرى، وقبل الوصول إلى الدرعية بقليل يمر المرء على بستان النخيل الصغير وقصر مخترة. هنا وقفنا على مشهد لآثار العاصمة الوهابية القديمة[2] بأبراجها حيث تباطأنا في سيرنا لنتمتع بالمشهد. وسرنا على طول القناة بين جدرانها الواقية حتى البقعة التي كنا قد أقمنا فيها مخيماً للمبيت في ديسمبر الماضي. لقد كان مشهداً ساراً ومليئاً ذاك الذي يمتد الآن أمام أعيننا، فموكب ابن سعود يتوزع أمامنا في أرجاء حوض السيل وبساتين النخيل المجاورة. وكنت على الفور قد دُعيت للتقدم إلى بيت الأمير المحلي، الذي دعا

(١) قبيلة شبه جغرافية يستخدم اسمها أحياناً للإشارة إلى القديم. (فيلبي)، للمزيد عن قبيلة بني هلال، انظر: أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، وعبدالحليم عويس. بنو هلال: أصحاب التغريبة في التاريخ والأدب. (الرياض: نادي الرياض الأدبي، ١٤٠١هـ/١٩٨١م) ص ١٥ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن عاصمة الدولة السعودية الأولى الدرعية، وعن تاريخ الدولة بشكل عام، انظر: وليام فيسي، الرياض، ص ١٣٩ – ١٦١، حمد الجاسر، الرياض، ص ٧١ – ٧٣) إبراهيم بن صالح عيسى. تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ووفيات بعض الأعيان وأنسابهم (من ٧٠٠ هـ إلى ١٣٤٠هـ) (الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م) ص ٩٧ وما بعدها. عبدالفتاح أبو علية، محاضرات في تاريخ الدولة السعودية الأولى (الرياض: دار المريخ، ١٤١١هـ/١٩٩١م) ص ١٧ وما بعدها. (ابن جريس).

ابن سعود وحاشيته للغداء؛ كان هناك جمع غفير للتشرف بهذه المناسبة وكثير من الأحاديث تلتها صلاة العصر.

ثم جاء الغداء، مائدة سخية، أمر ابن سعود عند نهايتها، ونادراً ما كان يحدث ذلك، ببدء المسير. وفي الساعة الرابعة والنصف عصراً كان الموكب كله يتحرك على الطريق، بيد أن الجزء الأول من المسير في ذلك العصر عقب وجبة هائلة لم يكن مريحاً على الإطلاق. وكنت سعيداً لأن الأميال الخمسة الأولى من تقدمنا في السير حتى وصولنا إلى الملقى كان في أرض قد اجتزتها فعلاً من قبل.

كانت الساعة قد تجاوزت السادسة مساءً عندما وصلنا إلى الملقى حيث تجاوزنا أبعد نقطة من الوادي وصلت إليها سابقاً. وعلى الرغم من ذلك لم يُظهر ابن سعود أي علامة على التوقف. وواصلنا السير في الوادي الذي بلغ عرضه الآن نصف ميل بين منحدرات ارتفاعها نحو (١٠٠) قدم. وبعد ملقة بقليل تجاوزنا أنقاض مزرعة مهجورة من حقول الحنطة الشاسعة، ولكن بعد ساعة من ذلك أصبح الظلام دامساً حتى إنني لم أستطع أن أرى معالم الوادي أو بوصلتي. وقد قدّرت بالتقريب اتجاهنا نحو الشمال الغربي بواسطة النجم القطبي بينما كنا نتخبط في الظلام، ولم نصل قرية الجبيلة إلا الساعة التاسعة ليلاً تقريباً. ولحسن الحظ وجدنا أن أن ابن سعود قد توقف للمبيت، لقد قطعنا حوالي ثمانية وعشرين ميلاً من السير، والتزمنا فيها وادي حنيفة لمسافة (٢٥) ميلاً[(١)]. كنا قد تناولنا عشاءنا من قبل ـ طبقاً لرأيهم ـ ولكني كنت مرة أخرى جائعاً تماماً بعد المسير، وعلى الرغم من ذلك رقدت على الرمل وسرعان ما أصبحت أغط في نوم عميق.

---

(١) لمزيد عن وادي حنيفة وفروعه وسكانه، انظر، عبدالرحمن الشريف، جغرافية المملكة، جـ١، ص ٨٨ – ٨٩. (ابن جريس).

في الجبيلة، إحدى أقدم قرى بني حنيفة، الذين أعطوا اسمهم للوادي كله، وادي حنيفة، وهو حتى هنا قناة ضحلة واسعة بين تلال جرداء، يتقلص مجراه ليغرق بصورة حادة في القناة العميقة التي ذكرتها آنفاً؛ ولذلك تعتبر القرية هي المفتاح لموقع إستراتيجي مهم بين قرى العارض ومرتفعات المحمل وطويق. وهنا تقول الروايات إن واحدة من المعارك الحاسمة في التاريخ الإسلامي القديم قد وقعت، عندما واجه صحابة الرسول ﷺ[١] وهم حفنة من المؤمنين الصادقين، قوات مسيلمة[٢]، نبي حريملاء الكذاب[٣]. ولم يتحقق انتصار الإيمان الصادق إلا بفقد أرواح نحو سبعين من الصحابة، وهم المصدر الوحيد الأمين على تعاليم وأحاديث سيدهم[٤]. ومن المعتقد به في نجد أن هذه الخسارة الفادحة في الأرواح كانت هي السبب المباشر في البدء فوراً في كتابة نص القرآن، الذي أملته على النُسّاخ شفاه الباقين من العصبة الصغيرة الذين أخذوا آياته من شفاه الرسول ﷺ نفسه[٥].

قد يكون الأمر كذلك، فقبور الصحابة الذين سقطوا في تلك المعركة لا تزال واضحة حتى هذا اليوم بالقرب من القرية في طبقات عميقة من طمي النهر، الذي كان في وقت زيارتي قد جرفه السيل جزئياً، ونتج عن ذلك أن جوانب الكثير من المقابر المتفرقة قد أصبح لها فوهات مفتوحة على الوادي. ولم يكن سطح طبقات

(١) عبارة (صلى الله عليه وسلم) إضافة من المراجع. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن حروب مسيلمة الكذاب، الذي ارتد في اليمامة في عهد الخليفة الراشد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، انظر: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري. تاريخ الأمم والملوك (بيرت: دار سويدان، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م) جـ٣، ص ٢٥٣ وما بعدها. (ابن جريس).

(٣) لقد أخطأ فيلبي في تسمية مسيلمة الكذاب بـ (نبي) حريملاء، وإنما هو الذي ادعى النبوة في اليمامة، وحارب جيوش المسلمين حتى قتلوه. (ابن جريس).

(٤) قصد فيلبي بكلمة (سيدهم) أي الرسول (صلى الله عليه وسلم). (ابن جريس).

(٥) ما ذكر فيلبي صحيحاً، فلقد قام الخليفة الراشد أبو بكر الصديق رضي الله عنه بجمع القرآن بعد معركة الحديقة ضد مسيلمة الكذاب، والتي قتل فيها عدد كبير من قراء القرآن الكريم. للمزيد انظر: الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ٢٨١، وما بعدها. (ابن جريس).

الطين يزيد عن ثلاثة أو أربعة أقدام فوق القبور، وبالتالي لابد لنا أن نفترض أنه إما أن تكون القبور أكثر حداثة مما يُعتقد أو أن الطمي قد ترسب حيث يوجد الآن وأنه كان، بصورة عملية، في مستواه الحالي قبل معركة الجبيلة(١). ومن المؤكد أن الرأي الأخير ليس مستحيلاً.

إن القرية، التي لا يسكنها الآن إلا عدد قليل من السكان البائسين مهدمة معظم أجزائها، تقع على بعد ربع ميل من مقابر الصحابة على الضفة المقابلة، أو اليسرى، من القناة. وبقع أشجار الأثل المنتشرة هنا وهناك تكسر رتابة اللون الأسمر الفاتح الذي يسود بصورة كئيبة في طبقات الطمي الشاسعة التي تسد الوادي. ويمكن مشاهدة عدة آبار أحدها بئر مطوية بالحجر قريبة من القرية وتستخدم بانتظام. وبيوت القرية ليست غير هياكل مبان متهدمة من الطين والتي نزعت منها الأخشاب. وعلى الرغم من ذلك لا يزال العديد منها في حالة معقولة من الحفظ، حيث لا تزال الأعمدة الصخرية المغطاة بالجبس تدعم سقوفها. وفي أحدها عثرت على دعاء وعاءً من الطين مغطى بلياسة بنية رقيقة يستعمل لتخزين التمر، الذي لا يزال محتفظاً بالعصارة من محتوياته السابقة. بيد أن أفضل المباني المصانة في القرية كلها هو المسجد بعمارته الوهابية النموذجية(٢). حيث كان سقفه مدعوماً بقناطر مستدقة تستند على أعمدة ذات رؤوس بسيطة، والتي تُذكّر المرء بالبرج المدرج المعروف وهو معكوس (مقلوب) والكثير من الجدران الطينية تقوّى بوضع ألواح صخرية مسطحة في نصفها الأسفل بشكل مائل وعليها آثر نقوش بسيطة.

---

(١) المعركة التي حدثت في عهد الخليفة الراشد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ضد مسيلمة الكذاب لا تسمى في كتب التراث الإسلامي بـ (معركة الجبيلة)، وإنما يطلق عليها معركة الحديقة، للمزيد انظر، الطبري، جـ٣، ص ٢٨٠ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) جعل فيلبي كلمة (الوهابية أو الوهابي) مطلقة على أي عمل سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي، أو عمراني من صنع حكام الدولة السعودية أمر فيه إجحاف وعدم دقة علمية، لأن الوهابية - كما ذكرنا سابقاً - ليست إلاّ حركة دينية تهدف إلى تحكيم كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) (ابن جريس).

في العصور الحديثة نسبياً كانت جبيلة قد كوّنت مقاطعة يحكمها أمراء من آل معمر من العيينة، وأخيراً انهارت واختفت خلال صراع عبد الله وسعود[١]، قرب نهاية القرن التاسع عشر[٢].

والمنطقة من حولنا وبجانبنا قليلة التأثير في النفس مثل أي شيء رأيته من قبل، فهضبة طويق الكئيبة والخالية من المعالم تمتد في جميع الاتجاهات بتشابه ممل لا نهاية له ولا يقطعه إلا جبل هضبة صلبوخ المنخفض في الشمال الشرقي.

كان ابن سعود وجيشه قد استيقظوا وساروا بعيداً قبل أن أستيقظ بوقت طويل على صوت مترك الأجش وهو يوبخ بعنف إما الطباخ أو الإبل. بيد أنني لم أركب أيضاً وأنطلق في الوادي إلا بعد فحص القرية وما يجاورها فحصاً كاملاً. وكان مسارنا يتجه بشكل ما نحو الغرب لنحو ميل ونصف عندما وصلنا إلى الطرف الشرقي للعيينة عند مجموعة صغيرة من البيوت القريبة من كتلة كبيرة من أشجار الأثل.

في هذه النقطة يدخل شعيب مقربة الذي يبدأ بالقرب من العمارية، الوادي من جهة الجنوب، بينما في وقت مبكر نسبياً كنا قد تجاوزنا فم مجرى سيل يسمى أم سليم الذي يدخله الوادي من الشمال.

إن مدينة العيينة، التي كانت مشهورة ذات يوم تمتد شرقاً وغرباً على طول كلا جانبي قناة السيل لنحو ميلين، ليست الآن سوى الخراب المقوت، وقد اغتصبت الأيكات الصغيرة من أشجار الأثل المساحات التي كانت محفوظة ذات يوم لمزارع النخيل المزدهرة، والمدينة الرئيسة التي تسمى الحلّة والتي كانت في يوم من الأيام مقراً لسكنى

(١) ويعود ذلك جزئياً إلى نقص في إمداد المياه. (فيلبي).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن الصراعات التي حصلت بين عبدالله وسعود في الدولة السعودية الثانية خلال القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي)، انظر: وليام فيسي، الرياض، ١٩٥ وما بعدها، عبدالفتاح أبو علية. تاريخ الدولة السعودية الثانية (الرياض: دار المريخ، ١٤١١هـ/١٩٩١م) ص ١٩٥ وما بعدها. (ابن جريس).

الأمراء من أسرة ابن معمر الحاكمة لا تختلف عن القرى الصغيرة التي تنتشر في المنطقة هنا وهناك إلا في كونها تغطي مساحة أكبر بأنقاضها ومبانيها المتهدمة. وبين الحين والآخر قد يصادف المرء بقايا معمارية مثل: أعمدة ذات تيجان كما هو الحال في الجبيلة، وقناطر مستدقة وفتحات تهوية مثلثة الشكل متفرقة في مجموعات للزينة.

وتتناثر هنا وهناك آبار لا ماء فيها، ذات بناء صلب وخزانات مياه مبطنة بالإسمنت بالكامل. وكانت ضفاف السيل تواجهها جدران حاجزة قوية جداً والتي تستمر في حفظ مياه السيول داخل قناتها، على الرغم من أن أولئك الذين شيدوها لحمايتهم قد رحلوا منذ زمن بعيد، كما أن مساكنهم، التي حموها من الفيضان، قد انهارت وتحولت إلى غبار. وقد لاحظت في بعض هذه الجدران كتلاً عظيمة من أحجار البناء التي يبلغ طولها قدمين وعرضها قدماً واحداً.

يقترب الطرف الغربي من الحلة من نتوء مخروطي مطلاً على ما حوله، ربما كان تلاً يدل على قرية قديمة، وذلك مع انتظامه ودقته، وتقول الروايات: إنه كان ذات يوم واقفاً في وسط مدينة ابن معمر؛ فقد صعد الأمير الحاكم في تلك الأيام هذا التل بصحبة كريمته، التي قطعت تعجبه وانبهاره بالمنظر الممتد أمامه، ووجهت له نقداً مقتضباً بأن المدينة ستكون أفضل دون التل في وسطها. وعند ذلك صدر الأمر بإزالة النتوء إلى موقع أكثر ملاءمة، ولا يزال قائماً هناك ليثبت صحة الرواية. من المؤكد أن العيينة كانت في الماضي وحتى ظهور أسرة ابن سعود الحاكمة في الدرعية عاصمة لإمارة كبيرة، تضارع إمارة منفوحة. إن تدهورها يعود إلى تلك الأيام التي رفض فيها أميرها الفرصة التي وضعها في متناوله مؤسس الوهابية، ولا ريب أنه قد أضاعها سدى في الحروب التي جاءت بعد ذلك مع أمراء الدرعية[1].

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن أمراء نجد أثناء ظهور الإمامين محمد بن سعود ومحمد بن عبدالوهاب، وكيف تحولت الأمور إلى صالحها وقيام الدولة السعودية الأولى، والقضاء على الإمارات الصغيرة الأخرى في نجد، انظر: أبو علية، محاضرات في تاريخ الدولة السعودية الأولى، ص ١٣ وما بعدها، وليام فيسي، الرياض، ص ١٦١ وما بعدها. (ابن جريس).

ومنذ تلك الأيام لم تسترد عافيتها قط، على الرغم من أنها قد تنتعش مرة أخرى كمعسكر جديد للإخوان. تجاوزنا منطقة آثار العيينة عبر طريق مشجر منتظم بأشجار الأثل النامية نمواً جيداً، والذي ينتهي بالقرب من آخر قرية باتجاه الغرب في المنطقة.

والآن قد ولينا وجوهنا نحو الغرب صاعدين في الوادي، الذي يبلغ عرضه في هذه النقطة نحو ميل ليتسع إلى ميلين وأحياناً ثلاثة أميال كلما ارتفع، وعلى اليمين لاحظنا شعيب حقر يهبط في الوادي، ويرتفع، كما قيل، في خزان كبير مبطن بالإسمنت على جانب الجبل، وهذا باحتفاظه بمياه الأمطار وما يتصرف من الجبل لا يزال يؤدي دوره في ري مساحة واسعة من الأرض المزروعة بالحنطة وسط تلك الخرائب. والرافد الثاني للوادي يقع أيضاً على يمين مسارنا، هو شعيب العيينة الذي ينزل من أرض مرتفعة ضيقة تفصل وادي حنيفة عن وادي سدوس. لابد أن بيلي(١) (Pelly) قد سلك هذا الوادي عندما سار من سدوس إلى العيينة عام (١٨٦٥م)، حيث وصف المنطقة بأنها مرتفعات ذات بقع خضراء معزولة. وقد وجد العيينة مهجورة ولكنها مهدمة قليلاً.

وفور مغادرتنا العيينة عبرنا قناة سيول وادي حنيفة، التي أصبحت من هنا على يميننا وذلك عند ملتقاها مع شعيب زلق الذي يأتي من الجنوب. والآن سرنا بمحاذاة المرتفعات التي تشكل الضفة اليسرى من الوادي، وتركنا القناة على بُعد مسافة إلى يسارنا، ولم نعبرها مرة أخرى إلا بعد وصولنا إلى مخيم ابن سعود المنصوب في حوض دائري واسع يتكون من التقاء قناتين تشكلان موردين من موارد وادي حنيفة.

---

(١) بلي: هو العميد لويس بلي ولد سنة (١٢٤١هـ/١٨٢٥م)، عمل في مهمات عديدة لحكومته بريطانيا، وأخيراً وافته منيته في سنة (١٣١٣هـ/١٨٩٥م)، للمزيد من التفصيلات عن رحلته في الجزيرة العربية، انظر: الليفتنانت كولونيل لويس بلي. رحلة إلى الرياض. ترجمة عبدالرحمن آل الشيخ، وعويضة الجهني (الرياض: عمادة شؤون المكتبات - جامعة الملك سعود، ١٤١١هـ/١٩٩١م)، ص ٣ وما بعدها. (ابن جريس).

وعلى اليسار شعيب غرور الذي يخرج عند هذه النقطة من خليج كبير في مرتفعات طويق، وعندها يلتقي برافد أصغر منه يسمى شعيب بوثه وهو أقل أهمية من منافسه وادي الحيسيه الذي يمكن في الواقع أن يعتبر امتداداً حقيقياً لمرتفعات وادي حنيفة(١). إن ملتقى القناتين يُعرف باسم ملاقي عندما قرر ابن سعود لسبب غامض أن يبقى هنا لقضاء الليل. ولقد استطعت أن أتجول بين الجبال المجاورة لكي أتعرف على المنطقة التي ـ إحقاقاً للحق ـ ليس فيها إلا القليل مما يثير الاهتمام ويستدعي ذكره. إن التربة في هذه المنطقة من الرمل الضارب للحمرة، والجبال حول الوادي من الحجر الجيري الذي يغطي الصخور الرملية.

وكل ما حولنا كان رتيباً مملاً وكئيباً باستثناء ما هو في جهة الشمال الغربي حيث تبرز قمتا بكين كحارسين على الطريق المؤدي بينهما فوق الهضبة إلى سدوس.

ولهذه النقطة التي تبعد حوالي أربعة أميال اتجهت في الصباح التالي، ملتزماً قناة وادي الحيسيه الواضحة للعيان بخط أشجار السنط (الطلح) الطويل، التي قيل: إن أوراقها تجدد نفسها في بداية الخريف، على الرغم من عدم سقوط أمطار في ذلك الفصل، لتوفر علفاً طازجاً للإبل يُمكنّها من السير أربعة أو خمسة أيام بلا ماء. أما باقي الوادي الذي يبلغ عرضه نصف ميل فكان مغطى بقليل من شجيرات الصحراء، مثل: الأرطي والعرفج والعوسج(٢).

ومن قمة بكين الغربية وأعلى ذروتها البالغة (٣٢٠٠) قدماً فوق سطح البحر ومائتي قدم فوق الوادي، عند هذه النقطة تمكنا أنا ومترك والجنيفي من إلقاء نظرة رائعة وواسعة على الهضاب والوديان الممتدة في سلسلة طويق ونحن نتناول فطورنا

---

(١) للاطلاع على تفصيلات أكثر عن وادي حنيفة، انظر: عبدالرحمن الشريف، جـ١، ص ٨٨ - ٨٩. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن أوصاف هذه الأشجار وغيرها في جزيرة العرب، انظر: كتاب النبات للدينوري، كما انظر: آر. اي. تشيزمان، ص ٥٧١ وما بعدها، فريدة قدح. الغطاء النباتي في الإقليم الجنوبي الغربي (أبها: النادي الأدبي، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م) ص ٢٤ وما بعدها. (ابن جريس).

من الخبـز والماء. وفي اتجاه الشمـال وعلى بُعد ميلين على طول واد واسع يصب في حوض الخفس تقع واحة سدوس الساحرة، التي يسهل تمييزها بكل تفاصيلها على الرغم من أنها كانت لسوء الحظ بعيدة جداً عن طريقنا بحيث أنه لا يمكننا زيارتها. كانت بساتين النخيل تبدو ممتدة على طول قناة السيل لنحو ميل وبعرض مئتين أو ثلاثمائة ياردة، وفي أقصى الطرف الشرقي من هذا الحزام يوجد هناك قصرٌ بارزٌ، بينما هناك قريتان صغيرتان على كلا جانبي النخيل أقرب إلى الطرف الغربي. والقرية الواقعة في أقصى الشمال تعرف باسم الرس، بينما الأخرى تسمى الحلة التي كانت ذات يوم مشهورة بالمسلة الرائعة من أيام الجاهلية، ويحتمل أن تكون أثراً مسيحياً. وقد كانت هذه المسلة لا تزال منتصبة عندما زارها بلي وقد رسمها[١] أحد أعضاء الفريق المصاحب له، ولكنها منذ ذلك الحين قد طُرحت أرضاً وحُطمت تلبية لرغبة الجماعة الوهابية[٢].

تضم الواحة نحو خمسمائة نسمة من سلالة بني تميم، بينما عدد السكان في القريتين الأصغر منها وهما حزوة والمحرقة يبلغ ثلاثمائة في كل واحدة. وهما على التوالي على بعد ميل ونصف وثلاثة أميال في أسفل الوادي، ولكنهما واضحتان للعيان من النقطة المرتفعة التي أقف عليها. لقد كانت سدوس موطن أجداد صاحبي، الجنيفي، ولكنه لم يزرها إلا مرة واحدة في حياته، ولم يُبد رغبة في تكرار هذه المغامرة، قائلاً: إن أهلها كانوا مثل الثيران، في قوتهم وذكائهم.

وعلى مسافة بعيدة إلى الشمال الشرقي كان طرف عرمة مرتفع يلوح للعيان بصورة باهتة، وإلى الشمال الغربي نستطيع أن نرى وادي حريملاء الذي يفصل بينه

(١) لمزيد من التفصيلات عن زيارة بلي لمنطقة نجد وبخاصة الرياض، انظر: كتابه، رحلة إلى الرياض، ص ١٤٠ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) خُطمت لأنها كانت ربما من الأماكن التي يتبرك بها الجهلاء بالدين الإسلامي الصحيح. وكان هناك كثير من الأضرحة والأماكن التي يتم التبرك بها في أنحاء الجزيرة العربية وبعد ظهوردعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب عمل أتباع هذه الدعوة على محاربة كل البدع والخرافات. (ابن جريس).

ووادي سدوس هضبة واسعة. ويعد وادي حريملاء رافداً آخر من روافد حوض الخفس، ونحو الجنوب الغربي رأينا الثغرة في جبل طويق التي تبين موقع ممر الحيسية، وإلى الجنوب وراء خط وادي الحيسية وجبل الملقى يمتد الظهر الواسع لمرتفعات طويق إلى مسافة بعيدة.

في أثناء جلوسنا هنا ـ غير راغبين في انتزاع أنفسنا من هذه المشهد ـ لاحظت انتشار متحجرات متناثرة على طرف التل، وقبل أن ننزل لإبلنا المنتظرة في الأسفل قمت بالتقاط مجموعة من هذه المستحاثات (المتحجرات) لآخذها إلى المتحف البريطاني. وقد تم منذ ذلك الحين فحصها ووصفها، واتضح أنها من العصر الجيوراسي.

وتحت بكين يتوزع الوادي نسبياً بصورة لا نهائية في عدد من الخلجان الواسعة الجارية في متاهة الهضبة، وأهم هذه الخلجان كان يُدعى الجيري، وعلى الرغم من ذلك فإن شاطئ سيل الحيسية الحقيقي يتابع الضفة المقابلة أو اليمنى من الوادي، ويلتف معها من الاتجاه الشمالي الغربي إلى الجنوب الغربي. وهناك غابة مألوفة من أشجار الطلح تبين التقاء شعيب خمر من الغرب مع الحيسية الذي ـ بعدما يتلقى مزيداً من الروافد ذات الأشجار الكثيرة في شعيب مزروع ـ يجري صاعداً في وادٍ ضيق قاحل جداً، وتوجد على جانبيه منحدرات عالية يصل ارتفاعها إلى مائة وخمسين قدماً. وبعد مسافة سبعة أميال تقريباً وصلنا ممر الحيسية الذي يمكن اعتباره أحد روافد وادي حنيفة، وتدل عليه أشجار الطلح المنتشرة، وكان ارتفاعنا هنا حوالي (٣٢٠٠) قدمٍ فوق سطح البحر، وتبعد عن البطين بنحو (٤٦) ميلاً.

وقد رأيت الآن وادي حنيفة كله من أقصى مسافة نحو الجنوب حتى اليمامة، وهي مسافة تزيد قليلاً عن مائة ميل، وفي أثنائها يهبط نحو (١٩٠٠) قدم. لم يكن المنظر عند مستجمع مياه الأمطار جذاباً، فأمامنا كانت الأرض تنحدر في مثلث

واسع يتشكل من جروف مرتفعة في طويق متباعدة، وينتهي على كلا الجانبين في رؤوس ناتئة تسمى خشم الخرشة في الجنوب وخشم الحيسية في الشمال، وبين هذين الطرفين كانت قاعدة المثلث هي رف مركة الجرداء المكونة من الصخر الرملي الأحمر. وبعدها كان هناك انحدار حاد إلى وادي البطين في الأسفل. ويتلوى شعيب الحش في البداية منحدراً في حوض ضيق عميق، وبعد ذلك يجري بصورة هادئة في شاطئ أوسع، نازلاً في المنحدر إلى أن يتسع عند الحافة القريبة من رف مركة، فيما كان سابقاً مستوطنة كبيرة ومزدهرة وفي النهاية يجد طريقه خلال الحاجز الصخري حتى وادي البطين.

تقع آثار مستوطنة الحيش على بعد أربعة أميال تقريباً من مستجمع أمطار حنيفة، وتتكون مما لا يزيد عن بقع متناثرة من أشجار النخيل القصيرة جداً وثلاثة آبار، إثنتان منها مبطنتان بالحجر ويستخدمان بانتظام، وتوفران قدراً وفيراً من الماء على عمق حوالي قامتين، ويكون لون الماء عند استخراجه في البداية أزرق اردوازي بسبب طبقات التربة السفلية، ولكنه يصفو إذا ترك بعض الوقت، وهو ذو نوعية ممتازة. وهذا المشرب يخص قبيلة قحطان(١).

وعند وصولنا هنا وجدنا ابن سعود مع مضيفه قد خيما لقضاء هذا اليوم معاً، وهنا أيضاً بعد النسيم البارد الجنوبي الغربي الذي كان ملائما لسيرنا تعرضنا لواحد من تلك التغيرات المفاجئة التي تشيع في مناخ الجزيرة العربية، فقد قضينا فترة العصر كلها ونحن في هياج شديد نحاول جاهدين أن نحافظ على خيامنا ثابتة تحت أسنان ريح حارة هبت كما لو كانت من فرن. ولم تتجاوز الحرارة مائة وعشرة درجات، وهي عادية تقريباً بالمقارنة مع الرياض، ولكن عند منتصف الليل لم تكن

---

(١) يقصد بقبيلة قحطان أي قحطان نجد وليست الجنوب، للمزيد، انظر: الحقيل، كنز، ص ١١٩، ٢٧٢. (ابن جريس).

أقل من (٨٩) درجة، وفي الخامسة صباح اليوم التالي ثبتت عند (٧٩) درجة[١].

لا يشكل ممر الحيسية أي صعوبة لمرور الإبل[٢] وربما يكون الأسهل من بين كافة ممرات طويق، ولهذا السبب اختير درباً للحجاج[٣]، وهو في الحقيقة الذي التزمناه منذ غادرنا الرياض والآن يصل حتى ضرماء، ويلتقي بطريقي في الغرب الذي سلكته خلال ديسمبر الماضي عند تلك النقطة.

٢ـ المحمل الغربي

في خلال اليومين التاليين الثامن والتاسع من أغسطس، لم نقطع أكثر من ستة وعشرين ميلاً، وكان خط مسارنا يمتد عبر منطقة المحمل الغربي، وهي بقعة خصبة تقع بمحاذاة الامتدادات العليا لوادي البطين أو ضرماء، وتعرف هنا باسم بطين الهوار، وبطول يبلغ حوالي (٢٥) ميلاً، ومتوسط عرض لا يزيد عن عشرة تمتد هذه المنطقة من الجنوب الشرقي حتى الشمال الغربي بين سلسلة جبال طريف الحبل في الحدود التي تحدها من الشمال وما يجاور ضرماء، وحدّها الشرقي هو جرف طويق من خشم الحيسية حتى النقطة التي عندها يتشعب شعيب العتش (العتك) في مجراه نحو الشرق، بينما في الغرب يقع جبل منخفض من الصخر الرملي يسمى صفرة الشمس.

لقد قام ابن سعود كالعادة بتفكيك المخيم، وانطلق في السير من العتش (العتك) قبل أن أستيقظ بوقت طويل، وتبعته مجموعتي الصغيرة على مهل. بهذه الطريقة

(١) للاطلاع على معلومات أكثر عن درجات الحرارة في منطقة نجد وغيرها خلال فصول السنة. آر. اي تشيزمان ص ٦٠١ - ٦٠٨، عبدالرحمن الشريف، جغرافية، ص ٥٩ وما بعدها (ابن جريس).

(٢) بعد ذلك أصبح طريقاً للسيارات التي حلت محل الإبل والحمير في نقل المسافرين والأمتعة المختلفة (فيلبي + ابن جريس).

(٣) لمزيد من التفصيلات عن طريق الحج والتجارة منذ صدر الإسلام حتى القرن الرابع عشر الهجري، انظر: الإمام إسحاق الحربي. كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة تحقيق حمد الجاسر (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م) ص ٢٨١ وما بعدها، المقريزي، الذهب المسبوك، ص ٢٣ وما بعدها، عبدالقادر الجزيري، (لدرر الفرائد المنظمة، (٣) أجزاء. (ابن جريس).

فقط كنت آمل أن أفحص المنطقة بالتفصيل، بيد أنني كنت أضطر دائماً إلى الإنصات إلى عروض ومقترحات السير ليلاً ثم أتجاهلها تماماً. لقد كان رشيد والجنيفي يكرهان كثيراً السير أثناء حر النهار في درجة حرارة تبلغ مائة وعشرة درجات في الظل، أما مترك فكان دائماً مستعداً لأداء أي شيء يُطلب منه.

لقد كانت هناك ثغرة واسعة في رف مركه والتي منحتني نظرة جيدة باتجاه الجنوب لمسافة بعيدة حتى نفود الجوا، وكان من الممكن رؤية ممر ريع البرقاء وراء ضرماء، ولكن الأخيرة نفسها كانت غير مرئية، في حين برز جبل القريدان الهائل كعلامة أرضية مميزة طوال سيرنا في هذه المنطقة التي دخلناها في الحقيقة عندما عبرنا شعيب غديدة بحوضه الضيق بالقرب من مجموعة أشجار النخيل القصيرة. هذا السيل يهبط من مرتفع خشم الحيسية ويلتقي ببطين الهوار عند مزرعة النقيعة التي حازها مؤخراً محمد، الأخ الأكبر لابن سعود.

بعد ذلك بفترة قصيرة نزلنا من الرف إلى مستوى الوادي في منخفض الفيقة الواسع، وبعد ذلك فيما عدا سلاسل التلال المتكررة أحياناً، يصبح سهل المحمل منبسطاً بغير انقطاع أو عوائق حتى الوصول إلى جبل العريض الأوسط في قطاعه الشمالي. لقد كان منظر الذبول البادي في كل مكان بالمنطقة بالغ الدلالة على نقص الأمطار خلال الشتاء الماضي، حتى أشجار الطلح على طول خط قناة السيل(١) كانت يابسة.

على يميننا تجد النسق اللانهائي من الرؤوس(٢) الأرضية يقف بارزاً من جرف طويق وعلى فترات متقطعة عبرنا أحواض السيل الجافة، والتي كانت بداياتها في الخلجان الواقعة بين كل زوج من النتوءات الجبلية.

---

(١) قناة السيل تسمى أيضا (أبا الصافي). (ابن جريس).

(٢) الخرسة، والحبسية، والمهقبة، والرميذة، وتراب، والحصن، على التوالي من الجنوب إلى الشمال (فيلبي + ابن جريس).

عند نقاط التقاء هذه الجداول المائية مع القناة الرئيسة توجد مزارع متناثرة تتكون كل مزرعة من قصر واحد ورقعة من أرض الحنطة بالقدر الذي يمكن زراعته بالري من بئر واحدة يقع داخل أسوار القصر. ومثل هذه المزارع كانت بُليدة والهجيلة غير بعيدتين على يسارنا قبيل وصولنا إلى قرية وبستان نخيل العويند على شعيب بالاسم نفسه.

كان بستان النخيل بمساحة تبلغ (٢٠٠) ياردة مربعة، محاطاً بسور من الطين وبداخله قصران في زواياه بالجهة الغربية، بينما كان يوجد مبنى آخر مشابهاً خارج السور ناحية الشرق بجوار رقعة من أشجار الأثل. وسكان هذه القرية الصغيرة لا يمكن أن يزيدوا عن خمسين نسمة، وهم ينتمون أصلاً لقبيلة حرب، جاؤوا إلى هنا من منطقة السر. وقد اكتشفنا بالتجربة أنهم كانوا قوماً غير كرام وبخلاء، عندما تركنا مسارنا تجاههم على أمل تناول ما ينعشنا من طعام أو شراب، كان هناك رجل طاعن في السن يجلس على مصطبة من الطين خارج أحد المباني عندما وصلنا، وبعد فترة قصيرة برز شاب من الداخل ودعانا فوراً للقهوة ونادى بأعلى صوته على ولد في الداخل ليعد المجلس. بعد ذلك قال لنا: إنه ليست لديه أي أدوات لعمل القهوة، وقد اضطررت إلى كبح جماح الجنيفي المرهق عن تقديم المساعدة له للتغلب على حل هذه المشكلة؛ لأنني لم أكن أرغب في إجباره على الاعتراف المشين بأنه ليست لديه قهوة، ثم بعد صمت قصير نصحنا بالقول: إننا قد نجد قهوة جاهزة في أحد القصور الأخرى. وقد أكدت له أننا لم نكن نريد أي شيء سوى كوب من الماء، وفي أثناء إحضار ذلك جلسنا على المصطبة في الخارج نتجاذب أطراف الحديث مع الرجل المسن، الذي ثبت أنه ثرثار وفضولي في آن. وحيث إنه لم يكن صاحب البيت فقد توسل إلينا أن نبقى على أمل ـ بلا ريب ـ أن يتذوق قهوتنا، ولكننا رفضنا البقاء مما أراح الشاب، واستأنفنا سيرنا بعد شرب الماء. إن الماء هنا مثلما هو أيضاً في

البرة وفي المنطقة كلها بشكل واضح كان طعمه معدني غير مستساغ قليلاً، حيث كان عمق الآبار في هذه الواحة يتراوح بين ثمان وعشر قامات.

كان ابن سعود قد نصب خيامه لقضاء النهار بعد الطرف الشمالي من البرّة، التي تقع على بُعد ميلين إلى الشمال الغربي من العويند، ويمكن أن تعتبر عاصمة المنطقة. وتمتد على طول الحوض الواسع لمجرى سيل يسمى أبو كتادة، وهو رافد من بطين الهوار يرتفع إلى جرف طويق، ويشترك في مستجمع أمطار واحد مع شعيب حريملاء. تمتد بساتين النخيل في هذه الواحة لنحو ميل على طول حوض السيل من الشمال الشرقي حتى الجنوب الغربي، ومساحاتها كبيرة ولكل منها قصر خاص به.

وفي وسط الواحة ينتصب حصن هائل يسمى قصر عجلان، وهو مربع الشكل وضلعه ستون ياردة وبه أسوار قوية مشيدة من الطين تشييداً جيداً تعلوها أبراج. والجزء العلوي من البرج ناتئ للخارج، ومطل إلى أسفل على شكل مظلة مصباح، وهناك ثلاثة فتحات ذات قناطر غير متقنة دون أبواب تؤدي إلى الحصن من الخارج. وصاحبه، ابن عجلان، ينتمي هو وتابعوه المائة في الأصل إلى هذيل وهي قبيلة من الحجاز، وكانت أصلاً فخذاً من مطير[1]. وإلى جنوب هذه القلعة تقع قرية البرّه نفسها غير المسوّرة، وهي مجموعة من البيوت منتشرة في غير نظام على مساحة تبلغ نحو (٢٠٠) ياردة في الطول و (١٠٠) بالعرض. وليس فيها سوق، والشارع الرئيسي فيها الذي يقع فيه المسجد فرعٌ من مجرى سيل يدخل ويخرج من القرية عبر صف من القناطر التي تدعم الجدار الذي يسد الشارع على كلا الطرفين. والسكان، الذين يبلغ عددهم (٤٠٠) نسمة ونحو مائة آخرين يسكنون القصور المتناثرة، وينتمون إلى عشيرة بني خالد وكان أميرها المحلي ابن ماجد، الذي شرفني بتناول العشاء معي في تلك الليلة. وقد أثبت أنه صريح بصورة غير عادية،

(١) للاطلاع على معلومات أكثر عن قبيلتي هذيل ومطير، انظر: الحقيل، كنيز، ص ١٣٦، ٢٢٣. (ابن جريس).

على الرغم من أن موضوع الحديث كان عن الكرم والسخاء الذي أسداه إليه العقيد هاملتون الذي نزل ضيفاً عليه في الخريف الماضي. وقال بصراحة متناهية: إن سخاءً مماثلاً من جانبي لن يضيع سدى، وإنني لواثق من أنني قد كسبت وده واعترافه الأبدي بالجميل بهدية لا تزيد عن عشرة دولارات. ليس للقرية بوابات، بيد أن بعض البيوت تعلوها أبراج من النوع الذي وصفناه سلفاً. والآبار بعمق سبع أو ثماني قامات[١]، ولكن الماء له الطعم غير المستساغ نفسه مثل ماء العويند، باستثناء بئر واحد تقع بعيداً جداً عن الواحة في الشمال، والتي يؤخذ منه ماء الشرب. وقد لاحظت في هذه المنطقة رواسب من الجبس ذات نوع رديء، والتي يستخدمها الناس المحليون في عمل الجص أي الجير المحروق.

وقد وعدنا ابن ماجد أن يعثر في ليلة واحدة على دليل ذكي ليصاحبني حتى شقراء،[٢] ولكنه لم يفعل شيئاً إلا بعد أن زاره الجنيفي ليذكّره بكلمته، فقدّم رجلاً لا يبشر مظهره بالنجاح، والذي يبدو أنه قد لقنه أسماء الأماكن التي يُرجّح أن يقابلها قبل أن يحضره لنا. لقد كان الرجل، واسمه حمد بن هزاع ومن فخذ الأمير نفسه من سُبيع، غير شغوف بصورة دقيقة في أداء المهمة، وطلب ستة دولارات راتباً بدلاً من خمسة، ووعدته بدفع سبعة إذا أثبت أنه مقنع ومقبول، وبحلول نهاية اليوم عزمت في سريرتي أن أضاعف له مكافأته. فقد برهن على أنه واحد من أفضل الأدلاء الذين عملوا معي، على الرغم من أنه يبدو أنه لا يعلم شيئاً على الإطلاق عن المنطقة خارج نطاقه المحدود، ولكنه كان يعرف الطريق من الرياض حتى شقراء وكل شيء ظاهر منه على كلا الجانبين كأنه كتاب. وقد كان طريفاً وجذاباً فوق ذلك.

---

(١) يظهر على الآبار أن أعماقها قليلة جداً، وهذا مما يدل على وفرة المياه في تلك المناطق. (ابن جريس).

(٢) للمزيد من التفصيلات عن مدينة شقراء انظر: أحمد محمد العثمان. شقراء (الرياض: دار طيبة للطباعة والنشر، د. ت) ص ١١وما بعدها، محمد إبراهيم عبدالله العمار. شقراء (الرياض. الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ص ١٧ وما بعدها. (ابن جريس).

سألني ذات مرة : «هل عندكم نخيل في بلدكم؟». فأجبت: «لا». «إذن بلا شك يزرع شعبكم الأرز؟». فقلت: «لا، ولا حتى الأرز، ولكن الحنطة فقط». فتعجب قائلاً: «والله! عرب!» يعني أننا لا بد أن نكون في مستوى قومه إذا كنا لا نزرع إلا الحبوب[١].

عندما واصلنا سيرنا من البرّه لاحظنا الكثير من المزارع المتناثرة حول المنطقة، فهناك بستان النخيل المزروع حديثاً في أرض مسورة قريبة من الواحة على دربنا، وقصر سهك[٢] عن يميننا على بُعد ميل، وبرج منحث الرفيع وقصر الحسينية على مبعدة من يسارنا أمام الهضبتين المزدوجتين ذواتي القمم المسطحة اللتين تسميان قوار[٣] الحوار مقابل جبل الصخر الرملي. ويرتفع أمامنا نتوء الذينه الشاهق الذي يشكل الطرف الجنوبي من جبل العريض والذي سرعان ما وضعنا قبالة المجرى الأعلى لبطين الهوار. وإلى البعيد عن يميننا يقع جبل أم الحجير خلف سهك عندما عبرنا الحوض الرملي لمجرى سيل عريض يسمى الثرمانية الممتلئ بشجيرات الحرمل والسلم، وبعد ذلك فوراً شعيب القليلات الذي سُميّ كذلك بسبب كثرة الروابي الصغيرة الناتئة في السهل كلما اقتربنا من الجبل.

هنا دخلنا مرة أخرى في طريق القوافل الرئيس من الرياض إلى شقراء، الذي يمر من جنوب البرّه، حيث التزمناه على طول المنحدر الذي يهبط من جبل العريض إلى بطين، وبعده بحوالي خمسة أو ستة أميال لاحظت رابية قرة الشمس فوق جبل الصخر الرملي. وبجوارها توجد مزرعة تخص رجل من البرّه، وبعدها بميلين توجد

---

(١) أسئلة هذا الدليل تدل على عدم معرفته الواسعة عن سكان الجزيرة العربية، وبخاصة ما يتعلق بالشعوب الأخرى البعيدة. وهو وأمثاله معذورون لأن وسائل الثقافة والإعلام كانت معدومة، ولكن في فترة وجيزة، خلال عدة عقود، أصبحت جزيرة العرب تضاهي دول العالم الكبرى ثقافياً وحضارياً. (ابن جريس).

(٢) سهل: ربما يطلق عليه أحياناً (صهك). (ابن جريس).

(٣) قوار جمع قرة. (فيلبي).

آبار الشميسة في وهد بالإسم نفسه. هذا وقد فشلت في الحصول على معلومات عن مكان يسمى دستقر مبين في الخريطة التي رسمها هنتر(Hunter).

في تتابع سريع عبرنا أحواض روافد صغيرة تصب في الوادي[١]. وفي الجبل نفسه ينتصب رأس خشم الصقور، وقد سمي بذلك بسبب تشابهه مع منقار الصقر، ومورد ماء قبيلة الشواف، وهو ملتقى الرعاة ويخص الشريف من الحجاز. وبعد مسافة واجهنا مجموعة صغيرة من الرعاة الإخوان ذكوراً وإناثاً، عند بئر أم الشطون الوحيدة غير المبطنة، وتحوي مخزون مياه ممتازة. كان الرعاة من قرية الغطغط سيئة السمعة، وقد كانوا شغوفين بسماع أي أخبار قد تكون لدينا عن تحركات المجموعة العسكرية من تلك المدينة التي من المقرر أن تنضم إلى ابن سعود في شقراء. وقد امتدحوني معتقدين أنني كنت «مدفعجي»[٢] (تركي) في خدمة ابن سعود، وتركناهم دون أن يعرفوني، وتقدمنا في سيرنا إلى رابية على الجبل، حيث استطعنا أن نستطلع المنطقة حولنا.

كانت النقطة التي نقف عليها تشرف على منطقة المحمل الغربي كلها من الغرب إلى الشرق وإلى حدودها الجنوبية أسفل القريدان، وهي تقع بصورة فعلية على الحاجز المائي بين البطين والهوار ومنخفض يُعرف باسم أم سدر الذي يبدأ من ملتقى طريف الحبل النفود وصفرة الشمس، ويتدفق نحو الشمال الشرقي على طول الحافة الجنوبية للرمال إلى أن يمر عبر حاجز طويق بمسمى شعيب العتش وغير بعيد عن هذه النقطة توجد قرية ثادق التي لا يمكن رؤيتها. بينما في الاتجاه نفسه ولكن على الجانب القريب من الجرف لمحنا مئذنة عالية رفيعة أو برج مراقبة يرتفع

---

(١) شعيب الثمام وثنية الرمل وغيرهما. (فيلبي + ابن جريس).

(٢) النقيب شكسبير قتل في معركة جراب (١٣٣٣هـ/١٩١٥م) التي وقعت بين ابن سعود وابن الرشيد. للمزيد انظر: الريحاني، نجد وملحقاتها، ص ٢٢٢، سعود بن هذلول. تاريخ ملوك آل سعود (الرياض، د. ن، ١٣٨٠هـ) ص ١٠٥. (ابن جريس).

فوق بيوت وبساتين نخيل واحة كبيرة، كان اسمها رغبة، من المحتمل أن تكون أكبر قرية في المنطقة، لأنها مشهورة بأنها تؤوى نحو (٨٠٠) شخص، ينتمون إلى فخذ العرينات من قبيلة عامر سبيع، ويعيشون تحت حكم عبدالعزيز بن الخريف. ويبلغ طول الواحة ثلاثة أرباع الميل وعرضها (٢٠٠) ياردة تقع في حوض سيل يهبط من خشم الطرفية في طويق.

بعيداً وعن يسارنا ومن شعيب العتش (العتك) باتجاه الشمال يمتد جرف سدير الرمادي، وهو أقصى منطقة شمالية من جبل طويق والوحيدة المأهولة في نجد بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى التي لم أتمكن أبداً من زيارتها. بيد أن معالمها الرئيسة معروفة بدرجة كافية، والفضل في هذا يرجع بصورة رئيسة إلى الراحل النقيب شكسبير (Captain Shakespear)، وقد يبدو من وصفه لها ومن أوصاف الآخرين الذين شاهدوا أجزاء منها أنها بقعة مزدهرة ومزاياها كثيرة. وإلى الغرب من الجرف ـ وبينه وبين رمال طريف الحبل التي تشكل الحد الشرقي لمنطقة الوشم ـ يقع شريط ضيق من الأرض الخصبة يسمى حمضة وتوجد فيه عدة قرى، هي الحريق وبها (٦٠٠) نسمة، وهي أبعدها نحو الجنوب، ثم القصب على بُعد ميل في اتجاه الشمال الغربي، وفريثان وهي مقر للإخوان من قبيلة مطير، على بُعد اثني عشر إلى خمسة عشر ميلاً نحو الشمال، وأخيراً بعدها الدهينه بنحو ثمانية أميال وهي الأخرى مقر للإخوان من قبيلتي مطير وعتيبة.

كان مستوى الأرض ٢٩٠٠ قدم تقريباً فوق سطح البحر عند النقطة التي نطل منها، والآن نزلنا منها لنستمر في سيرنا عبر حوض أم سدر[1] الذي تغطيه شجيرات الزعرور الشائكة التي تأكلها الإبل والشجيرات الجافة الأخرى. بعدها

(١) يصب شعيب أبا الفروه منحدراً من صفرة الشمس، بينما مجرى السيل التالي شعيب أبا الطي منحدره وهو جزء من شبكة بطين الهوار. (فيلبي).

مباشرة بدأنا نتسلق أمواج الرمل الوردي العميقة في النفود، ومن قمته لمحنا عن بُعد نخيل ثرمداء. وبعد مسافة ميل أو نحوه وراء الحافة البعيدة للرمال التي يبلغ عرضها هنا ميلين على الأكثر وجدنا ابن سعود قد نصب خيامه في منخفض يسمى خبت أم الجداول.

إن درجة الحرارة تحت تأثير الرياح الحارة قد ارتفعت إلى (١١٢) درجة خلال النهار، ومياه منطقة المحمل أفرزت شعوراً بالقلق العام وعدم الراحة والاكتئاب في المعسكر، ولهذا يعزى السبب في بطء تقدمه نحو الأمام. وكان ابن سعود يعالج نفسه بتناول جرعات من حبوب لداء في الكبد، وعلى الرغم من ذلك كان ينهي أعماله ومعاملاته بطاقته وحيويته المعهودة. وقد جاءت حديثاً حقيبة البريد من الساحل حاملة أنباءً مرضية عن التعهدات التي قدمتها حكومة صاحب الجلالة إلى الشريف حيث كان العاهل الوهابي مرتاحاً لها. وقد قضينا جميعاً النهار في إعداد الخطابات للبريد الصادر، والذي سوف يأخذه شخص يدعى صالح العذل الذي كان على وشك أن يتولى مهام وظيفته كممثل لابن سعود في الزبير.

والمذكور من مواطني الرس في القصيم(١)، وكان واحداً من أفضل الرجال في البلاط، وذا ملامح سامية ومعين لا ينضب من روح الدعابة والمزاح. وأكثر من ذلك فهو يتمتع بميزة نادرة في نجد كونه باشا تركياً(٢).

(١) لمزيد من الإضافات عن بلدة الرس في القصيم، انظر. عبدالله محمد الرشيد. الرس. (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ص ١٤ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) هناك أشخاص كثيرون، في أنحاء الجزيرة العربية، من أصول تركية، آثروا البقاء في الجزيرة بعد خروج القوات العثمانية منها، واندرجوا في خدمة ابن سعود، وأصبحوا من سكان المملكة العربية السعودية. (ابن جريس).

٣ـ محافظة الوشم

جرياً على الطريقة التلقائية للعرب كان ابن سعود قد أطلق على شقراء اسم «ملتقى الأحباب» أي العناصر العسكرية المختلفة التي كان من المتوقع أن تنضم للوائه في الحملة العسكرية ضد حائل. لقد تم تسمية مكان اللقاء وتحديده، ولكن لم يكن هناك تاريخ محدد بدقة لهذا اللقاء، وهكذا توقفنا عشرة أيام في تقدمنا نحو الشمال على مهل وسط قرى الوشم، وهي واحدة من أهم المناطق في وسط الجزيرة العربية، على الرغم من صغرها. والعاصمة شقراء تأتي في الترتيب بعد عنيزة وبريدة من حيث الأهمية التجارية، لما لها من علاقات مباشرة مع المدن الواقعة على ساحل الخليج العربي[١]، وهناك ست من القرى الأخرى، تستحق تقريباً أن تُعدّ مدناً بالمقاييس العربية، تزوِّد عدداً هائلاً من السكان «البدو» في الصحاري المحيطة بها بالتمور والحبوب مقابل السمن والصوف، وفي الوقت نفسه فإن حواجز الرمال التي تطوق المنطقة بالكامل توفر الحماية من الأعداء من جميع الجهات، كما أنها مرعى لقطعان مواشي القبائل القاطنة فيها خلال الفترات المعتادة لتجمعهم في الوقت نفسه سواء كان ذلك أثناء الصيام السنوي أو للتسوق الموسمي.

إن الدهناء الكبرى ـ الامتداد الطبيعي للنفود الشمالي في منطقة شمر ـ تُلقي ذراعاً عريضاً من الرمل حول الطرف الشمالي لهضبة طويق في الاتجاه الجنوبي، وهو بعدما يندفع بين الزلفي وعنيزة يمد ثلاثة أصابع طويلة نحو الجنوب الشرقي من النقطة التي تصل عندها الحدود الشمالية للوشم. إن أرفع هذه الأصابع في

(١) للاطلاع على معلومات أكثر عن مدينتي عنيزة وبريدة وأهميتهما التجارية، انظر: محمد بن صالح الربدي. بريدة (الرياض: مطابع العبيكان، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م) جزءان، إبراهم المعارك. بريدة (الرياض، مطابع العبيكان، ١٤٠٧هـ)، ص ٥٥ وما بعدها، حسن الهويمل، بريدة (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ص ١٢٥، محمد السلمان. مدينة عنيزة بين الأمس واليوم. (الرياض مطابع الفرزدق، ١٤١١هـ/١٩٩٠م) ص ١٤٥ (ابن جريس).

أقصى الشرق ينفصل عن جرف سدير بواسطة شريط حمضة، ويشتهر بأسماء النفود الشرقي ونفود شقراء وطريف الحبل[1] في أجزائه المتنوعة التي تشكل الحد الشرقي من منطقة الوشم. هذه المنطقة التي تتألف من بقعة بيضاوية من التربة ذات الصخور الرملية المنحدرة من جرف غربي إلى سفح الشريط الرملي الشرقي، وتذوب في الأودية بتدفق مجاري السيول، تُحاط من الغرب بحزامٍ عريضٍ من نفود الفنيفذة الذي يتلامس تقريباً مع رمال طريف الحبل في الجنوب[2].

يشكل الوشم بموقعه هذا، حوضاً يتمتع بالاكتفاء الذاتي، ليس له مخرج لتصريف المياه، كما أن رخاءه الزراعي يعود بالتأكيد إلى حقيقة أن الأمطار عندما تسقط داخل حدوده يحفظها الحاجز الرملي عند قاع الأودية، وليس أمام المياه فرصة إلا أن تغوص في تربتها الرملية؛ ولذلك ينشأ مقدار معين من الملوحة في المياه، وبها ينمو نخيل المنطقة. والحبوب تزرع أيضاً على نطاق كبير في الواحات وخاصة في الوادي الواسع الذي يسمى البطين والذي يفصل هضبة الصخر الرملي المنحدرة وأوديتها عن النفود الشرقي. ويجري هذا المنخفض على طول المنطقة بالكامل من الشمال للجنوب، ويحتوي على مجموعتين كبيرتين من المزارع هما: قصور سنيدي مقابل شقراء وقصور دايل مقابلة لمرات، ناهيك عن واحة ثرمداء الكبرى. إن جميع قرى الواحات الأخرى تنتظم في صدور الوديان مثلثة الأشكال التي تقسم المنطقة من اتجاهين، غرب وشرق بين متاهة جبال الصخور الرملية.

عندما استأنفنا سيرنا في صباح العاشر من أغسطس مررنا أولاً بحقول الحنطة المهجورة في أم الجداول، ويقال: إنها مع القصرين اللذين يقومان في وسطها قد تدهورت لسببين هما: انعدام الأمن الناتج عن كفاح ابن الرشيد

---

(١) طريف الحبل يعرف قديماً باسم (عريق البلدان) للمزيد، انظر: عبدالله الضويحي. مرات (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م) ص ١٦. (ابن جريس).

(٢) للمزيد من المعلومات عن هذه المواقع، انظر: الضويحي، مرات، ص ١٥ وما بعدها. (ابن جريس).

للمحافظة على موقعه من القوة المتزايدة لابن سعود في مستهل سنوات القرن الحالي أجبرت الرجال على البحث عن مكان آخر لكسب رزقهم. وفي الوقت نفسه كان الازدهار في تجارة اللؤلؤ قد وفّر مخرجاً مناسباً لكثير من أبناء الجزيرة العربية الذين لا يعلمون الكثير عن الذي قد يجني ثمار كدّهم وعملهم الزراعي. وهكذا فر من مناطق كثيرة مضطربة بسبب الصراع بين المتنافسين على السيادة في نجد أعداد من المزارعين إلى مهاد المحار في أعماق الخليج العربي، ولم تستطع الزراعة أن تستعيد أهميتها ومكانتها مرة أخرى إلا بعد أن أضعفت الحرب العظمى نفسها أهمية اللؤلؤ في الوقت الحالي[١]. وكانت «العودة إلى الأرض» هي الشعار الذي عليه أسس ابن سعود الصحوة الوهابية لحركة الإخوان، ومن المحتمل جداً أن تكون الآن «أم القنوات»[٢] قد توقف جفافها.

والتزمنا منخفض البطين حتى أتينا الآن إلى أرض شاسعة تتناثر فيها ثمانية مزارع حنطة وفيها بيوت مبنية على شكل حصون متشابهة في مظهرها، كل واحدة منها نحو خمس وعشرين ياردة مربعة، ولها أبراج مستطيلة بارزة، ويزيد ارتفاعها قليلاً عن جدران المباني. وفي كل قصر من هذه القصور يوجد بئر له قناة توصل المياه إلى الحقول في الخارج، التي تكون مقسمة بحدود ترابية صغيرة إلى أحواض صغيرة نحو عشرة ياردات مربعة. تعرف هذه المزارع وبيوتها بصورة جماعية باسم قصور دايل، وتخص كما يشير اسمها إلى فخذ دايل من قبيلة الوادعين من الدواسر[٣]، الذين يشكلون جزءاً من سكان قرية مرات المجاورة.

---

(١) وهذه من سلبيات الحروب في كل زمان ومكان، فإنها تضعف الاقتصاد، وتشتت الأيدي العاملة، وتزيد من أعداد البطالة. (ابن جريس).

(٢) أم القنوات: أي أم الجداول وهي البئر أو العين الرئيسة التي ينطلق منها العديد من القنوات والجداول المائية المستخدمة في الري. (ابن جريس).

(٣) لمزيد من التفصيلات عن قبيلة الوادعين من الدواسر، انظر: الحقيل، كنز، ص ١٩٣. (ابن جريس).

في هذا الموسم بين الحصاد وبذر البذور القادم كانت المزارع حسب العادة مهجورة تماماً، وقيل لي: إن العادة المحلية قد جرت على ترك الأرض المحروثة للراحة فترات طويلة قد تصل إلى خمس وحتى ربما إلى عشر سنوات في إحدى المرات، للاستفادة من الخصوبة المتزايدة في التربة نتيجة هذه المعالجة(١).

وعلى بُعد ميل إلى الشرق من مزارع دايل وفي خليج دائري واسع من متاهة صخر رملي تقع واحة مرات التي تطل عليها رابية قارة كميت ذات القمة الشاهقة المسطحة. هذه القمة المكونة من طبقة كثيفة من الحجر الجيري وحجر الصوان فوق طبقات الحجر الرملي الحمراء السفلى ترتفع (٢٠٠) قدم تقريباً فوق الواحة حيث تعطي رؤية رائعة للمنطقة حولها لمسافة أميال. إلى الغرب كانت الرؤية محجوبة برمال نفود القنيفده بينما في الأسفل منا مباشرة تقع واحة مرات الممتدة شرقاً وغرباً لحوالي ميل بمتوسط اتساع يبلغ ربع ميل(٢). وإلى الشمال تقع واحة ثرمداء وبعدها في جهة الشرق تمتد النفود ثم بعد ذلك مرة أخرى سهل حمضة بقراه التي يقف وراءها القوس العظيم لجرفي سدير وطويق بما فيهما من أجراف بارزة ورؤوس متجهمة. إن تدرج الألوان من اللون البني الضارب للحمرة في هضبة الوشم ذات الصخور الرملية، واللون القرنفلي الخفيف النقي في النفود، إلى الضباب الأرجواني في سدير الشاهقة، والظلال المظلمة في ممرات طويق الضيقة، كان مشهداً يصعب نسيانه.

إن قرية مرات(٣) التي تقع عند الطرف الغربي من الواحة محمية بسور ذي أبراج على طول جانبيها الشمالي والشرقي، كل جانب منهما بطول ثلاثمائة خطوة،

(١) إنهاك التربة بالزراعة المتتالية تفقدها بعض مكوناتها الرئيسة، ويستطيع المزارع معالجة تربة مزارعه بالتسميد والحراثة. (ابن جريس).
(٢) للمزيد من التفصيلات عن بلدة مرات، انظر: الضويحي مرات، ص ١٧ وما بعدها. (ابن جريس).
(٣) آبار مرات بعمق عشرة قامات وماؤها عذب ونقي ويعرف بأنه الأفضل في منطقة الوشم. (فيلبي للمزيد انظر: الضويحي، مرات، ص ٢٢. (ابن جريس).

ولكنه ينفتح مباشرة على الجوانب الأخرى حتى يصل إلى بستان نخيل شاسع يستمر من حوله السور في شبه دائرة واسعة. ويتم الدخول من السور عبر بوابة واحدة في الجزء الشمالي، والمبنى الوحيد خارج السور هو المسجد في الطرف الجنوبي منه. وللمسجد مئذنة مربعة عالية، كما يتكون صحنه من ثمانية قناطر مستدقة، أربعة منها كانت مشيدة بالطوب. أما أبراج الأسوار الخارجية وهي على هيئة ظل المصباح، النمط الشائع في هذا الجزء من البلد.

ولأن الجنيفي ومنور قد سبقانا ليعلنا قدومنا، فقد قابلنا لدى وصولنا عند البوابة شخص حيانا بترحاب حار ونادر، وقدم نفسه على أنه ابن عم إبراهيم الجميعة. بعد ذلك اصطحبنا عبر البوابة المبنية من الطوب اللين والخشب العادي بطريق معقد مروراً بالمسجد حتى بيت الأمير المحلي، حيث أنخنا بعيرنا. والآن شرح لنا دليلنا أن الأمير إبراهيم بن دايل، الذي تولى منصبه خلفاً لأبيه عندما توفي العام الماضي كان غائباً في ثرمداء لزيارة ابن سعود؛ ولذلك تقدمنا سيراً على الأقدام إلى منزل شيخ جماعة قحطان[١]، خالد بن دعيج، الذي تصادف غيابه أيضاً، وهنا استضافنا على القهوة أحد أقارب المضيف الغائب. كانت الغرفة في الطابق العلوي من المنزل، وجدرانها الطينية الجرداء غير مزينة إلا بالدهان العادي بالجير الأبيض في الجزء السفلي، وحتى ارتفاع ستة أقدام تقريباً، وتتميز عند القمة بأشكال برجية متدرجة. وكان السقف من جذوع النخل وروافد من خشب الأثل يدعمها عمود واحد في الوسط من الطين. والحجر المغطى بالجير والجبس، وهناك منور فوق موقد القهوة ليخرج منه للدخان[٢].

لم نمكث هنا طويلاً إلا وقد تم استدعاؤنا إلى بيت الأمير الآخر، حيث عند وصولنا أخذنا إلى غرفة كبيرة مزينة بالنقوش على جدرانها، وتدل على أن صاحبها

(١) عدد سكان مرات نحو (١٠٠٠) نسمة معظمهم من الدواسر وقحطان وفيهم قليل من العوائل الخضيرية. (فيلبي).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن الأبنية وبعض النواحي الاجتماعية في مرات، انظر: الضويحي، مرات، ص ٣٩ وما بعدها. (ابن جريس).

رجلٌ ذو ذوق. فقد كان التماثل الممل للجدران الطينية ينكسر بستة أحزمة من الإفريز الجبسي مختلف[١] الأبعاد ونسب المسافات الفاصلة بين الأحزمة حتى إن واحداً منها كان له شكل مختلف وكان انعكاس هذا كله بالتأكيد ساراً جداً للعيون المتعبة من الفراغ الرمادي السائد في الفن الوهابي، المتميز بالبساطة وعدم الإتقان أو البراعة في التصميم الذي يعتمد في التأثير على تنوعات لا نهاية لها من الموضوع الوحيد المتاح من العناصر، وهي الدوائر والمثلثات، ومقابض الأواني وبتلات النباتات والأبراج المتدرجة وما شابهها. وكان ذلك مؤشراً مناسباً لحالة الجو الاجتماعي الذي تحرر إلى حد ما من النظرة المادية البحتة التي تحكم المجتمع في العاصمة الوهابية وما حولها. وقدر لنا أن نجد في شقراء أن هذه الميول قد تطورت إلى درجة أكبر، وفي القصيم كذلك وجدناها تُوجت فيما يقترب من أن يصبح مدخلاً إلى الفن المعاصر بالقدر الذي تستطيعه صحراء الجزيرة العربية.

إن رسماً كروكياً بسيطاً وبدائياً جداً لسفينة تجارية مستقلة عن التصميم الرئيس، قد يكشف ربما عن أصل الإلهام لدى مضيفنا، إذ ربما كان بالصدفة واحداً من أولئك الذين لطف بهم القدر وعملوا في مصايد اللؤلؤ.

كانت التمور الطازجة التي قُدمّت لنا لإنعاشنا من نوعين مختلفين[٢]، وتبعها صحن كبير من المراصيع المكونة من الفطائر الحلوة المغموسة في السمن والتي تنتشر فوقها شرائح البصل المقطعة بكثرة[٣]. وكان منور الذي اعتذر عن مصاحبتي إلى قمة كميت على أساس معاناته من صداع حاد، قد فاجأني وهو يأكل بنهم من الطعام اللذيذ بغض النظر عن المسير الذي أمامه تحت شمس الظهر المحرقة. في هذا الوقت، أعتقد، أن كل واحد من رفاقي كان يعاني بشكل حاد من الصداع بسبب

---

(١) للمزيد عن الفن المعماري في مرات، انظر: الضويحي، مرات، ص ٥٨، وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) الدخيني والمكوزي (فيلبي). ربما المقصود بالمكوزي هو (المقفزي) (ابن جريس).

(٣) للاطلاع على بعض الأكلات الشعبية في بلدة مرات قديماً. انظر: الضويحي، مرات، ص ١٩٥ - ١٩٦ (ابن جريس).

رفضي أن أسير في الليل، وعلى الرغم من أنني لم أصادف أدنى شيء يزعجني أو يقض راحتي إلا أنني أستطيع أن أرجع معاناة ومتاعب العرب في هذا الخصوص بشكل جزئي إلى حقيقة أنهم ـ بقدر الإمكان ـ يتفادون عادة السفر أو السير خلال حر النهار، وبشكل جزئي إلى عدم كبح جماحهم عندما يوضع الطعام أمامهم. وكذلك إلى أنهم يرتدون كوفيتهم البيضاء[(١)]، وليس النوع الآخر من الكوفية المنقوشة الأشد سماكة التي أجدها دائماً حماية ناجحة من الشمس. وخلال بقائنا في شقراء قدمت لكل واحد من أتباعي كوفية حمراء قبلوها بشكر وامتنان، ولكنهم بشكل عام احتفظوا بها للأيام السعيدة والمناسبات[(٢)].

وبعد السير لمسافة نحو ثلاثة أميال باتجاه الشمال وصلنا الآن إلى ثرمداء، حيث وجدنا مخيم ابن سعود قد نُصب على الجانب الشرقي من المدينة وقريباً من بقايا قلعة عظيمة شيدها خورشيد باشا خلال الاحتلال التركي في منتصف القرن الماضي. وأثناء احتلال ابن الرشيد للمنطقة الوهابية، كانت ثرمداء إحدى معاقله الرئيسة، بل كانت حاميته تحتل هذه القلعة التركية. وقد أحالها إلى وضعها الحالي من الأنقاض ابن سعود لكي يجازي سكان ثرمداء على مساندتهم وقبولهم الولاء لحكم منافسه. إن الحائط الخارجي المتهدم الذي تدل عليه في نقاط فاصلة بقايا الأبراج الساقطة لم يعد مناسباً للحماية. أما داخل القلعة فقد تحول إلى مزارع للحنطة[(٣)].

---

(١) إن كلمة «الكوفية» نادراً ما تسمع في صحراء الجزيرة العربية، حيث تكون الكلمة المعتادة للدلالة على غطاء الرأس هي «الغترة» وفي الوشم كان من الواضح أن النوع الأبيض من الغطاء يسمى «غترة» بينما النوع الأحمر يسمى «شماغ». ويعرف منه نوعان مختلفان النوع المفضل (خارق) وسعره في ذلك الوقت ريالان، والأقل جودة يسمى (ابن نصر الله) وسعره ريال ونصف ريال (فيلبي)، والأصح في اللغة أن يطلق اسم (العمامة) على غطاء الرأس وليس الكوفية، كما ذكر فيلبي (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن بعض الألبسة التي كانت تلبس قديماً في مرات، انظر: الضويحي، مرات، ص ٩٦ – ١٠٠. (ابن جريس).

(٣) عن الآثارالعمرانية في مرات، انظر: الضويحي، مرات، ص ٦٥ – ٧٧. (ابن جريس).

إن واحة ثرمداء عبارة عن قطعة مستطيلة متماسكة من النخيل طولها ميل وعرضها نصف ميل، تقع تقريباً شمال وجنوب وادي البطين[١]. وتبعد عنها رمال النفود بنحو نصف ميل في اتجاه الشرق، ومنحدر الصخور الرملية يرتفع مباشرة من حافة بساتين النخيل باتجاه الغرب. والواحة يحيطها سور به أبراج موزعة على محيط السور، والمدينة نفسها تقع داخل دائرته في جزء بارز من الواحة عند طرفه الشمالي الشرقي. والسوق المكون من خمسة عشر إلى عشرين محلاً هو المعلم الوحيد في هذه القرية المتناثرة المباني غير المنظمة وشوارعها المتعرجة. وينتمي سكانها البالغ عددهم ثلاثة آلاف نسمة في معظمهم إلى فخذ العناقر من بني تميم، مع خليط من الزنوج وبني خضير، وعناصر أخرى متنوعة. وهناك مساحة مفتوحة تفصل المدينة عن القلعة، كما أن هناك بوابتين في السور الخارجي يؤديان إلى القلعة من جهتي الجنوب والشرق، أما المقبرة فهي تقع خارج المدينة.

توجد ست من أشجار النخيل المعزولة عن الجسم الرئيس للواحة تحت حافة النفود، ويتناثر في الوادي قليل من القصور المعزولة والآبار، وكثير من هذه الأخيرة مجرد أنقاض في وسط مزارع الحنطة. والماء الذي يوجد على عمق يتراوح من ست إلى ثماني قامات، وهو مالح قليلاً.

والأمير المحلي، عبد الرحمن العنقري، يجمع إلى وظائفه التنفيذية المهام الخاصة بشيخ الأئمة[٢]، وينظر إليه ابن سعود باحترام وتقدير كبير. كان من بين زوار ابن سعود في مخيمه هنا أخو أمير عنيزة الذي جاء كل هذه المسافة ليرحب به، وهو قد فاجأني بإرسال رسالة لي عن طريق رشيد تقول: على الرغم من أنه لا يستطيع أن يتحمل أن يُرى وهو يزورني إلا أنه سيكون شاكراً لقليل من السجائر !!!

---

(١) وادي البطين: ربما كان ضمن أودية صغار تسمى جميعها (البويطنات)، انظر: الضويحي، مرات ص ١٩. (ابن جريس).

(٢) شيخ الأئمة: ربما مسؤولية دينية كإمامة الناس في الصلوات، والفصل بينهم في الخصومات. (ابن جريس).

وقد كظمت ردة الفعل الأولى من الامتعاض والغيظ من وقاحة هذا الطلب، وأرسلت له علبة من السجائر على أمل - سيتحقق بما يفوق كل توقعاتي - أن يرد لي ثمنها بكرم الضيافة في عنيزة.

على بُعد أميال قليلة باتجاه الشمال من ثرمداء في وادي البطين تقع مجموعة من المزارع[١] ومبانيها، والتي مع مجموعة أخرى مماثلة بعيدة مقابل شقراء، تعرف باسم قصور السنيدي. ونحو المجموعة الأولى يمتد أحد الأودية نازلاً من القمة الغربية لقفر الصخور الرملية مثلثة الشكل والذي أشرت إليه سابقاً ذلك هو وادي شعيب مصمّه الذي تقع فيه واحة وقرية أثيثية. وكانت هذه أول مرحلة من سيرنا عندما غادرنا ثرمداء في صباح الحادي عشر من أغسطس، وكان اتجاهنا العام قليلاً نحو الشمال من الغرب، والمسافة التي قطعناها بلغت حوالي ستة أميال. وكان هناك دربٌ واضح المعالم سرنا فيه من الطرف الشمالي للواحة وتدريجياً فوق المنحدر الأرضي حتى قمته بعد منخفض ضحل يسمى أبا السلم[٢] ومن هنا وعبر المنخفض نظرنا أمامنا إلى خط من التلال الصغيرة ذات القمم المسطحة المرتبة مثل سلسلة من الحصون تغطي المدخل إلى الوثيثية من جهة الشرق، وهو الاتجاه الذي يوجد فيه حاكمها في العصور السابقة ومنافسه الحالي.

فمنذ قرن ونصف قرن كان سكان القرية يدفعون جزية لثرمداء على هيئة حمولة بعير كل يوم جمعة، وهو يوم الذبيح الأسبوعي في ذلك الوقت، ولا يزال كذلك في معظم قرى الجزيرة العربية. وهكذا كل يوم جمعة كان تحالف المدينة المتسلطة يرسل عبداً ومعه حمار ليعود بالجزية من الموالين لها، وكان العبد يعود فعلاً ومعه اللحم. بيد أنه في ذلك الأوان نهض رجلٌ، لم يعد اسمه محفوظاً، ليثير

(١) تشمل هذه المجموعة نحو ثلاثين قصراً بالقرب من حافة النفودَ. (فيلبي).

(٢) يصرف هذا الوادي المياه حتى قصور السنيدي وروضة أبا السميري للوراء منها. (فيلبي). ويوجد في منطقة ثرمداء ضمن بلاد مرات مكان يسمى خشوم السميرة. انظر: الضويحي، مرات، ص ١٨. (ابن جريس).

التمرد سراً، وفي الجمعة التالية عاد الحمار إلى ثرمداء بمفرده وعليه حمولته من اللحم. كان هذا اللحم هو جثة العبد التي شُقتّ إلى قطعتين ووضعت في الخُرج. والحملة التي نُظّمت للانتقام من هذه الإهانة قوبلت بمواجهة شرسة بين التلال الصغيرة التي تواجهنا الآن حيث تكبدت قوات ثرمداء خسائر فادحة. وهكذا نالت قرية أثيثية استقلالها وهي الآن بالطبع قد دخلت في الطاعة العامة لآل سعود. وقد صُورّت هذه الحادثة في ملحمة شعرية ألّفها في ذلك الوقت شاعر قبلي يسمى حميدان[١]، الذي يعجب به أحفاد أقرانه من المواطنين باحترام ويطلقون عليه «أستاذ كل العلوم»[٢]. وقد ألقيت القصيدة ونالت تقديراً واضحاً من كافة الحاضرين. عندما كنا نجلس متحلقين نرشف القهوة في بيت الأمير المحلي ذلك اليوم. وكان الشاعر المحلي في كل بيت من أبيات القصيدة يصف القصة، وأحياناً يستهل بيتاً بملاحظات مثل «لقد نسيت كيف يمضي هذا البيت»، «وماذا بعد ذلك؟» بينما الحاضرون يستبقونه بصورة جماعية بالهمس بآخر نغمة من كل مقطع. في مثل هذه الأوقات كان المرء يستطيع أن يشعر دائماً بالماضي العظيم لأمة العرب، في الأوقات التي كان زبدُ الثرثرة الدينية الجديدة يذهب منسياً في خضم الأحداث المثيرة من الجاهلية البدائية الأولى، التي أبدعت أدباً يستحق أن يكون في مصاف الإبداعات العظمى للإنسانية[٣]. وأعترف أنني كنت دائماً أواجه صعوبة في متابعة إلقاء هذه القصائد، ولكن ثراء اللغة واللمحات الأدبية أو التاريخية كانت دقيقة، حتى إن المرء لا يستطيع أن يتتبع المعنى إلا بعد جهد جهيد، ناهيك عن القدرة على

(١) هذا الشاعر يسمى (حميدان الشويعر). (ابن جريس).

(٢) أستاذ كل العلوم: أي عالم بكل العلوم (فيلبي + ابن جريس).

(٣) فيلبي يدرك تماماً أن العرب أصحاب تراث وفكر وحضارة، وهذا هو الواقع، لكن إطلاق لفظ (الثرثرة الدينية الجديدة) في شروحاته غير مقبولة، لأنه إذا كان يقصد ما جاء به الشيخ محمد بن عبدالوهاب من صحوة وتوعية للناس فهذا لا يعتبر ثرثرة، كما يدعي، وإنما هو إعادة الأمور إلى نصابها وتوجيه الناس إلى الطريق التي سلكها الرسول ﷺ وصحابته في فهم الدين وتطبيقه. (ابن جريس).

تقدير جمال الأبيات، إلا بصورة عمومية شديدة. وخلال رحلاتي لم يُتح لي أبداً وقتٌ لبذل هذا المجهود الضروري. وعلى الرغم من ذلك هناك كثرة طاغية من العرب الذين يملكون ذخيرة هائلة من الأغاني والقصائد(١)، ولكن السابقة ـ للأسف ـ قد دُمّرت دائماً بالأداء اللعين لأصواتهم الفظة المتنافرة.

يقع حول التلال الصغيرة ذات القمم المسطحة عدد من بساتين النخيل المعزولة المسوّرة ومنطقة شاسعة من حقول الحنطة المرصعة بالآبار. وعلى بُعد نصف ميل بعد ذلك في جهة الشمال توجد الكتلة الرئيسة للواحة منفرجة الساقين في مجرى سيل شعيب مصمة، وعبر هذا السيل يُؤتى بالماء من بساتين النخيل الشمالية إلى الجنوبية على طول قناة ترابية ترتفع لحوالي أربعة أقدام فوق قاع الوادي على أعمدة مبنية. وبعد الواحة يمتد الخط المظلم لجبل الفروغ الذي يرتفع إلى أن يصبح رأساً أرضياً بارزاً على بُعد عدة أميال نحو الشمال الغربي.

إن كل الأجزاء الرئيسة للواحة وقليل من البساتين المعزولة القريبة خارجها محاطة بأسوار طينية صلبة ارتفاعها عشرة أقدام تقريباً وتعلوها أبراج. والقرية نفسها تقع في الركن الشمالي الشرقي من الواحة، وهي فاتنة على نحو استثنائي. فعلى المدخل الوحيد للقرية الذي يزيد سورها الدائري المتعرج من جماله ينتصب برجٌ طويلٌ للحراسة، بينما في الداخل تسمو مئذنة المسجد طولاً فوق السور، ويستدق طرفها بشكل رائع. وتتجاور الطوابق العليا من البيوت مع بعضها لتشكل كتلة متماسكة تمتد تحتها الشوارع المغطاة وغرف الطابق الأرضي التي طبقاً للعادة الشائعة على نطاق واسع في الوشم تحتل منزلة دنيا وتكون مخصصة بصورة حصرية تقريباً لمواشي أهل البيت، الأغنام والماعز، عندما تعود للمنزل كل مساء من

---

(١) إن الفنون الشعبية بما يصاحبها من قصائد وأهازيج وأشعار نبطية جديرة بالدراسة، لما تحتوي عليه من معلومات ومعارف سياسية وحضارية مختلفة. وإنني أنادي الأقسام العلمية في بلادنا إلى أن تولي هذا الجانب العلمي والأدبي نوعاً من الاهتمام. (ابن جريس).

المراعي[١]. وهنا يطيب لي أن أذكر ولو لمرة واحدة أن صوف خراف الوشم يتكون من اللونين الأبيض والأسود، ولا يطغى أحدهما على الآخر بشكل ملحوظ.

عندما أنخنا الإبل في الفناء المفتوح داخل البوابة مباشرة فقد سعينا إلى ضيافة الأمير عبد العزيز بن سعد من فخذ سعد من بني تميم، وهو مع فخذ الزامل من القبيلة نفسها يشكلون سكان القرية ومجموعهم (٦٠٠) نسمة. كان الأمير غائباً في بساتينه عندما وصلنا، ولكنه سرعان ما جاء ليرحب بنا، في حين جاء القرويون واحداً تلو الآخر على أصوات دقات المدق والهاون. لم تكن الغرفة ـ في الطابق العلوي بالطبع ـ ذات أبعاد كبيرة، وكانت جدرانها مُليّسة بالجير ومظهرها رمادي مع رسم نمط شبكي باهت. وكان السقف مدعوماً بعمودين ينتهي كل واحد منهما بتاج، في حين كانت مساكن النساء معزولة عن غرفة الضيوف بباب من خشب الأثل وجدار شبكي من الطين فيه فتحات تهوية مثلثة، والتي منها يمكن أن ترى كثيرٌ من العيون وهي تختلس النظر إلى القادمين الجدد من الضيوف. داخل باب غرف النساء، الذي كان مفتوحاً عند وصولنا، تنتصب ستارة طينية ثابتة لتضمن السرية والخصوصية الضرورية لأهل البيت بالداخل. كان تناول القهوة والتمر والبخور بعدهما قد عجّل بانطلاقنا لمواصلة طريقنا، ووجدنا عند وصولنا إلى إبلنا أن احتياجاتها لم تغفل هي الأخرى، فقد كانت سيقان الدخن الخضراء من نصيبها.

وبعد سير لميلين فوق الأرض الصخرية الوعرة وصلنا إلى أرض الفروغ غير المستوية، حيث وجدنا أنفسنا في إحدى زوايا مثلث متساوي الساقين، جانبه الأبعد كان جبل قرين ورأسه نحو الشمال الغربي تقريباً منا. وتقع قاعدة المثلث بين الرأسين القائمين تقريباً على طول قمة المنحدر، بينما عند رأس المثلث تقع واحة

(١) هكذا كان السائد عند عموم سكان القرى في الجزيرة العربية، إنهم يخصصون الأدوار السفلية في منازلهم إذا كانت مكونة من أكثر من طابق لسكن الأغنام وعموم البهائم وتخزين أعلافها. (ابن جريس).

القرائن. ولما نزلنا المنحدر نحو الواحة التزمنا السير عبر القاع الصخري لشعيب محرقة، وبعد أربعة أميال من أرض الفروغ المرتفعة وصلنا الحافة الشمالية لواحة القرائن. وهي تمتد في الوادي باتجاه جنوب شرق لمسافة ميلين تقريباً، ويبلغ متوسط عرضها ربع ميل. وتحتوي الكتلة الرئيسة للواحة ـ في الطرف الشمالي ـ على قريتين صغيرتين على بُعد نصف ميل من بعضهما وهما : الوقف[١] وهي قرية طويلة ضيقة ومتناثرة على الشفة اليسرى من المجرى الصخري لشعيب العنبري دون سور إلا حافة البيوت الممتدة. والثانية، الغُسلة[٢] هي أيضاً مجموعة متناثرة غير مسورة من المساكن وأمامها مساحة كبيرة مفتوحة. وتحتوي هذه القرية الأخيرة بالكاد على ما يزيد عن (٢٠٠) نسمة، معظمهم من أصل العناقر، وشيخهم يدعى عبد الله بن سلوم، في حين كانت الوقف أكبر نسبياً وتضم حوالي (٣٠٠) نسمة، من فخذ الوهبة من بني تميم[٣] يعيشون تحت توجيه عبد الرحمن الصالح. وشوارع هذه القرية مثل شوارع وثيثية، تشبه الجحور تحت الكتلة الصلبة للطوابق العليا، أما مسجدها فهو صرحٌ ضخمٌ مثل قلعة قوية البناء بما فيه من ساحة ذات أعمدة ومئذنة شاهقة.

إنني في الحقيقة لم أزر هذه الواحة إلا بعد بضعة أيام من زيارتي شقراء، التي يفصلها عنها جبلٌ عريض من مرتفعات الصخور الرملية. كانت الغرفة التي استضافنا فيها الأمير لتناول القهوة صغيرة، وكئيبة، ومثيرة للاشمئزاز بسبب الدخان، ولكن كان بها صفة غير اعتيادية، تلك هي وجود سلسلة من النوافذ الصغيرة تفتح على بساتين النخيل خلفها، وكل نافذة منها مجهزة بضُلف خشبية

---

(١) نحو ٥٠٠ × ٥٠ ياردة. (فيلبي).

(٢) الغسلة: ربما يطلق عليها أيضاً (ذات غسل)، انظر: محمد العمار. شقراء، ص ٤٨. (ابن جريس).

(٣) ويوجد كذلك بعض الأسر من سبيع (فيلبي). وللمزيد من التفصيلات عن قبائل بني تميم وسبيع، انظر: الحقيل، كنز، ص ١٣٠، ١٥٥. (ابن جريس).

تلتف عند فتحها على محور بأداة بسيطة ولكنها مبتكرة. وعندما ركبنا راحلين رأيت امرأة شابة من القرية ذات وجه مثل القمر، وخصلات شعر مضفرة وهي تحدق فينا من فوق خلال نافذتها العلوية.

إن جزءاً ما من الواحة مطوق بحزام من السور المتهدم، والبساتين الخارجية في أسفل الوادي باتجاه بطين في معظم أجزائها متناثرة وغير مزدهرة. وبالإضافة إلى النخيل يوجد عدد مقدر من شجر الأثل، وعند طرف القرية كان هناك بئرٌ صافية ذات بناء صخري من غير مونة يحفه الرمل، وأبعاده (١٠ × ٣) ياردة. وبعد حوالي ميل مع اتجاه مجرى التيار من هذه النقطة نحو الشمال الشرقي تقع المجموعة الثانية من مزارع قصور سنيدي حوالي عشرة في مجموعها. وتقع شقراء على بعد ميلين تقريباً من هذه النقطة في أعلى واديها، وعلى مسافة ثلاثة أميال تقريباً من الطرف الغربي لواحة القرائن وراء مرتفع يصل بين قمتين من جبل ذي صخور رملية في اتجاه الشمال الغربي[١].

كان النهار قد انتصف عندما دخلنا راكبين مخيم ابن سعود المتناثر فوق الوادي إلى الشرق من بوابة المدينة الرئيسة، وإقامتنا المؤقتة في شقراء قد دامت لمدة ستة أيام تقريباً، كانت هذه الفترة تمثل أول مرحلة واضحة المعالم في تطور الحملة العسكرية على حائل منذ أن انطلقت نواة جيش ابن سعود من الرياض. وبناءً على ذلك قد يكون من الملائم أن نتوقف عند هذه النقطة من قصتي لنقوم بمسح مختصر للموقف السياسي والعسكري بقدر ما يؤثر ذلك على ابن سعود وخططه المستقبلية.

كان الأفق على كلا جانبي الجزيرة العربية بالفعل غائماً بالسحب الرعدية في بداية أغسطس عندما غادر ابن سعود الرياض ليفي بوعده بشن حملة عسكرية ضد ابن الرشيد، ولقد نالت هذه الحملة التأييد التام والمساندة الفاعلة من الحكومة

(١) لمزيد من الإيضاح عن منطقة شقراء، انظر: محمد العمار، شقراء، ص ١٧ وما بعدها. (ابن جريس).

البـريطانيـة، ليس أمـلاً ـ ربما ـ في تحـقـيق أية نتـائج مـدهشـة منهـا، ولـكن بسـبب رغبتها في تحويل انتباه العاهل الوهابي عن حدوده الغربية والشرقية[١].

من الحدود الغربية كانت تأتي من حين إلى آخر إشاعات سيئة تنذر باستعدادات الشريف للهجوم مجدداً على الخرمة؛ حيث هُزمت قوات الحجاز قبل ذلك مرتين بشكل حاسم[٢]. وفي الشرق يقبع العدو التقليدي، قبيلة العجمان التي تتمركز على حدود العراق والكويت، حيث هربت إلى هناك بحثاً عن ملاذ من غضب ابن سعود.

إن حائل بصفتها حليفاً للأتراك كانت العدو المشترك، ولكنها ليست على وجه التحديد العدو البغيض لابن سعود، الذي كان يأمل ـ وهذه حقيقة ـ في ضمها إلى سلطانه ودولته يوماً ما، ولكنه كان قانعاً بانتظار الفرصة الملائمة. ولقد كان من المشهور عنه أن يفضّل بدلاً عن ذلك السير بحملة ضد العجمان ليثأر لنفسه عن موت أخيه سعد، كما أنهم في الآونة الأخيرة فعلاً قد أثاروا فيه انفجاراً جديداً من الغضب بهجومهم على مخيم سبيع في الأحساء[٣]، وكان يُفضل أيضاً أن يزحف ضد الشريف ليسحق ذرائعه وطموحاته قبل أن تنضج[٤]. وفي كلا الاتجاهين ـ على الرغم من ذلك، كان طريقه مسدوداً من السلطات البريطانية، التي بسبب تحريضها يزحف الآن إلى الشمال، سعياً للتنفيس عن طاقاته وانفعالاته التي طال كبتها.

وكان القائد والحاكم[٥] التركي لعسير ـ الذي لا تزال حاميته ـ وهذا قد يبدو

---

(١) موقف بريطانيا من مسير ابن سعود إلى حائل عام (١٣٣٦هـ/١٩١٨م) كانت إيجابية، وذلك بهدف إشغاله من التوجه نحو الأشراف في الحجاز، أو نحو أجزاء أخرى من الخليج العربي. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن الصراعات بين الأشراف وأهل الخرمة ورنية وتربة، انظر: السبيعي، الخرمة، ص ٢٧ وما بعدها، العثيمين، تاريخ، جـ٢، ص ١٨٣ وما بعدها. (ابن جريس).

(٣) لمزيد من الإيضاح عن الصراعات بين ابن سعود والعجمان، انظر: السعدون، العلاقات بين نجد والكويت، ص ١٨٥ وما بعدها، الخترش، ص ٩٢، جمال زكريا، ص ٥٠، خزعل، جـ٤، ص ١٨٦ وما بعدها. (ابن جريس).

(٤) عن الصراعات بين ابن سعود والشريف في الحجاز، انظر: العثيمين، جـ٢، ص ١٨٢ وما بعدها (ابن جريس).

(٥) محي الدين باشا (فيلبي) وللمزيد عن نفوذ الأتراك في عسير وما حولها، انظر: ابن جريس، صفحات جـ١ + ٢، ص ٩١ - ١٢٠، ٢٣٥ - ٢٧٤.

غريباً ـ صامدة بعد ما يقرب من أربعة سنين من الحرب وتحتفظ حتى باتصالاتها مع القيادة العامة في القسطنطينية، لم يضيع وقتاً طويلاً في محاولة جني فوائد من مشكلة الخرمة، وقد أثيرت قبائل بيشة وتثليث لتهب لنجدة إخوانهم في العقيدة، قبيلة سبيع، وفي هذا الوقت تلقى ابن سعود رسالة حررها بوضوح أحد الكتبة من موظفي الحاكم، ولكنها موقعة أو مختومة من قبل أربعة شيوخ ممثلين لقبائل عسير[١]، كانت الرسالة توضح بجلاء الولاء الأبدي من موقعيها للإمبراطورية العثمانية ـ التي كانت عسير، تحت حكمها تنعم بالهدوء والازدهار[٢]. إن تدمير الإسلام ـ كما قالت الرسالة، كان هدف الحلفاء، وكان من الواجب الصريح على ابن سعود أن يساعد في الدفاع عن العقيدة الصحيحة. ولقد اعتبرت هذه الرسالة ذات أهمية عظيمة مما يوجب تقديمها إلى الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب، الإمام الأكبر، الذي كان ينغمس في بعض النقد الصريح لسياسة ابن سعود. وقال: إما أن يكون البريطانيون ضعفاء وبلا قوة لكبح أهواء الشريف والعجمان أو أنهم يستطيعون ولا يفعلون، وفي الحالتين كان من واجب ابن سعود أن يتخذ إجراءاته الخاصة لمنع انتهاك حدوده. بيد أن ابن سعود كان شديد الحكمة في جيله بحيث إنه لا يمكن أن يركب مخاطر سياسة يتبناها العامة من الناس.

كانت المدينة في ذلك الوقت لا تزال تخضع لحصارٍ متقطع من الأمير علي[٣]، الابن الأكبر للشريف حسين، وكان ابن ذويبي، وهو أحد الشيوخ الكبار في قبيلة حرب، قد جاء مؤخراً من هذه المنطقة ومعه أحدث الأخبار والإشاعات. فقد سمع إطلاق سبع وأربعين طلقة مدفعية لتحية السلطان التركي، محمد رشاد، الذي توفي

(١) ذكر فيلبي في الحاشية أسماء بعض القبائل العسيرية مثل: قحطان وشهران (فيلبي + ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن التقسيمات القبلية لمنطقة عسير التي عاصمتها أبها، انظر: غيثان بن علي بن جريس. أبها حاضرة عسير (دراسة وثائقية) (الرياض: مطابع الفرزدق، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م) ص ١٤ وما بعدها، الحقيل، كنز، ص ٢٦٣ وما بعدها (ابن جريس).

(٣) تولى عرش الحجاز في أكتوبر (١٩٢٤م) عندما تنازل له والده. وتنازل هو نفسه في ديسمبر (١٩٢٥م) عندما استولى ابن سعود على الحجاز. (فيلبي). للمزيد انظر: السباعي، تاريخ مكة، جـ٢ ص ٦٢٤ وما بعدها (ابن جريس).

مؤخراً، وحضر الصلاة التي أقيمت على روحه. وكانت القطارات، كما قال، تسير بصورة منتظمة بين المدينة وتبوك، كما كانت القوات تجد إمداداً جيداً بالمؤن. وعلى الرغم من ذلك أرسل الأمير علي رسالة إلى المهيب فخري باشا يدعوه فيها إلى الاستسلام بضمان المعاملة المحترمة من الملك. وقد تم إملاء الرد في مجلس عام كما يلي: «أيها الرجل المجنون (علي) ألا تعلم أنني موظف في الدولة ولي الشرفُ السامي؟ لماذا إذن يجب عليَّ أن أسلم ما توليت أمانة المسؤولية عنه؟ ولكنك، يا من تدعي أنك من أحفاد الرسول، الذي يوجد قبره تحت ولايتي، لماذا لا تأتي إلينا وتقاتل، واثقاً من قوة أسلافك في مساعدتك؟»[١].

وكان ابن الرشيد، الذي اضطر بصورة عملية إلى قضاء مدة طويلة خلال الصيف مع القوة التركية في الحجر على خط سكك حديد الحجاز، قد عاد الآن إلى حائل، والرسائل التي اعترضناها والموجهة منه إلى الأتراك أظهرت دلائل واضحة على تزايد النفور بين الأتراك وحليفهم العربي الوحيد. وكان الأمير عبدالله[٢]، الذي قيل في ذلك الوقت: إنه كان في العشيرة مع جيش الشريف المتجه إلى تجديد الهجوم على الخرمة، استغل هذا الوضع وأرسل إلى ابن الرشيد عرضاً للسلام والصداقة. وكان ابن سعود قد فسّر بالطبع هذا العمل على أنه يُقصد به العداء تجاهه، وفي نفس يوم مغادرته الرياض كان هذا التفسير قد تأكد بصورة كافية من محتويات الخطابات الموجهة من الأمير عبدالله إلى اثنين من شيوخ عتيبة، وهما ضاوي بن فهيد وهذال بن هذال اللذين قدما الخطابات إلى ابن سعود. وقد أوضحت هذه الخطابات اتفاق السلام بين الشريف وابن الرشيد، واجتماعاً وشيكاً بين الطرفين «لتسوية أوضاع الشمال والجنوب»، وتعيين عبد الله نفسه قائداً لحملة على الخرمة وحشد الأخير جيشه في مران. ولم تخل من تلميحات هجومية على

(١) مثل هذا القول يجب أن لا يستخدم، وبخاصة عند الحديث عن الرسول ﷺ وأهل بيته. (ابن جريس).

(٢) أصبح أميراً على الأردن في أبريل عام (١٩٢١م). (ابن جريس).

ابن سعود، واختتمت بتوجيهات لعتيبة بأن تحتشد حول راية الشريف دون تأخير. ولكي تزداد الأمور سوءاً وصل عملاء عبدالله في القصيم لشراء إبل للحملة العسكرية المتوقع، وسرعان ما صُرفوا عن أداء مهمتهم[١].

كان هذا هو الموقف عند بداية الحملة على حائل، موقفاً عادياً مضطرباً كما قد يبدو لأي مراقب مستقل لا يهتم اهتماماً حيوياً بالأمور الآنية التي ينطوي عليها، بالنسبة لي ـ في موقعي وسط الجزيرة العربية على مسافة مسير لإثني عشر إلى خمسة عشرة يوماً من أي مصدر من مصادر المعلومات الدقيقة ـ والمكلف بمهمة منع ابن سعود من مهاجمة أي من جيرانه تحديداً الشريف، والعجمان والكويت، الذين كانوا في تحالف معنا، وإغرائه بمهاجمة شمر المعادية. كان الموقف خطيراً بما فيه الكفاية؛ فعلى الجانب الشرقي كان شيخ الكويت، المعادي دائماً لابن سعود، والعجمان، ناهيك عن ضاري بن طوالة يتسترون أو يتغاضون عن إمداد المؤن والضروريات الأخرى إلى حائل، التي خرجت منها قافلة مؤخراً إلى دمشق[٢].

وفي الاتجاه نفسه لم يضيع العجمان أي فرصة معقولة للهجوم على إقليم ابن سعود، وفي الغرب كان الأمير عبدالله يتفاوض على معاهدة سلام وصداقة مع ابن الرشيد، بينما إخوانه يواصلون بقوة الحرب ضد حليف الأخير، الأتراك[٣]. وعلاوة

(١) للاطلاع على الصراع بين ابن سعود والشريف حتى تغلب الأول على الأخير، انظر العثيمين، تاريخ، جـ٢، ص ١٨٠ وما بعدها، السباعي، تاريخ مكة، جـ٢، ص ٦٢٢ وما بعدها (ابن جريس).

(٢) فما يظهر أن ابن سعود كان في موقف حرج جداً، لأن هناك أكثر من عدو يتربص به الدوائر. وبريطانيا تدفعه إلى ابن الرشيد في حائل وهو ربما أقل خطورة من الأشراف في الحجاز، والعجمان في شرق الجزيرة العربية. (ابن جريس).

(٣) لمزيد من المعلومات عن الأوضاع السياسية في الجزيرة العربية خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، انظر: فيلبي العربية السعودية، ص ٥١٥ وما بعدها، آر. اي. تشيزمان، ص ٦٥ وما بعدها، العثيمين، تاريخ، جـ٢، ص ٦١ وما بعدها، السعدون، العلاقات بين نجد والكويت، هي ٣٥ وما بعدها، غيثان بن علي بن جريس، عسير في عصر الملك عبدالعزيز (جدة: دار البلاد للطباعة والنشر، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) ص ٢٧ وما بعدها. (ابن جريس).

على ذلك، كان على حد زعمه يتخذ جميع الاستعدادات للهجوم على نجد، والأسلحة والذخيرة المستخدمة لهذا الغرض يوردها البريطانيون[١].

من هذه اللحظة فصاعداً كانت كل رسالة آتية من الساحل تفحص بلهفة بحثاً عن أخبار التطورات الأخيرة، وكان مقياس الضغط (البارومتر) السياسي يتذبذب بعنف من يوم إلى يوم تقريباً؛ فالآن يعطينا بصيصاً من أمل، ومرة أخرى يُغرقنا في أعماق اليأس، وباستثناء الأمير فيصل[٢]، الذي كان منهمكاً بشدة في مواصلة الحرب ضد الأتراك في الشمال، كان أصدقاؤنا وحلفاؤنا العرب، كلهم عن بكرة أبيهم، قد نسوا أنهم ليسوا إلا نماذج صغيرة في لعبة الحرب العظمى، وبدؤوا يتزاحمون بالمناكب ابتغاء مزايا ضئيلة خلال الاضطراب العام في جزيرتهم[٣]. وهم قد بدؤوا يخرجون عن السيطرة، وهنا لم تكن هناك حاجة إلا الشيء اليسير حتى تقع حرب صريحة بين ابن سعود والشريف، ولحسن الحظ تدخلت حكومة صاحب الجلالة في الوقت المناسب بتوجيه تحذير جاد لكل من الشريف وابن سعود بأن بداية أي تحرك يُعد على أنه خرق للسلام بينهما، وسوف يُقابل بقسوة من طرفهم. وكان هذا التحذير مصحوباً بعرض معقول للتوسط، فور أن تضع الحرب العظمى أوزارها، في جميع النقاط محل النزاع بين الطرفين. وقد قبل ابن سعود هذا الإجراء للتدخل بكل حماس، ولم يبق إلا أن يسحب الشريف ولده، عبدالله، بعيداً عن مدى نشوب المخاطر[٤]. وستكون الخطوة الثانية تحديد خط مؤقت للحدود بين

(١) ليس لهذا الغرض بالطبع. (فيلبي).
(٢) ملك سوريا (١٩١٩ - ١٩٢٠م)، والعراق منذ أغسطس (١٩٢١م) (فيلبي).
(٣) فعلاً هكذا كان الوضع السياسي في الجزيرة العربية، ولكن الملك عبدالعزيز كان على درجة عالية من الحنكة والذكاء، بعد توفيق الله عز وجل يوحد كيان دولته بأسلوب دبلوماسي ذكي بارع. (ابن جريس).
(٤) وهذه التهدئة من بريطانيا لكل من ابن سعود والشريف كانت في صالح الأول، حيث حصل على الوقت الكافي لاستكمال مهامه العسكرية السياسية. (ابن جريس).

المنطقتين، واقترحت أن يمتد الخط[١] دون الإخلال بالتسوية التي سوف تُنفذ بعد الحرب شرق مرّان وتربة، ونترك هذين الموقعين وكل شيء غرب الخط للحجاز، والخرمة وكل شيء شرق الخط لابن سعود[٢].

وقد تلقيت هذه الرسالة في معسكرنا بالحش، ولبرهة أشار مقياس الضغط (البارومتر) إلى بدء فترة من استقرار الظروف. وبعد أيام من الصراع مع نفسه كان ابن سعود قد أكد بصورة قاطعة أوامره لحشد قوات في شقراء، وكل يوم من أيام إقامتنا المؤقتة في عاصمة الوشم كان يتميز بوصول أحد العناصر العسكرية أو غيرها من مكان قريب أو بعيد. وفي الوقت نفسه استطاع عملاء استخبارات ابن سعود أن يُبلّغوا عن فشل جهود عبد الله في تجنيد عناصر بدوية للهجوم على الخرمة، وبينما كان الكل مقتنعاً بأن فرص نجاح السلام المقدم لابن الرشيد من المنطقة نفسها قليلة، فقد كان هناك شيء واحد فقط مطلوبٌ لخلق الحماس لشن الحملة العسكرية على حائل، ذلك هو حقيقة أن الشريف كان يضغط كل حواسه ليكسب ابن الرشيد إلى صفه.

وتبعاً لذلك، وفي الخامس عشر من أغسطس، اجتمع ابن سعود مع جيشه المحتشد ليشرح سياسته وخطته للحملة العسكرية. وكان فيصل الدويش[١] ـ قائد فرقة الأرطاوية العسكري ـ يعمل كمتحدث رسمي نيابة عن الفرق العسكرية الوهابية كلها. ونشب جدالٌ علنيٌ على القضية بينه وبين مليكه أمام الجموع المحتشدة. وقال فيصل علانية: إنه لم يحدث أي شيء فيما يتعلق بمساعدة إخوانهم

---

(١) هذا الخط يمثل الموقف الحقيقي لكلا المتنافسين المتنازعين في هذا الوقت، فمثلاً كانت تربة تحت سيطرة الشريف بينما كانت الخرمة في أيدي الوهابيين. (فيلبي).

(٢) كانت مناطق تربة ورثية والخرمة من المناطق الحساسة في الصراعات بين ابن سعود والشريف. للمزيد انظر، السبيعي، الخرمة، ص ٢٧ وما بعدها، العثيمين، تاريخ، جـ٢، ص ١٨٢ وما بعدها. (ابن جريس).

(٣) للاطلاع أكثر عن شخصية فيصل الدويش وقدراته السياسية والعسكرية، انظر: الزركلي. الأعلام، جـ٥، ص ١٦٦ – ١٦٧. (ابن جريس).

في الخرمة المهددين بهجوم آخر من قوات الشريف، كما لم يجر أي شيء لمواجهة أنشطة العجمان في الشرق. وواصل قوله: «كل ما نريده أن يُسمح لنا بالهجوم على أعداء العقيدة، لا تعطنا إلا كلمة وسوف نتبعك حتى الموت ضد الشريف أو العجمان». لقد كان من الواضح أن هناك بعض القلق في عقول الإخوان خشية أن يكون هذا المشروع للحملة العسكرية ضد شمر، وهم وهابيون مثلهم، ليس إلا نتيجة المقايضة مع الكفار، ويهدف إلى خدمة بعض الأهداف السياسية المبهمة التي لا يتعاطفون معها. وكان كل ما يستطيعون رؤيته هو الخطر الذي يهدد إخوانهم من مصادر معروف أنها مدعومة بالنفوذ أو بالأموال البريطانية، وكانوا غاضبين من فكرة أنهم ربما قد يسلموا أنفسهم لخدمة قضية ليست قضيتهم(١).

كانت طريقة ابن سعود في مقارعة حجج أتباعه متميزة، فقال: «انظر أنت يا، أيها الناس أنتم جيشي؛ لأنه ليس لي جيش إلا ربي وأنتم. وفي أيام جاهليتكم، عندما لم تكونوا إلا لصوصاً وقطاع طرق كنتم جيشي، والآن وقد أصبحتم في خدمة الدين واستقر بكم المقام في القرى والهجر فما زلتم جيشي الذي أعتمد عليه. لا تظنون أنني غافل عما هو ضروري، وبالنسبة للشريف لا تفكروا فيه بعد اليوم. إما أن الإنجليز سوف يوقفوه عن مهاجمة الخرمة مرة أخرى أو ـ وأعطيكم عهدي بذلك ـ سوف أسير زاحفاً ضده، ولكن تذكروا أن هذا ليس من شأنكم. كل ما أحتاج إليه هو أن أرسل أحد أفراد أسرتي والجنوب كله سوف يثور ضد الشريف(٢). وبالنسبة لشمر(٣) والعجمان، أنتم لا تدرون ما تتحدثون عنه عندما تقولون أن

(١) كان فيصل الدويش يتكلم أمام سيده بما يخافون منه، وهو الشريف في الحجاز، والعجمان في الشرق. ولكن عبقرية الملك عبدالعزيز جعلته يدرس جميع الأمور، ويسمع لكل الآراء، ثم يتخذ السياسة المناسبة، وهي غزو بلاد شمر، وبخاصة آل رشيد في حائل. (ابن جريس).

(٢) إن الجنوب، وبخاصة أهالي منطقة عسير، كان فيهم أعداد كثيرة سوف يتعاطفون مع ابن سعود، كما كان متوقعاً، لأن أسلافهم كانوا متعاونين متعاطفين مع أجداده خلال الدولتين السعوديتين الأولى والثانية. للمزيد انظر: العثيمين، تاريخ، جـ٢، ص ١٥، ١٧٣ وما بعدها.

(٣) أتباع ضاري بن طوالة الذي كان يساند العجمان (فيلبي).

الإنجليز يدعمونهم. لماذا؟ يقول الإنجليز لي: أنتم حمقى جداً، وهم محقون في ذلك، لأنني عندي الوسائل التي بها أضرب شمر في القلب ومع ذلك أتوانى. على أي أساس سوف يبقى ضاري والعجمان إذا استوليت على حائل؟ إذا استطعت فقط أن أجعل نفسي حاكماً على عاصمة شمر فسوف يترك لي الإنجليز قبائل الصحراء كلها لأحكمها، وسوف لن تكون هناك أي قلاقل أخرى من أولئك الذين يجلسون على حدود أرضنا»[1].

عند ذلك كشف العاهل الوهابي خططه للحملة العسكرية الدائمة ضد ابن الرشيد، وبعدما ألقى أوراقه مكشوفة على الطاولة هكذا دعا كبير علماء الوشم، محمد بن عبدالوهاب، أخ الشيخ عبدالله، والعلماء الآخرين الحاضرين إلى إعلان آرائهم فيمن يكون العدو الحقيقي في الوقت الحالي. وبصوت واحد أكدوا للجموع المحتشدة أنه ليس إلا ابن الرشيد العدو الرئيس، والإخوان كعادتهم عندما يكونون تحت ضغط الانفعالات العاطفية، انكبوا يبكون ويعلنون من بين دموعهم أنهم لو نالوا ثقة سيدهم قبل هذه اللحظة لجاؤوا جميعاً على قلب رجل واحد دون أي تردد.

عند هذه النقطة كان ابن سعود، بعدما رضي تماماً عن نجاح خطبته، قد أنهى هذه المشاورات بتعليمات محددة لتوجيه أتباعه. وكانت خطته للحملة العسكرية قد نضجت الآن، وسوف ينطلق في الحقيقة إلى حائل من القصيم في اليوم الخامس من ذي الحجة، أي بعد قضاء شهر كامل تقريباً هناك. ثم قال لهم: «اذهبوا الآن، كل رجل إلى بيته، واستعدوا للحرب، وبعد أن ترتبوا شؤون بيوتكم إلحقوني في بريدة

(١) ما يذكر الملك عبدالعزيز هو استقراء لمستقبله السياسي، لأن هذا بالفعل ما حصل، فبعد أن سيطر على بلاد حائل استطاع أن يوحد البلاد السعودية تحت راية واحدة، هي المملكة العربية السعودية. انظر: العثيمين، تاريخ، ص ٨١ وما بعدها، إيف بيسون. ابن سعود ملك الصحراء (الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ص ١٩ وما بعدها، سيف الدين حسين شاهين. لمحات تاريخية عن توحيد المملكة العربية السعودية، (الرياض: دار الشبل، د.ت)، ص ٤٣ وما بعدها. (ابن جريس).

في الشهر الجديد، والله، برحمته، سوف يهبنا النصر. ولكن أذكركم بأنني لا أريد رداً فاتراً على دعوتي، فلترسل كل قرية وهجرة نصيبها كاملاً مستعداً لنضال طويل وشاق[١]. سوف أقدم لكم الطعام والسلاح، وإن شاء الله سوف نرهق ابن الرشيد وأهله بغارات متكررة إلى أن يسلموا معقلهم»[٢].

وهكذا اختفت عناصر الإخوان العسكرية على مدى الأيام القليلة التالية. كان من المقرر في الأصل أن تبدأ الحملة في اليوم الأول من رمضان أو ما يزيد عن شهرين ماضيين، والآن تأجلت لشهر آخر. ولقد أصابني الإحباط وخيبة الأمل من هذه النتيجة، بما أني اعتدت تماماً على طرق المراوغة عند العرب فقد أخفيت همي بتقديم التهاني لابن سعود على معالجته الذكية لموقف صعب. وقد تشبثت بصورة عنيدة بثقتي في ابن سعود وبقناعتي بأنه في الوقت المناسب سوف يتحرك، ولكني خشيت من أن شيئاً ما قد يحدث خلال الشهر القادم يؤدي إلى مزيد من التأجيل لهذا الميعاد؛ ففي أي لحظة قد يقوم عبدالله بضرب الخرمة.

وفي غضون ذلك، وأثناء وجودي في شقراء، أتيحت لي فرص كثيرة لأدرك أنه، مهما قد يقال عن الحملة العسكرية المقترحة ضد حائل على أساس السياسة العليا، فقد كان الشريف ومزاعمه هي التي تشغل بال الطبقات العليا[٣]. ومن الضروري أن نتذكر أنه في القطاعات الأكثر تقدماً في مجتمع الجزيرة العربية، في القصيم والوشم والأحساء، كان لا يزال يترسب في أعماق قلوب الرجال شعور بالتماثل والتجانس مع الأتراك من الناحية الدينية، ومن ناحية دورهم كحماة لعقيدة

---

(١) يقصد بذلك مشاركة القبائل في الحرب، فكل قبيلة عليها دفع قدر معين من الرجال والمال للمشاركة في الحملة العسكرية التي سوف تذهب إلى حائل. وهذه طريقة كانت سائدة أثناء الحروب قديماً. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من المعلومات عن حروب ابن سعود مع ابن رشيد، انظر: العثيمين، تاريخ، جـ١ ص، ص ٥٧ وما بعدها، إيف بيسون، ابن سعود، ص ١٨٥ وما بعدها. (ابن جريس).

(٣) وذلك بسبب أطماعه السياسية، وخيانته في التحالف مع الإنجليز ضد الأتراك. (ابن جريس).

المسلمين؛ فالتجار من المناطق المذكورة، وهم وهابيون صادقون بلا رياء أو تكلف، كانوا على اتصال شديد بالعالم بحيث أنهم لا يقيمون وزناً للتعصب الأعمى والمتصلب ولا يقدرونه، وفي الأتراك وجدوا ملاذاً كافياً وافياً لفخرهم الشرقي بخشونة الحياة التجارية وسط عالم غربي مهيمن؛ فالأتراك قوة عظيمة وراسخة تعتنق نفس العقيدة مثلهم دون أن تجبر رعاياها على التزمت والقسوة في السلوك المفروض عليها بالظروف السائدة في وطنها، وقد يندمون على زوال الأتراك، ويندمون على نشاط المسلمين الموجّه نحو هذه الغاية[1]، إن قلوبهم تلعن الشريف بصفته خائناً للقضية العامة للشرق، ولكن لأن ابن سعود كان بصراحة من الرأي نفسه، دون، على أي حال، أي ترجيح على مساهمته بشكل مادي في سقوط الأتراك، كانت ألسنتهم ترفض مطالب الملك حسين بحكم الجزيرة العربية. ولقد كانت ازدواجية آرائهم هذه طبيعية وشفافة، تماماً في ظل الظروف السائدة، فلم يُقصد منها الخداع أبداً.

في أول صباح من إقامتي المؤقتة في شقراء استيقظت ليقال لي: إن ابن سعود قد انطلق من المخيم في جولة من الزيارات لأعيان المدينة، وترك أمراً بوجوب لحاقي به على مهلي إذا رغبت في ذلك، كان المخيم، المكون من حوالي أربعين أو خمسين خيمة، ينتشر في الوادي على مسافة حوالي ربع ميل شرق البوابة الرئيسة للمدينة. وتبعاً لذلك مشيت متمهلاً عبر المساحة الرملية المعترضة من خلال مقبرة كانت قبورها على عكس الطريقة الوهابية، بنصب شواهد على رأس وقدم الميت، من ألواح الصخر الرملي الخشن ارتفاعها نحو قدمين[2]. وقيل لي: إن هذه المقبرة لم

---

(١) في الحقيقة إن الغرب كان أسوأ في هيمنته على الشرق. والعثمانيون، وبخاصة في عصورهم المتأخرة، لم يكونوا على قدر جيد من تحمل المسؤولية والدفاع عن الدين والعقيدة كما فعل أسلافهم الأوائل. (ابن جريس).

(٢) ليست الطريقة الوهابية، كما يذكر فيلبي، ولكن منهج الدين القويم هو الذي يحرم ويحارب تشييد القبور والأضرحة فوق الأرض، ثم استخدامها موطن للتبرك والبدع والخرافات (ابن جريس).

تعد مستخدمة وتعود إلى فترة ما قبل ميلاد الدين الجديد، ولكن داخل البوابة مباشرة في فضاء مفتوح كبير والذي كان جانبه البعيد محدد بنصف دائرة من البيوت المأهولة لاحظت مقبرة أخرى من النوع نفسه، وتوصلت إلى نتيجة نهائية وهي أنه في جميع الاحتمالات لم تصل شقراء بعد إلى غلو التعصب الشديد السائد في الأقاليم الجنوبية(١).

عند مرورنا بأكواخ من سعف النخيل الصلب التي يسكنها رعاة الإبل المستأجرون، قام رفيقي إبراهيم الجنيفي بإلقاء التحية على أحد الأعيان المحليين الذي تصادف وجوده هناك في عمل أو لقضاء وقت الفراغ وعرّفني عليه. وكان هذا رجلٌ يدعى عبد الرحمن بن سليمان الجماز الشويمي، الذي اصطحبنا دونما أي مقدمات أخرى من خلال الشارع الرئيس، الذي كانت بيوته مزينة بعتبات عليا وسفلى من الحجر الرملي، ثم من خلال شارع جانبي إلى بيته. وكان مجلس القهوة، الذي انتظرنا فيه أخباراً عن المكان الذي يوجد فيه ابن سعود تحديداً؛ لأنه طبقاً للعادة كان عليه أن يقضي الصباح في الانتقال من منزل إلى منزل ليحيّي رعاياه الأوفياء، مفروشاً بصورة مريحة بالسجاد والوسائد الفخمة، وكان موقد القهوة من الإسمنت ومجهزاً بما يصاحبه في العادة من دِلال وآنية تشغل أحد أركان الغرفة(٢) التي كانت جدرانها مكسوةٌ بلياسة من الجبس الأبيض الناصع، ومزخرفة بصورة كثيفة بدوائر ومثلثات وأشكال أخرى متماثلة. وكانت هناك عدة فتحات، مزودة بأقفال خشبية مزخرفة، تؤدي من أحد جوانب المجلس إلى ما يشبه حديقة السقف أو مجلس قهوة في الهواء الطلق مخصص على ما يبدو بوضوح للاستخدام خلال الأمسيات الطويلة في شهر رمضان بفصل الصيف، عندما يجتمع مضيفنا ويلتقي

---

(١) الأقاليم الجنوبية كانت لا تخلو من الأضرحة والقبور المبنية فوق سطح الأرض، ولكن ربما كانت أقل مما شاهد فيلبي في وسط وشمال وشرق الجزيرة العربية. (ابن جريس).

(٢) هذه من العادات الاجتماعية التي كانت موجودة غالباً في بيوت الأعيان والوجهاء في أنحاء البلاد. (ابن جريس).

مع أصدقائه، بعدما يخففوا من قسوة الصوم بالنوم؛ وبذلك يحتالوا على ساعات الظلام بحديث مطول مفكك غير ذي هدف مع أقداح القهوة[١].

انقطعت تأملاتي في الغرفة بدخول رجل حسن الهيئة، والذي كانت ثيابه الجميلة ـ لاسيما العقال ـ ذو الخيوط الذهبية، على رأسه، توحي بأنه ربما كان أحد أفراد الأسرة المالكة. ولم أكتشف إلا فيما بعد أنه حاكم منطقة شقراء[٢]، ويسمى محمد بن سعود، على الرغم من أنه لا يتصل بأي شكل من الأشكال بعائلة آل سعود، لأنه أحد أفراد فرع العيسى من بني زيد من قبيلة تميم.[٣] لقد كان هذا الرجل ودوداً بصورة غير عادية حيث سألني: «ألست أنت الذي ذهب من الرياض العام الماضي إلى الشريف؟» وكان ردي بالإيجاب قد أثاره حتى نطق بكلام صريح قائلاً: «كيف يستطيع الشريف أن يسمي نفسه ملك العرب؟» ألم يأت شكسبير إلى نجد ورأى شقراء وكل هذه المناطق؟ ألم يفعل هاميلتون الشيء نفسه؟ والآن تأتي أنت إلى هنا. ألا يدرك الإنجليز أن هذه بلاد العرب وأن حاكمهم هو ابن سعود؟ لماذا؟ في بداية ثورته، أرسل الشريف لي عدة رسائل، وهي التي سلمتها لابن سعود بكل بساطة»[٤]. وتحدثنا كثيراً عن التجارة في شقراء. ولقد عبرّت عن دهشتي من حقيقة أن القوافل المحملة بالبضائع باتجاه الرياض تضطر إلى السير في دائرة طويلة جداً عن طريق شقراء عند قدومها من الكويت. وقد شرح لي أن ذلك من بقايا عصر ما قبل الحرب، عندما أصبح طريق التجارة الطبيعي من البحرين عن طريق الأحساء إلى الرياض غير آمن

---

(١) لمزيد من الإيضاح عن بعض العادات والتقاليد والأحوال الاجتماعية في شقراء انظر: العمار، شقراء، ص ٩٣ - ١٣٣. (ابن جريس).

(٢) كان من أمراء شقراء منذ أوائل القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي عبدالعزيز البواردي، ثم إبنه عبدالله، ثم حجرف بن محمد البواردي عام (١٣٢٠هـ/١٩٠٢م)، ثم محمد بن شريم، ثم عبدالرحمن البواردي، ثم محمد بن سعد البواردي، وغيرهم. للمزيد انظر: العمار، شقراء، ص ١٤٩. (ابن جريس).

(٣) لمزيد من التفصيلات عن قبيلة تميم، فروعها، موطنها، انظر: الحقيل، كنز، ص ١٥٥ - ١٦٧. (ابن جريس).

(٤) نستدل من هذا الحديث أن حاكم شقراء، محمد بن سعود، أيام مرور فيلبي بها كان متعاطفاً بشدة مع الملك عبدالعزيز ولم يكن لديه أي ميول أو تعاطف للشريف في الحجاز. (ابن جريس).

بسبب الاحتلال التركي للمنطقة الشرقية، ولذلك كان التجار يفضلون الغوص مباشرة في الصحراء من الكويت، وأصبحت شقراء مركز توزيع هاماً للجنوب. وكان لكبار تجارها وكلاء أو فروع في كل أنحاء البلاد، في الأحساء، والدوادمي الشعراء وأماكن أخرى. وكان ابن سعود يأمل في إعادة التجارة في الوقت المناسب إلى طريق البحرين الأقصر والأكثر ملاءمة، بيد أنه كان شديد الانشغال بأمور أخرى منذ اندلاع الحرب، فلم يفعل أي شيء في هذا الصدد[١].

كان الجنيفي، الذي ذهب يبحث عن ابن سعود في الخارج، قد عاد الآن ليستدعينا إلى بيت شخص يدعى عبدالله السبيعي[٢]، وهو جابي الزكاة المحلي. وكان مجلس القهوة في بيته، حيث وجدنا ابن سعود مع جمع غفير، يختلف اختلافاً طفيفاً عن الذي وصفته آنفاً، إلا أن تصميم ألوان الجدران كان لونه رمادياً داكناً بدلاً من الأبيض، بينما الزخرفة أقل إتقاناً وتتكون من سلسلة من الأفاريز المفصولة عن بعضها بأحزمة خالية من الزينة.

كانت الدوائر والمثلثات اللانهائية تضفي حركة على الأفاريز. وبالمجلس عمود داعم للسقف بسيط مليّس بالجبس مع تاج خال من الرسومات وشريط أضيق من التصميم الزخرفي، ويوجد في السقف مقابل موقد النار فتحة تفتح بحبل وبكرة يمر من خلالها الدخان وتقفل عند هطول المطر. وفي الجزء الأعلى من الجدران يوجد عدد من الفتحات مزودة بمصاريع، ويبدو أن الهدف منها التهوية أو العكس. ويبدو لي أن بيوت شقراء في معظمها توفر كثيراً من الضوء والهواء مقارنة ببيوت الرياض[٣].

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن الحياة الحضارية في شقراء وعلاقتها بما حولها، انظر: العمار، شقراء، ص ٧٩ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) من قبيلة سبيع كما يشير اسمه إلى ذلك (فيلبي).

(٣) لمزيد من الإيضاح عن أنواع الأبنية مثل البيوت ومرافقها في شقراء، انظر: العمار، شقراء، ص ٩٣، ١٢٥ – ١٣٠. (ابن جريس).

كان فيصل بن الدويش، الزعيم المهيب للإخوان من الأرطاوية، والذي رأيته الآن لأول مرة منذ أن تعرفت عليه في ديسمبر الماضي، من بين الجماعة، كما كان هناك أيضاً فيصل بن حشر، الذي بدا ـ على كل حال ـ ولسبب ما في خزي إذ تعرض مرة أو مرتين للتوبيخ بحدة من ابن سعود، الذي بدا هو نفسه من جميع الأشكال يعاني من نوبة من أمراض الكبد أو الطحال.

ومن الموجودين أيضاً سعود العرافة وفيصل بن الرشيد وأفراد آخرون من الأسرة الحاكمة، منهم أخو ابن سعود، سعود.

كان الجو في شقراء، الذي بدا لي أنه منشض أكثر من جو الرياض، قد تعرض لبعض ملاحظات ابن سعود اللاذعة، الذي يعاني من متاعب معدته على الأرجح بسبب الماء المحلي، وهو بالرغم من أنه نقي وحلو الطعم، إلا أنه يشتهر ببعض الخواص المزعجة. على كل فإن مستوى الماء في آبار شقراء عموماً هو عشر قامات في المتوسط. وذلك أفضل من الوشم، على الرغم من أنه أقل بكثير من ماء الحسي في العاصمة الوهابية. لقد كان الطقس في الحقيقة في هذه الفترة غير سار بالمرة، فالرياح متقلبة، وهناك هبات قصيرة من الأعاصير اللولبية، والعواصف الترابية، والسماوات الغائمة، ودرجات الحرارة يصل أعلاها إلى (١١٠) فهرنهايت لأيام عديدة. هكذا كان حظنا وقدرنا، وفي الرابع عشر من أغسطس جاءت محاولة متقطعة في الحقيقة لهطول المطر، وهو أول مطر منذ السادس من مايو، وبدا لي أننا ربما كنا نتعرض للحد الأقصى من الرياح الموسمية. هذا الفصل، الذي يُتوقع خلاله عادة أن يسقط بعض المطر، يُعرف باسم الخريف[١] والأسوأ من كل ذلك، أنه

(١) طبقاً للحسابات المحلية كنا قد دخلنا لتونا أو على وشك الدخول في فترة سهيل، وهو نجم يظهر عند الفجر، والذي يعتبر في الحقيقة آخر فترة من فترات الصيف أو ربما يُدرج في الصفري التي يعتبر أحياناً مطابقاً للخريف. (فيلبي).. للمزيد عن مناخ شقراء انظر: العمار شقراء ص ٢١ - ٢٤، وللاطلاع على مواسم الأمطار عند العرب، انظر: ابن قتيبة، كتاب الأنواء، ص ١٨ وما بعدها. (ابن جريس).

في آخر النهار والصباح الباكر نادراً ما تهبط درجة الحرارة عن (٨٠) درجة، وفي مناسبات عديدة كانت قياسات درجة الحرارة أكثر من (٩٠) درجة[١].

في اليوم التالي عقد ابن سعود مجلسه في بيت السبيعي، وتحول النقاش إلى موضوع الساعة الملتهب، وهو الشريف. قال سعود العرافة: (منطلق خطير لواحد له حق المطالبة بالعرش الوهابي على أساس الوراثة بصورة غير قابلة للنزاع تماماً على الأقل مثل رأيه هذا)[٢]، إن أحقية حسين بعرش الحجاز، وهو من عشيرة العبادلة التي تدين بوضعها الحالي للأتراك أقل من أقاربه من عشيرة ذوي زيد أحفاد عبدالمطلب، وبالتالي الفرع الرئيس من عترة النبي ﷺ. وأكد أيضاً أن الأشراف ونسبة لاختلاط دمهم بكثرة عن طريق أمهاتهم الزنجيات والشركسيات والتركيات وأخريات غيرهن، لا يمكن أن يكونوا عرباً أقحاح مثل أهل نجد. كيف إذن يستطيع حسين أن يدعي أنه ملك العرب أو كيف يمكن أن نسانده؟[٣].

لقد تحدث مطولاً وبكثير من الحماسة والهياج، ولكن فيما يبدو أن مناقشاته لا تؤدي إلى شيء، وكل ما استطعت أن أفعله كان أن شرحت لهم أن البريطانيين - على الرغم من أنهم غير مسؤولين أبداً عما يدعيه الشريف من لقب «ملك العرب» - إلا أنهم عاجزون عن منعه من تسمية نفسه بما يحب. وواصلت قولي بأن اعترافنا بمنصبه ملكاً على الحجاز يعود إلى حقيقة أنه عندما أعلن سلطان تركيا الجهاد ضدنا ونادى به، كنا مضطرين لإرضاء الملايين من رعايانا المسلمين

(١) للمزيد عن مناخ وتضاريس شقراء، انظر: العمار. شقراء، ص ٢١ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) ما بين الأقواس جملة اعتراضية، ولو حذفت لن تؤثر على المعنى. (ابن جريس).

(٣) يتضح أن أهل نجد كانوا يرفضون دعوة الشريف حسين بن علي ليكون ملكاً على العرب. فكانوا يرونه غير مؤهل لذلك لوجود من هو أفضل منه. ثم إن دماء الأشراف خالطتها دماء أخرى بسبب زواج بعضهم من نساء غير عربيات. (ابن جريس).

الهنود أن نعثر على زعيم مسلم معترف به ليرفع راية الثورة لصالحنا ضد الأتراك[١].

هنا تدخل ابن سعود في النقاش وقال: إنه لا يشتهي أي لقب ولا أي إقليم خارج حدود حق مولده في نجد. وبالنسبة لمكة فليس لديه رغبة مهما كانت في أن يصبح حاكمها، وكل ما يهمه فيها هو بيت الله، وما يلزمه بصفته مسلماً ورعاً هو أن يحج إليه مرة واحدة في حياته لمدة عشرة أيام على أقصى تقدير. والحصون والقصور، التي شيّدها أسلافه في مكة والمدينة والطائف، تذكره فقط بعهد من التاريخ القديم لنجد، وليس عنده رغبة في إعادة احتلالها[٢].

ثم تحوّل فجأة إلى موضوع آخر، وهو مصدر واضح من مصادر القلق والاضطراب لكثير من أهله، أي تحالفه مع البريطانيين. وقال: «لماذا ؟، لأنهم على غير ملتنا، هذا حق، ولكنهم من أهل الكتاب وبالتالي يستحقون التسامح. على أي حال فإن الالتزام بالجهاد مشروط بالقدرة على تنفيذه، وهذه من الله». لقد أدرك بصورة كاملة عجزه عن تنفيذ أي مغامرة مثل هذه إلى أن يحقق النجاح، وبالتالي اعتبر نفسه معفياً من الله من محاولة التزامه. وعلى العكس من ذلك كان يسعى بنفسه وبصورة متكررة لطلب المساعدة من البريطانيين ضد العدو الحقيقي للدين الحق، أي الأتراك، وكنا نرفض طلبه دائماً إلى أن أصبحنا نحن أنفسنا في حاجة إلى مساعدته. كان هذا العرض لآرائه ووجهات نظره في حضور أعيان شقراء وزعماء الإخوان مثل: ابن الدويش وابن حشر مفيداً ومقنعاً[٣]. فقد مهد الطريق لتنفيذ الحملة العسكرية ضد حائل، وفوق كل هذا وذاك بث شعوراً عاماً أفضل

(١) يفهم من تفسيرات فيلبي أن بريطانيا لا يهمها اللقب الذي يسعى له الشريف حسين بن علي، ولكن المهم هو كيف ترعى مصالحها وتكون الجولة في صالحها ضد أعدائها. (ابن جريس).

(٢) كلام الملك عبدالعزيز يدل على حنكته ودهائه السياسي، فهو لا يتطلع إلى أمور خيالية، وإنما تخطيطه كان في نطاق إمكاناته وواقعه المعاصر آنذاك. (ابن جريس).

(٣) يظهر من شروحات الملك عبدالعزيز ونقاشاته مع الآخرين في هذه الفقرة دبلوماسيته في التعامل مع الأمور، وعدم إلقائه الكلام على علاته دون أن يحسب لكل ما يقول حساباً. (ابن جريس).

تجاهي أنا شخصياً بصفتي ممثلاً لبريطانيا العظمى، التي كان دافعها في الضغط لشن هجوم على ابن الرشيد محل شك وتخمين دائم.

وهكذا، على الرغم من الخوف المستمر من أن أي يوم قد يأتي بأخبار عن تجدد هجمات الشريف على الخرمة[١]، إلا أن أيام إقامتي المؤقتة في شقراء قد مرت بسرور كاف. وكانت رحلتي الوحيدة في المنطقة المحيطة بها إلى القرائن التي وصفتها من قبل. ومع هذا كنت، على كل حال، مشغولاً تماماً بالتعرف بشكل كامل على تفاصيل مدينة وواحة شقراء[٢]، ونادراً ما كان يتاح لي وقت، حتى إنني كنت أضن على إبلنا بالتمتع في مراعي النفود المجاورة لنا[٣]، والتي كانت تعود منها كل يومين للسقيا. وفي مثل هذا الفصل كان يومان يبدوان كافيين تقريباً للإبل وتستطيع تحملهما بشكل مريح بلا ماء. والإبل التي تترك لترعى في المراعي تسمى عازب بينما تلك التي في المراعي الربيعية تسمى جازي[٤]، أي أنها في الجزو.

في أحد الليالي أثار فضولي سماع نداء جهوري في المخيم، وهي ظاهرة ترتبط في ذهني بالمخاطر الموجودة في المخيمات المنعزلة في الفيافي والجبال. وبدا لي من الغريب أن يحدث مثل هذا الشيء وسط الأمن الوافر في خيام ابن سعود، بيد أن الشائعات قد انتشرت في الخارج عن توقع حملة هجومية من ابن الرشيد، واعتقدت أنه ربما صدر أمرٌ بالتنبيه والتحذير. على كل حال، أدت الاستفسارات إلى استخراج معلومات مفادها أن أحد البدو، انتهز تجمع عناصر الإخوان العسكرية من كل حدب

(١) حرب الشريف علي أهل الخرمة كانت من الأمور المزعجة للملك عبدالعزيز. ويرى أن الشريف أشد خطراً عليه من ابن الرشيد في حائل. ولكن ذهابه إلى الشمال كان حسب الوعود التي قطعها على نفسه مع بريطانيا من أجل حل مشكلته مع الشريف في الحجاز، والعجمان في الرق. لمزيد من الاطلاع، انظر: إيف بيسون، ابن سعود، ص ٦٩ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن بلدة شقراء، انظر: العمار. شقراء، ص ٨١ وما بعدها. (ابن جريس).

(٣) نفود القنيفذة حيث يوجد بكثرة حشائش النصي المفضلة. (فيلبي).

(٤) استعمل دواتي كلمة (جازين) للإبل في مراعي الربيع، ولكني لم أجد تأكيداً لذلك، ربما كان يقصد جازي. (فيلبي).

وصوب، كان يعلن فقط عن جائزة مقدارها ثلاثون دولاراً لأي شخص قد يعطيه معلومات تؤدي إلى استرداد ثلاثة من الإبل سُرقت منه أو ضلت طريقها خلال العام الماضي. وكانت خيامي تقع غير بعيد عن «المضيف» أي خيمة الضيوف الرحبة المصنوعة من الشعر الأسود. والمضيف مع عدة خيام أخرى قربها كانت تؤوي زعماء المجموعات العسكرية المختلفة من الإخوان ومن يخدمهم. لقد كانت هذه المجموعات من الأرطاوية، ومبايض والداهنة والفريثان والغطغط وباقي المناطق. وكانت الغترة البيضاء للإخوان الأكثر وضوحاً خلال هذه الأيام، وبقدر ما كنت أستطيع أن أصل إلى تقدير تجمع العشائر فإنه لابد قد وصل إلى ما يقارب ستمائة رجل مسلح. وواحد من الأمور غير المريحة لي هو قرب مكاني من عناصر الإخوان العسكرية وما يصدره تدريبهم على الرماية من إزعاج يقض مضجعي ويشتت ذهني.

فبمناسبة وغير مناسبة، ومع مراعاة الاقتصاد في الذخيرة والالتزام به كان الإخوان يقومون بالتدرب على الرماية بالبنادق في جرف خلف خيمتي وعلى بُعد مائة ياردة منها. وقد كان ابن سعود يرفض إهدار الذخيرة لأنها سلعة غالية، واعتقدت أن في الميدان الذي يبلغ حوالي ثمانمائة ياردة قد لا يكون من المستبعد أن تجد طلقة عرضية طريقها إلى خيمتي بدلاً من الجرف. في ظل هذه الظروف رفعت احتجاجاً ضد هذا التمرين مهما كانت ضرورته ما دمت موجوداً في خيمتي. وتوقف التدريب مع خطوات اعتراضية كان الهدف منها بلا شك مضايقتي، ولم ينته تماماً إلا بعد أن تدخّل حاجب الملك بتأثير أكبر حتى تم اختيار ميدان رماية آخر أكثر ملاءمة. كانت البنادق الحديثة والذخيرة غزيرة بدرجة كافية في هذه الأيام، ولكن ابن سعود لم يغض طرفه عن ضرورة فرض نوع من السيطرة على التجارة في سلعة قد تشكل في يوم من الأيام خطراً على الدولة.

إن الإسراف في توريد الذخيرة إلى قوات الأشراف من السلطات البريطانية وتهور علي وعبدالله في توزيعها على كل من هب ودب قد أديا بحلول هذا الوقت إلى

نشوء تجارة رائجة في البنادق والذخيرة بوسط الجزيرة العربية كله. وقام شيوخ قبائل حرب ومطير وعتيبة بجمع رجال عشائرهم وإبلهم وتوجهوا للأشراف أملاً في اقتسام سخاء الأمراء الأشراف، الذين أقسموا لهم بالولاء الأبدي. بيد أنهم بمجرد أن يستلموا عدداً مناسباً من البنادق وصناديق الذخيرة، ناهيك عن أكياس الذهب، إلا ويحملونها على أنعامهم ويعودون بها إلى مراعيهم، ولا يشاركون في العمليات التي يقوم بها راعيهم ما عدا أنهم يعودون مرة ثانية أو حتى ثالثة ليسدوا النقص في مخزون الذخيرة التي نفدت بسبب مبيعات أسواق نجد. وكان المبدأ الذي تبناه ابن سعود هو أنه بالرغم من أنه في صالحه بشكل عام أن يحصل كل رجل قادر على حمل السلاح سلاحاً صالحاً للخدمة، إلا أنه من مصلحته توريد البنادق.

وبناءً على ذلك لم يبذل أي محاولة للسيطرة على تداولها، ولكن الذخيرة تظل موضوعاً مختلفاً، فشن الغارات داخل أراضيه أو دون موافقته كان ممنوعاً، ويعتبر من واجب الدولة أن توفر الذخيرة للعمليات التي تنفذ بموافقتها أو بأمرها، وفي الوقت نفسه كان يدرك تماماً الحاجة الماسة إلى ضبط الإمدادات الأهلية من الذخيرة عند أدنى حد؛ ولذلك كان موظفوه في نجد كلها لديهم أوامر وحرية تصرف تامة لشراء كافة هذه الإمدادات فوراً عند وصولها إلى مناطقهم وبأسعار ثابتة معقولة[١].

وعلى الرغم من حتمية وجود حالات تهريب وتصرف شخصي في مثل هذه السلع بأسعار باهظة، إلا أن كمية الذخيرة المشتراة بهذه الطريقة على نفقة الدولة أصبحت مذهلة؛ ففي أحد الأيام، وأثناء جلوسي مع ابن سعود نناقش الأمور في الخيمة العظيمة ذات العمود الواحد من طراز كونبور، التي تلقاها على سبيل الهدية من ضاري ابن طواله، الذي أعطي إياها السلطات البريطانية في البصرة، جاء أمين

(١) سياسة الملك عبدالعزيز في ضبط الأسلحة والذخيرة واستخدامها بطريقة منظمة مدروسة، مما ساعد على ضبط الأمن والقضاء على الفوضى في البلاد. (ابن جريس).

الخزينة محمد بن شلهوب، ومعه عدد من أحزمة ذخيرة الرشاشات التركية لكي يفحصها سيده ويوافق عليها، والتي كانت جزءاً من مستودع اشتراه تاجر كويتي في الحجاز. وبعد فترة، وخلال إقامة مؤقتة في القصيم، كان نحو ستمائة ألف طلقة من طراز (.S.A.A) قد تم شراؤها بالطريقة نفسها، ويعتقد ابن سعود بنفسه أن عدد البنادق التي دخلت أراضيه من الحجاز والتي تم التصرف فيها بصورة شخصية يتراوح بين سبعمائة وثمانمائة. أما سعر الذخيرة فقد تمت المحافظة على بقائه منخفضاً بشكل فعال عند مستوى معقول بإجراءات صارمة جرى اتخاذها لمنع تصديرها من نجد إلى أسواق الخليج.

بالإضافة إلى خيمة الاستقبال الخاصة بابن سعود فإن المخيم يتكون في معظمه من خيام بيضاء على هيئة الجرس أو خيام هندية صغيرة ذات أشكال متباينة. وكانت خيمة الضيوف الكبيرة، التي يؤخذ إليها الشيوخ والأعيان الآخرون عند وصولهم ـ كما ذكرت من قبل ـ خيمة بدوية عظمية من الشعر الأسود (مثل هيكل متنقل عند اليهود)، والتي أمامها زُرع علم الدين الحق الملفوف، وتعلوه كرة معدنية لامعة ومسمار كبير. كانت وجبات أعيان الضيوف تقدم في خيمة بيضاء منفصلة من مطبخ مختلف عن الذي تجهز فيه الوجبات لابن سعود ولي. ولقد كان الطعام بسيطاً دائماً، من الأرز واللحم والشوربة أو المرق، ولكنه ذو جودة عالية، وبالإضافة لحاشيتي كان الزوار أحياناً يأتون لمشاركتي في الطعام. ومن بين الذين كنت أرحب بهم ترحيباً شديداً جابر المري[١]، فقد كان شيطانياً كما العهد به دائماً، ولم يكن بالسيئ في بعض الرحلات الشاقة خلال الاثني عشر يوماً الماضية التي قضاها في خدمة سيده[٢].

---

(١) لقد توفي لأسفي الشديد أثناء وباء الإنفلونزا في ديسمبر (١٩١٨م). فيلبي وكانت الإنفلونزا، والجدري، والطاعون والجوع من الأمراض التي تقضي على الناس قديماً وبأعداد هائلة. (ابن جريس).

(٢) ذهب من الرياض إلى الهفوف وعاد إليها ليغادر إلى شقراء (فيلبي).

والآخر كان منصور بن رميح من بريدة، وهو واحد من ثلاثة إخوة لعبوا دوراً هاماً في تجارة الإبل بين الجزيرة العربية والمناطق المتاخمة لها، وكانوا في ذلك الوقت منهمكين بشدة في شراء حيوانات النقل لجيوش الأشراف[١]. بالإضافة إلى مثل هؤلاء الزوار الذين يأتون بين الحين والآخر كانت مجموعتي الصغيرة قد أصبحت بشكل أو بآخر كبيرة دائماً بانضمام ثلاثة هنود ـ الذين عند وصولهم إلى الرياض في رحلتهم الطويلة والموحشة للحج بمكة ـ قد انتهزوا زحف ابن سعود ورافقوه نحو الشمال على أمل العثور في القصيم على جماعة متجهة إلى الحجاز، والتي يمكن أن ينضموا إليها على أمل الحصول على طعام كاف لكي يحفظوا أنفسهم على قيد الحياة والركوب أحياناً لكي يرتاحوا من تعبهم الطويل. وبعدما عوملوا بلطف وكياسة نادرة من الخدم ورفقاء مخيم ابن سعود، انجرفوا واحداً تلو الآخر في مخيمي الصغير، حيث كان ينظر إليهم رفاقي نظرة شك على أنهم قد يكونون لصوصاً محتملين. وقد حصلوا بكل المقاييس على طعام كاف ووجدوا فرصة الركوب على الحيوانات التي تحمل الأمتعة في قافلتي. كان أحدهم من مواطني دلهي، ويدعى أحمد وذو جسم نحيل مثل باقي الفلاحين المنهكين في منطقة أمبالا، والثاني بنغالياً طويلاً هزيلاً ولا يعلم من الأوردية إلا أقل القليل ولا شيء من العربية على الإطلاق، بينما كان الثالث بلوشي متفاخراً ومتهوراً آتياً من جودار ويتكلم عدة لغات بطلاقة منها الأوردية، والفارسية، والعربية. وفي عنيزة افترقوا عن مجموعتي تقريباً دون أن يلاحظهم أحد، ومن يدري ما إذا كانوا قد وصلوا وحققوا هدفهم على الإطلاق أم سقطوا جثثاً هامدة على جانب الطريق، مثلما يحدث للكثيرين[٢].

---

(١) تجارة الإبل وباقي الحيوانات الأليفة، كالأغنام والأبقار كانت من المهن النشيطة في الجزيرة العربية لما يجني أصحابها من أرباح جيدة لممارستهم هذا العمل. (ابن جريس).

(٢) كان المسافرون قديماً من التجار والحجاج يلقون حتفهم في الطريق لما يقابلون من مصاعب مثل: قطاع الطرق، بالإضافة إلى بعض الأمراض والجوع، وكذلك تعرض بعضهم إلى اعتداء بعض الحيوانات المفترسة كالأسود والنمور وغيرها. (ابن جريس).

ولا عجب في ذلك، عندما نرى أنهم قد انطلقوا في سفرهم دون مؤونة من مواطنهم البعيدة، وهم واثقون من أنهم سوف يتمكنون بإحسان وصدقات إخوانهم من أداء هذا الحج الشاق الذي وصفه النبي ﷺ(١) لأتباعه، وهو لم يخطر بباله أبداً أن دعوته التي بشر بها سوف تضرب بجذورها في أقصى أصقاع قارتين(٢).

وخلال هذه الأيام من إقامتي المؤقتة في عاصمة الوشم سنحت لي فرص وفيرة، أثناء فترات الفراغ بين اجتماعاتي مع ابن سعود والأعيان المحليين لإنهاء المعاملات الرسمية أو لمناقشة الأمور السياسية، أن أدرس المدينة وبيئتها. إن الواحة تقع في واجهة نهرية كما تبدو من نحو (١٥٠٠) ياردة على الضفة اليسرى لأحد الأودية، والأخير بعدما ينزل من هضبة من الحجر الرملي في الاتجاه الشرقي باسم شعيب عشرة يلتقي عند الزاوية الجنوبية الشرقية من الواحة بقاع مجرى وادي الغدير القادم من الجنوب، ويصبح اسمه وادي شقراء، ويمتد نحو الشمال في وادٍ يتراوح عرضه من ميل إلى ميل ونصف لمسافة شمال المدينة، وعندها ينبسط في دلتا متسعة ويدخل في البطين عند النقطة التي توجد فيها مزارع قصور السنيدي(٣).

وهناك توجد ستة من بساتين النخيل المتفرقة والمسورة، متوزعة في الجزء الشمالي من الوادي، بينما حوالي ثلثي القطاع الرئيس للواحة يتكون من بساتين أشجار النخيل المزدهرة التي تغطي بكثافة السور الغربي المتهدم بشكل أو آخر من المدينة نفسها، التي تأخذ شكل المُعيّن وتحتل القسمين الشرقي والشمالي من الواحة. وهناك سورٌ ساترٌ على طول قاع مجرى السيل ليحمي المدينة من هجوم

(١) عبارة ﷺ إضافة من المراجع. (ابن جريس).

(٢) إن الدين الإسلامي هو دين العالم بأسره، فلم يقتصر انتشاره إلى قارتين فقط، كما يذكر فيلبي، وإنما انتشر في جميع أنحاء الكرة الأرضية، مع ما يواجه معتنقيه من فتن واضطهاد، ولكن هذا وعد الله الذي أنزل على محمد ﷺ ليكون دين العالمين (الجن والإنس). (ابن جريس).

(٣) لمزيد من الإيضاح عن تضاريس شقراء، انظر: العمار، ص ١٩ - ٢١. (ابن جريس).

الفيضانات التي تكتسح الوادي أحياناً، بينما خلفه وعلى مسافة قصيرة يوجد سورٌ طينيٌ سميكٌ، بارتفاع خمسة عشر قدماً ومزود بأبراج على مسافات فاصلة بينها بحوالي (١٠٠) خطوة. ويمتدُ هذا السور على طول الواجهة كلها من الزاوية الجنوبية الغربية حتى الطرف الشمالي ليؤدي الغرض نفسه من الحماية ولكن ضد الأعداء من البشر[1]. لابد أن هذا السور كان في وقت من الأوقات يمر في دائرة كاملة حول المدينة، بيد أن توسع الزراعة في الاتجاه الغربي، وتعديات الرمل على الجانب نفسه والإهمال البشري قد ساهم في تجريد الجناح الغربي من الواحة من دفاعاتها، فحتى السور الداخلي الذي يفصل المدينة عن بساتين النخيل قد بلغ الحالة نفسها من التدهور لدرجة أن العدو ـ بمجرد أن يكسب موطأ قدم في بساتين النخيل، قد لا يجد صعوبة تذكر في دخول المدينة؛ ولذلك ليس للسور النهري الكبير إلا القليل من الفائدة العملية في الغرض الذي بلا ريب أنشئ من أجله.

إن المدينة نفسها ـ التي يطوقها الجدار الدائري في جنبيها الشرقي والشمالي وتلفها أيضاً بقايا الجدار الداخلي المتهدم آنف الذكر في الجانب الغربي ـ تمتد حتى زاوية في الجنوب، والمسافة من هذه النقطة حتى أقصى نقطة شمالية تبلغ سبعمائة ياردة. وأقصى عرض لها يبلغ أربعمائة وخمسين ياردة. وربما يتراوح سكانها بين سبعة وثمانية آلاف نسمة، ويشمل ذلك المزارعين والأمراء والتجار وصغار التجار. وصغار التجار هؤلاء يؤدون عملهم في مبيعات التجزئة مع البدو والزبائن الآخرين في سوق صغير مثلث الشكل تقريباً يحتل موقعاً وسطاً في المدينة، ويحتوي على حوالي أربعين أو خمسين دكاناً تطغى عليها مئذنة الجامع الكبير الملفتة للنظر، التي تشكل جانبه الشمالي الشرقي. من هنا يمتد شارعٌ عريضٌ في اتجاه شمالي حتى يلتقي بشارع متقاطع معه يصل السديري، أي البوابة الرئيسة في الركن الشمالي الشرقي

---

(١) للاطلاع على معلومات أكثر عن بعض المعالم الأثرية في بلاد شقراء، انظر: العمار، ٨١ – ٨٧. (ابن جريس).

من المدينة مع البوابة الغربية في القطاع الشمالي الغربي منها. ليس لأي من هاتين البوابتين، وهما الوحيدتان السليمتان في المدينة، أي ميزة معمارية، بينما أن المدخل الشمالي عبارة عن فتحة ضيقة في السور تؤدي إلى فناء مفتوح صغير توجد به عادة القليل من خيام البدو. وهناك مساحةٌ مفتوحةٌ مماثلةٌ ولكنها كبيرةٌ تشغل منطقة واسعة داخل بوابة السديري مباشرة، في حين توجد مساحةٌ كبيرةٌ في الطرف الجنوبي من المدينة خالية أيضاً من المباني ومفصولة بسور المدينة، الذي يشكلّ هنا زاوية حادة، عن المقبرة الحديثة الكبيرة التي تقع خارجه مباشرة. والبيوت الموجودة في الجزء الأوسط من المدينة بجوار السوق سيئة المظهر مزدحمة ومتلاصقة كثيراً، وطوابقها العلوية تغطي تماماً الشوارع تحتها مع وجود فجوات فقط أحياناً تسمح بدخول الضوء إليها[١]. هذا الحي المكتظ بالسكان مثل مصيدة الأرانب، في هذا الجزء من المدينة يختلف اختلافاً شديداً مع الحي الجنوبي الأرستقراطي، حيث يعيش كبار التجار في بيوت مشيدة تشييداً حسناً، ففي غرف الطابق الأرضي ينجزون عملهم في تجارة الجملة، ويخزنون الإرساليات الواردة إليهم من الأقمشة والبضائع التي تباع بالقطعة أو بأطوال محدد، والسلع الأخرى التي يتلقونها على فترات متقطعة من الساحل. والطوابق العلوية تحتوي على غرف معيشتهم، وغرف العائلة مفصولة تماماً بالطبع عن الغرف التي يستقبل فيها صاحب البيت زواره أو يؤوي الضيوف[٢].

إن بساتين النخيل تُروى في موسم المطر بإدخال مياه السيول في دائرة الواحة من خلال قنوات لها سدود مقنطرة لها بوابات يمكن إغلاقها بألواح أو أغصان موجودة في السور الخارجي، بهذا الري تتشبع النخيل بالمياه سنوياً بالقدر الذي

(١) عن التركيبة الجغرافية والسكنية لبلدة شقراء، انظر: العمار، ص ٨١ - ٨٥، ١٢٥ - ١٣١. (ابن جريس).

(٢) للاطلاع على طريقة البناء والتشييد في بلاد شقراء، انظر: العمار، شقراء، ص ٨٣ - ٨٥، ١٢٥ - ١٣٠ (ابن جريس).

تحتاجه جذورها، ولكن يستمر الري المتكرر بانتظام لصالح النخيل ومحاصيل الفواكه الجانبية الهامة، والخضروات، والحنطة من آبار كبيرة من نوع "جالب". وتستخدم الحمير والأبقار والإبل هنا لسحب المياه، على أن الحمير هي الأكثر استعمالاً. وكانت أكبر بئر رأيتها حقيقة واحدة من ثمانية دواليب، وهي بئر عظيمة ذات تجويف مستطيل مبطن من الداخل بالحجارة من أعلاه إلى أسفله، وطولها عشرون قدماً وعرضها عشرة أقدام وعمقها عشرة قامات، وكانت تعمل في البئر مجموعة من ثمانية حمير صاعدة وهابطة السطح المنحدر الذي ـ في هذه الحالة ـ كان واحداً من جوانب البئر فقط.

بالإضافة إلى النخيل تتميز واحة شقراء بثروة من أشجار الفواكه التي تنمو تحت النخيل، وتبرز من بينها على وجه الخصوص أشجار الأترج، والعنب لا يبدو أنه شديد النجاح هنا، فثماره ليست ذات جودة عالية، ولكن التين وفيرٌ. ومن الخضروات كان القرع أشد ظهوراً، بينما هناك مساحات كبيرة لزراعة الدخن والفصفصة[1]. أما القمح والشعير قد حُصدا منذ زمن بعيد. وبدأت الآن التمور الجديدة الطازجة تظهر بصورة منتظمة في طعامي، ولكن قيل: إن الموسم قد تأخر كثيراً بالمقارنة بما هو معتاد، وعناقيد التمر الكبرى على الشجر كانت لا تزال في معظمها خضراء[2]. ولا توجد مرعى في وادي شقراء للإبل، التي تضطر للخروج حتى صحارى النفود المحيطة بها، أو تُعلف في مربطها بحشيش النصي (Nussi) الممتاز الذي يُجلب من هناك، بيد أن الماعز والأغنام المحلية تجد رزقها بصورة متقلبة في المنطقة المجاورة للواحة مباشرة، فالنباتات الأشد انتشاراً هناك هي حشيش الحرمل والضعة. في كل مساء يأخذ القطعان إلى المدينة رعاة مستأجرون،

(١) الفصفصة: أي البرسيم الذي يستخدم علفاً للحيوانات. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من المعلومات عن النشاط الزراعي في بلاد شقراء، انظر: العمار، ص ١٣٩ - ١٤٧. (ابن جريس).

وهناك يتولى أصحاب الحيوانات المسؤولية عنها حيث يقودونها حتى غرف الدور الأرضي في منازلهم، لتقضي الليل بعد حلبها[١].

في إحدى الأمسيات وفي أثناء مشاهدة هذه العملية من إدخال قطعان الماعز والأغنام للمدينة وتوزيعها على أصحابها، وكم كان من المدهش أن يتعرف كل مالك بسهولة على قطعانه ويجمعها معاً من وسط القطيع كله، لاحظت عدداً من الصبيان منهمكون في لعبة غريبة، التي لا أستطيع وصفها إلا بأنها تشبه صورة بدائية من لعبة الجولف. وتسمى هذه اللعبة «البير» أي البئر (أو الحفرة حسبما يمكن أن نترجمها أيضاً) وقيل: إنها هي المتعة الشائعة في شمال نجد كلها من الوشم حتى حائل. توضع قطعةٌ صغيرةٌ من الخشب طولها نحو ستة بوصات فوق حافة حفرة ضحلة مجوفة في الأرض بحيث يكون نصفها مُلقى على الأرض والنصف الآخر حراً في الهواء. يضرب اللاعب بعصا عادية أو خيزران الطرف الحر من الخشبة بحيث يجعلها تقفز في الهواء، ثم بضربة أخرى بالخيزران فتندفع بسرعة في الهواء إلى أبعد مسافة ممكنة عن الحفرة. ويهدف اللاعب بعد ذلك إلى توجيه القطعة الخشبية مرة أخرى إلى الحفرة بضرب أحد طرفيها ليجعلها تقفز في الاتجاه المطلوب. واللاعب الذي ينجح في إعادة خشبته إلى الحفرة (ربما بأقل عدد من الضربات، على الرغم من أنني لم أتحقق بدقة من ذلك) يعتبر هو الفائز[٢].

ولعبةٌ أخرى رأيتها خلال تلك الأيام كانت تسمى «حدرق» أو «حدرج» ومن الواضح أنها قد جاءت أصلاً من الحجاز، وتقتصر في نجد على العبيد. في هذه اللعبة يتم فيها حفر ثمانية أو تسعة تجاويف صغيرة في الأرض بترتيب معين،

---

(١) رعي البهائم، والإبل، والأبقار كانت من المهن الرئيسة عند عموم سكان الجزيرة العربية، وبخاصة قبل ظهور النفط واستحداث الوظائف الحكومية التي فضلها كثير من الناس على مهن الزراعة والرعي. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الاطلاع على لعبة (البئر) التي يذكرها فيلبي، وكذلك عن عدد من الفنون والألعاب الشعبية وبعض وسائل التسلية في بلدة شقراء، انظر: العمار، شقراء، ص ١١١ – ١٢٥. (ابن جريس).

وتوضع حصاةٌ أو كرةٌ من روث الإبل في كل تجويف، بعد ذلك يقوم اللاعب برش حفنة من الحصى أو الكرات فوق المنطقة التي تغطيها الحفر. ثم يبدأ بإزالة محتويات الحفرة التي بها أكبر عدد من الكرات ويبعدها، ثم يأخذ محتويات الحفرة التي بها ثاني أكبر عدد وينثرهما فوق المنطقة كلها. تستمر هذه الحركات إلى أن يصبح إجمالي عدد الكرات الباقية أقل من إجمالي عدد الحفر ولا يوجد في أي حفرة أكثر من كرتين. عند الوصول إلى هذه النقطة يقوم اللاعب بتوزيع كراته طبقاً لقواعد وقوانين معينة لم أوفق على الإطلاق في فهمهما والتي تبدو أنها معقدة تماماً، بحيث تكون الكرات الباقية في حفر متجاورة مع بعضها البعض وليست مفصولة عن بعضها بحفر خالية(١).

إن شقراء ـ مثل باقي الوشم ـ كانت تشكل جزءاً من المناطق الخاضعة لسيطرة ابن الرشيد خلال العقد ونصف العقد من القرن الماضي، بيد أنها كانت دائماً غير راغبة في حكمه، وكانت إلى حد ما شوكة في حلق هذا الحاكم؛ لهذا السبب قام عبد العزيز بن رشيد بتعزيز التحصينات في ثرمداء، واستعمل هذه المدينة كقاعدة عسكرية له في المنطقة بدلاً من العاصمة.

وفي خريف عام (١٩٠٣م)، أي بعد سنة من استرداد ابن سعود للرياض والمناطق الجنوبية، حاول ابن الرشيد أن يعيد الاستيلاء على الدلم في منطقة الخرج، ولكنه أجبر على التراجع(١)، ولم يجد ابن سعود ـ بعدما طارد قواته المفككة والخائرة ـ أي صعوبة في فتح منطقة الوشم كلها دون مقاومة في ربيع (١٩٠٤م).

(١) لمزيد من الإيضاح عن ألعاب التسلية في شقراء، انظر: العمار، شقراء، ص ١١١ وما بعدها. كما يظهر أيضاً عند فيلبي دقة معلوماته أثناء الوصف والتدوين، لأننا بعد مقارنة أقواله مع بعض الروايات التي سمعناها عن الألعاب في بلدة شقراء وما حولها وجدناها متطابقة إلى درجة كبيرة (ابن جريس).

(١) للاطلاع أكثر عن بلاد الدلم، انظر: محمد بن زيد العسكر. الدلم (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، ص ١٨ وما بعدها. (ابن جريس).

وفي السنة نفسها عاد ابن الرشيد للهجوم و «حاصر» شقراء من الموقع الذي استولى عليه وسط قصور السنيدي، إلا أن أمير الرياض، ابن سويلم، نجح في الدفاع عنها وصد الهجمات المتكررة لمدة شهر، وكان في الوقت الملائم فتح منطقة سدير[١] (دون مقاومة أيضاً) من قبل ابن سعود في صيف (١٩٠٤) واحتلاله بعد ذلك للجزء الأكبر من القصيم في السنة نفسها قد أراح الوشم بشكل نهائي من أي أخطار أخرى. ومنذ ذلك الحين خلا تاريخها من الأحداث.

كان يوم الجمعة ـ (١٦) أغسطس ـ آخر يوم لنا في شقراء[٢]، عندما برز عبيد وخدم ابن سعود لصلاة الظهر في المسجد الكبير بأفضل ما لديهم من ملابس مبهرجة ذات ألوان أرجوانية متوهجة «زبون»[٣] وكنت أحدق بإعجاب في الموكب الرائع وهو يسير عبر الوادي متجهاً نحو بوابة السديري، وتأكد من أن إبراهيم ابن الجميعة ـ الذي نادراً ما كنت أراه الآن، كان في مكان ما في وسطهم يفوق في بهائه أشدهم تأنقاً في بعض الثياب الزاهية. ولسبب ما لم أستطع أبداً أن أوفق بين هذا الانغماس غير الضار في الملابس الزاهية مع ما سمعته عن رجولة العرب ـ التي، كما يجب أن يُقال صراحة ـ هي نتاج الفقر والفاقة إلى حد كبير. استدرت إلى مترك الذي كان بجواري، فظاً قوي البنية، عليه ندوب كندوب الجدري، وفي ثيابٍ السفر البسيطة المتسخة وسألته إن كان سيرتدي على الإطلاق مثل هذه الثياب الزاهية إذا استطاع[٤]. فكان رده المخيب للآمال «بالتأكيد تماماً» أو كما قال بالعربية «بلحيل»[٥]. وفي الحقيقة ليس على المرء إلا أن يرى أثر الاحتكاك بالرفاهية والحضارة على

(١) وعن بلاد سدير، انظر: عبدالعزيز الفيصل. عودة سدير (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ص ١٧ وما بعدها.

(٢) للاطلاع على معلومات أكثر من بلدة شقراء، انظر: العثمان، شقراء، ص ٥ وما بعدها، العمار، شقراء، ص ١٧ وما بعدها. (ابن جريس).

(٣) وتسمى أيضاً (جوخة) (فيلبي).

(٤) المفروض أن فيلبي لا يستغرب من لبس الملابس الجميلة الزاهية وبخاصة من يقتدر على ذلك، لأن هذا لا يتعارض مع منهج الدين الإسلامي الذي يحث المسلم على أن لا يبخل على نفسه إذا توفر له المال (ابن جريس).

(٥) بلحيل أو بالحيل: كلمة تدل على الموافقة والإيجاب وتعني في هذا السياق أي (نعم). (ابن جريس).

العـرب في منطقـة الحـدود مع سـوريا ليـدرك أن البـسـاطة فـي جـزيرة العـرب ـ وهـي الصـخرة التي تـأسست عليـهـا الحـركة الوهـابيـة بثبـات ـ وهمٌ لابد أن ينقـشع بالتـأكيـد مع قـدوم الرفـاهيـة والتـقـدم الحـديث الذي تـأخـر طـويلاً ولكنه آت لا مـحـالة[١]. فـمنذ قـرن مضى كـان على حركـة النضـال الوهـابيـة بعد الفـورة الأولى لانتـصاراتهـا المندفـعة بقـوة نحـو مناطق بعيـدة أن تحسب حسـابهـا مع القـوة «الشـرقيـة» العظمـى التي تجرأت على تحـديها[٢]، وبعـد ذلك هوجمت بشـراسة حتى أعيدت بالقـوة إلى تيه صـحـرائهـا، وسُحقت ولكنها لم تمت أبداً، ثم جاء قـرن من الضيق والحـرمـان تحت وطأة ظروف بدائية فأعاد إشعال الشعلة التي بدت أنها قد انطفأت للأبد.

فـقـد كـتب إس إم زويمر[٣] (S. M. Zwemer) أنه حـتى وقت قـريب ـ أي فـي عـام (١٩١٢) ـ نجـد القـوة الوهـابيـة القـديمة قد تحـطمت الآن للأبد، وبدأت نجـد تتـصل بالعـالم من خلال التـجـارة. لقد كـانت هذه القـوة الوهـابية القـديمة ـ في واقـع الأمـر ـ قـد بدأت لتوهـا في الوقـوف على قـدميـهـا مـرة أخـرى؛ فـقـرية الأرطاوية التي أسـسـهـا «الإخوان» كانت في الحقيقة قد أنشئت في تلك السنة نفسها، وبعد ذلك باثني عشر عاماً كان "سلطاناً وهابياً" حـاكماً مرة أخـرى على مكة. والآن ليس هنـاك قوة شـرقيـة مـعنيـة أو قـادرة على التـدخل في مـصـالـح الإسـلام، مع أن القـوة الوهـابيـة بمحض اختيـارهـا تقف وجـهاً لوجـه مع عـدوٍ أشد مكراً وخـداعـاً من تركيـا العظمى في قـديم الزمان. وهذه هـي نجد لأول مـرة تتصل بالعـالم ليس من خلال التـجـارة وحدهـا، ولكن أيضـاً في المجال السيـاسي. وإذا اسـتطاع عبدالعـزيز بن سـعود وخلفاؤه من بعـده أن يقـودوا سـفـينتهم بأمـان وسط صـخـور السيـاسـة العـالمية ومخـاطرهـا الخـفية ويصـونوا طاقـمهـا قليل الدراية عن الإغراءات التـي سـوف يتعرضـون لهـا الآن فـإن النظام الذي

(١) ما كان يتوقعه فيلبي من رفاهية وازدهار في بلاد ابن سعود مستقبلاً حدث، بل فاق الوصف عندما نشاهد المملكة اليوم أصبحت في مصاف الدول المتطورة الناهضة في المجالات شتى (ابن جريس).

(٢) يقصد بالقوة الشرقية الأتراك في الخليج العربي والأحساء وما حولها (ابن جريس).

(٣) انظر: كتابه الجزيرة العربية - مهد الإسلام، ط٤ (١٩١٢م) ص ١٥١. (فيلبي).

تميزت به المراحل الأولى من الحركة الوهابية الجديدة، إمبراطورية عربية، ومن سيجرأ بدرجة كافية على التنبؤ بالحدود الدقيقة التي قد تصل إليها؟ سوف تملأ المكان الذي كانت إلى وقت قريب تشغله تركيا في صدارة القوى الإسلامية[١].

ولكن، عوداً إلى سردي للأحداث، فقد شهدت صباح السابع عشر من أغسطس تقويض الخيام وانطلاق ابن سعود في ساعة مبكرة في المسير إلى وشيقر[٢] القريبة محطة توقفنا القادمة، ولقد أصر رشيد وإبراهيم الجنيفي على وجوب الحصول على دليل كفء مهما كانت التكاليف، ولكن عندما خرجت من خيمتي مستعداً للانطلاق وجدت الأخير غائباً، ربما كان يتمتع بآخر فنجان من القهوة مع أحد أصدقائه في المدينة، بينما كان الأول يسعى جاهداً لتغطية تقصير واضح، وهو الفشل في العثور على دليل، بنشاط محموم يبذله في تحميل الإبل. وقد امتطيت ظهر البعير دون أن أنبس ببنت شفة، وانطلقت مصحوباً بمترك ومنور، تاركاً كل التفسيرات لما بعد.

من الزاوية الجنوبية الشرقية للواحة انطلقت مبتعداً عن درب وشيقر في اتجاه جنوبي غربي فوق منحدرات جرداء من الحجر الرملي حتى أرض مرتفعة قليلاً على بعد ميل تقريباً، ومنها ألقيت نظرة جيدة على المشهد الكئيب. كانت الهضبة الصحراوية الصخرية الحمراء تمتد لبعض الأميال نحو الغرب بقدر ما تستطيع

---

(١) كان لدى فيلبي حس عال من التطلع وقراءة المستقبل لابن سعود، فهذا هو يتوقع مشرق زاهر لهذا القائد العربي الذي استطاع أن يجمع شتات معظم أجزاء الجزيرة العربية تحت راية واحدة وحكومة واحدة. (ابن جريس).

(٢) وشيقر يطلق عليها قديماً: أشقر، وهي غير شقراء ويقول الشاعر:

فلما نزلنا الوشم حمرا هضابه
أناخ علينا نازل الجوع أحمرا
رحلنا وخلفناه عنا مخيما
مقيماً بدار الهون شقراء واشقرا

فشقراء: هي عاصمة الوشم، واشقرا هي المعروفة الآن بأشيقر. للمزيد انظر: العماري، شقراء، ص ٢٨. نقداً عن: صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار. لمحمد بليهد (ط/١٣٩٢هـ) جـ٥، ص ٢٢٦. (ابن جريس).

العين أن ترى، ونحو الشمال الشرقي واحة شقراء بكاملها، أمام الناظر على خلفية الرمال البرتقالية لصحراء النفود، وبعدها يرتفع الحاجز الأرجواني لأجراف سدير، بينما نحو الشمال الغربي عند مسافة ما كنا نستطيع أن نميز الخيام البيضاء للمخيم المنصوب حديثاً وراء نخيل قرية الفرعة. وعندما نزلنا من المنحدر في الاتجاه الأخير مررنا عبر الصخر الأجرد إلى بقعة مستوية من الطفل الرملي المغطى بالرمل والعشب. وبعدما عبرنا قناتي وادي الغدير وشعيب العشرة وجدنا أنفسنا مرة أخرى على أرض صخرية على بُعد حوالي ميل جنوب مرتفع إسفيني الشكل الذي يفصل شقراء عن القرى الشمالية. وسرعان ما سلكنا الطريق الرئيسي على طول وجه الجرف المنخفض من هذا الإسفين، ومررنا بعد ربع ميل على يسارنا بقصر منعزل في أرض صغيرة مزروعة يحدها على طول الطريق سور بسيط من الأغصان المقطوعة. عند هذه النقطة نجد وادي وشيقر، الذي كان على هيئة إسفين، أمامنا من جميع جوانبه بين جرفين منخفضين يقتربان تدريجياً من الغرب نحو الطرف الشمالي للبطين، وبعده في النفود تبرز للعيان ثلاث هضاب صغيرة دائرية الشكل من الرمل القرنفلي اللون تعرف بصورة جماعية باسم الرمحين. كنا ـ في واقع الأمر ـ عند أحد جانبي الطرف العريض للإسفين، وهناك سهل رملي واسع يقع بيننا وبين الواحتين. وبعد أن مشينا نحو نصف ميل عبر ذلك أتينا على برج طويل مستدق الطرف في ركن سور متهدم والذي كان قبل تهديمه بناءً فيما يبدو على أوامر ابن سعود(١)، يطوّق حقلاً كبيراً من الحنطة خالياً من السكان. وبعد أن قطعنا نصف ميل آخر أو أقل وصلنا إلى البوابة الوحيدة لقرية الفرعة وهي قرية متهدمة إلى حد ما ومتناثرة في غير انتظام ولكنها بهية المنظر. من البوابة يمتد شارع وحيد كأنه مخبأ عبر الكتلة الكثيفة المتراصة من البيوت حتى الطرف البعيد من القرية.

---

(١) عن المباني الأثرية في بلدة شقراء، انظر العثمان، شقراء، ص ١٣ - ٣٦، العما، شقراء، ص ٨١ وما بعدها. (ابن جريس).

وهناك ينحني عائداً إلى البوابة، ويشكل التفافاً كاملاً تاركاً ما يكفي من فراغ بين مستوى الأرض وسقف النفق لراكب الذلول(١) أن يمر خلاله دون الاضطرار للترجل.

إن سكان القرية ربما يكونون أربعمائة نسمة من فخذ النواصر من بني تميم تحت حكم مساعد بن فايز، الأمير المحلي. وبساتين النخيل التي تحيط بالقرية تمتد في مساحة طولها ثلاثة أرباع الميل وعرضها أقل من نصف ميل. وأشجار النخيل متناثرة بغير انتظام إلى حد ما. ويبلغ عمق الآبار من ست إلى سبع قامات، وبعضها يحتوي على ماء عذب ممتاز، بينما البعض الآخر مالح تماماً.

على بُعد نصف ميل شمال الفرعة تقع واحة وشيقر الأكثر ازدهاراً ورخاءً حيث الماء عذب ووفير، وتشكل بساتين النخيل كتلة دائرية كثيفة قطرها نصف ميل، وفي وسطها تقع القرية، غير المرئية للشخص الآتي من هذا الاتجاه. كان مخيم ابن سعود قد نصب في مساحة مفتوحة تفصل الواحتين، وموقع خيمتي في بستان زرع حديثاً بأشجار الأثل الكثيرة والقريبة من السور الدائري للقرية الشمالية. ويقال إن وشيقر هي أقدم قرية في منطقة الوشم، وتفتخر بقدمها هذا، وتزعم بقاءها بلا انقطاع لمدة أربعمائة عام، تعود إلى تاريخ كانت فيه العاصمة الحالية مجرد مورد ماء صحراوي يُعرف باسم شقراء وشيقر(٢). وهناك حكاية أقل صدقية في تاريخها، وهي قصة صراعها الطويل وغير الناجح في النهاية ضد الأبطال الأوائل للعقيدة الوهابية. وعدد سكانها في الوقت الحاضر بسيط أقل من ألفين وخمسمائة نسمة، وهم من أصول مختلفة، ومعظمهم ينحدر من فرع الوهابة من بني تميم، الذي ينتمي إليه الأمير المحلي، إبراهيم الخراشي، وأخوه عثمان.

---

(١) الذلول: يقصد به الجمل المستخدم في الركوب (ابن جريس).

(٢) لمزيد من المعلومات عن شقراء واشيقر انظر: الحسن بن أحمد الهمداني. صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد علي الأكوع (الرياض: منشورات دار اليمامة) ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م) ص ٣٠٩ - ٣١٠، العمار، شقراء، ص ٢٧ - ٤٦. (ابن جريس).

والقرية نفسها التي تقع على الجانب الغربي من الواحة ـ حيث تقل كثافة بساتين النخيل عما في الأجزاء الأخرى ـ ذات شكل غير منتظم وغير مسورة تماماً. أما الواحة من ناحية أخرى فمحاطة بالكامل بسور دائري، ولكنها تغطي منطقة أكبر. والشوارع ملتوية ومنعطفة ولكن البيوت عالية وقوية البناء، في حين تكون الأحياء المكتظة بالسكان مثل مصيدة الأرانب الشائعة عموماً في قرى الوشم أقل ظهوراً هنا[١]. والسوق على هيئة مُعيّن تقريباً لا يختلف عن ذلك الذي في شقراء، على الرغم من أنه أكثر اتساعاً، ويحتوي على ثلاثين دكاناً أو أكثر بقليل. والناس لاسيما الأكثر شباباً منهم يبدون أنهم خالون تماماً من التعصب الأعمى والورع الزائف الذي يميّز معظم القرى النجدية[٢]. ولقد أصابني ذلك بالحيرة والارتباك خلال زيارة تفقدية قمت بها في مساء وصولنا إلى القرية والواحة حيث قوبلت بود وترحاب واضح وفضول لم أتعود عليهما أبداً. وآلة التصوير التي كانت معي جذبت قدراً عظيماً من الاهتمام، بينما كان بعض من الأدلاء الذين عينتهم بنفسي قد انضموا إلى عناصر الوشم العسكرية في معسكر شوكي خلال الربيع، وعندما رأوني هناك بدا أنهم يستمتعون استمتاعاً خاصاً بتزويدي بكافة المعلومات التي يقدرون عليها عن قريتهم الأصلية.

يجاور الواحة من الشمال جرفٌ منخفضٌ يشبه مثيله في شقراء، وهناك تمتعت بإلقاء نظرة رائعة على القرية وما حولها. ويوجد ما لا يقل عن ستة من مجاري السيول[٣] النازلة من الهضبة المنحدرة إلى الغرب والجنوب، وتختلط شواطئها في

---

(١) للمزيد عن الحياة العمرانية في منطقة الوشم، وبخاصة في شقراء، واشيقر، انظر: أحمد العثمان، شقراء، ص ١٥ وما بعدها، العمار، شقراء ص ٧٩ - ٩١، ١٢٥ - ١٣١. (ابن جريس).

(٢) ان التعصب والنعرات القبلية، على غير أساس شرعي، تكاد تكون عند معظم عشائر الجزيرة العربية، ولا يمكن التخلص منها إلا بالوعي السليم والتقوى والصلاح على منهج قويم. (ابن جريس).

(٣) تجري هذه السيول من الغرب للشرق. وعرة في أقصى الشمال بينما الخليف في أقصى الجنوب وتقع مظلم في الوسط. وبين الأول والأخير يوجد شبارم أو «شريمي». أما عذيج وسديس فهما راقدان من وعرة في الشمال. (فيلبي).

وادي وشيقر، وهي في طريقهم نحو بقعة روضة الرمحين المليئة بالشجيرات والعشب، وتمتد مقابل رمال النفود عند رأس البطين. هنا في الفرعة وبصفة خاصة في وشيقر يتعرض المخزون الوفير من المياه الجوفية للاستنفاد من كثرة الآبار، التي يكون بعضها ذا مقاسات كبيرة. وكان أحد هذه الآبار أضخم بئر رأيته على الإطلاق، فقد كانت حفرة عميقة[١] من سبع قامات حتى مستوى الماء، وفي موسم الجفاف ينزل مستوى الماء بانخفاض شديد ليصل إلى أربع عشرة قامة، كما يقولون، على الرغم من أن إمداد الماء لم ينفد أبداً. والبئر يعلوها هيكل خشبي ثقيل جداً ومجهز بما لا يقل عن ستة عشر دولاباً، ثمانية على كل جانب، يعمل فيه فريق مختلط من الأبقار[٢]، والحمير، والإبل. وكانت الأبقار أقوى ما رأيته في نجد كلها، وعدد الحمير في القرية كان كبيراً جداً، على حسب العدد الذي رأيته يرعى في الوادي. وبساتين النخيل هنا أجمل مما في أي مكان آخر بالوشم، بيد أن أشجار الفواكه التي تنمو تحت النخيل أقل بكثير مما في شقراء. وقد شاهدت أيضاً مناطق واسعة مزروعة بالدخن، من نوع الحبوب الصغيرة كذلك قطاعات شاسعة من القرع.

وجاء عدد من الزوار، الذين تأخروا كثيراً عن الانضمام إلى اجتماع العشائر في شقراء، ليقدموا ولاءهم لسيدهم في وشيقر. ومن بين هؤلاء كان عدة شيوخ كبار من عتيبة، ابن عقيان ومناحي بن هذال وابن عميدي[٣]، والأخيران كانا هما الشخصان

---

(١) تعرف باسم السديس ويقال إنه يمكن تركيب أربع عجلات (دواليب) إضافية على الهيكل الخشبي في بعض الأحيان وهذه يرفع إجمال الدواليب إلى عشرين. وقد رأيت بئراً أخرى فيها اثنا عشر دولاباً ستة منها في كل جانب (فيلبي).

(٢) الأبقار هنا هي الأكثر استعمالاً في سحب المياه من الآبار (فيلبي) وإلى جانب الأبقار كانت تستخدم الجمال وأحياناً الحمير في رفع المياه من الآبار، وليس ذلك في اشيقر فقط وإنما في أجزاء عديدة من الجزيرة العربية. للمزيد عن الزراعة وما يتعلق بها في بلاد شقراء وما حولها، انظر: العمار، شقراء، ص ١٣٩ - ١٤٦. (ابن جريس).

(٣) ذكر فيلبي في المتن أنه اسمه ابن عميدي، ثم استدرك في الحاشية فقال: إنه حميدي أو حميض، مع وضع علامة تعجب تدل على عدم تأكده، وأعتقده أنه (حميدي). (فيلبي + ابن جريس).

اللذان ذهبا إلى الملك حسين في ديسمبر الماضي ليطلبا الثأر أو تعويض(١) ضد الإخوان في الغصفط، والشيخ محمد بن الشيخ عبدالله بن عبدالوهاب، رئيس كبار العلماء في نجد. وكان هذا الشاب قد وصل لتوه مع أتباعه من بعثة لجباية الزكاة في منطقة الشعرة، واستقبله ابن سعود بتقدير شديد. ودخل أتباعه في جماعات للخيمة ليسلموا على حاكمهم بالقبلة المعتادة على الجهة اليسرى من أنفه وانسحبوا خارجين فوراً، بينما بقي محمد ليقدم أخبار المنطقة التي جاء منها. وبدا لي أنه شابٌ لا يتعدى عمره الخامسة والعشرين، ولكن ابن سعود قال لي إنه لا يقل أبداً عن أربعين، فملامح وجهه غير الناضجة والخالية من اللحية لا تدل على الشباب مثلما تدل على نقص الذكاء؛ لأنه كان يقال بصورة شائعة أنه ـ مع مولده في عائلة أكبر شيوخ نجد ـ لم يكن لديه فهمٌ كامل بمبادئ الوهابية، وكان يرافقه بشكل منتظم عالمٌ لتوجيهه في المعارف التي يُتوقّع منه يوماً ما أن يكون رئيس العلماء فيها(٢).

وجاء آخر ـ وهو بالنسبة لي مصدر ترحيب ـ ذلك هو الدكتور عبدالله سعيد، الذي لم أره منذ ديسمبر ووصل لتوه من الأحساء ليرافق ابن سعود فيما تبقى من رحلته. وقد لاحظت أنه أصبح يتحدث اللغة الفرنسية أقل طلاقة من ذي قبل، ولكنه كان ودوداً لطيفاً كما كان دائماً، وفيما بقي من وقتي بالجزيرة العربية كنا نتقابل كثيراً. وكان هو حامل الأنباء غير السارة عن هجوم العجمان الأخير على خيام سبيع في حفر العتش (العتك) الذي نتج عنه الاستيلاء على ثلاثمائة بعير، وهذا الهجوم من عمل فخذي صفران وصالح اللذين كان مقر قيادتهما في الشويبدة على الحدود العراقية تحت الحماية البريطانية. وجاءت أيضاً إشاعات عن هجوم آخر من

(١) لقد أنهى ابن سعود هذا النزاع بموجب الترتيبات القبلية المعروفة بدفع دية مقدارها ثماني مئة ريال لكل قتيل (فيلبي).

(٢) محمد المذكور من أسرة آل الشيخ المنتسبة إلى الشيخ محمد بن عبدالوهاب. والتي ما زال بعض رجالها يتولون أعلى المناصب الدينية في الوقت الحالي، كالمفتي العام للبلاد، ووزيري وزارة العدل، ووزارة الدعوة والإرشاد (ابن جريس).

العجمان[١] على منطقة جودة في الأحساء، غير أن ابن سعود، الذي كان عنده في ذلك الوقت آمال كبيرة في تسوية جميع الأمور بتدخل البريطانيين لدى كل من العجمان العنيدة والملك حسين[٢]، لم يأخذ هذه الأمور على محمل الجد. ومع ذلك فقد انتدب واحداً من موظفيه الموثوقين، عبد الرحمن بن معمر، ليطوف بالمناطق التي هوجمت، ويجمع الإحصاءات اللازمة عن الخسائر ويذهب للبصرة ليعد تسوية عن طريق السلطات البريطانية[٣].

لقد اتفق على وجوب استئناف الزحف مبكراً في الصباح التالي (الثامن عشر من أغسطس) ولكن لسبب ما ألغيت الأوامر التي قد صدرت بالليل، وابن سعود - الذي لم يكن عنده شيء أفضل من ذلك يفعله - قد فاجأني على حين غرة بزيارتي في خيمتي في ساعة مبكرة غير ملائمة. فقد كنت في الحقيقة لا أزال نائماً في فراشي، وخيمتي مبعثرة بالغليونات والأدوات الكريهة الأخرى؛ ولذلك أرسلت له رسالة في الخارج قائلاً: إنني ما دمت مشغولاً في دورة المياه، فلن أستطيع أن أقابله إلا بعد دقائق قليلة. ودون مراسم أو تكلف جلس في خيمة استقبالنا أو طعامنا الكبرى حتى انتهيت من الاستعداد للقائه وخرجت له، ثم أصر على إرسال من يأتي بفطوره الزهيد لنشاركه فيه أنا وعبدالله. كان الفطور يتكون من تمور طازجة، وكعك قاس قليلاً من الدقيق ومعتدل الحلاوة يسمى «كليجة» وقطع من اللبن الجاف تسمى إقط، وحليب النوق[٤]. وقد وصل لتوه بريدٌ من الكويت يحمل أخباراً طيبة، كم هي

(١) قاد هذا الهجوم سلطان بن حثلين وآخر من عائلة مطلق (فيلبي + ابن جريس).

(٢) عن الصراعات العسكرية بين الملك عبدالعزيز آل سعود والشريف حسين في الحجاز والعجمان في شرق الجزيرة العربية، انظر: العثيمين، تاريخ، جـ٢، ص ١٢٤ وما بعدها، إي بيسون، ابن سعود، ص ٨١ وما بعدها. (ابن جريس).

(٣) موقف بريطانيا وتحالفاتها مع ابن سعود ضد العجمان وغيرهم، انظر: إي بيسون، ابن سعود، ص ٦٩ وما بعدها.

(٤) كان الملك عبدالعزيز ذا سياسة حكيمة، فهو لا يترك أي سبيل للاستشارة والسماع والمناقشة في بعض الأمور المهمة. ومجيئه إلى فيلبي في خيمته ربما ليستشف ما هي نوايا حكومته بريطانيا حيال ما يحصل في جزيرة العرب، وبخاصة ما يدور حول ابن سعود والشريف حسين، والعجمان. (ابن جريس).

طيبة؟ ليس بمقدرونا إلا التخمين المحدود عن التطورات في الجبهة الغربية، ولكن ليس هناك شيء ذا أهمية محلية. وضيعنا الصباح كله في حديث مشتت غير ذي هدف. بعد ذلك أفشى لي عبدالله بصورة لطيفة أن هناك تفكيراً في السير ليلاً، وخلال العصر لاحظت في المخيم كله تحضيرات واستعدادات نشطة لهذا الغرض. وعند الساعة الخامسة عصراً كان السهل كله يضج بإبل ورجال يصيحون ويُحملّون ويركضون هنا وهناك. وفي وسطهم العلم الملتف منتصباً، وعلى مقربة منه جلس ابن سعود وكبار معاونيه يحتسون آخر فنجان من القهوة ويتفقون على التفاصيل النهائية لعملهم، وفجأة نهض حامل الراية بكلمة من سيده وركب بعيره، وتم تسليمه العلم المرفرف وانطلق في سيره.[1] وتلا ذلك فوضى وارتباك لا يوصف عندما انطلقت جماعة وراء جماعة في إثره، ولم يمض وقت طويل إلا وكان القوم كلهم على الطريق. وكان خط سيرهم يمر شرق الفرعة ولم يبق إلا عدد قليل من المتأخرين، من ضمنهم ناقةٌ انتهت منذ لحظات قليلة من ولادة جمل صغير، وقد ساعدوها على التخلص من المشيمة عن طريق ربطها بحجر كبير. وقد أخذ الجمل الصغير بعيداً، وأعتقد أنه ذُبح، ولم تترك الأم البائسة إلا وقد أنيخت كما هي، ثم وضع عليها الحمل، وقيل: لي إن المشيمة سوف تنزل لاحقاً خلال السير.

والآن ركبت بعيري والتزمت في سيري عاماً وعرة وتركت واحة الفرعة على اليسار أو الشرق، وانطلقت من زاويتها الجنوبية الغربية في اتجاه جنوب غرب حتى منحدر الهضبة. وسلكنا الآن حوضاً مسيلاً مظلماً، بينما سار القوم في شعيب الخلف وهو طريقٌ أطول ولكنه أسهل من سابقه. وقد سقط بعير بالفعل في الطريق من الإعياء والتعب، وذبح للاستفادة من لحمه وجلده. وكان للجيش الزاحف مشهد رائع وهو يتهادى بطيئاً فوق منحدر الهضبة الذي ـ عندما صعدناه ـ ألقينا نظرة

(١) حمل العلم في الحملات العسكرية عادة قديمة عند العرب من قبل الإسلام واستمرت على مر التاريخ الإسلامي. (ابن جريس).

صافية على وشيقر حتى قمتي الرمحين في النفود وجبل آخر منحدر منخفض يسمى لوتال في اتجاه الشمال.

يزداد وهد مظلم في العمق بصورة مستمرة حتى أصبح شقاً أو صدعاً عرضه ثلاثون ياردة وذو عمق كبير، ويبلغ ارتفاع أول جبل واضح من الهضبة نحو ثلاثة آلاف قدم فوق سطح البحر وأكثر قليلاً من مائتي قدم فوق الواحة من خلفنا. ومن هذه النقطة ترتفع الهضبة الجرداء بشكل مُطّرد أمامنا على سطحها طبقة طين المرل (الجيري)، ويظهر فيها بشكل غريب بقعٌ ذات لون بنفسجي فوق الحجر الرملي. والدربُ الواضح بصورة تامة يمتد في الوسط بين وهدي مظلم وشبارم إلى أن يلتقي برافد من روافد الوهد الأخير ويُسمى شعيب أوسع، وهو منخفض صخري ضحل عرضه نحو ثلاثون ياردة. وقد كانت المنطقة كلها جافة بصورة مفرطة والنباتات ليس فيها علامة من علامات الحياة، فقد كان الشتاء والربيع الماضيان بلا مطر تماماً. وقد سلكنا شعيب الأوسع حتى صادفنا منخفض على هيئة فوهة بركان واسعة عند قمة الهضبة، نحو (٣٢٠٠) قدم فوق سطح البحر؛ ولأن منبع الشعيب مظلم فإنه يُعرف باسم فرعة المظلم، وهو يُحاط بجبال منخفضة متكسرة تظهر فيها هنا وهناك بقعٌ من الصخر الأسود.

كان الليل قد أرخى سدوله علينا الآن ورفاقي ـ الذين تم تزويدهم بإبل ذلول جديدة غير مدربة ـ قد تأخروا خلفنا كثيراً، في حين كانت الأمتعة قد ذهبت مع القوم. ومهما كان الحال فقد قررت أن أتوقف للمبيت وبعد أن أرسلت ناصراً ـ وهو دليل استأجرناه مؤخراً ـ ليبحث عن الأمتعة، ألقيت عصا الترحال واستسلمت للراحة على ألواح صخرية قاسية في أكمة مخروطية صغيرة تسمى المبدأ، ولم تصل إبل الأمتعة إلا عند التاسعة مساءً، وعندها تناولنا عشاءنا. وطبقاً لما قاله ناصر ـ الذي كان يبدو ذكياً بدرجة كافية ـ تمتد هضبة الوشم عشرين ميلاً نحو الشمال من

هذه النقطة، وتنتهي عند التقاء شقراء مع نفود بتراء التي تمتد رمالها المختلطة في اتجاه الشمال أو الشمال الشرقي نحو الزلفي. البتراء هو الاسم المحلي للطرف الشمالي من نفود القنيفده.

استيقظنا باكراً في الصباح التالي وسرعان ما بدأنا تحركنا نازلين على المنحدر الغربي القصير من الهضبة، وابتعدت الوشم عن أنظارنا، وأصبح يمتد أمامنا بحرٌ لا حدود له من الرمل وجبل فوق جبل من اللون البرتقالي الزاهي في ضوء الفجر. وخلال خمسة دقائق كنا قد وصلنا إلى حافة واد رملي ضيق يسمى فرق، يفصل هضبة الوشم الصخرية عن الرمال. بعدها سرعان ما انطلقنا في دروب القوم التي مروا بها الليلة السابقة. وفي أكثر من ساعة بقليل وصلنا سفح بتراء النفود عند بقعة خضراء من شجيرات الشار تُعرف باسم خل الشار وتشتهر فيما مضى بأنها كانت روضاً شديد الروعة تشبه واحة نخيل، إلى أن جاء السكان الجدد من الإخوان قادمين من فريثان، وقطعوا كل شجرة ذات حجم مناسب ليوفروا لأنفسهم أعمدة وروافد السقوف(١).

٤ـ السر

نقف الآن على عتبة منطقة صغيرة تتمتع باسم رائع هو السر والذي يبدو أنه يعني «الهمس»(٢)، متجهين نحو مجاري سيول سطحية دائمة طول العام والتي تعلو في عدد من الينابيع قرب السطح. هذا هو التفسير المقبول بصورة عامة للاسم، على الرغم من أن ابن سعود نفسه يميل إلى ربطه بكلمة السرة أي السرة أو وسط

(١) كان بناء البيوت وتشييد سقوفها قديماً يعتمد على الأخشاب والجريد المحلي الذي يتم الحصول عليه من الغابات والمناطق الشجرية في كل منطقة. وللمزيد عن أنواع وأشكال النباتات في الجزيرة العربية، انظر: كتاب النبات، لأبي حنيفة الدينوري.

(٢) الهمس: أي المرمر (فيلبي + ابن جريس).

نجد[١]. على كل حال ـ قبل الوصول إلى المنطقة التي تسمى بهذا الاسم ـ اضطررنا إلى التغلب على حزام عريض من رمال النفود يمتد نحو سبعة وعشرين ميلاً بالعرض ولا يقطعه إلا لسانٌ صغيرٌ من السهل الذي يشكل الطرف الشمالي من سهل مروطة المترامي الأطراف الذي يفصل نفود القنيفده عن نفود دلقان[٢]، والأخيرة هذه لم تكن إلا امتداداً جنوبياً لنفود السر، مثلما تكون بتراء ـ التي أوشكنا على دخولها ـ امتداداً شمالي للأولى. وكلا شريطي النفود يلتقيان عند مسافة غير بعيدة نحو الشمال من خط سيرنا، ويتعززان بنفود شقراء ليشكلوا جميعاً حاجزاً صلباً من الرمل بين القصيم والزلفي. على كل حال قال لي ناصر أن لسان السهل الصغير يفصل بين شريطي النفود الاثنين حتى أطرافهما الشمالية التي تنتهي في الصفراء شمال شرق بريدة، وقال أيضاً: إنه عند الطرف الشمالي للسهل توجد قرية صغيرة أو بئر عين ابن فهيد.

هذه المعلومات قد لا تبدو دقيقة[٣]، على الرغم من أنها تشير إلى حقيقة مثيرة للاهتمام هي على وجه التحديد الامتداد غير المنقطع لوادي مستوى في الشمال وسهل مروطة في الجنوب.

يبلغ عرض شريط بتراء على طول خط سيرنا أربعة أميال، وهو دربٌ مألوف تماماً؛ لأننا تركنا توجيهنا للقوم. وسطحه يتكون من جبال ومنخفضات متعاقبة مع ظهور بعض البقع الطينية في قاع بعض المنخفضات، وتفاوت في الارتفاع من خمسين إلى مائة قدم. وشجيرات العرفج اليابسة الكثيرة تلقي ظلالاً رمادية على المنخفضات المتلاطمة كالأمواج، في حين كانت بقعاً من شجيرات الأظير الأخضر

(١) تعريف السر: بأنه سرة الشيء أو وسطه ربما تكون أقرب إلى الواقع، بدلاً من القول إنها سميت بهذا الاسم لتوافر مجاري سيول سطحية بها. (ابن جريس).

(٢) دلقان: وربما سمي (دلغان) (ابن جريس).

(٣) هذه الطريق تستخدمه الآن (١٩٢٨م) السيارات بانتظام، وهكذا تصبح معلومات ناصر صحيحة. (فيلبي).

تضفي تنوعاً على المشهد. وشجيرات الشيح وعشب الثمام ذابلة بسبب الجفاف، ولكن الأغصان الجافة لنبات الأرطي المفيد كانت تنبت أطرافاً خضراء زاهية[1].

في معظم الوقت كان الطريق سهلاً بصورة كافية، بيد أن المنحدر الصاعد للجبال شديد الانحدار أحياناً بدرجة تصعب على الإبل. وقد شرد أحد هذه الإبل من القوم خلال السير ليلاً وراح يتجول تائهاً حزيناً والخُرج[٢] متدلٍّ تحت بطنه، بينما حمولته من تمور الخلاص[٣] الفاخرة من الإحساء قد تركت على جانب الطريق. هذه التمور قد استحوذنا عليها لطعامنا، والجمل عثرنا عليه وتولينا مسؤوليته حتى وصلنا إلى المخيم، وهذا قد أثلج صدر جماعة البحث المكونة من ثلاثة رجال الذين قابلتهم على بُعد ميل تقريباً قبل المخيم يلعنون القدر القاسي[٤] الذي سلبهم نومهم في القيلولة وأجبرهم على الخروج باحثين عن جمل شارد، قد يكون بحلول هذا الوقت في أي مكان من هذه الصحراء الشاسعة. ولقد كانوا شاكرين بعمق لهذه الأنباء الطيبة التي جئت بها وعادوا معي للخيام. كان زعيم الجماعة يركب ذلولاً حرة من شمال الجزيرة العربية، والآخر يركب جملاً من سلالة الدرعية وهو من قبيلة المناصير، والثالث يركب عمانية مثلي[5]. والمرتفعات المتعاقبة بكثرة في وسط هذا الشريط الرملي ـ طبقاً للبارومتر المعدني الذي أحمله ـ تعلو بنحو (٢٩٥٠) قدماً فوق سطح البحر، وهي تعرف بالاسم المستقل «جو ابن مطروق» وعندما التفتنا حول كتف إحداها صادفنا فجأة منظراً رائعاً للسهل الضيق القريب أمامنا وأمواج الرمال المتتالية في نفود السر من ورائه.

---

(١) لمزيد من الإيضاح عن أشجار الشيح، والثمام، والأرطي وغيرها انظر: كتاب النبات، للدينوري. (ابن جريس).

(٢) يقصد بكلمة (الخرج) هنا، أي شداد الجمل الذي كان على ظهره، وكلمة الخرج تطلق أحياناً على شداد الحمير وليس الجمال. (ابن جريس).

(٣) الخلاص: نوع من أنواع التمور الجيد (ابن جريس).

(٤) القدر: يتم بتدبير الله ولهذا لا يجب لعن القدر أو التذمر من حكم الله عز وجل. (ابن جريس).

(٥) الإبل أنواع، فهناك ما هو نجدي أو عماني أو غيرها، ولكل نوع من أنواع الجمال ميزات وأوصاف تختص بها (ابن جريس).

إن عرض الوادي أو السهل الذي يفصل شريطي الرمال عن بعضهما يبلغ أربعة أميال، وتزحف عليه ألسنة الرمل من الجانبين.

على بُعد ميلين تقريباً جنوب مسارنا صار الطريق مسدوداً تقريباً بتل رملي معزول يبلغ طوله ميلين، ويسمى «العفارية»، بينما رمال السر تبرز ناتئة باتجاه الشرق حتى خط سيرنا تقريباً قبل أن تتراجع مرة أخرى في خليج شبه دائري حتى اتجاهها الرئيس نحو الشمال والجنوب. يتكون سطح الأرض بصورة عامة من الطفل الرملي المغطى بطبقة رقيقة متناثرة من الحصى الرملي الخشن، وفي أماكن أخرى بالعشب اليابس. امتد مسارنا نحو الغرب والشمال الغربي بانحراف عبر السهل على درب مألوف تماماً، وصادفنا جماعة صغيرة من البدو في رحلتهم. والمجموعة من خمسة رجال ومعهم اثنا عشر من الإبل التي تحمل بضائعهم وعبيدهم، ومن بينهم امرأتان تركبان في هودجين رائعين يسميان القن. وقد ألقيت عليهم السلام وتلقيت ردهم الودود الحار، ولكنهم توجهوا إلى ناصر بالسؤال وطلب الأخبار، واتضح أنهم من الإخوان من قبيلة عتيبة من قرية ساجر جنوب السر. وكلما اقتربنا من خط النفود الأكبر يزداد السهل رملاً مع بقع من الحصى والحصباء، وأحياناً جبال منخفضة من صخور سوداء مثل الرماد تذكرني بتلك التي رأيتها في السهل نفسه في مسافة أبعد نحو الجنوب. في أحد الأماكن مررنا بمجموعة كبيرة من النصب الحجرية المتهدمة، والتي يبدو أنها بقايا بعض قرية قديمة، وبعد السير مسافة أتينا على مكان من الأرض الصخرية المرتفعة يسمى هجرة، وفي وسطه وجدنا جيش ابن سعود مخيماً ويحاول جاهداً في معظم الوقت أن يعوض ساعات النوم التي ضاعت منه خلال الليل. وجدنا الخيام منصوبة في منخفض رملي ضحل مثلث الشكل، وعلى بُعد حوالي مائتي ياردة من القاعدة للقمة، وهذه القاعدة قد تشكلت من جبل الهجرة الصخري، بارتفاع حوالي خمسين قدماً، والجانبان الآخران من النفود. والمنطقة كلها مغطاة بكثافة بنبات الأرطي حديثة النمو، وعشب الضعة اليابس، بينما الصخر الأسود، الذي يبدو أنه يرتكز على

أساس من الحجر الرملي، من أصل بركاني بالتأكيد وهو يتكون بصورة جزئية من كتل حادة الحواف ذات طبيعة بازلتية، وجزئياً من كتل من إفرازات البراكين بنية اللون، والعروق السوداء في السهل الذي ذكرناه آنفاً تبدو أيضاً أنها من النوع البركاني نفسه.

والإبل التي تحمل أمتعتي لم تصل بعد؛ ولذا ذهبت إلى خيمة عبدالله سعيد لتناول القهوة، والشاي، والفطور، وهناك وجدت محمد بن سليمان(١)، أحد معاوني ابن سعود، ومن بين كل البشر وجدت هناك أيضاً إبراهيم الجميعة، الذي لاشك أنه قد جذبه احتمال وجود دخان.

وهذه أول مرة أجتمع فيها مع الأخير منذ مغادرتي الرياض، وتصرفنا كلٌّ تجاه الآخر ببرود حسبما تفرضه هذه الظروف، لكنني أدركت أنني بقدر الإمكان ينبغي أن أقابل عبدالله في خيمتي وليس في خيمته لتفادي المقابلات المحرجة مع الأصدقاء المشتركين، الذين كنت أفضل بصورة قاطعة ألا أتبادل معهم الزيارات.

ومرة أخرى عزم ابن سعود على السير ليلاً، ولم أعتزم أن أحذو حذوه؛ ولذلك انطلقت قبل القوم بوقت عند الرابعة عصراً، بهدف قطع أطول مسافة ممكنة من الطريق قبل الظلام ثم ننصب خيامنا حيثما كنا للمبيت. كان المنحدر الخارجي للنفود شديد الانحدار، وهذا العائق الرملي على امتداد عرضه قد ثبت أنه صعبٌ وثقيلٌ بشكل لم أعهده من قبل، فقد كان طريقاً متعرجاً بصورة دائمة طالعاً فوق جبال منخفضة ونازلاً في أودية وحفر ضحلة، دون أي معلم أرضي مميز، وليس فيه أية تلال مرتفعة من الرمل الصافي الذي يريحنا من رتابة الدهناء. وكانت تتناثر هنا وهناك قنوات ضحلة ذات قيعان طينية، وعلى فترات متكررة كنا نمر على قطعان من الإبل، معظمها ذو لون أسود أو داكن، تخص الإخوان في ساجر وهي ترعى العشب الوفير والجاف الذي يغطي جوانب المرتفعات.

(١) توفي في (١٩١٩م) أو (١٩٢٠م) وخلفه أخوه عبدالله في وظيفة السكرتارية هذه. (فيلبي).

لم نتناول عشاءنا إلا متأخراً، لكنني لاحظت أن كل رجل تقريباً من جماعة المقدمة التي تسبق القوم قد سلك خطاً مباشراً للإبل في مثل هذه المناسبات وحلب النوق وشرب اللبن حتى التخمة. إن العربي ـ مثل بعيره ـ يملك طاقة غير محدودة على التهام الطعام ليعوّض الأيام العجاف عندما يضطر إلى العيش دون طعام[١].

في وسط النفود يوجد نوعٌ من الأرض الفضاء التي تكون للغافل شركاً، ويبدو أنها توفر مجازاً سهلاً لأبعد ما يستطيع المرء أن يرى، ولكن يقال: إنها تنتمي بمتاهة حقيقية من التلال والأكوام الرملية التي يستحيل عبورها، وقد يضل المرء بينها لساعات دون أن يهتدي لطريق يخرج منها. هذه البقعة تعرف باسم «المغداء»، مكان الضياع، والطريق إلى السر، متغاضياً عنها، يتجه إلى منحدر يبدو صعباً على اليمين، وبعده يصبح السير يسيراً بصورة يمكن تحملها مرة أخرى. وكانت زخات قليلة من المطر قد شجعتنا على أن نأمل في هطول مطر غزير، ولكن خاب أملنا، والتف طريقنا الآن على طول سفوح بعض الجبال الرملية[٢] ثم الآن على طول حافة أحد المنخفضات الضحلة. وهناك ممر يؤدي إلى الخط بين منخفضين واسعين نسبياً يعرفان باسم «هويجان»، وكان الذي على يميننا ذا عمق كبير، ولكن لا تظهر فيه أيٌّ من خواص حفر الفلج التي تشبه حذوة الحصان في نفود الكبير في الشمال وراء جبل شمر. وقبيل الغروب عبرنا منخفضاً ضحلاً يسمى خبة عواد وفيه قطيع من نوق ابن سعود الحلوب ترعى على مهلها أثناء تقدمها البطيء نحو مكان التخييم التالي. من هذا المنخفض صعدنا المرتفع الشديد الانحدار في جبل عريض وكبير يمتد شمالاً وجنوباً يسمى «أرقب البقرة»، وعلى قمته، التي ترتفع ثلاثة آلاف قدم فوق سطح البحر طبقاً للبارومتر المعدني قررنا أن نخيم للمبيت، لأن الشمس قد

(١) هذا حكم فيه إجحاف من فيلبي، فليس كل العرب بهذه الصفة التي يذكرها، ثم إن أيام فيلبي كانت أيام جوع وفقر فإذا وجد الإنسان طعاماً فإنه يأكل برغبة شديدة نتيجة الجوع الذي يعاني منه كل الناس. (ابن جريس).

(٢) لهذه الجبال أسماء مثل: أم السويك، وأم عائض وغيرهما. (فيلبي).

غـربت بالفعـل، وبدأ الظلام يـحل علينا بسرعـة، ولم يبق من الضـوء إلا لحظات قليلة فقط من بريق رائع من الظلال الحمراء الوردية والأرجوانية.

كـان القـوم فـي تلك اللحظـة على إثرنا تقـريبـاً، وانزوينا جـانبـاً لنشـاهدهم وهـم يمرون، على رأسـهم الكتيبـة القوية للحـراسـة الملكيـة التي ـ بعد أن قطعت نـحو نصف مـيل أمـامنا ـ توقـفت لمدة وجيـزة لأداء صـلاة المغـرب مع فنجـان مـن القـهوة قـبل أن تستـأنف زحفـهـا. وقـد سـمعنا في الـيوم التـالـي أنهـا قـد ضلت طريقـهـا في الظلام وتورطت في متـاهـة من التـلال الرمليـة نحـو الجنوب قبل أن تضـرب أكبـاد الإبل في سـهل السـر[1]. يسـمى الجبل الذي نصبنا عليه خيـامنا منصـفـة أي عـلامـة منتصـف الطــريق في نفود السر.

ألحق الدكتور عبدالله ـ ربما لمضايقته نسبياً على ما أتصور ـ بصورة مؤكدة إلى جمـاعتي، وقـد احتفلنا بهذه المناسـبة بجـدل حار عن المزايا المرتبطـة بالسيـر نهاراً أو ليـلاً. وقال: إنه يفضل بقوة الأخيـر على أسـاس مستوى البـرودة الأكثـر، ولكن عنادي في هذه النقطة ربما كان أقل أسى بالنسبـة له من شكواه من عادتي في تناول جـميع وجبـاتي مع حاشـيتي الصـغيـرة. لقد كـانت بكل تأكيـد جمـاعة تضم أشـتاتاً غـريبـة من البشـر، وهـذه الحقيقـة قد أذهلتني كثيـراً على وجه الخصوص في ذلك المسـاء عندما جلست وحيداً علـى رابية منخفضة أتأمـل الأمواج المتعاقبـة من الـرمل الكئيب الذي لا حياة فيه ولا نماء، ويلف المكان من كل جانب حول المخيم الصغير والجماعة الصغيرة من المؤمنين الذي يؤدون شعائر صلاة المغرب.

قـام الجنيـفي بدور الإمـام، وأخـذ عـبـدالله مكـانه ـ بخـجل وارتبـاك إلى حد مـا ـ في الصف خلفـه بجـوار رشـيـد، الذي قـسّم انتـبـاهه بصـورة منصـفـة بـين ربه وإبله،

(١) في قصور ابن سكران. (فيلبي).

وعشائه الذي على النار دون مراقبة أحد[٢]. وقبل العشاء تمتعنا بالإثارة من اصطياد ثعبان، وكانت أفعى سامة صغيرة فرّت من كافة جهودنا لقلتها ولجأت للأمان تحت شجيرة أضرمنا فيها النار كما ينبغي.

وفقنا بمسير أفضل نسبياً في اليوم التالي عما كان عليه حتى هذه النقطة، وعندما انطلقنا في حوالي السادسة صباحاً تغلبنا على النوع نفسه من تعاقب الجبال والمنخفضات. وقد كان واحدٌ من هذه المنخفضات ويسمى جوا ضرمية (درامية) واسعاً ويغطي قاعه الطين، وبعده أتينا على مرتفع صعب وشديد الانحدار يسمى المطقه، وهو بقعة تشتهر بتكرار الحوادث التي تقع عندها. وفي الحقيقة كان واحدٌ من إبل القوم قد سقط عند هذه البقعة وما زال يرقد هناك كما لو كان ميتاً بحمله فوق ظهره إلى أن قام مترك بتحرير الحيوان البائس من الحمل. واكتشف أنه في حالة سيئة، وعند هذه اللحظة فقط ظهر رجلان من القوم مسرعان على طريق من جهة يسارنا والذي كان القوم قد ساروا فيه خطأ، بحثاً عن الجمل المفقود. بعد ذلك فوراً نلنا لمحة خاطفة من الصفراء أي القفر الصخري وراء النفود، وبعدما اجتزنا منخفضاً يسمى خبة السكرانة صعدنا قمة آخر جبل في النفود على ارتفاع (٢٨٨٠) قدماً فوق سطح البحر.

يتسع أمامنا سهل السر طولاً وعرضاً، حيث تسلقت رابية صغيرة ملاصقة للدرب لأسجل تفاصيل هذا المنظر الشاسع. من هذا الموقع المرتفع كان السهل تحتي يبدو منبسطاً، على الرغم من أنه في الحقيقة يرتفع بصورة تدريجية جداً من سفح النفود باتجاه الأفق الغربي، الذي تسده عند أقصى ما يستطيع المرء أن يرى نحو الشمال والجنوب حافة الصفراء، لم أستطع أن أحدد أي معلم أرضي أربط به المشهد الذي أمامي بالمنطقة التي مررت بها للجنوب، خلال ديسمبر الماضي، غير أنه بدا لي أن سهل السر لا يمكن إلا أن يكون امتداداً شمالياً لمرتفعات العارض. يتجه انحدار الأرض نحو الشرق بشكل رئيس مع وجود ميلان تجاه الشمال من

نقطة تقع إلى الجنوب نسبياً من موقعي، حيث تبرز النفود في السهل باتجاه الغرب. وجنوب هذا البروز أو النتوء ـ كما قيل لي ـ يقع سهل أجرد قاحل يسمى سناد، الذي أعتقد أنه طرف شمالي من سهل هضبة القذلة الواقعة شرق منطقة العارض.

إن الجزء الجنوبي من منطقة السر، الذي لم أتمكن من زيارته، يحتوي على قريتين، هما على وجه التحديد قصور ابن سكران في السهل على بُعد أميال قليلة من حافة النفود، وساجر التي تختفي عن الأنظار في طية من طيات الصفراء نحو الشرق من جبل شاهق يسمى فقم ساجر. هذه القرية الأخيرة التي يقال: إنها تضم حوالي أربعين قصراً وأربعمائة نسمة تقريباً، تقع على مسافة عشرة أميال جنوب غرب موقعي الآن، وهي، كما ذكرت آنفاً، موطنٌ للإخوان من قبيلة عتيبة. وقصور ابن سكران أصغر نسبياً من سابقتها وتضم مائتي نسمة، وتتكون من مزارع نخيل صغيرة وقرية فيها ثلاثة قصور متناثرة في وسط حقول الحنطة.

لمسافة أبعد نحو الشمال تقع واحات ضئيلة كثيرة والتي تشكل معاً منطقة السر الحقيقية، وسوف يرد وصفها بالتفصيل فيما يلي على حسب ترتيب زيارتي لها. المعلمُ الوحيد الآخر في هذا المشهد الذي يجدر ذكره هو زوج من التلال الصغيرة المخروطية، أحدهما ذو قمة مسطحة تقريباً مثل الطاولة، ويسمى الوشيعين الذي يغيّر رتابة سطح الأرض المستوية فيما غير ذلك من السهل[١].

وبعد أن أخذت كفايتي من النظر والمشاهدة وبعد أن أعطيت إبل حمل المتاع وقتاً لترعى وتعود إلينا، استأنفت مسيري نازلاً من آخر منحدر من النفود باتجاه شمال غرب.

تقع حافة السهل[٢]، الذي نمر فيه الآن، في منطقة الطفل الرملي الرئيسة مع

---

(١) من كلامه هذا يدل على عدم خشوعه في الصلاة (ابن جريس).

(٢) هذا الشريط بين رمال النفوذ والسهل ويبلغ عرضه قدمين تقريباً ويسمى الأضعد. (فيلبي).

بقع متناثرة من الحصباء، وأحياناً نتوءات من الجير الطباشيري الأبيض والجبس. وعلى بُعد حوالي ميل عن يسارنا يرتفع قصر وحيد يسمى الحجيلانة؛ ولقد تغير سطح الأرض بصورة تدريجية من الرمل إلى الحصباء. وبعد أن قطعنا هكذا نحو ثلاثة أميال وصلنا إلى نبع ماء يسمى عين القنور الذي يتدفق منه وشلٌ رقيقٌ من الماء الصافي البارد، والذي يقال: إنه ضار وربما يسبب الحمى، وهو يجرى حتى واحة جنيثه على مسافة ميل تقريباً نحو الشمال الغربي. والطبقة الواقعة تحت سطح هذه القناة تكون من نوع كارز (Kariz) وبها مجاري طول الواحدة خمسة أقدام وعرضها قدمان غائرة في التربة المكونة من الحجر الجيري على مسافات فاصلة بينها حتى مستوى الماء (عشرة أقدام تحت السطح عند رأس القناة ويقل تدريجياً كلما اقترب الماء من السطح).

وهناك جزءان من القناة مفتوحان، ويشكلان جدولاً مائياً بعرض قدمان، وبه ضفاف عالية من الطين المُلقى على كلا الجانبين خلال التطهير الدوري للقاع. إن قرية الجنيثة التي يستاء أهلها لسبب ما من اسمها التي أخذته من جَدة علي بن قنور من قبيلة الحطيم وهو الذي اكتشف النبع فيها وأسسها. والسكان يفضلون تسميتها بعين القنور إشارة للنبع الموجود فيها. وتتكون القرية من كتلة صماء من البيوت، التي تشكل تقريباً مربعاً من (١٠٠) خطوة في كل اتجاه، ودون سور دائري مستقل، على الرغم من وجود ما يشبه البوابة على الجهة الغربية.

وهناك بيت واحد أو بيتان واسعان نسبياً بالمقارنة مع غيرهما ومبنيان بناءً حسناً مع أبراج على هيئة غطاء المصباح، وعدد سكانها نحو أربعمائة نسمة وأصلهم من قبيلة الحطيم بصفة رئيسة. والحاكم أو الأمير في ذلك الوقت هو ناصر بن علي المذكور سابقاً. وكان الجدول المائي الذي سرنا بمحاذاته يمتد إلى ما وراء القرية ليسقي بستاناً صغيراً من النخيل في جهتها الشمالية، وبستاناً آخر مزروعاً حديثاً على بُعد ميل إلى الغرب، وبعده يفرغ ما فيه من مياه لري حقل كبير من الحنطة،

التي تتلقى أحياناً مياه إضافية من فيضان مجرى يسمى شعيب العرطاوي الذي ينزل من منحدر الصفراء نحو الشمال الغربي.

والآن سرنا في قاع هذا المجرى صاعدين بجوار قصر متهدم وعدد من الآبار المهجورة على ضفته اليمنى؛ ولأن هذه البقعة كانت تُزرع في الماضي، فقد أصبحت متشبعة كثيراً بالملح الذي كان من الواضح ينجرف مع التيار، وبالتالي يُترك هناك، على الرغم من أنه لا يزال يتناثر مراراً عندما يؤدي هطول المطر الغزير إلى غسل بعض الملح من التربة. وعلى بُعد ميل صعوداً في القناة جئنا إلى قصر عرطاوي الوحيد بهذا الحجم، وهو أيضاً على الضفة اليمنى، وفيه وجدنا ابن سعود وجيشه مخيمين في النهار. هنا يوجد أربعة آبار في جوار القصر مباشرة فيها ماءٌ وفير، على الرغم من رداءة الماء بها، على عمق لا يتجاوز خمسة أو ستة أقدام من سطح الأرض، بينما توجد بئر[١] وحيدةٌ بها ماء ممتاز على العمق نفسه على بُعد نصف ميل تقريباً في جهة الجنوب الغربي. وتكثر في هذه المنطقة طيور الطيهوج الرملية والحمام الصخري.

وقد وجدت ابن سعود يعاني من نوبة مرض الصفراء، الذي كان يُعزيه إلى تناول أكلة مريس (إقط محلول بالماء) التي تناولها خلال سيره ليلاً، في حين بذل كل من عبدالله والجنيفي ـ بعد أن عانا أكثر مما يرغبان من الشمس ـ جهوداً حثيثة لإبعاد نفسيهما عن جماعتي. فقد قاما على كل حال بنصب خيمتيهما على بُعد مسافة ما من خيمتي، ولم أرهما أبداً فيما تبقى من النهار. ورشيد، الذي كان واضحاً أنه مسرور بتخلصه من منافسة الجنيفي قد قال لي: إن الأخير قد سماه كافراً؛ لأنه في أحد المرات أهمل النداء للصلاة حتى ينتهي من نصب خيمتي[٢].

---

(١) تسمى هذه البئر المروى، أي المكان الذي تسحب منه المياه، وكلمة (المروى، أي المكان الذي يسقي منه الناس حيواناتهم وربما مزارعهم (فيلبي + ابن جريس).

(٢) لا يعتبر بهذا العمل كافراً، ولو أطلق عليه مقصراً أو متهاوناً ربما لكان أحسن. مع أن الإسلام شرع للمسافر أن يجمع ويقصر، بل يقدم ويؤخر الصلاة في حدود الوقت المحدد لصلاتي الظهر والعصر، وكذلك المغرب والعشاء. (ابن جريس).

بحلول الرابعة والنصف عصراً بدأ القوم يتحركون وينشطون مرة أخرى، ولكن مع هذا الوقت كان قد تأكد بصورة ضمنية أنه ليس عليّ التزام بالتوافق مع تحركاتهم. وتبعاً لذلك تركت رشيد ليجمع الأشياء ويذهب مباشرة إلى قرية الطرفية، حيث اقترحت أن نقضي الليل هناك، وأخذت متركاً وناصراً معي، وانطلقنا معاً في جولة بقرى السر. تقع منطقة الجنيثة في أكثر أجزاء السهل انخفاضاً، يفصلها جبل صغير عن الكتلة الرئيسة للقرى، ويشق شعيب عرطاوي هذا الجبل. وعندما صعدنا هذه القناة وجدنا ألسنتها العليا مغطاة بكثافة بشجيرات الطرفاء والأعشاب[1]، وعرضها حوالي ثلاثمائة، ياردة يتحفها من الجانبين جرف منخفضه. وراء هذه النقطة مباشرة التي عندها تشق القناة طريقها عبر الجبل صادفت بقعة صغيرة من النخيل تسمى طيوبي فيها برج واحد للمراقبة، وجاء ساكنه الوحيد ليسلّم علينا ويسمع أخبار العالم. يبلغ عدد النخيل في هذا البستان قرابة المائة، وينتصب واقفاً في قاع المجرى نفسه دون حماية أخرى من قوة الفيضان إلا من حاجز ـ هزيلاً ـ من أغصان النخيل. كنا الآن جنوب غرب قصر عرطاوي في حين على مسافة غير بعيدة تجاه الجنوب منا، ربما على بُعد ميلين أو ثلاثة أميال، في منخفض يغذيه سيل من منحدر الصفراء توجد واحة عظيمة هي الأكبر في السر وتسمى فيضة. وتتكون الواحة من ستة من بساتين النخيل الكبرى نسبياً، ورقعة من أشجار الأثل وقرية مسوّرة من أكواخ الطين، يسكنها حوالي أربعمائة نسمة من فخذ النوافلة الفرعي من قبيلة تدعى بني حسين والتي يقال: إن أصلها إما من الأشراف أو من بني تميم. وإلى الشرق من الفيضة يقع قصر واحد في قرية صغيرة تسمى بُغيلي وبها ستة من أشجار النخيل وبعض حقول الحنطة.

---

(١) لمزيد من المعلومات عن أشجار الطرفاء وغيرها من النباتات في جزيرة العرب، انظر: كتاب النبات، للدينوري. (ابن جريس).

إلى شـمـال من قناة عـرطاوي في هذه النقطة يمتـد تل بالعـرض، ويشـكل زوايا قائمة مع التل المذكور آنفاً. ويتكون من مواد جبسية. وبعده سرنا في الدرب العابر من الفيضة إلى القرى الشمالية حتى دخلنا في سهل منبسط واسع أبيض من رواسب الملح الشاسعة فيه، وتتناثر فيه واحات متباعدة إلى أقصى ما يستطيع المرء أن يرى. كانت حبيبات الملح تتلألأ مثل الماس في ضوء الشمس ونحن نشق سطح السهل الناعم غير المأمون، دون ناصر، الذي ناخت ذلوله فجأة به ورفضت التحرك رفضاً تاماً على الرغم من جميع جهوده لإثارتها، ومن ذلك وضع التراب في فمها. وقد اضطر إلى المشي حتى الطريفية التي وصلها مهدوداً ومتعباً، ثم أرسلت جماعة بحث من القرية لإعادة الحيوان خلال الليل. وتتكون الجبال هنا بشكل رئيس من الحجر الجيري مع بقع من الصخر الضارب إلى الحُمرة ومكسو بالملح وقدر كبير من الجبس.

وعندما سرنا شمال غرب وصلنا بعد نحو ميل إلى نهاية أول منطقة من السبخة، ووراءها تقع بقعة رملية بها الكثير من شجيرات العرفج والألندة، وبعدما عبرنا شعيباً رملياً صغيراً يجري من الغرب للشرق (رافد من روافد عرطاوي) فقد مررنا بوسط أشجار متناثرة هزيلة من النخيل تمتد لنحو نصف ميل بالعرض مع مسارنا تسمى (دمثى)، والمباني الوحيدة فيها كانت برج حراسة وقصر وحيد، ولكن لم يكن في أي منهما بشر. والنخيل تخص سكان فيضة. وبعد ذلك بميل أتينا على واحة صغيرة ساحرة تسمى عُيينة ونخيلها الذي يسقيه جدول نشط، يطل على المبنى الوحيد فيها، وهو قصر مربع صغير ذو أبراج مبنية على ربوة من الجبل الذي يفصل هذا الجزء من المنطقة عن منخفض الجنيثة.

على مسافة أقل نسبياً من نصف ميل إلى الشرق من الجبل يوجد نبعان في طور الاحتضار تقريباً، والمياه فيهما شديدة الملوحة، وهما على بُعد نحو مائة ياردة عن بعضيهما. الماء فيهما على مستوى قدمين تحت سطح الأرض، ولا يتدفق إلا ضعيفاً

حيث تعترض سبيله نباتات وطحالب لزجة ضارة. وقناتا كارز (Kariz) الصادرتان من النبعين توجدان في قناة واحدة مفتوحة على مسافة نحو مائة ياردة من النبعين، وهناك صف ضئيل من النخيل يصطف على ضفتي القناة، التي تتسع بعد ذلك بمسافة قصيرة لتصبح مثل البركة أو الخزان. ومن الطرف الشرقي منها يمتد مجرى الماء من خلال ثغرة في الجبل توجد بها كتلة كثيفة من النخيل. وبعد أن يمر من خلال الجبل يلتف المجرى شمالاً ليسقي بستان نخيل الرشية الدائري، على مسافة نصف ميل تقريباً شمال العُيينة ويبلغ قطر بستان الرشية نحو ربع ميل، وبه قصر واحد وبرجان للحراسة، وكلا الرشية والعيينة يخصان سكان الفيضة. ومن عجب أن النخيل يقدر على أن يستمد غذاءه من ماء شديد الملوحة، بالقدر الذي يرسب طبقة كثيفة على طول ضفتي المجرى. وعندما واصلنا سيرنا في اتجاه الشمال الغربي عبرنا جبلاً هو الآخر كان معترضاً ومنخفضاً في حوض الطرفية، ثم استدرنا غرباً لنزور النبع الذي يغذي الواحة الطويلة المتناثرة التي تحمل الاسم نفسه. إن عين الطرفية عبارة عن بركة ماء مغطاة بالطحالب والنباتات المائية الضارة، وغير الجذابة، يبلغ طولها ست ياردات وعرضها ياردتان، ويتكدس على ضفتيها أكوام عالية من الطين المالح الذي تتطهر منه بين الحين والآخر. ومن طرفها الشرقي يصدر مجرى ماء صاف ولكنه بطيء بعمق قدم وعرضه ياردة، ويتدفق بين ضفتين عاليتين بالطين على الجانبين حتى ارتفاع خمسة عشر أو عشرين قدماً. على بُعد ميل تقريباً نحو الغرب تقع قرية آل عامر الصغيرة، وليس فيها إلا شريط هزيل من النخيل على امتداد ربع ميل تقريباً وأربعة أو خمسة بيوت، وربما يكون سكانها ثلاثين نسمة تقريباً.

يبدأ أول نخيل من واحة الطرفية على مسافة ربع ميل تقريباً نحو الشمال الشرقي من النبع، ويمتد على جانبي المجرى كل أربعة أشجار قريبة من بعضها البعض لمسافة ربع ميل تقريباً، وينتهي في بستان كثيف، وإلى الشرق منه وعلى مسافة مئات قليلة من الياردات توجد القرية. تتكون هذه القرية من اثني عشر منزلاً

وهي تشبه القصور، وشيدت متلاصقة لتشكل كتلة صماء من البيوت التي تؤدي جدرانها الخارجية وظيفة الدفاع ضد أي هجوم محتمل[١]. ويبلغ عدد سكانها مائة نسمة من أصول مختلطة، منهم عدد من الزنوج[٢]، الذين كان أحدهم أميراً على القرية، واسمه هويدي، وقد دعانا لمشاركته القهوة في بيته، كما شمل بكرم ضيافته مطايانا التي أجهدها طول السفر، والتي قضت الليل راضية تصطك أضراسها وهي تطحن العلف الذي قدمه لها.

كان مجلس الأمير غرفة مستطيلة بسيطة بجدران طينية غير مزخرفة وخالية من السجاد أو أي رفاهية أخرى، بيد أنها، على كل حال، جيدة التهوية نسبياً بوجود صفوف من الفتحات الصغيرة، المربعة والمثلثة، القريبة من السقف، بينما هناك ثغرة كبيرة غير منتظمة الشكل في الجدار فوق الموقد لكي يخرج منها الدخان الناشئ عن عملية صنع القهوة. وقد انضم إلينا ما يزيد قليلاً عن درزنة من أهل القرية، حيث قضينا المساء مسرورين بدرجة كافية وشربنا فيه دورتين من القهوة وتبخرنا بالبخور قبل أن نعود للخيام[٣].

لقد قالوا لي: إن ينابيع منطقة السر تشتهر ببقائها في الوجود لما يزيد على ثلاثة قرون، وهي من حين لآخر - خلال تلك المدة - تضيع معالمها ويعاد اكتشافها ثم تضيع مرة أخرى، رغم أن الينابيع الحالية تعود إلى أقصى ما تحتفظ به ذاكرتهم وذاكرة آبائهم. وكانت عين القنور[٤] أول عين يعاد اكتشافها في العصر الحديث، تلاها نبع الطرفية ثم نبع السوينة وهكذا جذبت المنطقة سكانها الحاليين.

(١) من يتجول في أنحاء الجزيرة العربية يشاهد القرى القديمة متلاصقة، حتى إنه في بعض الأحيان يصعب على المشاهد تمييز المنازل بعضها من بعض. وهذا التزاحم ناتج عن الخوف والمخاطر التي كان يعيشها الناس آنذاك. (ابن جريس).

(٢) كان الزنوج يتواجدون بكثرة في جزيرة العرب، وعلى هيئة عبيد يجلبون من بعض بلدان أفريقيا كي يعملوا في مهن مختلفة عند الأغنياء وعلية القوم في المجتمع. (ابن جريس).

(٣) القهوة والبخور من العادات العربية المعروفة عند سكان الجزيرة العربية. (ابن جريس).

(٤) عين القنور: نسبة إلى علي بن قنور أحد رجالات قرية الجنيئة في بلاد السر. (ابن جريس).

وفي الطرفية توجد أيضاً آبار[١] عمق الواحدة ثلاث قامات حتى مستوى الماء، في شعيب صغير نحو الشمال الغربي، والذي يُقال أنه الموقع الأصلي للقرية قبل اكتشاف النبع. وتغطي قاع حوض الشعيب أشجار الأثل والطرفاء، وأحياناً يجري فيه جدول ماء صغير. والسكان الأصليون من بني تميم[٢] الذين ـ عندما هاجمهم الغزاة وطردوهم ـ هاجروا إلى منطقة تعرف باسم الأسياح[٣] إلى الشمال من وادي الرمة حيث أسسوا هناك قرية الطرفية التي زرتها في وقت لاحق بعد ذلك.

تحول الحديث بعد ذلك إلى موضوع الدين الذي يستحوذ دائماً على الانتباه، فقد قامت جماعتي طبقاً لما اعتادوا عليه بالجمع بين صلاتي المغرب والعشاء عند المغرب، ومضيّفونا، عندما حان وقت صلاة العشاء عندهم، سألوا جماعتي إن كانوا سينضمون إليهم أو أنهم سيكتفون بالصلاة المقصورة المسموح بها للمسافرين. وبعد بعض المناقشة اتفقوا على أنهم ما داموا قد جمعوا فعلاً صلاتي المغرب والعشاء فليس عليهم التزام بأداء أي منهما، وبالتالي فإن السؤال عن مشروعية قصر الصلاة يصبح أمراً فقهياً بحتاً[٣]. بيد أن هذه النقطة لم تنته دون نقاش قوي، الذي أظهر فيه القرويون البسطاء أشد الحرص والاهتمام. وخلال النهار كانت الرياح شديدة التباين، ودرجة الحرارة فيما بعد الظهيرة قد وصلت إلى مائة وإحدى عشرة درجة فهرنهايت، والسماء في ذلك الوقت ملبدة بالغيوم وتنذر بهبوب الرياح الموسمية المعتادة. وعندما جاء الغروب ساد هدوء تام، وعندما خلدنا للراحة في مكان مبيتنا الذي نستحقه عن جدارة كان الجو صافياً وبارداً بشكل رائع تحت سماء يضيئها القمر.

---

(١) الماء كله مالح وغير صالح للشرب، ولكن يوجد مورد ماء عذب بعد ميل نحو الجنوب الغربي (فيلبي + ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن قبائل بني تميم فروعها، مواطنها انظر: حمد الحقيل، كنز، ص ١٥٥ وما بعدها (ابن جريس).

(٣) الأسياح: هي جمع سيح (فيلبي + ابن جريس).

(٤) الجمع والقصر للمسافر أفضل من أداء كل صلاة في وقتها، وهناك أحاديث صحيحة تنص على ذلك. (ابن جريس).

بعد أن استأنفنا سيرنا في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي أتينا فوراً على ذيل مجرى مائي ضعيف، سرنا بمحاذاته وسط رقع مزروعة بالدخن وبقايا جذور الحنطة حتى واحة الحوينية الصغيرة. وهناك صف مزدوج من النخيل المتناثر على جانبي القناة قادنا إلى رقعة صغيرة مزدهرة من الزراعة، وفيها، بجوار بستان نخيل صغير تقع أحواض من نبات الفصفصة واليقطين، واللوبيا. وفيها برجان استخدما للحراسة وبقايا قصر متهدم. هذه هي الواحة التي تخص سكان الطرفية. ويلاحظ هشاشة التربة بسبب قشور الملح. وكل ما يوجد هناك يبلغ في مجموعه مائتي نخلة، كما أن ضفتي المجرى مغطاة بالقصب. وبعد نحو ربع ميل خلف منطقة الزراعة هذه يوجد النبع، تحت مستوى الأرض بنحو خمسة أقدام، وحوله أكوام عالية من الطين المشبع بالملح، وسطح مجرى الماء، بطيء الجريان الذي يبلغ عمقه نحو قدمين، وهو مغطى بالقصب ذي الرائحة الكريهة المثيرة للاشمئزاز لمسافة عشرين ياردة.

من هنا اجتزنا أرض السبخة المغطاة بشجيرات الحمض حتى مزرعة صغيرة بائسة فيها مائة نخلة متناثرة تقع على طول جانبي قناة ميتة طولها حوالي أربعمائة ياردة كانت تتدفق[1] ـ إن هي في الحقيقة قد تدفقت على الإطلاق ـ نحو الشمال. هذه هي سمرة، وهي أيضاً من أملاك أهل الطرفية الذين شيدوا برجاً واحداً للحراسة وسط النخيل. وعلى بُعد حوالي ميل باتجاه الغرب رأيت قصراً معزولاً وسط حقل من زراعة الحبوب تُسقى فيما يبدو من نبع آخر.

والآن واصلنا سيرنا فوق شريط من الصحراء يحده جبلٌ منخفضٌ إلى الشرق، وينحدر برفق مرتفعاً إلى الغرب. هنا وهناك تتناثر أدلة على وجود آبار مهجورة، ربما كانت حفراً تجريبية بحثاً عن ينابيع، وعلى يسارنا تمتد قناة مجرى مائي مدفونة على ما يبدو وتنتهي في رقعة صغيرة من النخيل المزروع حديثاً.

---

(١) يمتاز فيلبي في تدوين معلوماته بالدقة، فنجده يذكر عدد النخيل بنوع من الثقة فلا يقول (حوالي) أو (تقريباً)، وأحياناً أخرى يقول مثل هذه الكلمات إذا كان غير متأكد من المعلومة الصحيحة. (ابن جريس).

وبعد ميلين ونصف ميل تقريباً نحو الشمال من الطرفية أتينا على واحة الروشنية الكبيرة نسبياً، وتتكون من بستان نخيل دائري مساحته حوالي أربعة فدادين، ويُسقى بالساقية من بئر أو نبع، وتتكون أيضاً من شريط من أشجار النخيل طوله نصف ميل على ضفتي جدول ماء يجري من مصدر أو نبع على بُعد نصف ميل نحو الجنوب. في كل جزء من هذين القسمين يوجد زوج من أبراج الحراسة وقصر واحد(١)، وهذه المزرعة تابعة لأهل قرية السوينة التي تبدو الآن أمامنا في اتجاه الشمال الشرقي.

وقد وجهنا مسارنا إلى الينابيع التي تغذي القنوات التي تجعل السوينة من نواح كثيرة أشد القرى ازدهاراً في منطقة السر. ويوجد اثنان منها على بُعد نصف ميل من بعضهما البعض، ولهما قنوات كارز (Kariz) مبنية بصورة عفوية تلتقي عند نقطة تبعد (٣٠٠) أو ٤٠٠) ياردة، حيث يتدفق هناك جدول ماء حتى الواحة من خلال بقعة من الطين المالح الذي يكسو الحجر الجيري.

إن النبع الأكثر ميلاً إلى الشمال من هذين النبعين، والذي فحصته بمفردي، يقع في فوهة عمقها عشرة أقدام وقطرها ستة أقدام، وأجزاؤها العليا مبطّنة بالحجارة. والقناة الصادرة منه في نفق بفتحة رأسية كان عرضها قدمين، والفوهات نفسها كان عرض الواحدة قدمان تكون ناتئة أو بارزة عن مستوى الأرض. بعد حوالي مئات قليلة من الياردات تجري القناة وسط طريق ضيق مزروع بأشجار النخيل، والذي يتسع بعد ذلك حتى يصبح بستاناً أمام القرية نفسها مباشرة. وعلى مسافة ميل ونصف ميل نحو الشمال الغربي تقع واحة صغيرة تسمى الشهامة، وتضم مائة نخلة متناثرة، وبرج حراسة وقصراً في قاع شعيب بالاسم نفسه.

---

(١) أبراج الحراسة تكاد تكون منتشرة في عموم الجزيرة العربية، وتختلف من مكان لآخر في مواد بنائها ومساحتها وطوابقها، وأحياناً تكون على مقربة من المزارع كي تتخذ مكاناً لمراقبة المزارع من اللصوص وبعض الحيوانات المهددة للزرع والحرث. (ابن جريس).

بالإضافة إلى ستة أبراج مربعة ومنخفضة مشيدة للحراسة وسط النخيل وبيت واحد معزول خارج البوابة الوحيدة للقرية في جهتها الشرقية، فإن السوينة أو عين السوينة كما تسمى بصورة عامة تشكل مربعاً مضغوطاً من بيوت الطين طول ضلع الواحد مائة ياردة. والأبراج على المبنى الذي يحتل الزاوية الجنوبية الغربية تشكل منظراً رائعاً بقدر كبير[١]. والسكان الذين يبلغ عددهم نحو (٣٠٠) نسمة من بني[١] تميم، والتي ينتمي إليها الأمير المحلي عبد الكريم بن صبيحي.

ويمتد وراء القرية شريطٌ من النخيل به برج واحد للحراسة في وسطها لمسافة (٢٠٠) ياردة تقريباً على طول مجرى الماء، والذي يأتي إلى نهايته بعد ربع ميل في بقعة تضم خمساً وثلاثين نخلة ومساحة كبيرة مسورة مزروعة بالدخن المزدهر، وأرضاً أخرى مزروعة بالحنطة، التي لا يزال متبقياً فيها جذور النباتات من الحصاد الأخير. خارج هذه البقعة المسورة يوجد مزيد من الأرض الصالحة للزراعة والتي تعتمد على ما يتبقى من ماء الجدول من حين لآخر وبصورة جزئية على فيضان شعيب (الشهامه) الذي يُصرّف ماؤه في منطقة تعرف باسم وثيلان، وفي قاع هذا المجرى كان ظهور ستة من الغزلان كافياً ليغرينا بالتوقف لفترة وجيزة، بيد أن مترك كان شديد التأخر في استعداده وفور تمكنه من ذلك انطلقت طرائده، بعد أن وقفت تحدق فينا لبضع دقائق، تقفز هاربة فوق السهل البني اللون. عند هذه النقطة يجري الشعيب بين تل الصفراء بارتفاع ثلاثين قدماً وجرف من الطفل الرملي الطيني بارتفاع خمسة عشر قدماً، وتتناثر في المكان شظايا متلئلئة من الجبس. ومن هنا ـ على حسب ما قال ناصر ـ كانت قد جمعت كمية من الجبس من زمن غير بعيد وحملت بواسطة أحد المغاربة الذي زار هذه الأصقاع.

---

(١) لمعرفة معلومات تفصيلة عن نوعية الأبنية في نجد خلال العصور الماضية، وطريقة، بنائها وموادها، انظر: النويصر، خصائص التراث العمراني، ص ١٦ وما بعدها (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن فروع وبطون قبيلة بني تميم، انظر: الحقيل، كنز، ص ١٥٥ وما بعدها. (ابن جريس).

يمر الطريق للميلين القادمين عبر الشعيب، الذي تفادينا التواءاته بعبور وإعادة عبور قناته الرملية التي يزداد اتساعها دوماً، حتى أتينا على مجموعة من الآبار[(١)] غير المبطنة على الضفة اليمنى. وهذه الآبار بعمق ستة أقدام فيها ماء عذب، ومصدر مياه الشرب لقرية وثيلان، التي لا تبعد عنها بأكثر من ربع ميل فقط، والتي سرعان ما وصلناها.

تتكون القرية من قصر رائع ذي أبراج مع قليل من المباني الثانوية على منحدر جبل من الحجر الجيري، وهو الجبل نفسه الذي يقع نحو الشرق من طريقنا من دمثي فصاعداً. والقصر مشيد بالحجر الجيري والطين، وله مظهرٌ عتيقٌ متهدم مع برجين مبنيين بناءً جيداً.

وسكان القرية نحو ثلاثين نسمة تحت حكم شخص يدعى عامر من بني زيد، والذي يرجع أصله إلى شقراء. ويكتمل مشهد القرية بوجود الآبار غير المبطنة ذات ماء يميل للملوحة، وبقعة من أشجار الأثل، وبستان نخيل حديث مسور، ومساحة شاسعة مزروعة بالحنطة في مجرى السيل، على الرغم من أنها تروى بصورة جزئية من الآبار. هذا كله يقع في منخفض دائري واسع ذي تربة طينية محاط بحافة منخفضة لكنها عالية قليلاً عن مستوى الأرض، وفيها يصب السيل مياهه الزائدة، وهناك، بسبب عدم وجود التصريف تغور في الأرض. وفي الأعوام التي يهطل فيها المطر بغزارة تكون مساحة كبيرة خارج الحوض الحقيقي قادرة على إنتاج الحنطة، ولكن نسبة لعدد السكان المحدود فإنهم لا يستطيعون النجاح في التعامل مع هذه المساحة التي لهم الحق الأول في المطالبة بملكيتها؛ ولهذا فإن الغرباء يُسمح لهم بحكم العادة بالدخول فيها. ولقد قيل لي: إنه في عام (١٩١٧م) قد زُرعت قطعة كبيرة من

(١) مروي، مرويات (فيلبي). يقصد بكلمة مروي أو مرويات أي مواقع مياه تستخدم للشرب وسقيا البهائم (ابن جريس).

قبل مزارعين مغامرين من المذنب[1] وهم الذين حصدوا - ما مجموعه - ألفي صاع من الحبوب.

وعندما ضربنا أكباد الإبل سائرين في هذا الحوض، الذي يبلغ عرضه ميلين وينتهي نحو الشرق قريباً من رمال النفود، فقد صعدنا منحدر الصفراء، وبعد ذلك بفترة وجيزة دخلنا في منخفض يسمى الجيري حيث التزمناه. وينحدر هذا المنخفض نحو الشمال الغربي، تحفه مرتفعات جبلية من الحجر الجيري على كلا الجانبين، كما يتكون من تربة ذات مكونات رملية بها قليل من الأعشاب والنباتات الجافة. والآن تتراجع النفود للوراء بحوالي ثلاثة أميال على يميننا، بينما عن يسارنا نحو الغرب توجد صحراء الصفراء التي تبدو كما لو كانت بغير حدود، ربما تبلغ مساحتها حوالي عشرين ميلاً أو أكثر، وتمتد حتى نفود الشقيجة التي من المقدر لنا أن نرى امتدادها الشمالي في عنيزة[2].

بعد أن واصلنا سيرنا لميلين فوق الحوض الصخري لشعيب أبو عشيرة الذي يدخل في منخفض الجيري من الغرب، فقد التزمنا مساره متجاوزين أحياناً شجيرات الطلح فوق ألواح الصخر التي تلمع فيها مادة تميل للبياض، ربما تكون

---

(١) المذنب: مدينة تقع في طرف القصيم الجنوبي، ويعرف اسم المذنب منذ العهود القديمة، حيث يقول فيه لبيد بن ربيعة العماري:

طرب الفؤاد وليته لم يطرب
وعناه ذكرى خلة لم تصقب
سفهاً ولو أني أطيع عواذلي
فيما يشرن به بسفح المذنب

وقد وردت تفصيلات كثيرة عنه في كتب الأدب العربي والمعاجم، وللمزيد انظر: حمد الجاسر. أبو علي الهجري، وأبحاثه في تحديد المواضع (الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٣٨٨هـ)، ص ٣٢٠، محمد ناصر العبودي، بلاد القصيم (الرياض: منشورات دار اليمانة، ١٣٩٩هـ) جـ٦، ص ٢٢٣٧، عبدالرحمن الغنايم. المذنب. (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ص ٢٠ وما بعدها. (ابن جريس)

(٢) عنيزة: إحدى مدن القصيم الرئيسة، وللمزيد من التفصيلات عن تاريخها الحضاري، انظر: محمد السلمان. مدينة عنيزة بين الأمس واليوم (الرياض: مطابع الفرزدق، ١٤١١هـ/١٩٩٠م) ص ٢٢ وما بعدها. (ابن جريس).

حبيبات ملح. هذا الشعيب ينتهي في روضة تسمى قصير، محيطها نحو ميل، وتغطيها غابة من أشجار الطرفاء بكثافة. اقتربنا الآن مرة أخرى من حافة النفود، التي لا تبعد عنا إلا بنصف ميل، وعند نهاية قناة أبو عشيرة التي ليس لها مخرج من المنخفض. وقد تبادلنا السلام والتحية مع جماعة من الإخوان متجهين إلى ساجر، وفي وسط بقعة من أشجار الطرفاء صادفنا بئراً(١) وحيدة غير مبطنه فيها ماء عذب على عمق ستة أقدام. في هذه البئر وجدنا هناك رجلاً من الذين يجمعون العشب منهمكاً في استحمامه، بينما وقف حماره المحمل بحمل ثقيل ينتظره بصبر. وقد أدى هذا المنظر إلى عزوفنا عن الشرب.

وينتصب مرتفع جبلي من الرمل كبير الحجم يسمى صلحمية واقفاً عند حافة النفود على بُعد ثلاثة أميال تقريباً من النقطة التي تركنا عندها الروضة. ومن المسافة نفسها نحو الغرب يوجد هناك رجم فوق جبل الصفراء قد دلنا على خط الدرب المباشر من الطرفية إلى المربع، الذي قد انحرفنا عنه رغبة في استكشاف الأماكن والقرى المختلفة التي وصفتها آنفاً. يمتد مسارنا الآن عبر ممر يسمى جدارية بين أجراف من الحجر الجيري في مرتفع جبلي بالاسم نفسه وفوق ممر ضيق تتناثر فيه الصخور حتى روضة جدارية، وهي منخفض دائري عرضه نصف ميل، من الطفل الطيني الرملي الذي تنبت فيه شجيرات الطرفاء. ويمتص هذا المنخفض المياه التي تصب فيه كلما جاءت، وليس له مخرج، وكان من عهد غير بعيد منزلاً مفضلاً، أي مكاناً للتخييم، لعبيد بن لغيمش وهو شيخ فخذ بني عبد الله من قبيلة مطير(٢)، الذي استقر الآن هو وأتباعه ضمن قرية الإخوان الجديدة في فريثان(٣)، وعندما خرجنا من المنخفض أتينا على جبل من أجراف منخفضة شديدة

---

(١) قليب (فيلبي). وهذا مصطلح صحيح، فالبئر يطلق علهيا أيضاً اسم القليب. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن قبائل مطير، موطنها، فروعها، انظر: الحقيل، كنز، ص ١٣٦ وما بعدها. (ابن جريس).

(٣) في الحمادة تقع آبار فروتي على بعد ثلاثة أميال إلى الشمال منها (فيلبي).

الانحدار ذات لون يميل للحمرة مثل الملح الصخري، وفي جزء ناتئ منه أشار ناصر إلى قبور بعض عابري السبيل الذين لاقوا حتفهم عنفاً على أيدي اللصوص وقطاع الطرق منذ سنوات مضت عندما أصبحت لهذه البقعة شهرة لا تحسد عليها بأنها منطقة خطر[١]. وأمامنا تقع منطقة وعرة جرداء ذات قفر متموج لا حياة فيها. واستفدنا في مسارنا من المنخفضات الضحلة المتكررة حتى أتينا على جبل منخفض ومنه، وأثناء رؤية الخط البرتقالي للنفود على بُعد ميل عن يميننا، ألقينا نظرة على السهل الواسع من الطفل الرملي الذي تتناثر فيه الحصباء. وعلى مسافة بعيدة في وسطه استطعنا أن نرى النخيل المنتشر ورقع أشجار الأثل في قرية المربع وأمامها كان شيطان (عاصفة) الرمل[٢] يرقص في أكمل صورة بقدر ما أتذكر أنني رأيت مثله آخر مرة، وهو عمود حلزوني طويل ملتوٍ من الغبار، مثل الثعبان، يرتفع عالياً في السماء لنحو أربعمائة أو خمسمائة، قدم ثم يجمع ذيله تحته من الأرض قبل أن يختفي عن الأنظار فجأة كما ظهر. ويبدو أن هذه الظاهرة تحدث في الوقت نفسه مع التغير المفاجئ في اتجاه الرياح من الشمال الغربي إلى الجنوب الغربي.

خلال نصف ساعة وصلنا ونصبنا خيامنا لنوم القيلولة بمنتصف النهار في القسم الرئيس من القرية، التي تتكون من قصر واحد كبير له تاريخ عظيم فيما يبدو عليه من مظاهر، بجوار حافة بستان النخيل، ومساحته أربعة أفدنة. والأشجار محملة بالثمار[٣] إضافة إلى رقعة من الدخن الأخضر الغض وراء النخيل ومنطقة كبيرة من الحقول ما زالت فيها بقايا جذور النباتات من حصاد العام الحالي. على بُعد ميل إلى الشمال الشرقي يوجد قصر معزول وسط مزرعة حنطة، وعلى مسافة

(١) كانت القرصنة ومهنة قطع الطرق والاعتداء على الحجاج والمسافرين في الجزيرة العربية من المهن الرئيسة عند كثير من البدو المجرمين في أماكن عديدة. (ابن جريس).

(٢) يسمى شيطان الرمل عجاجاً ولكن العمود الحلزوني يسمى إعصاراً. (فيلبي).

(٣) لم تكن التمور قد نضجت بعد وهي تتدلى في سبائط ضخمة لونها أخضر أو أصفر. (فيلبي).

نصف ميل نحو الشمال والشمال الشرقي توجد رقعة من أشجار الأثل، بينما نحو الجنوب قليلاً من الشرق وعلى بُعد ربع ميل فقط هناك قصر آخر منعزل يحمي بستاناً من النخل الصغير الغض ومزرعة من أشجار الأثل. هذه هي قرية المربع التي تقع جميع أجزائها في الحوض الضحل لشعيب ينزل من الصفراء في الغرب باتجاه النفود، وأمامها ترتفع رابية منخفضة مغطاة بالرمال بارزة فوق السهل. وتحصل المستوطنة على الماء من آبار بعمق ستة أقدام في قاع الشعيب، وهو في معظمه ذو نوعية رديئة، ولكن يوجد مروى على بُعد مائتي ياردة شمال شرق القسم الرئيس الذي تتوفر فيه مياه شرب طيبة.

والسكان لا يمكن أن يزيدوا على أربعين نسمة في مجموعهم، وهم من البواهل[١] وأصلهم من بني تميم. ولقد جاءت معظم العائلات المستقرة هنا من المذنب بيد أن رجلاً عجوزاً أعمى في السبعين من عمره، الذي أتى إلى خيامنا لتجاذب أطراف الحديث معنا، قال: إنه قد جاء من واحة أم البارود الصغيرة في سهل السناد[٢] وقريباً من مخيمنا لاحظت مقبرة صغيرة، من الواضح أنها قديمة ولم تعد مستخدمة؛ لأن المقبرة الحديثة كانت على بُعد مسافة ما حسب ما قال ناصر. وفي المقبرة ستة من القبور مبنية في اتجاه شمال جنوب وعليها حجارة، ربما كانت تذكاراً أو أثراً من العصر الذي سبق تأصيل المذهب الوهابي في هذه الأصقاع[٣].

من الممكن أن تعد قرية المربع آخر نقطة خارجية في منطقة السر باتجاه الشمال، على الرغم من أن البعض ينظر إليها على اعتبار أنها تابعة للمذنب. وإنني

---

(١) ويقول الكابتن شكسبير إنهم من النواصر ولكن لم أحصل على معلومات عن هذه النقطة. (فيلبي) وللمزيد من التفصيلات عن عشائر البواهل والنواصر الذين ينتمون إلى قبائل بني تميم، انظر: الحقل، كنز، ص ١٥٥ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) نحو خمسة عشر ميلا جنوب ساجر. (فيلبي).

(٣) طريقة دفن الميت عند المسلمين هي وضع الجثة على الجانب الأيمن والوجه في اتجاه القبلة. (فيلبي). وقد يدفن المسلم خلاف ذلك للجهل الديني عند من يقوم بعملة الدفن. (ابن جريس).

لم أتحقق بصورة دقيقة إلى أيهم تنتمي للأغراض الإدارية، وربما تكون هذه المسألة ليست مهمة كثيراً. إنها لا تستطيع أن تزود خزينة الدولة المركزية إلا بالقليل من ناحية الإيراد، على كل حال يمكن أن يُنظر بثقة وتأكيد إلى الصحراء في شمالها مع شعابها ومجاري سيولها المتجهة نحو الشرق حتى حافة النفود على أنها تشكل جزءاً من منطقة المذنب التي نمر فيها تبعاً لذلك الآن، تاركين الأرض وخرير مياهها خلفنا. وعلى حسب الطريق الذي سلكناه كانت المسافة من الطرفية حتى المربع تسعة عشر ميلاً تقريباً.

٥ـ المذنب[١]

خلال توقفنا منتصف النهار في قرية المربع كانت رياح الصباح التي تهب بصورة ثابتة من الشمال الغربي قد أفسحت المجال فجأة لعواصف ذات إعصار حلزوني تهب تباعاً من الشمال الغربي والجنوب الغربي. كما أن كميات الرمل العظيمة المنجرفة معها تكتسح القفار أمامها، ولكن بحلول الساعة الثالثة والنصف عصراً، عندما استأنفنا سيرنا، أصبحت الرياح تأتي بصورة ثابتة ومعتدلة من الجنوب الغربي والغرب، وتجلب معها سُحباً في الأفق.

وراء الضفة اليسرى أو الشمالية للشعيب يقع المتداد شاسعٌ من الصفراء، صخري ومتموج بشكل رقيق مع وجود النفود البعيدة على طول حدوده الشرقية. وبعد نصف ميل من المخيم عبرنا شعيب أصقل بعرض عشرين ياردة ويجري نازلاً باتجاه الشرق ليغرق في حاجز النفود، وتتكون ضفتيه المنخفضتين من أنقاض الحجر الجيري المفتتة. ودونه يأتي شعيب ريدان أحد روافد أصقل الذي يدفع بحوضه الرملي البالغ عرضه مائة ياردة عبر مسارنا، والصحراء من ورائه تلمع برقائق

(١) للمزيد عن التفصيلات عن مدينة المذنب، انظر: العبودي، بلاد القصيم، جـ٢، ص ٢٢٣٦ – ٢٢٣٨، الغنايم، المذنب، ص ٢٠ وما بعدها. (ابن جريس).

الجبس المتناثرة فوق سطحها المليء بالحصى. وهناك قطيع كبير من إبل الإخوان يرعى على مسافة بعيدة تحت حافة النفود ـ التي تبدو هنا ـ طبقاً لما قاله ناصر، ذات عرض أكبر بكثير مما يوجد على طول الخط الذي سلكناه لعبورها. وفي الطرف الشرقي منها يوجد منخفض دائري واسع ـ قطره نحو ميلين ـ يسمى صيادة الذي كان مسرحاً لمعركة خالدة في الماضي بين فخذي بريح وعلوة من مطير[١]، حيث اصطاد أحد الفخذين الآخر وأوقعه في شركه وأباده من الوجود في «سيدان»[٢] هذه.

بعد السير لمسافة ميل بعد قناة ريدان أتينا على شعيب الزرع الذي يتجه من هنا شرقاً نحو النفود، قادماً من الشمال الغربي، وفي هذا الاتجاه سرنا في مجراه صاعدين خلال رقعة من الأعشاب والنباتات بشكل رئيس الأرطي والأظير الصفراء، وهما نوعان من النبات يشبهان ولكنهما أزهى خضرة من الأظير الموجود في النفود[٣]. وتعرف هذه البقعة باسم روضة الزرع. وقد تم تنظيف جزء عظيم منها من أجل الزراعة، ويدل عليه بقايا جذور النباتات التي تركت بعد الحصاد الأخير. تقسم الأرض إلى أحواض صغيرة مستطيلة، وتعتمد بشكل تام على المطر والسيول، ويزرعها قوم من المذنب. ربما تكون مساحة الأرض المزروعة ثلاثين فداناً في مجموعها، وتنفصل الممتلكات الفردية عن بعضها بخنادق ضحلة عرضها قدم وعمقها بوصتان[٤].

(١) لمزيد من الاطلاع عن قبائل مطير، انظر: الحقيل، كنز، ص ١٣٦. (ابن جريس).

(٢) سيدان (Sedan) مدينة شمال شرق فرنسا دارت فيها معركة حاسمة هزمت فيها فرنسا خلال الحرب الفرنسية الروسية في عام (١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م). (ابن جريس).

(٣) يوجد في المذنب العديد من النباتات مثل: النخيل، والأثل، والعوشز، والحنظل (الشري)، الطرفاء، والشنان، والأرطي، والعرفج، والبرسيم البري (الحسك، والصمغاء، والخزامى وغيرها، انظر: الغنايم، المذنب، ص ٧٥ – ٧٧. (ابن جريس).

(٤) لمزيد من التفصيلات عن الزراعة وطرقها وأنواع المزروعات في المذنب، انظر: الغنايم، المذنب، ص ٨٢ – ١٠٢ (ابن جريس).

كنا الآن على الدرب الرئيس، الذي يتضح اتجاهه بخط علامات من أكوام الحجارة على الجبل الموجود عن يميننا، وبعد أن تجاوزنا الروضة بفترة وجيزة ألقينا أول نظرة لنا على بساتين نخيل المذنب الكثيفة والمتشابكة تحت مرعى النفود، الذي يقع الآن على بُعد ميل تقريباً إلى الشرق. وأمامنا امتد سهل متموج هائل أجرد بصورة غير عادية. ويقطع الدرب شعيب تبينان[١] الذي يتسع كلما نزل في منخفض كبير يسمى المصية[٢] الذي يشغل حوضاً عظيماً في الجانب المتراجع من النفود. هذا المنخفض عبارة عن حمى، أي مرعى إضافي لأهل المذنب، ويقوم على حراسته من المعتدين برجان أو ثلاثة أبراج هزيلة على مسافات فاصلة بينها في وسطه. هنا من حين لآخر تأتي جماعات من المحتطبين ليقطعوا ويحملوا معهم الأعشاب[٣] المتنوعة التي تنمو بغزارة كبيرة[٤].

بعد تبينان يصبح سطح القفر وعراً بصورة مفرطة بوجود ألواح كبرى من الحجر الجيري إما مطمورة في التربة أو متناثرة بصورة مفككة على السطح. ووراء ذلك يصبح السهل مرة أخرى أنعم وأسهل، وتنتشر فيه حبيبات صخرية ورمل مع زوائد من الصخر أحياناً. اتضحت لنا الجهة التي نقصدها بالكامل، ولذلك أرسلت متركاً ومنوراً ليخبرا الأمير بوصولنا، في حين ـ وبرفقتي ناصر كدليل ـ انطلقت مبتعداً عن الدرب المطروق فوق سطح صخري وعر حتى كوم بعيد من الحجارة ومنه ـ ما توقعت ـ ألقيت نظرة رائعة على المذنب وقراها الفرعية. ولكي نصل إلى هناك

(١) تبينان: واد صغير ينتهي في جنوب غرب المصية. وقد ذكره فيلبي باسم (طبيلان) انظر: الغنايم، المذنب، ص ٧٢. (ابن جريس).

(٢) المصية: أو روضة المصية، مع أن فيلبي سماها (النماصية) انظر: الغنايم، المذنب، ص ٦٦، ٧٠. (ابن جريس).

(٣) أشهر هذه الأعشاب النقال، وهو عشب بري منه نوع الفصفصة، والحرض الذي يسمى الشمتري في الشام وأخيراً القحويات (فيلبي).

(٤) عن أعمال الرعي في المذنب وكذلك أنواع النباتات والأشجار، انظر: الغنايم، المذنب، ص ٧٥ - ٨٠. (ابن جريس).

كان علينا أن نغلب على وعورة السير الشديد إذ عبرنا شعيب نسر[١] ومجرى آخر أصغر منه، وكلاهما يصرف مياهه عند الفيضان في المنخفض الكبير والذي تقع فيه القرى.

فور أن وصلنا كوم الحجارة غابت الشمس خلف الأفق متوهجة لمدة قصيرة بخيوط اللهب، دون أن تحدث تأثيراً على رمال النفود، التي ظلت محتفظة بلونها البرتقالي الكئيب من النهار. وكان ناصر، بعد أن توضأ بما تبقى من ماء في قارورتي، ولكنه رفض العرض الذي قدمته له بفرد عباءتي له للصلاة فوق السطح الصخري للنتوء الذي نقف عليه على أساس أن منحدر التل كان (بصورة شرعية) طاهراً[٢]. وبينما كان يؤدي صلاته استدرت لأستكشف المشهد أمامي. وذلولنا التي كرهت وعورة وقسوة الأرض فضلت النهوض والتحرك مبتعدون، وهنا قام ناصر بعد أن قطع صلاته، بمطاردتها وإعادتها مرة أخرى، ثم استأنف صلاته التي قطعها. وكنت دائماً أشعر في مثل تلك الأوقات أن هناك شيئاً ما يستحق الإعجاب بشدة في بساطة ويُسر الشعائر الوهابية، التي تنظر أبداً وقبل أي شي آخر إلى الحاجات العملية في الحياة اليومية[٣].

وفي أثناء بقائنا ونحن نقوم بمسح المشهد جاء ثلاثة رجال، من الواضح أنهم ذوو مكانة ومنصب، وفي الحقيقة، كما قال ناصر، كانوا أبناء عمومة أمير المنطقة، وسألونا ما إذا كنا رأينا شيئاً من بعض إبلهم الضالة. وناصر نفسه، الذي ينتمي إلى

(١) شعيب نشر: أشهر أودية منطقة المذنب وأكثرها أهمية، يتكون من روافد عديدة منها شعيب القصيعي شمال السحق ويمر بالدعثة. انظر: الغنايم المذنب، ص ٧٢. وللمزيد عن تضاريس وطبيعة بلاد المذنب، انظر المرجع نفسه.

(٢) طهارة الأرض للمصلي من الميزات التي منحها رب العالمين للرسول ﷺ، وهذا ما نصت عليه كتب السنن. (ابن جريس).

(٣) ليست الشعائر الوهابية، كما يقول فيلبي، وإنما هي شعائر الإسلام التي نص عليها القرآن الكريم والسنة النبوية. (ابن جريس).

فرع النواصر[١] من تميم قد زعم وجود علاقة قرابة بعيدة له مع الأمير، الذي ينتمي للفرع نفسه.

إن الطرف الشمالي من منخفض المصية يلامس تقريباً حافة حوض المذنب، الذي ينفصل عن النفود في هذه النقطة بوجود جبل عريض من الحجر الرملي يسمى الخرطم[٢] الذي كان جانبه الخارجي أو الغربي يمتد تقريباً في جهة الشمال تماماً حتى يقترب فيما يبدو من وادي الرمة.

وتتراجع النفود نفسها إلى الخلف في اتجاه شمال شرق وقبل مسافة طويلة تنخفض بوضوح حتى يصبح عرضها نحو ثلاثة أو أربعة أميال فقط؛ لأنه يحدها من الشرق سهل المستوى. ويقال: إن شريطاً ضيقاً من السهل يفصل الجانب الغربي من النفود عن جبل الخرطم الذي يزداد في عرضه كلما امتد نحو الشمال وفي أجزاء منه تنتشر خيوط من الرمل التي تكسوه.

تشكل منطقة المذنب حوضاً شاسعاً، يحده من الشرق جبل الخرطم وهو محاط بالكامل من الجهات الأخرى بحافة صحراء الصفراء. وعلى أحد روابيها وقفنا حيث رأينا قنوات السيول الكثيرة النازلة منها التي لا تجد مخرجاً من المنخفض، فتهب الحياة لأرضه الطينية الخصبة. من بين هذه القنوات شعيب نصر المذكور آنفاً، يتدفق من الجنوب للشمال متخللاً مزارع القفيفة وعلى مسافة أبعد جهة الغرب يوجد شعيب القفيفة نفسه الذي ينزل من الصفراء متخللاً مزارع الثُّليما والهيشة ونبعة يروي بساتين القفيفه وجزءاً من منطقة المذنب، وشعيب العليا القادم من الغرب متخللاً قرية بالاسم نفسه يمتد في شعيب المذنب الذي يمد الجزء الرئيس

(١) يقول ناصر إنه يمكن أن تجد النواصر في الفرعة (بالوشم) والمذنب، والغاط، والروضة، والحوطة، والتويم (فيلبي). للمزيد عن فروع النواصر من بني تميم انظر: الحقيل، كنز، ص ١٥٥ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) جبل الخرطم: يشرف على مدينة المذنب القديمة من الشرق، ويصل ارتفاعه النسبي عما حوله تقريباً (٤٥ – ٥٠) متراً، ويجاوره من الشمال جبل الكيس الذي يقاربه في الارتفاع، ويشرف على روضة السفالة. (الن جريس).

من واحة المذنب نفسها بالماء بعد أن يروى، في ألسنتها العليا جهة الغرب، مناطق القاع والعقيله. وكل هذه القنوات تنتهي مقابل سفح جبل الخرطم وتصرف فائض مائها في منطقة شاسعة من مزارع الحنطة الطيبة نحو الشمال تعرف باسم السُفالة[(١)].

ولأن الليل قد أرخى سدوله فقد نزلنا من النقطة المرتفعة التي منحتنا أفضلية في الرؤية إلى الحوض، وعند حافته قطعنا بالعرض قاع شعيب قفيفة الذي تكسوه شجيرات الرمث حتى وصلنا إلى قصر الأمير المشيد تشييداً حسناً والبهيّ المنظر عند حافة مزارع قفيفة. وقد نُصبت خيامنا بجوار القصر قرب بئر مبطن ببناء رائع الذي لا يزال في طور الإنشاء، ولاحظنا أن الفوهة قد نزلت بالفعل إلى عمق عدة قامات قبل الوصول إلى مستوى الماء. إن ماء منطقة المذنب تفسده بصورة عامة الأملاح المعدنية وطعمه يميل للملوحة قليلاً، ويوجد على عمق يتراوح بين ثماني إلى عشر قامات، ولكن مروى المنطقة كلها يتمثل في بئر واحدة بعمق سبع قامات تقع في القفيفة ويعرف باسمها، وهي في بستان النخيل وراء بيت الأمير[(٢)].

بحلول هذا الوقت كان التعب قد تمكن منا بعد سيرنا الطويل، فالمسافة الحقيقية من المربع إلى القفيفة نحو ستة أميال، ولم أشعر بالأسف عندما سمعت أن مضيفنا، فهد ابن عبد الكريم العقيلي[(٣)] قد عزم على الاستفادة من الليلة في

(١) لمزيد من الإيضاح عن تضاريس بلاد المذنب،انظر: الغنايم، المذنب، ص ٥٨ - ٧٤. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن مصادر المياه في بلاد المذنب، وعن ارتفاع الملوحة في مياه آبارها، انظر: الغنايم، المذنب، ص ٥٨ وما بعدها. (ابن جريس).

(٣) فهد بن عبدالكريم العقيلي كان أميراً للمذنب من قبل آل رشيد في حائل منذ عام (١٣٠٨هـ/١٨٩٠م)، وقد عاصر الصراعات مع ابن سعود وابن رشيد حتى عام (١٣٢٤هـ/١٩٠٦م)، حيث عفا الملك عبد العزيز آل سعود عنه، وأعاده أميراً على المذنب، وفي عام (١٣٤٠هـ/١٩٢١م) تم تعيينه أميراً لمنطقة عسير في أبها ولكن لم يوفق حيث ظهر ضده تمرد من أهالي عسير بقيادة الأمير/حسن بن عائض فحاصروه في أبها لعدة أيام ثم اعتقلوه. للمزيد، انظر: الغنايم، المذنب، ص ٣٥، ثيثان بن جريس. أبها حاضرة عسير، ص ٦٠، للمؤلف نفسه، عسير في عصر الملك عبدالعزيز، ص ٢١ وما بعدها، للمؤلف نفسه: دراسات في تاريخ وحضارة جنوبي البلاد السعودية (جدة: دار البلاد للطباعة والنشر، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)، ص ١٧ وما بعدها. (ابن جريس)

متابعة بن سعود، الذي غادر إلى عنيزة الرابعة عصراً بعد أداء صلاة العصر وتناول العشاء. وعلى كل حال كان الأمير قد أعلن عن نيته في دعوتنا على العشاء قبل أن يغادر، ولم يمض وقت طويل إلا وقد استدعينا إلى القصر. واستقبلنا عند المدخل فهد نفسه، الذي أوصلنا إلى مجلس القهوة عنده، وهو صالة ذات أبعاد رحبة، بطول أربعين قدماً وعرض ثمانية عشر قدماً وارتفاع حوالي خمسة وعشرين قدماً. وجدرانها مبنية بناءً صلباً ومكسية بالطين. كما أنها مفروشة بصورة فخمة بالسجاد والوسائد. ووضع الموقد في الطرف البعيد عن الباب، والجدار الطويل في الجانب الداخلي تتخلله ثلاث فتحات كبيرة فوق مستوى الأرض بأقدام قليلة، وكل فتحة منها مزودة بباب خشبي عليه زخارف أنيقة[١]. هنا أخذنا قسطاً من الراحة لبعض الوقت ونحن نحتسي عدة دورات من القهوة ونتبادل التحايا مع مضيفنا، الذي عبّر مراراً عن سعادته باستقبال واحد، بصفته ضيفاً، يُجلّه ابن سعود نفسه إجلالاً كثيراً. وفجأة اختفى، لا لشيء إلا ليظهر مرة أخرى ودعوات المضيف الكريم على شفيته، قائلاً: «اقلطوا» أي تعالوا ادخلوا للأكل، وسرنا في أثره صاعدين إلى غرفة في الطابق العلوي، حيث انشغلنا مباشرة بطعام سخي من لحم الضأن المطبوخ والأرز، وقد كان مملحاً بطريقة جيدة[٢]. ولقد قدّرنا هذا الطعام حق قدره؛ لأنه أول وجبة حقيقية نتناولها ذلك اليوم، وبعدها نزلنا مرة أخرى إلى المجلس الكبير، حيث وجدنا صحبة عظيمة قد اجتمعت لشرب القهوة معنا. وفي المجلس لاحظت عدداً كبيراً من الإخوان الذين يتميزون عن رفاقهم بغترتهم البيضاء. ومرت القهوة عليها عدة مرات، وأصر العبد على أن آخذ منه الفنجان الرابع، على الرغم من أنني ظننت أنه من الأدب أن أقول له «كفى» بعد الثالث.

---

(١) للاطلاع على معلومات أكثر عن الأنماط المعمارية في بلاد المذنب، انظر: الغنايم، المذنب، ص ٣٧، ١٠٤ – ١١٣. (ابن جريس).

(٢) عن الأطعمة والأشربة وأدواتها في المذنب، انظر: الغنايم، ص ١١٦ وما بعدها (ابن جريس)

ارتفعت حرارة الغرفة بسرعة لا تطاق، وغرقت في حمام من العرق. في مثل هذه الظروف من الصعب المحافظة على تدفق الحديث العادي، ولذلك سرعان ما استفدت من معرفتي أن مضيفي يعتزم السفر في الليل فقدمت أعذاري وانسحبت من الجلسة.

كان فهد بلا شك رجلاً مميزاً فوق العادة، رجلاً صاحب آراء مستنيرة وتقدمية، عنده معلومات عن العالم الخارجي. إنه يتذكر زيارة النقيب شكسبير له تماماً(١)، بيد أنه لا يذكر شيئاً على الإطلاق عن ليتشمان، الذي من المؤكد قد زار المذنب قبل الحرب خلال رحلته في الذهاب إلى الرياض. ومن المصادفة أن فهداً، مثل الكثيرين جداً من الرجال البارزين في نجد، يرتبط مع ابن سعود بعلاقة مصاهرة، فأمه هي خالة إحدى السيدات الكثيرات اللائي تمتعن بشرف زواج سريع الزوال من الحاكم الوهابي. وعند عودتي إلى خيمتي أرسلت رشيداً بعباءة طيبة هدية للأمير، بيد أنه أعادها مع رسالة تقول: إنه سيكون على النقيض من قواعد الكرم وحسن الضيافة بالنسبة له أن يقبل هدية من ضيف(٢). وأتصور أنه يعني ما يقوله حقاً، فشهرته ببذخ الضيافة تطبق الآفاق. وقد قرن رسالته برغبته في أن أعود إليه مرة أخرى لتناول القهوة معه قبل رحيله، ولكن لأنني كنت قد نويت عمل الواجب قبل الذهاب للفراش، فقد اعتذرت متحججاً بالتعب، وقبل منتصف الليل بقليل رأيته وأتباعه يمتطون إبلهم ويرحلون بنور البدر التام. في هذه الليلة كنت سعيداً جداً بفراشي؛

---

(١) الرحالة شكسبير الإنجليزي قام برحلات عديدة في جزيرة العرب كان آخرها الرحلة السادسة التي عبر فيها وسط الجزيرة في عام ١٣٣٣هـ/١٩١٤م)، انطلق من شقراء عبر نفود السر، ودون مشاهداته عن قرى ومزارع عديدة في تلك المنطقة. وربما كان البارون نولدي الأوربي الوحيد الذي سبق شكسبير إلى هذه المواقع في معركة جراب التي وقعت بين ابن الرشيد وابن سعود عام (١٣٣٣هـ/١٨٧٦م). وقد قتل شكسبير أثناء هذه الرحلة في معركة جراب التي وقعت بين ابن الرشيد وابن سعود عام (١٣٣٣هـ/١٩١٤م)، للمزيد انظر: الغنايم، المذنب، ص ٤٠ نقلاً عن مصادر تاريخ الجزيرة العربية (المنشور في جامعة الرياض - الملك سعود حالياً - عام ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) جـ٢، ص ٧٢. (ابن جريس)

(٢) عدم أخذ هدية من الضيف عادة عربية قديمة. (ابن جريس).

لأنني أدرك تماماً أنه قبل الفجر يجب عليّ أن أستيقظ مرة أخرى لألحق بركب البيرق[١] الذي لم أره منذ إقامتنا في مخيم قصر عرطاوي.

في الحقيقة امتنع رشيد ـ بود شديد ـ عن إيقاظي حتى ارتفعت الشمس في كبد السماء، وزاد تأخر انطلاقنا أكثر بقدوم الفطور غير المتوقع، وكان وجبة خفيفة ولكنها مرغوبة بشدة من الأرز المتبل بالبصل والتمور الطازجة[٢].

والقصر ـ الذي رأيته الآن لأول مرة في وضح النهار ـ بدا أنه بناءٌ مربع عظيم، وانتظام الزوايا وتناسقها لا ينقطع إلا بنتوءات من الأبراج في الزوايا الأربع. وهناك ثلاثة أبراج منها مزودة في أعلاها بشرفات أو فتحات تطلق منها النار، بينما تجد الرابعة في الركن الجنوبي الشرقي من المبنى منخفضة بكثير عن الثلاث الأخرى وذات مظهر متكسر غريب مثل المآذن في البلد الوهابي الحقيقي. ويبدو أنها تؤدي غرضاً مزدوجاً كبرج للحراسة ومئذنة لمسجد الأمير الخاص. ويوجد قصران آخران في منطقة القفيفة[٣]، التي تضم حوالي اثني عشر إلى خمسة عشر فداناً من النخيل مقسمة إلى أربعة أو خمسة بساتين مسورة، بها أعداد وفيرة من أشجار الفواكه النامية تحت النخيل.

ولقد عزمت على القيام بفحص مفصل لجميع القرى التي تشكل منطقة المذنب، وبحلول الساعة السادسة صباحاً، بعدما وزعت العطايا على خدم الأمير الكريم المضياف، كنت قد انطلقت فيما ثبت أنه رحلة طويلة ومرهقة في ذلك النهار. فلمسافة ميل تقريباً سرنا في قناة شعيب القفيفة صاعدين فوق سطح مليء

(١) يقصد بالبيرق هنا، أي الحملة العسكرية التي على رأس الملك عبدالعزيز آل سعود. (ابن جريس).

(٢) عن الأطعمة والأشربة في المذنب، انظر: الغنايم، ص ١١٦ وما بعدها. (ابن جريس).

(٣) يوجد في المذنب العديد من القصور والبيوت الأثرية القديمة، وأقدمها قصر باهلة نسبة إلى البواهل الذين سكنوا المذنب في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) للمزيد عن الآثار القديمة في المذنب، انظر: الغنايم، المذنب، ص ٤١ – ٤٩. (ابن جريس).

بالحصى، نعبر ونعيد عبور الشعيب مرات كثيرة، ثم انحرفنا عنه نحو برج حراسة عند طرف واحة نبعة التي تتكون من قصور قليلة متناثرة وأربعة أو خمسة بساتين نخيل في أو على طول قاع الشعيب. ووراءها توجد قرية صغيرة شبه خربة من تسعة أو عشرة بيوت في ثغرة بين بستانين مع قليل من الأكواخ الطينية المربعة المتناثرة هنا وهناك. هذه المزرعة تخص أهل المذنب، والتي يصل عدد مستأجريها ـ المقيمين في العقار ـ إلى مئة شخص تقريباً. ومثل أي مكان آخر في هذه المنطقة فإن الإبل تستخدم بصورة حصرية تقريباً لسحب المياه من الآبار. والبساتين منتشرة بغير نظام، بيد أن الفجوات بينها مملوءة عن آخرها ببقع كبيرة من زراعة نبات الفصفصة والدخن. ولقد رأيت أيضاً بعض أحواض من اليقطين والخضروات الأخرى[١]. يبلغ طول الواحة حوالي نصف ميل من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، وتقع على بعد ميل تقريباً جنوب غرب القفيفة. بعدها دخلنا مرة أخرى في قناة شعيب القفيفة، التي يبلغ عرض قاعها الرملي ذي الصخر المتناثر نحو مائة ياردة بين أجراف من الحجر الجيري بارتفاع عشرين قدماً. وعلى بعد ميل إلى الجنوب تقريباً في وهد فرعي صغير تقع قرية الهيشة[٢] الصغيرة وتمتد لمسافة ربع ميل في اتجاه شرق غرب مع نخيلها واثنين أو ثلاثة قصور صغيرة.

وبعدما واصلنا السير صاعدين في شعيب قفيفة نحو الجنوب الغربي أتينا على واحة شاسعة وكثيفة نسبياً تسمى الثليما تقع على الضفة اليمنى في ارتداد من الصفراء. وهي محاطة بالكامل تقريباً بسور طيني مبني من عدة مداميك من الحجر الجيري على طول حافة الشعيب. وكانت أشجار النخيل في الجزء الشرقي من المزارع تبدو ضعيفة وهزيلة بسبب ـ كما قيل لي ـ فقر أصحابها، الذين كانوا غير قادرين على تأجير عمال خلال موسم التسميد، ولا يستطيعون شراء إبل

(١) عن الأحوال الزراعية في المذنب، انظر: الغنايم، ص ٨٢ – ٩٤. (ابن جريس).

(٢) الهيشة: إحدى قرى المذنب، كما يوجد هناك واد يسمى: الهييشة، انظر: الغنايم، ص ٧٤. (ابن جريس).

لاستخدامها في الري. أما الجزء الغربي فهو أشد نضارة وازدهاراً، وبه مساحة كبيرة من الدخن، والفصفصة، وبقايا جذور الحنطة. في الزاوية الجنوبية الغربية توجد مقبرة وقرية مهجورة من عشرة بيوت، التي لا يمكن أن يتجاوز إجمالي سكانها خمسين شخصاً.

عندما استدرنا إلى الشمال الغربي عبر حافة الصفراء الملتوية أتينا بعد ميل إلى واحة القاع التي يعيش سكانها وعددهم خمسون شخصاً في سبعة أو ثمانية بيوت متناثرة على طول حافة بقعة من النخيل يبلغ متوسط عرضها مئة ياردة، وبها نخل مثقل بأحماله من الثمار، ولكنه ليس كثيفاً في عدده. وتضاف إليه أشجار الأثل والدخن والفصفصة التي لا بد منها. وتكتمل القرية ببستان واحد معزول به بيت واحد تجاه شعيب عُليا الذي سرعان ما وصلناه عند الطرف الغربي من واحة العليا. وللقناة هنا قاعٌ صخريٌ مع بئر صغيرة محفورة فيه حتى عمق قامتين، وبجواره يوجد زوج من خيام البدو[١]. تمتد الواحة نازلة في القناة حتى التقائها مع شعيب المذنب، وعلى طولة يتناثر النخيل لمسافة قصيرة. بالإضافة إلى المساكن المنتشرة وسط النخيل توجد قريتان صغيرتان، كل منهما تضم عشرة بيوت، والأبعد منهما تقع مباشرة بعد التقاء المجريين على الضفة اليمنى. والسكان المقيمون فيها لا يتعدون مئة شخص.

هناك أرض فضاء مفتوحة مساحتها (٢٠٠) ياردة تقريباً، تفصل العليا عن الواحة التالية، العقيلة[٢] وهي مزرعة ناضرة مزدهرة كثيرة الأشجار ومعتنى بها تماماً، وهي ملك شخصي للأمير. وتمتد جنوب غرب وشمال شرق، لحوالي نصف

(١) البدو الرحل يعتمدون على خيام الشعر التي يصنعونها ويسكنون فيها، وذلك لعدم استقرارهم في مكان واحد. (ابن جريس).

(٢) ذكر فيلبي اسم (العقيلة)، ولم نجد في المراجع التي تكلمت عن المذنب مكان بهذا الاسم، وإنما وجدنا موقع آخر يسمى عليّقة، أو (عين علِيّقة. انظر الغنايم، ص ٨٤. (ابن جريس).

ميل من حافة شعيب المذنب. والبستان الأوسط فيها، مساحته نحو عشرين فداناً، ومحاط بسور منخفض فيه شرفات أو فتحات لإطلاق النار، ويحتوي على ثلاثة قصور مشيدة تشييداً جيداً، وكان أحدها في حافة البستان، ويمثل نموذجاً رائعاً للبيت الحصن مثلما رأيته في أي مكان آخر. وقد أخذ نصيبه من الصيانة الجيدة مثل مقر إقامة الأمير في قفيفة، ولكنه أكبر منه كثيراً وذو شكل غير منتظم مع ما به من أفاريز وشرفات أو فتحات لإطلاق النار حول السور الشاهق، الذي كانت جوانبه مثقوبة بفتحات تهوية مثلثة الشكل كالعادة تضفي عليه أثراً زخرفياً. وإلى الغرب من البستان الرئيس توجد ثلاثة بساتين معزولة أصغر منه فوق الأرض المرتفعة تجاه مجمج بينما توجد تجاه عُليا على طول الشعيب قليل من البساتين الصغيرة.[١] وعمال الأمير المقيمون في هذه الأرض[٢] ـ ومنهم بعض أسرته ـ يبلغ عددهم مائة شخص مماثل وفي مزرعة القفيفة العدد نفسه تقريباً.

والآن كنا نضرب في الصفراء نحو قرية مجمج الصغيرة التي لا تبعد ربع ميل فقط إلى الشمال، وتقع عند الطرف الغربي لأكبر البستانين اللذين يكونان الواحة. هاذان البستانان من قناة يجري فيها الماء من بئر في البستان الأصغر على بعد حوالي أربعمائة ياردة من القرية، التي تضم سكاناً من نحو مئة شخص يعيشون في عشرين بيتاً، أحدهم أشد رحابة من الأخريات في الطرف الغربي. وفي أثناء وقوفنا بجوار القناة، وكنت منهمكاً في تغيير شريط فيلم الكاميرا، أتى إلينا واحد من الإخوان معه بندقية معلقة في كتفه والغترة البيضاء التي تدل على إيمانه الظاهري على رأسه. وكان ناصر، الذي يقلق دائماً من الاتهام الطائش بالردة، على الرغم من أنه شخصياً وعلى انفراد يكون أكثر من ودود معي، قد اقترح على عجل وجوب مغادرتنا المكان. بيد أنني كنت غير قادر على الحركة بصورة مؤقتة بسبب العمل

(١) للاطلاع عن الآثار القديمة في المذنب، انظر: الغنايم، المذنب، ص ١٨ - ٤١، ١٦٢ - ١٨٠. (ابن جريس).
(٢) الأجراء يعرفون باسم عمال ويضاف إليهم العبيد العاملون في البيوت (فيلبي).

الذي كنت أجريه في تلك اللحظة، وبعد أن تبادل زائرنا التحية معنا وقف بجوارنا دونما أي محاولة أخرى لتبادل الحديث. فبادره ناصر بالسؤال: «من أين جئت أنت؟» لكي يصرف انتباهه عني. فرد عليه قائلاً: «من قريّب» دون أن يبدي رغبة واضحة في مواصلة الحديث. فحاول معه ناصر مرة أخرى «هل أنت من الإخوان؟» فأجاب «إن شاء الله» ودون أي كلمة أخرى أدار ظهره لنا وولى مبتعداً. بعد ذلك بلحظات قليلة وعندما كنا مروراً بالقرية هرع إلينا رجل هرم خارجاً منها، وبعد تبادل السلام مرحباً توجه إليّ بالسؤال صائحاً: «وأنت من تكون وماذا تكتب؟»[(١)].

واصلنا سيرنا في سهل قاحل من الطفل الرملي وبعد أن عبرنا القاع الصخري لشعيب المذنب أتينا على بقعة من النخيل صغيرة ومعزولة، ومن الواضح أنها بلا اسم، وبالقرب منها في العراء رأينا رجلاً نائماً ومنبطحاً على بطنه والشمس القائظة تضرب في عموده الفقري شبه العاري. وقد صاح فيه مترك ليوقظه فنهض الرجل واستأنف سيره.

من مجمع مشينا تجاه الشرق نحو ميل ودخلنا في الواحة الرئيسة بالمذنب وهي قرية الشروقية[(٢)] التي تتكون من ثلاثين كوخاً طينياً بسيطاً وسكانها مئتان من المستأجرين يعملون في المزارع الجنوبية من النخيل الممتدة لنحو ميل باتجاه الجنوب من القرية نحو القفيفة. وعلى يسارنا توجد بساتين النخيل الكثيفة والشاسعة، التي تسمى رفاع (الرفيعه) تمتد نحو الشمال حتى حافة شعيب المذنب ونحو الشرق حتى تقترب بنصف ميل من جبل الخرطم. وكانت الفجوة بين هاتين البقعتين بعرض ربع

---

(١) من طبيعة البدو وأهل القرى الريفية قديماً الاستغراب من أي وافد إلى بلادهم، وهم لا يعرفونه من قبل. وبالتالي فقد يتم مسألته، وأحياناً قد يؤذى من قبل السكان المحليين الذين لا يرحبون بالغرباء في بلادهم. (ابن جريس).

(٢) قرية الشورقية: إحدى قرى المذنب، مع أن فيلبي ذكرها باسم (الشروقية). انظر: الغنايم، المذنب، ص ١٦، ١٧٦، ١٨٤. (ابن جريس).

ميل تقريباً مليئة عن آخرها بمزرعة حنطة تروى رياً حسناً، وعبرها مشينا لنطوف حول الحافة الشرقية لبساتين رفاع (رفيعة)، التي بها عددٌ من القصور المتفرقة. وفي المسافة بيننا وبين جبل الخرطم كانت توجد بساتين قليلة منعزلة، وكان ذيل شعيب قفيفة الذي يروي كلاً من الشروقية والرفاع (رفيعة)، يبدو أنه يمتد عبرها ليتحد مع الطرف الشرقي من شعيب المذنب.

تقع الحافة الشمالية من منطقة (الرفيعة) على طول الضفة اليمنى لهذا الشريان الرئيس، ومقابله توجد مدينة زاهية رائعة محجوبة عن النظر جزئياً بقليل من بقع النخيل المتفرقة. وقبل المدينة مباشرة ينقسم الشعيب إلى عدة فروع، أحدها الذي ذكرناه سابقاً ويمتد بين المدينة ورفاع (رفيعة)، وآخر يمتد للشمال من السابق ليروي بساتين شاسعة على هذا الجانب، بينما يمر الفرع الأوسط أو الرئيس على طول الجهة الشرقية من المدينة، التي تنحني للداخل في شبه دائرة واسعة ورائعة المنظر. من هذا الجانب دخلنا، ومشينا خلال متاهة من الشوارع حتى خرجنا منها مرة أخرى على الجهة البعيدة بجوار البوابة الغربية.

إن مدينة المذنب ليست مسورة، وفي حالة من الخراب على نطاق واسع، فقد بدا نصف البيوت متهدماً وغير مأهول[1]. وهي مستطيلة الشكل تقريباً طولها نصف ميل من الشمال للجنوب وعرضها ربما مائتان أو ثلاثمائة ياردة، وكانت الجهة الغربية مثل الشرقية منحنية للداخل في شبه دائرة تواجه الفرع الشمالي من الشعيب. وإلى الشمال والغرب من المدينة تقع عددٌ من البساتين المتفرقة ومساحة كبيرة من زراعة الحنطة، وفي خارج البوابة الغربية يبدأ شريط كثيف من النخيل متوسط عرضه مئتا ياردة يمتد نحو الغرب تماماً لحوالي ميل حتى حافة الصفراء المطوقة له.

(١) للاطلاع على معلومات أكثر من تاريخ المذنب، انظر: الغنايم، المذنب، ص ٣٧ وما بعدها (ابن جريس).

إن وجود هذه البوابة على الجهة الغربية قد يوضح أن القرية كانت في يوم الأيام محصورة داخل سور، ربما لم يكن هذا السور أكثر من الجدار المستمر للبيوت الخارجية، وحتى في الجهة الشرقية، حيث يمكن استحداث مدخل عند أي من الاثنتي عشرة نقطة فيه. والدخول المناسب من خلال ثغرة خاصة ربما كانت مُزينة في السابق ببوابة عندما كان خط البيوت في هذا الجانب أقل تقطعاً بسبب الصدوع المهدمة مثلما هو الحال الآن. والمئذنة النحيلة المستدقة الطرف هي المعلم البارز في المشهد على هذا الجانب. وفي الجهة الشمالية يوجد ما يشبه البوابة التي تؤدي إلى الخارج حتى البساتين في تلك الجهة وحتى منخفض سفالة، والبيوت هنا تمثل حاجزاً أو سوراً مستمراً مثلما يوجد حول البوابة الغربية مباشرة. وهاتان البوابتان ما هما إلا هياكل مبنية من الطين المسقوف بعوارض تحمل غطاءً من جريد النخل المضفور معاً بالطين. ولا يوجد سوق في المدينة، ويقال إنه لا يوجد حتى محل واحد، بينما عدد السكان لا يمكن أن يتجاوز المائتي نسمة[١]. ومن الواضح أن المذنب كانت في الماضي أكثر ازدهاراً ورخاءً مما هي عليه الآن، بيد أنني لم أستطع أن أكتشف أي مبرر محدد لاضمحلالها وخرابها أكثر من حقيقة أن سكانها قد استسلموا «للضعف»، وهي كلمة معبرة لا تدل فقط على فقر مادي ولكن أيضاً على حالة من الانحطاط الروحي والمعنوي الذي يسلب من ضحاياه العزيمة أو الرغبة في التغلب على الصعاب في موقفهم. وعلى الرغم من ذلك وكما يتضح مما رأيته في المنطقة ككل فإنه يبدو لي أنها تتمتع بمزايا كامنة، التي قد تستطيع طاقة رجال مثل الأمير، تحت درع السلام الذي جلبه ابن سعود لبلاده بإحياء الدعوة الوهابية، أن تحولها إلى قيمة مفيدة[٢].

---

(١) للاطلاع على النواحي الاقتصادية في المذنب قديماً، انظر: الغنايم، المذنب، ص ٣٨ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) من يزر المذنب يجد ما كان فيلبي يتنبأ لها قد حصل وزيادة حيث أصبحت هذه المدينة وغيرها من مدن المملكة تعيش نهضة حضارية جيدة شملت جميع جوانب الحياة. (ابن جريس).

وكان شريط ضيق من الصفراء على بُعد نصف ميل شمال المدينة يفصلنا عن واد أو منخفض السفالة، الذي سرعان ما دخلناه عندما استفأنفنا سيرنا باتجاه الشمال الغربي على طول الطريق السريع للقصيم. كانت الآبار والقصور المتناثرة تنتشر في الوادي على مسافات فاصلة بينها، ولقد تجاوزنا منطقة كبيرة فيها أرض ذات بقايا من جذور النباتات بعد الحصاد. والآبار بعمق ستة قامات، ولكنها في هذا الوقت، بين موسمي الحصاد، قد جُردّت من آلاتها وتجهيزاتها ووقفت عارية في المنظر مثل هياكل عظمية هزيلة.

وتتكون التربة من الطفل الرملي قليل الخصوبة مع انحدار نحو الشمال، وتنتهي على بُعد نحو ميل ونصف شمال المذنب عند منحدر رقيق صاعد من الصفراء، ومنه يعود فيضان الشعاب المتحدة من المنطقة ليغوص في التربة. وبعدما مشينا مسافة أطول أتينا على بقعة من شجر الأثل في منخفض يغذيه شعيب الروضة[١] الذي يوجد على طول ضفافه مزيد من مزارع الحنطة التي تروى من الآبار مع قصور متفرقة هنا وهناك، منفردة أو في مجموعات. هذه القناة، التي تصل حتى سفح جبل الخرطم، تنحرف نحو الشمال نازلة في سهل واسع، وبعد أن تتلقى المياه المنصرفة من شعيب عتيق الضيق يمر بجوار وهد ضيق وعميق يشق حاجز الصفراء إلى حوض أملاح شاسع يمتد لبعض الأميال على طول حافة جبل الخرطم بعرض يتفاوت من ميل إلى نصف ميل.

من الشمال للجنوب يمتد حوض الملح هذا، مملحة العوشزية كما يسمى على واحة العوشزية التي كان نخيلها البعيد قد ظهر لنا الآن، لا يقل عن ستة أو سبعة أميال. وطرفها الشمالي يتلقى فائض الفيضان من فرع من وادي الرمة الكبير

(١) يوجد في المذنب أكثرمن مكان باسم (الروضة) مثل: روضة الحسو، شعيب روضة الزرع، روضة الشقيقة، روضة المربع، روضة مهنا، كما أن هناك مكاناً آخر يسمى الرويضية. انظر: الغنايم، المذنب، ص ١٧، ٣٥، ٥٦، ٦٧، ٧٢، ١٨٠، ١٩١، ٢٠٢. (ابن جريس).

نفسه[١]، وهكذا تشكل المملحة حوضاً مكتفياً اكتفاءً ذاتياً، ويبدو بمظهر بحيرة واسعة مجمدة يغطيها الثلج. وفي الحقيقة تتكون من كتلة صلبة من الملح الأبيض النقي، القاسي والثابت، الذي يغطي لعمق قدم أو ثمانية عشر بوصة تربة تحتية من الطين الأسود، التي تصبح بعد الفيضانات غير مأمونة لأولئك الذين يمشون عليها في غير حذر وحيطة. ويقولون إنه في المواسم الطيبة تغطي مياه الفيضانات المندفعة في هذا المنخفض من كل حدب وصوب طبقة الملح حتى عمق عدة أقدام إلى أن يتم امتصاصها بصورة تدريجية.

ومن حوض الملح هذا يأخذ أهل السر، والمذنب، والعوشزية مؤونتهم؛ لأن لهم حقاً مكتسباً بالتقادم في الاستحواذ على أقصى قدر يرضيهم دون ثمن. إن النظام التركي في احتكار الملح لم ينفذ إلى صحاري نجد، والملح العربي ـ على الرغم من وفرته ـ ليس من المرجح على الإطلاق أن ينافس في أسواق العالم، حيث إن تكلفة نقله إلى الساحل قد تكون باهظة. ومن المحتمل أن كمية الملح الموجودة في المملحة لا تنضب أو لا تنفد، بيد أن الجزء الشمالي على وجه الخصوص من الحوض مقابل العوشزية هو الذي يؤخذ منه كثيراً؛ لأنه يحتوي على أفضل أنواع الملح. حتى ولو كان الأمر كذلك، ومهما بدا لي من جودة في هذا الملح إضافة لجاذبية بياضه فإنه يُنظر إليه محلياً على أنه أقل جودة من ملح الشقة بالقرب من قرعة في منطقة بريدة ولأقصى ما استطعت أن ألاحظه كانت أسواق عنيزة وبريدة تعرض فقط الملح الذي يميل إلى اللون القرنفلي البني المنتج من حوض الشقة وهو مستودع يشبه البحيرة جاهز للبيع لزبائنها.

وبعدما واصلنا سيرنا أتينا على شعيب أبو خشبة عند نقطة توجد فيها بقعة صغيرة من النخيل لا يرعاها أحد، ومن هناك كانت القناة المكسوة بشجيرات

(١) يسمى هذا الفرع (الزغيبية). (فيلبي + ابن جريس).

الطرفاء بكثافة، تجري شمالاً نحو ميل حتى تدخل في الطرف الجنوبي من المملحة. وعلى طول الضفة البعيدة تمتد منطقة من حقول الحنطة محمية بجدار ساتر بارتفاع أربعة أقدام ضد اختراق الفيضان لها. هذه الحقول يقوم على رعايتها أهل المذنب، بينما المنطقة المجاورة للقناة توفر مرعى طيباً للإبل. وبعدها وصلنا إلى شعيب مويح وهو رافد آخر من روافد حوض الملح، وقناة طولها ثلاثون ياردة تجري فوق قاع من الصخور الجيرية. وبعد أن تقدمنا في سيرنا عبر الصفراء الملتوية بنصف ميل أتينا على قناة شعيب آخر، الذي كانت ضفته الجنوبية أو اليمنى تعتبر محلياً الحد الفاصل بين منطقة المذنب ومنطقة القصيم. هذا هو شعيب ضبّة الذي يجري نازلاً عبر الصفراء نحو الشرق باتجاه المملحة، ويبلغ عرضه نصف ميل. وقد استمد اسمه من بقعة النخيل المتفرقة التي لا يرعاها أحد في قاعة على بُعد ميلين عكس اتجاه التيار. ولا يوجد قصر أو أي بيوت أخرى، في حين على بُعد ربع ميل فقط من طريقنا، وعكس اتجاه التيار أيضاً، توجد مجموعة من أربعة قصور تسمى قصور فضل وسط بقعة من زراعة الحنطة هجرها أصحابها ولا يأتون إليها إلا في مواسم الزراعة والحصاد. وعلى يميننا كانت حافة حوض الملح تقترب إلى ما يقل عن نصف ميل من الطريق الرئيس. لقد قطعنا حوالي ثمانية أميال منذ أن غادرنا المذنب، ولا بد أن نحتفظ بالباقي من رحلة ذلك اليوم للفصل القادم، وفيه سوف أصف من جديد تجاربي في منطقة القصيم الشهيرة(١).

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن تاريخ وحضارة بلاد القصيم، انظر: محمد ناصر العبودي، بلاد القصيم (عدة مجلدات)، كما انظر قائمة المصادر والمراجع التي أثبتناها في نهاية الكتاب ويوجد بها العديد من أسماء الكتب التي تتحدث عن تاريخ بعض مدن القصيم مثل: بريدة، وعنيزة، والمذنب، والزلفي، والرس، والربيعية وغيرها. (ابن جريس).

الفصل الثالث

القصيم

١- منطقة العوشزية

٢- الانطباعات الأولية عن عنيزة

٣- الطريق إلى بريدة

٤- بريدة

٥- رحلة إلى الجنوب

٦- الحياة في عنيزة

٧- أول أزهار التفوق العربي

٨- السير ليلاً إلى بريدة

٩- شمال القصيم

الفصل الثالث

القصيم(١)

١ـ منطقة العوشزية

بعد قناة شعيب الضبة، كان لا يزال أمامنا نحو ثلاثة أميال ونصف الميل لنسيرها عبر منحدر متموج من الطفل الرملي الذي تتخلله بقع من صخور رملية قبل وصولنا إلى منطقة العوشزية. وهناك تل صغير منخفض مخروطي الشكل قريب من حافة الملحة يقف كعلامة بارزة على البقعة التي يؤخذ منها الملح في معظم الأحيان، بينما بعد هذا الامتداد الأبيض كالثلج تجد جبل الخرطم الذي يبدو أنه مشقوق بشكل قطري برقعة فسيحة من رمال النفود. ومن الصعب تحديد ما إذا كان هذا الشريط الرملي يخترق حقاً المنطقة الصخرية أو كما ظهر ذلك أشد ترجيحاً واحتمالاً أنه يغطي الجبل فقط. وإذا ما كان الأخير هو الصحيح فهل هذا الرمل قد حملته الرياح من النفود وراءها أم أنه ناتج عن تحلل الصخور وتفككها والذي يكون على الأرجح سبب تكوين جميع صحاري النفود في الجزيرة العربية؟ ولقد أغرانا على التفكير في هذا الاتجاه أن جبل الخرطم بأنساقه غير العادية من خطوط الرمل العظيمة التي تتخلل كتلته الصخرية أمامنا كان مثالاً حياً على نفود في طور التكوين.

---

(١) للمزيد عن تاريخ وجغرافية منطقة القصيم، انظر: محمد العبود، بلاد القصيم. (٦ مجلدات)، عبدالرحمن الشريف. منطقة عنيزة: دراسة إقليمية (القاهرة: مطبعة النهضة المصرية، ١٩٦٩م) ص ١٥ وما بعدها؛ عبدالرحمن السويداء. نجد في الأمس القريب (الرياض: دار العلوم، ١٤٠٣هـ) ص ٣٦ وما بعدها، محمد السلمان. الأحوال السياسية في القصيم في عهد الدولة السعودية الثانية (م.ت: ١٤٠٨هـ) ص ٣٦ وما بعدها. (ابن جريس).

يعبر الطريق قناة شعيب أبو طليحة[١]، وهي بالطبع رافدٌ من الملحة، بالقرب من بئر وحيدة مشيدة ببناء قوي ومبطن بالحجارة تسمى أم الشق فيها ماء صاف ولكن مذاقه معدني. والبئر دائرية تقريباً وعمقها أربع قامات وقطرها اثنا عشر قدماً، ومحاطة ببقعة من زراعة الحنطة، بني فيها برج للحراسة وهو مستدق الطرف من نوع البناء الضعيف من الحجر والطين، وبه مدخل لا يزيد ارتفاعه عن قدمين. وكانت عدة البئر قد فككت تبعاً للعادة المحلية، والماءُ قريب المنال عن طريق فوهة منحدرة انحداراً خفيفاً ينتهي عند فتحة منخفضة في بناء البئر فوق مستوى الماء مباشرة، وهناك قصر واحد بلا اسم يقف وسط حقل الحنطة على بُعد ميل ونصف الميل إلى الغرب، وكانت البئر، حسب جهاز قياس الارتفاعات الذي أحمله ترتفع فوق مستوى سطح البحر بنحو (٢٣٠٠) قدم. وأظن أن الملحة مقابل هذه النقطة أخفض من ذلك بحوالي ثلاثين أو أربعين قدماً، وربما تكون أخفض نقطة في المنطقة كلها الواقعة بين الطرف الجنوبي من السر ووادي الرمة.

وكلما تقدمنا في سيرنا كانت الأرض تكتسي بصفات مالحة بقوة، ويظهر فيها أنواع كثيرة مختلفة من النباتات يظنها الأعراب أنها من عائلة نباتات الحمض[٢] والآن كنا نمر عبر منحدر في جبل من الحجر الرملي ذي لون باهت، يميل إلى السواد ثم عبرنا قاع شعيب مشاري الذي يتدفق في حوض الملح بجوار التل المخروطي المذكور آنفاً، والذي لم يكن يبعد الآن إلا ربع ميل عن يميننا. والشعيب يجري فوق ألواح من الحجر الرملي بها قشرة بيضاء صلبة بين ضفتين تختلفان في الارتفاع من أربعة إلى عشرة أقدام. وفي عكس اتجاه التيار في انبعاج من القناة تقع

(١) شعيب أبو طليحة يوازي شعيب الضبة وتنتهي جميعها في سبخة العوشزية شمال روضة أبو خشبة التي تعتبر أكثر جهات منطقة المذنب انخفاضاً. انظر: الغنايم، المذنب، ص ٧٣، ٧٤. (ابن جريس).

(٢) مثل الشنان والعجيرمان والعرض والسواد والرمث. (فيلبي). لمزيد من التفصيلات عن النباتات والأشجار في منطقة المذنب، انظر: الغنايم، ص ٧٥ - ٧٧. (ابن جريس).

بقعة من زراعة الحنطة فيها قصران يحملان اسماً غير ملائم على الإطلاق، وهو روضة الجنة أي حديقة النعيم[١].

إن العربي لا يُعدم أحياناً روح الدعابة والفكاهة، ولكنه كان نادراً ما يستطيع أن يختار بقعة مجهولة ليسخر منها بمثل هذا الاسم. ويلتقي شعيب صغير يحمل الاسم نفسه بالألسنة السفلى من شعيب مشاري. وبعد جبل آخر مشوه الألوان من الحجر الرملي جئنا قريباً من العوشزية، والتي لكي نصلها كان علينا أن نعبر مجريين[٢] ضحلين مصممين لتوصيل مياه المطر إلى المنطقة المزروعة، وأخيراً شعيب القصيعي[٣] الذي صادفنا بجوار ضفته اليسرى جدول ماء ضعيف يجري متدفقاً من نبع.

بعد ذلك أنخنا إبلنا على باب قصر وحيد يقوم عند الطرف الغربي من أقصى بستان نخيل في شرق العوشزية. هنا صادفنا قطيعاً من حوالي ستمائة رأس من الغنم يرعاها ثلاثة من الرعاة يسقون من جدول الماء[٤]، واتضح لاحقاً أن القطيع من ممتلكات ابن سعود الخاصة، ويشق طريقه مباشرة إلى بريدة[٥]. وصاحب القصر الذي كان عبارة عن مبنى متواضع طوله سبعون خطوة وعرضه خمسون، قد ذهب لسوء الحظ إلى عنيزة، حسبما علمنا على الفور من حشد صغير من الناس المتعطلين الذين تجمعوا حولنا، وبدا من المرجح أن آمالنا في الحصول على ما

(١) ربما أطلق هذا الاسم على هذا المكان لما يتمتع به من مياه ومزروعات. (ابن جريس).

(٢) مثل هذا المجرى يسمى السيل وجمعه مسائل (فيلبي).

(٣) شعيب القصيعي وذكره فيلبي (شعيب القصيبي. للمزيد انظر: الغنايم، المذنب، ص ٧٢. (ابن جريس).

(٤) لمزيد من الإيضاح عن الحيوانات في منطقة المذنب، انظر: الغنايم، ص ٧٧ - ٧٨. (ابن جريس).

(٥) للاطلاع على تاريخ وجغرافية بريدة انظر: محمد بن صالح الربدي. بريدة: دراسة في الخصائص الطبيعية والسكانية، (الرياض: مطابع العبيكان، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م) ط٢ جـ١، ص ٢١ وما بعدها، وللمؤلف نفسه. بريدة: نموها الحضاري وعلاقتها الإقليمية، جـ٢، ص ٢٣ وما بعدها، إبراهيم المعارك. بريدة ماضي مجيد، ص ٢٩ وما بعدها، الهويمل، بريدة ص ٢٩ وما بعدها. (ابن جريس).

ينعشنا قد ذهبت أدراج الرياح إلى أن ظهر ولد صغير في العاشرة من عمره على مسرح الأحداث. ولأنه كان ابن صاحب القصر وسمع أننا ـ بعد أن ركبنا طول النهار ـ كنا مرهقين، فقد دعانا للدخول وقادنا إلى واحد من أشد المجالس قذارة رأيته على الإطلاق، فقد كان غرفة صغيرة مساحتها (١٢ × ٧) أقدام، تطل من شرفة صغيرة وشديدة القذارة على مدخل المبنى. وكم كنا سعداء بالراحة هنا ريثما تُعد القهوة. كانت الجدران ملوثة بآثار الدخان، الذي لم يكن له مخرج إلا فتحة غير مشذبة في السقف عند طرف الغرفة البعيد جداً عن الموقد، ولكن لم يُقدّر لنا أن نترك وشأننا، فالرعاة، عندما شموا رائحة القهوة، سرعان ما انضموا إلينا، بينما سار درزن[١] من الناس المحليين، كلهم صبيان لا يتجاوز عمرهم الخامسة عشرة، سير الهوينى داخلين علينا ليشاهدوا الغريب الذي ظهر فجأة في وسطهم[٢].

وعلى الرغم من ذلك، كانوا في منتهى الود والترحاب، وأعطوني الكثير من المعلومات عن حوض الملح الذي ذكرته آنفاً، وأضافوا قائلين: إن كل الماء في العوشزية شديد الملوحة ولا يمكن شربه، حتى إنهم يضطرون إلى قطع ما لا يقل عن خمسة أميال نحو الشمال، ربما نحو واحدة من الآبار الموجودة في منخفض الزغيبية ليحضروا ماء الشرب. لقد كانوا بحق في تلك اللحظة يعانون من شح شديد في المياه لدرجة أنهم اضطروا إلى أخذ بعض ما معنا من ماء لتحضير دورة ثانية من القهوة. وبعد فترة قصيرة دخل علينا ابن صاحب البيت، وهو طفل رائع ذو أخلاق رفيعة التهذيب وليس بغافل عن الشرف الممنوح له بدور المضيف المؤقت، ومعه حصير من سعف النخيل وسلطانية من التمور الطازجة، وهي مع القهوة، التي صُبّت

(١) درزن: يقصد بذلك اثني عشر شخصاً، وأي شيء عند العد يصل إلى رقم اثني عشر يطلق عليه كلمة (درزن). (ابن جريس).

(٢) يقصد بالغريب هنا، أي شخص فيلبي، لأنه فعلاً يعتبر غريباً بينهم. (ابن جريس).

للضيوف فقط، صنعنا وجبتنا التي أكلناها بشهية وتلذذ. وعلمنا أن صاحب القصر كان رجلاً يُدعى علي الطرودي[١].

ينبع جدول الماء الذي ذكرناه آنفاً من عين على بُعد ربع ميل إلى الغرب تماماً من القصر، ويتدفق منها الماء محدثاً خريراً في فوهة بعمق اثني عشر قدماً مع نخلة تنمو بالقرب منها. من هذه العين يدخل وشلٌ[٢] هزيلٌ في القناة، التي يبلغ عرضها ثلاثة أقدام في القاع وخمسة أقدام عند الحواف العليا، منحوتة في الحجر الرملي. مقابل القصر يكون مستوى الماء محاذياً للسطح، وبعد أن يواصل جدول الماء سيره لمئات قليلة من الياردات يدخل في بستان النخيل الشرقي، ومن هناك يسيل هزيلاً رقيقاً في النهاية إلى حوض الملح.

تتكون الواحة من كتلة وسطى صلبة من النخيل الممتد بمتوسط عرض قدره ثلاثمائة ياردة لنصف ميل نحو الشمال من حدود مئة ياردة من العين. هذه الكتلة تنقسم إلى قسمين منفصلين على كلا جانبي الدرب العريض المؤدي إلى بريدة، الذي ينحرف عنه درب عنيزة نحو الغرب بعد طرف الواحة مباشرة[٣]. وكتلة النخيل الشرقية التي توقفنا فيها تمتد ربع ميل من الغرب إلى الشرق نزولاً حتى حدود حوض الملحة. وأخيراً توجد كتلة نخيل ثالثة على مسافة حوالي ربع ميل جنوب غرب العين. بالإضافة إلى القصور العادية المتناثرة توجد قرية صغيرة غير مسورة على الجهة الشرقية من القسم الجنوبي من الكتلة الوسطى. ويتألف سكانها من نحو مائة وخمسين شخصاً من فخذ بني خالد يسمى المطرودي[٤]، وكان شيخه

---

(١) ذكر فيلبي اسم الطرودي) عدة مرات. وهذا غير صحيح، فالاسم الصحيح هو (المطرودي)، وقد نوه إلى ذلك في إحدى الحواشي التالية. (ابن جريس).

(٢) الوشل: هو نبع أو ينبوع الماء. (ابن جريس).

(٣) للمزيد عن المواصلات والطرق التجارية في كل من بريدة وعنيزة، انظر: المعارك، بريدة، ص ١٢٨، الريدي، بريدة، جـ٢، ص ٢٣٨، الهويمل، بريدة، ص ١٢٥، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٤٥ وما بعدها. (ابن جريس).

(٤) لقد سمعت اسم هذا الفخذ ينطق أيضاً المطرودي، يقال إنهم كانوا في السابق يتمتعون بالشهرة والثروة على الرغم من أنهم الآن من العائلات الضعيفة في عنيزة. (فيلبي).

رجلاً يعرف باسم عبد الله الطرودي. ويقال: إن القرية تضرب بجذورها في أعماق التاريخ، على الرغم من أنني لم أشاهد شيئاً يبرر هذا الادعاء، وهي تعتمد إدارياً على عنيزة. والتمور الأكثر رواجاً وشهرة يسمى عبود كبيرة، وطرية وبنية اللون عندما يكون ناضجاً، وشديد الحلاوة، ونوع آخر وجدناه هنا يسمى مختومية الذي تتميز به منطقة السر. وتوجد زراعة فرعية كبيرة من الدخن، ونبات الفصفصة، القرع والقمح، لا سيما في القطاع الأوسط، حيث يكون النخيل متناثراً إلى حد ما. وكان ارتفاع العين حسب قراءة جهاز قياس الارتفاع يبلغ (٢٣٤٠) قدماً.

وعلى بُعد ميل تقريباً نحو الشمال تماماً من العين يقع بروزٌ من جبل الخرطم الذي يقف علامة واضحة على الطرف الشمالي من الملحة، وبعدها يمتد منخفض الزغيبية في اتساع مستمر باتجاه الشمال ويشكل وادياً واسعاً بين الخرطم والصفراء. وطرفه الشمالي يقترب من وادي الرمة، الذي ينفصل عنه بصورة جزئية بشريط رملي ضيق مستعرض يسمى الطعميات[١]، طوله أربعة أميال وعرضه ربع ميل فقط. وهذا بوضعه المذكور يشكل قاعدة لمثلث يمتد منه منخفض الزغيبية نحو الجنوب حتى رأس المثلث تقريباً في الطرف الشمالي من حوض الملح. هذا المنخفض يمثل منطقة رعي محمية تخص أهل عنيزة[٢]، وتتناثر فيه القصور التي قيل إنها لا تقل عن عشرين، على الرغم من أنني لم أر بنفسي إلا ستة منها على مسافة منا خلال سيرنا في فترة العصر. وفي الحقيقة يشكل المنخفض نوعاً من المصرف أو المخرج لوادي الرمة عندما يمتلئ عن آخره بماء الفيضان على عكس نظيره الجنوبي، وادي الدواسر[٣]، فيقال: إن الرمة يأتي بفيضان خمس أو ست مرات في

(١) الطعميات أو الطعيمية: ذكرها فيلبي باسم (الطعمية). (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن الحياة الرعوية في بلاد عنيزة، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٢٣، ١٤١ - ١٤٥. (ابن جريس).

(٣) وادي الدواسر: من أهم وديان شبه الجزيرة العربية، ويقع في جنوب نجد، ويتجه باتجاه الشرق فيشق هضبة طويق ويخترقها إلى أن ينتهي عند بداية الربع الخالي من هذه الجهة. انظر: عبدالرحمن الشريف. جغرافية المملكة، جـ١، ص ٨٩. (ابن جريس).

العـام العـادي، في حين أنه فـي مـواسم الأمطار الـغـزيرة يشـتـهـر بأنه يحـافـظ على تدفقه المنتظم دون انقطاع لمدة تصل حتى أربعين أو خمسين يوماً.

يسير طريق بريدة تقريباً إلى الشمال الغربي واستدرنا منه نحو الغرب فوراً بعد تجاوز القرية. وامتد دربنا على لسان منبسط واسع أجرد من الصحراء المتموجة برفق، وعندما عبرنا منخفضاً ضحلاً يسمى القوارة وهو أحد رافد القصيعي، لاحظت، عندما التفت للخلف، بقعة صغيرة من النخيل، يقال إنها ليست تحت رعاية أحد، تسمى القويطير تمتد نحو الخلف في صدع من جبل الخرطم قرب الطرف الجنوبي من منخفض الزغيبية، الذي يمكن رؤيته من الأرض المرتفعة التي كنا عليها، بطوله كله حتى حاجز الطعميات المكون من جبل رملي. وهناك منحدر الصفراء نحو الشرق.

على بُعد حوالي ميلين خارج العوشزية نزلنا بانحدار حاد قصير يهبط إلى جرف واضح قدره أربعون قدماً في منخفض شعيب مكوزه وفيه على بُعد ربع ميل عكس اتجاه التيار يوجد مشاش أي مروى صغير. وسرعان ما لحقنا بالدرب المستقيم المؤدي من المذنب إلى عنيزة دون ملامسة العوشزية، بينما على مسافة بعيدة شيء ما نحو الغرب يقع طريقٌ أقصر من الأول(١) والذي سلكه البيرق.

ينحرف الدرب بشكل تدريجي في اتجاه شمال غرب عند زوايا قائمة إلى محاور سلسلة من الجبال التي مع أودية متداخلة تشكل الصفراء. وبعدما عبرنا القاع الصخري لشعيب معيذر(٢) وهو رافد من الزغيبية، وارتفعنا بصورة تدريجية ولكن بثبات إلى جبل حيث سجل جهاز قياس الارتفاع ارتفاعاً بمقدار (٢٦٤٠) قدماً.

(١) يبدو أن هذا هو الطريق الذي سلكه شكسبير في ترحاله، بيد أنني لم أستطع أن أحصل على أي معلومات عن شعيب لضا الذي ذكره، إلا إذا كان يعني شعيب وضى الذي يسير في الطريق محل التساؤل حتى النقطة التي يدخل عندها حوض عنيزة جنوب شرق بستان نخيل الجهيمية البارز. (فيلبي).

(٢) شعيب معيزر الذي ذكره فيلبي يسمى أيضاً (شعيب أبو عاذر) (ابن جريس).

وراء المجرى الضحل لوادي عمران الذي يمتد نحو الشمال ويدخل في وادي الرمة، صعدنا فوق قمة جبل يوفر لنا مشاهدة رمال نفود الشقيقة وراء عنيزة وأيضاً، على مسافة بعيدة نحو الشمال، نفود بريدة. كان المنظر شاسعاً وممتداً، ولكنه موحش كئيب، لا يوحي بأي شيء يدل على أنه قريبٌ من هنا تقع واحدة من المدن الكبرى في الجزيرة العربية. بيد أن قمة الجبل المجاور لنا كانت تطل على مشهد مختلف تمام الاختلاف. فلأبعد مسافة نستطيع رؤيتها نحو الغرب كان هناك بحر ملتف من الرمل المتموج، وعند أقدامنا في منخفض عميق بين هاتيك الرمال والجرف الحاد الذي تنتهي عند الصفراء فجأة تقع واحة واسعة. تلك هي عنيزة في النهاية[١]، لكن الشمس قد مالت بالفعل نحو الغروب، واختفى المنظر عن عيوننا جزئياً بضباب كثيف. وعلى كل حال فالتعب والإرهاق قد بلغ منا مداه حتى إننا لا نستطيع التوقف، ودون لغط كثير نزلنا على الدرب الوعر ولكنه معتدل حتى وجه الجرف إلى أن وصلنا مستوى المنخفض. ثم بأقصى سرعة نستطيعها ـ كنا نستحث ركائبنا المرهقة نحو المخيم ـ حيث كانت خيمتي قد نصبت على بُعد ربع ميل تقريباً خارج البوابة الجنوبية في السور الدائري الكبير الذي يطوق الواحة والمدينة. ولم أعف من مقابلة ابن سعود، لكن لحسن الحظ كانت مقابلة قصيرة، وبعدها أسلمت نفسي من منتهى التعب إلى ترف الراحة الكاملة، تاركاً كتابة المذكرات والملاحظات والأشياء المضايقة المصاحبة للسفر إلى الغد، سعيداً بمعرفتي أن المخيم سيظل حيثما هو لأيام قلائل على الأقل. لقد قطعنا نحو سبعة أميال من العوشزية وما مجموعه ثلاثون ميلاً تقريباً خلال النهار. وعلاوة على ذلك كنا في حركة دائمة دائبة لما يقرب من أسبوع، دونما شيء من الراحة أو المهلة، ومثل هذا التنقل يمكن أن يكون أشد تعباً وإرهاقاً، خاصة في شهر أغسطس.

---

(١) للمزيد عن منطقة عنيزة، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٣ وما بعدها. (ابن جريس).

٢ـ الانطباعات الأولية عن عنيزة

في الصباح التالي، الثالث والعشرين من أغسطس، استيقظت لأجد نفسي في عالم جديد؛ ولأنني معتاد على الانفراد والاستقلالية وسط التعصب الأعمى الذي لا يرحم في نجد، فقد عزمت عندما استيقظت على أن أقوم بالقليل من التجول لرؤية المشاهد العامة قبل أن أدخل المدينة للسلام على الأمير والأشخاص الآخرين الذين قد يتوقعون أن أزورهم. ومع أن الوقت كان مبكراً، بعد السادسة صباحاً بقليل فقد وجدت أن خططي قد أحبطت بواسطة الأمير نفسه، الذي كان رسوله ينتظرني بالفعل ليدعوني على الفطور. ولقد غفلت عن المصاعب والاعتبارات المهمة، وكان قدري في ذلك اليوم ألا أرى من عنيزة إلا القليل خارج الجدران الداخلية لبيوتها المضيافة الكريمة. وقد سمعت كثيراً من قبل عن الفرق بين عنيزة وباقي نجد، وعن كرم أهلها وأياديهم السخية وعن خلوها التام من أي نوع من التعصب الديني أو المذهبي الأعمى[1]، إلا أنني يجب أن أقر بأني تجاربي الحقيقية قد أذهلتني وروعتني. ولقد بدا لي أنني خطوت فجأة خارج الهمجية والتخلف ودخلت في مجتمع شديد التحضر بل رفيع الثقافة[2]، حيث كان الغريب داخل المدينة، بمنأى عن أن يكون موضع شك ومقت شديد، يعتبر ضيفاً عادياً على المجتمع من الواجب استضافته بلا رحمة أحياناً وبلا اعتبار لمشاعره الشخصية، من قبل كل أهل بيت يعدون من ذوي الشأن في النظام لتقدير الأمور. ولقد حالفني الحظ بمشاهدة وتجربة كل منطقة تقريباً في نجد قبل المجيء إلى القصيم، وذقت المر بكأس مترعه

---

(١) لمزيد من الإيضاح عن الأحوال الاجتماعية في عنيزة، انظر: عبدالرحمن السويداء، نجد في الأمس القريب، ص ٢٣١، ٢٣٢، ٢٦٨، ٢٧٠، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٤٥ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) ربما بلاد الرياض وما حولها كانت تميل إلى البداوة والتخلف الثقافي والفكري بعكس القصيم التي كانت تقع على الطريق التجاري الرئيس بين الحجاز والعراق، بالإضافة إلى أن سكانها كانوا من القدم على صلات حضارية وتجارية مع أهل الشام والطرق. انظر الحربي. كتاب المناسك، ص ٥٨٨، ٥٨٩، سيد عبدالحميد بكر. الملامح الجغرافية لدروب الحج (جدة: تهامة للنشر والطباعة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م) ص ١٨. (ابن جريس).

قبل الحلوة، وكان حظي مضاعفاً في ذلك، إلا أن بريدة قد ذكرتني بأن شقيقتها المدينة هذه رائعة بشكل فذ واستثنائي على الإطلاق، فآخر ذكرياتي عن وسط الجزيرة العربية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بأيام إقامتي المؤقتة في هذه الجوهرة بين المدن العربية[1].

بعد أن احتسيت شاي الصباح، الذي أحضروا معه لي التين والخوخ والتمور الطازجة، اصطحبت رسول الأمير، واسمه بالتحديد عبدالله بن راشد، إلى البوابة الجنوبية، ومن هناك، واصلنا سيرنا على طول أزقة ضيقة بين بساتين النخيل المسورة التي كان نخلها ـ كما قيل لي ـ يحمل هذا العام حمولة استثنائية من الفاكهة، ووصلنا المدينة التي وجدتها غير مسورة ومتناثرة. وأدت متاهة من الشوارع الملتوية ذات المناظر البهية، المقنطرة من فوق هنا وهناك بالطوابق العلوية من البيوت على كلا الجانبين، إلى أن وصلنا المجلس، وهو مساحة مفتوحة غير منتظمة على شكل معين تقريباً مع المسجد الكبير عن يسارنا وهو منمق بمئذنة عالية مستدقة الطرف بشكل غريب، وبرج مربع أقصر منها في الزاوية الأخرى. هنا اعتاد الأمير على الجلوس في مجلس عام للحكم في الأمور البلدية أو القضائية بعد صلاة الجماعة، وعلى جميع الجوانب توجد محلات ودكاكين، وفي كل اتجاه تتفرع حارات وأزقة ملتوية من السوق الكبير، وأحد هذه الشوارع يمتد من هنا متخللاً طول المدينة كله حتى طرفها الشرقي. في عهد إقامة داوتي المؤقتة بعنيزة كان بيت الأمير متاخماً للمجلس[2]، بيد أننا سلكنا واحداً من الشوارع الجانبية لنصل إلى مقر إقامة

---

(١) سعود، تاريخ عنيزة السياسي الحضاري إلى عام (٤٩٤هـ/١١٠٠م)، فهي تعد من أقدم مدن القصيم نشأة، يليها الرس عام ٨٥٠هـ/١٤٤٦م)، ثم بريدة عام (٩٤٨هـ/١٥٤١م)(١١٨٠هـ/١٧٦٦م)، ثم البكيرية، عثمان القاضي. روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين (القاهرة: مطبعة الحلبي، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) (جزءان)، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ٤٨ (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن رحلة الرحالة دواني في بعض أجزاء نجد، انظر كتابه:
Traveles In Arabia Deserta (London, 1936) (Vol.2) pp.379/404.(ابن جريس)

الحاكم الحالي. وتبدو أبواب معظم البيوت مزودة إما بمطارق[١] عادية لقرع الباب أو بسلاسل[٢] مزدوجة غريبة الشكل، طولها نحو ست بوصات من حلقات معدنية متدلية بعد تثبيتها في الضلفة الخشبية[٣]. وبعد لأي وصلنا البيت الذي كنا نبحث عنه وسرنا عبر مجلس القهوة العادي، الذي يوجد فيه الموقد، ويبدو أنه لا يُستخدم إلا أثناء حر النهار وفي الشتاء، إلى أن وصلنا فناءً مفتوحاً محاطاً بجدران عالية حيث تقدم القهوة المعدة في الداخل، بشكل اعتيادي خلال الصيف عندما يكون الجو بارداً بدرجة كافية في ساعات الصباح والمساء بحيث يمكن الجلوس في العراء.

هذا التنظيم يبدو أنه ملمحٌ شائع في عنيزة، وهو تحسنٌ وتطور كبير عن عادة نجد في الجلوس طول الوقت في غرف تشتد فيها الحرارة حتى الاختناق، بيد أن الارتفاع الشاهق للجدران المحيطة ـ تبنى البيوت عادة لما يصل إلى ثلاثة بل حتى أربعة طوابق ـ قد حرم المرء من الاستفادة من حركة الرياح[٤].

استقبلنا عبد العزيز بن عبد الله السليم[٥]، وهو رجل بهي الطلعة طاعن في السن يبلغ الستين من عمره تقريباً، ذو عود طويل وهزيل، يتمتع بروح الدعابة اللطيفة في تعبيره عن ملامحه النحيلة، الذابلة تقريباً، وذلك بالنيابة عن ابن أخيه،

(١) مطارق: أي مطقة (فيلبي).

(٢) أي سلسلة أو مرسن (فيلبي). ومثل هذه الأدوات الحديدية توضع على وجه الباب الخشبي من الخارج، كي يسحب بها الباب إذا رغبو إغلاقه، وكذلك تحريكه لتصدر بعض الأصوات حتى يسمعه الذي في المنزل فيسعى إلى فتح الباب (ابن جريس).

(٣) لمزيد من التفصيلات عن الجوانب العمرانية والأبنية وأنواعها في عنيزة، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٩٧ – ٢٢٠، حافظ وهبة جزيرة العرب، ص ٤٦ وما بعدها. عبدالرحمن الشريف. منطقة عنيزة، ص ٢٠٢. (ابن جريس).

(٤) للاطلاع على معلومات أكثر عن عادات السكان والطعام والشراب في عنيزة، انظر: حافظ وهبة، ص ٤٦ وما بعدها، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٧٠، ٢٠٣ Doughty, Vol.2.pp404 (ابن جريس).

(٥) عبدالعزيز السليم ولاه الملك عبدالعزيز إمارة عنيزة في المحرم عام (١٣٢٢هـ/١٩٠٤م)، واستمر في عمله حتى تنازل عن الإمارة لابن أخيه عبدالله بن خالد السليم في عام (١٣٥١هـ/١٩٣٢م) انظر: عبدالعزيز محمد القاضي. قصيدة تضم مختصر تاريخ عنيزة منذ تأسيسها حتى وقتنا الحاضر (بغداد: مطبعة الصباح، ١٣٦٧هـ) ص ٣١. (ابن جريس).

عبد الله بن خالد السليم، الذي تنازل له منذ حوالي عام مضى وبمحض إرادته الخالصة عن وظيفة الأمير بكل ما فيها من مزايا ومتاعب. وسرعان ما حضر عبدالله نفسه، رجل في حوالي الخامسة والثلاثين أو الأربعين من عمره، بلحية سوداء أنيقة، ووجه باسم، وناضر، وانضم إلى المجلس زوار آخرون، الذين يدل مظهرهم العام يدل على أنهم أشخاص ذوو أهمية. ودار الحوار بالطبع على من سبقوني في المجيء إلى عنيزة.

كان عبد العزيز غائباً في غزوة مع ابن سعود في وقت زيارة شكسبير[١]، وعندها كان صالح بن زامل يعمل في غيابه كنائب للأمير، والذي قُدّر له مثل ضيفه أن يسقط في معركة جراب بعد ذلك بأقل من سنة. ولكن عبد العزيز لم ينس عندما كان صبياً في العاشرة أو نحوها أنه قد رأى داوتي (Doughty) وقد كانوا شديدي الاهتمام بسماع أنه لا يزال على قيد الحياة. وهم يعتقدون أن مثل هذا الرجل لا بد بحق أن يضع بصمته الواضحة ربما في أحد الوظائف الدبلوماسية[٢]. أما عن تشارلز هوبر (Charles Huber)، فقد كانت الذكريات لا تزال حية، وعن موته في الحجاز على أيدي مرافقه العربي. ومن يومها ـ كما قالوا ـ لا يستطيع الأجانب أن يتقربوا إلى العربي إلا من خلال كيس دراهمهم؛ لأنه مبذر ينفق بغير حساب. وفي يوليو (١٨٨٤م)، وافته منيته ودفن في مقبرة صغيرة بجدة، وقد أقرت الحكومة الفرنسية بخدماته من أجل قضايا الإنسانية وخلدت ذكراه بنصب تذكاري من الجرانيت مقام على نفقة الدولة عند قبره محفور عليه عبارة إشادة لا يستحقها إلا القليل تقول : مات من أجل العلم[٣].

(١) للمزيد عن رحلة شكسبير في نجد، انظر: الغنايم، المذنب، ص ٤٠، كما انظر: مصادر تاريخ الجزيرة العربية (المنشور في جامعة الرياض، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) جـ١، ص ٧٢ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن رحلة داوتي في بلاد نجد، انظر: كتابه: Traveles In Arabia, Vol. 2.PP. 287 ff (ابن جريس).

(٣) لمزيد من الإيضاح عن مغامرات الرحالة الأجانب في جزيرة العرب، انظر: جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب، ص ٢٦ وما بعدها، روبن بدول، الرحالة الغربيون في جزيرة العرب، ص ٢٢ وما بعدها.

وكان واحداً من صحبة المجلس شيخ كبير يقترب من الثمانين، ذو لحية بيضاء قليل السمع، وهو كما علمت بعد ذلك يدعي يحيى بن ذكير، اعترف بأنه يتذكر رحالة أوروبي أقدم بكثير من داوتي، بيد أنني لم أستطع أن أكتشف هويته(١). أما عن المعاملة التي لاقاها داوتي في عنيزة فقد أدى مرور السنين الطويلة إلى تبرئة وعيهم عنها، فالواقع أنه قد طُرد من المدينة لمدة قصيرة إلى الملقى في وادي الرمة(٢)، وقد حدث ذلك لأن مجيئه قد تصادف مع بداية وباء الجدري، ولم يستطيعوا أن يقفوا ضد الطلبات الملحة لكبار الشيوخ المحليين وعلماء الدين أن يزيلوا السبب الواضح أو المناسبة البينة لهذا البلاء(٣)، ومع ذلك ـ على كل حال ـ فقد قاموا بتعويضه وترضيته بتقديم المزيد من السخاء والكرم. وبيت الخنيني الذي سكن فيه لا يزال موجوداً، ولكن للأسف أنقاضاً، على الرغم من أن أسطورة داوتي لا تزال باقية مبجلة في ذاكرة التاريخ المحلي(٤).

وهكذا تواصل الحديث بيننا إلى أن نهض عبد العزيز فجأة، مطالباً بحق استمراره في استضافتي، وقادني خارجاً إلى بيته، وهو مبنى عالٍ مكون من أربعة طوابق، تحاذيه حديقة رائعة، وتستطيع أن تراها عبر النوافذ المفتوحة في الممر الذي سرنا فيه حتى فناء مفتوح، حيث جلسنا على الأرائك. وفي غرفة استقبال

---

(١) الرحالة الأجانب ارتادوا جزيرة العرب من وقت مبكر، وبعضهم لا تزال أسماؤهم مجهولة عندنا حتى الآن، انظر: جاكلين بيرين، ص ٣٣ وما بعدها، روبن بدول، ص ٢٦ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) وادي الرمة من أهم أودية شبه الجزيرة العربية، ويبدأ من مشارف المدينة المنورة، وذلك من السفوح الشرقية بجبال منطقة المدينة وسفوح الحرات المجاورة لها، ويتجه نحو الشرق، ومع ذلك فهو يستقبل أكثر من (٣٠٠) رافد تغذيه بالمياه، وطوله مع وادي الباطن الذي يتصل به بعد رمال الدهنا حوالي (١٢٢٥) كم. للمزيد انظر: عبدالرحمن الشريف، جغرافية المملكة، جـ١، ص ٨٧ - ٨٨. (ابن جريس).

(٣) لقد ذكر داوتي هذا الوباء، ولكن عزاه إلى سبب مختلف. (فيلبي). كان الناس في القديم يعانون من أمراض عديدة مثل: الجدري، والطاعون، والجوع وغيرها. وقد يسقط في بعض الأزمان والأماكن أعداد كثيرة من البشر بسبب هذه الآفات. (ابن جريس).

(٤) للمزيد عن رحلة داوتي إلى منطقة القصيم وأجزاء عديدة من الجزيرة العربية انظر: كتابه باللغة الإنجليزية (Travels In Arabia Deserta) (جزءان). (ابن فيلبي).

عبدالله كنا قد جلسنا على سجاد عليه مساند لنتكئ عليها. أما هنا فهناك جدار منخفض يفصلنا عن الحديقة، ولكن، بعد الدورات المعتادة من القهوة، أدخلنا في مجلس[١] صغير محدود المساحة بالطابق الأرضي حيث قدمت السجائر علي وعلى آخرين في الصحبة ممن يدخنون، وهذا يحدث لي للمرة الأولى في نجد. وكان الرجل الذي يصب القهوة يدور علينا ويشغل السيجارة قبل أن يسلمها لي[٢].

بعد فترة قصيرة من هذا الانغماس في الأهواء والشهوات مشينا جماعة عائدين إلى بيت الأمير لتناول الفطور، فبُسطت حصيرة هائلة من سعف النخيل على الأرض، وجرى تغطيتها بأعداد لا حصر لها من أطباق الأرز المبهر، والخضروات والفواكه التي التهمناها التهاماً. لم نكد ننتهي من هذا الطعام إلا وطالب محمد بن سليمان سكرتير ابن سعود وأحد المقيمين في عنيزة، باصطحابنا إلى القهوة في بيته. أخذنا ممراً طويلاً، مزخرفاً حتى ارتفاع خمسة أقدام تقريباً بأسطح من الجبس الخالي من الرسومات الذي وضع في مربعات متدرجة حتى قمتها إلى فناء صغير مفتوح مجاور لمجلس القهوة (انظر الشكل ٦).

والجدران الطينية في هذا المجلس الأخير مكسية حتى ارتفاع خمسة عشر قدماً بلياسة من الجبس الأبيض، ومزينة بتصاميم زخرفية بسيطة تعكس ذوقاً رفيعاً، والغرفة مفروشة بترف، يفوق كثيراً ما هو في غرف الأمير وعمه، بسجاد ومخدات فاخرة[٣].

كان النهار الآن قد انقضى معظمه وسُمح لي أن أعود إلى المخيم لآخذ ساعات قليلة من الراحة. ولكن ليس دون أن ألزم نفسي بعدد من الارتباطات الاجتماعية

(١) ختصر. (فيلبي). ويطلق هذا الاسم حتى اليوم، على المجالس الصغيرة في داخل المنازل والعمائر الكبيرة. (ابن جريس).

(٢) تقديم السجائر وإشعالها لفيلبي لأول مرة في نجد يعدها من الوعي والحضارة الاجتماعية. (ابن جريس).

(٣) لمزيد من الإيضاح عن بعض الجوانب الاجتماعية في عنيزة مثل: الأطعمة والأشربة، والنواحي العمرانية من منازل وقصور وغيرها، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٧٠، ١٩٧ - ٢١٨. (ابن جريس).

فيما تبقى من اليوم. وأول المستضيفين لي في أواخر فترة العصر عبدالرحمن بن عبدالعزيز بن زامل، سليل مباشر من الزامل الكبير الذي كان موجوداً أيام داوتي(١)، الرجل الذي أصبحت إدارته لعنيزة في العصور المضطربة منذ نصف قرن مضى مُزدانة بهالة أسطورية مبجلة.

وكان حفيده شاباً في حوالي الخامسة والعشرين ذا وجه شاحب ضعيف نسبياً ولحية في بدايتها، يُذكرنا بصورة غامضة بالرجل الكبير نفسه، الذي وصفه داوتي بأنه «رجل صغير، ناضج ذو طلعة دقيقة وبهية وعينين تومأن بفهم عميق»(٢). وهناك ابن عبدالرحمن، رجل حسن المظهر، حليق اللحية تماماً وأكبر نسبياً من عبد الرحمن نفسه يُدعى سليم، يساعده في ضيافتنا بالجو الخانق نسبياً في مجلسه الصغير المريح. وكنت قد أحضرت غليوني معي وشرعت في التدخين بلا حرج، بينما انهمك الآخرون في تدخين السجائر. لا تهاون مع التدخين في عنيزة في العلن أما ما عدا ذلك فهو لا يعتبر قذرا ولا غير شرعي(٣).

بعدما غادرنا منزل الزامل، الذي يقع في الطرف الغربي من المدينة الذي يبدو عليه مظهر الإنشاء الحديث، نسبياً، لاحظت أن الزوار الذين يصلون عند الباب

---

(١) زامل بن عبدالله الليم كان والياً على عنيزة خلال عهد الدولة السعودية الثانية، وقد بقي في ولايته من عام (١٢٨٥هـ/١٨٦٨م)، إلى أن قتل في معركة المليدا في جمادى الآخرة عام (١٣٠٨هـ/١٨٩٠م)، والتي هزم فيها أهل القصيم واستولى ابن رشيد على نجد وأخرج الإمام عبدالرحمن الفيصل من الرياض عام (١٣٠٩هـ/١٨٩١م) وانتهت الدولة السعودية الثانية أما عبدالرحمن ووالده عبدالعزيز فكانا من المهتمين بالعلوم الشرعية والفقهية، ويعدان من علماء عنيزة. وكانت وفاة عبدالعزيز الزامل في مكة المكرمة عام (١٣١٠هـ/١٨٩٢م)، ووفاة ابنه عبدالرحمن في عام (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م). انظر: محمد القاضي. روضة الناظرين، جـ١، ص ٢٧٠، محمد السلمان. مدينة عنيزة، ص ٥٧، ٨٦. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من المعلومات عن منطقة عنيزة أثناء زيارة داوتي انظر: كتابه (Travels In Arabia) (الجزء الثاني) ص ٣٥٦ - ٥٤٦. (ابن جريس).

(٣) ربما كانت القصيم أقل تشدداً من غيرها في بلاد نجد، وبخاصة في بعض التصرفات الاجتماعية كشرب الدخان وما شابهه، وذلك بسبب اختلاطهم الحضاري مع المسافرين والحجاج الذين يجوبون بلادهم ما بين الحجاز وبلاد الطرق وفارس وما حولها. (ابن جريس).

ويقرعونه ينادون دائماً صاحبه باسم الزامل، لقبه التاريخي المبجل. شققنا طريقنا عبر السوق حتى بيت سليمان الذكير، حيث قُدّم لنا بالإضافة للقهوة مزيجاً غثاً إلى حد ما من الشربات. إن عائلة الذكير، مثل كثير من عائلات عنيزة، قد انتشرت في كافة الأرجاء من موطنها الأصلي، وفي الوقت الحالي لها ممثلون في البصرة والعمارة والبحرين، والفرع الرئيس من العائلة في البحرين تحت رئاسة أخو يحيى، مقبل[١]. ولقد كان لي في أثناء وجودي بالعمارة خلال الشهور الأولى من ١٩١٧ قدر كبير من التعامل مع حمد بن محمد الذكير، وعلى أساس صداقتي مع ابن عمه قام سليمان - الموجود بين الصحبة في بيت الأمير خلال فترة الصباح - بدعوتي على القهوة في الغد. وبسبب خطأ من جانب رشيد اعتقدنا أن الدعوة كانت في عصر اليوم نفسه، وكنا في طريقنا إلى بيته عندما قابلنا مضيفنا في السوق، غير مدرك كما يبدو بوضوح بالميعاد الذي كنا نسرع خطانا للمحافظة عليه. ومن الواضح أننا أخطأنا، ومع ذلك فقد أصر على اصطحابنا إلى بيته، وهناك استضافنا وأقسم، لو كان الخطأ خطأه، لكان عليه تبعاً للعادة المحلية أن يولم وليمة في عشاء عام على شرفنا ليكفر عن مثل هذا الخرق للآداب العامة[٢]. وقد أكدنا له أنه بريء لا يُلام، ولكن عندما غادرنا قرب وقت صلاة المغرب أصر على أننا في الغد يجب أن نشرفه بالمحافظة على موعدنا الأصلي. ولقد كانت بنت أخ مقبل في ذلك الوقت واحدة من زوجات ابن سعود الأربع، الذي ولدت منه قبل ستة شهور مضت بنتاً. ولقد ظلت بعد الزواج مقيمة بين أهلها في عنيزة، وهكذا لم تر زوجها منذ زمن طويل، وكانت هذه أول مرة تقع فيها عين هذا الأخير على ابنته الصغيرة.

---

(١) مقبل عبدالعزيز الذكير المتوفى عام (١٣٦٣هـ/١٩٤٣م) في البحرين. وهو من أهالي عنيزة، وله كتاب في التاريخ لم يقرر له اسماً، ويعرف بـ (تاريخ نجد). مع أنه يشتمل على تاريخ غيرها من مناطق الجزيرة العربية وبلدانها ومازال محفوظاً. وقد تولى مقبل مالية الأحساء بعد ضمها من قبل الملك عبدالعزيز عام (١٣٣١هـ/١٩١٢م). للمزيد انظر محمد السلمان. مدينة عنيزة، ص ٨٨ - ٨٩. (ابن جريس).

(٢) الكرم واحترام المواعيد من الصفات الجيدة التي كان يتصف بها ذلك الجيل الذي يتحدث عنه فيلبي في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الماضي). (ابن جريس).

والآن عدت إلى المخيم وانطلقت إلى قمة دليمة الرملية غير البعيدة لأنال نظرة جيدة على ما يحيط بنا. وحتى هنا لم يكن لي أن أترك وشأني، فقد هرع رجل ذو لحية رمادية كبير في السن، يدعى إبراهيم القاضي، يلهث وهو يصعد المنحدر ليرى ماذا كنت أعمل. وسألني أسئلة كثيرة عن موضوع التصوير الفوتوغرافي، وكم كان مسروراً مثل طفل عندما سمحت له أن يأخذ الكاميرا بين يديه وينظر من خلال العدسة. ثم مثلما جاء فجأة نهض وتركني، ولما جاء رسول من ابن سعود ومعه خطابات وصلت من الكويت، فقد رجعت إلى المخيم، حيث بالكاد نلت وقتاً للنظر على عجل في مراسلاتي إلا وجاء عبدالله بن رشيد ليستدعيني على العشاء في بيت الأمير. قُدمّت الوجبة في غرفة بالطابق الأول تطل على الفناء الذي شربنا فيه القهوة، وكان الطعام يتكون من الأرز والخضروات ولحم ضأن طبخ بصورة ممتازة، إضافة للأنواع المعتادة من الفاكهة. وفور أن انتهت الوجبة قمنا، وبعد الاستئذان عدنا للمخيم نقول في أنفسنا أخيراً انتهت جولات الضيافة لهذا اليوم. على أن الحال لم يكن كذلك، فبعد صلاة المغرب ذهبت للمدينة تارة أخرى لأحل ضيفاً على فهد بن عبد الله البسام، وهو رجل بهي الطلعة ولكنه شيخ هرم قليلاً ويتمتع بوضوح بالأثاث والتجهيزات الفاخرة في قصره، وهو أحد أفضل البيوت في المدينة[1]. وقال لي: إنه قد رأى أحياناً داوتي يشرب القهوة في هذه الغرفة نفسها في أيام والده، عبدالله. والحق أن داوتي قد أشار إلى شاب من أهل البيت، ولكن لابد أن إشارته كانت إلى أخ أكبر؛ لأن فهد في تلك الأيام ـ كما يقول ـ كان صبياً صغيراً في الثامنة أو التاسعة، واعتاد على أن يكلفه معشر النساء بمراقبة داوتي وهو يأكل ليضع علامة على الجزء الدقيق من الطبق المشترك الذي أكل منه، هذا الجزء، مع هامش

(١) بيت آل البسام في عنيزة من البيوت المعروفة والكبيرة في المكانة الاجتماعية والعلمية. ومنهم عبدالله بن محمد البسام المتوفى عام (١٣٤٦هـ/١٩٢٧م) له كتاب في التاريخ أسماه: تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق. ولا يزال مخطوطاً. كما منهم الشيخ عبدالله البسام، أحد أعضاء هيئة كبار علماء المملكة العربية السعودية اليوم. انظر: محمد السلمان. مدينة عنيزة، ص ٨٦، ٨٧. (ابن جريس).

معقول على كلا الجانبين كان على ما يبدو يُحتفظ به لقطط البيت؛ لأن النساء لا تأكل إلا من الباقي فقط[١]. وبكثير من السرور والاحتفال قدّم علبة من السجائر المصرية لي وحدي، في حين قُدّم للدكتور عبدالله النوع العادي الذي يسود استخدامه محلياً مما أثار غيظه وحنقه كثيراً. وعلاوة على ذلك، أصر فهد على احتفاظي بالعلبة، التي سلمتها لعناية رشيد، وبالطبع، لم أرها أبداً مرة أخرى.

أخيراً جاءت نهاية اليوم، وكم كانت سعادتي بالخلود إلى الراحة. طبقاً للحساب المحلي كان هذا أول يوم في الخريف أي فصل الخريف البارد، الذي دخل بظهور سهيل عند الفجر[٢].

وفي الواقع هناك انخفاض ملحوظ في درجة الحرارة، وأعلى درجة خلال النهار كانت أقل من (٩٧) درجة. وعند السادسة صباحاً في اليوم التالي انخفضت إلى أربع وستين درجة .

إن كرم الضيافة في عنيزة ليس مترفاً فقط ولكنه منظم تنظيماً جيداً أيضاً. فعبء ضيافتنا ـ بخلاف شرب القهوة ـ قد وقع في اليوم الأول من إقامتنا المؤقتة على عاتق الأمير نفسه، الذي قدّم كلاً من الفطور والعشاء، والآن خلص من التزاماته تجاهنا.

---

(١) من العادات الاجتماعية عند سكان الجزيرة العربية قديماً أن الرجال يردون على الطعام أولاً، ثم يأتي من بعدهم النساء. وهذه العادة ما زالت سارية عند كثير من أسر مجتمع المملكة. (ابن جريس).

(٢) سهيل: هو كوكب أحمر يماني، قال عمر بن أبي ربيعة في الثريا التي كان شبب بها، وكان تزوج بها سهيل بن عبدالرحمن بن عوف:

أيها المنكح الثريا سهيلاً
عمرك الله كيف يتفقان
هي شامية إذا اشتعلت
وسهيل إذا استقل يمان

هذا يقال له سهيل اليمن ومعه نجم يقال له (بلقين) وسهيل اليمن يقرب من الأفق، منفرد عن الكواكب، لا يقطع إلى الغرب كما يقطع غيره، ولكنه يغيب في مطلعه. للمزيد انظر: ابن قتيبة، كتاب الأنواء، ص ١٥٢ ومابعدها. (ابن جريس).

وقام عمه، عبدالعزيز، باتخاذ ترتيبات فطورنا في اليوم الثاني، ولما تمكنت من الانفلات بعيداً قبله في جولة راكباً، فقد كنت عند وصولي في بيت مضيفي في حالة أشكره فيها على الوليمة التي أعدها. فكان هناك الأرز والدجاج، والبيض المقلي والطماطم المحشوة باللحم المفروم والبامية، والتين، والخوخ وثلاثة أنواع من التمور. وكل الفاكهة مجلوبة من الحديقة المجاورة التي تمتعنا فيها، بعد أن ساعدنا ازدراد هذه الوجبة بلبن الأبقار المخيض[١]. ومشينا للنزهة في الظل البارد لأوراق الأشجار اليانعة. وفي بيت صيفي صغير أو تعريشة من أغصان النخل وجدنا الأمير والشاب عبدالرحمن الزامل، الذين ناقشنا معهما أمور الزراعة. كما ذكرت من قبل، فإن محصول التمر في هذا العام غزيراً بصورة استثنائية، وقال لي الأمير: إنه أنه في نخلة واحدة بحديقته يظن أنها تحمل مائة صاع (بين ٢٥٠ و ٣٠٠ كيلو) تُقدّر بقيمة أربعين ريالاً.

من العادات الشائعة هنا لأهل المدينة الذين لا يملكون نخلاً إلاّ يشتروا ما يحتاجونه من التمر في السوق، ولكن يشترون محصول نخلة واحدة أو أكثر كما هو في الشجرة، وأن يتناولوا ما يشاؤون من الفاكهة الطازجة خلال الموسم. يبدو أن هذا النظام يسير بصورة مرضية ومقبولة، لأن عنيزة تتباهى بالمعايير العالية في الأمانة التجارية[٢].

ولقد دُعينا على القهوة من شخص يدعى صالح الفضل[٣]، رجل كبير السن،

---

(١) لمزيد من المعلومات عن الأطعمة والأشربة في عنيزة وعموم بلاد القصيم. انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٧٠، حسن الهويمل بريدة، ص ١٦٧ - عبدالله الرشيد، الرس، ص ١١٣ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن النشاطات التجارية في بلدة غنيزة منذ القدم. انظر: عبدالرحمن السويداء، نجد في الأمس القريب، ص ٣٣، عبدالرحمن الشريف، منطقة عنيزة، ص ٩٠، عبدالرحمن الغنايم، المذنب، ص ٩١، ١١٩، ١٣٢ - ١٥٠، مديرية الزراعة والمياه بمنطقة عنيزة، التقرير السنوي لعام (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ص ٥١، سيد عبدالحميد بكر، ص ١٨ أبو علية، الدولة السعودية الثانية، ص ٢٨٣، ويقول سادلر الذي مر بعنيزة عام (١٢٣٥هـ/١٨٢٠م): «عنيزة قصبة الجزيرة العربية جغرافياً وسياسياً وتجارياً فهي منطقة وصل بين الخليج العربي والبحر الأحمر وتلتقي عندها عدة طرق»، انظر:

Forster Sadlier. Diary of Journey Across Arabia From Elkhat.f to yabo (Bombay, 1866)

(٣) في (١٩١٩م) هاجر صالح إلى كراتشي ليتولى مسؤولية فرع مهم من العمل التجاري لأسرته في تلك المدينة، حيث التأم بعد ذلك بسنوات قليلة مع آبائه فخوراً الشرف والعمر وهذه العائلة لها أيضاً تمثيل في بومباي، ونالت شرفاً سامياً في الحجاز تحت الحكم الوهابي الجديد. (فيلبي).

نبيل ومدهش وكنت قد قابلته من قبل في الرياض. كان في ذلك الوقت في زيارة لها يلتمس من ابن سعود التدخل لصالح ابنه وابن أخيه، اللذين ألقيا في غياهب السجن بجدة على يد الملك حسين لا لسبب ظاهري إلا أن صالحاً نفسه كان في ذلك الوقت بالمدينة، حيث ظل بحق يسكن فيها لسنوات عديدة قبل الحرب، بعد أن تزوج سيدة من تلك المدينة والتي لم يكن لها رغبة في ترك مباهج الحياة وأسباب الراحة التي توجد هناك تحت الحكم التركي وتذهب للمنفى، كما يبدو لها، في صحاري الجزيرة العربية. ولم يضيع صالح الوقت سدى، بعدما أدرك المأزق الذي كان فيه ابنه وابن أخيه في العودة إلى عنيزة، ولكن على الرغم من تدخل السلطات البريطانية بجدة، فلم يكن بالإمكان إقناع الملك حسين بالإفراج عن الشابين إلا بعد الهدنة. وبدا صالح على حسب وصفهم في كرب عظيم خلال ذلك الوقت، على الرغم من أن زوجته المدينية قد رافقته، وبأعمالها المنزلية البارعة جعلت مائدة زوجها موضع حسد من ربات البيوت في القصيم(١). من روائعها التي لا تبارى سنحت لي فرصة تذوقها والحكم عليها في ذلك المساء نفسه عندما أصر صالح على تناولنا العشاء معه. فقد وضعت صينية معدنية مرفوعة في وسط حصيرة كبيرة تحمل كوماً طيباً من الأرز ولحم الضأن المتبل بصورة رائعة بالبهارات الشهية، وحولها نشر عدد غزير من الأطباق الصغيرة من اللحم المفروم والخضروات المحشية التي تتناوب أماكنها مع أطباق من الفاكهة اللذيذة ومنها أفخر أنواع التين والخوخ وأنواع كثيرة من التمور. وجاءت القهوة بعد الطعام، وبعد ذلك رافقت الدكتور عبد الله في زيارة شبه مهنية لأحد أقارب مضيفنا الذي كان طاعناً في السن ويعاني من شلل نصفي، فقد كان جنبه الأيسر مصاباً بالضمور تماماً نتيجة ـ حسب ما قال عبد الله ـ عدوى الزهري

(١) إبداع زوجة صالح الفضل الحجازية التي يصف فيلبي إبداعها في عمل أطعمة جيدة قد لا تكون موجودة في بلدة عنيزة آنذاك، وهذا مما يدل على ثقافة أهل الحجاز المتقدمة في طهي الأطعمة والأشربة، وكذلك اللباس والزينة وربما تأثيث المنازل. وهذا ناتج من الخليط السكاني الذي تعيشه بلاد الحجاز منذ عهود قديمة جداً. للمزيد. دار العلم للطباعة والنشر، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص ١٥ وما بعدها (ابن جريس).

(السفلس) منذ زمن طويل خلال زيارة للبصرة، وهو أحد الحالات النادرة من هذا المرض التي تنمو إلى علمي خلال السنة التي قضيتها في نجد[١].

ولقد كان من حظي أن أبقى حراً بصورة كافية خلال النهار لأرى شيئاً من الواحة العظيمة، التي تمكنت أن أسير حولها دورة كاملة. إنها تقع في حوض رملي كبير يحده من الشرق جرف الصفراء، ومن الجهات الأخرى شبه دائرة من النفود الواسعة، التي تبدأ بقمم عيادة الشاهقة قرب خشم وداي في الجنوب ومروراً بالدليمية[٢]، وهي قمة مماثلة في وسط جبال عالية، إلى الغرب من الواحة، حيث تنخفض تدريجياً إلى مستوى أقل حتى تصل إلى القمم الرملية الشاهقة إلى الشمال من المدينة. وفي الجهة الجنوبية تتلقى الواحة المياه من قناة شعيب وداي، التي تدخل المنخفض بين النفود والجرف تحت رأس مرتفعة تعرف باسم خشم وداي ويبدو أن هذا هو الرافد الوحيد للحوض، يضاف إلى ذلك قدر عظيم من مياه الأمطار الذي يأتي من المنحدر الحاد للهضبة، الذي ليس لانحداره الغربي من قمة الصفراء مدى كبير. وإلى الشمال من أرض وداي المرتفعة يبرز نتوءان جبليان آخران قليلاً عن خط الهضبة ويدخلان في الحوض[٣]، وهما على وجه التحديد خشم السلوم وخشم رفاع، وعلى كل واحد منهما يقوم برج حراسة دائري من بناء صلب، مشيدان من الحجارة والأسمنت. ولا توجد بهما فتحات سوى نافذة واحدة ضيقة تحت مستوى السقف مباشرة، يمكن الوصول إليها بصورة عادية في حالة الحاجة إلى ذلك بحبل وخطاف حديد[٤]. والأخير يرتفع في نقطة مقابلة لمركز الواحة حيث يتحكم عليها برؤية

---

(١) لمزيد من الإيضاح عن الحياة الصحية في نجد وعموم البلاد السعودية خلال القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، انظر: محمد رفعت المحامي، أسد الجزيرة قال لي، ص ١٠٩ - ١١١.

(٢) على بُعد حوالي ربع ميل واحد جنوب الدليمية وفي النفود يقع على التوالي بئر كحلان والنخلة الوحيدة، والقصور وزراعة الحنطة الخاصة بالنقيلية. (فيلبي).

(٣) لمزيد من التفصيلات عن مدينة عنيزة وتضاريسها، انظر: محمد السلمان، ص ١٩ - ٢٣. (ابن جريس).

(٤) للاطلاع على أنواع الأبنية والتشييد في عنيزة وعموم نجد، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ٤٨، ١٩٧ - ٢١٢، النويصر، خصائص التراث العمراني في المملكة، ص ٢١ وما بعدها. (ابن جريس).

رائعة، وكذلك على المدينة في وسطها. وقد استطعت أن أقوم بمسح المدينة أيضاً من قمة مصابح الرملية الشاهقة الواقعة وراء طرفها الشرقي وقمة دليمة المذكورة آنفاً، في جهة الجنوب الغربي.

تقع الواحة كلها تقريباً داخل سور بيضاوي ارتفاعه اثنا عشر إلى خمسة عشر قدماً، وبه حافة على هيئة سن سمك القرش على طول قمته وذو محيط عظيم. لقد تهدم السور كثيراً نتيجة الإهمال، في أماكن كثيرة مثلما كان في زمن داوتي، وعلى الرغم من أن الأخير قدّر أن الثغرات يمكن ترميمها بسرعة في حالة الحاجة إلى ذلك، إلا أنه فيما بدا لي أن الواحة تستطيع بالكاد أن تقف في وجه هجوم مباغت، والمباغتة هي الصفة التي تتميز بها حرب العرب. ونسب هؤلاء الذين سألتهم عن الموضوع إهمال الأسوار إلى الفترة الطويلة من الأمن في الماضي القريب، على أن هذا التفسير لا يبدو مرضياً تماماً في حالة بلدة لها تجارب على مدى قرن أو أقل من الزمان، الكثير من تقلبات الأقدار مثل عنيزة(١).

خلال الفترة الطويلة من الفوضى التي أعقبت قضاء إبراهيم باشا على القوة الوهابية في عام (١٨١٨) ولم تنته إلا بالجلوس النهائي لفيصل على عرش الرياض منذ حوالي ثلاثة عقود بعد ذلك، تبدو عنيزة أنها تحافظ على ما يشبه الاستقلال تحت حكم تركي غير قابض، وظلت لبعض السنين خاضعة لاحتلال جيش خورشيد باشا، الذي كانت إقامته المؤقتة عند بوابات الواحة طويلة بصورة كافية بكل المقاييس لتبرر بناء ثكنات من الحجر، التي لا تزال أنقاضها وأنقاض قصر من الطين (داخل البوابة مباشرة،) يعرف باسم قصر الخرشت تتناثر في منطقة كبيرة خارج البوابة الشرقية. ثم مرة أخرى خلال عهد فيصل، في حوالي (١٨٦٢م)، تجد

(١) عن تاريخ عنيزة وجميع بلاد القصيم، وما مر عليها من التقلبات السياسية خلال القرون الماضية، انظر: محمد السلمان، الأحوال السياسية في القصيم في عهد الدولة السعودية الثانية، ص ٢٣ وما بعدها، للمؤلف نفسه، مدينة عنيزة، ص ٣٧ وما بعدها، العثيمين، تاريخ، جـ٢، ص ٧١ وما بعدها. (ابن جريس).

عنيزة نفسها بين نارين خلال بداية الصراعات بين ابن الرشيد والوهابيين التي ذكر بلجريف (Palgrave) بعضاً منها، ولأنها حوصرت لمدة أربعة عشر شهراً بصورة شديدة بقدر ما يمكن تحقيقه بوسائل الحصار العربية[١]، وقد أغلقت أبوابها في وجه ابن الرشيد ولم تجد صعوبة في مقاومة هجماته، فالمدينة كانت تنتج ولا تزال تنتج اليوم جميع أنواع الطعام الذي يحتاجه سكانها داخل دائرة السور. على أن الظروف قد تغيرت بعد ذلك بثلاثين سنة أو أكثر عندما وقعت عنيزة[٢]، مثل باقي القصيم ونجد كلها، تحت الاحتلال من قبل ابن الرشيد إلى أن استرد الحاكم الوهابي الحالي المنطقة كلها في ١٩٠٦.

ولقد كان ابن سعود في هذا الوقت يتحدث دائماً بحماس عن ولاء وإخلاص أهل عنيزة وكبار العائلات فيها له. وأنا بنفسي لم ألاحظ أبداً أقل إشارة إلى أي توتر ناجم عن قيادتهم. وعلينا أن نتذكر ـ بالطبع ـ أن سياسته توفيقية واسترضائية إلى حد بعيد، ولا أحد يعلم أفضل منه متى يستخدم القوة عندما تكون ضرورية في وجه التمرد، بيد أن السر في نجاحه يكمن في حقيقة أنه يستطيع أن يداوي جراح النار والسيف بالسخاء والكرم لأعدائه والتسامح معهم[٣].

(١) للاطلاع على الصراعات بين ابن الرشيد وآل سعود في عهد الدولة السعودية الثانية، انظر: أبو علية. تاريخ الدولة السعودية الثانية، ص ٢١٨. (ابن جريس).

(٢) كان يحيى بن سليم هو الأمير في ذلك الوقت ويقال في عنيزة إن الاحتلال الرشيدي للمدينة قد دام فقط من (١٣٠٨ حتى ١٣٢٢ هجرية) (١٨٩٠ - ١٩٠٤م). وعلى كل حال فقد بقيت المدينة تحت السيطرة العامة لابن الرشيد. (فيلبي) لقد أخطأ فيلبي في ذكر يحيى بن سليم أميراً لعنيزة عام (١٣٠٨هـ/١٨٩٠م)، وإنما كان عبدالله يحيى الصالح اليحيى من آل زهري بن جراح من سبيع، ولاه محمد بن عبدالله بن رشيد أمير نجد حينئذ إمارة عنيزة بعد انتصاره في المليدا عام (١٣٠٨هـ). واستمر عبدالله اليحيى أميراً على عنيزة حتى توفي عام (١٣١٢هـ/١٨٩٤م) فولى ابن رشيد بعده أخاه صالح اليحيى. انظر: محمد السلمان. مدينة عنيزة، ص ٥٧. (ابن جريس).

(٣) سياسة الملك عبدالعزيز في استخدام القوة عندما تكون ضرورية، والتسامح والعفو عن أعدائه عندما يتغلب عليهم من صفاته الرئيسة التي امتاز بها. وفي نجد في التاريخ الإسلامي نماذج كثيرة يتصفون بمثل هذه الصفات الحميدة. (ابن جريس).

إن أهل عنيزة ليسوا بأولئك الذين يستهينون بأي انتهاك لاستقلالهم التقليدي، ولكن عندهم يأتي العمل التجاري دائماً في المقام الأول[١]، ولا يستعصي على فهمهم إدراك مزايا الخضوع لحاكم متسامح على الاستقلال الزائف دائماً تحت رحمة جيران متقاتلين. وهكذا لا يوجد في هذا الوقت ولا منذ ذلك الحين أي مدعاة للشك في ولاء عنيزة ـ التي على أي حال وقعت ـ في السنوات الأخيرة، فريسة للقلق والاضطراب بسبب وجود توتر في العلاقات بين ابن سعود وحكام الكويت قاعدة التموين لتجارة القصيم[٢]. وعلى الرغم من ذلك يمكن بالكاد أن يتوقع من ابن سعود أن يتسامح بسهولة مع الإجراءات التي تؤدي إلى قيام دولة الكويت بتحصيل الرسوم الجمركية على البضائع المتجهة للقصيم، وهي من حقه شرعاً[٣]. وستكون أخباراً سارة لتجار القصيم عندما يتم التفاوض على اتفاقية الجمارك، التي تأخرت طويلاً، والتوقيع عليها واعتمادها، ولن يفعل رجال الدولة البريطانية شراً إذا ما عجلوا بتسوية عادلة لمشكلة شائكة[٤].

ولقد كان ابن سعود حكيماً في جيله، وقد يتساءل المرء ما إذا كان على الإطلاق قد تأثر نفسياً من وقع سياسته التسامحية بالقصيم، وفي الأحساء، واللين الذي أبداه لا يمكن أن يكون مناسباً في مكان آخر دون الإساءة إلى قواعد حكمه الأساسية. لقد ركب منذ ذلك الحين الموجة بمهارة كافية في حائل، وهو الآن على

(١) تعد بلاد القصيم، وبخاصة أهل عنيزة وبريدة من أهم لمناطق التجارية في الجزيرة العربية، انظر: عبدالرحمن الشريف. منطقة عنيزة، ص ٩٠ وما بعدها، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٤٥ وما بعدها، الهويمل، بريدة، ص ١٢٥، محمد الربدي، بريدة، جـ٢، ص ٣٣٨. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن العلاقات السياسية بين الكويت ونجد، انظر: السعدون، ١١٠ وما بعدها، خزعل، جـ٢، ص ١٨٦، الرشيد، تاريخ الكويت، ص ٢٠٩ وما بعدها، الريحاني، نجد وملحقاتها، ص ١٥٦، لوريمر، ص ٥٢٧ – ٥٢٩. (ابن جريس).

(٣) عن أحوال التجارة بين الكويت ونجد في بداية تأسيس الدولة السعودية الحالية، انظر: السعدون، ص ١٨٨ – ١٩٠. (ابن جريس).

(٤) انظر: السعدون، ص ١٨٨ وما بعدها، لوريمر، ص ٥٢٩ وما بعدها. (ابن جريس).

المحك بالاختبار الأشد أهمية وخطورة لحنكته السياسية في الحجاز، حيث انطلق مركبه الشراعي الضعيف من مخبئه في الخلجان الصغيرة بالجزيرة العربية إلى وسط التيارات الخطيرة في بحر الإسلام الهائج.

على أن هذه الأشياء لم تقع بعد، ونذر صعوبات المستقبل تبدو فقط بصورة غامضة مثل نسائم نادرة ومتقطعة تمر فوق السطح الهادئ لمياه الوطن، لا تلحظها تقريباً إلا العيون اليقظة للرجل الجالس خلف الدفة، الذي يرى ولكن لا يرتجف من المخاطر المحدقة بالمغامرة التي شرع فيها. من أجل النجاح لابد أن يكون على ثقة بطاقمه، ولكي يضمن ذلك ويحافظ عليه لابد أن يُعودّهم على المناورات الجريئة، ولا ينبغي لهم أن يهمسوا بعدم فهمها، حتى هزيمتهم النهائية نفسها.

وهكذا كانت تعاملاته في القصيم، التي ينسبها البعض إلى الاضطراب من السخط المحتمل في تلك المنطقة، بيد أن ابن سعود كان ينظر إلى المستقبل البعيد، وكلما سنحت الظروف، يعلّم رعاياه البسطاء بعض الدروس الجوهرية في فن الحكم وإدارة شؤون الدولة[1] ـ وأقلها على الإطلاق كان ـ أنه ما دام الرعايا أحراراً بكل ما تعني الكلمة في توجيه النقد وتقديم المشورة، فليس من شأنهم أن يتولوا مسؤوليات الحكومة بأيديهم. ولقد سنحت الظروف لمثل هذا الشيء مؤخراً. فقد انطلقت جماعة من القصمان[2] ـ حوالي عشرة منهم ـ في رحلة، وعندما توقفوا لنوم القيلولة، كانوا بكل هدوء يتمتعون بسجائرهم عندما مرّ عليهم ستة من الإخوان وقد

(١) لمزيد من الإيضاح عن عبقرية الملك عبدالعزيز في الإدارة وفنون الحكم، انظر: إيف بيسون، ابن سعود، ص ٨٣ وما بعدها، محمد رفعت المحامي، أسد الجزيرة قال لي ص ٦٠ وما بعدها، درمولين، الملك ابن سعود، ص ٤١ وما بعدها، العقاد، مع عاهل الجزيرة العربية، ص ١٩ وما بعدها، التركي، الملك عبدالعزيز آل سعود: أمة في رجل، ص ٥١ وما بعدها، إبراهيم السماري، الملك عبدالعزيز الشخصية والقيادة، ص ٣١ وما بعدها، الكيلاني، عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود والإصلاح الإسلامي المعاصر، ٦٥ وما بعدها، الخميس، عناية الملك عبدالعزيز بالعقيدة السلفية ص ١٥ وما بعدها.)ابن جريس).

(٢) القصمان: جمع قصيمي، أي من أهل القصيم (فيلبي + ابن جريس).

غضبوا غضباً شديداً من السلوك الأثيم لأهل القصيم، ونتيجة لذلك فقد أخذ ممثلو المختارين من الله على عاتقهم توبيخهم بقسوة على ارتدادهم عن الطريق القويم إلى طريق الكفار(١). ومثل هذا التوبيخ المهين لا يتحمله الناس بسهولة، الذين بكل ما لديهم من معرفة وتنوير، يكونون مؤمنين معتصمين بالدين الحق الواحد. والقصمان في نوبة غضبهم الشديد انكبوا على منتقديهم وذبحوهم. وقدّم أقارب الرجال "الشهداء" شكواهم إلى "قيصر"(٢)، الذي ذكرهم بحدة وصرامة أن أقاربهم الموتى كانوا مخطئين بارتكاب خطأ شنيع، وذلك بالتعدي على الامتيازات الملكية في الحكم. وأعيدوا من حيث أتوا دون التعويض النقدي الذي كانوا يطلبونه من الآثمين. وقال لي حمد، وهو دليل من البرّه الذي أخبرني بالقصة أن الوضع كان يمكن أن يكون مختلفاً لو كان المتهمون من مكان آخر غير المنطقة المفضلة(٣)، على أنني حافظت على صمتي، مدركاً بصورة ولكنها أن ابن سعود ربما كان ينظر للحركة الوهابية كوسيلة نحو غاية متصورة بالفعل، ولكنها لم تصغ حتى في أعماق فكره.

هناك ثلاث بوابات رئيسة مؤدية إلى الدخول في الواحة، هي على التوالي في الطرفين الشمالي والجنوبي من السور الدائري وعند النقطة الوسطى تقريباً من الجهة الشرقية. بالإضافة إلى تلك يوجد باب خلفي يؤدي إلى منطقة مغلقة بسياج قريبة من الركن الجنوبي الغربي، حيث يقوم برج حراسة دائري صلب أو ما يسمى سنقر على نتوء من الرمل، بينما تؤدي بوابتان في السور الغربي إلى الخارج للسير

---

(١) هذا الأسلوب في الدعوة لا يجيزه الإسلام، وإنما يحتاج الداعية إلى الصبر والحلم، ومعالجة الأمور بنوع من الهدوء وعدم العنف. أما معاقبة الآثم أو المذنب فتكون بيد ولي الأمر، والمؤسسات الإدارية المسؤولة عن ذلك (ابن جريس).

(٣) يقصد بكلمة (قيصر) أي الملك عبدالعزيز، وهذا مصطلح خاطئ فلا يطلق إلاّ على حكام الروم ومن شابههم. (ابن جريس).

(٣) ربما الملك عبدالعزيز نظر إلى قتل القصمان للإخوان الذين اعتدوا عليهم نظرة إنصاف وعدل فالقصمان لم يعتدوا على الإخوان، وإنما الذي تجاوز في تطبيق العقاب هم الإخوان أنفسهم دون أن يصبروا ويتريثوا حتى ترسخ مبادئ الدين الإسلامي الصحيح في نفوس الناس. (ابن جريس).

على الطرق المتجهة نحو الخبراء الخط الذي يقطع المنطقة المسورة من البوابة الشمالية حتى تلك الموجودة في الجنوب يقسم الواحة إلى جزأين لهما صفات مختلفة، فالذي في ناحية الغرب والممتد حتى حافة النفود يشكل بقعة كثيفة من بساتين النخيل الرائعة كثيرة العدد، بينما في جهة الشرق تكون الأرض أشد رحابة، وتتناثر فيها بقع النخيل ومساحات شاسعة من حقول الحنطة، وحدائق الخضروات، وحقول البرسيم وما شابهها. وقد امتدت الزراعة أيضاً خارج السور الشرقي[١] على نطاق واسع، بينما في الجنوب توجد بساتين نخيل الجهيمية والخريجية المعزولة، والمطمورة في بقعة من التلال الرملية المنخفضة بين الطرف الجنوبي للواحة والنفود المرتفعة.

يتكون الأول من قصر ومجموعة كثيفة نسبياً من النخيل العالية، بينما الأخير يضم رقعة صغيرة من النخيل مع انتشار طيب لأشجار الفاكهة (التين والخوخ)، ناهيك عن رقع البطيخ والخضروات فيها[٢]. هذه الحديقة تتباهى أيضاً بأفضل ماء شرب في الواحة كلها والوصول إليها سهل؛ لأنها لا تبعد أكثر من ربع ميل خارج البوابة الجنوبية. كانت خيامي قد نصبت في منتصف المسافة بين النقطتين. وهناك حديقة معزولة أخرى تسمى المزيرعة تقع في منخفض رملي شمال الواحة بين الصفراء وقمتي مصبح وحُلبان الرمليتين أعلى نقطتين في أرض عنيزة، ويطلان على منظر واسع في المنطقة المحيطة بهما حتى مسافة بعيدة تصل إلى نخيل وادي الرمة.

وتوجد توسعات أخرى في الزراعة من عهد قريب نسبياً قد تجمعت مع بعضها حول المناطق الشمالية والشمالية الغربية من السور الدائري، وقد شّيدت أسوار

(١) أي بستان نخيل الحويطة المصور عند الزاوية الجنوبية الشرقية من الواحة مع رقعة من الزراعة تسمى المغيرة إلى الجنوب منه، وبئر شقيرة إضافة للأرض المزروعة خارج الدروازة الشرقية أي البوابة الشرقية، وبعد هذه، نحو الشمال، توجد بساتين نخيل ورقعة زراعة ثم بئر عويسة عند الزاوية الشمالية الشرقية. (فيلبي). للمزيد من الإيضاح عن الزراعة والزروعات في عنيزة، انظر: محمد السلمان، ص ١٢٣ وما بعدها، العبودي، بلاد القصيم، جـ١، ص ١٠٥، الشريف، منطقة عنيزة، ص ١١٩. (ابن جريس).

(٢) للاطلاع على أنواع النخيل في مدينة عنيزة، انظر: السويداء، ص ٢٤٦، العبودي، جـ١، ص ١٠٥، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٢٣ وما بعدها. (ابن جريس).

فرعية منخفضة خارج السور الرئيس لتحيط بهذه الإضافات النامية في حالة مناطق النخيل الجديدة، بينما مساحات الخضروات والبطيخ المتمركزة حول الآبار المحفورة حديثاً خارج الواحة تحمى فقط بأسوار من أغصان الشجر أو جريد النخل. ويحتوي الكثير من مناطق التوسع هذه على قصر واحد لسكن العمال، ولكن المجموعة الوحيدة من المباني التي تستحق أن يُطلق عليها لقب قرية خارج السور الرئيس كانت السفيله على بُعد (٢٠٠) ياردة تقريباً خارج البوابة الشمالية.

كما شوهدت من سنقر خشم رافع تبدو مدينة عنيزة أنها تحتل موقعاً وسطاً في الواحة مع ميلها إلى التضخم جهة الجنوب، حيث تقع واحتا ضليعة وأم الحمار. الأولى عبارة عن مجموعة متناثرة من المباني الممتدة طولياً من حافة المدينة في الجهة الجنوبية الشرقية، وتضم تقريباً ألف نسمة من السكان، بينما الأخيرة تتكون من نخيل يقترب من الزاوية الجنوبية الغربية للمدينة. وعلى بعد حوالي ثلاث مئة أو أربع مئة ياردة نحو الشرق تماماً من منطقة المدينة الرئيسة تقع قرية صغيرة تسمى شعيبي، يسكنها مائة نسمة في بقعة مفتوحة من الحقول، بينما توجد قرية كبيرة فيها نحو خمس مئة نسمة، تدعى ملح بالتحديد، وتمتد كضاحية لمسافة ما على طول الطريق الشمالي. وتقع ضبة وهي قرية أصغر من سابقتيها وفيها ثلاث مئة نسمة على بُعد ربع ميل تقريباً خارج المدينة نحو الشمال الشرقي. هذه القرى مع مجموعة ليس لها اسم واضح من المباني خارج البوابة الجنوبية تشكل مع المدينة الرئيسة نفسها ما يمكن أن يعتبر مدينة عنيزة. وعلى مسافة بعيدة منها وخارج البوابة الشمالية على يسار طريق بريدة تقع سفيلة المذكورة آنفاً، بها مئة نسمة، بينما جناة التي ليس فيها أكثر من مئتي نسمة تقبع داخل الحزام الكثيف من النخيل بالقرب من الزاوية الشمالية الغربية من السور الدائري. هذه القرية بكل ما يبدو فيها من نقص الرخاء والازدهار في الوقت الحالي تزعم أنها كانت أصل منشأ عنيزة[1].

---

(١) عن نشأة مدينة عنيزة وتاريخها، انظر: ياقوت الحموي. معجم البلدان (بيروت: دار صادر، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، جـ٤، ص ١٦٣، محمد العبودي، بلاد القصيم جـ١، ص ٥٢ محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ٤١ وما بعدها. Doughty, Travela In Arabia, Vol.2,pp. 420 ff (ابن جريس).

إن سكان واحة عنيزة ـ التي تشمل المدينة الرئيسة ـ والضواحي والقصور المتناثرة، لا يمكن بأي حال أن يقلوا عن خمسة عشر ألف نسمة في هذا الوقت[١]. فقد كانت المدينة الرئيسة مأهولة بالكامل وسكانها يتكدسون. وهناك ما لا يقل عن مئة دكان، قيل إنها كلها في السوق الرئيس والأسواق الفرعية المختلفة. وأهم صفة تميز المدينة هي عدم التناسق، مما يشكل صعوبة شديدة في أن يعرف المرء طريقه أثناء التجول، أو أن يحصل على أي فكرة دقيقة عن طبيعتها الطبوغرافية وتصميمها. والمعلم الوحيد البارز فيها هي المئذنة الطويلة المستدقة الطرف في المسجد الكبير[٢]، كما يوجد على الأقل اثنتا عشرة مئذنة أخرى ذات العمارة المماثلة، ولكنها أقل ارتفاعاً، وتتناثر حول المدينة والضواحي، التي تنتصب شامخة في الأفق لترى من كل ناحية. وأخيراً هناك المقبرة الكبرى التي تمتد منفرجة الساقين على الطريق الشمالي الرئيس وراء ضاحية الملح، وتشغل مساحة واسعة. وفي أجزائها القديمة كانت حجارة شواهد القبور أكبر بشكل ملحوظ عما هو معتاد في ظل الشروط الوهابية، ألواح من الصخر الرملي غير المصقولة ومستطيلة الشكل، ارتفاع الواحد منها قدمان أو قدمان ونصف. بينما يظهر في القبور الأحدث ميلاً إلى الالتزام بمعتقدات المذهب الجديد[٣]، في هذه الحالة كانت حجارة الشواهد مصنوعة من نفس المواد، ولا يزيد ارتفاعها عن قدم واحد.

(١) هناك بعض المصادر تشير إلى عدد سكان عنيزة من أوائل القرن الثالث عشر الهجري، فيذكر أن عددهم في عام (١٢٣٢هـ/١٨١٧م) يقدرون بـ (٨٠٠٠) ألف نسمة، وفي عام (١٢٨٢هـ/١٨٧٥م) قدرهم الرحالة الأوربي داوتي بـ (١٥٠٠٠ ألف نسمة. وفي عام (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م) يقدرهم لوريمر في كتابه دليل الخليج بأنهم يتراوحون من (١٠ – ١٥) ألف نسمة، وفي عام (١٣٤٠هـ/١٩٢١م) يقدرهم أمين الريحاني بـ (٣٠,٠٠٠) ألف نسمة، وفي عام ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م) قدرتهم مصلحة الإحصاء العامة في المملكة بـ (٢٣,٤٥٥) ألف نسمة. للمزيد انظر منير العجلان، ص ٩١، أمين الريحاني، ملوك العرب، ص ٦٠٧، عبدالرحمن الشريف، منطقة عنيزة، ص١٨٣، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ٢١٤ – ٢١٥، Doughty, Vol, 2.pp.386 (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن المسجد الجامع الكبير في عنيزة، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ٢٠١ – ٢٠٢. (ابن جريس).

(٣) دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب كانت تسعى إلى ترسيخ مفاهيم الإسلام الصحيحة، ومحاربة البدع والخرافات وما يتعارض مع الكتاب والسنة. (ابن جريس).

٣ـ الطريق إلى بريدة[١]

لم يمكث ابن سعود سوى ليلة واحدة في عنيزة، وانطلق منها إلى بريدة في الصباح الباكر من اليوم الثاني، على أنه بكل لطف اقترح أنني ربما أفضل البقاء يوماً أو يومين لأرى شيئاً من المكان والمجتمع الذي سمعت عنه كثيراً. وبكل سرور استفدت مما سمح لي به، ولم يأت صباح السادس والعشرين من أغسطس ـ بعد أن أمضيت يومين كاملين في الجو الاجتماعي البهيج بعنيزة ـ إلا وكنت مرة أخرى في الهودج لألحق بالعاهل الوهابي. تقع بريدة على مسافة خمسة عشر ميلاً تقريباً نحو الشمال تماماً من شقيقتها مدينة عنيزة. والمنطقة الفاصلة بينهما تتكون من بقعة من التلال الرملية المنخفضة المتحركة من نوع النفود الحقيقية، والتي يشق عبرها وادي الرمة المهم طريقه، بعدما يرتفع في قفر الحمم البركانية بجبال خيبر لمسافة أربعة أميال تقريباً. وبينما هو يكافح بحثاً عن ممر له ويجد نفسه في النهاية مسدوداً بحاجز الدهناء الرملي العظيم.

إن الحزام الأوسط من منطقة القصيم يدين بالفضل في شهرته الزراعية بصورة رئيسة إلى حقيقة أن فيضانات الوادي تسير كل هذه المسافة خلال سنوات الأمطار الغزيرة، على أنه لم يُعرف عنها حسبما تمتد إليه ذاكرة الأحياء أنها قد تجاوزت أكثر من ذلك نحو الشرق. وفي الوادي نفسه يكون مستوى الماء تحت التربة قريباً دائماً من السطح، على الرغم من أن عمق الآبار يكون كبير نسبياً في كل من عنيزة وبريدة[٢].

إن الطريق الرئيس إلى بريدة يخرج من عنيزة ببوابتها الشمالية. وهناك مجال

---

(١) للاطلاع على معلومات أكثر من مدينة بريدة انظر: الربيدي، بريدة، جزءان، الهويمل، بريدة، ص ١٩ وما بعدها، العبودي، بلاد القصيم جـ١ ص ٢٩ (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن مصادر المياه في بلاد القصيم، انظر: عبدالرحمن الشريف، جغرافية المملكة، جـ١، ص ٨٤ وما بعدها، الهويمل، بريدة، ص ١٢٩ - ١٤٠، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ٢٧ - ٢٨، ١٢٣ وما بعدها. (ابن جريس).

كاف للتنويع الذي يكسر حدة الملل في السفر بين هاتين المدينتين[١]. وفي الحقيقة لم يكن هو الطريق الرئيسي الذي اخترناه في رحلتي الأولى. وكما كنا نصبنا خيامنا في الطرف الجنوبي الغربي من الواحة، فقد سرنا على طول طريق الملقى الذي يطوف حول الحافة الغربية من بساتين النخيل، ويقاطعه في مرحلة مبكرة الطريق الرئيس إلى الرس[٢]. والطريق الأخير يبدأ من بقعة من الأثل عند نهاية الواحة ويمتد نحو الغرب فوق التلال المنخفضة لنفود الشقيقة، بينما كان دربنا نحو الشمال الغربي تقريباً. كانت الكتل الرملية المرتفعة جرداء تماماً وتحت رحمة الرياح، بيد أن الأجزاء المنخفضة منها مكسوة بصورة طيبة بشجيرات الرمض والأضر، وأحد هذين النوعين ربما يكون هو عشب الورد البري، الذي أشار إليه داوتي على أنه طعام مؤذٍ للإبل، وهو ربما يكون النوع الأول، على الرغم من أنه في الحقيقة تأكله إبل بريدة. ولقد قال مترك ـ الذي كان معي وهو من وجهة النظر البدوية ـ مرجع معترف به في المعرفة بالإبل ومسائلها: إن الأظير لا تأكله أبداً إبل الرعي إلا في الدهناء[٣]، حيث لا تكون البراعم الغضة من فصل الربيع مكروهة. أما بالنسبة الرمض فهو يؤكل قليلاً كجزء منتظم من طعام الإبل. وعند وصولي إلى عنيزة قمت بجمع كمية من هذا النبات من البقعة المجاورة القريبة ذات الأعشاب المزدهرة لأطعم ذلولي[٤]، التي لم يكن علفها المعتاد قد وصل بعد. ولقد وبخني مترك على عملي المتهور بحجة أن الرمض عندما يكون ناضجاً وكبيراً فإنه يؤذي الأجهزة الداخلية للإبل، ولكنني حتى

---

(١) هناك طرق عديدة تربط بين بريدة وعنيزة ومن أجزاء عديدة في الجزيرة العربية، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٤٧، سيد عبدالحميد بكر، ص ١٨ وما بعدها، الغنايم، المذنب، ص ١٣٢ وما بعدها. (ابن جريس) Sadlier, pp.87 - 88

(٢) الرس: تأتي المدينة الثالثة في القصيم بعد عنيزة وبريدة للمزيد عن موقعها وتاريخها، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان جـ٣، ص ٤٣ – ٤٤، عبدالله الرشيد، الرس، ص ١٦ وما بعدها (ابن جريس).

(٣) لمزيد من المعلومات عن الإبل، أنواعها، فوائدها، انظر: جواد علي المفصل، جـ٥، ص ٣٣٧ وما بعدها. (ابن جريس).

(٤) الذلول: هو الحيوان الذي يستخدم للركوب، وبخاصة من الإبل (ابن جريس).

الآن لم أستطع أن ألاحظ أن ذلولي قد عانت من أي اضطرابات، وعلى الرغم من أنها قد أكلت منه بنهم إلى أن شبعت من ملوحته.

على مسافة بعيدة نحو الشرق ظهر تل ساق الوحيد شامخاً فوق قفر الرمل، وبعد أن قطعنا نحو ميل ونصف بدا نخيل الملقى أمامنا. وعندما سرنا ميلاً آخر وصلنا إلى بقعة من الأطلال، بعض القصور من العصور السابقة التي سويت الآن بالأرض، وهي تعرف باسم العمارة ولم يستطع رجل يدعى صالحاً ـ الذي كنت قد اخترته ليعمل دليلاً قبل أن ننطلق في الرحلة والذي ركب على وسادة من ورائي[1] ـ أن يلقي إلا قليلاً من الضوء على تاريخ هذه الآثار، التي عثرت بينها على عدد من كسر الفخار وشظايا الأسمنت الجبسي. وطبقاً لما قاله فقد ازدهرت العمارة قبل أن تنشأ عنيزة، ويمكن أن تُنسب إلى فترة بني هلال الغامضة التي تحيل إليها الذاكرة الشعبية جميع الأطلال التي لا يوجد عنها فهم دقيق[2].

تقع القرية على حافة منخفض واد قصير يعرف باسم شعيب الملقى الذي يبدأ عند ربع ميل نحو الغرب من هذه النقطة، ويجري نازلاً بين جبال رملية باتجاه الشمال الشرقي، ويدخل في وادي الرمة. وتوجد على بُعد نصف ميل عكس اتجاه التيار بئر واحدة ورقعة صغيرة من الزراعة تسمى قليب منصور، حيث يقال: إن عمق الماء يبلغ خمس قامات. وبعدها عند رأس المنخفض تقع وحلان (وهلان) وهي أرض واسعة من أشجار الأثل فيها بئر واحدة في وسطها. وتقع ملقة نفسها قريباً منا نحو الشرق ووصلناها بعد ذلك بدقائق قليلة. في البداية توجد أرض مزروعة مساحتها مئتا ياردة مربعة تقريباً، مقسمة إلى حقول من بقايا جذور القمح والدخن النامي ومزينة بالكثير من أشجار الأثل. ومن ورائها يقع بستان نخيل مستطيل، مساحته

(١) المقصود بذلك (رديف). (فيلبي).
(٢) للمزيد عن قبائل بني هلال في الجزيرة العربية انظر: الظاهري، بنو هلال، ص ١٨ وما بعدها. (ابن جريس).

حـوالي (٢٠٠ × ١٠٠) ياردة، به عـدة مـبـان مـثل: الأبراج فـي طرفـه الغـربـي. وهـذا بسـتـان يخص عـائلة البسـام، وهو قـد بدا مـهـجـوراً بشكل أو بـآخـر، وأشـجـار النخـيل تحمل القـليل من التمـور. والمباني والنخيل محـاطة بسـور متـهدم فـيه حافـة على شكل سن سـمك القـرش، وهـي كلها مـع بعضـهـا تثيـر ذكـرى حـزينة لبعض أيـام إقـامـة داوتـي المؤقـتـة في الجـزيرة العـربيـة؛ لأنه قـد طرد إلى هذه البـقـعـة من أجل المحـافـظة على سـلامته الشخصية بسبب التذمر من وجوده عقب انتشار وباء الجدري[١].

هناك جبل منخفض من الرمل يعزل الملقى عن قصـر القـويع[٢] الوحـيـد، الذي يقوم وسط بستان الأثل بجوار رقعة من مزروعة بطيخاً وخضروات، التي تمتد نحو ربع مـيل على طول الحـافـة الرملية للشـعـيب. ويـوجـد بسـتـان صـغـيـر وغـيـر مـزدهـر فـيه ثلاثون نخلة على مـسـافـة قـصـيـرة نحـو الشـمـال، إضـافـة إلى بعض حقـول فـيـهـا بقـايا جذور القـمـح الذي تم حـصـاده. وتكـتـمل قـصـة هذا المكان بذكـر حـوالي أربع أو ثلاث آبار بها ماء على عمق أربع قامات تقريباً.

كنا نقتـرب الآن سـريعـاً من ملتـقى منخفض ملقى مـع وادي الرمـة، الذي يبدو من هذه النقـطـة أنه واحـة ضـخـمـة من النـخـيل المكتظ، يعـطـي منظراً رائعـاً لكنه مـخـادع؛ لأن فـحـصـه عـن كـثب قد أظهـر البـؤس والـقـذارة والإهمـال في العـديد من البـسـاتين التي يضـمـهـا الوادي، كمـا تسـمـى هذه المنطقـة كلهـا. يوجد فم شـعـيب ملقى على بُعد نصـف مـيل على الجـانب الآخـر، ويقـابله على امـتـداد عـرضـه كله تقـريبـاً بسـتـان نخـيل العـيـارية، وهو قـرية تتكون من قـصـر واحـد، وأربع أو خـمـس آبار بعـمق أربع قـامـات تقـريبـاً، والنخـل وحـقل كـبـيـر من الـدخن النامي بصـورة طيـبـة. وهـنـاك شـاب يقـف بحراسته من الطيور بطرقعة شيء يشبه السوط على فترات متقطعة[٣].

(١) لمزيد من المعلومات عن رحلة داوتي في بلاد القصيم انظر: كتابه: The Travels In Arabia Vol.2.pp.320 (ابن جريس).

(٢) تنطق الجويع. (فيلبي).

(٣) هذه الأدوات تكاد تكون منتشرة في عموم الجزيرة العربية، وتستخدم بواسطة حارس الزروع من الطيور والقرود وما شابهها، وقد يطلق عليها بعض المصطلحات المحلية مثل: مطراق، مصقاع وغيرها. (ابن جريس).

في هذه النقطة يجري وادي الرمة[١] نحو الغرب والشرق تقريباً، ويبدو أنه لا يزيد على نصف ميل في العرض. وتقع مزرعة نخيل تسمى أثامر على طول جانبنا الأيمن عندما كنا نمشي الآن صاعدين في الوادي فوق أرض من الطفل الرملي الذي تتخلله ذرات الملح البيضاء. هنا وهناك، في أثناء سيرنا، لاحظت مزرعة جديدة من النخل. كان سطح أرض السبخة المالح قد حُفر إلى عمق حوالي ثلاثة أقدام، وفوهات الحفر قد نزلت تحت السطح لقدمين أو ثلاثة أقدام إضافية مخترقة الطبقة السفلى ذات المظهر الجبسي إلى أن يستخرج الماء المالح قليلاً من تحت التربة. بعد ذلك نجد شجيرات النخل الصغيرة قد زرعت في خليط من الماء المالح والطين في قاع الحفرة، وهناك تضرب جذورها وتنمو مزدهرة على ما يبدو إلى أن يبلغ ـ النخل ذو المنظر البائس ـ سن الإنتاج.

في الطرف الغربي من نخيل أثامر ـ وهي جذوع بائسة قذرة متناثرة وضئيلة الحجم، وفيها سبائط صغيرة من التمر يحميها سور متهدم هنا وهناك، وجدت بئراً مالحة محفورة حتى عمق أربع قامات، ولكن دون أي تبطين. وعلى بعد ميل تقريباً نحو الغرب تظهر مزرعة قصير بن جبر الصغيرة مع البقعة المحيطة بها من زراعة الخضروات والقمح، التي بعدها اختفى مسار الوادي؛ لأنه ينثني منحنياً إلى الجنوب الغربي.

انتهينا الآن من واحة الوادي كلها ـ كما تسمى ـ باتجاه مجرى التيار هنا، واستدرنا نحو الشرق لنزور بعضاً من الأجزاء المكونة لها. وعلى يسارنا تقع التلال المنخفضة لمنطقة بريدة، التي كان حدها الجنوبي هو الضفة اليسرى للوادي. وواحة الوادي تعد جزءاً من منطقة عنيزة، التي كانت كتلها الرملية، نفود الشقيقة تحيط

(١) للمزيد عن وادي الرمة وفروعه، انظر:- عبدالرحمن الشريف، جغرافية المملكة، ص ٨٧ - ٨٨. (ابن جريس).

بالضفة اليمنى. ولقد امتد مسارنا على طول قناة مجرى مياه غير منتظم أقرب نسبياً إلى الضفة اليسرى أكثر منه لليمنى، وسرعان ما وصلنا بعد أن غادرنا بستان أثامر إلى بستان نزيعة، وهو مزرعة متناثرة فيها أعداد كثيرة من النخيل عند طرفها الشرقي. بعد ذلك مباشرة اتسع الوادي لنحو ميل، وقطعناه عبر ثنية شمالية شرقية منه عائدين إلى الضفة اليمنى، حيث بعد أن مررنا بين مزارع أشد كثافة من تلك التي قابلناها حتى الآن، توقفنا عند قرية الجناح الصغيرة،[1] وهي قرية مأهولة بالكامل تقريباً بالعبيد المزارعين. وسكانها قد يكونون مئتين وخمسين نسمة من العبيد المملوكين لأهل عنيزة، التي يحتفظ مواطنوها الأحرار بجميع حقوق الملكية في مزارع الوادي. هنا مررنا عبر منطقة واسعة من مزارع الخضروات، ودخلنا في بقعة نخيل المسخ المتناثرة على طول الضفة اليمنى للوادي. وبين هذه المزرعة ولسان طويل من النخيل الذي يشكل الطرف الشرقي لنزيعة كان الوادي خالياً من المزروعات.

بعدما عدنا عبر هذه المساحة المفتوحة إلى الضفة اليسرى جئنا إلى بستان نخيل كثيف نسبياً، طوله أربعمئة ياردة وعرضه مائتان، يُعرف باسم عين مبرك على الرغم من أنه لا يتمتع بعين ماء كما يوحي اسمه. وعلى كل حال، فقد أتينا فعلاً، غير بعيد منه، على عين ماء بلا اسم يبدو من الواضح أنها لم تكتشف إلا حديثاً، وبجوارها ينتصب كوخ صغير وسط قليل من النخيل وأحواض مزروعة بالخضروات. هذه العين تتكون من بئر محفورة على شكل مربع، طول ضلعها ثلاثة أقدام، وعمقها نحو أربعة أقدام تحت سطح الوادي. وكانت النبع مملوءة تقريباً حتى حافته بماء قذر مع زبد من الطين الأخضر الذي اصفر قليلاً. وهناك قناة في طور الحفر قد وصلت الآن تقريباً إلى أعلى البئر، ومن ثم سيتدفق الماء فيها حتى تمتلئ

(١) قرية الجناح: نسبة إلى الجناح الذين هم بطن من بني خالد، وهم أول من سكن عنيزة، وبهم سمي هذا المكان (الجناح). للمزيد انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ٤٩ - ٥٠. (ابن جريس).

عن آخرها، بيد أن ساكن الكوخ قال إنه ـ قبل بذل أي محاولة للري ـ يجب تحديد مكان الرأس الحقيقي للعين[١]، الذي يعتقد أنه ليس في البئر المذكورة آنفاً، وإنما على بعد مائتي ياردة عند حافة النفود. إنه لمن الضروري فتح العين الحقيقية لضمان تدفق قوي للماء.

ولقد استأنفنا سيرنا نازلين في الوادي باتجاه شمال شرق، ومررنا على بئر واحدة وكوخ قريب من الضفة اليمنى، ثم أتينا بعد ذلك على بستان نخيل يسمى الثيلة قرب الضفة المقابلة، حيث يوجد برج طيني عند حافته. وبعده مباشرة زرنا عين السحيباني وهي مثال رائع على العمل في الزراعة المحلية تحت ظروف مواتية. وكان هناك حوض مستطيل، أبعاده (٢٦×٤×٢) قدم، وهو مليء بالماء الصافي، الذي يميل لونه إلى الأخضر قليلاً، والذي يمكن أن يُرى وهو ينفجر متدفقاً خلال فتحتين دقيقتين في الأرض. ولم تُبذل أي محاولة لتبطين جوانبها بالبناء، على أن حافتها كانت مقواة من جميع جهاتها الدائرية بخشب الأثل. ومن خلاله فتحة في الجهة الشمالية منه كان تيار بطيء من الماء يتدفق في قناة كارز (Kariz) مبنية بشكل جيد. وقد بنيت جوانب وقاع هذه القناة الأخيرة بالحجر، ثم جرى سقفها بألواح صخرية ذات حجم كبير بفواصل منتظمة ويبلغ عرضها حوالي قدم.

وكان الحوض نفسه يقع عند رأس خندق عريض محفور حتى عمق خمسة أقدام تحت سطح الأرض، وقناة الكارز (Kariz) تمتد في منتصف هذا الخندق، وكانت ترتفع نحو ثلاثة أقدام تقريباً فوق قمة مستوى الحوض. وكانت المسافات بين قناة الكارز (Kariz) المرتفعة وضفاف الخندق على كلا الجانبين مملوءة بتربة طينية فيها أشجار النخيل، الذي يبلغ الآن حوالي عشر سنين، على فواصل منتظمة، وكانت

---

(١) طريقة تحديد مياه الآبار والعيون في باطن الأرض تحتاج إلى خبراء يعرفون موقع الماء في باطن الأرض، وقد يطلق عليهم بعض الأسماء مثل الشماسين، السماعين، وغيرها من المصطلحات. (ابن جريس).

شديدة الازدهار، والنمو حتى إن أعاليها الآن أطول بنحو قدمين عن قمة الخندق. وفي الفجوات بين أشجار النخيل ينمو البطيخ واليقطين. والماء، على الرغم من صفائه إلا أنه كان مالحاً وغير مستساغ الطعم تماماً، وهو على عمق بوصات قليلة فقط في القناة ويتدفق ببطء شديد، حتى إن حركته لا تكاد تُرى. وفي النهاية يصل إلى نخيل الثيلة حيث يروي جزءاً منه.

وفي أثناء انشغالنا بفحص العين فقد جذبنا انتباه مجموعة من النساء كن يجلسن في كوخ قريب منا، يرتدين ثياباً قرمزية فضفاضة، بهتت ألوانها البراقة بفعل الطين، ويغطين وجوههن بقماش قطني رفيع مثل نساء العارض، وخرجن، ووقفن على مسافة آمنة، وسألن بصوت عال عن هدفنا من فحص العين. ولقد رد مترك بطريقة ساخرة أن غرضنا كان شراء العين إذا راقت لنا. يبدو أن اللون القرمزي هو اللون المفضل للنساء في هذه الأصقاع على الرغم من أنني لاحظت هنا وهناك الثياب الفضفاضة السوداء في الجنوب، والأكثر ندرة الثياب ذات اللون المائل إلى الزرقة. إن الطبقات الأفضل حالاً في القصيم ـ كما قال دكتور عبدالله ـ تفضل بصورة عامة الثياب السوداء الهادئة أو ذات اللون الأزرق الداكن.

وعلى بعد مائتي ياردة نحو الشرق من عين السحيباني توجد عين أخرى، وهي عين الجنيني مماثلة للأولى تماماً من جميع النواحي، إلا أن حوضها أكبر بكثير، إذ يبلغ طوله خمسة عشر قدماً، وعرضه خمسة أقدام وعمقه ثلاثة. وماؤها أيضاً أشد صفاءً وخالٍ من الزبد المعتاد، ولنحو مائتي ياردة، كانت القناة المؤدية من العين جرداء من النخل. عند تلك النقطة يبدأ النخيل ويستمر الجدول في التدفق ليسقي بستان الجراية الذي يعد امتداداً شرقياً لمزرعة الثيلة، ويحتضن حافة النفود. وكان بناء قناة الكارز (Kariz) هذه يبدو أيضاً أقوى وأشد صلابة من الأخرى، ولا يزيد أي من القناتين كثيراً عن ربع ميل في الطول.

بالقـرب من هنا على جـهة الشـمـال الشـرقي تقع عين أو بالأحـرى بئـر عين ابن سحيم، وهي قنطرة حجرية ممتازة تنزل إلى مستوى الماء على عمق ثلاث قامات، وأبعادها (١٥×٣×٦) قدم، وماؤها أخضر قليلاً، ويميل إلى الاصفرار، ومغطى تماماً بالطين المقرف. ومن تحتـه ينز الماء ببطء في جدول ضيق مفتوح مغطى بالكامل تماماً بالنخيل الذي يبلغ عمره من خمسة عشر إلى عشرين عاماً، حتى إن الجدول نفسه كان مختفياً عن النظر، وتنتهي تلقائياً عند امتداد لشرائط النخيل المذكورة آنفاً التي تعرف باسم المليحة. وحول البئر يوجد قليل من الأكواخ البائسة، بينما عن يميننا بعد فضاء مفتوح وفي وسط الوادي تقع بساتين نخيل مزدهرة تعرف باسم ثلث أبو علي، ومعها قرية صغيرة بالاسم نفسه يقطنها نحو ثلاث مئة من الزنوج[١].

وصلنا الطرف الشمالي الشرقي من هذه المزرعة في الوقت المناسب بعد تجاوزنا قناة مهجورة وحوض عين ابن سليمان "الميتة". كان قطر هذه الحفرة نحو خمسة عشر قدماً، بيد أن ماءها الراكد يقع على عمق ثلاث قامات أسفل بكثير الفتحة التي دخلت من خلالها سابقاً القناة. وعلى مقربة منها يوجد كوخان صغيران وبستان من النخيل المتناثر. وكانت مزرعة أبو علي الواقعة على الطريق الرئيس من عنيزة إلى بريدة من أكثر المزارع كثافة وازدهاراً في كل أرجاء الوادي، ومن بينها أيضاً كانت الأبعد باتجاه مجرى التيار، مع استثناء رقعة صغيرة فقط من النخيل المتناثر تسمى العدين في وسط الوادي نحو الشرق من الطريق الرئيس ومزرعة الجسر، وهي آخر البساتين وأبعدها في الامتداد الشرقي لبساتين حافة النفود المذكورة آنفاً[٢].

---

(١) جلب الزنوج إلى هذه المنطقة وغيرها من مناطق الجزيرة العربية لأجل القيام بالخدمة في المزارع ومنازل الأعيان والوجهاء في المجتمع. وكانوا يتواجدون بكثرة في عموم بلاد الجزيرة حتى ثم القضاء على ظاهرة الرق في القرن الهجري الماضي. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن الحياة الزراعية في كل من عنيزة وبريدة، انظر: محمد السلمان مدينة عنيزة، ص ١٢٣ – ١٤٥، عبدالرحمن السويداء، نجد في الأمس القريب، ص ٣٣، ٢٤٦، عبدالرحمن الشريف، منطقة عنيزة، ص ١١٩، الهويمل، بريدة، ص ١٢٩ – ١٤٠، المعارك، بريدة، ص ٨٨ – ٩٧، محمد الربدي، بريدة جـ٢، ص ٢٧١ – ٢٧٦. (ابن جريس).

إن الطريق الرئيس بعد أن يمر قريباً من قرية أبو علي يخترق الوادي ويمر خلال وسط منطقة الجسر، التي أخذت اسمها من نفق وبناء متهدم ومن فوقه يمر طريق قناة الفيضان الرئيسة في الوادي. هذه القناة تظل محاذية للضفة اليسرى عبر منطقة الواحة كلها، وهي عريضة نسبياً، وربما هي القناة وليس للوادي التي قد أشار داوتي إلى أنها على بُعد مرمى حجر من الطريق.

بدا أن وادي الرمة في هذه الأنحاء لا يقل أبداً عن ربع ميل في العرض، وهنا وهناك من المؤكد أن عرضه يصل إلى ميل. ربما لم يدرك داوتي أن المنخفض كله بين بقعتي النفود قد شكل وادي «النهر»، الذي اكتشف هو بنفسه منبعه بعيداً في جهة الغرب[١]. على كل حال فقد وجدت أنه من الصعب نسبياً أن أقبل بأية درجة من درجات التأكد وأرضي نفسي فيما يتعلق بالطريق الدقيق الذي سلكه داوتي عبر وادي الرمة.

إن الوشل الناز بالماء الذي وجده يتدفق تحت قدميه قد يكون قناة عين ابن سحيم أو قناة عين ابن سليمان، وهما اللتين لم يعودا مستخدمتين الآن. وبعد ذلك ربما يكون عبر إما إلى أبو علي وإما إلى الجناح، ولا أستطيع أن أحدد بالتأكيد أيهما. ومن المحتمل بالطبع أن التفاصيل الطوبوغرافية للوادي قد تبدلت إلى حد ما عما كان في عصره بسبب الزراعة. وهناك اثنتان من القنوات التي ذكرتها لم يكونا بالتأكيد موجودتين على عهده، إن حياة وموت العيون في هذه المنطقة الرملية لابد أن يلعب دوراً مستمراً في تشكيل أنشطة المزارع المحلي.

إن الجسر ـ المنفرجة الساقين عند مخرج الطريق الرئيس ـ تمتد نحو ميل على طول مسار قناة الفيضان، ويمكن دخولها من جهة الغرب من مساحة مفتوحة تكثر فيها قنوات الجداول المائية العديدة، بعضها لا يزال يتدفق، ولكن معظمها قد مات

(١) للمزيد عن رحلة داوتي في بلاد القصيم، انظر كتابه: Travels In Arabia, Vol.2.pp.320 ff.

منذ زمن طويل. والأكوام العالية من الطمي المستخرج من هذه القنوات في محاولة مملة للإبقاء عليها حية تدل على مسارها من العيون التي وهبتها أو تهبها الحياة. ويوجد ـ حسب اعتقادي ـ خمس منها. الأولى والثانية هما الأبعد غرباً، ويُعرفان معاً باسم السناني، ويقعان على بُعد خمسين ياردة تقريباً عن بعضهما، ويحتويان على ماء صاف حتى عمق قدمين في قاع حُفر لآبار مستطيلة عمقها أربع قامات، وامتدادها السطحي (٢٠×١٠ أقدام) قدم. يتدفق من كلٍ منهما تيار بطيء من الماء في قناة، والقناتان تلتقيان عند مسافة غير بعيدة ليسقيا القسم الموجود عكس اتجاه التيار من بساتين الجسر. وبقدر ما استطعت أن أتأكد فإن واحدة من هاتين القناتين إذا لم تكن ميتة فعلاً فقد كانت من الناحية العملية تحتضر وتساهم بقليل من الماء ـ إذا ساهمت أصلاً ـ في الجدول المشترك. وعلى بُعد حوالي مائة ياردة بعدهما نحو الشرق يقع زوج آخر من أحواض العيون، هما أم الجربوب والتي كان أحدهما ميتاً بالتأكيد، وتلتقي قناتهما عند نقطة على بُعد حوالي عشرين ياردة من أقصى قناة شرقية ليشكلاً مجرىً واحداً. وهنا مرة أخرى توجد العيون في حُفر آبار غير مبطنة من النسوع المذكور آنفاً، على الرغم من أنه يجبُ عليّ أن أذكر علاوة على ذلك أن كل هذه الحُفر الأربع كانت مكسوة بطبقة رقيقة من البناء حول أجزائها العليا. وآخر هذه العيون الخمس ـ والمحاذية للطريق الرئيس، هي عين الجسر، وهي مجرى بئر ضيقة تهبط حتى مستوى الماء، الذي يتدفق في قناة من أنابيب تحت الطريق لتسقي القسم الشرقي أو الأسفل من البساتين القريبة من حوض الشعيب.

والآن كنا قد «انتهينا» بإتقان وجهد من واحة الوادي، وقد بلغ التعب منا مبلغاً. ويوجد فيه قليل من المبررات لا تكفي لإثبات المديح والثناء الكثير الذي يكيله مواطنو عنيزة الأغنياء على مزارعهم الخارجية، ولم أستطع أن أعثر على مبرر مقنع في البقع البائسة المتناثرة من الواحة يوحي بأن الوادي كان أكثر ثراءً وغنىً بالنخيل من

البساتين الكثيفة في المدينة[١]. إن محصول أحدهما لا يمكن على الأرجح أن يُقارن بمحصول الآخر، حتى لو كان صحيحاً وأشك في ذلك ـ أن عدد النخيل كان أكثر. وفوق هذا وذاك، فإن تربة الوادي من نوع رديء ومليئة بالملح. على أننا ـ على كل حال ـ كنا مُجهدين، وبكل سرور انتهزنا الفرصة للتوقف مدة في صحبة مجموعة صغيرة من الزنوج المنهمكين في إخراج الطمي من آخر قناة على دربنا.

بكل جود وكرم عرضوا علينا مشاركتهم في التمر الطازج الرديء، والقهوة اللذين يشكلان غداءهم، وبكل ترحيب وسرور قبلنا ضيافتهم المتواضعة. وفي أثناء استضافتهم لنا تحدثوا عن الظروف في الوادي. لا شيء مما رأيته، فلم يكن الشعيب إلا منخفضاً ضحلاً لا يزيد عرضه على أربعين ياردة، يوحي بانسياب فيضانات عظيمة على فترات غير متباعدة في الوادي العظيم. ومع ذلك لا يمكن الاستهانة بالكلام المحلي عن تكرار مثل هذه الفيضانات بكل خفة، حتى لو كان من الضروري أن نحسب حساب المبالغات التي تكون طبيعية بصورة كافية في قوم يعني الماء لهم الحياة، والذين يفرحون فرحاً عظيماً عندما يأتيهم.

إن وادي الرمة يختلف بالتأكيد عن نظيره الكبير في الجنوب، وادي الدواسر،[٢] فيما يتعلق بحجم مرور الفيضانات الحقيقية وفي المستوى العالي للرطوبة تحت التربة. وكلاهما يتشابهان في أنهما تحدهما التلال الرملية المنخفضة على كلا الجانبين، بيد أن الرمال الجنوبية بيضاء بينما رمال القصيم حمراء قليلاً وقرنفلية[٣]. وبعد عبور الطريق تتغير الضفة اليمنى للوادي من رمل النفود إلى

---

(١) تعد بلاد القصيم من أحسن المناطق في المملكة العربية السعودية بإنتاج التمور وأنواع كثيرة من الخضراوات والفواكه. (ابن جريس).

(٢) للاطلاع على معلومات أكثر عن وادي بني الرمة والدواسر، انظر: عبدالرحمن الشريف، جغرافية المملكة، جـ١، ص ٨٧ - ٩٠. (ابن جريس).

(٣) فيلبي جدير بذكر مقارنة بين نواحي الجزيرة العربية في عصره، لأنه زار معظمها قبل وبعد رحلته هذه. للمزيد عن حياته ونشاطاته، انظر: روبن بدول، الرحالة الغربيون، ص ٩٠ - ١٠٣. (ابن جريس).

الحجر الرملي، حيث يتاخم الطرف الشمالي لقفر الصفراء الممتد من وراء السر، ويفصل المذنب الوادي ومنخفض الزغيبية عن القناة الرئيسة. ونقطة التشعب أو التفرع واضحة وضوحاً بارزاً عند حاجز الطعيمة (الطعيمات) الرملي الطويل المعزول، ذي اللون الوردي.

بعد أن ملأنا بطوننا بالتمر والقهوة ودعنا مضيفينا الزنوج ونهضنا خارجين من الوادي مواصلين السير نحو نفود بريدة. ومن قمة أول جبل فيها نظرنا أمامنا إلى بحر متحرك بأمواج الرمل، ويطغى في الجزء الأعظم منه المظهر الرتيب والارتفاع المعتدل، على أنه كان يتنوع هنا وهناك بقمم وذرا أعلى، متآكلة بفعل الرياح. والطريق عبارة عن مطروق بصورة جيدة عبر الرمال، ويلتف برفق حول أكتاف الجبال ويتموج بمنحنيات يسيرة، بينما المنحدرات الرملية مكسوّة بصورة متناثرة بنباتات الأظير والرمث. وبعد نحو ميل من سيرنا أتينا على جبل يعتبر بوجهة النظر المحلية علامة منتصف الطريق بين المدينتين، والوادي نفسه، وعلى ما يبدو قرية أبو علي، كانت المحطة الأولى والخضر[١] المحطة الثانية من ثلاث محطات تقسّم الرحلة بشكل طبيعي.

وعندما سرنا هكذا فوق النفود المتموجة نحو اثنين أو ثلاثة أميال فقد وصلنا إلى مرتفع يصل بين جبلين شاهقين، حيث شاهدنا منظراً ذا جمال رائع. فالأمواج الرملية الصفراء واحدة تلو الأخرى تمتد حتى الأفق الأرجواني في قفر الصخور الرملية البعيدة وراء بريدة، وفي الطيات المتداخلة من الرمل ظهرت بقع من السواد الداكن المختلف عما حوله، بساتين نخيل أو أثل. وقريب جداً منا وبوضوح شديد لوقوعها في الظل مقابل مجموعة من التلال الرملية عند أقدامنا تظهر واحة

---

(١) الخضير: هكذا ذكرها فيلبي، مع أن الاسم الصحيح ربما الخضيراء، ولكن سوف نبقى مع الاسم الذي أورده فيلبي، لأنه ربما حصل بعض التحريف على اسم هذا المكان بعد عصر فيلبي. (ابن جريس).

الخضير بنخيلها داكن الخضرة، بينما على مسافة أبعد كان هناك هرم عالٍ من الرمل يقطع الخط الأسود الطويل الذي يمثل واحة بريدة[١]. من المدينة نفسها لم نستطع أن نرى شيئاً إلا بعد أن أصبحنا تقريباً على مرمى حجر من أسوارها العالية، ولرؤية بريدة من بعيد يجب على المرء أن يقترب منها من الشمال.

لم نستغرق الآن وقتاً طويلاً في وصولنا إلى الخضير، التي تقع واحتها بشكل كامل على يسار الطريق في قاع صلب من التربة الجبسية البيضاء قليلاً ذات النوعية الرديئة، غير المناسبة كما قالوا، للاستخدام كالأسمنت أو في اللياسة. وأول بستان نخيل كان رقعة كبيرة، حوالي مائتي ياردة بالطول ومائة بالعرض، ومليء بصورة كثيفة بجذوع النخيل، ناهيك عن الزروعات الغنية تحت النخيل من الخضروات ونبات الفصفصة (البرسيم)، وتتناثر حوله نحو ستة أو سبعة أكواخ طينية ذات مظهر متواضع، وبعدها توجد منطقة بها قدر ضئيل من أشجار الأثل الطيبة، النامية نمواً جيداً وتعلوها الأزهار ذات اللون الخمري التي رأيتها في وادي الدواسر. على أنه هنا فيما يبدو أن الزهرة لا تنضج بشكل كاف لاستخدامها في صنع الصبغات[٢]، ويقول طامي: إنه على مسافة أبعد نحو الشمال في حائل يتم تحقيق بعض الاستفادة منها. بعد ذلك بمسافة توجد بقعة أخرى من النخيل صغيرة ومتناثرة، ولكن فيها كثيراً من الأثل، وهي أشجار مزدهرة في هذه الأصقاع، وتوجد في كل مكان، وفي أي ثنية من التلال الرملية، بل وتزرع أيضاً على نطاق واسع فوق قمم الجبال لتكون بمثابة دفاع ضد العواصف الرملية. إن منخفض الخضير له شكل بيضاوي تقريباً ويتلقى المياه الجارية من المنحدرات

(١) للمزيد عن تاريخ وحضارة بريدة، انظر: محمد الربدي، بريدة، جـ٢، ص ١١ وما بعدها، المعارك، بريدة، ص ٢٩ ومابعدها. (ابن جريس).

(٢) يوجد قديماً في الجزيرة العربية أشجار ونباتات عديدة تستخدم في صياغة الملابس، وكذلك في تزويق المنازل وتشكيلها من الداخل، ولمزيد من الاطلاع على هذه النباتات وغيرها في جزيرة العرب، انظر: كتاب النبات، للدينوري. (ابن جريس).

المجاورة له والأودية التي تتخللها، وسكانه الحاليون لا يمكن أن يتعدوا في مجموعهم عن ثلاثين شخصاً.

وراء ذلك بربع ميل دخلنا في منخفض بيضاوي مماثل، ذي تربة بيضاء هو خب العقيان، وبه يقع الأثل المعتادة وبستانان صغيران من النخيل، ثم عبرنا قاع خب العوشز لنصعد الجبل الواقع خلفه، وهذه الجبال الرملية تبدو بصورة عامة أنها تمتد جنوب غرب مع شمال ـ شرق[١]، ومن قمتها لمحنا عن بُعد واحة الروق على مسافة نصف ميل نحو اليمين على الطريق المباشر إلى المذنب، التي أوشكت الآن أن تلتقي بخط سيرنا.

ولقد وجدنا أنفسنا فوراً في قاع واد بين جبلين رمليين على بُعد نصف ميل من بعضهما، حيث واصلنا سيرنا نحو الشمال الغربي إلى أول بساتين واحة بريدة، المعروفة باسم الصباخ. وعند حافتها توجد قريتان أو ثلاث قرى صغيرة، وعند مرورنا بالقرب من إحداها سرنا في ممر رملي عرضه مائة ياردة، بين حزام النخيل من جهة والمنحدر المستدير للجبل الرملي من جهة أخرى والذي يلتوي برفق حول المدينة التي يمكننا الآن أن نلقي أول نظرة على سورها على الرغم من أنها كانت غير مكتملة. وهكذا كنا سعداء بانتهاء مشوار قصير استفدنا منه جيداً، وقد وصلنا في الختام إلى الزاوية الجنوبية الشرقية من سور المدينة، وبعد ذلك فوراً دخلنا بريدة من باب القصر، أي بوابة الحصن.

٤ـ بريدة[٢]

ومن هنا بدا لنا مشهد كالحلم! مدينة طينية عظيمة، شيدت في هذا القفر الرملي، تطوقها أسوار وأبراج تحمي البيوت، وشوارعها بجوار غابة داكنة زرقاء قليلاً من أشجار الأثل على التلال العالية، هذه هي بريدة. وتلك هي المئذنة المربعة

---

(١) الأخرى تقع في اتجاه الشمال الغربي والجنوب الشرقي (فيلبي).

(٢) هناك تفسيرات كثيرة حول معنى بريدة، وأحد الباحثين المتأخرين أورد معظم هذه التفسيرات، وأخيراً قال: إنها سميت بريدة بسبب برودة مائها ووفرته. مع أنها عرفت بهذا الاسم فقط منذ القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، انظر: محمد الربدي، بريدة، جـ٢، ص ٢٣ - ٢٧، جاكلين بيرين، ص ٢٩٥. (ابن جريس).

للمسجد الكبير في المدينة. لقد شاهدت منظراً ـ كما لو كان ـ القدس في الصحراء! «عندما ننظر إلى أسفل من جبل الزيتون»[١].

هكذا كتب داوتي عن أول نظرة له، من الشمال الغربي، على مدينة عظيمة لم يتغير جمالها إلا قليلاً مثل ملامح مواطنيها الفلاحين البسطاء، وفيها قاسى أشد أنواع الاضطراب، وهو قبل ذلك كان قد خرت روحه الجسورة ومنها، بعدما هرب من الموت الذي تربص به في كل زاوية، طُرد للخارج في اليوم الثالث إلى كرم الضيافة في منافستها عنيزة، حيث ظلت ذكراه باقية إلى هذا اليوم في أوج مجدها[٢]. وفي بريدة لا يتحدثون عن خليل[٣]، وإذا ما حدث ـ في حضرة غرباء من بعيد ـ قد ذكّرهم ضميرهم بتلك القصة في تاريخهم، فإنهم لا يذكرونها والمسرور قد يستحي، إذا كانوا يستطيعون الاستحياء، من الخزي. وعلى الرغم من ذلك فلا الندم ولا التنوير الناتج عن السفر سوف يمنع على الإطلاق مواطني بريدة، عندما يكونون داخل وطنهم، عن التعصب الأعمى الذي كبرت فيه مدينتهم بشكل عظيم بين مدن الجزيرة العربية[٤]. وفي الخارج فهو ليس أقل لطفاً أو كرماً من غيره، ومن الصعب أن نعلل الآفة التي نزلت على روحه في نطاق أجزاء مدينته الأصلية. إنها مجرد الحقيقة التي قاسى منها كل زائر أوروبي لبريدة، وربما أكون أنا أقلهم جميعاً في ذلك؛ لأنني جئت إلى هناك في ركب ابن سعود[٥]. إنك تستطيع أن ترحل أينما

(١) الصحراء الغربية. مجلد (٢)، ص ٣١٤ (فيلبي).

(٢) للمزيد عن رحلة داوتي في بلاد القصيم، انظر، كتابه: Travel In Arabia, Vol.2.pp.320 ff (ابن جريس).

(٣) المقصود بـ (خليل) هنا، أي داوتي (ابن جريس).

(٤) ربما بالغ فيلبي أثناء حديثه عن تعصب أهل بريدة، بعكس أهل عنيزة الذين وصفهم بالانفتاح وعدم التعصب الأعمى. والشيء الذي نستطيع قوله أن العربي في جزيرة العرب في عصر فيلبي ربما كانوا متقاربين إلى حد ما في تعصبهم، وفي حالة الفوضى الضاربة أطنابها في البلاد نتيجة فقدان الأمن والوعي الثقافي. (ابن جريس).

(٥)من يدرس ظروف، أحوال الرحالة الغربيين الذين وصلوا إلى الجزيرة العربية منذ القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) فإنه يجد الكثير من العقبات التي واجهها كل واحد منهم، ولكن بالدراسة والمقارنة نجد فيلبي كان أوفرهم حظاً لما حظي به من رعاية وحماية تحت حكم ابن سعود. وهو يعترف بذلك في معظم كتبه ودراساته. للمزيد عن الرحالة الذين قدموا إلى جزيرة العرب، انظر: جاكلين بيرين، ص ١٩ وما بعدها، روبن بدول ص ٨ وما بعدها. (ابن جريس).

شئت برفقة مواطن من بريدة في ود وصداقة وصحبة تامة، ولكن فور أن تدخل أبواب المدينة تنتهي الصداقة والود إلى أن تنتهي إقامتك المؤقتة فيها، وتنطلقا مرة أخرى معاً في أسفارك ورحلاتك، كما لو كان أي شيء قد حدث. ولقد تعرض العقيد هاملتون مؤخراً جداً لهذه الظاهرة الغريبة، فعند وصوله إلى بريدة قام رفاق رحلته، ومنهم عدد من مواطني شقراء البارزين الذين سوف يواصلون رحلتهم معه باتجاه الجنوب، بالاختفاء تماماً عن عينيه، ولم يظهروا مرة أخرى، كما قيل لي، إلا بعد بدء السير نحو الجنوب. إنها مشكلة نفسية يبدو أنه ليس لها علاج أو حل(١).

عندما استدرنا لندخل المدينة من باب القصر فقد تم توجيهنا عبر أرض التخييم المفتوحة التي تسمى الجروة ومروراً بالحصن الكبير حتى بيت الحاكم الذي ـ كما اكتشفت بعد ذلك ـ قد أخلاه الأمير لمصلحتي. ولم يكن هذا البيت مقر إقامة عائلته الخاص، الذي كان في مكان آخر من المدينة، ولكنه يضم على حاله ذاك الغرف التي يقوم فيها بالعمل الرسمي ومراسم الاستقبال التي توجبها وظيفته المهمة، وخارج المبنى مقابل القصر كان هناك مقعد طيني طويل يمتد بطول الجدار كله، وفي وسطه جزء مفصول عن الباقي بمسندين منخفضين للذراعين ليكونا بمثابة كرسي الحكم، وعليه يجلس الأمير في برد الصباح والمساء في مجلس عام، للقضاء بين الناس أو لمجرد تجاذب أطراف الحديث مع الزوار. ولم أكد أبدأ في استعمال الغرفة العلوية المريحة، المفروشة بالسجاد، التي تقرر أن تكون سكني في بريدة، إلا والحاكم نفسه، فهد بن معمر(٢)، يزورني زيارة رسمية تشريفية ليطمئن

---

(١) اختفاء أصحاب العقيد هاملتون عندما دخلوا معه بريدة، ربما لانشغالهم ببعض الأعمال الخاصة بهم، كزيارة بعض الأصدقاء، أو الذهاب في بعض الأعمال لإنجازها خلال إقامتهم القصيرة في هذه المدينة. (ابن جريس).

(٢) يذكر فيلبي أن فهد بن معمر كان حاكماً لبريدة عام (١٣٣٧هـ/١٩١٨م)، ومات مقتولاً عام (١٣٤٠هـ/١٩٢١م). مع أن بعض الدراسات المتأخرة عن بريدة تذكر أن فهد بن معمر كان أميراً لمقاطعة القصيم عام (١٣٣١هـ - ١٣٣٧هـ/١٩١٢ - ١٩١٨م). للمزيد انظر: الهويمل، ص ٦٧ - ٧٢، إبراهيم المعارك، ص ٢٦ - ٢٧. وإطلاق لقب أمير القصيم، أو أمير ناحية القصيم على عدد من أمراء بريدة يعود إلى فترة تزيد عن قرنين من الزمان. وهو =

بنفسه على راحة ضيفه. والحديث، كما يحدث دائماً في مثل هذه المناسبات، كان رسمياً تماماً، ولكنه ترك عندي انطباعاً عن شخص له بعض الامتياز والتفوق، ويشتكي من شيء ما يجعله غير واثق، وهو سحنة ماكرة، ربما بسبب المياه الزرقاء في إحدى عينيه، ولكنه على الرغم من ذلك في مظهره كما في شهرته بين الناس كان زعيماً في القضية الكبرى التي كان لها خادماً شديد الإخلاص، والتي من أجلها بعد ذلك بسنوات دفع حياته فداءً لها في ميدان القتال[1]. ولقد بدا لي بالتأكيد أن باركلي راونكيير (Barclay Raunkiaer)، الذي زار بريدة في (١٩١٢م) ولم يُقابل بترحاب على وجه الخصوص هناك، قد سمح لتحيزه الشخصي أن يُلون صورته عن الرجل، على كل حال فقد صوره بألوان شنيعة ليست ضرورية تماماً. لقد كان دائماً أكثر من مهذب، بل وأحياناً ودوداً معي، وبين قومه كان معتدلاً في الحسم في الأمور. ففي أحد الأيام خلال العصر نظرت من نافذتي على إجراءات سير إحدى القضايا في مجلسه للعدل، حيث كان الطرفان المتنازعان اثنين من البدو، باع أحدهما للآخر مقابل سبعين دولاراً جملاً مات في اليوم التالي. وبعد أن أنصت بكل ما لديه من صبر للجدل الذي أصبح عالياً ومحتداً أكثر فأكثر أصدر فهد حكماً منقسماً حيث قضى على البائع بأن يعيد ثلاثين دولاراً ترضية جزئية للمشتري الذي خاب أمله.

وعند مغادرته بت حراً في أخذ حمام، وتغيير ملابسي وتناول الفطور على مهل. ولقد سررت بدرجة كافية من العذر الذي وفرته لي هذه الأشغال بصورة معقولة

= لقب لم يكن لغيره من أمراء المدن الأخرى في القصيم. وأول من تسمى بلقب أمير على عموم القصيم هو: حجيلان بن أحمد في الفترة الواقعة بين عامي (١١٩٦ - ١٢٣٤هـ/١٧٨١ - ١٨١٨م). للمزيد انظر: عثمان بن بشر. عنوان المجد في تاريخ نجد (الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، د. ت)، جـ١، ص ١٣١، محمد الربدي، جـ٢، ٢٨٦ - ٢٨٧. (ابن جريس).

(١) لقد قتل في أثناء قيادته لهجوم من الفرسان خلال الحملة العسكرية النهائية على حائل في (١٩٢١م). (فيلبي).

لكي أرفض دعوة لزيارة ابن سعود خلال فترة العصر. وفي الحقيقة كان هو الذي جاء لزيارتي بعد ذلك بقليل في سكني الخاص ليتحدث عن التقدم في ترتيباته للحملة العسكرية القادمة. وبعد مغادرته، زارني الشيخ أحمد بن جابر[١]، الابن الأكبر لحاكم الكويت الراحل وابن أخ الشيخ الحالي، سالم بن مبارك.

لقد كان منذ بعض أيام ببريدة في طريقه مع مجموعة صغيرة من الحجاج الكويتيين لأداء فريضة الحج بمكة. ولقد كانت لديه أسبابه الخاصة في عدم إبداء الود الشديد مع عمه الذي اغتصب حقه في حكم الكويت الآن، كما أن سالماً يناصب ابن سعود العداء بشكل عنيد، الأمر الذي انتهى في الختام بالحرب[٢].

ولذلك، ليس من غير المحتمل أن تكون المحادثات في هذه المرة بين ابن سعود وأحمد قد وضعت أسس التفاهم الودي الذي أخذ شكلاً واضحاً ومحدداً بعد ذلك ببعض السنوات عند وفاة سالم، على الرغم من أن الكويت فيما يبدو أنه مُقدّرٌ لها أن تفقد وضعها القديم كبوابة تجارية لشرق ووسط الجزيرة العربية إذا أصرت على سياستها الحالية في الانعزال السياسي عن المنطقة الخلفية لها. ومجموعة الحجاج من الكويت بصورة رمزية تحت قيادة سلطان بن عبد العزيز بن حسن، الذي، لأسباب لا يعرفها أفضل منه أحد، أصر على معاملتي كصديق قديم، بينما أن احتمال تقلب الأهواء السياسية من جانب أحمد قد جعله يأخذ

(١) كان مبارك بن صباح قد خلفه في عام (١٩١٥) ابنه الأكبر جابر، الذي توفي بعد ذلك بسنة في ظروف مشكوك فيها وخلفه أخوه سالم، وتوفي هذا الأخير في (١٩٢١م) وخلفه ابن جابر أحمد، الذي لا يزال في الحكم. (فيلبي)، للمزيد عن تاريخ الكويت السياسي والإداري في العصر الحديث، انظر: السعدون، ص ٢٠ وما بعدها، الخترش، ص ٣٨ وما بعدها، عبدالعزيز الرشيد، ص ٤٤ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) استدعى هجوم وهابي على الجهراء في (١٩٢١م) إرسال الطائرات البريطانية لحماية الكويت من أي مزيد من المشكلات، وفي الوقت الملائم، لتثبيت الحدود بين إمارة الكويت وإقليم الوهابي من خلال المساعي الحميدة لبريطانيا العظمى. (فيلبي) للمزيد من الصلات بين نجد والكويت أثناء زيارة فيلبي للقصيم عام (١٣٣٧هـ/١٩١٨م)، انظر: السعدون، ٢٤٧ وما بعدها، عبدالعزيز الرشيد، ص ٢٥٤ (ابن جريس).

الحـذر بإلحـاق السكرتيـر الخـاص لسـالم، الذي يدعى عبـدالعـزيز، بحـاشـيتـه الشخصية[١].

ومن الطبيعي أن أرى هؤلاء الناس كثيراً خلال الأيام الباقية قبل مغادرتهم إلى مكة، بيد أن العلاقات بين ابن سعود وسالم كانت شديدة التوتر في هذه الفترة لدرجة أنني قدّرت أنه من الحكمة أن أقصر نفسي على الحديث عن الصداقة الرسمية، وأترك ابن سعود ليعالج بنفسه وبطريقته الخاصة مع أحمد مشكلة تحسين العلاقات السياسية بين الدولتين. ولأن سالماً كان يشجعها سراً فقد أصبحت قبيلة العجمان مؤخراً خارج نطاق السيطرة بشكل سيىء وجاءت بلاغات عن أن هجماتها قد امتدت بعيداً حتى حفر العتش وجودة[٢].

هذه الأنشطة، مقرونة بتهديد الأشراف القائم دائماً في الغرب[٣]، قد شكلت لابن سعود خطراً عسكرياً شديداً، على أن جميع نداءاتي للبصرة لتقوم بعمل لإخماد مكائد سالم لم تقابل إلا بدعم فاتر. ومن ناحية أخرى كنت قادراً في ذلك الوقت على تبليغ ابن سعود، بما أرضاه كثيراً، بأخبار إعلان الحكومة البريطانية موافقتها الرسمية على الضمانات التي أعطيتها إياه في الرياض قبل أن يبدأ زحفه نحو الشمال.

وكان طامي آخر زواري في هذا اليوم الأول لي ببريدة، حيث كان يُقيم في ذلك الوقت مع ابنته المتزوجة التي تسكن في بيت عند الحافة الشمالية من الجردة

(١) لمزيد من المعلومات عن الصلات السياسية بين الكويت ونجد في النصف الأول من القرن الهجري الماضي، انظر: أمين الريحاني، ملوك العرب، جـ٢، ص٦٠٤ وما بعدها، حافظ وهبة، ص ٤٥، ٦٨، ٧٦ وما بعدها، السعدون، ص ١٨٣ وما بعدها (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن العلاقات السياسية بين ابن سعود وسالم الصباح، انظر: وهبة، ص ٨٧، حسين خزعل، جـ٤، ١٨٦، ١٩١، عبدالعزيز الرشيد، تاريخ الكويت، ص ٢٣٣، الخترش، ص ٩١ - ٩٢. (ابن جريس).

(٣) للاطلاع على تفصيلات أكثر عن أوضاع الأشراف في الحجاز وموقفهم من قوة ابن سعود المتنامية في نجد، انظر: حافظ وهبة، ١٤٨، ٢٠٢، ٢٥٠، الريحاني، ملوك العرب، جـ١، ٤٩ وما بعدها، جـ٢، ٥٣٣ وما بعدها. (ابن جريس).

بالقرب من البوابة الشمالية الشرقية، أو بالأحرى الباب الخلفي للمدينة[(١)]. وكنت أراه كثيراً خلال الأيام القلائل الأولى من إقامتي المؤقتة، وأزوره مراراً في بيته حيث ـ في مرات مختلفة ـ قابلت الأصدقاء المشتركين. كان رشيد زائراً منتظماً، بيد أن الحديث غير المهذب قد ميّزه بشكل عام كأنه أضحوكة مجلس طامي، وفي غالب الأحيان ينسحب فجأة قبل أن يُمطر بوابل من الإشارات المازحة إلى عجزه الجنسي المزعوم. ولم يكن يهتم كثيراً بالمزاح على غبائه وحماقته، ولكن الهجوم على صفاته البدنية صار أكثر مما يستطيع أن يتحمله، ولقد ذكرت من قبل كيف أنه بعد ذلك بسنوات انتقم لنفسه من معذبيه. أما حفيد طامي الصغير، مطلق (مُطيلج) ابن حمود، فهو موجود بصورة عامة في هذه الجلسات، طفل يكاد يبلغ العامين وهو عظيم الجمال والبهاء مثلما يكون أطفال العرب أحياناً، وبعد فترة أولية من الخجل، أصبح شديد الصداقة معي. ففي أغلب الأحيان يستكن في الجلوس إلى جواري، وهو يحدق بعينيه الواسعتين في الكبار البذيئين، ثم يغلبه نعاس الأبرياء.

بمرور الأيام بدأت أدرك أن الآمال الاجتماعية التي أثارتها تجاربي في عنيزة كان مكتوباً عليها الخيبة، فموانع التعصب وضيق أفق التفكير في مجتمع بريدة هي مثل تلك التي في الرياض، وحتى حقيقة زياراتي المتكررة لبيت طامي قد بدأت بعد فترة تؤثر على الشهرة الطبيعية لمرفأ المرح هذا. وهو يرحب ـ كما قال ـ بابتعاد أصدقائه، ولكنه هو نفسه لن يُوصم بأنه أحمق حتى يطرد شخصاً محسناً في الماضي وربما المستقبل والذي كانت هداياه وما زالت تستحق القبول. وعلى الرغم من ذلك، بعد الأيام القلائل الأولى، أصبح الجو العام لاستنكار الناس ورفضهم له

(١) كان حافظ وهبة من المعاصرين لفيلبي، وقد كتب عن أجزاء عديدة من جزيرة العرب، فقال عن بريدة: إنها «من أكبر المدن النجدية وأحسنها نظاماً، وطرقها أوسع من الرياض ومن طرق أكثر البلدان النجدية، ولكنها ملتوية ومبانيها من اللبن، وهي كسائر البلدان العربية محاطة بسور يحمي البيوت والأسواق يبلغ ارتفاعه (١٥) قدماً» انظر: جزيرة العرب لوهبة، ص ٦١ (ابن جريس).

أكثر مما يحتمل، ولم يزرني بعد ذلك إلا على فترات نادرة. وفي النهاية وقع بين نارين؛ لأنه قد وُصم بأنه صديق للكافر[١] وفشل في ضمان الهدية، التي كان احتمال نيلها قد جعله جسوراً ومتباهياً في البداية[٢].

في إحدى المرات زارني تحت جنح ظلام الليل أحد أفراد عائلة أعرفها تمام المعرفة في بغداد. وهذا الشخص يدعى منصور بن رميح، واحد من ثلاثة أخوة اشتغلوا منذ زمن طويل في تجارة رائجة بالإبل العربية، وكانوا يتاجرون بلا اكتراث معنا أو مع الأتراك حيثما وُجد سوق طيب لما لديهم من مواشي. ولقد قابلته من قبل في شقراء، والآن يرغب في أن أبذل مساعيَّ الحميدة فيما يتصل بزيارة ينوي أن يقوم بها للعراق. بيد أن الطبيعة المريبة لزيارته قد أثارت سخطي، وقد اتخذت إجراءات تجعله يعلم بصورة غير مباشرة أنني لا أستطيع أن أعزز العمل التجاري لأي شخص لا يستطيع أن يقوى على استقبالي في بيته. بعد ذلك ببعض أيام زاره الدكتور عبدالله في بستان نخيله عند أطراف المدينة، وفاتحني في موضوع طلبه للمساعدة في مسألة زيارته لبغداد، بيد أنني لم أكن لأقبل عذر منصور بأنه خائف من الرأي العام، إنه عذرٌ كافٍ، وأصررت أنه إذا كان يرغب في الحصول على مساعدتي في أمر ما فلا بد أن يقدم لي كرم الضيافة التي لي الحق في توقعها من بيت يرتبط ارتباطاً حميماً مع السلطات البريطانية في بلاد الرافدين. في النهاية ابتلع وساوسه بصورة كافية ودعاني إلى جلسة أنس وسمر خلوية في بستانه، ولكي نجتمع مع تركي وضيوف كبار آخرين، وكان ابن سعود نفسه غائباً في زيارة لعنيزة لمدة ثلاثة أيام. تبلغ مساحة حديقته نحو عشرة أو اثني عشر فداناً، وتقع مباشرة

(١) كلمة (الكافر) هنا يُقصد بها فيلبي، هذا المطلح ما زال عند كثير من سكان الجزيرة العربية، والكافر هو المخالف للمسلم في الدين (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن أخلاق وعادات الناس في بريدة خلال العقود الماضية، انظر: وهبة، ص ٦١ – ٦٢، إبراهيم المعارك، بريدة، ص ٣٥ – ٣٨، محمد الربدي، بريدة، جـ٢،ص ١٢٢، الهويمل، ص ٥٩، ١٤٦ وما بعدها. (ابن جريس).

خارج البوابة الجنوبية الغربية من المدينة، وقد اشتراها بمبلغ أربعة آلاف ريال لتوه في العام الماضي، وبعد ذلك مباشرة تقريباً تلقى عرضاً رفضه بمبلغ خمسة آلاف ريال ثمناً لها، ذلك لأنه منذ أن اشتراها قد أنفق عليها ما قد يصل إلى هذا المبلغ مرة أخرى لكي ينقذها من حالة الإهمال والتدهور التي تركها أصحابها السابقون أن تصل إليه. كان نصف المساحة مشغولاً بمزرعة من النخيل عمرها من عشرة إلى عشرين عاماً، وتحتها زراعة مثمرة من نبات البرسيم الحجازي (الفصفصة) والدخن، بينما كان النصف الآخر أجرد بشكل أو بآخر[١].

وفي وسط النخل يوجد منزل صيفي ذو حجم معقول مبني من سعف النخيل، وفيه، مضطجعون على سجاد ومخدات كانت الصحبة المجتمعة من ضيوف منصور تتكون من تركي نفسه وأخيه سعود، وفيصل بن الرشيد، وسلمان آل العرافه، وفهد، الابن الأكبر لعبدالله بن جلوي الذي لم أكن قد قابلته من قبل، على الرغم من أن دربينا قد تقاطعا عند آبار أبوجيفان في نوفمبر الماضي.

تتكون المرطبات من التمور إذ يبدو أن بريدة تفتقر بصورة عجيبة للفواكه التي تكثر بشدة في الأماكن الأخرى، والقهوة. ودار الحديث عن الخيول، والبنادق، والحرب. وما دام ابن سعود نفسه في بريدة، فقد أعفى تركي نفسه من الظهور تماماً، وعلى الرغم من أنني كنت أراه مراراً بعيداً في المقاعد السفلى من مجالس والده العمومية التي كنت كثيراً ما أحضرها خلال هذه الأيام، وبدا من غير المجدي أن سعيت وضغطت على الدكتور عبدالله أن يرتب لي مقابلة معه. من الواضح أن قواعد التشريفات الملكية لا تحبذ ـ إذا لم تكن في الحقيقة ـ تمنعه من استقبالي في مسكنه ما دام والده حاضراً في المكان.

(١) لمزيد من المعلومات عن مزارع النخيل والعيون وبعض المزروعات الأخرى في بريدة، انظر: الهويمل، ١٢٩ - ١٤٠، محمد الربدي، ج٢، ١٥٩ - ١٦٦. (ابن جريس).

وهكذا كان الأمر، على الرغم من أنني وصلت بريدة في الخامس والعشرين من أغسطس إلا أنه لم يكن إلا في الحادي والثلاثين من أغسطس من الشهر نفسه، وهو اليوم نفسه الذي غادر فيه ابن سعود إلى عنيزة، أن تمكنت من زيارته بترتيب مسبق. ولقد وجدته يقيم في بيت بالقرب من الطرف الجنوبي للمدينة، ونسبة لأن الظلام كان حالكاً وكذلك لضعف الإضاءة في غرفة الاستقبال فإنني لم أتمكن من رؤية الكثير من المحيط الذي يعيش فيه. وفي تلك المناسبة كان فيصل بن الرشيد هو الضيف الآخر الوحيد، بالرغم من أن الغرفة مليئة بالخدم[١] الخاص بتركي. وقد استقبلني بشكل خجول بالتعبير عن عواطفه وأصر أن آخذ جزءاً من المنطقة الصغيرة المفروشة بالوسائد المخصصة له فقط. وبعد ذلك، وبما أصابني بكثير من الارتباك، أصر بصورة مطلقة، لن يقبل معها عذر أن أتناول أول كوب من اللبن الدافئ المضاف إليه السكر. ذلك هو أول بند من المرطبات التي دارت علينا. وهكذا عندما حصلت الألفة وذاب البرود بقبولي بإذعان لهذه اللفتة العظيمة من الشرف، عادت قواعد المراسم والتشريفات في المجالس الملكية بيننا مرة أخرى، وقدمّت له أولاً القهوة ثم البخور. في مثل هذه الحالات تتباين تصرفات المضيفين فمضيفي الزنجي ـ على سبيل المثال ـ أمير الطرفية أخذ فنجانه كأمر طبيعي قبلي عند زيارتي له، وكذلك فهد بن معمر، حاكم بريدة، قدمّت له القهوة أولاً ولم يجد في ذلك حرجاً. والشرط الأساسي في الضيف المهذب أن يمانع بقبول شرف خدمته أولاً وأن يُقدّر بنفسه متى يذعن في حالة ضُغط عليه[٢].

في تلك المناسبة سألني تركي بعد أن سمع عن خروجي راكباً أثناء العصر، عن سبب عدم انضمامي إلى جماعته الخاصة التي كانت أبعد في البر نحو الشرق.

(١) بصفته ولياً للعهد فقد كان له حاشية خاصة من الزيقرت. (Zigirt) (فيلبي).

(٢) عادة إعطاء الحاكم أو الوالد فنجان القهوة أولاً، وإن كان هناك ضيف رئيس يعد من العادات العربية القديمة، وما زالت هذه العادة موجودة عند بعض الناس والأسر في المجتمع السعودي. وهذا التصرف يعكس التقدير والاحترام للحاكم أو الوالد وإن كانوا هم من فئة المضيفين. (ابن جريس).

وعلى أمل الحصول على المزيد من المتعة الاجتماعية في المستقبل أجبته بصراحة أن هذا بسبب عدم دعوتي لذلك. فردّ بكرم «فلتفعل ذلك في المستقبل»، واركب معي كلما أردت. سير[١]، أردف قائلاً، اذهب وزر الناس، ولا تجلس وحيداً في البيت". ربما لا يكاد يدري كم من الصعب أن أتبع نصيحته وكم مرة حاولت أن أزوره بلا طائل. وسألته إن كان دائماً مشغولاً. فأجاب «عندما يكون والدي غائباً فقط»، «عند ذلك يكون عندي كثير من العمل، ولكنه يتوقف عندما يعود». يبدو أن هذا تنظيم غريب لأنه، على الرغم من عدم استشارته أبداً أو اطلاعه دوماً على مجريات الأمور، يجب عليه أن يصبح فوراً وبشكل كامل مسؤولاً عن تصريفها كلما غاب ابن سعود. ولقد سألت الأخير ذات مرة إن كان تركي يحذو حذوه في مسألة قلة النوم والاستيقاظ ساعة ما يشاء. فردّ ببساطة «لم أختبره أبداً».

كانت أم تركي من عائلة منديل[٢] من قبيلة بني خالد، وقد طُلّقت منذ أمد طويل، وقصة هذه الحادثة غريبة نسبياً. فعند زيارة الأحساء بعد ولادة وريثة بسنوات طويلة تزوج ابن سعود فتاة من عائلة منديل، ولم يكتشف إلا بعد مضي فترة من الزواج أنها أخت والدة تركي، من أم واحدة ولكن الأب مختلف. وحيث إن الزواج من أختين غير مشروع، فلا يمكن تصحيح هذا الخطأ إلا بطلاق الزوجة الأولى[٣]، ربما بأثر رجعي. وكانت الأخت لا تزال في قائمة المؤسسة الزواجية لابن سعود، وسيدتها الأولى هي جوهرة بنت مساعد[٤] الشهيرة والجميلة. والزوجة الثالثة في هذا الوقت هي بنت الذكير التي أشرنا إليها آنفاً بأنها تقيم في عنيزة، وبقدر ما

---

(١) السير لزيارة الناس. (فيلبي). وما زالت تستعمل كلمة (سيرّ) إلى اليوم، والمقصود بها تجول او أذهب لزيارة صديق أو قريب أو ما شابه ذلك. (ابن جريس).

(٢) عائلة المنديل في الزبير والبصرة أصلها من الدواسر. (فيلبي).

(٣) إذا تزوج الرجل من زوجتين، ثم اتضح له فيما بعد أنهما أخوات، يطلق واحدة منهما، حسب هواه ورغبته، ولا يقتصر الطلاق على الأولى كما ذكر فيلبي. (ابن جريس).

(٤) لقد وافتها المنية بوباء الإنفلونزا بنهاية عام (١٩١٨م) (ابن جريس).

استطعت أن أتأكد، فإن مكان الزوجة الرابعة خالٍ حيث إن بنت السديري أرملة سعد، والبدوية التي تزوجها في الربيع من هذا العام قد طُلقتا معاً.

إن عصبية تركي قد جعلت التحدث إليه صعباً نسبياً، فهو لم يكن على أي حال، قد تخلص بعد من اندفاع الشباب وقلة خبرته، ولكنه كان بلا شك فتى نبيلاً، مهذباً أصيلاً وكريم المحتد. وقد شرح فشل حملته العسكرية الأخيرة بأنه يعود إلى الحجم الضخم لقواته، التي لم تستطع أن تتجاوز بشوك (Bashuk) بسبب عدم كفاية الآبار التي يمكن الاعتماد عليها في الشمال. بيد أنه كان يتوق بشغف إلى فرص القتال التي تلوح في الحملة العسكرية القادمة. وقال إنه يأمل ـ في يوم ما ـ أن يزور بغداد ومصر ليرى شيئاً من العالم العظيم، الذي لا يعلم عنه شيئاً إلا طرائقه الفظيعة والمدمرة في الحرب. وكان هو نفسه يركب الخيل بشكل عام بلا سرج ولا ركاب ولقد كان فارساً رائعاً، على أن استخدام السرج والركاب قد أصبح أكثر شيوعاً في الجزيرة العربية، والكثير، مثل ابن سعود نفسه وفيصل بن الرشيد، اللذين كانا حاضرين واعترفا بهذه التهمة الرقيقة، قد أصبحا شديدي التعود عليها لدرجة أنهما لم يعودا يستطيعان الركوب بالطريقة العربية التقليدية.

ننتقل الآن إلى سعود، الذي كان مع الجماعة بحديقة منصور، ولقد ذكرت أنني لم أره منذ زمن طويل أو أتحدث معه. وتدخل تركي قائلاً: «وسوف تمكث وقتاً طويلاً مثل ذلك قبل أن تراه مرة أخرى»، «لأنه قد تزوج حديثاً من فتاة يحبها بشغف». وطرح سلمان سؤالاً «كيف تستطيعون أن تتحملوا التقيد بزوجة واحدة مدى الحياة؟ إن نظامنا أفضل بحق من نظامكم، لأنه، إذا شئنا، نستطيع أن نطلق الزوجة حيثما لم ترق لنا من أول ليلة». وهكذا تجاذبنا أطراف الحديث بسرور بالغ تحت تعريشة سعف النخيل، إلا أن الشمس الغاربة أنذرتني بالهوة التي لا يمكن عبورها بين مضيفي وبيني. ونهضت لأستأذن مبتعداً؛ لأنهم سوف يؤدون صلاتهم حيثما كانوا، ورافقني منصور حتى نهاية أرض حديقته تحت النفود، شارحاً في أثناء ذلك أنه، بعد

أن تمتع أحياناً بكرم الأوروبيين، فهو شديد السرور باستضافتي، على الرغم من أنه خائف من ألسنة رفاقه المواطنين. ولقد نصحته بألا لا يخاف، وخرجت من حديقته بالقرب من بئرين، حيث الإبل تجاهد طالعة ونازلة في المجر(١)، مما يجعل السواقي تصيح وتئن. وفي حقل قريب كانت مجموعة من النساء مشغولة بحش البرسيم.

عندما صعبت الضفة الرملية المنحدرة من النفود تمتعت ببعض المناظر الرائعة من المدينة الفاتنة وحصنها فوق وعبر غابة النخيل، والتي توجد بها بعض الجذوع ذات الارتفاع الشاهق الذي يصل حتى مستوى قمة الجبل الرملي تقريباً. وبالقرب من برج الحراسة على هذا الجبل اكتشفت أن منطقة واسعة من أشجار الأثل قد اجتثت حديثاً من جذورها؛ ولذلك تمتعت بمنظر غير منقطع من المشهد العام للمدينة على خلفية الشمس الغاربة، بينما كان الجو الساكن يرتج بالصياح الأجش(٢) للمؤذنين الكثيرين الذين يرفعون آذان الصلاة من المآذن المستدقة الأطراف.

الآذان هنا بصورة عامة فيه نغمات موسيقية أكثر عذوبة مما في الرياض(٣)، على الرغم من أنه لا يمكن أن يُقارن بنغمة الأصوات في مناطق الحدود، والتي كان أثرها ـ على كل حال ـ ينعكس في الإخراج شبه المسرحي للصلوات في بعض المساجد المعتادة. فلقد كان إمام المصلى الصغير الملحق ببيت الأمير ـ الذي أتيحت لي فرص متكررة لمشاهدة أعماله ـ على سبيل المثال حالة واضحة في صميم هذا الموضوع. فبعد أن ينتهي من عمله مثل المؤذنين باللهجة السورية ذات النغمة العالية

(١) يقصد بـ (المجر)، أي المكان الذي خصص على طرف البئر أو العين، كي يذهب فيه الحيوان (الجمل، أو الحمار، أو الثور) الذي يستخدم لرفع المياه من الآبار والعيون أثناء ري المزروعات. (ابن جريس).

(٢) الصياح الأجش للمؤذنين: عبارة غير لائقة ولا موفقة من فيلبي، فلا يقال على المنادي للصلاة في الأذان بأن نداءه يعتبر صياحاً أجشاً. وكان بإمكانه أن يقول: الصوت المرتفع أو العالي للمؤذنين، أو ما شابه هذه الكلمات. (ابن جريس).

(٣) الأذان وما يقال فيه من كلمات، والطريقة التي يقال بها ليست نغمات موسيقية كما يذكر فيلبي. وإنما هي كلمات ونداءات ينادي بها المؤذن للصلاة. (ابن جريس).

المتكلفة، حي على الصلاة ، إلخ، ينزل ليؤم الصلاة، ويؤديها بنغمات مؤثرة عاطفياً مع المخرجات من التبديل والتوليف في أساليب التعبير. فيستهل الصلاة قائلاً: «الله أكبر» وينطق كلتا الكلمتين نطقاً تاماً، ثم «الله ـ » بتركيز مؤثر في العواطف على الكلمة الأولى بينما يكبت الثانية تماماً، وبعد ذلك مرة أخرى « ـ أكبر» ثم يعكس العملية، وأخيراً «الله أكبر» بنغمات الحديث العادي. وفي سورة الفاتحة يُخرج بصدق النغمة الخارجة من الأنف وهي السائدة في الشمال. كان النداء الأول قد رُفع من المئذنة الضخمة في المسجد الكبير، وعندما انضمت إليها المآذن المجاورة، كان أولئك الذين يتلكؤون بين الحدائق أو عند سفح النفود قد استداروا على عجل متجهين بخطاهم نحو المدينة ليقضوا أفضل لحظات اليوم في الصلاة في أماكن العبادة المكتظة. وأدى مروج صلاته على انفراد على الرمل بجواري، وجلسنا فترة إلى أن نبهنا الشفق المظلم بسرعة للعودة. ومثل رفاقه من العبيد، عايض وسرور، والأخير قد ترقى الآن ليصبح مساعداً لحسين، كبير الرماة. وقد كان مروج حتى العام الماضي في خدمة ابن الرشيد بحائل. وبعد ذلك فروا سراً، فقد جعلهم الضغط الاقتصادي بلا شك يعانون حياة ثقيلة مرهقة شيئاً ما في عاصمة شمر، ليبحثوا عن عمل مع ابن سعود، الذي في ظل نظام حكمه أصبحت حياة العبيد مليئة بالراحة العائلية البهيجة والسعادة الحقيقية. وقضى مروج ذات مرة خمس أو ست سنوات مع فخذ ابن رازي من قبيلة أسلم تحت حكم الشيخ ذعر بن رازي حيث اكتسب معرفة معقولة ببلاد شمر.

استمرت إقامتي في بريدة حوالي سبعة عشر يوماً، وإذا كنت لم أر إلا قليلاً من مجتمعها حاد الطبع وقاسي المزاج، لكنني افتقدت قليلاً تفاصيلها الطبوغرافية، الخارجية أو الداخلية، فالمدينة التي تغطي مساحة مقدارها نحو (١٨٠)[1] فداناً،

(١) تعتبر مستطيلة الشكل طولها (١٢١٠) ياردة وعرضها (٧٥٠) ياردة. (فيلبي).

محاطة بالكامل بسور سمكه قدمان، وارتفاعه من خمسة عشر إلى عشرين قدماً، وتعلوه أهداب من الأبراج المدرجة. وكما أشار داوتي، فإنها تركب فوق جبلها، الذي كان محورها، مثل موجات(١) النفود المتجهة مباشرة نحو الغرب، لتمتد شمال غرب وجنوب شرق. وقمة الجبل، التي كانت صخورها التحتية مكسوة بطبقة رقيقة متناثرة من الرمل، تحمل السور الشرقي بطول مستقيم تقريباً نحو (١٢٠٠) ياردة في اتجاهات محور الجبل، ومنه تنتشر المدينة نازلة نحو الغرب والجنوب تقريباً حتى قاع القناة بين الجبل وأقصى موجة في اتجاه الخروج من النفود(٢). والقناة نفسها من نقطة معاكسة للطرف الشمالي من سور المدينة حتى أبعد طرف من بساتين السبخ نحو الجنوب تحتوي على خط غير منقطع تقريباً من النخيل يتفاوت في عرضه وكثافته. والسور الدائري يتطابق مع شكل هذا الحزام من النخيل ومع منحدرات الجبل في الشمال، والغرب والجنوب. وفي الجهة الشرقية ينحدر الجبل بصورة مفاجئة لينزل في منخفض ضحل من الجبس، والذي توجد فيه مجموعة من الآبار تسمى سقاء، وهي مصدر مياه الشرب للمدينة، ذي المذاق المعدني غير المستساغ، ويسبب عسر الهضم، والذي يبدو أنه يحول طعام المرء إلى رصاص، كما يوجد بستان من أشجار الأثل، قرب الزاوية الجنوبية الشرقية من المدينة. والآبار هنا تتراوح في عمقها بين ست إلى ثماني قامات، وليس في أي مكان، بقدر ما استطعت أن أتأكد، بمنطقة بريدة أن الماء يُكتشف قريباً جداً من السطح على عمق ستة أقدام مثلاً، التي قال عنها بلجريف إنها أعمق منسوب للماء وجده في كل

(١) جبال النفود الأقرب للوادي تقع تقريباً في الشرق والغرب، وربما أكثر دقة شرق/جنوب/شرق وغرب/شمال/غرب (فيلبي).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن جغرافية وتاريخ مدينة بريدة منذ تأسيسها في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي). انظر: العبودي، بلاد القصيم، جـ٢، ص ٤٦٧ وما بعدها، الريحاني، ملوك العرب، جـ٢، ٦١٢ وما بعدها، فؤاد حمزة. البلاد العربية السعودية (الرياض: مكتبة النصر الحديثة، ١٣٨٨) ص ٢٧٢ - ٢٧٣، عبدالفتاح حسن أبو علية. الإصلاح الاجتماعي في عهد الملك عبدالعزيز (الرياض: مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز، ١٣٩٦هـ)، محمد الربدي، بريدة، جـ٢، ص ٣٩ - ٩٥ (ابن جريس).

القصيم. وجاء الماء في بئر حُفر حديثاً في منطقة الجردة عند عمق اثنتي عشرة قامة، وأخرى رأيتها في طور الحفر قرب البوابة الجنوبية، والذي لم يكن قد وصل إلى الماء بعد، والعمال يظنون أنهم لن يضطروا للحفر أكثر من تسع قامات[١].

توجد أربع بوابات رئيسة في النقاط الأصلية الأربع، من بينها تلك البوبتان في الجهتين الشمالية والشرقية وهما الأكثر أهمية، فالأخيرة كانت تستخدم للمرور نحو الجنوب والشرق، بينما كانت القوافل القادمة من والقاصدة إلى جبل شمر أو الحجاز تستخدم الأولى. والبوابة الغربية أو الباب القبلي يؤدي فقط إلى بساتين النخيل وجبل النفود، في حين كانت البوابة الجنوبية أو باب الصباخ أيضاً ذا أهمية فقط للضواحي. وهناك بوابة ثانية، تؤدي فقط إلى بساتين النخيل وتعرف أيضاً باسم الباب القبلي، قد ثبتت نفسها بين الاثنتين المذكورتين أخيراً، بينما توجد بوابة غير مهمة في السور الشرقي شمال البوابة الرئيسة أو باب القصر. وتنتصب القلعة العظيمة المعروفة باسم قصر مهنا في موقع مشرف بين البوابتين الشرقيتين، ويشكل امتداد السور الشرقي الرئيس جانبها الشرقي. وهي عبارة عن مربع ضلعه مئة ياردة تبرز نحو الغرب من السور نحو فضاء كبير شبه دائري حيث ترى بقايا أساسات البيوت القديمة التي تدل بوضوح على أن اضطرابات حكام الماضي قد دفعتهم إلى حكمة الاحتفاظ بميدان رماية مكشوف حول المقر الرسمي. هذه المساحة المفتوحة والمباني المحيطة مباشرة بحافتها شبه الدائرية تشكل ما يسمى حي الجردة[٢] وجنوب هذا الحي توجد أحياء أخرى تعرف باسم الجديدة نحو الجنوب الشرقي، والبوطه نحو الجنوب الغربي، وربيشة[٣] نحو الغرب حول الباب

(١) المراجع نفسها. (ابن جريس).

(٢) الجردة: ذكرها فيلبي باسم جرادة (Jarada) والصحيح ما تم ذكره. انظر: محمد الريدي، جـ١، ص ٢٤٦. (ابن جريس).

(٣) ربيشة: هذا الاسم الصحيح لهذا المكان، مع أن فيلبي ذكره باسم (الدواش)، والصحيح ما تم ذكره. (ابن جريس).

القبلي[١]، على الرغم من أن المرء لا يسمع هذه الأسماء على الإطلاق كثيراً، إذا سمعها أصلاً، من شفاه الرجال. إن حي الجردة، لأنه أرض التخييم المعتادة، يُذكر اسمه أحياناً، مثل الحي الذي يُعرف باسم الشمال أي الحي الشمالي الذي يحتل المساحة كلها شمال وغرب الجردة وشمال الأسواق، التي تُكوّن حياً خاصاً بها في قلب المدينة[٢]. والشارع الرئيس في المدينة يؤدي من البوابة الشمالية إلى السوق الصغير، ربما كان السوق الأصلي من عهد أقل ازدهاراً، وهو أرض تخييم بيضاوية محاطة بالدكاكين التي تستمر لمسافة ما نحو الشمال حتى الشارع الرئيس.

هذه الدكاكين في معظمها يشغلها الحدادون الذين يبدو أنهم منهمكون دائماً في طرق القدور والأواني والغلايات التي تمثل المشغولات المعدنية في المدينة. والمواشي ومعظمها من الإبل، يبدو من الواضح أنها تباع في حي الجردة، حيث في أحد أيام إقامتي شاهدت هناك حشداً كبيراً من العرب وحيواناتهم حيث تباع بالمزاد. وكانت كل مزايدة تُقدّم وينادي عليها الدلال ثم ينادي وينادي عليها مرة أخرى بينما الضحية المعنية في الحلقة يبذل جهوداً شديدة الاهتياج للهرب، ولكن دون أي أثر واضح على حشد المشترين أو المشاهدين بشغف. ولقد كان المزاد يسير ببطء شديد لدرجة أنه في حالة حيوان واحد يرتفع المبلغ المعروض من سبعين إلى ما لا يتجاوز ثمانين دولاراً فقط بزيادة دولار واحد في كل خطوة خلال ربع ساعة. ولقد كان صبر الدلال عجيباً حقاً. وإلى الجنوب مباشرة من هذا السوق، ويشغل المسجد الكبير الموقع المتوسط تماماً في الزاوية المشكلة من معبر الشارع الشمالي

(١) من أحياء بريدة المشهورة في النصف الثاني من القرن الهجري الماضي. حي الشماسي، حي الصناعية (العجيبة) حي الجردة، حي ربيشة، حي الجديدة، حي السادة، حي التغيرة. للمزيد انظر: محمد الريدي، جـ١، ص ٢٤٧ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن مدينة بريدة، انظر: حافظ وهبة، ص ٦١ - ٦٢؛ الهويمل، ص ٥١، ١٧٢، المعارك، ص ٢٩ وما بعدها. كما انظر خريطة بها الأسماء التي أوردها فيلبي أثناء زيارة بريدة عام (١٩١٨م)، محمد الريدي، بريدة، جـ٢، ١٩٤ وما بعدها (ابن جريس).

الجنوبي الرئيس المذكور آنفاً والشارع العام الذي يربط البوابتين الشرقية والغربية، وهو مبنى فسيح طوله مائة ياردة من الشرق للغرب، ومحوره يمتد ربما بالأحرى من شرق / شمال / شرق إلى الغرب / جنوب / غرب وعرضه أقل بقليل من أربعين ياردة. وطبقاً لبعض الروايات يشغل هذا المسجد، المشيد حديثاً نسبياً، موقع الحصن الأصلي لحكام بريدة من آل أبو عليان المعروف باسم قصر حجيلان الذي سكن فيه داوتي يومين عندما حل ضيفاً على جبير.

على كل حال فإن «المئذنة المربعة» التي ذكرها داوتي لا يمكن أن تكون المئذنة التي توجد الآن، وهي قاعدة عريضة دائرية تنتهي في طرف رفيع مستدق. ومن الواضح أن بعض التغييرات قد طرأت على مباني بريدة منذ تلك الأيام. وعلى العموم، وبعد الاستماع لروايات مختلفة عن الموضوع، توصلت إلى نتيجة مفادها أن قصر حجيلان الذي ذكره داوتي ربما يكون قد قام في موقع يحتمل أن يكون قد شكل جزءاً من التوسعة اللاحقة المعروفة باسم قصر مهنا أو قصر آل حسن[١] الذي لا يرى الآن إلا كنواة للقصر الكبير[٢] والقصر جرى توسعته كثيراً على يد عبدالعزيز بن رشيد، كما كان يخضع لكثير من التحسينات الإنشائية وإعادة الترتيب في وقت زيارتي. والمدخل الوحيد للقصر هو الباب الرئيس في الوسط بالجهة الجنوبية. ومن هذا الممر المظلم الذي يبلغ طوله خمسين قدماً وعرضه عشرة أقدام وارتفاعه خمسة عشر قدماً، يمكن الوصول من تحت غرف المعيشة إلى باب داخلي يؤدي للفناء، ومنه يصعد المرء بالدرج إلى المجلس الكبير أي غرفة الاستقبال العمومية في الطابق الأول. وعلى اليمين عندما يكون المرء متجهاً شمالاً تجد المجلس القديم الذي شيده ابن رشيد مع أن نحو ثلثي طول الجدار الجنوبي قد أخذ لعمل غرفة استقبال

(١) سمي علي حسن المهنا أحد أمراء بريدة السابقين. (فيلبي).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن تأسيس وتواريخ قصور بريدة مثل: قصر حجيلان، وقصر آل حسن، وقصر حمود الدريبي، وقصر عبدالله بن مساعد، وغيرها من الحصون والقصور الأخرى، انظر: الهويمل، ص ٤٦ - ٥٠، محمد الريدي، ص ١٩٢ وما بعدها. (ابن جريس).

ابن سعود الجديدة، أو بالأحرى جناح سكني عام أو شبه عام. وتبلغ أبعاد المجلس الجديد (٤٤×٢٢×١٨) قدماً، ويجاوره غرفة نوم عرضها اثنان وعشرون وطولها عشرة أقدام فقط، ملحق بها دورة مياه كبيرة وربما مساكن أخرى، والجناح كله يمتد للداخل ببلكونة عريضة ذات أعمدة ومنها يطل المرء على قصر حسن القديم، الذي يشغل الزاوية الشمالية الغربية من الفناء، والمباني الجديدة، المكونة من مسجد ومساكن خاصة لابن سعود نفسه، التي كانت في طور الإنشاء بالقسم الشمالي الشرقي. وتحاط أسقف الأقسام المختلفة من القصر بأسوار ارتفاعها ستة أقدام تقريباً، وفيها الزخارف المعتادة من الأبراج المدرّجة، ويشرف على الحصن كله برجٌ أوسط شاهق الذي يرفعون عليه هذه الأيام المصباح القوسي المألوف الذي جُلب من الرياض، مع التجهيزات المنزلية الأخرى التي تشمل عدداً من النساء الإماء. والمعلومة الأخيرة جاءتني من أحد العبيد الذي كان يقوم على خدمتي، ولكن على الرغم من أن الدليل الواضح يشير إلى أن هؤلاء النسوة كن يخدمن كمحظيات، وهذا هو الدليل الوحيد لاتخاذ المحظيات المعترف به عند الوهابيين الذي نما إلى علمي. والحقيقة أنني لم أشعر أبداً بصدق هذه المعلومات إذ كنت في الغالب أعتقد أن هؤلاء النسوة الإماء قد جُلبن للقصيم كهدية لزوجة ابن سعود في عنيزة. إن الأمة غير المتزوجة تكون، على الرغم من ذلك، «حلال» أو شرعية بموجب أحكام الإسلام، والأطفال المولودون منهن يُعترف بهم كذرية من آبائهم، ولابن سعود، على ما أعتقد، بنت واحدة من التسري في الرياض[1]. ويقال إن واحدة من البنات التي جُلبن للقصيم كانت في سنواتها الغضة تماماً وأخرى قد أعطيت لاحقاً لابن نصبان بعقد شرعي.

---

(١) كتب السنة والفقه الإسلامي مليئة بالقواعد الشرعية عن أوضاع الإماء الجواري والزوجات الحراير، وما هي الحقوق والواجبات على كل صنف من هذه الأصناف، وبخاصة فيما يتعلق بالزواج والمناكحة. انظر: كتب الصحاح والسنن الأخرى. (ابن جريس).

وفي العاصمة الوهابية يُسمح للنساء الإماء بقدر كبير من الحرية في موضوع رؤية الرجال والنساء من نوعهن، ولكن هنا في بريدة مع وجود الكثرة الكثيرة من العبيد غير المتزوجين في قافلة الجيش، فقد كن يبقين في عزلة صارمة.

إلى جنوب المسجد الكبير[١] مباشرة يمتد سوق الحشائش، يمكن أن ترى أعداداً كبيرةً من النسوة يبعن البرسيم أو الحشائش الصحراوية، مثل النصي وما شاكلها. ومن هذا الشارع كما أيضاً من الشارع الموازي له في الجهة الشمالية من المسجد يوجد بابان يؤديان إلى الساحة المفتوحة للمسجد التي تشغل حوالي نصف المساحة كلها والنصف الآخر للإيوان المسقوف الذي تسنده الأعمدة. وهناك باب آخر في الجهة الشرقية الضيقة من المسجد يتبعه آخر للاستخدام الخاص للأمير، وبالطبع لابن سعود وأسرته عندما يكون مقيماً. ذلك على الجهة الغربية قريباً من البروز الخارجي الصغير لمكان القبلة. ومن خلف سوق الحشائش نحو الجنوب يقع السوق الرئيس، الذي يتكون من شارع رئيس عريض يمتد شمالاً وجنوباً، وفيه نحو مئة دكان على كل جانب وشوارع جانبية كثيرة، كل منها يبدو أنه مخصص لنوع واحد من البضاعة. أما الشارع الرئيسي من جهة أخرى ففيه أنواع مختلطة كثيرة من السلع معروضة للبيع في المحلات. وهناك الملح الصخري بكتل كبيرة ذات لون بني يميل للحمرة والهيل والبهارات الأخرى والقهوة والبصل والتمور والبطيخ والقرع. وجزء آخر من الشارع الرئيس كان مخصصاً لبيع الأغبطة (الأخراج) ومطاحن القهوة المصنوعة من الحجر الرملي، والملابس مختلفة الأنواع، والبنادق (ومن هذه شاهد بيع واحدة من نوع قديم بمبلغ ثلاثة دولارات) واللحم. أما سوق اللحم

(١) يوجد حوالي اثني عشر مسجداً في المدينة، وكلها فيها مآذن مستديرة الطرف تبدأ من قاعدة عريضة إلى قمة رفيعة. (فيلبي). ومن أسماء بعض تلك المساجد التي شاهدها فيلبي ما يلي: مسجد جامع بريدة الكبير، مسجد الجردة، مسجد عودة الرديني، مسجد أبا البطين، مسجد معارك، مسجد المشيقح، مسجد ابن شريدة، مسجد الحويزة، مسجد ابن خضير. للمزيد انظر: المعارك، ص ٥٨ - ٦١. (ابن جريس).

الـرئيس ـ الـذي يغلب فيـه لحم الإبل ـ فهـو فـي أحـد الشـوارع الجانبيـة. وكـان حشـد المشـترين يمثل مشـهداً حيـاً فـي سـاعـات الصبـاح، عندمـا يكون أحيـانـاً من المسـتحيل تقريبـاً أن تتحرك دون أن تصـطدم بكائنات بشـرية أو غنم أو صفوف من الإبل تجلب العلف أو الحطب. ولقـد قـدّرت أنـه لابد أن يكون علـى الأقل مجمـوع الدكـاكين ثمـان مئة في كلا السوقين مع فروعهما المتنوعة، وربما يكون هناك أكثر من ذلك بكثير[١].

بالإضافة إلى منطقـة الجردة الكبيرة المفتوحـة تبدو مساحة المدينة كلها مشغولة عن آخرها بالمباني، على الرغم من أن القسم الجنوبي لم يجذب إلا مؤخراً انتباه البناة المحليين. هذه المنطقة، مع ذلك، تمتلئ بسـرعة، وفي هذه الفتـرة يبدو أن مهنة البناء بلغت أوج ازدهـارها ورواجهـا. والتـراب لصنع الملاط ـ كمـا قيل لي ـ يُجلب من منخفض بعيـد من الصفـراء الشـماليـة، والتي توفـر أيضـاً المحاجـر التي تؤخـذ منهـا مـواد البنـاء المطلوبة. لقد كانت بريدة من جميع الوجوه مدينة مشيدة بصورة أفضل من عنيزة[٢]، ولربما يظن المرء بحق أن إنشـاءها قد تطور طبقـاً لخطة مدبرة تدبيـراً حسناً. وهي أيضاً أكبر من أختها. وعندما وضعت في حسباني حقيقة أن مبانيها أشد رحابة وأفضل مساحة من تلك الموجودة في منافستها، فقد توصلت إلى نتيجة أن سكان المدينة لا يمكن بأي حـال أن يقلوا عن عشـرين ألف نسـمـة[٣]. والعناصـر

---

(١) لمزيد من التفضيلات عن النشاط التجاري في بلاد القصيم، وبخاصة في مدينة بريدة وما حولها، انظر: محمد الربدي، جـ٢، ص ٢٤٦ – ٢٥٥، حافظ وهبة، ص ٦١، الهويمل، ص ١٢٥ – ١٢٨. (ابن جريس).

(٢) للاطلاع على معلومات أكثر عن الأحياء السكنية والعمارة التقليدية في بريدة، انظر: محمد الربدي، جـ٢، ص ١٧٤ – ٢١٦، المعارك، ص ٥٧ – ٦١، الهويمل، ص ٥١ – ٥٧. (ابن جريس).

(٣) هناك بعض الروايات التي تذكر عدد سكان بريدة من عام (١٣٠٠هـ/١٨٨٢م). حيث أورد البستاني أن عددهم في ذلك العام (١٣٠٠هـ) يقدر بـ (٢٥٠٠٠) نسمة، ثم جاء لوريمر عام (١٣٢٤هـ/١٩٠٦م) فذكر أن عددهم (٧٥٠٠) نسمة، وجاء حافظ وهبة بعد فيلبي عام (١٣٥٣هـ/١٩٣٤م) فذكر أن عددهم يقدر بـ (٣٠,٠٠٠) نسمة، وتوتشل ورضا كحالة عام (١٣٦٤هـ/١٩٤٤م) ذكرا أن عدد السكان في بريدة يقدرون بـ (٣٠,٠٠٠) نسمة. انظر: بطرس البستاني، دائرة المعارف (طهران: طباعة مطبوعات اسماعيليات، د.ت) مج٥، ص ٤٠١، كارل. سي. توتشل، المملكة العربية السعودية وتطور مصادرها الطبيعية. تعريب شكيب الأموي (القاهرة: د.ت) ص ٨٢، وهبة ص ٦١، التركي، ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م) ص ١٧٧، محمد الربدي، جـ١، ص ١٢٩. (ابن جريس)

السكانية فيها كما يُقال من شمر، وبني خالد، وعتيبة وسبيع وتميم الحتمية (فخذ الوهبة)(١) ناهيك عن السلالة المختلطة من بني خضر(٢) والمظهر الديني السائد كان وهابياً ومتعصباً بشكل واضح، بيد أن هذا التعصب من نوع مختلف عن تعصب الصحراء، فهو تعصب مدني له مظاهر خارجية قليل العمق والإخلاص نسبياً.

قبل أن أغادر بغداد متجهاً للجزيرة العربية منذ سنة تقريباً كنت قد كُلفّت من صديق قديم، يدعى سليمان الدخيل، أن أحمل رسالة وذهباً بقيمة عشرة جنيهات استرلينية لأحد أقاربه يسمى عبد الرحمن الدخيل. وفي الوقت نفسه كان الأخير قد تلقى رسائل تفيده بالأمانة التي كُلفّت بها، وفي نفس اليوم بعد وصولي إلى بريدة جاءني أحد الموظفين في خدمة ابن سعود قائلاً: إن عبد الرحمن؛ لأنه لا يقدر على مغادرة الدكان، قد كلفه أن يأخذ الرسالة والمال مني. ولأنني أدركت أن السبب الحقيقي لم يُذكر صراحة، فقد أجبته بأنني لا أستطيع أن أسلم المال إلا يداً بيد، وتبعاً لذلك زارني عبد الرحمن في اليوم نفسه عصراً. ولقد استقبلته ببرود مناسب، واندفع هذا الفتى الغر، الذي خرج لتوه من مرحلة المراهقة عائداً على عجل، ولكن ليس قبل أن يتكبد مشقة عد العملات الذهبية بنفسه. ولم أره بعد ذلك أبداً.

وقد تعرفت فعلاً على مقيم آخر في بريدة الذي أرسل رسالة عن طريق رشيد مفادها أنه يود أن يجدد تعارفاً بدأ في البصرة وأنه شغوف بدعوتي لبيته. ولم أكن أتذكر اسمه، عباس الفلاجي، وكنت مقتنعاً تماماً أن عيناي لم تقع أبداً عليه من قبل، عندما ـ ذات صباح وبينما كنت أهم بالدخول عائداً من زيارة للسوق ـ قدّم إليّ رشيد بتملق رجلاً كان يتحدث معه في فنائنا قائلاً: «هذا عباس». ولقد واصلت

(١) لمزيد من الإيضاح عن بعض القبائل التي استوطنت القصيم منذ فترة مبكرة، انظر: الحقيل، كنز الأنساب، ص ٩٢، ١٣٠، ١٥٥. (ابن جريس).

(٢) إليها تنتمي نسبة كبيرة من الموظفين وخدم المنازل مثل إبراهيم الجميعة، ورشيد، وحتى شلهوب، والأغرب من ذلك ابن سويدان الكاتب السري الذي كانت ملامحه من النوع النجدي القمح وعويد وابن نصيان.

سيري دون زيادة عن التحية الرسمية وعندما تبعني زائري بعد ذلك بدقائق قليلة إلى غرفتي، واضطر إلى أن يقر بأنه في الحقيقة لم يقابلني أبداً من قبل. وأردف دفاعاً عن نفسه قائلاً: «بيد أنني ذات مرة، رأيت النقيب ولسون[(١)].

وأتذكر أيضاً مقابلة كوكاس (Cokas) الكبير في بغداد، ولكن ذلك كان منذ زمن طويل في عهد السلطان عبدالحميد». ليست أنبل خواص عباس الوحيدة غرائبيته وهاجسه بأنه شخصياً على معرفة بكل المشهورين في نطاق عالمه الصغير، وفي النهاية، ليس من الصعب على عربي أن يخلط اسم السير بيرسي كوكس مع السير وليم ويلكوكس (Sir Percy Cox and William Willcocks)، خبير الري العظيم، الذي قابله مصادفة. وحسب ما هو معروف عنه كان عباس رجلاً من الدرجة الدنيا وشخصية لا يؤبه بها، وأصله من شمر، وانتقل من حائل ليقيم في شمر منذ حوالي اثنتي عشرة سنة مضت، لسبب ما لا يُفضّل الخوض فيه. لماذا أراد أن يستقبلني في بيته هذا ما لم أستطع أن أسبر غوره، على أنني عندما قلت إن فترات العصر تكون بشكل عام خالية بقدر ما يهمني الأمر بادر فوراً إلى الرد قائلاً: إنه هو نفسه نادراً ما يكون في بيته إلا بالليل. وعلى الرغم من أن السبب الواضح من هذا الرأي أن تكون الزيارة ليلاً، إلا أنني وجدت نفسي في إحدى الليالي بعد ذلك بأيام قليلة انطلق في طريقي بعد صلاة المغرب نحو الجزء الجنوبي من المدينة، حيث كان عباس قد اشترى بيتاً بمبلغ ألف ريال. وكان باب البيت، مثل معظم الأبواب في بيوت الطبقة الأفضل حالاً، من الخشب الثقيل، وبه لوحة عرضية في الوسط مرصعة بمسامير ضخمة، وكانت المطرقة حلقة معدنية عادية قطرها حوالي بوصة ونصف البوصة. وبعد الباب مباشرة توجد صالة صغيرة خالية وعلى اليسار يوجد المدخل إلى مجلس القهوة، وهي غرفة طيبة من وجهة النظر المعمارية كأفضل ما رأيت خلال مدة إقامتي كلها بنجد. وسمك جدران المبنى نحو ثماني عشرة بوصة، وفيها ثلاثة

---

(١) النقيب (والآن السير أرنولد) آيهزتي. ولسون، نائب رئيس الضباط السياسيين في قوات بلاد الرافدين. (فيلبي).

مداخل، غير مدخل البيت تؤدي إلى أجزاء مختلفة من البيت، وهي مغطاة بلياسة طينية بُنية عادية. وترتفع لنحو ٢٥ قدماً تشمل نوعاً من الرواق المعمد المنور، المقام على عشرة أعمدة، ويمتد حول دائرة الغرفة كلها. وأبعاد الأخير (٢٥×١٥) قدماً. ولم تكن هناك أية محاولة للزخرفة الجدارية بخلاف علامة الوسم[١] بالدهان الأبيض في أحد أطراف الغرفة ونموذج لزهرة الزنبق فوق موقد القهوة عند الطرف الآخر، بيد أنه هنا وهناك تنتشر آثار باهتة من القوالب المثلثة البارزة بروزاً خفيفاً. وبني السقف من عوارض الأثل الموضوعة فوق كمرات من جذوع النخل تسنده الأعمدة المذكورة آنفاً والتي تنتهي بتيجان عادية مستطيلة ومزينة بقوالب ثلاثية باهتة. وهناك جدار منخفض في أعلاه شريط من الأبراج المدرجة يمنع رؤية الأروقة من أسفل[٢].

هذه هي غرفة استقبال عباس، الذي اعترف بكل تواضع أنه يوجد ربما ثلاثة أو أربعة بيوت أخرى في بريدة في مثل مستوى بيته، وقال لي: إن عمر بيته لا يزيد على عشر، سنوات. وقد جلسنا متحلقين على السجاجيد ومعها كمية كبيرة من المخدات المصنوعة من أفضل أقمشة مانشستر، ولقد أدهشني كثيراً كيف أن واحداً قليل الأهمية يحيا حياة شديدة الترف مثل هذه. وقال: «كل شيء أملكه، أدين به لابن سعود» واستنتجت أن العاهل الوهابي ربما وجد طرقاً ووسائل للاستفادة من تابعه البسيط قليل الأهمية، الذي كنت على كل حال شاكراً له للفرصة التي منحها لي لرؤية وفحص على مهل الأجزاء الداخلية لأحد أفضل البيوت في المدينة الرائدة

(١) هذا الوسم كان مرسوماً على عمود بنقش بارز قليلاً ويستمر نازلاً على العمود الأوسط في الرواق المنور في طرف الغرفة. (فيلبي).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن العمارة التقليدية في بريدة وعموم بلاد القصيم، انظر: محمد الربدي، بريدة، جـ٢، ص ١٧٤ وما بعدها، عبدالرحمن الشريف، منطقة عنيزة (القاهرة: مطبعة النهضة، ١٩٦٩م)ص ٢٠٨، محمد العبودي، جـ٢، ص ٤٩٥، دوكسيادس. بريدة، الأوضاع الراهنة والتوصيات للإجراءات الفورية (تقرير معد لوكالة وزارة الداخلية لشؤون البلديات، وزارة الشؤون البلدية والقروية حالياً، التقرير رقم (٦) يونيو، ١٩٧٣م ص ٢٩٥ (ابن جريس).

بوسط الجـزيرة العـربيـة. وفـي إحدى المناسبـات كنت أشيـد بـالفخـامـة والـراحـة في بيوت القصيم بشكل عام، عندما نبهني ابن سعود، الذي يتفق معي جزئياً في هذا الرأي، إلى عدم افتراض أن جميع الغرف في المنازل بالدرجة نفسها من الفخامة مثل غرف الاستقبال العمومية. فقد كانت الغرف الأخرى بشكل عام خالية جرداء، وليس فـي كل البـيـوت دورات مـيـاه مناسـبـة، فـعلى المرء أن يغـتـسل في العـراء أو يستخدم إحدى غرف المعيشة مؤقتاً لهذا الغرض. وتبعاً لذلك لم يكن رجال القصيم ولا نساؤها يغتسلون كثيراً، ولكن في الرياض كانت هذه العادة أكثر شيوعاً. إن بريدة تشـتهـر ببنـائيهـا، والتـحـسينـات التي يجـري تنفيـذهـا في هذا الوقت بالـقصـر في الرياض تجري تحت إشراف رجل من بريدة كلف خصيصاً لهذا الغرض.

كـمـا في الرياض، كـان سـقـف سكني يطل على مشـهـد واسـع مـن أسطح البـيـوت المجاورة التي كنت عند الغروب وفي الساعات الباكرة من الصباح أرى أحياناً نساء المدينة وهـن يؤدين أعمـالهـن المعتـادة. وعنـد غـروب الشـمس على نحـو خـاص، عندمـا يكون جميع الرجال من السكان يقيناً في الصلاة بالمساجد، فإن طبقات مجتمع نسوة بريدة يظهـرن بأزيائهن فوق الأسطح، وتأخـذهـن الشـجـاعـة للتـجـول هـنـا وهنـاك وهـن حاسرات وجوهن دون حجاب كاشفات بهاء خصلات شعرهن المضفر. ولقد رأيت ربما ما لا يقل عن ست من أفضل طبقات النساء بهذه الطريقة، وكلهن غافلات عن اهتمامي بهن[١]، ولم تبهرني واحدة منهن بما يبرر تفاخر القصيم بجمال بناتها. ولقد راقبت سيدة، كان ثوبها الخارجي[٢] بعيداً كل البعد عن الجدة أو الرقة، لأنها على وجه خاص ورعة تقية وتنتظم في وضوئها وصلاتها، على أنه في معظم الأحوال فإن

(١) هذه الطريقة التي يرويها فيلبي تعتبر تجسساً على عورات الناس، وهذا ما يحاربه الشرع الحنيف، وربما كان فيلبي نفسه يعلم ذلك لسعة اطلاعه على العلوم العربية، ولكن الأمر لا يهمه كثيراً لأنه عاش في مجتمع أوربي منفتح، ثم إنه أيضاً ما زال حتى قيامه بهذه الرحلة خارج دائرة الإسلام. (ابن جريس).

(٢) أكثر الألوان شيوعًا كان الأحمر والأزرق النيلي الداكن.

النساء لا يلتزمن التزاماً صارماً بالأوقات المحددة للصلوات، ولا سيما في الصباح حيث يؤدين أحياناً الصلاة بعد طلوع الشمس بوقت طويل(١). وفي إحدى الأمسيات كنت قد اضطررت إلى الابتعاد المهين وراء ستار جدراني عندما برزت سيدتان شابتان على سطح غير بعيد ولم يُظهرا أي علامة على الخجل عندما اكتشفاني أتفرس في منظرهما، بل إنهما أبديا رغبة مثيرة في شخصي ومظهري.

في أحد الأيام وهو يوم جمعة، الذي كان من عادة ابن سعود أن يوزع فيه صدقات على الفقراء والمحتاجين، لاحظت ما لا يقل عن مئتي امرأة من الطبقة الأكثر فقراً كاسيات بثياب خارجية فضفاضة من قماش السموك (Smock) الأسود الداكن وأغطية وجه من قماش الموسلين (Muslin)، وقد جلسن في صفوف على طول السور الخارجي للقصر وجدران البيوت حول حافة الجردة وهن يستفدن من مزايا ظلالها الهزيلة جداً عند الظهيرة أو في أوائل فترة العصر. وهناك جلسن في صبر شديد ينتظرن دولاراً أو جزءاً منه يكون نصيبهن الأسبوعي. ومن ذلك المكان في وقت لاحق من اليوم رأيتهن جميعاً يسرن في جماعات عائدات من الأرض الفضاء. وفي أثناء ذهابهن شاهدت دوامة حلزونية هزيلة من الغبار تتصاعد من الرمل على الأرض حتى ارتفاع مئة قدم وتتحرك ببطء وهدوء إلى الأمام، وعندها انطلقت من كثير من النسوة نداءات ورع ليتجنبن تلك العواقب التي قد تنذر بها مثل هذه الظاهرة الطبيعية. وهللن قائلات: «لا إله إلا الله» و «أستغفر الله».

في مرة أخرى، التي تصادف أن تكون في اليوم الذي غادر فيه ابن سعود في زيارة قصيرة لعنيزة، خرجت أمشي متنزهاً مع مترك ومروج كما كانت عادتي أحياناً. ولما لم يكن لنا هدف خاص في بالنا، فقد ضربت في الأرض جزافاً عبر متاهة من الشوارع الجانبية التي أوصلتنا إلى حافة السوق. هنا في شارع جانبي

(١) تأخير الصلاة عن وقتها منهي عنه في الشريعة الإسلامية إلا عذر شرعي كالنسيان مثلاً أو النوم. (ابن جريس).

شاهدت صفاً من النساء متراصات لبيع الأواني المتنوعة. فإحداهن معها سلة من بتلات الزعفران، واثنتان أخريان تبيعان سكراً أبيض من النوع الخشن، بينما أخرى تضع أمامها سلة مليئة ببقايا متفرقة من بقايا ملابس قديمة، وقطن، وغير ذلك. وعلب أعواد الثقاب اليابانية منتشرة بشكل عام هنا، من نوع «ماركة الأسد» المصنوعة في اليابان لحساب شركة بارسي (بومباي) في بهيموالا (Bhimoiwala)، وكانت ماركة «ركس» الأشد شيوعاً، بينما في الطائف وجدت منتجات من النمسا وفي الرياض كانت علب الكبريت من النمساء والسويد. وذخيرة البنادق، التي تكلف دولاراً لكل سبع أو خمس عشرة خرطوشة في شقراء والرياض على التوالي، وهي أرخص نسبياً، فكل عشرين خرطوشة تكلف ريالاً، وكان كبار الموردين لها من رجال قبيلة حرب الذين يحصلون عليها بلا مقابل من الشريف.

ولقد واصلنا سيرنا ودخلنا في سوق العلف الذي يجني أرباحاً هائلة من الأكوام المتكدسة من العلف الأخضر وحشائش الصحراء.

وهكذا ظللنا نسير مارين على الدكاكين عندما لاحظت مجموعة صغيرة من أصحاب المحلات والزبائن يحدقون فينا بنظرية معادة باردة. ولقد رددت عليهم بالتحديق والتفرس فيهم بثبات، وعندها لامسني شعور بالعداء تجاههم عندما تذكرت أن كثيراً من ثروتهم قد تحققت من التجارة غير المشروعة في منتجات الكفار، ولكنهم قد غضوا عيونهم. وبالإضافة إلى الأواني والأوعية المشار إليها آنفاً، فإن مصنوعات بريدة ترتبط في معظم الأحوال بالجولد والصناعات المتصلة بها، وتشمل سروج الإبل وتجهيزات الإبل من كل نوع، والأغبطة والعُقل (العقالات) والصنادل وأغمدة البنادق والخناجر الجلدية وأغمدة وأحزمة الطلقات ... إلخ[1]. وهكذا سرنا حتى خرجنا من

(١) كانت بريدة أثناء زيارة فيلبي تعد من الأسواق التجارية المهمة التي ترد إليها البضائع المتنوعة من العراق والشام وغيرها، انظر: الربدي، جـ٢، ص ٣٣٨ - ٣٤٦، الهويمل، ١٢٥ - ١٢٨. (ابن جريس).

المدينة بالبوابة الجنوبية الغربية ودخلنا في الحدائق الغناء وراءها، حيث تجد الأرض مكسوة بغطاء كثيف من البرسيم أو مزركشة ببقع اليقطين الممدد على الأرض. هنا وهناك توجد أيضاً مجموعات صغيرة من أشجار القطن بطولها الأقصى، وأوراقها الصغيرة مقارنة بما في الجنوب، وكانت ثمارها الكروية قد انفجرت لتوها لتعرض الزغب الأبيض من داخلها. في معظم الأحوال يُزرع القطن في هذه المنطقة كنبات حدودي فاصل وبكميات ضئيلة. وكانت بقع الدخن الأخضر تضفي تنوعاً على المنظر المزدهر الوديع، الذي تنساب خلاله بخريرها قنوات صغيرة بمياه الآبار المتدفقة في كل اتجاه. وفي أحد الأماكن صادفت خزاناً صغيراً تشكل من إعاقة قناة البئر بسد صغير من البناء، ومن فتحة فيه يتدفق الماء بفقاقيع بهيجة كما لو كان من غدير جبلي، بينما بعده تجري قناتان في زاوية قائمة مع بعضهما البعض تعبر إحداهما فوق الأخرى بمجرى مائي قصير من الألواح الصخرية[1].

في كل الأرجاء كان النخيل يرتفع شاهقاً فوقنا، سامقاً وكثيفاً، بأعذاقها الضخمة من الثمار التي في معظمها لم تنضج بعد. هنا وهناك تنتشر تعريشات مؤقتة من جريد النخل يستظل فيها العمال حتى يستريحوا من كدهم اليومي. وهكذا، وفي أثناء تجوالنا، أتينا إلى الطرف البعيد من حديقة كبرى والتي دخلناها من ممشى مفتوح. وأعاق تقدمنا للأمام أكثر جدار طويل منخفض من الطين، ما يزال رطباً، وفي أحد أطرافه وجدنا مجموعة صغيرة من الرجال ما تزال تعمل فيه. ولتفادي التحويلة المرهقة، قفزت فوقه واثباً، وفعل رفاقي الشيء نفسه بعد لحظة من التردد، وأصبحنا فجأة على مواجهة مع صاحب الحديقة وهو يصيح فينا بغضب «ماذا تفعلون وتأتون من خلال حديقتي؟ ليس هناك طريق خلالها ونساؤنا حاضرات

(١) أرض بريدة، بل عموم بلاد القصيم، تتوافر بها الآبار والعيون الصالحة للزراعة، كما يزرع بها أصناف عديدة من الفواكه والخضراوات، كالتمور والبطيخ وغيرها. للمزيد انظر: محمد الربدي، ص ٣٢٩ - ٢٣٧، المعارك، ص ٨٨ - ٩٩، وهية، ص ٦٠ - ٦٣. (ابن جريس).

بها (هذا كان غير صحيح). تباً لكم». وكالمعتاد في مثل هذه الظروف حاولت أن أتفادى عراكاً بمواصلة السير في طريقي دون الالتفات إلى تهديد صاحبنا ووعيده، والذي لم يكن بالتأكيد قريباً بدرجة كافية ليعرفني، ولكن الخسة واللؤم فيه قد نشبا في مترك، الذي على الرغم من أوامري له تباطأ متخلفاً لبعض المسافة عني ويصيح بالسباب للطرف الآخر. وهذا ألهب غيظ المالك الذي تقدم علنيا بشتائم جديدة بينما تسمّر مترك في مكانه متحدياً ورجع مروج ليسانده. وبالتالي اضطررت للتدخل، وكان عليّ أن أرجع لأفرض سلطتي على رفاقي، الذين بعناد شديد ابتعدوا عن احتمال الشجار، ولكن في الوقت نفسه رضيت بنظرة تعجب وذهول غشيت وجه المالك عندما عرفني واستدار مبتعداً دون أي نقاش إضافي(١). ولقد صحت خلفه أنه يستطيع أن يذهب إلى ابن سعود إذا كانت لديه أية شكوى يقدمها بدلاً من أن يهدر غضبه على الكلاب التي ترافقني. عند ذلك استدرت إلى مترك وصرفته في الحال، ومضى عابس الوجه مقطب الجبين، وعندما عدت للبيت ذهلت من سؤال الدكتور عبدالله لي عما حدث. لقد ذهب مترك مباشرة للأمير ليقول: إنني أرسلته ليرفع شكوى رسمية ضد المالك المسيء، الذي تم استدعاؤه، وكان على وشك أن يودع في السجن على أساس أنه أهانني ومد يده حقيقة على مترك. وقد جئت فعلاً في الوقت الملائم لأمنع عدم إقامة العدل، وكان مترك هو الذي قضى اليوم في حبس انفرادي بالمطبخ وهو مذهول تماماً من نبذ لقصته البارعة علانية بأنها كلها مجموعة من الأكاذيب. وعلى الرغم من ذلك، كنت قد وزعت الهبات المتعلقة بالرحلة الأخيرة في اليوم السابق لذلك، ولم يخسر ولو قليل مما يقدّره فعلاً حق قدره.

---

(١) سبب انصراف صاحب الأرض بعدما تأكد أن فيلبي واحد من الذين اجتازوا أرضه، وذلك يعود إلى معرفة هذا المزارع بأن هذا الإنجليزي (فيلبي) مدعوم من الإمام ابن سعود، ولهذا خفت حدته وغضبه نحوهم حتى لا يصل خبر عضبه وعنفه معهم إلى ابن سعود ومما يتضح عن جميع رحلات فيلبي في جزيرة العرب أنها أيسر وأسهل من غيره من الرحالة لما وجده من دعم وحماية من الملك عبدالعزيز. وبفضل هذه الميزات فقد خلف لنا فيلبي دراسات كثيرة وجديدة عن أجزاء عديدة من الجزيرة العربية، في جميع جهاتها. (ابن جريس).

خلال جولاتي في الصباح رأيت سعد اليُميني في السوق، ولاحظت أنه قد أدار عمداً تماماً ظهره لي كما لو كان يتوقع شخصاً ما من الاتجاه المقابل. وبالقدر نفسه من التعمد مشيت إليه وواجهته بالتحية، وعندما تغيرت طريقته فوراً، ورد التحية بود شديد على الرغم من وجود شهود على الحادثة. وقال علانية ـ ربما بحق ـ إنه قد زارني في الليلة السابقة عندما كنت بالخارج، وفي جميع الأوقات كنت على ثقة من وده التام على الرغم من أن خوفه من الرأي العام قد زاد بالخطر الموجود دائماً من أن أعداءه قد يبلغون عن سلوكه هذا إلى أب عجوز شديد التعصب الذي كان يخشاه كثيراً[1]. وعلاوة على ذلك، فإن سعد الذي بدأت أول تجربة له في الخدمة النظامية في البكيرية[2] في (١٩٠٤م) عندما هزم ابن سعود ابن رشيد وحلفاءه الأتراك، وذات يوم ارتدى هو نفسه الغترة البيضاء، على الرغم من أنه منذ ذلك الحين قد تاب عن ذلك النشاط وانغمس في مستنقع الغواية سراً. وفي هذا الوقت كان يقوم بالرعاية الخاصة للأميرين الصغيرين فيصل[3] وفهد[4] وكان الأول أكبر قليلاً من الثاني، وطبقاً لما قاله سعد، فهو فتى وديع ودمث الأخلاق فوق ذلك. بينما كان فهد عادياً سريع الغضب قليلاً، يتوق دائماً للشجار والعراك، حتى وهو في عمره الغض (اثنتا عشرة سنة) يبدي ميولاً نحو التعصب الأعمى. ومنذ وقت قريب استل سيفه على أحد خدمه، وأصابه بجرح في ذراعه ومزق عباءته ولكن حمله الخزي على إصلاح ما أفسده بتقديم اعتذار وعباءة جديدة.

---

(١) كان بعض الأفراد في بلاد القصيم، وكذلك في مناطق الجزيرة العربية، أثناء رحلات فيلبي يعمدون إلى تجنب الجلوس أو الحديث معه، لما قد يسبب لهم من متاعب عند كثير من عامة الناس كون هذا الرحالة غير مسلم وما زال على ملة الكفر، وربما يصل بالبعض إلى وصفه بالنجاسة وما شابهها. (ابن جريس).

(٢) وهو الآن نائب الملك على ملكه. وزار أوروبا في (١٩١٩م) ومرة أخرى في (١٩٢٦م). (فيلبي).

(٣) توفي خلال انتشار وباء الإنفلونزا في ديسمبر (١٩١٨م). (فيلبي).

(٤) لمزيد من الإيضاح عن معركة البكيرية بين ابن سعود وابن رشيد عام (١٣٢٢هـ/١٩٠٤م) انظر: العثيمين، تاريخ المملكة، جـ٢، ص ٨٣ - ٩٠. ولمعرفة معلومات أكثر عن مدينة البكيرية، انظر: علي بن سليمان المقوشي، البكيرية، ص ٢٣ وما بعدها. (ابن جريس).

في عصر اليوم نفسه، ولأن ابن سعود قد رحل ودون أن يلوح عمل أو نشاط آخر في الأفق رحت في سبات القيلولة مبكراً عما هو معتاد، ونمت حتى وقت متأخر من العصر، عندما جاء محمد بن شلهوب ليخبرني أنه بعدما أتى ليأخذني إلى مجلس تركي بعد صلاة الظهر فوراً وجدني نائماً فتركني وحالي. ورداً على احتجاجي بأن جميع جهودي لرؤية شيء ما من المجتمع في المكان قد انتهت بالفشل والإحباط، فقد دعاني فوراً للفطور معه في الغد واتفق معي على أن رشيد كان قصبة مكسورة. لقد كان بالتأكيد يملك أرق وأكرم القلوب مع روح الدعابة التامة. وقال: «لابد أن تتغاضى عن البساطة الريفية الجلفة لأهل بيتي، لأنك، لو تعرف الحقيقة أن زوجتي، على الرغم من شدة جمالها فهي امرأة سليطة فظيعة وشديدة النكد معي لدرجة أنني ليومين لم أقربها». هذه المرأة التي كانت أرملة أو ربما زوجة مطلقة من أحد أفراد عائلة ابن شريدة الشهيرة، يحتمل أنها قد عُرضت على ابن سعود، الذي على أي حال تجاوز عنها لصاحب خزانته ولم يكن إلا الخوف من الإساءة إلى سيده هو الذي يمنع الأخير في هذا الوقت من التخلص منها. وعلاوة على ذلك فقد أنجبت له ولداً ما يزال رضيعاً، ولكن ابن شلهوب البائس قد تحمل عبء أولاد زوجها السابق، وهم ولد كبير وآخرون. هذه هي سعادتهم المنزلية أحياناً. ومع ذلك فقد اعترف أنه في مرات كثيرة عندما يكون بعيداً عن هذه السيدة، فإنه في الحقيقة يجد نفسه يفكر فيها بحب وحنان، على الرغم من أنه عندما يكون معها لا يشك أبداً أنه يكرهها. ومع ذلك فإنها تتمتع بشهرة عظيمة في طبخ المرقوق[1]، وقد دُعيت بسرور لتذوقه إن أردت.

بناءً على ذلك في الغد، عندما جاءني حمدان، رافقته إلى بيت ابن شلهوب وراء السوق الرئيسي في شارع جانبي يؤدي إلى البوابة الجنوبية الغربية. ودخلنا

---

(١) المرقوق: يصنع من دقيق البر، ويقطع إلى دوائر نصف قطرها حوالي (١٥) سم تقريباً، ثم توضع في قدر يغلي لبعض الوقت، ويضاف إليها بعض أنواع الخضراوات وربما اللحم أحياناً. (ابن جريس).

البيت من باب مصنوع من خشب الأثل الصلب المرصع بمسامير حديدية كبيرة مبرشمة ومزخرف بسلسلة مطرقة بدلاً من الحلقة المعدنية الصغيرة المعتادة في هذه المدينة. إن المطارق الصلبة في عنيزة لم تكن على ما يبدو معروفة في بريدة(١). ومجلس القهوة، على الرغم من أنه كان مؤثثاً بصورة جيدة بالسجاد والمخدات، لكنه بدا حقيراً بجدرانه العارية إلا من لياسة الطين غير المزخرفة. وكان العمود الأوسط من الحجر المكسو بالجبس الأبيض يدعم السقف، وعمود آخر مماثل مطمور في الجدار، الذي يحتمل أنه كان إضافة لاحقة لغرفة أكبر يدعمها صف من الأعمدة(٢). ومن بين الضيوف المدعوين لمقابلتي شخص يدعى سعود، كاتب صغير في زمرة الكتبة الملكيين، وعبدالله بن نصبان الذي جاء من أجل قدر كبير من المزاح الخفيف والكلام البذيء بسبب زواجه الجديد في الليلة الماضية. وقد قُدّم الفطور في صالة خارجية صغيرة وقد كان ممتازاً بحق، على الرغم من أن مرقوق السيدة كان خبيصة مخيبة للآمال من الخبز غير الناضج المتبل بالبصل المهروس والصلصة الغنية. وبالإضافة إلى ذلك هناك طبق كبير من الأرز مع لحم الضأن ولحم الغزال، ناهيك عن لحم الدجاج، والبيض المسلوق سلقاً شديداً، والباذنجان المسلوق والمقطع إلى نصفين. ولقد شعرت أن لدي ما يبرر إفادة مضيفي عندما كنت أهم بالاستئذان للانصراف أنه، مع زوجة قادرة على إعداد طعام شديد اللذة، فليس لديه بحق كثيراً مما يشتكي منه(٣). وقد ذكرت من قبل ملاحظات على ندرة الفاكهة في بريدة على الرغم من أنني شخصياً لم يكن لدي إلا القليل أشتكي منه في هذه الناحية، لأن محمد السليمان، الذي رافق ابن سعود في عودته لعنيزة والذي أخذ معه هدايا

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن النواحي العمرانية في كل من بريدة وعنيزة، انظر، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٩٧ - ٢١٨، الهويمل، ص ٥١ - ٥٨، محمد الربدي، بريدة، جـ٢، ص ١٧١ - ٢٢٦ (ابن جريس).

(٢) المراجع نفسها. (ابن جريس).

(٣) للاطلاع على معلومات أكثر من أنواع الأطعمة والأشربة في بلاد القصيم، انظر: الهويمل، ص ١٦٧ - ١٧٠، محمد السلمان، ص ١٧٠ - ١٧١، عبدالعزيز بن راشد السنيدي. الربيعية ص ١٩٣ - ١٩٨، علي المقوشي، البكيرية، ص ٤٣، عبدالله بن محمد العبيد، البدائع، ص ٩٣ - ٩٥. (ابن جريس).

معينة مني لأطفاله الصغار كان كريماً بما يكفي لإرسال صفيحتين من صفائح الكيروسين لي مملوءتين بالفاكهة من بساتين عنيزة. وبناءً على ذلك أصبح عندي تموين كامل من الخوخ، والتين، والرمان، ناهيك عن التمور لعدة أيام، ولكنها بكل المقاييس كانت نعمة مشوبة بالنقمة. فلقد بدأ الذباب يأوي إلى مسكني بأعداد موجعة، وهو من نوع ذباب الصيف النعسان الفظيع، وهذا بلاء عظيم شديد الكسل لدرجة أنه لا يفعل شيئاً إلا أن يغرق نفسه في الشاي أو حتى في ماء الشرب هذا إذا لم يزعجني في نوم القيلولة بالزحف فوق وجهي.

لقد وضع فهد بن معمر بكل كرم اسطبله تحت تصرفي، وفي عصر أحد الأيام ركبت متنزهاً على حصان رمادي جميل ومعي منور ومروج على طول طريق حائل الذي يتجه شمالاً تقريباً فوق سهل من الصخر الرملي حتى الصفراء[١]، وعبرها يمتد الطريق على طول واد ضحل باتجاه شمال غرب. ومن فوق ركام من الحجارة على أقرب نقطة في الوادي ألقيت نظرة رائعة على منطقة بريدة كلها، حيث البرج الأوسط في الحصن الكبير في الجنوب واضح تماماً، والسهل تتناثر فيه الخطوط الداكنة للواحات العديدة المنتشرة حول المدينة. ويبدو أن النفود تمتد عبر حدود الصفراء في شبه دائرة شاسعة، والمساحة المطوقة بهذا الشكل كانت سهلاً واسعاً يتكسر عند مسافات فاصلة بجبال رملية ذات ارتفاع منخفض ومن الرمل الأشد بياضاً من النفود نفسها. وبالنسبة للبقية فالسطح مكوّن جزئياً من الحبيبات الخشنة على جهة الصفراء وأحياناً من الطين. وتتدفق المياه المنصرفة من منطقة الصفراء نازلة على طريق حائل وفي القنوات الأخرى نحو الجنوب لتسقي الزراعة في المنطقة[٢]. وأفضل نظرة عامة عليها يمكن الحصول عليها من هذه النقطة على

(١) تتكون الصفراء من سلسلة من السهوب (سنبس) تبدأ من الأجراف المميزة من الأجزاء الغربية وتتجه منحدرة نحو الشرق. وكانت ثلاثة من هذه السهوب ترى من النقطة التي أنظر منها. (فيلبي).

(١) للحصول على معلومات أوسع عن جغرافية بريدة، انظر: محمد الربدي، جـ١، ص ٢١ - ٥٥ (ابن جريس).

طريق حائل، على الرغم من أن منظر المدينة وما يحيط بها مباشرة من برج المراقبة على أول جبل في النفود ربما كان أشد جاذبية وجمالاً، ويمكن أيضاً الحصول على نظرة جيدة من نقاط مختلفة على جبل وهطان (الذي أخذ اسمه من بقعة نخيل كبرى وقرية متهدمة قريبة منه) نحو الشرق. وهناك جبل رملي منخفض يفصل هذه الواحة الصغيرة عن الأخرى التالية نحو الشرق وتسمى الخضيراء، وهي قرية صغيرة وبستان جميل من النخيل. ووراء ذلك جبل رملي آخر عليه برج حراسة[١] يشرف على المنطقة المحيطة به، ويخفي واحة صغيرة تسمى خب القبر[٢]. وإلى الشمال من المدينة على مسافة غير بعيدة يقع حقل أطلال الشماس الذي يشتهر بأنه الموقع الأصلي لقرية بريدة الأولى[٣]. وتبدو آثارها ذات تاريخ حديث نسبياً، وهي مجرد تلال من الطين المتهدم مع بقايا من بناء حجري. وقد بحثت بقدر ما استطعت، حتى بمساعدة غير مجدية من منور ومروج، اللذين بذلا أعمالاً بطولية فذة في الحفر بمجهود غير ناجح لاستخراج جربوع من جحره، لكنني لم أتمكن من العثور على أقل أثر يثير الاهتمام إلا عدد من القواقع البرية وشظية واحدة من فخار خشن. نحو الغرب منها تحت حافة النفود تقع أرض نخيل مطرحي وعبر الشماس ومروراً ببرج حراستها المهدم، يمتد الطريق حتى القصيبة (القصيباء) والقرى الأخرى في شمال غرب القصيم[٤].

(١) البرج الأوسط في الحصن كان للشمال قليلاً من الغرب (فيلبي).

(٢) هناك بساتين نخيل أخرى أو قرى في هذه المنطقة ذكرت أسماؤها لي، وهي: العكيرشة، والسُمير والرفيعة (فيلبي).

(٣) الشماسي: كان قرية قديمة، يقال إنها أقدم بلدان القصيم عمراناً، حتى قيل إنها كانت أكبر من بريدة. وكانت إمارة الشماسي لجماعة من الوداعين من الدواسر، من ذرية شماسي بن سابق، وكان مرتب الشماس معروفاً إلى عهد قريب. وللشماسي ذكر في التاريخ منذ القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي). الهويمل، بريدة، ص ٥٣. (ابن جريس).

(٤) للمزيد عن الأحياء السكنية في بريدة، انظر: محمد الربدي، جـ٢، ص ١٦٧، وما بعدها، الهويمل، ص ٥١ – ٥٧. (ابن جريس).

عاد ابن سعود من عنيزة في الثالث من سبتمبر بموكبه المهيب من خمسة وعشرين فارساً وأربعة وأربعين من راكبي الإبل محمولين على اثنتين وعشرين جملاً. وفي أول يوم نزل فيه ضيفاً على الأمير السابق العجوز عبد العزيز، والثاني على صالح الفضل، والثالث والأخير في بيت محمد بن سليمان الشبيلي، وهو تاجر ثري له أملاك هائلة جداً في البصرة[1]. وهكذا بعدما وزع فضائله بالتساوي بين كبار عائلات عنيزة، رجع إلى المدينة المنافسة لها بعزم واع واضح على مواجهة الحملة العسكرية التي تقترب بسرعة. ولقد وجدته نكداً دائم الشكوى نوعاً ما، فقد كان يأمل في تحسن كبير بالمواقف في الشرق نتيجة عودة السير بيرسي كوكس (Sir Percy Cox) للعراق، ولكن، بصرف النظر عن التعديل الطفيف جداً ولكنه مقبول في ترتيبات حصار الكويت[2]، لم يُبذل أي مجهود لحل خيوط ورطة العجمان المتشابكة، وقد كان من الواضح أن سلطات البصرة بصورة عامة غير متفقة معي بشأن الرغبة في استرضاء ابن سعود. ولقد قام الآن بتقديم المهيب فيصل الدويش نفسه ليشرح الأثر على رفاقه من رجال القبائل الناتج من منع مطير من الانهماك في حملات عسكرية مضادة، على الرغم من أنه اعترف بأنهم أحياناً لا يأبهون بالحظر مثلما فعلت بريح مؤخراً في الرقعي، حيث استولت على أربعين جملاً محملاً بالقهوة، والأرز، والأسلحة في طريقها إلى حائل.

وعلاوة على ذلك، لم نكن نعرف بعد في الجزيرة العربية أن السير بيرسي كوكس قد عاد فحسب إلى بغداد في طريقه لطهران، حيث من المقرر أن يتولى منصب

(١) عن الأوضاع التجارية في القصيم وصلاتها مع بلاد الطرق والشام، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٤٥ وما بعدها، عبدالفتاح أبو علية، الدولة السعودية الثانية، ص ٢٧٣، سيد بكر، ص ١٨، عبدالرحمن السويداء، نجد في الأمس القريب، ص ١٢١. (ابن جريس).

(٢) عن الصلات السياسية بين ابن سعود والكويت أثناء زيارة فيلبي للقصيم (١٣٣٦هـ/١٩١٨م)، انظر: حافظ وهبة، ص ٨٧، خزعل، جـ٣، ص ١١٦، جـ٤، ص ١٨٦ وما بعدها، الخترش، ص ٩١ – ٩٢، جمال زكريا قاسم، ص ٥٠، السعدون، ص ١٩٦ وما بعدها، Philby, The heart of Arabia (Londnon, 1922) Vol. (2) p. 104 (ابن جريس).

الوزير البريطاني هناك. ولم يكن بوسعي غير أن ألح على ابن سعود بأن الاستيلاء على حائل هو الحل الوحيد لمشاكله، وقد كان واعياً بشكل كاف بهذه الحقيقة حتى إنه حدد تاريخاً لحشد قواته في بريدة. وهو في الأصل قد حدد المذنب كمركز للحشد، وكان على تركي أن يذهب إلى هناك في الوقت الملائم ليحضر القوة التي سوف يرافقها ابن سعود في المراحل الابتدائية فقط، بيد أنه منذ ذلك الحين قد عدّل خططه وكان للهلال أو القمر الجديد للشهر القادم (ذي الحجة) أن يرى بالتأكيد افتتاح الحملة العسكرية. وعلى الرغم من أن ابن سعود بدا قلقاً قليلاً لأسباب مالية خشية أن تتجاوز مدة العمليات طاقته على استمرارها، فلقد علمت أن عندي حيزاً من حرية العمل في هذا الموضوع بما يكفي لمساعدته عندما تثبت حاجته للمساعدة[(١)].

قبل هذا بيوم أو يومين وصل رسول من ضاري بن طوالة ومعه رسائل لي. وفي البداية طرده من أمام بابي خدمي شديدو الفضول لكنه تمكن من العثور على فرصة لتقديم نفسه لي. كانت رسالة ضاري مخادعة إلى أبعد حد؛ لأنها التماس طويل بوجوب أن أستخدم نفوذي عند سلطات البصرة لاستعادة مخصصه الشهري البالغ ثلاثة آلاف ريال سعودي بدلاً من المعونة المخفضة البالغة ألف ريال سعودي التي كان يستلمها منذ أن أصدرت توصية بأنه لا ينبغي أن يستلم شيئاً على الإطلاق. ولم يبذل أي محاولة لشرح سبب تركه لموقعه في الحفر وأخذ الحيطة بإرسال رسالته باليد مع شخص أبله، اسمه حدران، لكيلا أقدر على تمحيص تفاصيل مظالمه. وقد قدمت ردي شفوياً عن طريق القناة نفسها، بيد أنني لا أعلم إذا كان لدى حدران الشجاعة على الإطلاق لإبلاغ سيده بفشل مهمته. وقد ذكرت بوضوح تام رأيي في

---

(١) ما من شك في أن بريطانيا كانت تعمل لمصالحها في جزيرة العرب، وقد وجدت الإمام عبدالعزيز آل سعود أفضل القوى، لأن بقية الحكومات الأخرى كالأشراف وابن رشيد أصبحوا غير فاعلين ولا مجدين لمصالحها وسياساتها الخارجية. (ابن جريس).

خيانة ضاري لأمانته، وأردفت أنني لا أستطيع أن أجري اتصالاً معه إلا بعد أن يستأنف وظيفته في الحفر، ويأتي شخصياً لمقابلتي. وقد توصل إليّ حدران لكيلا أسيء تقدير سيده الشهم الكريم، وناشدني بشدة أن أجعل الرسالة خطية على الأقل. كل ذلك قد ذهب سدى، ورحل مكسور الخاطر عندما رفضت التماسه الأخير بهدية صغيرة لنفسه.

كان الموقف على جبهة الحجاز في هذا الوقت هادئاً بشكل أو بآخر، على الرغم من أن آخر الأخبار تشير إلى وجود الأمير شاكر في مران ومعه حشد معاد من القوات النظامية ومساعديها البدو. وعلى كل حال، فقد خسر بشكل خطير جزءاً كبيراً من هؤلاء البدو بإصدار أوامر لجباية الزكاة إجبارياً من ابن حميدي شيخ قبيلة عتيبة الذي دفع الزكاة لابن سعود ويدين بالولاء له. وكان الأثر فورياً؛ لأن ابن حميدي استدعى أتباعه كلهم وسار معهم لينضم إلى المدافعين عن الخرمة، التي تلقت أيضاً تعزيزات كبيرة من الأودية الجنوبية. وكان العتيبي الذي وصل إلى بريدة فوراً بعد مجيئنا قد خلق شيئاً من الحساسية بالضوء الذي ألقاه على طموحات الشريف. فقال: «إذا سلمت نجد كلها له، فلن يلين، ولو تنازلت له عن كل نسائك وأطفالك ورجالك، فلن يلين بعد. إنه دينك الذي يصمم على سحقه». بالنسبة لبدوي عادي فإن ذلك تقدير دقيق بشكل مذهل للموقف، بيد أنه برغم كل شيء كان ذلك معروفاً بصورة شائعة في جزيرة العرب، حتى البقوم(١) الذين كانوا سابقاً ملتزمين بإخلاص بقضية الأشراف، قد بدؤوا يشعرون بارتياب مفاجئ من مبررات هذه الهجمات على جيرانهم العرب مثلهم، وتلقى ابن سعود معلومات حديثة أن بيتهم قد انقسم على نفسه نتيجة الاضطرابات والقلاقل في تربة. ويهتم ابن سعود في هذا الوقت بشكل جاد في الحصول مني على تحديد معقول للسياسة البريطانية في

(١) للمزيد عن قبيلة البقوم، انظر: الحقيل، كنز الأنساب، ص ٢١١ (ابن جريس).

حالة المضاعفات الناشئة عن موقف الخرمة. ولم أستطع فقط أن أقول له إن الحكومة البريطانية تبدو أنها قد قبلت رأي القاهرة بأن الخرمة تقع داخل مناطق الشريف، وفي تلك الحالة لا يستطيعون منطقياً أن يعترضوا على أي عمل قد يتخذه الأخير لتأسيس سلطانه هناك، بل أردفت بالقول إنني قدمت آراء إضافية بهدف إعادة النظر في المسألة برمتها. ولقد كان صريحاً تماماً معي وحذرني من أنه لا يستطيع ولن يقبل أي مسؤولية عن أية عمل قد ينفذه أهل الخرمة في حالة تجدد الهجوم عليهم(١).

مهما كانت هذه الأمور فإن الاستعدادات الآن تسير قدماً للزحف ضد حائل، الأمر الذي ظل سراً دفيناً بشكل مقبول؛ لأنه ـ على الرغم من أن كل واحد يعلم بصورة غامضة ما هو آت ـ فحتى تركي لم يكن لديه معرفة دقيقة بخطط والده إلا في الخامس من سبتمبر، عندما صدرت أوامر بإحضار الإبل الملكية من الطرفية حيث كانت ترعى. في ذلك المساء وبينما كنت أجلس على جبل الرمل الغربي مع منور رأينا عدداً من الفرسان يتدربون على مناورات الحرب، وكان أحدهم ـ بعدما لاحظنا ـ قد جاء وانضم إلينا بعد انتهائه من المقارعة بالسيوف. هذا اسمه سليمان، المعروف أكثر بلقبه راعي القودة وهو عبدٌ طوقت شهرته كمحارب الآفاق في مناطق الصحراء كلها والذي صار اسمه مرعباً للبدو. ففي معارك مختلفة قد قتل تسعة خيول تحته، ومن الواضح من طريقته الحماسية أنه يتطلع إلى فرص جديدة للتميز. ولكن لماذا لم تغلق بوابات بريدة حتى الآن؟ سأل كل واحد الآخر، ففي العادة لمدة ثلاثة أيام قبل بدء الغزو تظل البوابات مغلقة خشية أن ينطلق الخونة من الداخل بأخبار العمليات القادمة. وخلال هذه المدة كان أي شخص يوجد كامناً بصورة مريبة في المنطقة المجاورة للمدينة يُقبض عليه، وذات مرة منذ سنة أو سنتين مضت

(١) لمزيد من التفصيلات عن الصراعات بين ابن سعود والشريف على منطقة تربة والخرمة وما حولها، انظر: العثيمين، جـ٢، ص ١٨١ وما بعدها. (ابن جريس).

تحدثوا عن جاسوس من حائل قد ركب فعلاً في قوم ابن سعود مباشرة خلال السير الليلي، بعدما فشل على ما يبدو في رؤية «عمود النار» أو الفانوس المقنع الذي يحل محل البيرق بعد الظلام، الذي كان يسير أمامه. ولم ينكشف السر إلا في الثامن من سبتمبر حيث كل شيء جاهز للجيش لينطلق في الغد[١]. وقد وجدت البوابات الفرعية مغلقة ومسمرة، بينما كانت البوابات الرئيسة تحت الحراسة.

من تلك اللحظة لم يكن مسموحاً لأي شخص غير مصرح له بأن يغادر المدينة، ولكن من المؤكد أن الأمر لم يكن ليحتاج إلا لقليل من الذكاء والفطنة لدى العدو ليدرك الحالة السائدة؛ فالعناصر المختلفة من الإخوان مخيمة في جميع أنحاء القصيم في أخباب[٢] متنوعة للتقليل من صعوبات الرعي والسقيا. وعلى الرغم من أن ابن سعود كان عنده رجال منتشرون في كافة أرجاء المنطقة يوثقون بالحبال ويحضرون المتخلفين أو الأشخاص المريبين، إلا أنني شعرت أن ابن رشيد وشمر بشكل عام قد تلقت تحذيراً تاماً من العاصفة التي توشك أن تنفجر فيهم[٣].

خلال هذه الأيام القلائل ومنذ أول مقابلة معه، كنت أرى راعي القودة كثيراً، الذي تطوع بتدريب حصان صغير قدمه لي ابن سعود مؤخراً. وقد وجدته شخصاً فذاً تماماً وغرامه بالخيول لا يسبقه إلا غرامه بالقتال. وقد بدأ حياته، بقدر ما تعي ذاكرته، في خدمة شيخ ما من حرب، وانتقل بالأسر في غزوة، إلى الخدمة في عتيبة، ومنها جاء على سبيل الهدية ليبقى في ملكية ابن سعود. ويبدو أنه خال تماماً

(١) تكتم الإمام عبدالعزيز بن سعود في بريدة على تجهيزاته واستعداداته لحرب ابن رشيد (١٣٣٦هـ/١٩١٨م) ليست إلاّ جزءاً من سياسته في خوض الحروب ضد أعدائه، وهذا الأسلوب مستخدم قديماً وحديثاً في ميادين الحروب العسكرية. (ابن جريس).

(٢) أخباب: ومفردها خب، وقد يصغر خب إلى خبيب، ويقصد بها السهول، أو الأماكن الفسيحة التي تحيط بالقرى والمنازل، وأحياناً تستخدم لرعي البهائم، وقد يجلب منها الحطب أو الطين أو الرمل وما شابهه أثناء تشييد المنازل وتعميرها. (ابن حريس).

(٣) لمزيد من الإيضاح عن قبيلة شمر، انظر: الحقيل، كنز الأنساب، ص ١٦٧ وما بعدها. (ابن جريس).

من الذكاء، إلا في مسألة الخيول والحرب، التي كان فيها عبقرياً، وقد زاد من بطء فهمه إصابته بالصمم الجزئي، ومعرفته باللغة العربية ناقصة أيضاً. وعلى الرغم من ذلك فهو أول من بارك لي اختياري من ثلاثة خيول جيء بها من الأحساء بأوامر ابن سعود لمنفعتي، وقد أكد لي أنني قد ضمنت أفضل حيوان يمكن أن يوجد في الجزيرة العربية. وفي الحقيقة كانت ضرورة الاختيار قد أصابتني بالحيرة قليلاً. فلم يكن هناك شك محتمل بشأن أيهم الأفضل من بين الحيوانات الثلاثة، بيد أنه تصادف ألا يكون إلا حولياً، أظن أن عمره خمسة عشر شهراً بالضبط في هذا الوقت(١)، وبالتالي ليس ذا فائدة لي في أغراض الركوب. أما الآخران فكبيران في السن، وقد اخترت الأفضل والأقل نفعاً من الثلاثة على أمل أن يكون عندي عذر مقبول لتركه عندما أضطر للرحيل.

وفي الوقت نفسه كان راعي القودة يدربه فيما أحب بحماسة وقوة مفرطة بالنظر إلى سنه الغض، وفي النهاية تبعني هذا الحيوان إلى البصرة، حيث دخل هناك في وظيفة متقلبة كثيراً إلى أن اقتربت من وظيفتي أنا ذات التقلبات المتكررة القدر نفسه. وانتهى ذلك في الأردن خلال (١٩٢٤م) حيث أجبرتني الظروف على بيعه بمصر ليبقى في الخدمة الإلزامية، وهناك وقع في أفضل الأيادي(٢)، وعندما رأيته مرة أخرى في (١٩٢٧م) على مضمار السباق في الإسكندرية، وهي أول مرة على الإطلاق أراه في السباق، وهو على الأرجح الأخير في حياته المهنية، سمعت مرة أخرى كلمات راعي القودة، ولكن هذه المرة من شفاه أوروبية حيث سمعته يُثني عليه بعبارات أذهلتني تماماً. فقد قيل: إنه أفضل حصان عربي أتى إلى مصر. فقد كان

(١) لمزيد من المعلومات عن الخيول العربية وأنواعها وأوصافها انظر: شير باتوف وآخرون. الخيل العربية الأصيلة مراجعة وتحرير عوض عطا البادي (الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، ص ١٧ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) هو السيد/آية. إل. بناشي (Benachi)، المالك المعروف لخيول السباق في الإسكندرية (فيلبي).

على رأس الطبقة الأولى من فئته لثلاثة مواسم، وعلى الرغم من الليونة في إحدى رجليه التي سببت له إعاقة خطيرة وأثرت بالتأكيد على تدريبه، إلا أن سجله كان طيباً في السباق الحقيقي[1]. لقد كان بحق حيواناً جميلاً ويستحق تماماً المعاملة الفخمة التي يلقاها في كبر سنه. وقد قضى شهور صباه أيضاً في ترف؛ لأنه عندما جاء إليّ لم يكن قد ذاق أبداً الشعير، الطعام المعتاد للخيول في الجزيرة العربية. إنه بحق، كما قال لي الرجل العجوز الذي جلبه للقصيم، يتغذى تماماً على لبن النوق والتمور. وقد بدأ يقضم برفق التبن والبرسيم. وفي البداية سمي مرزوق، ثم أعيد تسميته في بلاد الرافدين على لونه، الرمادي المنقط بنقط ضاربة للحمرة، وحتى نهاية عمره ظل يحمل اسماً رومانياً (وأحياناً يكتب خطأ بطرق أخرى).

كانت تجارة الخيول العربية في الوقت الحاضر طبقاً لما قاله ابن سعود تشهد بالتأكيد فترة من الضعف والتدهور، وهناك قليل من بصيص الأمل في معافاتها. هذا الوضع يعود أصله إلى النقص الشديد في عدد الخيول المتوفرة في الجزيرة العربية خلال عهد الفوضى الذي سبق جلوس ابن سعود على عرش أسلافه، وخلال الحرب التي رافقت تأسيس سلطانه. فقد قتل عدداً كبيراً منها خلال هذه العهود المضطربة، والطلب المحلي استوعب كل الناتج من الجياد المولدة. هذه العملية يحتمل أن تكون قد أجبرت تجار الخيول في بومباي على البحث عن مكان آخر للوفاء بطلباتهم، ولبعض السنوات الآن لم تكن الأسعار التي يمكن الحصول عليها في السوق الهندي بتلك التي تشجع على التصدير. وعلى كل حال لم يربح ابن سعود إلا ألف ريال سعودي من عشرة خيول أرسلها حديثاً إلى بومباي، وهو يميل إلى الاعتقاد

---

(١) بالإضافة إلى ستة من السباقات التي ربحها في بلاد الرافدين بين (١٩١٩م) و(١٩٢٣م) فلقد كان سجله المصري كما يلي: «٢٦ سباقاً حاز على الترتيب الأول تسع مرات وعلى الثاني ثلاث مرات وعلى الثالث أربع مرات وورد في مقال بجريدة إيجبشيان جازيت (Egyptian Gazette) يوم (٢٦) يناير (١٩٢٨م) الفقرة التالية: «كم من النوع القديم الممتاز مثل روماني أو أمير تقدم نفسها للبيع هنا؟ والإجابة هي فرصة واحدة لا تتكرر». فيلبي.

بأنها لا تكاد تستحق العناء المبذول في سبيلها بحيث لا يهتم بها بعد ذلك. إن ناقوس الخطر على تربية الخيول في الجزيرة العربية ربما يكون قد قرع بحق مع قدوم البنادق والسيارات ذات السرعة العالية، وربما يظل الاحتفاظ بجياد الاستيلاد كهواية فقط للأثرياء؛ لأنه في الجزيرة العربية ـ مثلما في إنجلترا وأماكن أخرى ـ نادراً ما يحد نقصان المنفعة العملية للخيول من شعبيتها في ميادين السباق الوطنية. والهدف دائماً، كما يقولون أن «يلعبوا» عندما يركبون خيولهم للتنزه في فترات العصر[١]، وكنت أحياناً أنضم إلى تركي الشاب ورفاقه في لهوهم هذا، الذي يتكون بصورة أساسية من تمارين العدو. ويزعم تركي أن عنده أسرع حيوان في هذه البقاع، فرس رائعة من سلالة وذنة كحيلة، بيد أن سلمان العرافة لم يكن بعيداً عن ذلك بحصان ذي لون كستنائي (بني أحمر)، الذي ربح مؤخراً سباقاً طويل المدى الذي لم تنافس فيه الفرس وذنة.

وفي إحدى هذه المناسبات عندما رأيت فيصل بن رشيد راكباً بركاب شديد الصغر لدرجة أنه بدا من المستحيل له أن ينزع قدميه منه في حالة السقوط. عُرض عليّ مُهرٌ حولي، أيضاً من أصل وذنة، الذي كان يتوقع أن يصبح ممتازاً بشكل فائق. إن مقارعة الفرسان بالسيوف في هذه الأمسيات، التي شارك فيها حتى فيصل وفهد اللذين يبلغان ربما اثنتي عشرة أو ثلاثة عشرة من العمر في هذا الوقت وهما مخلوقان بهيا الطلعة. وتستمر المقارعة بصورة عامة نصف ساعة أو أكثر وتنتهي بجلسة خارجية حتى صلاة المغرب التي قبلها كنت أحرص دائماً على الاستئذان والمغادرة. كان الماء هو الشيء المرطب الوحيد الذي يقدم لهم، ولاحظت ذات مرة عندما دُعيت لتناول بعضه، أن الخادم يقدم لسعود الصغير وآخرين قبل أن يأتي إليّ. وكنت أظن أن ذلك سببه أن

(١) للمزيد عن أوضاع الخيل العربية في الجزيرة العربية منذ العصر الجاهلي وعبر العصور الإسلامية المختلفة، انظر: جواد علي، المفصل، جـ٧، ص ١١٥ - ١١٦، شيرباتوف، الخيل العربية الأصيلة، ص ٢٢ وما بعدها. (ابن جريس).

يتفادى الآخرون الشرب من كوب لوثته شفتاي على أنني في هذا كنت مخطئاً تماماً؛ لأن الكوب نفسه استمر في دورته بعدما أتى إليّ[١]. إن «اللعب» بالخيول في الجزيرة العربية يصل إلى ذروته في صيد الغزلان بالكلاب السلوقي إذ هي رياضة جميلة. والصيد بالصقور مشهور بالطبع لكنني لم أر منه إلا قليلاً ـ إن رأيت شيئاً على الإطلاق ـ على الرغم من أنه في مناطق حدود بلاد الرافدين ينهمكون فيها بشدة. وصيد الأرانب البرية بكلاب السلوقي بالطبع رياضة شائعة في البلاد[٢].

بالإضافة إلى تدهور تربية الخيول كان الموقف الاقتصادي العام موضوع نقاش دائم بين مضيفي وبيني، فبالرغم من كل المظاهر لم تكن القصيم بكل المقاييس تكفي نفسها. وفي سنة عادية كان هناك طلب على استيراد التمور من الأحساء لتكمل النقص في إنتاج عنيزة، الذي لا يفي باحتياجات السكان في المدينة والبدو الذين يعتمدون عليها. وينطبق الشيء نفسه على بريدة، وفي الرياض استدعى الموقف فرض قواعد خاصة، فالبدو مسموح لهم بأن يشتروا التمور الطازجة هناك دونما قيد خلال الشهر الأول من الموسم، وبعده يمنع بيع الرطب لهم لتسهيل تخزين مؤن الشتاء، وكان السوق على كل حالٍ، يُفتح مرة أخرى للقبائل قرب انتهاء الموسم[٣].

إن القصيم ـ مثل المناطق الأخرى في نجد ـ تدفع الزكاة المعتادة للخزينة المركزية، ولكن بكل المقاييس في الوقت الذي عنه أكتب، لم تكن الإدارة في المنطقة قد أعادت امتصاص الإيراد كله بشكل عملي؛ فمعظم نفقات الدولة تحسب للصدقات، والهدايا، والمعونات للجميع، والنثريات المختلفة طبقاً لجدول محدد

---

(١) كان فيلبي يدرك أن كثيراً من الناس في جزيرة العرب ينظرون إليه على أنه غير مسلم، وبالتالي يتحاشون الجلوس والحديث معه، وهذا ما كرر الإشارة إليه في كتابه هذا وبعض كتبه ودراساته الأخرى. (ابن جريس).

(٢) ممارسة مهنة الصيد من الرياضات المحببة عند سكان الجزيرة العربية منذ القدم، ولا تزال تمارس حتى اليوم لكن بطرق أكثر إشرافاً وتنظيماً من مؤسسات الحكومة. (ابن جريس).

(٣) للمزيد عن النشاط التجاري في كل من بريدة وعنيزة خلال القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)،، انظر: محمد الريدي، بريدة، جـ٢، ص ٣٣٨ – ٣٤٦، الهويمل، ص ١٢٥ – ١٢٨. (ابن جريس).

ولتكلفة المؤسسة الدينية من القضاة، والنواب، والمؤذنين ... إلخ. ويعتقد ابن سعود أنه باستثناء ما يرد من الأحساء والموانئ البحرية، ما لا يقل عن سبعين بالمائة من إجمالي إيرادات نجد نفسها، من القصيم حتى وادي الدواسر، كان يعاد امتصاصه بهذا الشكل، ولا يبقى إلا ثلاثين بالمائة فقط، التي قد يكون من الصعب تقدير مبلغها الإجمالي، للأغراض العامة.

في هذا الوقت تعد أسعار الضروريات العادية للحياة منخفضة في القصيم، التي كانت في الماضي تقوم بتجارة ترانزيت مزدهرة مع حائل، والتي يدخل الآن زبائنها القدامى من شمر أسواقها وهم يُعرّضون أنفسهم للخطر. وفي حائل من ناحية أخرى كان كل شيء يباع بأسعار الندرة على الرغم من تهريب البضائع المتكرر من العراق، فالأرز ـ على سبيل المثال ـ يباع منه كل أربع صاعات بمبلغ جنيه واحد مقابل صاعين ونصف للريال في بريدة. وكان عدوان بن رمال[1] الذي زار ابن سعود مؤخراً قد جلب معه كهدايا فرس جميلة وذلول لم تقبل، قد توسل بغير جدوى للسماح له بأن يأخذ معه فقط ما يكفي لأسرته شخصياً من بضائع الأقمشة والمواد الغذائية. لم يكن لابن سعود لجميع مثل هذه الطلبات إلا إجابة واحدة: «ما دمتم باقون في الشمال فلن تملكوا شيئاً أستطيع أن أمنعه عنكم، ولكن انزلوا إلى مروى بوشوك ومن هناك إلى طوال مطير وسوف تكونون مثلنا». وهناك شيخ آخر من شمر، ابن عجيل، قد تمكن مؤخراً من الهرب بمائتي حمل من الشنافية واستمر عملاء شمر في تهريب البضائع إلى الخارج في أماكن التقاء بالصحراء ومن هناك تؤخذ وترسل إلى حائل. بيد أن ابن معمر كان له أو يقال أن له، جواسيسه في حائل نفسها، والمهربون النجديون الذين يقومون بعمل تجاري هناك كانوا عرضة لعقوبة سريعة بمصادرة ممتلكاتهم في الداخل.

---

(١) كان من فخذ الغفالة من سنجارة ويرافقه أولاد عمه، شاتي وسالم أبناء فهد بن رمال، ونايف بن محيرة بن رمال. والآخرون الذين كانوا في صحبته هم: شليعان بن مصلح من عقني وخشارة بن سعدي من فخذ الخرصة من جريع، ومياح بن فالح بن شلقان، وصلبي بن مترل،، وهذا هذال بن خيمة من آل جعفر. (فيلبي).

إن الفرق العظيم بين المدينتين الكبيرتين في القصيم كان دائماً يتمثل لي في أنه بينما أن مواطني عنيزة ومثلهم أيضاً في شقراء كانوا رجال أعمال مغامرين بمشاريع تجارية على نطاق واسع بينما أن كبرى العائلات في بريدة هم فقط جمالون بالمهنة. والسابقون، المعتادون على التجارة مع المراكز التجارية الكبرى مثل: بغداد والبصرة، والعمارة والكويت، والبحرين وبومباي، على اتصال دائم بالعالم العظيم، في حين كان الأخيرون ينتقلون فقط بين مدن الداخل والساحل مجرد حمالين للبضائع ولم يتصلوا إلا بأطراف الحضارة، يعربدون في رذائلها ومباهجها لأسابيع قصيرة قليلة في كل مرة ويلعنونها في موطنهم خشية أن يشك قومهم في حقيقة أمرهم.

ومع ذلك فإنهم أحياناً ما يعودون بدليل غير قابل للتجريح على احتكاكهم بأخلاق منحلة على هيئة أمراض هنا تسمى بشكل صحيح «أجنبية». ولقد كان الدكتور عبد الله دائماً مصراً على هذه النقطة، ويزعم أن جميع حالات الأمراض الجنسية يمكن أن تعزى مباشرة للساحل. وهناك حالة كان قد رآها مؤخراً وعالجها بنجاح جزئي والتي بدأت منذ خمس عشرة سنة مضت في الكويت، وصرّح بأنه في نجد لم يصادف أبداً نساءً في المدن يعانين من هذا المرض، على الرغم من أنه يعرف نساءً من البدو قد أصابهن أزواجهن بالعدوى. لقد كان يعمل بصورة متقطعة كطبيب، وعنده عدة حالات من الروماتيزم يعالجها بنفسه خلال هذه الأيام من إقامتنا المؤقتة في بريدة، والكثير من حالات العيون أيضاً، وهما أكثر الأمراض شيوعاً[1].

(١) لمزيد من التفصيلات عن الأحوال الصحية وأنواع الأمراض المنتشرة في الجزيرة العربية خلال القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، انظر: بدر بن عبدالعزيز الربيعة. تطور الخدمات الصحية في المملكة العربية السعودية خلال مائة عام. بحث منشور ضمن مؤتمر الاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة (الرياض، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، ص ٩ وما بعدها، محمد حسن مفتي. تطور الخدمات الصحية في المملكة العربية السعودية. بحث منضور ضمن مؤتمر الاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة (الرياض، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، ص ١١ وما بعدها. (ابن جريس).

مثلما في عنيزة كان ملعب أطفال بريدة في الشوارع العامة، وبقدر ما امتدت معرفتي بهم فقد كانوا خالين تماماً من الوقاحة والبذاءة الفاسدة الموجودة عند من هم أكبر سناً. فقد كانوا كقاعدة عامة يحدقون بي وهم فاغرون الفم بشكل مرعب عندما أمر بجوارهم، ولكنهم لم يُظهروا أبداً أي ميل للتحرش بي أو حتى الازدحام حولي. ونسبة كبيرة منهم دائماً بنات، وطفلات جميلات رائعات تتراوح أعمارهن بين سبع سنوات نزولاً حتى سن الرضاعة. ولم يكنّ يلبسن أكثر من ثوب واحد فضفاض باللون القرمزي مع أو بدون الأكمام الطويلة في ملابس أمهاتهن. وكن بصورة عامة يمشين كاشفات الرأس، حيث يجمعن شعرهن في ست من الضفائر عليها شحم غزير وملطخة بالحناء. ربما يكون الشعر الطويل أفضل صفة تنال تقديراً من بين صفات الجمال الأنثوي كلها «رأسها طويلة جداً»، هكذا يقال عن النسوة اللاتي يتفوقن على أخواتهن في هذا الشأن. وعند حوالي سن السابعة أو الثامنة، عندما يبدأن في ارتداء الحجاب لأول مرة، تصنف أسعار هؤلاء البنات في الشوارع ويحجزهن مقدماً أزواجهن الراغبون فيهن أو آباء أزواجهن، مثلما قد يشتري المرء خيولاً حولية في معرض الجياد. ومن النساء الكبار أنفسهن لم ير المرء إلا قليلاً منهن في الشوارع ما عدا ثيابهن الخارجية المتسعة، على الرغم من أنه أحياناً، عند الالتفاف في زاوية أو ركن، قد يقتنص المرء لمحة خاطفة من الثوب الداخلي فهو بصورة عامة أحمر بالرغم من أنه قد يكون أسود والألوان الأكثر ندرة هي الأخضر أو غيره. وما يظهر من الجسم الجميل الهيئة الذي تحدد معالمه الثوب سرعان ما يختفي بعد سحب الخمار بالعرض. ويبدو أن للنساء، مثل الرجال، أجساماً رشيقة، صلبة ومتكاملة بصورة حسنة دون أي ميل للسمنة[1].

(١) لمزيد من المعلومات عن الحياة الاجتماعية في بريدة وغيرها من مدن القصيم وبخاصة تركيبة الأسرة، وكذلك طريقة اللباس والزينة، وغيرها من العادات المختلفة، انظر: محمد الربدي، بريدة، جـ١، ص ١١٧ - ٢٢٧، محمد السلمان، مدينة عنيزة ص ١٦٣ وما بعدها، عبدالله العبيد، البدائع، ص ٨٤ - ٩٥. (ابن جريس).

لقد تحقق فعلاً ارتقاء مهم للحركة الوهابية خلال أيامنا القليلة الأخيرة في بريدة بوصول صالح بن جبر من عائلة الرشيد، الذي أصبح ساخطاً ومستاءً من الصعوبات الملازمة للحياة في حائل[(١)]. وقد جلب معه أخباراً مؤكدة عن الوصول الآمن والإرسال اللاحق في مهمة إلى الجوف لعميل هام[(٢)] من عملاء العدو الذي قيل إنه قتل في أثناء عمليات لورانس على خط سكك حديد الحجاز[(٣)]. وأبلغنا أيضاً بأن ابن رشيد قد تلقى مؤخراً على سبيل الهدية من الأتراك خمسة وأربعين جملاً محملاً بالبضائع من دمشق، عشرون منها كانت للأقمشة، وعشرة للذخيرة والباقي محملة بمواد متفرقة، تشمل القهوة، والسكر والمال. وقد جاء صالح للقصيم مع رجل من معسكر العجيمي عند آبار حزل. ولم أكتشف ما إذا كان لاجئاً أو رسولاً. وكان العقيد ليتشمان (Colonel Leachman)، المعروف بصورة عامة في الصحراء باسم انجيمان ومتعب بن فهد[(٤)] بن هذّال، أكبر وأسن شيخ للعمارات يغيرون بهجمات متكررة على عصابات العجيمي. والأمور في بلد العدو غير مقبولة بشكل كبير لدرجة أن ابن شريم، وهو شيخ مهم في قبيلة عبدة وهو إما ابن عم وإما ابن أخ ابن عجيل نفسه، قيل إنه يفكر ملياً في الانشقاق والفرار إلى ابن سعود[(٥)].

وهناك آخرون وصلوا من حائل لاجئون أو متظاهرون باللجوء ولهم نوايا تجارية خفية، وفيهم عدد من الأشخاص الذين كانوا في دمشق منذ مدة غير بعيدة وبالتالي لديهم أو يُعتقد أن لديهم أخباراً حديثة ودقيقة عن الجبهة. وقالوا: إن الألمان قد

---

(١) للمزيد عن تاريخ بلاد حائل القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) انظر: العثيمين، تاريخ المملكة، جـ٢، ص ١١٩ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) عبدالحميد المصري (فيلبي).

(٣) لمزيد من الايضاح عن لورنس، انظر: انتوني ناتنغ وآخرون. لورنس لغز الجزيرة العربية (بيروت: مكتبة المعارف للطباعة والنشر، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ص ٢٣ وما بعدها. (ابن جريس).

(٤) توفي في عمر متقدم في يوليو (١٩٢٧م) ببغداد.. (فيلبي).

(٥) للمزيد عن عشائر وأفخاذ منطقة حائل، انظر، الحقيل، كنز الأنساب، ص ١٦٧ وما بعدها. (ابن جريس).

اتخذوا ترتيبات محسوبة لتأمين سورية من الخطر الشديد، ولكنهم ليسوا في وضع يُمكنهم من التقدم. وكان الأتراك في آخر نفس لهم عندما تقدمنا واحتللنا السلط، على أن المساعدة الألمانية التي جاءت في وقت ملائم والانسحاب غير المبرر للبريطانيين قد أنقذهم من كارثة شاملة. والوضع الاقتصادي في سوريا شديد الخطورة ينذر بمجاعة وشيكة إلا إذا توفر فيلق حوران لخدمة الأتراك. ومع ذلك فالألمان كانوا بالفعل يحولون كميات كبيرة من الحبوب من هذه المنطقة إلى أوروبا. وجمال باشا «الكبير»، كما كان يسمى، قد أخلى منصب القائد العام في سوريا ليصبح وزيراً للمالية في إسطنبول، بينما سميه، المعروف باسم «الصغير»، قد تولى القيادة مكانه، وحل الموظف التركي محل والي سوريا السابق.

كانت الصحراء بين سوريا والقصيم طبقاً لما قاله هؤلاء الناس غير آمنة بشكل شديد لدرجة أن رشيد بن ليلى، الذي ما يزال في دمشق يواجه صعوبة كبيرة في الترتيب لإرسال مئونته وبنادقه الثلاثة إلى مقصدها. والقافلة المكونة من خمسة وأربعين جملاً التي أشرنا إليها سابقاً، على الرغم من أنها مؤمنة بحق المرور من خلال اصطحاب رفاق (Rafiqs)، إلا أنها اضطرت إلى شراء مرورها في الصحراء بمبلغ يصل إلى ألف جنيه إسترليني وصندوق أو اثنين من الذخيرة[١]. وكان نوري الشعلان من الرولة[٢] يعبث ويتدلل بصورة فظيعة مع كلا الطرفين ويجمع ثروة عن طريق تمكين عملاء سوريا من المرور حتى العقبة كأنهم تابعوه الشخصيون المصرح لهم بشراء وجلب المؤن حتى الجوف بينما وجهتهم الحقيقية دمشق. والانطباع

(١) العلاقات التجارية بين بلاد الشام وأجزاء عديدة من الجزيرة العربية مثل: وسط نجد وبلاد القصيم كانت في وضع مضطرب أثناء صراعات ابن سعود مع ابن رشيد (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن قبائل الرولة ومواطنهم وعاداتهم انظر: لويس موزل. أخلاق الرولة وعاداتهم. ترجمة محمد بن سليمان السديد (الرياض: مكتبة التوبة، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م) ص ٥٦ وما بعدها، كنز الأنساب، ص ٩٢ – ١١٢. (ابن جريس).

السائد في ذلك الوقت أن منطقة نوري كانت هي المصدر الرئيس لتموين العدو قد أكده بشكل مستقل أحد سكان بريدة الأصليين هو سليمان الرشودي، الذي كان في سوريا منذ الأيام الأولى للحرب، وعاد الآن بطريق مباشر[١] في رحلة سهلة استغرقت مدة ثلاثين يوماً. ولم يكن يدري أنه بزيارتي سوف يدان بالانحراف والخروج عن العُرف الاجتماعي كما لم يجد حرجاً في قبول السجائر التي قدمتها له. وكانت هناك مؤن متكررة من حين إلى حين تتسرب إلى دمشق من حائل[٢]، على الرغم من أنه لم ير بنفسه القافلة الكبيرة المكونة من ألف جمل المشار إليها آنفاً. على أن العقبة كانت هي المصدر الأهم.

وشخص آخر تعرفت عليه مصادفة في هذه الفترة وكان من المقدّر أن يصبح رفيقي لأيام كثيرة بعد ذلك. ذلك هو حمد بن مشعان بن هذال[٣]، عنزي من العمارات، وهو قريبٌ من بعيد لكل من فهد بج (بك) وفهد الدغيم. وكانت لحيته رمادية وملامحه برونزية نتيجة التعرض للشمس قد جعلتاه يبدو أكبر مما هو فعلاً، ولكن من المؤكد أنه أقرب إلى الخمسين من الأربعين عاماً التي كان يُقر بها. وكان قد جاء إلى الرياض حيث رأيته هناك، ومعه هدية من خيول من فهد الدغيم، ولكنه صادف كارثة في طريق عودته إلى مراعي العمارة؛ ولأنه كان مسافراً مع رفيق واحد

(١) وقد وصف مراحل رحلته كما يلي: «اليوم الأول من دمشق حتى الدمير ثلاثة أيام بعد ذلك حتى الحلبة وأربعة أيام بعد ذلك حتى مط (وأرتاح ثلاثة أيام)، وثلاثة أيام بعد ذلك حتى مقر النقى وثلاثة أيام بعد ذلك حتى جديدة (ربما عرعر؟) ويومين بعد ذلك حتى مقر الغضاري (وتوقف ليوم واحد) وثلاثة أيام حتى عقيلة ابن سخيل بين حزيل وحزام الماء وثلاثة أيام أخرى حتى الحيانية (وتوقف ليوم واحد)، ثلاثة أيام عبر النفوذ حتى الشعيبة، وثلاثة أيام بعد ذلك حتى القصيبة (القصيباء)، ويومين من هناك إلى بريدة. وقد استغرقت الرحلة خمسة وثلاثين يوماً، منها ثلاثون يوماً من السير الفعلي. (فيلبي).

(٢) كان تهريب الأطعمة والأسلحة قائماً بين بعض أجزاء الجزيرة العربية وبين بلاد الشام والطرق، وبخاصة في ذروة الصراع بين ابن سعود وابن رشيد، وكذلك الأشراف في الحجاز والعجمان في شرق الجزيرة العربية. (ابن جريس).

(٣) ابن هذال: من بطن العمارات من وائل العنزية، وهو من أشهر أمراء هذا الفخذ، ونخوته (أخو تبلا)، ومشعان بن هذال من الشعراء وفرسان العمارات، ولا ندري هل حمد الذي ذكر فيلبي يقرب لمشعان هذا المشهور بفروسيته أيام الصراعات مع الترك عام (١٢٤٠هـ/١٨٢٤م).

فقد وقع في يد جماعة مغيرة من أسلم عند أو بالقرب من آبار حداقة وقد جُرو الاثنان من جميع ممتلكاتهما حتى ملابسهما.

وهذه المعاملة تعد فضيحة وعاراً عند بدو الشمال، كما قال، ولكن الآخرين من شمر ونزولاً نحو الجنوب ليس لديهم مثل هذه الوساوس. ومع ذلك رفض هؤلاء المغيرون أن يعترفوا أو يكشفوا عن هويتهم أو وجهتهم، التي يظن أنها إلى خيام الروله[1]. لجأ حمد ورفيقه وهما عرايا بائسان إلى مخيم صلبي قريب، وبمساعدة كريمة من الغجر شقا طريقهما في العودة إلى بريدة ليتجهزا من جديد.

في الزبيرة قابلا قافلة من مئة جمل ثلاثين محملة بالأقمشة والباقي بالقهوة، والأرز، والسكر ... إلخ، تحت إمرة عبد العزيز البسام، ابن أخ محمد، التاجر المشهور والأمير من دمشق وهو نفسه ابن صديق داوتي عبد الله من عنيزة، في يومهما الثاني عشر بعد خروجهما من الكويت في طريقهما إلى حائل. وقرب الحدقة رأى آثار قافلة من ثلاث مئة جمل، التي مرت منذ يوم أو يومين مضت نازلة في الاتجاه المقابل لتجلب مزيداً من المؤن. ومعها يركب شيخ العجمان، ابن منيخر، مع ابنته التي كان قد جاء ليأخذها بعد طلاقها مؤخراً من ابن رشيد.

صار حمد ـ الذي أصبح لاحقاً شخصاً ثقيلاً ـ في هذه المرحلة يتمتع بجميع المزايا الظاهرية التي تؤهله ليكون إضافة مرغوبة إلى مجموعتي الصغيرة، وسرعان ما حصلت على موافقة ابن سعود لأبقيه معي. في اليوم التالي نفسه كان من بين جماعتي، «ولكن»، قالها لي هو يأمل بلا شك في الحصول على تعويض نقدي مقابل ضياع سمعته، «لقد بدأت ألسنة بريدة بالفعل تتحرك بالقيل والقال ضدي»[2]. وقد

---

(١) للمزيد عن قبائل الرولة، انظر: لويس موزيل، أخلاق الرولة، ص ٥٠٦ وما بعدها (ابن جريس).

(٢) ربما كان حمد بن مشعان بن هذال يقع في بعض الحرج من مرافقته فيلبي، وبقائه تحت رئاسته كونه ما زال كافراً، وهذا ما كان بعض الناس في القصيم وغيرها يشعرون به تجاه من يسير مع الكافر أو النصراني ويقوم على خدمته ومساعدته. (ابن جريس).

أكدت له أنه لا يوجد سبب كاف للقلق أو الانزعاج من تلك الناحية، ولكنه ردّ بمثل عربي[1] سائر وامتنع تماماً عن طعام العشاء لدرجة أن جماعة راحت تبحث عنه قد فشلت في العثور عليه. وانضم إليّ بعد ذلك في أسفاري وجولاتي وكان دائماً متخماً بمعارف وتقاليد الصحراء الغريبة التي اكتسبها في سنوات من الترحال المستمر عبر حمض الشمالية كلها من حلب حتى المدينة. ولقد صادف أحياناً البقر الوحشي التي كان أثر سيرها، كما قال مثل أثر المواشي. وحتى عندما تمطر السماء، لم تكن تشرب؛ لأنها جازي[2] على مدار السنة مثل غزلان الصحراء على الرغم من أن الأخيرة معروف عنها ـ كما قال ـ أنها تأتي أحياناً في قطعان كبيرة حتى البحر وتشرب حتى تمتلئ بطونها، وعند ذلك تصبح مشوشة النظر تماماً ويسهل صيدها. ولقد صادف حمد أيضاً طيور النعام، وتحدث كذلك عن وجود الحمار الوحشي في الجزيرة على الرغم من أنه شديد الوحشية، حتى عندما يبقى في الأسر منذ صباه المبكر، لدرجة أنه لا يمكن استئناسه وترويضه لأغراض الركوب.

عندما كنت أتجول معه حتى قمة جبل النفود لنلقي ربما آخر نظرة على بريدة، رأينا هلال الشهر الجديد في الأفق الغربي. وفي الغد ستكون بداية التحرك الذي من أجله اجتهدت طويلاً، وكنت أعلم فعلاً أنني أنا بنفسي لن أر شيئاً منه. وعقدت مقابلة طويلة مع ابن سعود في فترة العصر، ونصحته بأنه يوجد حل واحد فقط لمصاعبه، ذلك هو الزحف الفوري ضد حائل. فقال: «حسناً، سوف ترى. هناك عشرون ألف رجل يخيم في هذه المنطقة، وكلهم يتوقون لنيل الشهادة. سوف ترى. غداً أركب». فقلت له «وأنا معك». قال ابن سعود «لا» وبعد جدال طويل صرفني بلمحة لم أستطع تجاهلها. «لقد تنازعنا كثيراً، كم هو الوقت؟»

---

(١) «إذا صرت غريب صر أديب» بمعنى إذا كنت غريباً في أرض فكن مؤدباً. ربما بهذا المثل يقترب العرب كثيراً من المثل الإنجليزي «عندما تكون في روما فتصرف كما يتصرف الرومان». (فيلبي).

(٢) يبدو أن جازي تدل على أنها «تعيش على الرطوبة الموجودة في حشائش المراعي دون اللجوء إلى الشرب الحقيقي». (فيلبي).

٥ـ رحلة الخبوب[١]

في فجر التاسع من سبتمبر (١٩١٨م)، اليوم السادس عشر من إقامتي المؤقتة في بريدة واليوم الثالث من آخر شهر من السنة الألف والثلاثمائة وست وثلاثون من عهد محمد ﷺ خرجت راية الحرب لابن سعود من بوابة المدينة صوب الشمال. هكذا سبق السيف العذل في صراع سوف يقرر مصير الجزيرة العربية ربما لجيل أو ربما لأكثر من ذلك بكثير، والذي ثار ثورة عارمة على صفحة الصحراء بالطريقة المتقطعة في الحروب العربية حتى الثالث والعشرين من ديسمبر (١٩٢٥م)، عندما كانت الراية الخضراء للبلد الوهابي قد رفرفت لأول مرة على السواري[٢] في جدة[٣]. عندئذٍ هبط السلام في النهاية بعد أمد طويل على شبه الجزيرة العظيمة التي لم تعرف السلام من بداية الزمن[٤]. على أنه في سبتمبر ١٩١٨ لا يستطيع المرء إلا أن يتوقع مشهداً لا نهاية له من الحرب دون أن يعرف ماذا يكمن وراءه. ولعشرة أشهر طوال سعيت بعزيمتي وحدي لتوجيه خطوات ابن سعود إلى هذا الطريق الرهيب. ولقد كانت المخاطر جمة، وستكون السيطرة على الجزيرة العربية هي جائزة المنتصر. بيد أن هدفي هو إحضار مطرقة أخرى، على الرغم من صغرها، لتدق على السندان الأحمر الساخن الذي فوقه كان سلام العالم يجري

---

(١) الخبوب: ومفردها الخب، وهو المكان المنخفض بين حبلين (بالحاء) من الرمل، أي بين كثيبين رمليين طويلين، وتقع مدينة بريدة ضمن هذه الخبوب التي تحيط بها من جهاتها الثلاث (الغرب - الشرق - الجنوب). وأشهر الخبوب هي: الخبوب القريبة من مدينة بريدة، والتي ذكرها فيلبي في رحلته عام (١٩١٨م)، وهي تنسب إلى البلدة، فيقال (خبوب بريدة)، إذا قصد بذلك مجموعة، أما إذا كان فقط واحداً فيقال (خب). للمزيد انظر: العبودي، بلاد القصيم، ج٣، ٨٤٥ - ٨٦٢، الربدي، بريدة، ج١، ص ٤٨ - ٤٩. (ابن جريس).

(٢) السواري: أي السفن والقوارب الكبيرة. (ابن جريس).

(٣) لمزيد من الإيضاح عن الصراعات بين الأشراف وابن سعود ثم دخول الحجاز تحت الحكم السعودي، انظر: العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ص ١٨١ وما بعدها (ابن جريس).

(٤) كانت الأوضاع السياسية في الجزيرة العربية تسودها الفوضى والاضطراب منذ خروج الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه منها. وبقيت هكذا حوالي ألف وثلاثمائة سنة حتى تم توحيدها على يد الملك عبدالعزيز الفيصل. (ابن جريس).

تشكيله في كير جـهنم؛ ولذلك ابتـهجت ابتـهاجاً عظـيماً عنـدما جاؤوني بأخـبار انطلاق الجيش.

أما ابن سـعود نفسـه سينطلق لاحقاً في اليوم نفسه ليلحقوا به في الطرفية، وذهبت لأتوسل إليـه مرة أخـرى ليسـمح لي بمرافقة الجيش، ولكن ذلك ذهب أدراج الرياح. وبكل إحسـاس بالانتصـار كنت أدحض جـميع الذرائع التي أوردها ما عـدا واحدة. إن صحبتي بالتأكيد سوف تقضي على فكرة الجهاد التي اعتمد عليها دائماً ليثير حماسة أتباعه[1]. وكان دائماً يؤكد في العلن أن وجودي في بلاطه سببه فقط الحصار ومشاكل الأشراف، وأنه ليس لي أية مصلحة خاصة في حملته العسكرية ضد ابن رشيد. وقد يقول لهم ـ مع ذلك ـ أنه قد دعاني لمرافقته لكنني رفضت على أساس أن موضوع حائل ليس من شأني. وقد يقول إنني شغوف بالرحيل ومغادرة البلد، ولكنه هو نفسـه الذي أصر على بقائي إلى أن يتم تسـوية جميع المصاعب ذات الطبيـعة السياسية. ولم أستطع أن أحكم ما إذا كان مثل هذا الغبار كافياً لتعتيم الرؤية البليدة للمتعصبين أو لا، غير أن ابن سعود قد صمم على رأيه ولم يعد يجدي الجدل. كل ما وافق عليه هو أنني أستطيع أن أنضم إليه في الطرفية أو أي مكان آخر بعد الهجوم الأول، وعلى أمل أن يكون اللقاء في حائل، ثم قررت الانصراف محتجاً على قراره.

كانت مقابلتنا تتقطع بتحويل انتباهه الذي يمليه عليّ احتياجه الدائم بوضع عنايته الشخصية لمتابعة تفاصيل الإدارة. فبناء الدولة الوهابية كله يقع على عاتقه. وكان قبل بضعة أيام قد أملى خطاباً إلى الشيخ سالم حاكم الكويت[2]، الذي وصفته

---

(١) رفض الإمام عبدالعزيز آل سعود لفيلبي بأن يذهب معه أثناء الهجوم على حائل، يدل على حنكة الملك عبدالعزيز، لأن رجاله (الأخوان) الذين كانوا يسيرون معه تحت مظلة الجهاد ضد ابن رشيد ربما تتغير مشاعرهم وتفتر عزائمهم وبخاصة إذا صار معهم فيلبي النصراني، الذي يرونه في منزلة الكافر، وبالتالي لو ذهب معهم فربما ينظرون أن الهدف من الجهاد قد سقط. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن الصلات السياسية بين ابن سعود وحاكم الكويت الشيخ سالم الصباح، انظر: السعدون، ص ١٩٦ وما بعدها، خزعل، ج٣، ص ١١٦، ج٤، ص ١٨٦ وما بعدها، حافظ وهبة، ص ٨٧ وما بعدها، الرشيد، ص ٢٤٤-٢٤٦، ديكسون، ص ٢٤٧، الخترش، ص ٩١ - ٩٤. (ابن جريس).

عندما رأيته بأنه استفزازي نوعاً ما أو على أقل تقدير ينقصه ما يدل على الرغبة الحقيقية في علاقات منسجمة. وقد أعاد النظر فيه وأعاد صياغة الرسالة، التي كانت نسختها المناسبة قد أدخلت الآن عليه ليمهرها بتوقيعه، الذي امتنع عنه إلى أن قرأت النص ووافقت عليه. بعد ذلك همس السكرتير شيئاً ما في أذنه ثم رد عليه قائلاً «دعه يدخل». بعد لحظة كان الجسم النحيل لفهد بن جلوي قد أظلم ممر المدخل مرعوباً، وأصبحت الشاهد الوحيد على مشهد غريب. ففجأة بدا ابن سعود وكأن به مساً من الشيطان. ونهض بخفة من الأرض، وفي لحظة كان يرتفع بجلال فوق ابن عمه الشاب ويضرب بضراوة على كتفيه النحيلتين بعصاه التي يستخدمها عند الركوب، ضربة بعد ضربة في غيظ لا يرحم. في البداية أصيب الولد بدوخة شديدة لدرجة أنه لم يفكر في الدفاع عن نفسه أو الهرب وبعد ذلك استفاق من غيبوبته وذهوله، والتحم مع سيده، وأطبق على رقبته بقوة ولحظة بعد ذلك كان يفر من الغرفة وهو عاجز عن ضبط نفسه يطارده ابن سعود. وقد كنت أشعر بعدم الراحة إلى أن استعاد الأخير مقعده بجواري كأن شيئاً لم يحدث، وقال لي بابتسامة إنه في هذا الصباح تجرأ الولد على ضرب واحد من (الزيجرت)[1]، وهي إهانة لن يتسامح فيها من أي أحد، وهو نفسه لا يرتكبها إلا تحت أغلظ الاستفزاز ونادراً جداً. وقد كوفئ الحرس الشخصي الملكي.

غادر ابن سعود مصحوباً بحرسه بريدة خلال العصر. وطوال اليوم كانت جماعات متفرقة من المنتشرين في غير نظام تتقاطر خارجة نحو مكان اللقاء. ونحو الغروب صعدت البرج الأوسط في القصر لأشاهدهم وهم يمضون في طريقهم عبر الصحراء إلى أن ـ جماعة بعد جماعة ـ غابوا وراء الأفق أو في الغسق. والاتجاه العام للزحف شمال / شمال / شرق. وفي الأسفل مني في الجردة كان يوجد نحو

---

(١) الزيجرات (Zigirt): كلمة اشتقها الأتراك من الكلمة الفرنسية التي تعني الأمن والحراسة (Securite)، ولا زالت تستخدم عند سكان المملكة العربية السعودية حتى الآن. (ابن جريس).

مائتي جمل ما تزال تنتظر راكبيها، وكان من المقرر أن تكون مجموعة بريدة بالمؤخرة تحت قيادة فهد بن معمر، التي سوف تنطلق عند الفجر في الغد. وخلال غياب فهد سيكون حكم المدينة في أيدي أخيه عبد الرحمن. في ذلك اليوم الذي بعده بقيت في بريدة محاولاً أن أنسى خيبة رجائي بتوافه الحديث والاستكشاف، بيد أنه كان عندي إذن من ابن سعود لقضاء وقت الانتظار في عنيزة.

بقي عبد الله أفندي متخلفاً معي وكذلك أحمد من عنيزة. والأخير غني بحكايات الصحراء، ورداً على أسئلتي أكد وجود قبيلة بدائية منها طلق العتيبي والد ناصر الذي كان من جماعتي في رحلة وادي الدواسر، وهو قد تحدث مع شكسبير في ١٩١٤، ولم يستطع حمد أن يقول ما إذا كانت فخذاً من عتيبة أو لا ولكنه وصف موطنها الأصلي بأنه المنطقة الجبلية على طول ساحل البحر، وهي منطقة تتكون جزئياً من الجبال وجزئياً من الرمل تقريباً إلى اليمين من مكة واليسار من مصر. إن شباب القبيلة رجالاً ونساءً يسيرون عراة، والنساء يتركن شعرهن الطويل ينسدل على صدورهن. وقبل الزواج ترتدي البنات رداءً يشبه كيس الدراهم الأسكتلندي يسمى مركا، يربط بحزام حول الوسط وكذلك أكواب (قبة) فوق الثديين. ولا يلبس الرجال غطاءً على الرأس. ولقد حاولت مراراً منذ تلك الأيام أن أتحقق من صدق هذه الحكاية غير أنني لم أجد أبداً أي سبب يجعلني أفكر أنها تنطبق حقيقة على أي مجتمع عربي[(١)]. وربما لم تكن إلا صدى من بعض حكايات وتجارب الرحالة في جبال النوبة[(٢)].

وقد رأى حمد بعضاً من اليزيدية الذين بينهم ـ كما قال ـ يوجد الوهابيون يضجون بالاستغفار القصير مع التعبير الأصيل عن لحظات مللهم قائلين: «أعوذ بالله

---

(١) قلة ذات اليد في الماضي، وعدم وجود الألبسة الكافية، ثم عادات وأعراف بعض السكان في الجزيرة العربية كانت تجعلهم لا يلبسون إلاّ القليل من اللباس، وبخاصة ما يستر العورة، وأحياناً قد لا توجد الملابس فيتم ستر العورة ببعض أوراق الأشجار، وبقية الجسد يكون عارياً بدون لباس. (ابن جريس).

(٢) جبل النوبة تقع في وسط غرب بلاد السودان، وتسكنها العديد من القبائل الأغريقية وربما العربية. (ابن جريس).

من الشيطان». ولقد تعرض لتجربة الجوع والعطش في الصحراء التي أدت بنا إلى الحديث عن الأعمال البطولية في التوقف عن الطعام والشراب، لقد أمضى ذات مرة سبعة أيام بلا طعام في الفصل الممطر عندما كان الماء وفيراً في كل مكان، وتحدث الدكتور عبدالله عن أحد الدواسر عبر الصحراء الشرقية من الرياض حتى الأحساء سيراً على قدميه لا يحمل قربة ماء ولا مؤناً، ولكنه اعتمد بكل ثقة على برك الأمطار ليأخذ منها الماء وعلى مقابلات البشر بالمصادفة ليأخذ منهم الطعام. وفي أقصى حالات الجوع يقوم البدو بحجامة[1] لإبلهم ويحمصون الدم في كتل ليأكلوها. وقيل: إن جماعة مغيرة من مطير عاشت خمسة عشر يوماً على لا شيء سوى دهن السنام من جمل واحد، وكان كل رجل منهم يأخذ كتلة منه بحجم قبضة اليد، لا ليأكلها ولكن ليمسح بها على فترات متقطعة شفتيه ووجهه وصدره. ودخل علينا عايض، رفيقي القحطاني في أول مرة أركب فيها إلى الرياض، ونحن جالسون نتجاذب أطراف الحديث. وقد قبل دعوتي لينضم إلينا على العشاء في تلك الليلة ولكنه فشل في الالتزام بالموعد، غير أنه في اليوم التالي عاد مع غريب الذي أصر على طبع قبلة على جبهتي، وقد تحدثنا بسرور عن تلك الرحلة الأولى وعن الصحراء الجنوبية بعدها.

جاء زائر آخر خلال تلك الأيام الأخيرة وهو محمد السليمان من عنيزة بخصوص قضية إرث التي اتفق هو والطرف الآخر على تقديمها إلى ابن سليم قاضي بريدة ليحكم فيها[2]. وقد جلب لي كمية كبيرة من الخوخ والرمان مع تقديم دعوة للإقامة معه في عنيزة عند ذهابي هناك. وكان الدكتور عبدالله مشمولاً بهذه

---

(١) مهنة الحجامة معروفة عند سكان الجزيرة العربية منذ القدم، وهي فصد بعض عروق الدم في الإنسان، أو الحيوان، ثم يُخرج الدم بطريقة يجيدها العاملون في هذه المهنة. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن تاريخ القضاء في بلاد القصيم خلال حكم الملك عبدالعزيز، انظر: عبدالله بن محمد بن عائض الزهراني. تاريخ القضاء والقضاة في العهد السعودي (١٣٤٤ - ١٤١٦هـ) (مكة المكرمة: مطابع بهادر، د. ت) ج٣، ٢ص ٢-٢٧٥. أما قاضي بريدة أثناء تواجد فيلبي بها فهو: عبدالله بن محمد بن عبدالله بن سليم ولد عام (١٢٨٥هـ/١٨٦٨م)، ثم عين قاضياً في البكيرية عام (١٣٢٢هـ/١٩٠٤م)، وأخيراً عين رئيساً لقضاة القصيم وقاضياً في بريدة عام (١٣١هـ/١٩١٢م)، وبقي في هذا المنصب حتى وفاته، انظر: الهويمل، ص ٨٠ (ابن جريس).

الدعوة التي كانت بالنسبة لي أكثر من سارة لتوفير فرصة للعيش في المدينة والتجول فيها بحرية في جميع الأوقات.

في الحادي عشر من سبتمبر انطلقنا. وكانت آخر الأخبار من الشمال أن ابن رشيد قد غادر حائل قبل بضعة أيام ليغير على قبيلة حرب[١] في النبهانية ولكنه عاد أدراجه عندما تلقى أخباراً عن نوايا ابن سعود. وقالت الشائعات: إنه لا يسانده إلا القليل؛ لأن الجزء الأكبر من شمر كان غائباً على حدود العراق، والشيوخ الوحيدون المهمون الذين كانوا في الجبل هم ابن شريم من عبده وابن رمال وابن رخيص من سنجارة[٢].

يقترب الصيف الآن بكل تأكيد من نهايته، وعلى الرغم من أن مقياس الحرارة ما يزال يبين قراءة تصل مئة وأربعة ومئة وخمسة درجة مئوية إلا أنه كان هناك بشكل عام نسيم عليل يجعل الجو منعشاً وبارداً. وقد عادت الشمس مرة أخرى لتقع في حدود نطاق قوس السداسي مما يمكنني من تسجيل قراءات الزمن وخطوط العرض. والتأخيرات المعتادة شابت انطلاقنا على الرغم من كل التأكيدات في الليلة السابقة أن الإبل جاهزة وكذا الدليل. واستيقظت عند الفجر لأسمع أن رشيد قد ذهب ليحضر الحيوانات، ولأجد أن الفطور يجري إعداده. وقد حاول محمد شلهوب أمين الخزينة أن يخفف عني ويسعدني بأخبار أنه في هذه المرة قد عُثر على دليل ممتاز يعلم كل شبر من القصيم. وبعد الفطور أعلن رشيد منتصراً أن كل شيء الآن جاهز. بيد أن حمداً قد أهملناه، فلم يكن مشهوراً بتوريد الإبل الذلول، واعترضت على اقتراح غير ملائم بأن يركب رديف واحد من الآخرين. وتلا ذلك مزيد من التأخير، وبعد مضي ساعة عُثر على المطية المطلوبة. وبعد رجاء أخير غير موفق من

(١) لمزيد من المعلومات عن قبيلة حرب وفروعها انظر، الحقل، كنز الأنساب، ص ١٥١-١٥٥. (ابن جريس).

(٢) للاطلاع على تفصيلات أكثر عن عشائر شمر ومواطنها، انظر: الحقيل، ص ١٦٧-١٨٠ (ابن جريس).

عبد الله أن نسلك الطريق المعتاد دون الخبوب فقد ركبنا في الحقيقة بعد الساعة التاسعة صباحاً مباشرة، وفي دقائق قليلة كنا خارج البوابة الشمالية. وكنت قد أصبت ببرد شديد وصداع لكنني تشجعت بصورة عنيزة المقبلة أمامنا بعد الإقامة في جو حياة بريدة القاسية والكالحة[١].

سرنا في اتجاه شمال/غرب في البداية عبر سهل متموج من الرمل الخفيف والحصباء يحده من الغرب النفود، التي يقع على طول حافتها شريط نخيل الشماسي[٢] الذي تنتشر فيه أيضاً أشجار القطن والأثل ورقع البرسيم وقليل من الأكواخ الطينية. وقد عبرنا موقع القرية القديمة، تاركين البرج عن يميننا، وبعد فترة قصيرة دخلنا منطقة النفود. كان أول الخبوب منخفضاً يمتد جنوب ـ شرق مع شمال ـ غرب ونخيل الغاف[٣] في الطرف الجنوبي منه مع الأكواخ والزراعة الثانوية مثلما يوجد في الشماسي، وهو النوع المعتاد حقيقة من قرى الخب[٤].

«ما اسم هذه البقعة؟» سألت غازي دليلنا، وهو رجل من قبيلة حرب. فأعطاني إجابة جزافية رددت عليها بسؤال آخر «أين غاف؟» فأجاب «أمامنا، على بُعد مسافة ما». «لا ـ هذه هي غاف». «من يقول ذلك؟» سألني. فقلت «الناس الذين يعيشون فيها!!». وهكذا تصادف قدوم رجلين راكبين على حمير من ناحية الأكواخ متجهين إلى الشقة فأرسلت مروجاً ليستفسر منها وجاءت إجابتهما واضحة ومدوية «غاف». وقد بدأ غازي الآن يراوغ ويتملص. هذه الخبوب كانت بقعاً ضئيلة بائسة وأسماؤها لا تهم أحداً. إن المنطقة التي يعرفها حقاً تمام المعرفة تقع بعد النبهانية، وهذه تقع تماماً خارج حدود

(١) يتضح من كلام فيلبي أنه كان سعيداً فرحاً برجوعه إلى بلدة عنيزة، وذلك ربما لسهولة الحياة فيها ويسر التعامل مع أهلها مقارنة بأهل بريدة الذين يذكر أنهم كانوا أكثر تعصباً من أهل عنيزة. (ابن جريس).

(٢) وقيل هذه البقعة واسمها أيضاً مطرفي الذي يحتمل أن يكون اسم أحد آبارها. والدليل الموجود معي حالياً سماها الجردة وربما يكون مخطئاً. (فيلبي).

(٣) الغاف: يسمى أيضاً غاف القويع. (ابن جريس).

(٤) قرى الخب. ربما أنها التي تسمى اليوم (خب القير)، وهي مجموعة مزارع بين الضاحي والخضيراء (ابن جريس).

برنامجنا الحالي. وكاد دليلنا أن يتركنا ننجرف بعيداً إلى الشمال ـ الغربي نحو الشقة، وبما أنه قد اتضح أنه ليس لديه فكرة واضحة جداً عن المسار الذي ينبغي أن نسلكه فقد استدرت جنوب ـ غرب. كانت الصفراء أو سهل الحصباء وهو أخفض سهل في قفر سارة يمتد وراء الرمال بنحو ميل عن يميننا. وعلى دربنا يوجد القويع وهو خب آخر يقع قسمه الرئيس على بُعد نصف ميل نحو الجنوب ـ الغربي. ووصلنا إلى بقعة نائية من الزراعة محاطة للوقاية من هجمات الرمل الضارية بسور من أشجار الأثل اليافعة ويحرسها قصر واحد. إن سور الأثل يعد صفة مميزة من صفات القصيم(١).

بعد هذا جئنا إلى قصر واحد وصف هزيل من أشجار الأثل يسمى ببساطة الخب، وكان بستان نخيل حويلان على بُعد ميل نحو الجنوب. وبعد مزيد من السير فوق منطقة من التلال الرملية المتناثرة وصلنا إلى واحة واسعة من بساتين النخيل ومزارع الأثل تسمى مريجسية. تقع بساتين النخيل، التي يوجد خلفها جبل رملي منخفض، مطوقة في خلجان من الرمل الملتف حولها(٢). ومع أن الساعة بلغت بالكاد الحادية عشرة صباحاً إلا أنني قررت التوقف احتجاجاً على هذا التجول بلا هدف دون دليل. وقد نصبت خيمتي أمام سجادة جميلة من البرسيم الأخضر الكثيف بجوار بستان نخيل صغير، ولكنه كثيف مع حافة سميكة من أشجار الأثل. وقد أطلقوا عليها جرّية، كانت آبارها، بعمق ست قامات وتدار بالإبل، جملان لكل بئر، وذلك لري حقل كبير من الدخن النامي حديثاً. وبالصوم ودواء الفيناستين أخضعت الصداع المؤلم للسيطرة حتى المغرب بعد يوم من البطالة.

---

(١) بناء الحصون حول المزارع لاستخدامها أثناء حراسة المزروعات تكاد تكون عادة منتشرة في عموم الجزيرة العربية. أما احاطة المزارع بالأسوار الحجرية أو الخشبية أو الطينية فهذا يعود إلى توفر مواد البناء في مناطق المزارع. فمثلاً: البلاد التي تتوفر فيها الأحجار فإنها تستخدم مادة الحجر لبناء المدرجات الزراعية، وهكذا ينطبق الأمر على استخدام الأشجار أو الأخشاب أو الطين لنفس الغرض. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن جغرافية وأحياء منطقة بريدة وما حولها، انظر: محمد الربدي، ج١، ص ٤٥-٥٥، ١٨١ وما بعدها (ابن جريس).

في الصباح التالي استبدل غازي في وظيفة الدليل بفتى غير مألوف من مريجسية، وكان يُدعى علياً ولم يكن عمره يتجاوز الخامسة عشرة، وخبرته مقيدة بحدود ضيقة، ولكن داخل هذه الحدود كان خبيراً. لقد ذهب بعيداً حتى بريدة ولكنه لم ير عنيزة أبداً. ومن جهة الغرب امتد مجاله حتى البكيرية، بيد أنه في الحقيقة لم يزر أبداً الشقة، الواضحة للرؤية بسهولة من مكاننا، أي بلده. بالنسبة له كانت مريجسية الصرة في عالم صغير، قرية تتكون ربما من خمس مئة نسمة، مدفونة في بستان نخيل. ومساهمتها البشرية في القوات الإقليمية بالمملكة الوهابية لم تتجاوز ستة أفراد، ولكن في هذا الشأن تزعم تفوقها على البصر والضراس اللتين سنزورهما خلال اليوم، وقد قدما على التوالي أربعة وثلاثة رجال، مجهزين بالطبع بالبنادق والذلول. كانت رسوم التهيئة والتجهيز بدلاً من الخدمة الفعلية تبلغ سبعين دولاراً لكل شخص، ولم تكن الخبوب تستدعي بكل المقاييس إلا في حالة الحشد العام للغزوات الكبرى. وضريبة الأرض تحسب بنسبة خمسة بالمئة من الإنتاج السنوي للنخيل. إن سكان مريجسية من أصول مختلطة، من حرب، ومطير، وشمر، وعناصر أخرى.

وبعد نصف ميل من الجرية تقع قرية حمار مكونة من بستاني نخيل وفيها خمسون نسمة للعمل فيهما. وغربها تقع حملان وهي بقعة طويلة متناثرة من النخيل وأشجار الأثل، وتأوي خمسين شخصاً في قصور قليلة. وهناك جبل عال من الرمل الناعم العميق يفصل هذا المنخفض عن منخفض النقرة وهو شريط نحيل من أشجار الأثل مع قصور قليلة. وتقع محابل على اليمين في المنخفض نفسه الذي يستمر في الاتساع شيئاً فشيئاً حتى سهل البطين الحصوي، وعريمضي على اليسار. ويبلغ سكان الخبوب الصغيرة هذه في المتوسط عشرون إلى ثلاثين نسمة.

والجبل التالي يطل على منخفض رملي واسع، وفيه تقع الضراس التي تمتد نحو ميل على طول جانبنا الأيمن وخلفها يقع جبل رملي شاهق، ربما مئة وخمسون

قدماً فوق مستوى المنخفض. وحوله على مسافات فاصلة متفاوتة تقع الحلوة والسويلمية ودئيسي وهي خبوب عادية شديدة الصغر. كان نخيل الضراس الذي تنتشر فيه قصور كثيرة كثيفاً جداً، والقرية نفسها ذات حجم معقول غير مسورة وتتكون من أكواخ الطين القذرة مع قصر واحد ذي أبراج ومظهر أفضل في وسطها، وتتفاخر بسكانها البالغ عددهم ثلاث مئة نسمة، معظمهم من التواجر، وهم فخذ من عنزة[١] تحت أمير يسمى وائل[٢]. في هذه الواحة أضفت نباتات الأترج وعرائش العنب تميزاً على الملامح المعتادة في أرض الخب.

يأتي بعد ذلك خب روضان في مسارنا، وفيه زراعة البرسيم والخضراوات الكثيفة نسبياً وبساتين مسورة في منخفض بيضاوي محاط بتلال عالية. وفيه ثلاثة أو أربعة قصور، وسكانه مئة نسمة، وقد كانت مساهمتهم العسكرية رجلاً واحداً فقط. وبعد ذلك أن مررنا على خب الدرجة حيث يتحايل عشرة أشخاص على العيش في قصر واحد على ما تجود به النخيل من ثمار زهيدة. والنخلات تتكون من أربعة قصور فيها أربعون شخصاً يزرعون البرسيم، وفي هذا الوقت يعدون لتوسعة الزراعة بغرس حاجز من أشجار الأثل حول بقعة من التربة الرملية الخفيفة[٣].

زودتنا قمة الجبل الرملي التالي بنظرة رائعة على المنطقة المحيطة بها. فعلى مسافة بعيدة في السهل نحو الغرب بعد مسطح واسع دون أي مرتفع آخر يقع تل الساق المخروطي. وبعد مسافة قليلة نحو الغرب من جهة الشمال تقع الشقة ببرجي الحراسة الاثنين اللذين يحرسان ثلاثة أو أربعة من بساتين النخيل التي تقبع في

(١) قبيلة عنزة عدنانية من أكبر القبائل العربية في وقتنا الحاضر وكذلك في العهود الماضية. ويذكر أن عنز حي من ربيعة، وهو عنز بن وائل أخو بكر بن تغلب. للمزيد انظر: الحقيل، ص ٦٢-١١٣. والتواجر، أوال التويجري يتواجدون في المجمعة وبلاد القصيم، ومنهم علماء وأدباء وقضاة. انظر: الحقيل، ص ٨٢-٨٣. (ابن جريس).

(٢) وائل: أحد البطون الرئيسة من قبائل عنزة، انظر: الحقيل، ص ٧٠ (ابن جريس).

(٣) لمزيد من المعلومات عن الزراعة والأشجار والنباتات في بريدة وما حولها، انظر: محمد الربدي، ج٢، ص ٢٧١ وما بعدها، حافظ وهبة، ص ٦١، الهويمل، ص ١٢٩. (ابن جريس).

قاعدة جرف الصفراء. ونحو الغرب منه تمتد المملحة أو بحيرة الملح الجافة، التي منها تأخذ القصيم الملح. وإلى الشمال من خط يمر غرباً من موقعنا كان المنظر مكوناً من سهل منبسط واسع من الحصى. وإلى الجنوب وجنوب / غرب كان كل ما هناك رمل، موجة بعد موجة مع واحة منسي الصغيرة وقصورها عند أقدامنا، وقرية البصر وهي أقصى واحة نحو الغرب من منطقة الخبوب الممتدة أمام بساتين نخيلها الواسعة[١].

من هنا يمر الدرب بين بستانين مسورين من بساتين منسي، حيث وجدنا بناء حوض للشرب يُعبأ من بئر، واليقطين تام بالإضافة إلى أصناف المزروعات المعتادة. ثم وصلنا البصر وتوقفنا بجوار أحد آبارها ذي الماء العذب بالقرب من مجموعة نائية من الأكواخ. بلغت الساعة التاسعة صباحاً ولم نكن على عجل، وسحر المكان وأهله أغريانا بالتخلي عن التفكير في استئناف سيرنا حتى الغد. ففي الحقيقة لم تكن لدينا خطط محددة للمستقبل، وكنت أهدف بصورة غامضة إلى زيارة البكيرية وربما حتى الخبراء والرس[٢]. على أن الأخبار التي نقلت إلينا في بُصر كانت غير ملائمة لإعداد خططي، فجماعات ابن رشيد المغيرة أصبحت منتشرة في كل اتجاه ـ كما قيل ـ وفي هذا الصباح نفسه سُلب رجلان من أهل القرية من ذلولهما في رحلة رجوعهما من البكيرية. وكنت أشك في أن الجناة ربما يكونون من عناصر قبيلة حرب[٣] التي تستغل الاضطراب الناتج عن تحرك ابن رشيد لكي تنفذ قليلاً من السلب على الطرق العامة لحسابها الخاص. وفي كلا الحالتين لم يكن عددنا كافياً لنخوض غمار الخطر في مثل هذه المجازفة، وقررت أن أسير في خط مستقيم قدر الإمكان إلى عنيزة.

(١) الربدي، ج٢، ص ٢٧١ وما بعدها، حافظ وهبة، ص ٦١، الهويمل، ص ١٢٩. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن الرس، والبكيرية، والخبراء انظر: المقوش، ص ١٧ وما بعدها، الرشيد، الرس، ص ١٥ وما بعدها، محمد الربدي، ج٢، ص ٢٨٩. (ابن جريس).

(٣) للاطلاع على معلومات أكثر عن قبيلة حرب وفروعها، انظر: الحقيل، ص ١٥١-١٥٤. (ابن جريس).

نصب معسكرنا داخل دائرة من أشجار الأثل بالقرب من البئر وهي مثل غيرها من الآبار الأخرى في الواحة يبلغ عمقها سبع قامات، وهي مبطنة بحجارة البناء ومزودة بخزان تمتد منه قنوات صغيرة من الحجارة المبنية حتى الأرض المزروعة[١]. في بساتين النخيل التي كانت أشد كثافة من أي بساتين رأيتها في هذه الأصقاع باستثناء الصباخ كان الهواء رطباً وفاتراً ومشبعاً بالامتلاء الاستوائي الذي ينعكس على المحاصيل[٢] البستانية الفخمة النامية تحت النخيل. وطول النهار كله تجد الحراس المتعبون يطلقون بنادقهم العتيقة لتخويف وطرد طيور السماء التي تنقض على المحاصيل. وما تصيبه البنادق يُجمع ليطبخ في قدور أهل البيت المقتصدين ولكنها كانت قليلة على كل حال، لأن البنادق غير صالحة بصورة عجيبة. فأحد البنادق التي رأيتها كانت سلاحاً غريباً طوله خمسة أقدام، وأخرى كانت قد اشتريت بما لا يزيد عن أربعة دولارات. ولا يوجد إلا القليل من القمح أو الشعير المزروع في الخبوب. ومنطقة زراعة القمح الرئيسة في القصيم تقع حول عين ابن فهيد وفي منطقة الأسياح، بيد أنه هنا توجد وفرة من الخضراوات والعنب والأترج مع البرسيم بطبيعة الحال[٣].

يبلغ عدد سكان البُصر نحو أربع مئة نسمة ينحدرون من عتيبة، وسبيع، والسهول[٤]، وبني خالد الذين ينتمي إليهم الأمير محمد بن محيميد. وهناك محمد

(١) يظهر لنا من شروحات فيلبي السابقة أن هناك آباراً كثيرة في بلاد القصيم غير مبطنة بالحجارة من الداخل، ولكن ملاحظاته هنا يبدو أن هناك آباراً أخرى كانت تبطن جدرانها الداخلية بالحجارة كي تمنع تساقط الأتربة في أسفلها. (ابن جريس).

(٢) ليست البنادق الوحيدة الاستخدام في حماية المزارع من الطيور والقرود وغيرها، ولكن هناك طرق أخرى عديدة مثل: إصدار أصوات من حراس المزارع كي يخيفوا هذه الطيور وما شابهها. وتكون تلك الأصوات إما مباشرة من حناجر الحراس أنفسهم، أو ببعض الحيل والأدوات المحلية المعروفة عند المزارعين. (ابن جريس).

(٣) لمزيد من المعلومات عن الأوضاع الزراعية في بريدة وعنيزة، انظر: محمد الربدي، ج٢، ص ٣٢٩، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٢٣-١٤٠. (ابن جريس).

(٤) عن قبيلة السهول، انظر: الحقيل، كنز الأنساب، ص ٢٣٣. (ابن جريس).

آخر وطول النهار كله لم أصادف رجلاً في المكان لم يكن اسمه محمداً، من القوم الفقراء في الواحة قد أصر على شرف استضافتنا؛ لأنه كان صاحب البئر الذي توقفنا بجواره. فأخذنا إلى كوخ من الطين وأجلسنا على رمل النفود الذي يشكل أرضية أصغر وأسوأ مجلس رأيته، فهو غرفة طولها نحو خمسة عشر قدماً وعرضها سبعة أقدام ذات جدران طينية خشنة وسقف من كتل النخيل غير المشذبة وعوارض من أشجار الأثل، كلها مطلية بلون أسود. وكانت قهوته سيئة جداً ولكن عدّل الوضع بتمور ممتازة، وهكذا فإن جوده محدود بقدر موارده.

وقد قضينا فترة العصر في تنزه بهيج خلال أكثر أجزاء الواحة نضارة وكثافة حتى الجبل الرملي الشاهق، وراءها ـ الذي يرتفع مثل ظهر خنزير(١) ـ إلى قمة تآكلت كثيراً بفعل الرياح، وفي الأسفل منا نحو الجنوب تقع واحة الغماس الصغيرة، وكل ما عداها كان رملاً مع الصفراء، ويشرف عليها من الخلف جبل الساق وأبراج الشقة. وعند أقدامنا توجد واحة البصر بقريتها التي تتكون ربما من (٨٠) بيتاً قرب الوسط منقسمة إلى مجموعتين قريبتين من بعضهما. هنا جلسنا وتحدثنا على قمة الجردة كما يطلقون على الجبل. وكلما مضى العصر ببطء وتثاقل بدأنا نشعر بالظمأ، وعندها انطلق عليٌّ الصغير يقفز نازلاً على المنحدر الرملي الحاد مثل جمل. فقال غازي الحربي: «هذا موسم الرطب التمور الطازجة، إنها تؤثر على أبناء بلدنا مثل ما يؤثر الربيع بوفرة لبن النوق فيه على البدو، فيجعلهم أقوياء ومسرورين». وكان غازي نفسه، كما لاحظت، يرتدي غترة الإخوان وهو في الحقيقة ابن واحد من الذين استقروا في الأرطاوية. ولقد كان رجلاً متديناً بعمق على أن روحه المقيدة بحياة القرية، تتوق توقاً شديداً للصحراء، وقد ترك له والده الحبل على الغارب

---

(١) تشبيه ارتفاع الجمل وقمته بظهر خنزير، يدل على البيئة الثقافية التي عاش فيها فيلبي، حيث توجد الخنازير ضمن ممتلكات البريطانيين وغيرهم من الأوربيين. (ابن جريس).

لينطلق حيث يشاء. ولقد كان على وشك أن يستعجل في إثر ابن سعود عندما حجزه لخدمتي أمير بريدة. وقد ثبت أنه دليل عديم الفائدة في هذه الأصقاع، ولكن في نواحٍ أخرى وجدته رفيقاً ساراً جداً، دون تعصب تماماً وفخوراً بتلك المعارف التي يملكها وعلى استعداد أن ينقلها للآخرين. وفي تلك الليلة كافحت معه في مسعى ناجح جزئياً للحصول على سجل للفروع والأفخاذ في القبيلة العظيمة التي ينتمي إليها، والتي تنتشر من الدهناء حتى الحجاز. فقال: إن بني سليم وبني عمرو يتوزعون في الغرب، وبني علي والوهوب والفريدة[1] موجودون في الشرق.

وفي البصر لا يوجد أي مظهر من مظاهر التعصب، وخلال الصباح جاء أحد القرويين، اسمه محمد مثل بقيتهم، ودخل في خيمتي وطلب سجائر على أساس أنه قد تعين دليلاً لي حتى عنيزة. وفي أثناء النهار سواء في القرية أو في البساتين وجدت الناس ودودين ومهذبين، ولقد كان ينبغي أن أتكاسل هنا أياماً إضافية إلا أنه بحلول مساء الغد تركنا البُصر بعيدة خلفنا، ربما لن تقع أبداً عليها عيناي مرة أخرى. ومنها امتد سيرنا نحو الجنوب أو نحو الشرق نسبياً من الجنوب مارين على واحة مويح الشويعر الكثيفة المسورة على بُعد حوالي ميل من بُصر. وكانت أسوارها في حالة متهدمة نسبياً، وقصورها الأربعة تأوي سكاناً من نحو أربعين نسمة. وعند طرفها البعيد توجد بقعة متناثرة من الأثل. ومن الجبل التالي نظرنا إلى أسفل على عقل القريبة منا إلى الغرب، وبها أربعة قصور، ثم هبطنا إلى الغماس التي رأيناها من قبل في المسافة الممتدة من الجبل الموجود خلف البُصر. وهذه قرية طويلة متناثرة بها عدد من بساتين النخيل المترابطة معاً ببقع من البرسيم والخضراوات. ويوجد فيها نحو اثني عشر قصراً، وسكانها حوالي مائة وعشرين شخصاً هم عائلة وأتباع عبدالله الغماس من أصل دوسري[2]. والأمير على ما يبدو بوضوح المالك

(١) ربما يطلق على هذه العشائر آل وهيب والفرايدة. للمزيد انظر، الحقيل، كنز الأنساب، ص ٧٠، ٧٣. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن قبيلة الدواسر وفروعها في الجزيرة العربية، انظر: الحقيل، كنز الأنساب، ص ٩٢-١٩٨، ٢٥٩-٢٦٠. (ابن جريس).

الوحيد للقرية. والآبار هنا فقط بعمق أربع قامات، وذلك علامة على اقترابنا من خط الوادي. من وراء امتدادها بطول ميل تقع واحة صغيرة هزيلة تسمى الصباخ، نشأت حديثاً على ما يبدو، وتأوي ثلاثين ساكناً تقريباً في ستة أكواخ طينية. هنا تركنا منطقة الخبوب بجبالها المرتفعة ومنخفضاتها العميقة خلفنا لندخل في منطقة من المنحدرات الرملية المنخفضة التي تتوفر فيها نباتات النفود الغزيرة. وهنا لأول مرة في القصيم صادفت شجرة مزدهرة زاهية من أشجار الغضا التي تكثر بشدة إلى الشرق من بريدة، واختفت تدريجياً من وسط القصيم تحت وطأة نهب الإنسان والحيوان. وكان نبات القرضة أشد وفرة هنا من أي مكان آخر في حدود تجربتي، وتبدو عليه آثار الرعي المكثف واضحة، وبالإضافة إلى هذين هناك وفرة النباتات المعتادة في الصحراء الرملية(١).

يمر الدرب المطروق بكثرة عبر منخفض شديد الملوحة يسمى النمرية، وعند طرفه البعيد صادفنا بقعة من الأثل وبئرين مهجورتين منذ أمد بعيد. والملح، الذي يمتد في شريط أبيض ناصع بوسط المنخفض، قد ثبت بوضوح أنه كثير جداً على مستوطنة ناشئة. وإلى الغرب من هذا الخط تمتد النفود بلا انقطاع حتى المنطقة المجاورة للبكيرية، حيث تتفكك إلى سهل من الرمل الأبيض تقع فيه قرى الرس، والخبراء، البدائع(٢). وكنا عند حافة منطقة صحراوية التي ربما كانت تتجول فيها الجماعات المغيرة. وقد سرنا على حذر، وأمامنا الخط الأشد سواداً لصفراء عنيزة، وهو المظهر الوحيد المريح من رتابة امتداد التلال الرملية. ثم، بعدما سرنا فيها، رأينا امرأة عجوزاً وحيدة راكبة حماراً عائدة من عنيزة إلى بيتها في الغماس. وكان

---

(١) للمزيد عن الأشجار والنباتات والمزروعات في بلاد القصيم، انظر: محمد الربدي، ج٢، ص ٣٢٩-٣٣٧. (ابن جريس).

(١) للاطلاع على معلومات أكثر عن قرى القصيم مثل: البكيرية، الرس، الخبراء وغيرها، انظرك المقوشي، البكيرية، ص ١٧ وما بعدها، عبدالله العبيد، البدائع، ص ١٩ وما بعدها، عبدالله الرشيد، الرس، ص ١٣ وما بعدها. (ابن جريس).

يبدو أنها غير قلقة من أحلام أو تصورات عن الأعداء المتربصين، ومع ذلك بعد هذا بلحظات رأيت عن يميننا منخفضاً واضحاً يشق الرمل، والذي اعتقدت أن يكون هو الوادي. وكان دليلنا، الذي أخذ سجائري بالأمس، يبدو أنه يوجهنا بعيداً نحو الشرق، وفي تلك الحالة ينبغي أن نعبر الوادي عند نقطة معروفة لي من قبل، وفي إجابة على سؤالي أنكر بعناد أن المنخفض الذي عن يميننا له أية علاقة بالوادي، على أنني كنت واثقاً بما فيه الكفاية من اتجاهاتي لأتحدى الخبير في معرفته، وتنحيت عنه جانباً ببعض الملاحظات اللاذعة عن الأدلاء عموماً وعنه خصوصاً. عند ذلك بدا أنه اعتبرها إهانة وطلب السماح له بالرحيل، الذي وافقت عليه فوراً، وعندئذٍ انزلق دون لغط كثير من موقعه الرديف خلف عايض وسار على قدميه حتى دون أن ينتظر لنخبره بأن مبلغاً جزئياً نظير خدماته الجزئية سوف يأتيه.

وهذا بالتأكيد أذهلني على أنني فهمت الأمر عندما جاءني عايض ليقول: إنه عندما استدرت نحو الغرب همس له الدليل بأنني كنت متجهاً مباشرة نحو منطقة الخطر. هذه المعلومات زادت من اهتمامي بالأفق رغم أنني واصلت السير في المنخفض الذي يُعرف باسم عدايم الفلق، ومن الواضح أنه يمثل قناة قديمة أو مجرى ماء راجع من الوادي. وكان مطوقاً بالرمل من جميع الجهات، ما عدا الجهة الجنوبية الغربية، التي يمتد فيها فرع من القناة الرئيسة. بعد دقائق قليلة عبرنا درباً يسير شرقاً وغرباً بين قرى الوادي والخبراء، ومنه نظرنا إلى أسفل على الوادي نفسه. والمبنى الوحيد لقصر ابن جبر كان الرابط بين موقعي وباقي جولاتي، وعلى مسافة بعيدة وراء القناة والرمال استطعنا بالكاد أن نرى ذُرى نخل عنيزة. وبعدما واصلنا السير على طول الدرب رأينا مزارع أقصى غرب واحة الوادي والسناجر في الصفراء خلف عنيزة. وقد سرنا عبر القناة عند هذه النقطة، حيث يوجد بها انبعاج واسع نحو الشمال بالقرب من أدغال الرويضة[1]. وسرعان ما عبرنا قناة السيل

(١) الرويضة: ربما تسمى أحياناً (الرويضية) (ابن جريس).

الحقيقية، التي كان اتجاهها العام من جنوب غرب إلى شمال شرق. من هنا كنت أستطيع أن أرى الوادي في جهة الغرب باتساع حوالي نصف ميل، ويمتد إلى الخلف لحوالي خمسة أميال حتى مجموعة من الجبال القرنفلية اللون في النفود، حيث توجد مجموعة من أشجار الأثل وبئر تسمى الحُفيرة.

عندما اقتربنا من قصر ابن جبر رأينا قطيعاً كبيراً من الإبل التي ترعى والتي قام رعاتها ـ بسبب خوفهم منا ـ بالمبادرة إلى إبعادها عن دربنا. وقد أرسلت لهم متركاً ليعيد إليهم الطمأنينة، وتوقف التشتيت والفرار المذعور. هذه هي المخاوف من هجمات مباغتة في منطقة الحدود عندما تكون الدولتان على جانبي الحدود في حالة حرب. يوجد في القصر بئر واحدة، وواصلنا السير حتى النفود بعده ومن أول قمة فيها رأينا نخيل ملقة أمامنا ونخيل عنيزة وراءها، وكانت بساتين قرى الوادي على يسارنا. بعدما تجاوزنا جويع صعدنا قمة الجبل التالي لنجد المدينة العظيمة تتباهى أمامنا، وخلال نصف ساعة كنا ندخل في بيت مضيفنا، محمد السليمان الحمدان، حيث كان من المقرر أن نقضي وقت الانتظار إلى أن يتفضل ابن سعود باستدعائنا إلى الشمال.

٦ـ الحياة في عنيزة

لقد غصت بتهور في مجتمع عنيزة، فعند وصولنا وجدت محمد يقوم بعمل القهوة لضيوف آخرين، منهم واحد من معارفي القدامى، هو فهد العقيلي أمير المذنب الذي كان كل هذا الوقت في بريدة مع ابن سعود والآن في طريق عودته لبلده[1]. وجلست بجواره ودخلنا في حديث عن الموضوعات المعتادة في هذه الأيام.

(١) للمزيد عن فهد العقيلي الذي تولى إمارة المذنب في عهد ابن رشيد، ثم في عهد ابن سعود، وأخيراً أرسل أميراً إلى بلاد عسير أثناء دخولها تحت الحكم السعودي. انظر: الغنايم، المذنب، ص ٣٥، ابن جريس، أبها حاضرة عسير (دراسة وثقافية)، ص ٦٠، للمؤلف نفسه، عسير في عصر الملك عبدالعزيز، ص ٣٧، للمؤلف نفسه. القول المكتوب في تاريخ الجنوب (عسير أنموذجاً) الرياض: مطابع العبيكان، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م –، ص ٤٣٨–٤٣٩. (ابن جريس).

فقد غادرت القوات الوهابية الطرفية قبل الفجر في اليوم السابق (١٢ سبتمبر)، وبالتالي سيكون ابن سعود بصورة عملية متأكداً من مواجهة ابن رشيد في العراء وهو في طريق عودته على عجل من المنطقة المجاورة لجبل آبان حيث ـ من المعروف الآن بصورة مؤكدة على الرغم من الحاجة إلى تفاصيل ـ أنه في الآونة الأخيرة في صراع مع ابن نامي من قبيلة حرب[١]، الذين كانوا حتى عهد قريب من رعاياه، ولكنهم الآن انقلبوا لمصلحة منافسه. وهكذا دار بنا الحديث بسرور إلى أن جاء الدكتور عبدالله، الذي تخلف ليهتم بأمر العفش وسكننا، وهو نفسه لديه فكرة طيبة جداً عن المستلزمات الأساسية للراحة وانضم إلينا. عندئذٍ استدار إلي فهد متسائلاً[١] «أنت إذن، فيلبي» «والله!! ما عرفتك، وكنت أتساءل من هذا البدوي الغريب، ولكنك كنت طبعاً مع عبدالله والآن تذكرت. سامحني». وبعد ذلك استأنفنا حديثنا عن كل الأشياء قاطبة. على الرغم من شدة التزامه الديني إلا أنه غير متعصب وأكثر استنارة مما قد توحي به كثرة أسفاره. وقد أدى فريضة الحج بمكة عام (١٩١٥م)، وهو آخر حج تحت النظام التركي، على أنه لم يواصل إلى المدينة. وبخلاف ذلك لم يخرج أبداً من وسط الجزيرة العربية، ولا حتى للكويت أو البحرين. وقد كتبت عن كرم استقباله للضيوف في حصنه بالمذنب من قبل.

وبعد الانتهاء من تناول القهوة وذهاب فهد صعدت أنا وعبد الله للغرف المخصصة لنا وهي الغرف نفسها التي سكنها ابن سعود عندما نزل مؤخراً ضيفاً على محمد. الغرفة الرئيسة أو المجلس يبلغ طولها خمسة وعشرين قدماً، وعرضها عشرة أقدام، وارتفاعها ثمانية عشر قدماً، وبها إفريز من الجبس الأبيض الخالي من الرسوم، ويتميز عند القمة بنموذج أبراج متدرجة، تصل إلى ما يقرب من ثلثي

---

(١) للمزيد عن قبائل حرب وفروعها ومواطنها، انظر: الحقيل، كنز الأنساب، ص ١٥١-١٥٤ (ابن جريس).

(٢) فهد العقيلي كان أميراً على المذنب لابن رشيد عام (١٣٠٨هـ/١٨٩٠م)، ثم تولى إمارتها لابن سعود أثناء دخولها تحت نفوذه. انظر. الغنايم، المذنب، ص ٣٥ وما بعدها. (ابن جريس).

ارتفاع الجدران. في الأخيرة يوجد الكثير من فتحات المشكاة الضحلة والقوالب البسيطة والأقواس البارزة، بينما في الجدار الغربي توجد نافذتان، بارتفاع خمسة أقدام وعرض ثلاثة أمتار، وبهما ضلف من الخشب المزخرف ولكن دون زجاج. وكان الباب من خشب الأثل العادي ذا لون أصفر ضارب للحمرة، وموقد القهوة في الركن الشمالي الغربي من الغرفة قرب المدخل مجهز من الجبس البسيط غير المزخرف، ومرفوعا فوق مستوى الأرض. والسجاجيد مفروشة على الأرضية فوق أساس من حصير كلكتا[1]، والغرفة مريحة على الرغم من عدم التهوية فيها؛ لأن النوافذ تطل على ساحة ضيقة خلفها جدار شاهق مصمت ـ وفيها تعيش مواشي الأسرة ـ بقرتان وستة من الأغنام وطيور من سلالة البنطم. وقد أضيفت لمسة إنسانية على أهل البيت بوجود اثنين من الغزلان الرائعة، كبيرتين تماماً وقرناهما منحنيان للداخل بحوالي عشرة إلى اثنتي عشرة بوصة في الطول، وهما تتمتعان بحرية الجري في البيت. وتتجولان داخلتين وخارجتين من الغرف وترقيان وتنزلان من الدرج باحثتين عن شيء تلتهمانه. ولديهما ولع بالورق والسجائر، وسرعان ما علمتاني أن أحفظ ممتلكاتي داخل صناديقي. ومع الغزلان تجري آمال بيت محمد، ولدان صغيران رائعان ذوا سحنة ودودة وبلا خجل، وكانا يأتيان على فترات متكررة ليسألاني إن كنت أود قهوة وأحياناً أخرى كثيرة، يدخلان لمجرد أن يُلقيا نظرة عليّ بكل بساطة. كان عتيق طفلاً شديد الجمال عمره ثمانية أعوام تقريباً وذا وجه نحيل بيضاوي وخصلات شعر مضفرة مثل البنات، بينما كان سُليّم ذا صفات ذكورية بكل تأكيد، ولداً صغيراً قوياً عمره خمسة أو ستة أعوام، وشعره مقصوص صغيراً وليس فيه من ملامح المظهر الحسن.

---

(١) للاطلاع على معلومات أكثر عن هيئة المنازل القديمة في عنيزة وأدوات تأثيثها، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ٢٠٣-٢١٨. (ابن جريس).

هناك بجوار الغرفة الرئيسة في جناحنا وعلى مستوى مرتفع قليلاً ما يشبه غرفة النوم المربعة، مساحتها عشرة أقدام تقريباً، ومفروشة بصورة فخمة بالسجاجيد والمخدات. وهناك أيضاً نصوص معظمها من القرآن، وإعلانات عن المنتجات الصناعية الأوروبية. وهذا شيء جدير بالملاحظة على وجه الخصوص في مثل هذه البيئة؛ لأنها صفيحتان معدنيتان تمجدان مزايا سجائر من نوع (بلايرز) قطع البحرية (Navy cut) تُزيّن الجدران. والأدوات الزجاجية الرخيصة ذات الألوان القبيحة من أصل نمساوي تُزيّن الفتحات، والرف الخشبي القذر ذا اللون الأصفر الضارب للحمرة. وبينما كنا نتعجب من محتويات هذه الغرفة نودينا للفطور[1]، الذي قُدّم في غرفة أخرى من الجناح، الذي كانت جدرانه الطينية البنية اللون خالية من الزخارف. كانت الوجبة، التي أعدتها نساء البيت، بسيطة ولكنها طيبة المذاق، أرز مع اللحم في أصناف متنوعة ولذيذة ومعها فواكه[2]. كان ذلك تغييراً ساراً لجهود بريح طباخ عبدالله وهو رجل متوسط الذكاء لا يعلم إلا قدراً يسيراً عن فنه.

بعد الفطور جاءتنا الأخبار أن الأمير العجوز المهيب ـ عبد العزيز ـ كان يتناول القهوة مع جار له وسيكون مسروراً لو رآنا. وقد ذهبنا إلى هناك واكتشفت أن مضيفنا هو إبراهيم بن حمد السُليم، الآن رجل طاعن في السن ذو ملامح اكتست بالحكمة والوقار، بيد أنه لا يعرف ولا يشك هو نفسه أن يعرف، أنه قد خُلّد في دور النذل بواسطة واحد رافقه وخانه قبل أربعين سنة. فلقد كان هو المسؤول عن قافلة الزبدة التي رافقها داوتي في طريقه إلى الحجاز؛ ولأن الزمن قد أوهن ذكريات هذه الحادثة الخالدة، فلقد بدا أنه قد نسي الحوادث الأشد فظاعة في الرحلة، التي كان

(١) يظهر أنه كان يرد إلى بلاد القصيم وغيرها من الجزيرة العربية سلع عديدة بعضها تم تصديرها من أوربا، وسلع أخرى من بلاد الهند وما جاورها. للمزيد عن الحياة التجارية في عنيزة قديماً، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٤٥-١٤٩. (ابن جريس).

(٢) للاطلاع على أنواع الأطعمة والأشربة في عنيزة خلال العقود الماضية، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٦٧ وما بعدها. (ابن جريس).

فيها شخص غير جدير بالثقة على الإطلاق، بل ويزعم أن جهوده قد أنقذت حياة خليل[١] من تهديد الشريف الغاضب الهائج، عندما تركه عند عين زيمة. في تلك الأيام كان «من الشيوخ الشباب الأقوياء في العشرين من عمره، ذا ملامح نبيلة»، ولكن «الصدأ الوهابي كان في روحه»[٢]. والآن أصبح شيخاً كبيراً، صامتاً وفقيراً، يعيش في بيت وضيع، فمجلسه في الطابق الأرضي دون لياسة الجدران المعتادة من الجص. وبمصادفة غريبة قابلته مرة أخرى في يناير ١٩٢٦، الشهر نفسه الذي مات فيه داوتي، عندما جاء مع عبد العزيز الكبير في السن بنفس طريق قوافل الزبدة القديمة إلى جدة ليقدم التهاني إلى الملك الوهابي الجديد للحجاز. ومرة أخرى تحدثنا عن خليل، ولا يعلم كلانا أنه في ذلك الوقت كان يرقد على فراش الموت، بعد نصف قرن تقريباً من المغامرة التي أوشكت أن تنهي حياته في هذا الحجاز نفسه[٣].

كان عبد العزيز مليئاً بحرارة التعاون الودود. وقال: «لقد انتهيت الآن من هذا العالم وليس عندي أي رغبة أن أرى شيئاً خارج عنيزة أو أن أهتم بهموم الدنيا». ومع ذلك فقد طلب أخباراً عن الحرب، وعندما مدحت مدينته سألني بمكر إن كنت أفضل بريدة. وبكل صراحة عبرت عن رأيي في تلك المدينة وسكانها غلاظ الأكباد، وبدا سروره بضحكة خافتة شبه مكتومة[٤]. وقد جاء الآن عبدالله، تابع الأمير، الذي كان يخدمني من قبل، بدعوة إلى بيت الحاكم، وانطلقنا معه خلال السوق المزدحم. وكانت تنهال عليّ التحايا من جميع الجهات بأدب من معارف قدماء وغرباء على

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن داوتي ورحلاته في الجزيرة العربية، انظر: روبن بدول. الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ص ٧٧-٩٠. (ابن جريس).

(٢) «الصدأ الوهابي» عبارة غير سليمة، لأن الحركة الوهابية ليست مذهباً كما يشير إليها فيلبي في معظم كتبه ودراساته، ثم إن كلمة (الصدأ) التي استخدمها كان من الأفضل أن يقول:- (أثر الدعوة الوهابية...» أما ما شابه هذا التعبير. (ابن جريس).

(٣) للمزيد من المعلومات عن داوتي، انظر: روبن بدول، المرجع السابع، ص ٧٧-٩٠. (ابن جريس).

(٤) إن الحساسية بين القبائل والمدن المتجاورة أو المتناظرة، أو المتشابهة في بعض المقومات تكاد تكون ظاهرة موجودة في معظم أجزاء الجزيرة العربية، وربما في معظم أنحاء العالم. (ابن جريس).

السواء، وتعجبت بسعادة من الفجوة العظيمة التي تبدو أنها تفصل هذه الجزيرة الصغيرة من الإنسانية عن جميع جيرانها. ولقد بدا لي أنه، بالإضافة إلى الصداقة الحميمة الأشد قوة لمواطنيها مع المدن الكبرى في العالم الخارجي، فإن الاستقلال التاريخي لعنيزة في واحتها المطوقة بالرمل كان مسؤولاً بصورة جزئية عن تعاطفها الكبير مع الغريب داخل بواباتها[١].

كان عبد الله ـ الأمير ـ في الخارج عندما وصلنا، غير أننا أخذنا مقاعدنا على المخدات المرصوصة حول الفناء المفتوح في مجلسه ننتظر قدومه. وقد حيانا بود شديد ثم انهمكنا في الحديث عن الحرب. فقال: «إن الحرب هي التي جلبت لنا هنا في الجزيرة العربية ازدهاراً كبيراً، ففي الماضي كانت الأمم الكبرى تحتفظ بالمدخرات الهائلة من الثروة لنفسها، ويتاجر بعضها مع البعض، ولكنهم الآن يصبونها دون قيد، ونحن الذين كنا فقراء من قبل ودون وسائل الراحة في الحياة، قد أصبحنا أغنياء بوفرة المال، والسلاح، وما شابه. إننا لا نهتم هنا إذا كانت الحرب سوف تستمر إلى الأبد». وواصل حديثه قائلاً «عندما مر شكسبير من هنا سألنا كيف نستطيع نحن ـ العرب ـ أن نتحمل هذه الحياة من الكفاح المستمر واضطراب الأمن[٢]. ومع ذلك قبل أن تنقضي شهور كثيرة كانت حضارتكم الأوروبية هي التي أصبحت ضحية للصراع على نطاق مرعب تماماً. فليس لدينا في النهاية إلا القليل مما نشتكي منه». وسألت ما إذا كان مقر إقامة الأمير[٣]، الذي كنا فيه ذلك الحين، هو المبنى نفسه الذي عاش فيه زامل الكبير في عهد داوتي. فقال لا، «هذا ليس من

---

(١) للمزيد عن التاريخ السياسي والحضاري لمدينة عنيزة، انظر: الشريف، منطقة عنيزة، ص ٢٧ وما بعدها، عبدالعزيز القاضي، العنيزية، ص ٢٢ وما بعدها، (١٣٨٢هـ/١٩٦١م)، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٣٧-١٧٩. (ابن جريس).

(٢) هذه المعلومات تعكس بعض الشيء ما كانت تحياه الأجيال السابقة من فقر وجوع وخوف واضطراب في الأوطان. (ابن جريس).

(٣) للمزيد عن الإمارة والأمراء في عنيزة منذ القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي)، انظر: السلمان، مدينة عنيزة، ص ٤٩-٥٩. (ابن جريس).

ملكنا ولكنه مستأجر، وقصر زامل يوجد في المجلس الكبير(ميدان السوق) ولا يستخدم الآن إلا كمستودع ومقر ضيافة عام. هذا البيت قد بُني حديثاً في تلك الأيام التي تتحدث عنها».

بعد فترة العصر الهادئة التي قضيناها في عزلة بمقر إقامتنا خرجت أنا والدكتور عبدالله متباطئين لزيارة صالح الفضل بدعوة منه. وفي طريقنا مررنا على منزل عائلة الخنيني المتهدم الآن، وهو الذي مكث فيه داوتي القدر نفسه من الزمن. وفي وقت لاحق من اليوم تعرفت على ابن صالح الخنيني، ابن أخ صديق داوتي عبدالله من الأسرة نفسها، والذي كان إخوانه صالح ومحمد. وعضو آخر من هذه الأسرة، محمد بن حمد، حفيد عبدالله قابلته أيضاً خلال اليوم وهو فتى في حوالي السابعة عشرة من عمره. لقد اشترت العائلة بساتين نخيل شاسعة في البصرة، التي صادرتها مؤخراً السلطات العسكرية البريطانية مقابل مبلغ قدره أربعون ألف ريال كموقع لمحطة طاقة كهربائية. وكان نصيب محمد آخر أخ على قيد الحياة، وبعد أن توفي في العام الماضي قد يُحجز كوديعة انتظاراً لتقديم شهادة إرث. أما علي الذي ليس لديه رغبة في السفر إلى البصرة، كان محتاراً من الإجراءات المطلوبة لضمان الإفراج عن ميراثه. ولقد تطوعت، امتناناً بكرم الضيافة وحرارة المودة التي طوقت بها في عنيزة، أن أتخذ الترتيبات اللازمة لسرعة تسوية القضية. وهكذا تشكلت حلقة أخرى في سلسلة حسن النوايا التي بدأها داوتي في بيت الخنيني الودود.

كان صالح الفضل شديد القلق على ولده وابن أخيه في مكة، اللذين زجّ بهما في السجن بتهمة باطلة الشريف الطاغية. ولقد قدمت طلبات ملحة نيابة عنهما، ولكننا ما نزال دون أخبار عن نتائجها، وقد تحمل صالح مشكلته بفلسفة الأمل. فلقد كان رجلاً طاعناً في السن ذا أخلاق سامية وجمال كبير مع إسراف في التعبير الظاهري

عن عواطفه غير الشائع عند العرب في نجد. وبالنسبة لي كان يبدو دائماً من النوع نفسه من تلك الطبقة التي أطلق عليها داوتي بذكاء شديد لفظ «أرستقراطي»[١].

ومن بيته، بعد الدورات المعتادة للشاي، والقهوة، والبخور، مشينا خارجين من المدينة عن طريق ضاحية الضليعة حتى الحصن القديم لقصر الخرشية كما ينطقه العرب، وقد سُمي على اسم القائد التركي، خورشيد باشا. كانت جدرانه الطينية الضاربة للحمرة في حالة خربة، والمبنى ذا أبعاد متوسطة فقط. ولقد بحثت دون جدوى عن الآثار. والسور الدائري الحالي للواحة، الذي قيل أنه بُني منذ حوالي عشر أو اثنتي عشرة سنة مضت ليحل محل السور الذي كانت أنقاضه لا تزال تقف منتصبة على مقربة من المدينة، وهو خط ثان متهدم للدفاع، يمتد خارج هذه الآثار، ويفصلها عن بقايا الثكنات التركية القديمة، التي تبدو أنها مشيدة بصورة غير محكمة من الصخور والدبش التي يمسكهما معاً ملاط من الجص الأبيض. إن السور القديم في الحقيقة يطوق الواحة كلها كما كانت توجد في ذلك الوقت، بيد أن توسع الزراعة في هذه الجهة (الشرقية) قد استلزم انتقال السور للأمام. وفي هذا الوقت حتى هذا السور لم يكن بأي حال يضم الواحة كلها فقد كانت رقع النخيل والزراعة النائية إما غير محمية أو مسورة بأسوار ثانوية تلتحق بالسور الدائري الرئيس. وطبقاً للروايات المحلية، فإن الواحة، والمدينة والسكان قد زادوا زيادة هائلة خلال الأربعين سنة الماضية، ومع ذلك لم تكن عنيزة داوتي تختلف عن عنيزة في أيامي[٢].

بالقرب من القصر يوجد أعمق بئر في الواحة كلها، خمس عشرة قامة إلى الماء مقابل ست فقط في آبار الخريجية. ومنحدر الحوض يقع من الشمال الشرقي إلى

---

(١) يقصد بـ (ارستقراطي) أي من وجهاء وأعيان القوم في تعاملاته الاجتماعية والأخلاقية. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن هيئة مدينة عنيزة العمرانية والجغرافية والسكانية، انظر: محمد السلمان. مدينة عنيزة، ص ١٩٩ وما بعدها، حافظ وهبة، جزيرة العرب، ص ٦٢، أمين الريحاني، ملوك العرب، ج٢، ٦١٢، عبدالرحمن الشريف. منطقة عنيزة، ص ١٨٣. (ابن جريس).

الجنوب الغربي، حيث توجد أكثر الأرض انخفاضاً. والزراعة المزدهرة تُقسّم إلى أحواض أو بقع مستطيلة صغيرة لا تزيد عن خمس خطوات في أربع، ودليلنا، عبدالله نفسه، قال: إنه في المتوسط توجد حوالي ثلاث مئة إلى خمس مئة رقعة من هذه الرقع الزراعية لكل بئر. وكان يبدو لي أن عشرة أفدنة تقريباً يمكن تروى بمثل هذه الآبار بالطريقة المكثفة السائدة في المنطقة(١)، وتستخدم الحمير والأبقار لأغراض سحب الماء، ولكن الإبل هي الأكثر شيوعاً.

بعد العشاء في بيت محمد عمدنا إلى بيت عبد العزيز الشيخ العجوز لآخر مناسبة اجتماعية في اليوم. وجدنا هناك حفيد زامل عبد الرحمن بن عبد العزيز، ونهض واقفاً في تحية ودودة عندما دخلت المجلس الموجود في الخارج، وأيضاً ابن عمه سُليم وعلي الخنيني. ودار النقاش حول المزايا المختصة بكل من بريدة وعنيزة، ووجدت آذاناً صاغية لنقدي القاسي للأولى. وسألوني: «أليست البيوت أفضل بناءً في بريدة؟»، «وأليست شوارعها الواسعة أشد بهاءً وفخامة من شوارعنا؟» فقلت: «نعم، شوارعهم في الحقيقة رأيتها وعلمتها وتأكدت منها، ولكن بالنسبة لبيوتهم، باستثناء القصر ومقر إقامة الأمير، فإنني لم أر إلا داخل بيت واحد وكان ذلك بالليل». وأردفت أن «شوارعهم جميلة وواسعة لمرور الإبل، ولكن أهلها جماميل، أباله القوافل»(٢). إن طريقة ذكر المهنة غير المشينة تستخدم أحياناً كإهانة أو سُباب

---

(١) للاطلاع على أصناف المزروعات في عنيزة وطرق الري، انظر: السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٢٣-١٤١، عبدالرحمن السويداء، نجد في الأمس القريب، ص ٣٣، ٢٤٦، ٢٤٧، جاكلين بيرين. اكتشاف جزيرة العرب، ص ٣١٠، الشريف، منطقة عنيزة، ص ٩٠، ١١٩، أحمد العناني «رحلة الكابتن وليم آيرفن شيكسبير في شبه الجزيرة العربية» دراسات تاريخ الجزيرة العربية. الكتاب الأول، الجزء الثاني (الرياض: مطابع جامعة الملك سعود، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) ص ٤٦٥-٤٨٤. (ابن جريس).

(٢) يبدو من كلام فيلبي عن مدن القصيم الرئيسة مثل: (بريدة،وعنيزة) أن الأولى أفخم في عمارتها كونها المركز الرئيس لأمير القصيم بشكل عام وأمير بريدة بشكل خاص. لكن أهالي مدينة عنيزة كانوا أكثر انفتاحاً على العالم وأقل تعصباً من سكان مدينة بريدة (ابن جريس).

خفيف، وهؤلاء القوم الطيبون من عنيزة الفخورون بمدينتهم وشهرتهم بكرم الضيافة، ابتسموا تقديراً للحكم الذي أصدرته.

ومن الآخرين الذين قابلتهم ذلك اليوم إبراهيم بن حمد، حفيد إبراهيم السيف، الذي أدخل داوتي في بيته على أطراف عنيزة عند قدومه أول مرة. وقصة هذه الحادثة مثل كل الأساطير، قد أصبحت غير واضحة في تفاصيلها، ولكنها أعيدت إلى الأذهان لفائدتي، كما تذكّرها، واحدٌ سمعها من أبيه الذي كان لا شك واحداً من الثلاثة «أو الأربعة الرجال الشباب، أولاد إبراهيم»، الذين ضايقوا الغريب ساعة الصلاة. إن داوتي، كما تروى القصة الآن، قد رقد دون دراية ليرتاح في المسجد غير مرتاب، ولكن بعد ذلك بفترة قصيرة جاء إبراهيم، رجلٌ صالحٌ، وأيقظه لينضم إلى صلوات الجماعة، فقال له الضيف إنه مسيحي، عندئذ تعجب الرجل العجوز قائلاً: «نصراني؟!»، «أعوذ بالله!» أي ألجأ إلى رحمة الله، وكان سينهال عليه ضرباً لولا تدخل واحد يدعى يحيى من عائلة الذكير[1].

في تلك الليلة كنت والدكتور عبد الله قد نمنا على السطح فوق غرفتنا الرئيسة وحيث إننا قد أصدرنا تعليمات بأنه لا ينبغي لأي شخص أن يوقظني في الصباح، فقد هيأت نفسي لنوم طويل بعد يوم حافل بالضيافة الكريمة. بيد أن الجدار الذي طوله ستة أقدام حول السطح قد منع النسيم اللطيف من دخول السطح المسور الذي كان قد حمصته الشمس طول النهار. وكان هذا الجو المكفهر قد جعل النوم مستحيلاً. ثم أيقظني آذان الفجر من الرقاد غير المريح، ولما نمت مرة أخرى أيقظتني الغزلان التي

(١) للاطلاع على معلومات أكثر عن رحلة داوتي في بلاد عنيزة انظر: عبدالعزيز بن صالح الشبل «ملخص بحث باللغة العربية: بعض مظاهر الحياة في الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر في كتاب الرحالة تشارلز داوتي: حالة مدينة عنيزة في القصيم» بحث منشور في سلسلة مداولات اللقاء العلمي السنوي الخامس لجمعية التاريخ والآثار وبدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية (٦-٩/صفر/١٤٢٥هـ - ٢٧-٣٠/مارس/٢٠٠٤م) ص ٦٧٣-٦٨٥ (ابن جريس).

اكتشفت دفتري بجوار فراشي. وفي وقت لاحق أجبرتني الشمس، وهي تزحف فوق الجدار الساتر على الفرار. وكانت دورة مياه قد أعدت خصيصاً في جناحنا لابن سعود، وفي كل من اليوم السابق وهذا الصباح استمتعت برفاهية الاغتسال الطيب حقاً. إن المرحاض قد وُضع بصورة غير ملائمة في الجزء الخاص من البيت، حيث يجازف المرء بمقابلة النساء من أهل البيت، وكما في جميع الأوقات فإن الخدم والأطفال يتجولون، الأولون يرافقون المرء عارضين خدماتهم من غير سؤال ويحملون الإبريق في يدهم للوضوء. إن الضيف يكون بلا خصوصية في البيت العربي؛ لأن الخصوصية لا توجد فقط إلا في مكان الحريم المنعزل، الذي يكون محرماً على الغريب[1].

كانت أول زيارة لنا في اليوم التالي لبيت علي بن صالح الخنيني، وفيه فناء كبير مفروش بالرمل النظيف ليكون بمثابة مجلس مسائي لشرب القهوة عند غياب الشمس. أما مجلس النهار فكان بجواره وهو غرفة كبيرة بسيطة ذات جدران جرداء من الزينة وأرضية رملية وقليل من السجاد والمخدات.

هنا قابلنا واحداً من مرضى عبد الله في أول أيامنا بعنيزة، مريض بالزهري والشلل يضطجع بضعف على مخدة، ولكنه أحسن حالاً بفضل العلاج الذي تناوله. وقد اعترف بأنه قد قضى بعض الشهور منذ إثنتي عشرة سنة مضت في القاهرة ودمشق، وعندئذٍ جلب معه المرض المميت من الأجانب. وقبل ذلك نال بعض التحسن من العلاج بنوع ما من الأيودين. وفي وقت لاحق من اليوم اندفع مريض آخر على عبدالله، فقد كانت يده اليسرى متورمة بشكل كبير بسبب خُرّاج وقد اقترح الطبيب أن يقطعه[2]. على أنه لم يكن لديه أية أدوات وعرضت عليه استخدام موسى الحلاقة التي معي.

---

(١) كلام فيلبي بأن الضيف لا يحصل على خصوصيته في البيت العربي كلام غير صحيح، فالعرب مشهورون بإكرام الضيف بكل الوسائل، وبيوت العرب، وبخاصة في جزيرة العرب أفضل من غيرها من حيث توفير الخصوصية الجيدة للضيف، ولا تقارن مع بيوت الأوربيين في هذا الجانب (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التوضيحات عن الحياة الصحية في جزيرة العرب خلال القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) انظر: محمد حسن مغني. تطور الخدمات الصحية في المملكة ص ١-٨٦، بدر الربيعة، تطور الخدمات الصحية، في المملكة، ص ١-٢٩ (ابن جريس).

إن سـعادة، أو شـرف، أو واجب تقـديم الضـيـافـة لنا فـي هذا اليـوم الثـانـي (الرابع عشـر من سبـتمبر) ـ التـي تشمل وجبـتي الغداء والعشـاء ـ قد طالب بهـا الأميـر السـابق عبدالعزيز، الذي ذهبنا إلى بيته بعد شـرب القهوة في بيت الخنيني. كانت الوجبة قد قُدّمت في رواق ذي أعمدة مجاور للمجلس ذي التهوية المفتوحة، وأحضـرت الصينية ومُدّت أمامنا. كان الأرز المبهّر والدجاج المحشو يشكلان الجزء الرئيس من الطعام مع أطباق من الخضـراوات اللذيذة وسلطانيات من المرق الرقيق والخبـز وطبق ممتاز من القشدة ولبن الزبادي. والخوخ أيضاً كان فخم النوعية والتمور من أربعة أنواع[1]، وعندما طلبت مـاءً أحضـروا لي لبن بقـر بـارد مثل الثلج. لم نكد ننتـه من طعامنا إلا واستـأذنا، حسب العادة للانصـراف بما لا يزيد عن عبارة "الله ينعم عليك" لمضيفنا، ساعين لأهل بيت الذكيـر حيث كنا دُعينا على القهوة. وعند وصولنا عوتبنا بلطف على تأخرنا من قبل مضيفينا سليمان وعبد العزيز، أبناء يحيى الذكيـر، اللذين أبديا أسفهما على أن عمهما العجوز مقبل الذي كان في صحة متدهورة وأتى خصيصاً ليقابلنا، لم يستطع المكوث.[2] هذه العائلة لها ممتلكات كبيـرة وتجارة مزدهرة في البحـرين، حيث إنها في هذا الوقت دخلت في نزاع بسيط مع الوكالة السياسية البريطانية.

بكل صفات «الكفاءة» في جميع المؤسسات البريطانية في الشرق، كانت الوكالة مهتمة بشق طريق مستقيم يحيط عبر بعض ممتلكات الذكير عكس رغبة الملاك، الذين زعموا أنه سوف يؤثر بصورة وخيمة على قيمة البناء في الأرض. ولقد تعهدت أن أمثل وجهة نظرهم لدى الجهات المختصة، بيد أنني لم أعرف أبداً ماذا حدث في

---

(١) حلوه (بلح أحمر كبير)، شقراء (التمر المطلوب باستمرار في عنيزة ومن الصنف الممتاز)، قطار (تمر بني صغير) وأمحمام (تمر كبير يميل إلى اللون البني)، سكري وهو منتج آخر يلقى تقديراً كبيراً، على الرغم أنه يكون أفضل عندما يكون يابساً أكثر مما يكون طازجاً، ونوع أصفر كروي يسمى روثانا كان مفضلاً هذه الأيام في مرحلة الليونة أو نصف النضج. (فيلبي).

(٢) مقبل الذكير المتوفى عام (١٣٦٣هـ/١٩٤٣م) في البحرين، ويعد من مؤرخي نجد، يذكر أنه تولى مالية الأحساء بعد دخولها تحت نفوذ الملك عبدالعزيز الفيصل عام (١٣٣١هـ/١٩١٢م). (ابن جريس).

النهاية. وملأ الحديث الفترة الفاصلة بين دخولنا والانتهاء من إعداد القهوة، وهو عملية معقدة وأحياناً مملة. ثم صُبّت القهوة ودارت علينا مع دورة من الشاي ثم القهوة مرة أخرى، وعندئذٍ نهض واحد لينصرف، إلا وأمسك به للطيب أو البخور[1]، الذي بعده يستطيع المرء أن يرحل.

لم نكد نحط رحالنا في البيت، آملين أن نستمتع بفترة عصر هادئة قبل أن نشرع في ارتباطات المساء، إلا وتتبخر آمالنا بدخول عبد العزيز بن قنيّر وهو جار قريب ويتصل بالمصاهرة مع مضيفنا. واضطررنا بحكم الظروف أن نقبل دعوته الملحة ورافقناه عبر الشارع حتى بيته، حيث في مجلس بالطابق الأرضي، أنيق ونظيف، استسلمنا لمزيد من شرب الشاي والقهوة. دخل الطفل عتيق وجلس بجواري ودار الحديث عن التعليم، الذي لا يُقدّم منه إلا النزَ اليسير في عنيزة، وفي الحقيقة لا شيء إلا مدارس تحفيظ القرآن. كان الولد يستطيع أن يقرأ أو يتهجى النص المقدس ببعض الصعوبة، ولكنه لا يقدر على الكتابة. ولدى مضيفنا ولدان، أصغرهم يستطيع القراءة بينما الأكبر لم يصل حتى إلى هذا المستوى ـ وكلاهما لا يستطيعان الكتابة[2] وقد ـ تعجبا عندما سمعوا أن ابني، الأصغر من عتيق بسنتين، يكتب مراراً خطابات لي[3].

---

(١) البخور والطيب من عادات عرب الجزيرة العربية، وتقديمه للضيوف يعد من أفضل مراتب الاحتفاء والإكرام للضيف. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الاطلاع عن التعليم في عنيزة، وعموم بلاد القصيم قديماً، انظر: السويداء، نجد في الأمس القريب، ص ١٢٤-٢١١، (ابن جريس).

عبدالله أبو راس وبدر الدين أديب. الملك عبدالعزيز والتعليم (معلومات النشر بدون، ١٤٠٧هـ) ص ٥١، ٧٥، عبدالله الشبل «التعليم في نجد قبل دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب» مجلة كلية الشريعة بالأحساء (١٤٠٢هـ/١٤٠٣هـ) عدد (٢) ص ٥٠٧، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ٧٣-٨٩. (ابن جريس).

(٣) مقارنة فيلبي لمستوى التعليم عند أبناء الإنجليز مع مستوى التعليم عند أبناء نجد غير ممكن، لأن التعليم في إنجلترا قديم جداً. أما جزيرة العرب فقد سادها الجهل والأمية لعصور عديدة، وبخاصة أهل البوادي والقرى والأرياف. (ابن جريس).

أول موعد لنا في المساء حوالي الرابعة عصراً، كان لشرب القهوة مع مقبل الذكير الطاعن في السن، الذي لم نجده في الصباح في حفلة ابن أخيه. ومعه وجدنا أخاه الأكبر، يحيى، الذي يكبره بأربع سنوات ومعافى وبصحة جيدة وحسن الشهية في عامه الثمانين على الرغم من أنه كان أصم مثل العمود. هذا العيب لم يؤثر على روح الدعابة الطيبة السارة لديه، ولقد شارك مشاركة نشطة في الحديث بمساعدة ابنه، الذي يكرر له كل شيء يقال بصوت الرعد. وأخرج الرجل الأصم قطعة معدنية لكي أفحصها تركب في الأذن والتي قال إنه قد تركها منذ وقت طويل لأنها عديمة المنفعة، وسخر من عجزه بالمزاح، مدعياً أنه استفاد من أذنيه لسنوات طويلة أكثر مما يعيش معظم الناس. ومقبل نفسه يعاني أيضاً من الصمم الخفيف وتعرض لمزيد من المرض مؤخراً، ونتيجة لذلك عاد إلى مدينته الأصلية بعد غياب لمدة خمسة وعشرين عاماً ليتعافى من تأثيرات مناخ الخليج الفارسي الوخيم. فلما يزيد عن أربعين عاماً كان يدير ثروات العمل التجاري لعائلته في البحرين، وزار الهند والعراق، وموانيء الخليج وحتى جدة. لقد كانا زوجاً من الرجال المبتهجين والرائعين، مواطنين فاضلين في مدينة فاضلة كأنهما تويدلدم وتويدلدي (Tweedledum and Tweedledee) في هيئة عربية، الآن، واحسرتاه، اجتمعا مع آبائهم بكامل سنوات العمر والشرف. وقدّم مقبل بندقية رياضية ذات عيار صغير من صنع ألماني على أمل أنني ربما أكون قادراً على استكمال النقص في مخزون ذخيرته المنخفض. وهو يعتقد أن السلاح إنجليزي لأن النقوش عليه كانت بتلك اللغة، بيد أنني اضطررت إلى أن أقول له: إن عليه أن ينتظر لذخيرته حتى نهاية الحرب. وعلى كلا جانبي مؤخرة البندقية يوجد ختم بالعلامة التجارية ليون آند سن (Lion and Sun)، والسلاح، الذي كان من الواضح أنه من مصدر فارسي، قد أعطاه له العقيد روس (Colonel Ross)، أول قنصل حسب ذاكرته في البحرين. وسألني «لماذا لا تنطلق وتصطاد الأرانب البرية؟». فقلت: «أنني لم أر إلا القليل منها، وقد أكد لي أنها كثيرة جداً في

النفـود حـول وحـلان. ولقـد لاحـظت عـدداً من الأرانب ذات لونين أبيض وأسـود، ربمـا تكـون أرانب برية، فـي كـل مـن البيـوت الخـاصـة للبيع فـي السـوق. وقـالوا لي: إنها تأتي من العارض[١]. كانت الجلسة التي قدموا لنا فيها عصير الليمون بالإضافة إلى الشـاي والقهوة، قد انفضت بوصول فهد البسـام باحثاً عن عبدالله. فقد كانت ابنته، فاطمة مرضت بالحمى في الليل، والشيخ الكبير يعتصره الحزن الكئيب خشية وقوع الأسوأ[٢].

بعدما تركنا عبد الله ليرافقه، ذهبت ومحمد السليمان لنرى واحداً كان قد تحدث معي عنه من قبل، وعند دخول مجلس علي بن حمد المرخم، وكان في غرفة بالكاد تبلغ عشرة أقدام مربعة وقذرة وسوداء بسخام الدخان، كنا قد جوبهنا بأغرب مشهد على الإطلاق، كما لو كان خزانة عرض في محل ساعات. فقد مُدّت أمامنا في صفوف نحو مئتي ساعة يد وساعة حائط من مختلف الأنواع، والأشكال، وآلية الساعات ولمبات أخرى، وماكينة خياطة ماركة نومان (Naumann) من درسيدن (Deresden) ومواد ميكانيكية أخرى. ففي بواكير حياته اهتم علي بمنتجات الساعات قد أرسل إلى مكة ليتعلم المزيد عن هذه الأشياء. وبعد سنتين في المدينة المقدسة عاد ليستقر كمصلح للساعات في عنيزة، وبعد ذلك بخمس سنوات ذهب للبصرة، وهناك خلال إقامة مؤقتة لمدة سنتين انشغل بأجهزة الحاكي (فونوغراف).

ثم عاد لموطنه وجمع زبائن كثيرين امتدوا حتى بريدة، التي منها ـ حتى ونحن جلوس معه ـ جاء رسول يستفسر إذا ما كانت دفعة من الساعات كان قد أحضرها لإصلاحها جاهزة للتسليم أو لا. حتى هذه اللحظة لم يكن عندي أدنى فكرة أن

---

(١) لمزيد من المعلومات عن النباتات والحيوانات في بلاد القصيم، انظر: الشريف، منطقة عنيزة، ص ١١٣، ١١٤، السلمان مدينة عنيزة، ص ٣٤، الربدي، ج١، ص ١١٢-١١٥ (ابن جريس).

(٢) الأحوال الصحية في الجزيرة العربية كانت سيئة خلال القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) وبخاصة في مناطق البوادي والأرياف. للمزيد انظر محمد مفتي، ص ١-٨٦، بدر الربيعة، ص ١-٢٩ (ابن جريس).

الساعات شائعة الاستخدام بهذا الشكل في الجزيرة العربية، ولكنه أكد لي أنه من الناحية العملية فإن كل ما لديه من مجموعات يخص الزبائن، وهو دائماً يحتفظ بأعدادها على الرغم من أنه دائماً يعيد إرسال الساعات بعد إصلاحها إلى أصحابها. لم تكن بريدة خالية تماماً من مصلحي الساعات، لكن علياً كان بوضوح فذاً في فئته. إنه يملك موهبة غريبة في تلك الأمور التي ـ تحت التدريب المهني وفي مجال أوسع ـ قد تكسبه شهرة عظيمة. ومع ذلك فهو يبدو سعيداً تماماً وهو محاطاً بأطنان الساعات الرخيصة أو العتيقة التي نادراً ما تستحق عناء إصلاحها، واعترف لي أن متعته الخاصة تكمن في فحص ودراسة أسرار أي اختراع ميكانيكي يصادف طريقه. فقد كان يحدق فيها بعينه المجردة، وفور أن يشعر أنه قد استوعب مبادئ أي قطعة آلية، فسوف يبدأ في اختبار معرفته النظرية بتفكيكها وإعادة تجميعها. بهذا الشكل زاد بتعب وعناء من مخزونه من المعرفة والخبرة، وهذا نوع لا يُرى إلا نادراً في نجد[1]، العالم الدنيوي. وكان عقله يأبى التعصب الضيق في المذهب الوهابي، الذي يعمل فيه أبوه مثل واعظ غير معين في وظيفة دينية. لقد كان يدخن علانية في عرينه الصغير، وقام بلف السجائر لنا عندما كان يتحدث بحماسة عن علمه الذي أحبه. وفي مظهره كان عجيباً تماماً. فدون شعر في وجهه، كان يبدو أنه في الثانية والعشرين أو ربما الخامسة والعشرين من العمر؛ لأن محياه يحتفظ بنضارة الشباب، وقد زعم أنه ليس أقل من ثمانية وثلاثين عاماً[2]، وأن رفاق اللعب في صباه كان بالفعل، كما قال، لهم لحى رمادية.

---

(١) فيما يظهر أنه كان في بعض مدن نجد ومن المؤكد مدن الحجاز وغيرها من جزيرة العرب بعض الفنيين والخبراء في التعامل مع الآلات والأدوات الدقيقة كالساعات وربما الكاميرات وغيرها. كما كان هناك بعض الصناع الذين يتعاملون مع إصلاح السلاح والحديد بأنواعه وبعض المعادن الأخرى كالذهب والفضة وغيرها. (ابن جريس).

(٢) هذا الرجل (علي بن حمد المرخم)، الذي يتحدث عنه فيلبي، وعن عمله مع بعض الآلات الدقيقة كالساعات وغيرها، قد اكتسب بعض خبراته من الأسفار العديدة إلى الحجاز والطرق، كما أن أسفاره أيضاً ربما أثرت على هيئته وشكله الخارجي كشرب الدخان وما شابه ذلك. (ابن جريس).

عـاد إلينـا الآن الدكتـور عـبـدالله بفكرة أننـا قـد قـبلنا دعـوة لتناول القـهـوة مع إبراهيم بن حمد السليم، الذي كما اتضح بعده، لم يكن يتوقعنا، على الرغم من أنه أصـر على بقائنا معه لشرب القهوة التي أعدها لنفسه. وكان يدخن السجائر دون أن يعـرض علينا أي واحـدة. وبالإضـافـة إلى داوتي عدّد لنا تشـارلز هـوبر وأعـتـقـد، أيضـاً أويتنج من بين مـعـارفـه الأوروبين منذ عهـود طويلة مـضت. على أن الحـديث أصبح فـاتراً؛ لأن مضيفنا كان فيما يبدو لديه انشغال آخر في ذهنه ولم يشـأ أن يقول ذلك، بينما كان عبدالله يشعر بالضيق من خطائه. وقد أدى ظهور عبدالله بن رشيد، تابع الأمير، إلى نشوء التحول اللازم؛ ولأنه لا يزال هناك بعض الوقت قبل الظلام، فقد انطلقت بمفردي معه عبر الحقول وبساتين النخيل حتى قرية الجناح القديمة[1]، وهي في هذه الأيام ليست أكثر من قرية حديثة نسبياً على أنقاض موقع قـديم. كـانت أجـزاء من السـور القـديم ترى هنا وهنـاك على أن القـسم الوحـيـد الطـويل نسـبياً هو ذلك الذي كان ذات يوم يحمي القـرية من عنيـزة المهيمنة الآن. وتحـجب الآن عـدة مـئـات من اليـاردات من هذا السـور أحـد جـوانب بسـتـان نخـيل واسـع، الـذي كـانت تجـري خـلاله قناة مـائيـة مـرتفـعـة من الطين قـادمـة من بئـر مـجاورة. وكـان جـزءاً من سور المسـجد القديم، الذي يطوق الآن بصورة جـزئيـة رقعـة زراعـة ومـوقع المجلس للشيـوخ السـابقين في الجناح قـد بينه لي عـبـد الله، ثم في الغـسق البهـيج عدنـا من خـلال أحـيـاء القـاع والهفـوف إلى بيت عـبد العـزيز، الذي وجـدناه ينتظرنا على العـشـاء الذي قُـدّم لنا فـوراً في رواق مـعـمـد بالطابق العلوي، وانصـرفنا بـعـد دورة من القـهـوة في الفـناء الأرضي المفـتـوح للقـيـام بزيارة قـصـيـرة للأمير عبدالله.

---

(١) قرية الجناح: تقع في شمال مدينة عنيزة، وقد نزلها في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) بطن من بني خالد، حيث أقاموا مساكنهم في أحد أجنحة وادي الرمة على الضفة الغربية للوادي فسمي المكان مع ساكنيه بـ (الجناح). انظر: تقرير دكسيادس عن عنيزة رقم (٥) وكالة وزارة الداخلية لشؤون البلديات (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م) ص ٩٣، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٩٩. (ابن جريس).

والقادمون الجدد من المدينة، الذين كانوا مسافرين بطريق الرس، جلبوا معهم مزيداً من الأخبار عن غارة ابن رشيد على قبيلة حرب. والمتضررون هم بعض أفخاذ صغيرة من المدارين وليس أهل ابن نامي كما قيل من قبل، وأن معركة قد وقعت عند الهميلية والتي بعدها انسحب ابن رشيد بغنائم من ثلاثين جملاً نحو السميراء(١)؛ لأن معسكره الرئيس في فيد وقد خسر ثمانية رجال وعشرين من الخيل التي قتلت من أصل القوة الإجمالية وقدرها ست مئة، وتشمل حوالي خمسين فارساً. وكنا نأمل أن يحاول ابن سعود بقوته المتفوقة بشدة قطع انسحابه هذا، وقد أشيع أنه أثناء مجلس حرب قدم الدويش هذه النصيحة على عكس الرأي العام للإخوان، الذين كان رأيهم أن ينقضوا على معسكرات شمر في بقعاء شمال شرق حائل.

في بيت الأمير السابق قابلنا أيضاً روابط أخرى بأيام داوتي وزامل، هما رجلان من ذوي المكانة الوضيعة ولكنهما يؤتمن عليهما بشدة في خدمة الأمير. هذان هما شعيثان أخو ـ أو على الأرجح ـ ابن عم الزنجي، علي الشعيثان الذي على بيته دق داوتي أول مرة والذي رافقه بعد ذلك بانتظام في أسفاره بموجب أوامر من زامل(٢)، وعلي، حفيد علي المذكور من قبل. وقالا وهما يصحباني عبر الشوارع في ذلك المساء إلى بيت حفيد زامل، عبد الرحمن بن عبد العزيز، «يا له من فرق عظيم، منذ تلك الأيام. فلقد رافق علي العجوز خليل مثلما نذهب معك الآن، ولكن ليس هناك أطفال اليوم وقحون حتى نضربهم ليبتعدوا»(٣). ولقد لاحظت في الحقيقة مراراً أن الأطفال هنا لا يشكلون مصدراً للإزعاج أو الشكوى. فإذا رأوني قد يصطفون في صف عند مروري ويحيوني بشكل حاد بالطريقة التركية حيث يضعون أيديهم على

---

(١) قرية السميراء تعد اليوم من أكبر قرى منطقة حائل وهي تبعد عن مدينة حائل الرئيسة جنوباً بحوالي (١٣٠كم). انظر: فهد العلي العريفي، حائل، ص ٤٤-٤٥. (ابن جريس).

(٢) للاطلاع على معلومات أكثر عن رحلة داوتي إلى بلاد القصيم، انظر: روبن بدول، ص ٧٧-٩٠. (ابن جريس).

(٣) قابل داوتي متاعب كثيرة في رحلاته في الجزيرة العربية خلاف فيلبي الذي وجد الرعاية والحماية والتشجيع من الملك عبدالعزيز، فكانت ثمار هذه الرعاية، أن ترك لنا كماً هائلاً من تاريخ وتراث وحضارة الجزيرة العربية (ابن جريس).

وسط جبينهم وتنتهي بابتسامة متبادلة. والبنات الصغيرات بخصلات شعرهن الطويلة المضفرة وملابسهن الزاهية، التي عادة ما تكون فساتين فضفاضة من قماش الموصلين (Muslin)وسراويل واسعة. لقد كن جميلات بصورة فاتنة عندما يلعبن في الشوارع والأماكن العامة مثل فراشات صغيرات حكم عليهن القدر بمدة قصيرة من السعادة؛ ذلك لأنهن لخمس أو ست سنوات فقط كن يتمتعن بحرية غير مقيدة، يجرين بجموح وتهور، قبل أن يجبرن بقانون صارم على الاختفاء من العالم خلف الأبواب أو خلف خمار من اللون الأسود الكئيب[١]. وعندما يبلغن الثانية عشرة يصبحن في سن الزواج، والكثيرات منهن يصبحن محجوزات من قبل أزواجهن الراغبين أو آباء أزواجهن الراغبين منذ الأيام التي سبقت انسحابهن من الشوارع. وفي الغالب يتزوجن عند سن الرابعة عشرة، ولكن يحدث أحياناً أنه إذا كانت الفتاة غير كاملة النمو عند زواجها فإن زوجها يتركها عاماً أو عامين قبل أن يقربها. ونادراً ما يلدن أطفالاً قبل السابعة عشرة. وهكذا فإن حظ النساء قاس في الجزيرة العربية بفرض الزواج عليهن بهذا الشكل قبل الأوان[٢]، وهنا تكون الفساتين الفضفاضة الخضراء أو السوداء هي الشائعة عند النساء، ونادراً ما يرى اللون الأحمر.

قضينا ساعة رائعة ذلك المساء في مجلس حفيد زامل، فعصير الليمون الطازج من الحديقة المجاورة قُدّم إلينا بالإضافة إلى القهوة، كما دارت السجائر علينا بلا قيد، وكنت أدخن الغليون كالعادة دائماً.

(١) الحجاب ليس كئيباً كما يقول فيلبي، وإنما هو جزء من دعوة الإسلام، فالواجب على المرأة البالغة أن تستر نفسها بالخمار، أو الحجاب عن عيون الأجانب، ماعدا زوجها وقرابتها، كالأبناء والأخوان ومن هو في حكمهم. ولا يستغرب من فيلبي هذا القول فهو وأمثاله من المستشرقين جاؤوا من مجتمعات تنادي بالحرية والاختلاط ومشاركة المرأة للرجل في جميع أمور الحياة، بصرف النظر عن خصوصيتها وما يترتب على ذلك من هدر لإنسانيتها وكرامتها. (ابن جريس).

(٢) لا أعتقد أن الزواج المبكر للرجل أو المرأة قاسٍ، لأننا نجد كتب الشريعة والتراث الإسلامي تورد لنا نماذج عديدة عن الذين تزوجوا في سن مبكرة جداً في عصر الرسول ﷺ والسلف الصالح، وكانوا في غاية السعادة والتوفيق. (ابن جريس).

هنا لا يوجد تعصب أعمى، ولقد تجاوزونا بالفعل أكثر من نصف ساعة بعد صلاة المغرب قبل أن ندرك أننا ربما نكون قد تخطينا حدود الترحيب بنا، على الرغم من أنه في احتدام الحديث لم يسمع أحد الآذان. فقال عبد الرحمن: «المسجد قريب، لا داعي للعجلة، فأي وقت سوف يكفي». كان الحديث عن الجراد وعواقبها الوخيمة. فاليرقة، تسمى دبة، تخرج من البيضة، كما يقولون، في خمسين يوماً . تحفر الخنادق الضحلة (زبيّة) لاصطيادها وهناك، وهي غير قادرة على الخروج زاحفة يتم هلاكها. أحياناً تكون هذه الطريقة فعالة تماماً، وفي أحيان أخرى يأتي الجراد من كل حدب وصوب، ربما من مناطق بعيدة. هذا الجراد يواجه بضرب الطبول التي تخيفه فيبتعد. وطبقاً لأحاديث الرسول ﷺ سيكون الجراد أول مخلوق يختفي عند اقتراب يوم القيامة. وقد وقع ذعر كبير إما في عهد أبي بكر أو عمر بسبب الغياب التام للجراد لعدد من السنين. ليس هناك رغبة كبيرة في فناء العالم بالجزيرة العربية هذه الأيام، وكم كانت راحة الناس كبيرة عندما قُدّمت عيّنة قبضت حديثاً من الجراد للسلطات الدينية وتيقنوا فعلاً أنها جراد. إن الجراد والسمك فقط من بين المخلوقات لا يحتاجان إلى شهادة رسمية لذبحهما ليكونا طعاماً حلالاً، والجراد الذي يُعثر عليه ميتاً يكون أيضاً طعاماً حلالاً(١).

إن عبدالرحمن يتمتع بذخيرة من المعارف البسيطة، ويسعى بصورة حقيقية للتنوير، واعتدال ملابسه الذي يستدعي إلى الأذهان بقوة وصف داوتي لزامل. ومع ذلك كما أعتقد فإن ذلك مثل حال الأمير القديم لعنيزة أيام عزها. وقلت له: «ينبغي أن تأتي معي، وترى في يوم ما بلدنا الإنجليزي، وسوف أريك باريس وأوروبا». واعترض على ذلك خشية أن يجد صعوبات هناك في مسألة الصلاة، ولكني أكدت له أن عندنا مساجد قليلة لعبادة المسلمين. فردّ قائلاً: «لا، فذات يوم عندما يسود

(١) الجراد كان من الآفات التي تهلك الحرث والمزروعات خلال العهود الماضية، وهناك طرق عديدة عند الناس للتخلص من الجراد إذا أغار على مزارعهم. (ابن جريس).

العالم السلام سوف أسافر إلى المدينة وأستقل من هناك القطار إلى دمشق[١]. وغير ذلك ليس عندي رغبة فيه». وبعد سنوات لاحقة تقاطعت دروبنا للحظة وجيزة في شوارع جدة. فسألني: «هل تعرفني، أنت يا فلبي؟» وأجبت: «نعم حقاً، أنت يا زامل، كيف سافرت وما جاء بك إلى هنا؟». لقد كنت في ذلك الحين مرتدياً ملابس أوروبية ودون لحية، وقد قيل له من أنا عند مروري أمامه. لم يكن قد تغير. وفي صحبته، ربما بسبب ذكري جدة، كنت دائماً أجد متعة عظيمة في عنيزة.

وآخر مناسبة اجتماعية لنا في المساء كانت زيارة إلى فهد البسام. كان بيته وعدة بيوت أخرى لعائلته تتاخم المجلس الكبير على شكل هلال رائع يضيف جمالاً وتميزاً على وجه السور العالي بنوافذه الصغيرة. في الميدان نفسه يوجد المسجد الرئيس وقصر زامل القديم ذو البرج المربع في أحد زواياه والذي يبدو قزماً بجوار المئذنة الطويلة المستدقة الطرف[٢]. يمتاز فهد بأخلاق ومظهر رجل الأعمال الناجح بشدة، مع تحضر مهذب من النوع التركي، وقليل من الرياء وكثير من التصنع الواضح أكثر من صالح الفضل. وهو قادر على أن يكون مسلياً بشدة وربما أقدر رجل في ذلك بعنيزة. ومع ذلك كان بسيطاً، فقد قدّم زجاجة من عصير الليمون المنعش ماركة روز (Rose) لكي أفحصها قبل إرسالها إلى الطابق العلوي لكي يتم خلطها لفائدتنا، وأصرّ على أن يشرب كل واحد منا كأسين، وهنا لا يوجد الرشف برقة للمشروبات المبردة مثلما في أوروبا. فلا بد أن تشربها جرعة واحدة، والخادم يقف أمامك ليأخذ الكأس الفارغ أو شبه الفارغ، ويعرض عليك فوطة لتجفف شفتيك

(١) كانت نظرة الناس يوم رحلة فيلبي في عنيزة عام (١٣٣٦هـ/١٩١٨م) محدودة، فلا يوجد لهم أسفار بعيدة، وإنما حدود ذهاب وإياب أعيانهم تكون داخل الجزيرة العربية فقط، بعكس اليوم الذي أصبح العالم قرية صغيرة يسافر من أقصاه إلى أدناه في ساعات محدودة. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن المسجد الرئيس في عنيزة، وعن أحياء المدينة أثناء زيارة فيلبي لها، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٩٩-٢٠٨، الشريف، مدينة عنيزة، ص ٢٠٨، ٢١٢، حافظ وهبة، ص ٤٣، توتيشل، المملكة العربية السعودية وتطور مصادرها الطبيعية: ترجمة شكيب الأموي (القاهرة) ١٩٥٥م، ص ٨٣. (ابن جريس).

وأصابعك[١]. وكان اثنان من أولاده في الحفل، أحدهما شاب في حوالي السابعة عشرة وعينه اليسرى دامعة وضعيفة، والآخر، عبد الله، طفل في السادسة أو السابعة. وهناك أيضاً إبراهيم، فتى في الثالثة عشرة، ابن عبد الرحمن البسام، المتوفى في هذا الوقت[٢]، الذي ركب في قافلة داوتي للزبدة إلى الحجاز. وفهد، ببراعته التركية في الإطراء والتملق، كان طيباً بما يكفي للتنبؤ بوظيفة دبلوماسية رفيعة لي!! وقال: «أستطيع أن أحكم بذلك، من التوقير الشديد الذي يكنه ابن سعود لك».

وهكذا انتهى اليوم، يوم عادي من الضيافة الكريمة من أشخاص لم يتركوا عقيدتهم، التي يخلصون لها بدرجة كافية في كافة النقاط الجوهرية، أن تعمي رؤيتهم لعالم كان بعضهم قد نال منه لمحات وراء حدود أرضهم الصحراوية. ولهذا العالم يدينون بازدهارهم المادي الذي بكل صفاته سريعة الزوال يقدرونه كثيراً. وأكبر نقيصة في جلساتهم الاجتماعية كانت عدم وجود هواء. ففي الساحات المفتوحة هناك قليل مما يُشتكى منه، ولكن في المجالس المعطرة بروعة الأدخنة الرقيقة من نيران أشجار الغضا عندهم والبخور كانت الدورات الأبدية للشاي والقهوة تثير وشلاً رقيقاً من العرق الذي يدوم إلا في فترات متقطعة قليلة طوال اليوم بكامله، وهو قد يكون غير مطاق في مجتمع ينهمك بشدة في أعمال العالم. بيد أن عنيزة باريس نجد، مدينة الراحة والمتعة، حيث لا يُتصوّر العمل بشكل دقيق أكثر من مجرد النقاش البطيء للصفقات التجارية، التي قد يكون الاتفاق عليها غداً أو اليوم سيان، على أقداح من القهوة والشاي والسجائر[٣].

(١) هذا التعامل الاجتماعي في طريقة الأكل والشرب التي يشرحها فيلبي في بيوت وجهاء وأعيان عنيزة تدل على التمدن والتحضر الذي وصلوا إليه. وربما حصلوا على بعض تلك الصفات من الأسفار في بعض النواحي داخل الجزيرة العربية وخارجها، ثم وجود عنيزة على الطريق التجاري الرئيس الذي يصل ما بين الحجاز والطرق. (ابن جريس).

(٢) أسرة آل البسام في عنيزة تعد من الأسر الكبيرة والقديمة، وظهر منها علماء وقضاه في عهود مختلفة. (ابن جريس).

(٣) كسبت عنيزة هذا الإطراء الذي يورده فيلبي ربما بسبب التنوير الثقافي والفكري الذي كان يتصف به بعض رجالها وأسرة مثل: آل الزامل، وآل البسام، وآل الذكير وغيرهم، والذين كانوا كثيراً ما يجالسون هذا الرحالة ويتحدثون إليه. (ابن جريس).

واليوم التالي (الخامس عشر من سبتمبر) بصورة عامة تكرار لسابقه، ولكن الحياة الاجتماعية بعنيزة لا تكون أبداً كئيبة أو مملة، هنا لا يوجد الصمت الرهيب لجلسات القهوة المعتادة في نجد؛ فالحديث هو الفن المفضل لقوم متبطلين خالين من العمل يهتمون اهتماماً شديداً بالعالم من حولهم. وبحسابنا كان هذا هو اليوم التاسع من ذي الحجة، شهر الحج الأكبر في مكة، الذي سوف يُتوّج بعيد الأضحى ويجري الاحتفال به ليس فقط في عرفات ومنى ولكن في العالم الإسلامي كله.

وكانت هبة حارة من رياح السموم من الجنوب، بالحساب الزراعي بداية موسم الصفري قد جعلت ساعات الظهر متقدة ومضجرة؛ لأن المباني العالية في المدينة تحجز الريح بعيداً عن الحدائق والساحات، ولكنها امتصت تماماً حرارة الشمس. على أن السوق في هذه الأيام استعداداً للعيد أصبح يعج بالنشاط والحركة، والحشود المشغولة تتدفع في المحلات والدكاكين، حيث التمور، والخضراوات، والبطيخ تُعرض بوفرة مع القهوة، وقشر الرمان والملح، وكلاهما من النوعين الأبيض والقرنفلي، وأشياء أخرى تغري ربة البيت. وقد بيعت بندقيتان من مزايدين جائلين. إحداهما وصل سعرها أربعين دولاراً وهي من طراز ماوسر الألماني (German Mauser) نموذج عام (١٩١٦م)، والأخرى ثمانية وثلاثين، وكانت بندقية جديدة إنجليزية قصيرة، ارتفعت بعد ست ساعات من المزايدة المتقطعة إلى ستة وأربعين. وقد مررنا والأخوان سليمان وعبدالعزيز الذكير جالسان على إفريز محل يتحدثان، وبالقرب منهما مجموعة من الأغنام السوداء تجذب اهتمام حشد كبير من الناس. سعر الخروف في تلك الساعة يتراوح من ستة إلى سبعة دولارات، وكلها ذوات صوف أسود إلى أبعد ما رأيت. وكان العمل التجاري النشط يجري على قدم وساق، كل زبون يختار ما يروق له بأيدي خبيرة، وهو يفرك الأجزاء الرقيقة من كل حيوان قبل أن يقرر[1].

---

(١) كون عنيزة إحدى المحطات التجارية الرئيسة التي تقع على درب طرق الحجاز، والمعروف بـ (درب زبيدة). وكذلك توفر المحاصيل الزراعية المختلفة بها. كل هذا جعل منها سوقاً تجارياً نشطاً يرتاده التجار من داخل بلاد القصيم وخارجها. للمزيد، انظر: أبو علية، الدولة السعودية الثانية، ص ٢٧٣، العثيمين، نشأة إمارة آل رشيد، ص ٩٠، سيد بكر، الملامح الجغرافية، ص ١٨. (ابن جريس).

وبحلول المساء كان السعر قد زاد إلى عشرة دولارات، وهكذا فأولئك الذين اشتروا باكراً قد ابتهجوا. يرتدي الرجال من الطبقة الميسورة العقال من النوع السائد في بلاد الرافدين، حزم ثقيلة من وبر الإبل المفكك الموصول على مسافات فاصلة بحزم من الخيوط الفضية[١]. والبعض يرتدي عقالاً من اللون الأسود غير المزخرف والغترة إما بيضاء أو حمراء مثلما الحال عند البدو. وعباءاتهم بنية اللون أو سوداء من القماش الصيفي الخفيف، الشفاف ولكنه يُعمّر طويلاً. ولما توجهنا تلقاء العودة لبيوتنا مررنا على مجموعة من البنات الصغيرات يمرحن بثياب العيد. وكانت خدودهن مطلية بمسحوق التجميل الأحمر الخفيف، ووقفن يحدقن فينا حتى نعجب بهن، واندفعن في ضحكة مرحة من نجاحهن مع الإنجليزي. كانت ثيابهن من الحرير الشفاف الناعم ذي الألوان المتنوعة، ومعظمهن كن يرتدين العقال المطرز بخيوط الذهب والمزخرف على نحو أنيق بحبات الفيروز فوق شعرهن المضفر والمكسو بالشحم. لقد ظهرن رائعات فاتنات حقاً.

كان الأمير عبدالله مسؤولاً عن استضافتنا هذا اليوم، وذهبنا لتناول الفطور بعد زيارة ابتدائية إلى عبدالله بن حمد السليم أخي إبراهيم الذي ذكره داوتي، وهو وأخوه كانا في القافلة التي انضم إليها هوبر. وهو يميل إلى الطول، يتمتع بصحة طيبة في حوالي الخامسة والستين، ويبدو أصغر بكثير من سنه بسب الصبغة السوداء على لحيته الصغيرة، المشذبة. ولقد سافر حتى وصل إلى بونا منذ عشرة أيام مضت في رحلة استمتاع، وبالطبع يعرف بغداد ودمشق، وحتى القاهرة. وفي فنائه توجد مُهر، قيل: إنها من الريف العراقي اشتراها حديثاً من البدو.

والأمير الآن في ريعان شبابه، وقد قضى بعض السنوات في المنفى من (١٨٩١م) حتى (١٩٠٤م)، وخلال تلك المدة اشتغل في المشاريع التجارية التي تقاذفته

---

(١) وربما سمي هذا النوع من العقال باسم (المقصب). (ابن جريس).

بعيداً حتى الهند. وعلى الرغم من ذلك، ليس لديه أي طموح إضافي للتجوال. فلقد رأى ما يكفي من العالم، والآن أصبحت الراحة التي ناضل من أجلها فوق كل شيء، وكان يعد العمل شيئاً مؤلماً على الرغم من أنه انقطاع حتمي عن الغاية، وقال: «اليوم على سبيل المثال، ليس عندي عمل أؤديه، وعندما ننتهي من تناول الفطور سوف أخلد للراحة في مضجعي كما تعودت». فقلت له: إنه في أوروبا إذا أخذ أي شخص بمبادئه فسوف يموت حالاً من الجوع. لقد كان مهتماً بالموقف النقدي. وهو يعتقد أن أكبر صعوبة في سبيل إدخال عملة فضية مستقرة في البلد لتحل محل الدولار والعملة الفضية التركية الصغيرة ستكون تجميع هذا الكم الهائل من تلك العملات بخسارة على ما يبدو، ولذلك لابد أن يبقى الدولار أساساً للعملة العربية.

إن ثلثي صفقات الذهب في القصيم كانت بالجنيه الإنجليزي والباقي بالليرة التركية. وذهب نابليون، الذي يسمى بنتو (Binto) نادراً ما يُرى، والذهب الألماني غير موجود تماماً، كما أن العملات الذهبية الروسية تستعمل على نطاق ضيق فقط. كذلك يتعجب من تسمية دولار ماريا تريزا ذي المنشأ النمساوي باسم فرنساوي (أي فرنسي)[١]، بيد أنه لم يلاحظ أنه ـ على الرغم من أن هذه العملات كانت مصنعة حديثاً حسب احتياجات السوق ـ إلا أنها كانت دائماً تحمل التاريخ نفسه (١٧٨٠م). وبالنسبة لتقدم سير الحرب، فقد توقفوا منذ زمن طويل عن وضع ثقتهم في الأوراق.

فدليل عيونهم كان جيداً بما فيه الكفاية. ولا يمكن أن يسوء شيء كثيراً ما دام العراق في أيد بريطانية أمينة. ولقد ذكرت له أنه بوجود معظم بلجيكا وجزء كبير من فرنسا في أيد ألمانية فإن حجته ليست سليمة تماماً على الرغم من أن استنتاجه كان في الحقيقة صحيحاً.

---

(١) لم يكن أهل القصيم هم فقط الذين يطلقون اسم (الريال الفرنساوي أو الفرنسي، أو الفرانسة) على ريال ماريا تريزا النمساوي، وإنما كان هذا المصطلح يطلق على هذا الريال في عموم الجزيرة العربية. (ابن جريس).

ومن المعتاد في عنيزة أن تبدأ كل وجبة بزوج من التمر اعترافاً بنعمة الله، وبعد ذلك ليس هناك ترتيب محدد للهجوم على المحتويات المختلفة في الصينية. وعلى الرغم من ذلك، كان حمد بن هذال مخطئاً بالخروج على العُرف الاجتماعي؛ لأنه سكب الزبادي على نصيبه من الأرز وخلطهما معاً. وطبقاً «للتقاليد» يُعد هذا انتهاكاً مقيتاً لآداب المائدة في مجتمع (بدوي) فاضل على الرغم من أن ذلك يمارس بصورة طبيعية في قبائل معدن البدائية في العراق، وحتى من قبل الزيجرت[1] خدم البيوت الأجلاف، وأصلهم من بني خضير أساساً في نجد.

وواصلنا سيرنا لزيارة أحمد بن سويعر، الذي عاد مؤخراً من مكة، في مجلسه القذر، المليء بسخام الدخان، ومساحته (١٢×١٠) أقدام وسقفه قصير. وهناك دخل علينا رجل مسن في السبعين من عمره، يتصل بالمصاهرة (رحيم) مع مضيفنا، طالباً من الدكتور عبدالله بعض الدواء لبصره الذي أصبح ضعيفاً، وهذه إعاقة مؤلمة في عمله خلال السنتين الماضيتين. وهو يدعى إبراهيم بن صالح، المهندس المعماري الرائد والبناء في المدينة. فقد بدأ حياته صبياً متدرباً مع بناء دون أي تعليم إضافي بخلاف ما جمعته عيناه، ونال الشهرة بسرعة وشيّد المئذنة الطويلة في المسجد الجامع منذ ثمانية وعشرين عاماً مضت[2]. وهي بطول خمسين ذراعاً، كما قال، أو تقريباً ثمانين قدماً في الارتفاع. كما أنه بنى أيضاً المقر الحالي لإقامة الأمير، وبيت محمد السليمان الذي كنا نسكن فيه، وفي الحقيقة جميع أفضل البيوت في عنيزة. وقد أكد بفخر أن لا شيء من تحفه التي بناها قد انهار على الإطلاق، ومع ذلك فإنها كلها قد بُنيت دون أي نوع من التصميم أو التخطيط، ودون الخيط أو الميزان،

---

(١) هذه الكلمة اشتقها الأتراك من الكلمة الفرنسية التي تعني «الأمن أو الحراسة (Securite) التي أصبحت على أفواه العرب تنطلق عادة «ساكيورتا». (فيلبي).

(٢) في الماضي لا تخلو منطقة في الجزيرة العربية من وجود بنائين مهرة يقومون بتشييد الحصون والقصور والمساجد وما شابهها، وقد كسبوا تلك المهنة وتمرّسوا فيها من خلال طول الممارسة والتجارب. (ابن جريس).

وفي الحقيقة دون أي شيء يوجهه أو يرشده إلا عينه وخبرته. وقال لي: «انظر إلى رافع سنجر التي شيدتها مستديرة وقارنها بتلك المربعة عند ابن السلوم فقد بقيت لأنني بنيتها أفضل وسوف تصمد بعد ذلك لأزمان كثيرة". ومقابل تشييد المئذنة الكبيرة، التي تلقى إمداد الطين والملاط لها في الموقع، فقد حصل على مبلغ أربعين دولاراً. وكان مستعداً للتعهد ببناء واحدة أخرى أطول منها مرتين، ولكنه بالطبع سوف يبنيها على قاعدة أوسع. وسألته كيف ظهرت وتطورت الواجهات المنحنية[١] في بيوت عنيزة، على الرغم من أنها ليست واضحة في أي مكان آخر بالجزيرة العربية[٢]. وقد زعم أنها من اختراعه الخاص، وأنها أسهل في البناء وتدوم طويلاً. وبعد ذلك لاحظت مئذنة عالية في منطقة القاع. وسألته: «من بنى هذه؟» فكانت إجابته المقتضبة الجافة «إنها تميل نحو الجنوب». وفي الآونة الأخيرة اتجه إلى تبطين الآبار بدون خبرة سابقة في هذا العمل، ولكنه صار الآن مرجعاً معترفاً به، على الرغم من أن عينيه الضعيفتين تتعارضان بصورة خطيرة مع المهمة التي تحتاج إلى دقة غير عادية.

وقضينا فترة العصر جزئياً في بيت علي الخنيني والجزء الآخر في بيت يحيى الذكير، وكان الأمير السابق حاضراً في كلتا المناسبتين. وعندما قدم لي علي السجائر تحولت إلى عبد العزيز لأسأله إن كان يعترض على قيامي بالتدخين. فردّ قائلاً: «لا على الإطلاق فأنا نفسي اعتدت أن أدخن». وهو قد عانى من قبل بصورة دائمة من نوع من الصداع الذي شرح أعراضه لنا بإسهاب مستفيض. وفي الهند

(١) الكلمة هي مبرم ومن الواضح أنها تطلق دون تمييز على المنحنيات المحدبة المقصرة، والأخيرة تسمى أيضاً مكعب. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن الناحية العمرانية قديماً في عنيزة وغيرها من مدن القصيم الرئيسة، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٩٧-٢١٨، الهويمل، بريدة، ص ١٧٢، محمد الربدي، بريدة، ج٢، ص ١٨٤ وما بعدها. (ابن جريس).

عثر على علاج ناجع في دواء شراب مخلوط يشمل عصارة صفراء الضبع[1]، ولكن هنا في نجد، ربما بسبب بعض الأحوال الجوية، فإن هذا الدواء نفسه لا فائدة منه، وهي التي سوف يحل عليها عن قريب بلاء الإنفلونزا الفظيع الذي قيل أنه قد أصاب خمسة وعشرين ألفاً من السكان المستقرين في المدن، وعدداً لا يحصى من البدو. كان المرض نادراً باستثناء الجدري، الذي حتى ذلك الوقت كان يتفشى في المدينة على الرغم من أنه أقل انتشاراً من السنة الماضية عندما كانت تشهد صلاة العصر يومياً جنازة أربعة أو خمسة أطفال ماتوا قبل أوانهم[1]. وقد أصبح مهتماً بالحديث عن التطعيم، وتعهدت بأن أرسل طلباً لتوريد دواء الليمف (Lymph) ليستخدمه عبد الله في العلاج. وكانت أحد الاعتراضات على التطعيم هي أن التوريدات الجديدة ليست متوفرة دائماً، وأن الكارثة تنشأ كثيراً من استخدام الدواء القديم بواسطة الانتهازيين الذين يكسبون قوتهم من استغلال حاجة الناس. كان يحيى ومقبل مرة أخرى في حالة جسدية طيبة. فقد أنعم على الأول ببطن هائلة بارزة، وهو دائماً يبدو في كرب عظيم عندما يضطجع على مخدته تحت كتلة ضخمة من الشحم. ذلك وحالة الصمم ربما قد نغّصا عليه حياته ولكن مزاجه بدا رائعاً، واشترك مع عبد الله في دعابة لطيفة عندما سخر منه قائلاً: «لا أستطع أن أفعل شيئاً لأذنيك، ولكن إذا ما كانت المقويات (أي المثيرة للشهوة الجنسية) هو ما تريده فتعال إليّ». فقال الشيخ الكبير «الحمد الله، لم يحن الوقت بعد لذلك».

تناولنا العشاء عند الرابعة والنصف عصراً بناءً على طلب خاص من الأمير، وأكلنا حتى التخمة على الرغم من الساعة المبكرة والحر، بيد أننا كنا سعداء عندما زحفنا ببطء إلى الانعزال في مسكننا، وخلدنا للراحة في برودة الجو على

---

(١) مرير الضبع. (فيلبي).

(٢) الجدري والطاعون والسل وغيرها من الأمراض التي كانت تفتك بالناس وتقضي على أعداد كثيرة منهم خلال القرون الماضية، وفي معظم أجزاء الجزيرة العربية. (ابن جريس).

السطح آملين عدم إزعاجنا في المساء. وناداني الدكتور عبد الله قائلاً: «تعال وانظر» وعندما تتبعت عينيه إلى الخارج على السطح المجاور، يا للعجب من المنظر!! ثلاثة نساء شابات بجمال عظيم. لقد كن في الحقيقة مجرد فتيات، عذروات متأهبات لسوق الزواج ويسعى في طلبهن، كما قيل، كثير من الخاطبين، الذين من بينهم ابن سويدان، الذي يشتهر بأنه خانع للنساء مثلما كان متعصباً في الظاهر. وأحياناً يبدو لي أن تعصبه لم يكن عميقاً؛ لأنه كان يُظن أنه يتودد سراً للنساء طلباً للعشرة المحرمة. أما عبد الله فقد جذب اهتمامهن بالفعل ولكنهن كن يمرحن بأنفسهن بلا خجل أمام عيوننا ولم يهربن عندما أحضر عبد الله المنظار ليقرّب الصورة. لقد كن جميلات بشدة جمالاً يبرر التفاخر الذي يسمعه المرء أحياناً بجمال نساء القصيم. وفي الحقيقة ليس على المرء إلا أن ينظر إلى الأطفال ليكون مقتنعاً بصحة تفاخرهم، إذا كانت النساء فقط يحتفظن عند كبرهن ببشائر جمالهن الذي يظهر في الطفولة. وما يثير الشفقة أكثر أنهن يُحجبن بعيداً في عزلة لا معنى لها من أجل متعة وبهجة الأفراد، دونما تعليم أو تدريب لخدمة المجتمع. كانت البنت الكبرى ترتدي فستان العروس بلون زاه مع كثير من الحلى الذهبية التي تومض في شمس الغروب، بينما أخواتها، المنشغلات بتزيينها ولبسها والإعجاب بها، كن في فساتين عادية فضفاضة حمراء، وتلك هي أول مرة أرى هذا اللون في عنيزة. وعند الغسق اختفين عن تحديقنا وتركننا نتساءل إذا ما كنا قد شهدنا الأعمال التمهيدية لليلة عرس أو مجرد قياس لثياب الاحتفال بالعيد القريب.

والتفسير الأخير نال بعض التأييد من الأحداث التي وقعت في المساء التالي. فعندما عدنا عند غروب الشمس من نزهة سيراً على الأقدام في الواحة وجدت عبد الله بالفعل على السطح يجدد متع المساء السابق، وقال لي: إن البنات الثلاثة كن يمتعنه بعرض راقص. في تلك المرة رأيتهن في لمحة قصيرة قبل أن يلفهن

الظلام، وكن كلهن في فساتين العيد[١]، من قماش الساتان الناعم بلون الذهب القديم. ولقد كان أشد روعة وجمالاً مما سبق على الإطلاق. هذا الظهور الثاني بالروعة المضاعفة الذي يستحق التوبيخ والزجر بشدة طبقاً للمعايير المحلية في الذوق واللياقة، لم يكن عرضياً بكل تأكيد. فالزواج غايتهن في الحياة وربما كان اقتراب العيد عذراً كافياً لهفوة صغيرة مفعمة بالاحتمالات الآنية. إن أمهم أو خالتهم؛ لأنهن كن يتيمات من بنات واحد صالحي متوفى، ربما تكون قد تسترت عليهن أو شجعتهن على عرض جمالهن. ومما لا شك فيه أن آخرين غير عبدالله قد متعوا أعينهم الجائعة بجمال أجسادهن. وفي المساء التالي، ليلة العيد نفسه، انخفض الثلاثة إلى واحدة وحُلّ اللغز. فقد ذهبت الكبيرتان إلى أزواجهن فوراً بعد رؤيتنا لهن آخر مرة، والصغيرة وحدها، مكسوة ببهاء العروس، وقفت على السطح تلك الليلة منتظرة النداء لمضجع عرسها. وكان القميص التحتاني الشفاف يتدلى بروعة فوق الصدرية الضيقة والسروال الواسع. وعباءة خفيفة سوداء أكملت ملبسها، وكان وجهها وخصلات شعرها المضفرة دون غطاء. لقد تزوجت البنات الثلاثة من ثلاثة إخوة من عائلة القبلان ولم نعد نراهن ثانية[٢].

طلع صباح السادس عشر من سبتمبر وكل الناس شديدو الانشغال بتحضيرات العيد في الغد لكي يستضيفوا ضيوف القهوة في الأيام العادية. وتبعاً لذلك قضيت وعبدالله يوماً هادئاً كعضوين من أهل بيت محمد، فبدأنا يومنا بالفطور المقتصد من

---

(١) الأعياد في الجزيرة العربية قديماً كانت أفضل حالاً مما نعيشه اليوم، حيث كان الناس يستعدون لمجيء العيد باللباس الجميل، وتنظيف المنازل وتزويقها، بل كانت تسودهم المحبة والألفة والتقارب فيما بينهم أما اليوم فأصبح الناس أيام العيد أقل فرحة واستعداداً عما كان يحدث في الماضي، والسبب سعة الخير الذي عم الناس، فأصبحوا طوال أيام السنة منشغلين بأعمالهم المتنوعة، بالإضافة إلى وفرة المال في أيديهم، مما أثر ذلك في طباعهم وسلوكياتهم. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن عادات الزواج والأعياد في عنيزة، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٦٥-١٧٠. (ابن جريس).

الأرز المطبوخ مع الزبيب والبصل المبهر، وشرائح البطيخ والشمام والتمر. إن نوعية البطيخ والشمام تبدو بصورة عامة رديئة هنا ولا طعم لها تماماً، ولكن في الآونة الأخيرة ظهر بعض الميل إلى استيراد بذور من الزبير. وتحول النقاش إلى وادي الرمة، الذي كان مستجمع أمطاره كما قال محمد في مكان ما بين المدينة وينبع. وهو الذي لم يسمع أبداً عن وادي الحمض على الرغم من أنه قد ذهب إلى المدينة[١]. ولم يقبل أي فكرة من آرائي بأنه ينشأ في الحرة شمال شرق المدينة، وترك الأمر ليبت فيه ذات يوم خبير حربي الذي تعهد بأن يقدمه لي ليقنعني. وكان كل واحد منا يراهن بعباءته على هذا الموضوع. وعلى مدى حوالي خمسة عشر عاماً قبل هذا الوقت كان الوادي يتعرض لفيضانات منتظمة، التي كانت تهطل أحياناً لما يصل إلى خمس أو ست مرات في العام، وأحياناً تُحوّل منخفض الزغيبية إلى بحيرة عظيمة يبقى الماء فيها أحياناً طول العام حتى الفيضانات القادمة، ومع ذلك ففي الأزمان القريبة نقصت الفيضانات بشكل أو بآخر في كميتها وانتظامها، ولكن في العام الماضي كانت هناك فيضانات طيبة حيث امتلأ منخفض الزغيبية عن آخره. وفي هذه السنة لم يأت فيضان على الإطلاق.

ثم انتقلنا إلى مناقشة في علوم الأرض «الجيولوجيا» واتخذ مضيفي موقفاً خلف ستار من الدليل القرآني لا يمكن الهجوم عليه، ومن المستحيل النيل منه. فبالنسبة له فإن عمر العالم يبلغ خمسة آلاف سنة في الخارج، وأن حيوانات نوح كانت الأسلاف لجميع المخلوقات الحية الآن على الأرض. وتصادف أن كان بجواري الكتاب السنوي للموسوعة البريطانية، الذي قدمته له محتجاً بأنه من بين جميع بلدان العالم كانت جنوب إفريقية قد بقيت طويلاً فوق البحر. فقال: «هراء، إنها عندنا في كلام الله نفسه أن جودي كانت أول أرض تظهر فوق مياه الفيضان العالمي». وبهذا الاسم أيضاً

---

(١) للمزيد عن وادي الرقة وفروعه، انظر: الشريف، جغرافية المملكة، ج١، ص ٨٧-٨٨.

يعـرفونا آرارات. ولكن حتى فـي أثناء حديثنا وقع شيء جعل ثقـته تهـتـز في الطرق العلمية التي عليها يعتمد بصورة ضمنية شديدة. فقد صاح أحد الخدم وهو يندفع في الغرفة: «سنقيم العيد اليوم فقد أعلنه الشيخ واليوم سوف نضحي، والصلاة ستقام غداً صباحاً». وتحولت بنشوة الانتصار إلى مستمعي قائلاً: «ألم أقل لكم أمس من كتبي أن اليوم سيكون العيد، أنا، مجرد كافر، وأنتم المسلمين لن تصدقوني بينما شيوخكم الآن يصدقون مجرد قول واحد من البدو البسطاء حاد النظر أكثر من معظمكم أو ربما نظر من بقعة ما كانت فيها السماء غير معتمة بالسحب. لابد أن يكون عندكم شاهد بشري على أشياء تتجاوز قدرة الإنسان». فقال محمد الذي كان أصم قليلاً وبطيء الفهم أيضاً: «والله، لقد قلت لنا في الحقيقة». في هذه المرة، طبعاً، لم يتحول النزاع إلى رؤية القمر في الليلة السابقة؛ لأن عيد الأضحى يكون في العاشر من الشهر القمري، ووصلت الأخبار متأخرة وأن الهلال الجديد قد شوهد في اليوم السابق على رؤيته في عنيزة وما حولها، واحتج بأن هذه الأخبار لابد أنها جاءت من مسافة بعيدة، ربما من الساحل أو من البصرة[1].

في عصر ذلك اليوم وبعد الانتهاء من الأضاحي وتوزيع كثير من اللحم على الفقراء، زرنا محمد بن أحمد الذكير، الذي كان أبوه، المتوفى منذ زمن طويل، الأخ الأصغر لمقبل ويحيى. وأخته، المقيمة معه، ما تزال مدرجة على القائمة السارية لحريم ابن سعود وأنجبت حديثاً منه بنتاً، سميت جوهرة مجاملة للملكة الرئيسة. في مجلسه الواسع المؤثث تأثيثاً حسناً لاحظت وجود كرسي هزاز كبير من الحديد الذي اشتراه منذ بعض سنوات مضت في بومباي. ودار الحديث عن موضوع المجوهرات الذي أوحى به اسم بنت ابن سعود الرضيعة. فعلاوة على اللؤلؤ فإن معظم الأحجار

(١) يتضح للقارئ أن مناقشة فيلبي مع بعض رجالات عنيزة تدل على وجود فكر وثقافة حسنة عند أهل عنيزة، وإلا ما استطاعوا مناقشة هذا الرحالة في قضايا علمية دقيقة مثل: العلوم، الجغرافية، والتاريخية، أو حركة النجوم، وتعاقب الأيام وغيرها من المواضيع التي لمسناها في أكثر من مكان على صفحات هذا الكتاب. (ابن جريس).

الكريمة المشهورة هي الفيروز من بلاد فارس والياقوت من بورما، ولكن الماس نادر على الرغم من أنه يُلبس أحياناً قرطاً في الأذن[١]. وكان رأيي في مستجمع أمطار وادي الرمة قد نال هنا بعض التأييد، بيد أنهم أبدوا جهلاً عظيماً بمسار وادي حنيفة، الذي كنت قادراً على تزويدهم بمعلومات موثقة عنه[٢]. إن معلوماتهم الجغرافية تبدو صبيانية إلى درجة ما، وفي المدن لم تكن فكرتهم عن عقارب البوصلة حسنة مثل المواطن الهندي العادي. مع أنه فيما يبدو أن لديهم فهماً غريزياً لحقيقة أن الشخص يكون صاعداً نحو الغرب ونازلاً للأسفل نحو الشرق. هنا انضم إلينا إبراهيم بن زامل، نجل الأمير الشهير، ولكنه من النوع المتعصب وهو أول عينة من هذا النوع أقابله. لقد كان يعتني تماماً بملابسه الحسنة وعقاله الصوفي الثقيل، ولكنه بكل تفاخر حجب سلامه عني، وأنا بالقدر نفسه من التفاخر نهضت لأنصرف.

أمامنا كان يسير يحيى العجوز ويتهادى في مشيته بتلك السرعة التي يسمح لها بها بطنه العظيم على رجليه القصيرتين ذات الحجم الهائل. وقد ألقى علينا التحية بحرارة عندما مررنا بجواره ومضى في طريقه إلى أحد الجلسات لشرب القهوة. عند باب بيتنا قابلنا جاراً قريباً لنا، رجلاً عجوزاً يدعى سليمان السعيد، الذي توقف ليتبادل الحديث معنا وأعلن رغبته الشديدة في دعوتنا لتناول الطعام معه. واعتذرنا بأنه سيكون كافياً لو شربنا القهوة معه، وحيث إن احتفالات العيد وهي الزيارات المتبادلة بين جماعات المؤمنين بعد صلاة العيد الجامعة[٣]، سوف تجعل

(١) لمزيد من التفصيلات عن العلاقات والنشاط التجاري في عنيزة، وما يرد إليها من سلع مختلفة، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٤٥-١٤٩، السويداء نجد في الأمس القريب، ص ١٢١، أبو علية، الدولة السعودية الثانية، ص ٢٧٣، العثيمين، نشأة إمارة آل رشيد، ص ٩٠. (ابن جريس).

(٢) يتصل بوادي حنيفة واد آخر يسمى وادي السهباء، ويبلغ طول الواديين معاً حوالي (٧٠٠) كم. للمزيد انظر: الشريف جغرافية المملكة، ج١، ص ٨٨-٨٩. (ابن جريس).

(٣) الزيارات المتبادلة بين الناس يوم العيد كانت من أجمل ما تتصف به الأعياد، أما اليوم فقد خفت بشكل ملحوظ، وربما انعدمت في بعض النواحي من المملكة العربية السعودية. (ابن جريس).

مثل هذه الزيارة صعبة في الغد، فقد وافقنا على زيارته فوراً، تاركين له وقتاً كافياً فقط ليعود إلى بيته ويوقد ناره. وخلال دقائق قليلة كنت ومحمد، وعبدالله، مصحوبين بعتيق الصغير الذي كان يرتدي حُلة العيد ـ كوفية من الحرير القرنفلي الرقيق، وعقال رائع صغير من بلاد الرافدين، وعباءة سوداء وعصا خيزران ـ في طريقنا إلى مجلسه المريح. هناك وجدنا عجوزاً آخر يزيد عن السبعين خريفاً مثل مضيفنا. كان هذا يُدعى عبد العلي العلي وهو أصلاً من الزلفي[1]، وجاء ليستقر هنا منذ زمن يقترب من زيارة داوتي وقد تذكّره تماماً.

لقد بدأ سليمان العجوز حياته تاجراً، وقضى عشرين سنة في البصرة بهذه الصفة لمدة ست عشرة سنة، عندما عاد بعد وفاة أبيه، الممارس الطبي الوحيد في عنيزة ليخلفه في مهنته. ومن الواضح أنه لا يملك أي مؤهلات أخرى للوظيفة ما عدا أنه كان بالصدفة ابن أبيه. ومع ذلك فقد انكب بهمة على ممارسة مهنته التي تغطي القصيم كله، ولكنه يشتكي من أنه لا يوجد مجال ولا دلائل تبشر بالربح والنجاح في هذا البلد. فالمرة الوحيدة التي نال فيها مبلغاً كبيراً أكثر من مجرد كلمة «شكراً» مقابل خدماته هي عندما اعتنى بمبارك بن صباح في مرضه الأخير (المميت)، ولم يدفع له ورثة الشيخ العجوز فقط بل إنهم زودوه بمخزون من الأدوية عاش عليه منذ ذلك الحين.

وقد طلبت رأيه في موضوع الأرواح الشريرة وعلاج الأشخاص الذين بهم مس من الشيطان. فقال بكل جد: «مس الشيطان مرضٌ شائع من السهل جداً تشخيصه، فالجان[1] مخلوقات على هيئة بشرية إلا أن عيونها لوزية (مستطيلة وضيقة)، والتي تكون رأسية وليست أفقية. وهي تدخل أجسام الضحايا دائماً عن طريق أصبع

(١) لمزيد من الإيضاح عن مدينة الزلفي، انظر: عبدالرزاق بن أحمد اليوسف السعود. الزلفي (منشورات الرئاسة العامة لرعاية الشباب) ص ١٩ وما بعدها (ابن جريس).

(٢) جمع جني: (فيلبي).

القدم الكبير. ولكن في جميع الحالات تقريباً نجحت في إخراجهم بتلاوة رقى من كلام ربي ـ أي من كلام الله ـ مع حرق البخور». من الواضح أن لديه عيوباً مهنية، ولكن ليس هناك ما يعيبه كمضيف، وشعرت في ذلك الحين أنني ـ حتى في تجربتي كلها بعنيزة ـ لا أجد حريتي أبداً كاملة مثلما أجد في مجلس هذا الطبيب العجوز غريب الأطوار. واعتذر عن تقصيره في دعوتنا قبل ذلك بسبب مرضه. وأردف قائلاً "على كل حال، لا أخرج إلا نادراً وأنتم على الرحب والسعة متى ما شئتم زيارتي وأنت، وعبد الله، لا تخجلا من المجيء هنا فنحن إخوان» (في الطب). وقد زعم أنه يعرف داوتي، ولكنه قال بكل وضوح، وهو يتحدث عنه بصفته اختصاص تطعيم، أنه في الحقيقة لم يره، وكان انطباعه هذا قد أكده عبد العلي. ولكي يكمل ضيافتنا قدم صينية، وضع عليها أربع سلطانيات من أشهر التمور التي ذقتها على الإطلاق في المنطقة، تشمل نوعين هما: نوع كبير جداً بلون بني خفيف يسمى خوخه هنا ويشتهر في المناطق الأخرى باسم دقلة، وتمر كبير بني اللون يميل للحمرة يسمى حمر المذنب تبعاً لمكان منشأها الشهير[1].

بعد أن تركنا مضيفنا أتينا إلى مجلس ثانوي أو مساحة مفتوحة نحو طرف ضليعة من المدينة، مساحة محفوظة على الدوام من تعدي البناءين عليها؛ لأنها وقف للسبيل (لله)، أي مخصصة لخدمة الله. وكانت مساحة بيضاوية غير منتظمة تحيط بها مجموعة من البيوت عند كل زاوية من محيطها، ويبدو أنها تستعمل سوقاً للحطب والوقود كما يتضح من أكوام الخشب مختلفة الأنواع التي تسدها. وبعدما خرجنا الآن من المدينة عبر سلسلة من الحارات الضيقة التي تقطع بساتين النخيل المسورة، وصلنا إلى حديقة، حوالي أربعة أو خمسة أفدنة في مساحتها، تخص فهد البسام. لقد كانت في السابق بقعة باهية بغزارة الأشجار الباسقة، بيد أن الإهمال

(١) تعتبر القصيم من البلدان المشهورة بأصناف عديدة من التمور الجيدة والمتنوعة في أحجامها ومذاقها (ابن جريس).

المستمر قد ردها مرة أخرى إلى ما هي عليه، مجرد بستان نخيل به مجموعة من أشجار الزيزفون والليمون حسنة النمو. والمعلم الرئيس فيها هو بئر صغيرة مبنية بعمق يبلغ عشر قامات ذات شكل مستطيل فيه خمسة دواليب عليها تسحب الإبل قرب الماء على جانب واحد. وتفرغ المياه في حوض كبير من البناء طوله مئة قدم وعرضه ستة أقدام، وبه قنوات مبنية ضيقة موزعة في مختلف أجزاء الحديقة من سلسلة من المخارج. والماء يقف فيها عند عمق حوالي قدمين وهو مغطى بصورة كبرى بالأعشاب الضارة. وقد استفاد منه محمد لأداء وضوئه لصلاة العصر، التي أقامها هو وعبد الله في الحديقة بينما كنت أتجول جيئة وذهاباً. وعدنا عن طريق حلة ضليعة، مارين خلال جزء من السوق الرئيس حتى وصلنا بيتنا[١].

في وقت لاحق من العصر نفسه انطلقت مع حمد، وعايض، ومروج عن طريق القاع الذي ما يزال كما كان في عهد داوتي مساحة فضاء كبرى مكدسة بأكوام عالية من نفايات وقمامة المدينة، تعلوها العظام البيضاء من الإبل والغنم المذبوحة للبيع. في أحد أركانها خارج سور حديقة توجد قناة صخرية عميقة كبيرة لسقيا الحيوانات، هبة على سبيل الوقف من أصحاب الحديقة، وهم بعض أفراد عائلة البسام الكبرى. ثم سرنا بعد ذلك في الطريق الشمالي، المسور على كلا الجانبين، والذي من بداية قرية ملح فصاعداً يتشابه تماماً مع قاع السيل الرئيس وهو طريق عام واسع جميل يؤدي إلى المقابر الكبرى قرب ضيا ومنها ـ بعدما سرنا بصورة عشوائية ـ تجولنا في حقول البرسيم وحدائق السوق والبساتين المسورة حتى وصلنا النفود بالقرب من بئر كبيرة على مقربة شديدة من فجوة مفتوحة في السور

(١) لمزيد من المعلومات عن الطبيعة الجغرافية لمدينة عنيزة، انظر: الشريف، منطقة عنيزة، ص ٤٠، أمين الريحاني، ملوك العرب، ج٢، ص ١٢٠. وقد سمي أمين الريحاني عنيزة باسم (باريس نجد) حيث قال: «وهي أجمل من باريس، إذا أشرفت عليها من الصفراء لأنه ليس في باريس نخيل وليس لباريس منطقة من ذهب النفود» محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ٢٠، أحمد الشامخ، «نظام التصريف المائي بمنطقة القصيم» مجلة الدارة، سنة (٥) عدد (٤) (١٤٠٠هـ) ص ٧٠. (ابن جريس).

الدائري. كانت البئر[1] ثمانية دواليب تحركها أربعة جمال على أحد الجوانب، وثلاث أبقار وحمار على الجانب الآخر. وهي مبطنة بالحجر وعمقها نحو تسع أو عشر قامات. وعندما تركنا البئر من الخارج دخلنا الواحة مرة أخرى من فجوة أخرى مماثلة وعدنا نحو بيتنا عن طريق منطقة الجناح، وقابلنا فهد البسام على الطريق وهو خارج من حديقة تخص أحد أقاربه. وعندما مشينا معاً دار الحديث عن داوتي، الذي اقترح على عبد الله البسام تحويل مزبلة القاع إلى حديقة عامة للترفيه عن مواطني عنيزة. وكان عبد الله البسام الشاب في تلك الأيام، والذي قُدّر لي أن أقابله لاحقاً، ما يزال على قيد الحياة كما قال لي، على الرغم من أنه يحيا حياة من العزلة في إحدى الحدائق، ولكن الشيخ ناصر الكبير في السن قد توفي من زمن طويل. وبعدما وصلنا عند المجلس الكبير استدار جانباً ليصلي في المسجد الرئيس، وواصلت سيري نحو البيت من خلال السوق الرئيس.

في الماضي، كما قالوا لي، من المعتاد أن تستمر احتفالات العيد لثلاثة أيام من الرقص والغناء والمرح العام الصاخب، ويشمل عروضاً عسكرية ورقصاً من نساء البدو. ولكن منذ احتلال ابن سعود للقصيم تحول إلى احتفال ديني محض من الصلاة وذبح الأضاحي[2]، والشيء الوحيد الباقي من الجاهلية القديمة هو ضجيج بغيض من الأغاني والضوضاء يرددها طول الليل صبيان المدينة، وكل حي له عصابته الخاصة من ناشئة مواطنيه الذين يستعرضون في حاراته وأزقته وبكل غيرة يبعدون جميع المنافسين لهم بعملية بسيطة تنطوي على قتالهم إذا استدعت الحاجة ذلك. وكل مجموعة إخوان من الفتية يجمعون اشتراكات ليوفروا لأنفسهم الحلويات

(١) هذه البئر والحديقة الكثيفة التي ترويها تعرف باسم معاوية، كانت من أملاك عائلة الخنيني، وقد ذكرها داوتي الذي زارها. (فيلبي).

(٢) من حسنات دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في الجزيرة العربية أنها سعت إلى محاربة العادات الخارجية عن إطار الشريعة الإسلامية مثل: رقص النساء أمام الرجال، والغناء وغيرها من الخرافات والمعتقدات التي نص القرآن الكريم والسنة المطهرة على تحريمها (ابن جريس).

والمـرطبات في الاحتـفال، والضجيج الذي كانوا يحدثونه كافٍ ليبقيني ساهراً جزءاً من الليل.

في غضون ذلك كنت قد قضيت المساء مع ناصر الشبيلي، من عائلة من عنيزة لها أملاك واسعة في بساتين التمر الغنية بالبصرة، وبعض من أصدقائه على مساحة السقف الضيقة التي تربط بين بيتيه على كلا جانبي الشارع. هذه كانت أفضل بكثير من المجلس المعتاد ذي الجو الخانق، وهناك سماط رائع من الفاكهة خوخ وبطيخ ممتاز، للتناول بين دورات القهوة والسجائر. وقد أثارت هذه الجلسة لدى عبد الله وعندي كلٌّ على حدة تماماً انطباعاً بأنها عراقية أكثر منها عربية، فالرقة والدماثة المبالغ فيها تقريباً ولكنها طبيعية في عنيزة قد تلطفت بشيء من الفظاظة والسوقية المرحة من البصرة[١]. وكان ناصر غائباً منذ فترة قصيرة مضت في أرض له تسمى زبيدة بالوادي، حيث يوجد نبع جديد حاز على اهتمامه؛ ولذلك اعتذر عن إهماله الواضح لنا ودون لغط أكثر دخل فجأة في الموضوع الذي بسببه كانت دعوته الحالية. إن بعضاً من مزارع تموره في معقل قد صودرت من قبل السلطات العسكرية البريطانية بتعويض يعتبره غير كاف. ولقد خلقت شيئاً من الإثارة عندما اعترفت بأنني كنت المسؤول عن تقدير القيمة، الذي حدد بالطبع على أساس القيمة العادلة قبل الحرب، وليس على أساس الأسعار المرتفعة التي نشأت من الاحتلال العسكري. وفي الوقت نفسه ذكرت حقيقة أنه لم يأت بصورة واضحة أمامي، كمدعو بإشعار عام، ليحتج على التقدير. فرد قائلاً: إنه قد فعل ذلك بعد سنة مع خليفتي، عندما تم التخلي عن الخطة العجيبة لحيازة أراض كبيرة بصورة دائمة، وتقلصت القضية إلى مجرد التعويض عن الضرر الحقيقي الذي وقع. وفي

(١) ربما حياة التمدن العراقية أثرت على بعض أهل عنيزة بسبب ترددهم على مدن العراق، والعيش فيها بعض الوقت، ثم العودة إلى مواطنهم الأصلية في بلاد القصيم. (ابن جريس).

الختام اقترحت عليه أنه يستطيع دائماً أن يمتحن صحة التقدير في المحاكم، واختتم الموضوع بعرضه عليّ أن يأخذني ذات يوم لمشاهدة مزارعه في الوادي(١).

في الصباح التالي استيقظت قبل الفجر وخرجت مع عبد الله وكنت أحمل كاميرتي، مخبأة بعناية تحت عباءتي لنرى ونلتقط صوراً ضوئية لصلاة العيد، التي تُؤدى فوق منحدر رملي منخفض جنوب السنجر الجنوبي الغربي. هذا المكان على الرغم من أنه الموقع المنتظم للصلاة في مثل هذه المناسبات، لا يختلف كثيراً عن النفود المحيطة به إلا بوجود منبر من ثلاث درجات لا تزيد في الارتفاع عن ثلاثة أقدام. وفي طريقنا إلى موقعنا الممتاز، قمة رملية قرب حديقة الخريجية، مررنا على حشود هائلة من الناس كلهم يسرعون الخطى في الاتجاه نفسه، ومن بينهم لاحظت نسبة طيبة من النساء في فساتين خارجية فضفاضة ذات لون أزرق يميل للخضرة وعباءات سوداء. من البوابتين الجنوبية والجنوبية الغربية كانت مواكب متصلة كثيفة من البشر تسير مقتربة من «المسجد»، حيث خلف المنبر جلست مجموعة من الرجال يزيد عددهم باستمرار وخلفهم على مسافة معقولة اجتمع حشد مماثل من النساء ولكنه أصغر نسبياً. وعلى طول وقت الصلاة يتقاطر المتأخرون على أقدامهم أو على ظهور الخيل ليملؤوا المكان، وكانت الخيول توقف معاً أمام الطرف الأيسر لصفوف الصلاة.

وبعد شروق الشمس مباشرة جاء موكب ذو مظهر أشد جلالاً ومهابة من المواكب المتواصلة المفككة من البشر التي احتلت المكان حتى الآن، جاء بارزاً من الركن الجنوبي الغربي للواحة، ونهض المصلون كلهم عندما تقدم الإمام، صالح القاضي(٢)،

---

(١) يغلب على بلاد القصيم توفر الأراضي الزراعية المتنوعة في أحجامها وموارد مياهها ومنتوجاتها. (ابن جريس).

(٢) تولى الشيخ صالح بن عثمان القاضي القضاء في عنيزة من عام (١٣٢٤هـ/١٩٠٦م)، حتى وفاته عام (١٣٥١هـ/١٩٣٢م). انظر: محمد القاضي. روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين (د. م. د. ن، ١٤٠٠هـ) ج١، ص ١٥٢، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ٦٦. (ابن جريس).

ابن عم إبراهيم القاضي، إلى مكانه أمام المنبر. ودون لغط كثير بدأت الصلاة الأساسية من ركعتين وكان الصوت الواضح الرفيع للإمام يتردد صداه بنغم عذب فوق هواء النفود الصافي الله أكبر، الله أكبر!! وكلما وقف وركع وانحنى وسجد، كان المصلون كلهم يفعلون ذلك وراءه. وبعد انتهاء هذا صعد المنبر، وواجه الحاضرين الجالسين، الذين تزاحم الكثير منهم من الجناحين متقدمين للأمام ليأخذوا أماكنهم على الأرض أقرب ما يكون للخطيب، ومع ذلك كان آخرون، بعدما أدوا الحد الأدنى مما هو مطلوب حسب الشريعة الرسمية، قد تسارعوا منصرفين نحو المدينة ليهتموا بتحضيرات العيد والتصدق على الفقراء.

والآن في إنشاد غنائي، كما لو كان يتلو ولا يعظ، ألقى الإمام الخطبة وهو يقلد الخطبة السنوية على جبل عرفات، التي تكون الشعيرة المتوجة للحج الأكبر بمكة. وكلما حكى قصة إبراهيم وكيف كان سيضحي بولده إسماعيل[١] كانت النساء وحتى كثير من الرجال من بين المصلين يبكون بنشيج عالٍ تعاطفاً مع الأب الذي كان يخاف الله كثيراً. بعد ذلك دخل في شرح النواحي العملية من شعيرة التضحية. من كل حيوان سيضحى به كل أهل بيت من البيوت ينبغي أن يخصص ثلثه للفقراء والمحتاجين، وثلث آخر يجب أن يوزع بين الجيران، وثلثه الأخير يمكن الاحتفاظ به لاحتياجات أهل البيت.

وفي منتصف الخطبة كان هناك وقفة واضحة، منها استفاد جزء كبير من المصلين لينصرفوا إلى واجباتهم. ثم استمر الإمام حتى النهاية، عندها حدثت جلبة شديدة وهرولة نحو البيوت[٢]. لكنني لاحظت أن النساء من المصلين قد تخلفن بعد أن ذهب الرجال وتزاحمن حول المنبر، واستمرين في صلاتهن في هيئات من

(١) في التقاليد الإسلامية كان إسماعيل هو الذي ناداه أبوه ليضحي به وليس إسحاق (فيلبي).

(٢) تظهر دقة ملاحظة فيلبي في وصف صلاة العيد، وهيئة المصلين وهم يؤدون هذه الشعيرة العظيمة. (ابن جريس).

التواضع والتوقير الذليل. ربما كان هناك قيمة في لمس الأرض نفسها والمنبر الذي وقف عليه الإمام[1]. وبعضهن وهن يصلين، كن ينتحبن ويبكين بحرقة.

في أثناء عودتنا عن طريق البوابة الجنوبية الغربية لاحظت سمطاً مفروشة أمام أبواب بيوت عديدة في الشارع الترابي وهي مصنوعة من الحصير عليها أطباق من العصيدة[2] والسمن، وحولها جلس الضيوف يأكلون. بيد أنه وقد لاحظت في هذه الأطباق غياب اللحم، ربما كانت مساهمة متواضعة من الفقراء أنفسهم إلى المعدمين. وفي كل الأحوال في ذلك اليوم لم يكن هناك جائع في عنيزة، حيث احتفلوا بالعيد بطريقة الترفيه الوحيدة المعروفة لمواطنيها، وهي جولة لا نهاية لها من الزيارات لتقديم التهاني المتبادلة وتناول القهوة. وبالنسبة لي كان العيد مناسبة لتوزيع الهدايا على أطفال مضيفي وخدمه. وجاء جارنا، عبد العزيز القنير، ومعه ولده الصغير لينال حظه؛ ولأنه لم يكتف بهذه الصدقة فقد ذكر لي ولده الآخر الذي لم يكن في البيت تلك اللحظة، ولهذا أضفت مساهمة صغيرة للولد الغائب. فقال أبوهم: «وماذا عني أنا؟». لقد كان هذا سلوكاً غريباً على عنيزة، وعبد الله، الذي سمع طلبه ، قد احمرّ وجهه من الخجل. وقد رفضت طلبه بمزاح ضاحك، وانصرف عبد العزيز مخيب الآمال ولكنه غير خجلان.

كان صالح الفضل أول زائر لنا بتحيات رقيقة ودعوة في الغد. ثم جاء عبدالرحمن البسام، أخو عبد الله الذي كان شاباً في عهد داوتي. وهذه أول مقابلة لي معه وكما لو كان يجد عذراً لنفسه عن عدم زيارتنا من قبل، فقد شجب «غلظة» الناس. ولقد استنكرت هذا الوصف بخصوص عنيزة، ولكنه أصر على وجود زيادة

---

(١) هذه الطريقة تتعارض مع الشريعة الإسلامية الصافية، فلا يجوز التبرك بالأرض أو المنبر الذي كان عليه الإمام، أو ما شابه هذه الأشياء. (ابن جريس).

(٢) جريش (فيلبي). للمزيد عن بعض الأكلات الشعبية في القصيم. انظر: الهويمل، بريدة، ص ١٦٧-١٧٠، السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٧٠-١٧١، المقوشي، البكيرية، ص ٢٣، العيد، البدائع، ص ٩٣-٩٥. (ابن جريس).

في التعصب الأعمى بالمدينة منذ أيام داوتي، وأعرب عن أمله في أن أزوره ذات يوم في حديقته خارج المدينة. وقال لي: إن أخاه، عبد الله، قد شغل نفسه لسنوات كثيرة بجمع مذكرات مخطوطة عن كثير من الموضوعات العويصة ليشكل ما يمكن أن يكون مثل دائرة معارف لاستخدامه الشخصي. وتناولنا طعام الفطور، بدعوة منه، في بيت عبدالله الحمد السليم، مع عدد من الضيوف الآخرين الذين لا أعرفهم جلسنا حول وجبة مقتصدة من الأرز المبهر بالبصل، والخبز، ولبن الزبادي، والبطيخ والشمام، والتمور. بعد الفطور فوراً نهضنا للانصراف، على الرغم من أن مضيفنا بذل جهداً شكلياً لبقائنا لتدخين السجائر. كانت هذه القاعدة من الانصراف الفوري بعد الطعام تبدو دائماً لي أنها السمة الوحيدة الفظة في كل ضيافتهم الكريمة.

دار الحديث على موضوع النساء الأرمنيات في الجزيرة العربية. إن حوالي مائة وعشرين منهن، ربما يشملن بعض الشركسيات، قد انجرفن إلى القصيم في السنة الماضية على إثر طوفان الاضطهاد الذي دمر وطنهم. وقد جاء معظمهن معدمات واتخذهن قصمان كثيرون زوجات لهم، بعدما وجدن في دينهن الجديد الراحة وفي بعض الحالات النعيم المحرومات منه في وطنهن. وقد أدركت السلطات الدينية حاجتهن الخاصة للحماية فأصدرت فتوى تمنع طلاقهن إلا بشرط أن يوفر لهن الزوج قوتاً شهرياً وفيراً لمعيشتهن. وقد أرسل بعضهن إلى ابن سعود على سبيل الهدايا، ولكنه تنازل عنهن إلى المفضلين من رجال حاشيته. وقد عرضت واحدة منهن على محمد السليمان، الذي رفض هذه الهدية الخطيرة خوفاً من الإساءة إلى زوجته الرسمية. وقالوا لنا عن أخرى جميلة تسلب اللب قد ترملت حديثاً، والتي كانت أمها الطموحة تستهدف زواجاً رائعاً مقروناً بشرط أن تعمل هي نفسها في الخدمة المنزلية ببيت زوج بنتها. هؤلاء النسوة الأرمنيات كن مشهورات بأنهن طباخات ماهرات وبارعات في فنون ربات البيوت.

بعد صلاة الظهر خرجنا على مهل لنسلم على العجوز عبد العزيز، الأمير السابق، الذي وجدناه جالساً على الأرض مع جماعة صغيرة من الزوار في الممر المؤدي إلى مكان استقباله الخارجي. وكان مستغرقاً في قراءة كتاب صغير بعنوان: **تقويم العيوني** وهو نوع من رزنامة الظواهر الجوية أعده أحد العلماء في الأحساء ليبين فترة تمتد إلى مئة وخمسين عاماً، منها ثمانية قد انقضت بالفعل والتواريخ والنجوم التي بموجبها تبدأ المواسم الزراعية المختلفة. وكنا الآن في موسم الخريف حسب هذا الكتاب، وكانت الوسم أو الصفري أي فترة الوسمي وهي أشد الأمطار فائدة على وشك أن تبدأ في العاشر من محرم، أي بعد شهر من الآن. وهو يحاول أن يكتشف تفسيراً لنوبة الحر التي كانت في هذا الوقت شديدة الوطأة بالمدينة، حيث إن درجة الحرارة قبل شروق الشمس في يوم العيد هذا تبلغ ثمانين درجة فهرنهايت. ثم تحول النقاش إلى السفر والتعليم، وطلب رجل طاعن في السن من عائلة البسام، أعمى تقريباً، من الحاضرين أن يلاحظوا التقدم الكبير في هذا الاتجاه الذي جلبه الإنجليز معهم إلى الشرق(١).

في طريقنا للالتزام بموعد مع سليمان الذكير صادفنا ولداً آخر من أولاد زامل الكبير، ولكن محمداً، مثل أخيه إبراهيم، قد أفسدته قرحة التعصب الأعمى. ولقد كان من المحزن أن يدرك المرء أنني بهذا الشكل قد حُرمت من ما هو أكثر من مجرد معرفة عابرة مع أولاد واحد اشتهر كثيراً بالتسامح في ماضي الأيام العظيمة. كان مقبل ويحيى وعبد العزيز الذكير من بين جماعة الضيوف في بيت سليمان الذي دخلناه في الوقت نفسه مع عبد الله البسام الشاب الذي كان من معارف داوتي.

---

(١) يظهر أن مدينة عنيزة أثناء زيارة فيلبي لها عام (١٣٣٧هـ/١٩١٨م) كانت لا تخلو من المنتديات والمجالس العلمية الفكرية التي تناقش مواضيع متنوعة في أبوابها ومعلوماتها. للمزيد عن الحياة العلمية والفكرية في عنيزة انظر: عبدالشبل، التعليم في نجد، ص ٥٠٧، محمد السلمان، التعليم في عهد الملك عبدالعزيز (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ص ٢٣١ وما بعدها. (ابن جريس).

والآن شيخ فوق الستين، ولكنه بصحة حسنة، منتصب القامة ذو لحية مشذبة بشكل حسن، والشعر الرمادي فيها قد أخفته الصبغة السوداء تماماً. إنه رجل عجوز أنيق في مظهره ذو شخصية متحذلقة. فقد احتكر الحديث، وتكلم بصوت عال، عن الطب بصورة أساسية. ففي إحدى المرات كان داوتي قد قدم له جرعة أو حبة من زيت الكروتون (Croton-Oil) ليعالج معدته، وقد عملت عملها بقوة شديدة لدرجة أنه لبعض الساعات ظل بشكل حقيقي حبيساً في مرحاضه. وبعد ذلك بقليل تورم جسمه كله ولكن الطبيب أكد له أنه لا داعي للقلق، وفي اليوم التالي وجد نفسه في صحة أفضل لم يتمتع بها أبداً من قبل. ومما أثار ابتهاج يحيى العجوز كثيراً الذي كان سليمان يصيح راوياً له القصة في أذنه الصماء بعد إضافة بعض المحسنات. حكيت لهم حكاية الرجل الذي سمح أو جعل أمه تبلع في مرة واحدة ست جرعات من مادة ما أعطاها لها داوتي لتنال شفاءً سريعاً، وكيف أن الأخير، بعدما سمع ما حدث، أمر الرجل أن يركض للبيت بأقصى سرعة يستطيعها، وإذا وجد أمه نائمة أن يسقيها محتويات فنجان قهوة!! وكانت التجربة الوحيدة ليحيى في العالم الخارجي قد تمت منذ حوالي ثلاث وخمسين سنة مضت عندما زار القاهرة ومعه بعض البضائع، وعاد عن طريق جدة ومكة. ومنذ ذلك الحين كان مقبل يدير تجارة العائلة.

كان عشاؤنا، مثل فطورنا، في بيت عبد الله الحمد السليم، حيث ذهبنا إلى هناك في حوالي الخامسة مساءً. وكان مضيفنا قد زار الهند مرة، ولكن لأنه قضى وقتاً طويلاً في التجارة بالبحرين ومسقط، فقد وجد نفسه في حالة صحية شديدة الضعف لا تمكنه من الاستمتاع بكراتشي وبومباي. وعندما تحدث عن داوتي قال: «في الحقيقة، لا يسعني إلا أن أعتقد أنه تنقصه الحكمة والكياسة. فلو كان نهض، عندما نودي للصلاة، قائلاً عبارة «حلت البركة»[(١)] لكان قد لقي استقبالاً وترحيباً مختلفاً

(١) بارك الله فيها. (فيلبي).

تماماً، ولربما كان الله قد رضي عنه أيضاً. لماذا، كان هناك شخص عظيم في المدينة، مسلم بالطبع، ولكن ليس من المذهب الوهابي، والذي جاء إلى نجد، وبعدما وجد أهلها ليسوا ملائمين للصحبة بدأ يتحدث عن العصافير(١). وعندما رأى أن مضيفيه الكارهين له يعتبران الطائر طعاماً نادراً ليس سهل المنال في كل الأحوال بدأ يتحدث بتفاخر «انتظروا حتى تأتوا إلى المدينة، حيث أزرع نوعاً غريباً من الدخن به مسامير في البذرة تقتل الطيور. وعندي منه آلاف وسوف أقدم لكم وليمة من العصافير». فقال المضيف لخادم عنده «اذهب، واذبح شاة طيبة وتأكد من أن عشاءً حسناً قد أعد لضيفنا الكريم». واختتم عبد الله قائلاً: «هذا هو طريق الانسجام مع العالم».

قُدّم العشاء في الرواق المفتوح بالطابق العلوي، وكان مضيفنا، جرياً على عادة أشد شيوعاً في عنيزة عن غيرها، قد جلس على اللحم معنا. إن الفرق الكبير بين مستوى المعيشة في عنيزة والمناطق الأخرى من نجد يرجع ـ كما قال ـ لحقيقة أن مواطني الأولى موجودون في جميع المراكز التجارية الكبرى حول الجزيرة العربية، ليسوا مجرد عابرين وإنما مقيمون دائمون. وليس هناك شك في التأثير الحضاري من الاختلاط مع أشتات مختلفة من الناس في العالم الكبير. إن أهل بريدة، على سبيل المثال ـ وهذه حقيقة ـ يمكن أن تقابلهم في بغداد، ودمشق، وأماكن أخرى، ولكن كمجرد زوار موسميين الذين تقع بيوتهم الدائمة في نجد.

ولقد حكيت لهم قصة المزارع الشاب الذي أحضرت له المال الذي ائتمنني عليه قريبه في بغداد والذي لم يدعني أبداً إلى بيته. وقلت: «إن عنيزة قد سرتني كثيراً لدرجة أنني أشعر أنها وطني. هل ستقبلونني إذا أردت أن أستقر بصورة دائمة بينكم؟» فردّ قائلاً «بالتأكيد، ولسوف نبحث لك عن فتاة عنيزية لتتزوجها، وإذا اعتنقت الدين كان خيراً وأفضل». فقال الدكتور عبد الله: «لا، ليس الأمر كذلك على

(١) عصفور، في هذه الحالة يحتمل أن الكلمة تشير إلى طائر صغير آخر، على الرغم من أن العصافير بالطبع تؤكل في نجد مثل الأماكن الأخرى حيث تُقدّم مثل طيور الشعير. (فيلبي).

الإطلاق، عليه أن يختار بين الإسلام وجهنم»[١]. إن مضيفنا الذي كان في مقابلاتنا الأولى يصعب إلى حد ما انتزاع الحديث منه، قد تطور بسرعة وأصبح من أفضل المعارف، وفي هذا اليوم أظهر قدرته كشخص مضياف وممتع؛ ففي هذا المساء أصر إصراراً مطلقاً على بقائنا لشرب دورة أو دورتين من القهوة والسجائر قبل أن نرحل، وكان عشاؤن ممتازاً على الرغم من بساطته[٢].

عند رحيلنا كنا لا نزال في وقت الغروب، وقمنا بزيارة واحد من ذوي المكانة الدنيا في عنيزة يدعى محمد الحمد الخريفاني. وهو شاب أصله من شمر والذي قضى سبع سنين في القاهرة وزار البصرة. وهو وابن خالة، محمد الحمد الخرداني، يعيشان معاً، ويسكنان واحداً من أصغر وأقذر المجالس التي رأيتها، حوالي ستة أقدام مربعة.

على كل حال، كان الوقت يمضي بسرعة؛ ولأن عبد الله كان في عجلة لكي يأخذ لمحة من النساء الشابات على السطح، فقد انصرفنا بعد دورة واحدة من القهوة. وانقضى اليوم بزيارة قصيرة وشكلية للأمير عبدالله، الذي وجدنا معه عبدالرحمن بن عبدالعزيز الزامل، وسليم وآخرين. ولقد أمطرت بأسئلة تخص نجاح عمليات التصوير التي قمت بها خلال صلاة العيد، وفوجئت باكتشاف كثرة الأشخاص الذين لاحظوني جالساً بمفردي على القمة الرملية وهم يعلمون الغرض من وجودي هناك. ولم أسمع كلمة واحدة حتى ولو من باب النقد المقنع لسلوكي هذا خلال ذلك اليوم. وعندما قلت: إنني كنت شديد البعد لدرجة أنني في الحقيقة لم أتمكن من التقاط صورة فعالة، فقد سئلت لماذا لم أقترب أكثر. فأجبتك «سيكون هذا من غير اللائق».، وأثارت كياستي طنيناً من الثناء والتقدير.

---

(١) الهاوية: (فيلبي).

(٢) يتضح من كلام فيلبي أن أهل عنيزة اجتماعيون في سلوكهم وتعاملهم مع الغريب، بعكس بعض السكان في مدن القصيم الأخرى. وقد ذكر هذا الرحالة إعجابه بأخلاقهم وحسن معشرهم وطيب مجالسهم. (ابن جريس).

إن كل يوم من إقـامـتي المؤقـتـة في عنيـزة يـزيد من شـكري وامـتنانـي للعطف المتـزايد دائماً من جميـع الذين لهم أي شأن أو عـلاقة معي، فحتى هذه السـاعة كان يدنو منا ويبـادرنا بالحديث في الشـارع محمـد وعبـد الله، أولاد علي بن زامل، اللذين أخّرنا دعوتهما لفنجان أخير من القهوة إلى يوم آخر.

لم أكـد أسـتيـقظ في صـبـاح اليـوم التـالي إلا والزوار قـادمـون، واضطررت إلى التعـجل في الاسـتحـمـام واللبس. وعندمـا نزلت إلى غـرفـة الاسـتقـبـال وجدت الأمـيـر السـابق مع إبراهيم القـاضي وآخـرين يسـتنشـقـون الدخـان المعطر من المبـخـرة التي جُلبت إلـى هنا للتخـفـيف من جـو الليلة السـابقـة من التبغ المبـتذل. وجيء بكامـرتي لفحصـهـا عن كثب، كمـا فعلوا بجهـاز البارومـتـر أيضاً؛ لأن هـؤلاء القوم لديهم فضـول طبـيـعي في فـحـص الأجـهـزة العلمـيـة التي تدل على الإمكانيـات الكبـرى من الإنجـاز الفكري، فـقد أفسـدتهم بصـورة جـزئية آفـة الكسل الطبـيـعي للإنسـان الذي يعيش في جـو لا يشـجـع على العـمل، ولكن أتلفـهـم بصـورة رئيـسـة الحظر الدينـي العـربي على فحص أسرار الخالق عن كثب شديد.

إن علي ـ ابن مـضـيفنا ـ كـان من بين الجـمـاعـة، فـقد وصل لتوه من الأحـسـاء حيث ذهب في عمل تجاري مع جماعات هندية يرتبط بها[1]، وكان فرد من عائلة الربدي من بريدة قـد جلب أخبـاراً عن وصـول قافلة حـديثاً هنـاك من الكويت ومعهـا أخبـار محـزنة عن وفاة حمد آل محمد في الزبير، وهو أحد أفراد عائلة البسام الكبار في السن.

في ذلك الصـبـاح تصـادف أن دُعينا علـى الفطور مع فهـد، الذي جاء رسـوله الآن ليأخذنا[2]. وقـد تقـدم مـحـمـد السليمـان أولاً عند دخولنا، وقبّل مـضـيفنـا على خديه

(١) لمزيد من التفصيلات عن الحياة التجارية في عنيـزة وبلاد القصيم عمومـاً، ثم علاقاتها مع العالم من حولها في مجـال البيع والشراء، انظر: عبدالفتـاح أبو عليـة، الدولة السـعودية الثانيـة، ص ٢٧٣، سيد بكر، ص ١٨، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٤٥-١٤٩. (ابن جريس).

(٢) ليأخذنا: أي يستلحقنا، أو يبحث عنا ويصطحبنا معه. (ابن جريس).

الاثنين، وأعرب عن تعاطفه مع العائلة في مصابها، قائلاً: «عظم الله أجرك»، أي بالصبر على تحمل المصيبة[١]. ورد فهد في نغمة خفيفة من الشفقة الشكلية: «شكر الله سعيك وأسكنه الجنة». ولمقابلة الإحسان بالإحسان أضاف: «وقرت عينك»[١]، في إشارة إلى عودة ابن محمد إلى وطنه. ثم تحدثنا عن آخر أخبار الحرب التي جاءت بها جماعة من الكويت. فقد أعلنت روسيا الحرب على الحلفاء ونفذت ألمانيا أعمالاً عسكرية معادية نحو الشرق عن طريق بحر قزوين، وكانت السفن البريطانية تصب القوات في مختلف موانيء الخليج الفارسي، وهناك مليون رجل قد تجمعوا بالفعل في جبل اسمه غير معروف، وتسببوا في إحداث قلق واضطراب بألمانيا. فقلت: «بالتأكيد نسيتم أن تذكروا أن بغداد قد أعيد الاستيلاء عليها من قبل الأتراك». إن الكويت تحت حكم سالم كانت مصنعاً وفير الإنتاج للخداع والدعاية ضد بريطانيا العظمى، وكان فهد يعلم أن جميع الأخبار التي يرويها زائفة ولكن حديثه فيه نكهة من الخبث والمكر، فقد كان مؤيداً للأتراك، ولديهم اعتقاد طفولي بأن سرد الزيف الواضح طريقة لا بأس بها في استنباط الحقيقة، أو الزيف المضاد الذي بينه وبين الواقع الفعلي سوف يُمكنه ذكاؤه من إيجاد غاية مرجوّة. ولم يكن عندي إلا قليل من الأخبار عما كان يحدث خارج الجزيرة العربية[٢].

يواجه منزل فهد المجلس الكبير، وتؤدي مجموعة متواصلة من درجات السلم من بابه الأمامي إلى مجلس القهوة، ولكن في هذه المرة دخلنا من الباب الخلفي من شارع مظلم، ومنه يوجد ممر مليّس بالجبس يؤدي إلى المجلس نفسه. وقُدّم الفطور

(١) عظم الله أجرك: هذه العبارة تقال عند مواساة أهل الميت، ومن الأدعية التي ما زالت سارية المفعول في المجتمع السعودي حتى الآن. (ابن جريس).

(٢) للاطلاع على الأوضاع السياسية في الجزيرة العربية وخارجها خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، انظر: السعدون، ص ٨٤ وما بعدها، فؤاد حمزة، البلاد العربية، السعودية (الرياض: مكتبة النصر الحديثة، ١٩٦٨م) ص ٢٠ وما بعدها، فتوح الخترش، ص ٧٣ وما بعدها، خزعل، تاريخ الكويت، ج٢، ص ١٨٦ وما بعدها. (ابن جريس).

على صينية كبرى جلسنا حولها فوق مخدات، في غرفة جدرانها طينية جرداء. وقد تنازل فهد عن شرف الجلوس بجواري، وتساءلت ما إذا كان ذلك نابعاً من التواضع الذي يصاحب كرم الضيافة في هذه الأصقاع أم أن هذا من أعماق قلبه، بعدما أجرى حسابات سريعة للمجازفة المؤكدة فسعى بهذه الطريقة المتواضعة إلى تفادي الأكل من الأطباق الصغيرة نفسها مثل النصراني[١].

وواصلنا سيرنا لنزور عبد الرحمن بن عبد العزيز الزامل، الذي كان معه في بيته الشاب زامل، بن صالح الزامل، صديق ورفيق التضحية لشكسبير في معركة جراب، يقال: إنه يرقد على فراش المرض. وظن الدكتور عبد الله أن من واجبه أن يعوده فلربما استطاع أن يقدم له فائدة. وقد وجدنا الباب مقفلاً من الداخل، وبعد تأخير كبير فتح عبدالرحمن نفسه لآخر زيارة لنا؛ لأننا قد حرمناه من متعة الفطور بصحبة زوجته وحرمنا زوجته من فطورها، الذي دعينا إليه بكرم بدلاً منها. وقد اعتذرت وعبدالله عن مثل هذا الانتهاك للحرمات بحجة أننا لم نأكل إلا متأخراً، ولكن محمد السليمان انضم إلى مضيفنا وبينهما لم يتركا شيئاً إلا فضلات من طعام كان مقتصداً ومميزاً في الوقت نفسه. فقد كانت سلطانية كبيرة من التمر وسلطانية من اللبن هما الطبقين الرئيسين فيها، وبراعة عبد الرحمن الزائدة مع بندقيته قد وفرت الباقي من مزارع النخيل، تشكيلة من الطيور الصغيرة، تضم الحمام، وطائراً له ريش أصفر يعرف باسم صفراء وآخر طويل الرقبة يسمى قرنوق[٢] والصفراء، كما يقول مضيفنا، يُعتقد أنه كان الطائر الذي جعله الله يهبط من الجنة ليقتات عليه بنو إسرائيل خلال تيههم في الصحراء.

(١) يظهر على فيلبي أنه يمتلك حاسة جيدة لمعرفة أحاسيس الناس ومشاعرهم، وعاداتهم وأعرافهم، وهذا المثال الذي أشار إليه في المتن يعتبر أنموذجاً على اطلاعه الجيد على أحوال الناس وطباعهم، حتى وإن كانت في بعض المواضيع المهمة كالعقائد وما شبهها. (ابن جريس).

(٢) وهذا طائر ذو ريش يميل إلى اللون الأبيض ربما يكون طائر الأرز. (فيلبي).

فقلت له: إنه طبقاً لتعاليمنا فإن الطير محل التساؤل هو السمان، الذي نزل ليس من الجنة ولكن كما لا يزال يفعل حتى الآن، من أرضنا الجميلة في أوروبا.

إن نصب المصايد للطيور تسلية شائعة لأولئك الذين لا يملكون بندقية، وبعد عدة أسابيع لاحقة في الشماسية رأيت اختراعاً عبقرياً. فقد كان الصياد يجلس في حفرة مفرغة من الأرض مع متراس مرتجل ليخفيه عن ضحيته، ويمسك بطرف حبل طويل مربوط من الطرف الآخر بقطعة من الخشب، طولها نحو ست بوصات ومستندة على لوح من الحجارة موضوع مائلاً على حفرة صغيرة، التي تنزل فيها الطيور إما للاستحمام بعد المطر أو لتأكل الحب الموضوع فيها. وعندما يكون الطير داخل الحفرة، يُشد الحبل ويهبط لوح الحجارة على الحفرة، فيحبس الطير[1]. قد تبدو هذه عملية مملة، ولكنها قد تكون ممتعة جداً وتستحوذ على الانتباه تماماً مثل براعة صياد السمك.

«إن التقاليد المحمدية»[2] ـ كما يقول عبد الرحمن ـ الذي كان ينادي بصورة شائعة باسم زامل وهو اسمٌ حبيب في عنيزة، «تقول إن الله قد أنزل الحكمة والفلسفة على ثلاثة أجناس فقط، هم اليونانيون، والصينيون، والعرب، ولكن مما رأيته من شعبكم وما سمعته عن بلدكم قد أضيف رابعاً، نعم سوف أضيف الإنجليز». فقلت: «إننا لم نجمع إلا ما كان في المستودع الذي أهمله العرب ردحاً طويلاً، وحتى هذا اليوم نستخدم الكثير من الألفاظ العربية في مفردات العلم، في

(١) يوجد هناك طرق وحيل أخرى عديدة عند المزارعين في شبه الجزيرة العربية كي يحموا مزارعهم مما قد يداهمها من الطيور والحيوانات واللصوص. (ابن جريس).

(٢) تعبير فيلبي وغيره من المستشرقين حول عبارة (التقاليد المحمدية) أو (الديانة المحمدية)، أو ما شابه هذه العبارات، كلها خاطئة، لأن ما جاء به الرسول ﷺ من تعاليم، أو ما نزل عليه من آيات قرآنية، إنما هي تعاليم الدين الإسلامي الشامل العام الباقي إلى يوم القيامة. ونجد معظم الكتب الأجنبية عندما تتحدث عن دين الإسلام، أو معارف التراث الإسلامي تستخدم مثل هذه العبارات غير الدقيقة والصحيحة في الوقت نفسه. وينطبق ذلك على مصطلح (المذهب الوهابي)، فهو أيضاً ليس مذهباً، كما أشرنا سابقاً، وإنما هو دعوة لتعاليم الدين الإسلامي الصحيح. (ابن جريس).

الرياضيات والفلك وأمثالها. إننا أخذنا منكم وطورنا ما أخذناه». فسألني: «هل ما يزال يوجد من بينكم إذاً قوم يدرسون النجوم؟ ومع ذلك عندنا شيء واحد نملكه، نحن عرب نجد، أشد كمالاً مما سوف تجده في أي مكان آخر، وأنت تعلم ما أقصد». فأجبت «نعم، دينكم، ودينكم في عنيزة أشد كمالاً مما في باقي نجد؛ لأنكم تلطفوه بالإنسانية والتسامح، اللذين لم أجدهما في مكان آخر». وهكذا تحدثنا بسرور حتى حان وقت ذهابنا. إن صحبة حفيد زامل الكبير هي دائماً تجربة رائعة، فكرم الضيافة اللطيف والود الصريح في ملامحه يوحي دائماً لي بالصورة التي رسمها داوتي لزامل نفسه، على الرغم من أنهم قالوا: إن أقرب شخصين أحياء لملامح الرجل الكبير البدنية هما ابنه محمد وحفيده زامل بن صالح، الذي جئنا لزيارته على الرغم من أنه لسوء الحظ لم يكن في بيته ولم يكن لحسن الحظ مريضاً بالرغم من أنه كان ضعيف الصحة. لقد كان عبد الرحمن يعتني عناية كريمة مفرطة، مثل النساء تقريباً، بابن عمه، الذي هو أيضاً أخوه من أمه، فقد كان الاثنان أبناء أخوين ومن أم واحدة. وسألت عن كتب التاريخ المتوفرة عن الفترة التي عاش فيها زامل، ووصيت بدراسة كتب ابن غنام وابن بشر[1]، فالأخير مؤلف تاريخ كامل لنجد تحت حكم أسرة آل سعود حتى تاريخ وفاته هو في عام (١٢٢٠م) هجرية[2].

جاءت فترة العصر ونحن مرة أخرى في جو زامل، فقد كان مضيفونا حفديه عبدالله ومحمد، البالغين من العمر تقريباً خمساً وثلاثين وثلاثين سنة على التوالي وينحدران من ابنه الثاني علي، الذي قتل في معركة المليدا سنة (١٣٠٨) هجرية[3].

(١) المؤرخ حسين بن غنام الأحسائي المولود في المبرز بالأحساء، والمتوفى في الدرعية عام (١٢٢٥هـ/١٨١٠م)، ودون كتابه عن تاريخ نجد المسمى بـ روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلامي. أما المؤرخ ابن بشر فهو عثمان بن عبدالله بن عثمان المعروف بـ (ابن بشر)، ولد في جلاجل بمنطقة سدير عام (١٢١٠هـ/١٧٩٥م) وتوفي بها عام (١٢٩٠هـ/١٨٧٣م). وكتابه يعرف بـ: عنوان المجد في تاريخ نجد. (ابن جريس).

(٢) هذا التاريخ يوافق بالميلادي (١٨٣٤م) فيلبي + ابن جريس).

(٣) هذا التاريخ يوافق بالميلادي (١٨٩١م). وكان زامل نفسه قد قتل في تلك المعركة (فيلبي). وللمزيد من التفضيلات عن معركة المليدا التي وقعت بين ابن سعود وابن الرشيد، انظر: العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ص ٤٧، ٧٢-٧٣. (ابن جريس).

وقد جلس الإخوان خلف موقد القهوة، وكنت أنا قريباً من أكبرهم مع ضيف آخر، عبدالعزيز ابن ميمان، على يساري. والاسم الأخير هذا مواطن من عنيزة لم أقابله من قبل[١]. إن عبد الله قد سافر قليلاً، ولكن من كلامه يبدو أنه خال تماماً من أي تعصب، بينما أخوه الأصغر قد رأى قدراً كبيراً من العالم الشرقي وهو يستعد بعد فترة قصيرة لينطلق مرة أخرى إلى البصرة والهند. وكان يشتكي من أنه في هذه الأيام أصبح من الصعب الحصول على تصريح للسفر[٢] إلى بغداد، التي يرغب أن يدرجها في رحلته، وابتهج بامتنان عندما تطوعت بالتغلب على العوائق في طريقه نيابة عنه ورداً بسيطاً للجميل مقابل كرم الضيافة التي استمتعت بها في مدينته الأصيلة. وقد تحدثنا بالطبع كثيراً عن زامل، اسمٌ مشرّف، كما قلت بين البريطانيين. وقالا لي: إنه كان عنده عشرة أولاد[٣] وست بنات، والابن الأكبر، عبدالله، وصفه داوتي بأنه فتى فظ قليل التهذيب. وكان علي السليم، الأمير التنفيذي المتعصب في زمن داوتي قد توفي في الثمانين من عمره عام (١٣١٤) هجرية[٤]، وقد قابلت واحداً من أولاده، وكان ذا لحية رمادية هو نفسه، في مجلس الأمير عبدالله الليلة البارحة، على الرغم من أنني لم أدرك في ذلك الحين هويته. والضحية الأخرى في معركة مليدة هو والد الأمير نفسه، خالد السليم.

وعندما تكرما بوضع سكر في الشاي لي أوقفهما الدكتور عبد الله قائلاً: إنني أفضله دون سكر، وحينئذ وهما يعتريهما شبه شك قدما لي كوباً من الشاي المر، كما

(١) في الحقيقة كان جارنا المباشر. (ابن جريس).

(٢) كان أهل القصيم وغيرها من سكان الجزيرة العربية يذهبون خلال القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) في رحلات تجارية بعيدة تصل إلى العراق وأحياناً إلى الهند. (ابن جريس).

(٣) لقد استطعت أن أحصل على أسماء سبعة فقط كما يلي: عبدالله، وعلي الذي قتل في المليدا وخلفه أولاده عبدالله، ومحمد، وعبدالعزيز أبو عبدالرحمن، وصالح الذي قتل في معركة جراب وخلفه ابنه زامل الذي كان عمره خمسة عشر عاماً، ومحمد وإبراهيم وكلاهما أحياء ومتعصبون بشدة ويحيى الذي توفي بلا أطفال. (فيلبي).

(٤) هذا التاريخ يوافق بالميلادي عام (١٨٩٧م) فيلبي + ابن جريس).

يسمونه، وأعربا عن تعجبهما من شربي له بهذا الشكل. إن العرب يحبون السكر وإن صدقهم المرء فإن استخدامهم المفرط له لا يؤذيهم[١].

عندما كنا عائدين للبيت تصادف أن مررنا على باب مفتوح كان صاحبه المضيف يودع ضيفاً. «تفضل» قالها لنا بكرم فدخلنا. ذلك هو عبدالعزيز التميمي، الذي كان فناء بيته، المسقوف جزئياً، يؤدي وظيفة المجلس. ولم يكن فيه إلا الرمل الناعم من النفود للجلوس عليه. وكان بصحبتنا هنا عبد العلي العلي، الرجل الكبير في السن المذكور آنفاً، والضيف الوحيد الآخر هو عبد الله الحمد السليم. ودار الحديث عن الخيول، التي منها مجموعة من أربعة عشر قد جمعها مؤخراً تاجر، يسمى محمد الشملان، ليأخذها إلى الكويت لشحنها إلى الهند. وقد رأيته في وقت لاحق من اليوم بصحبة عبدالله الحمد، الذي عرّفني على أخي التاجر، ناصر، وعلى عبد الله التميمي. والمجموعة تبدو لعيني غير الخبيرة اختياراً رائعاً من الحيوانات، على الرغم من أن معظمها صغير نسبياً. وكان أغلبها كستنائي اللون (أحمر)، ويشمل أفضل ما في المجموعة، حيوانٌ مشترى من ظافر، وبالتالي يحتمل أن يكون أصله من بلاد الرافدين وليس نجدياً. وحيوان جميل آخر كان من عتيبة وهم مع حرب ومطير كانوا الموردين الرئيسين لهذا السوق على وجه التحديد. والخيول كلها فحول، واحد كستنائي داكن (أشقر)، واثنان رماديان (أصفر) واثنين بلون قشر الرمان (رماني). كان السوق الهندي قد وصل إلى حالة الركود بسبب الحرب، وقيل: إن هذه أول مجموعة تُجمع منذ زمن.

إن عنيزة بجوها الذي يشبه كما قالوا جو بومباي ـ لأنه رطب ـ تملك شهرة خاصة بأنها مربط، أي مركز تجميع، ولكنها هي نفسها ليست أرضاً لتربية تلك

(١) استخدام السكر بكثرة في القديم لا يؤثر، لأن ظروف الناس كانت شاقة، فكل ما يتم أكله وشربه يتم أحراقه بشكل سريع، وذلك لكثرة حركة الناس من أجل كسب عيشهم. أما اليوم فأمراض السكري وغيرها انتشرت في المجتمع السعودي بشكل ملفت للنظر لتوفر الراحة وتنوع الأطعمة والأشربة، وكذلك ضعف ممارسة الرياضة وما شابهها. (ابن جريس).

الحيوانات. إن مناطق التوريد الرئيسة المعروفة للمشترين الهنود هي، كما قالوا، الجزيرة، أي الأجزاء العليا من بلاد الرافدين، والغرف أو الأجزاء السفلى من بلاد الرافدين، والعجم، التي يُقصد بها بلا فارس أو كردستان، ونجد. وكان كبار تجار الخيول العرب في بومباي في هذا الوقت هم جار الله بن طالب من الموصل، وابن فارس من الزبير. وفي الماضي كان هناك ابن مانع، مواطن من شقراء، وربما هو الرجل الذي أشار إليه داوتي، والذي توفي قبل سنوات. وكان أخو جار الله، علي، قد صادق، الأمراء البريطانيين من كوت الإمارة وهم في طريقهم عبر الموصل، وبناءً على طلب من الجنرال تاونشند (Townshend) قدم لهم خمس مئة جنيه إسترليني. هذا المبلغ قد أعادته بعد ذلك الحكومة الهندية إلى جار الله، مع هدايا لجميع أفراد العائلة وشكر الحكومة. وقد حكى عبد الله التميمي هذه القصة في وجودي ذات يوم إلى مستمعين شديدي التقدير لها كمثال على اعتراف البريطانيين بجميل الخدمات المقدمة لهم.

عندما وصلنا البيت، حيث جرى أطفال مضيفنا الرائعون إلى الخارج في الشارع ليحيونا كما كانوا يفعلون مراراً، وجد الدكتور عبد الله مريضاً يطلب علاجاً من نوبات الصرع التي يتعرض لها، وسرعان ما جاء آخر، زامل بن صالح، مصحوباً بعبدالرحمن. لقد كان نوعاً ساراً من الشباب وبدا في صحة جيدة بما فيه الكفاية على الرغم من أنه يتعرض لنوبات الملاريا، التي أعطاه الدكتور عبد الله كمية من الكينين (Quinine) علاجاً لها. عند ذلك، على الرغم من أن الساعة لم تكن إلا الخامسة عصراً، فقد حان الوقت للانطلاق إلى العشاء، الذي، مثل فطور ذلك اليوم، كان على نفقة فهد البسام. في هذه المناسبة وبسبب مناورة ـ ربما متعمدة ـ من محمد السليمان، لم يُترك لفهد أي خيار إلا أن يجلس بجواري، بل إنه تمادى بعيداً ليختار أفضل لقيمات من هنا وهناك ليضعها من نصيبي في الصحن، ولكن، بدقة كما لاحظت لم أره يأكل من أي من الأطباق التي تدخل فيها أصابعي. قد يكون ذلك عرضياً، بيد أنني عندما سألته إذا كان من الممكن أن ألتقط صورة شمسية له

رفض بحجة أن ذلك سيكون حراماً. وأردف قائلاً: «ولكني أبغي صورة لصلاة العيد». إن دينه كان بالتأكيد عثمانياً أكثر منه وهابياً في ملامحه[١]، ونظرته السياسية كانت تركية أكثر منها عربية في مظهرها، فلقد كان أخوه محمد في ذلك الوقت ـ كما لا يزال إلى الآن ـ واحداً من كبار تجار دمشق، حيث، طبقاً لما قاله فهد، كان يأوي جواسيس إنجليز.

إن عائلة البسام كانت تؤيد ابن رشيد في أيام الصراع على القصيم بينه وبين ابن سعود، ولكن فهداً نفسه نأى عن تلك الخيانة؛ لأنه بلا شك قد أقنع نفسه بطريقة تنم عن الدهاء باحتمالات النجاح لأي من الجانبين. وظل مخلصاً لقضية عنيزة وابن سعود، والنتيجة أنه هو وحده من بين العائلة الذي سُمح له بالبقاء بعد الانتصار النهائي للأخير، ومنذ ذلك الحين انجرف الأعضاء الآخرون من العائلة عائدين إلى ابن سعود[٢].

بناءً على اقتراح محمد السليمان ودون أن نرى أي هدف محدد من ذلك، سألت فهداً عن واحد يُقال له إبراهيم القاضي، ليس ذلك الرجل بهذا الاسم الذي قابلته ولكن ابن عمه، وكان أيضاً ابن عم رئيس الوعاظ صالح وخال فهد. وقد اشتهر بالعلم الواسع، على الرغم من أنه يقال عنه: إنه متعب ومسرف إلى حد ما في إظهار ولائه لابن سعود. إن هدف محمد الغريب نسبياً، كما علمت منه بعد ذلك كان لكي يستنبط إبراهيم ذاك أنني قد سألت عنه على أمل أن هذا الظرف قد يدفعه ليكون ودوداً معي. إن فهداً، الذي يشتهر بصورة سيئة أنه رجل فضولي من الناحية الاجتماعية كان متأكداً من أنه سوف يعرف، ولكن كل ما قاله رداً على سؤالي أن

---

(١) ليس هناك دين عثماني ووهابي كما ذكر فيلبي، وإنما دين الإسلام هو واحد بصرف النظر عن مكان وزمان وجنس من يعتنقه ويعمل بتعاليمه. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن الصراع بين ابن سعود وابن الرشيد على أرض القصيم، انظر: العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ص ٦٣ وما بعدها. (ابن جريس).

موضوع تساؤلي حقاً هو رجلٌ ذو علم واسع ولكنه نادراً ما يخرج من بيته. وفي ذلك طعنة خاطفة ماهرة لخطة بارعة ربما علم ما وراءها.

كان ابن عمه الشاب، عبد العزيز البسام، لحين من الدهر في سجلاتنا السوداء بسبب نشاطه في تهريب البضائع من الكويت إلى الأتراك عن طريق حائل[١]. ولقد مازحته في ذلك وذهلت من أخذه الأمر بجدية تامة، نافياً أن يكون ذلك صحيحاً. بيد أن حمداً ـ الذي أخبرني بذلك ـ قد سبب له ارتباكاً غير قليل بسرده لقصة مقابلته عبد العزيز في قافلة متجهة إلى حائل. وقد تجاهلت الموضوع عندما أقسم لي مؤكداً أن الرجل كان ما يزال في الكويت، ولكن شعرت أن فهداً لأسباب تجارية كان شديد الشغف بأن يقف موقفاً سليماً مع جميع أطراف الصراع، ولمحة خفيفة إلى أن عائلته متهمة عند بعض الجهات لا يمكن أن تسبب أذى. وعلاوة على ذلك شعرت بأنه لم يطوّر من معارفه وصلاته وخاصة عندما اشتغل بفضائح الحرب. واستفساراته الإضافية قد أظهرت للعيان المعلومات التي تقول إن نشرة إخبارية رسمية قد صدرت في الكويت تفيد أن الملك قسطنطين قد أعاده الألمان إلى منصبه قيصراً على روسيا، وإنه أعلن الحرب على الحلفاء[٢]. هذا هو الهراء الذي يسمعه المرء في تلك الأيام من أفضل الأصحاب ثقافة بعنيزة. ومن جهة أخرى، على الرغم من ذلك، إذا كان يحتفظ بمذكرات يومية كما أفعل، فإن الضحك والابتهاج سيكون في جانبه؛ لأنه أخبرني أن السيد لويد جورج (Lloyed George) قد أعرب في مكان ما عن رأيه في أن الحرب سوف تنتهي في هذه السنة، وقد رددت على ذلك مشككاً وقلت: إنها في نظري سوف تدوم أربع سنوات أخرى[١]. وقد وافق مراعاة لمشاعري بأنني كنت بلا شك على حق.

---

(١) للمزيد عن أوضاع الإنجليز والأتراك وعلاقاتهم بالجزيرة العربية، انظر: لوريمر، تاريخ البلاد السعودية، ص ٥٠١-٥٢٢، ٥٢٩-٥٣٧. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن الصراعات بين أوربا وروسيا الحرب العالمية الأولى، انظر جرانت دهارلود تمبرلي. أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلادي (١٧٨٩-١٩٥٠م) ج٢، ١٧٩ وما بعدها. لابن جريس.

(٣) فعلاً لقد استمرت الحرب العالمية الأولى أربع سنوات من عام (١٣٣٣-١٣٣٧هـ/١٩١٤-١٩١٨م) انظر: جرانت وهارلود تمبرلي، ج٢، ص ١٨٠ وما بعدها (ابن جريس).

بعدما عملنا تحويلة في طريق عودتنا للبيت لمشاهدة الخيول، التي كانت في بعض الحقول وراء ملح عدت قرب الغروب لأجد عتيقاً الصغير مرتدياً جميع ملابس العيد المبهرجة ومحاطاً بسرب من الفتيات الصغيرات في مثل عمره يلعبون لعبة ما، كان يبدو فيها أنه البطل. حياني بالضحك المرح عند رؤيتي، وواصلت سيري حتى صعدت للسطح حيث وجدت الدكتور عبد الله هناك يحملق بشوق حزين في المشهد الخالي من المتع البالغة بالحسناوات الثلاثة. وفي الحقيقة لم يرجع خالي الوفاض تماماً؛ لأن البنات الثلاثة مصحوبات برابعة قد ظهرن بالفعل للحظات قليلة. وقال إنهن عرضن عليه إشارات وتكلمن معه بصوت عال على الرغم من أنه لم يستطع أن يسمع ما قلنه. كانت الرابعة على ما يبدو الأخت الكبرى للثلاث الأخريات، والتي منذ سنوات كانت زوجة جارنا الملاصق لنا، الثمانيني عبد العزيز ابن ميمان. ولدى هذا الأخير من قبل زوجتان طاعنتان في السن، ولكن الفتاة، التي كان عمرها في ذلك الحين حوالي ستة عشر أو سبعة عشر ربيعاً فقط، قد فرضت فوراً على الأخريات الاعتراف بحقوقها ومركزها وقدمت لزوجها إنذاراً، كان من نتيجته أن الزوجتين القديمتين قد طردتا من البيت.

هذه هي المأساة العظمى في شرائع الزواج الإسلامية، ترك النساء المنبوذات بلا مال أو وسيلة تمكنهن من العيش عندما تنقطع عن خدمة الغرض الرئيس الذي من أجله تزوجهن الرجال(١). واللاتي بلا أطفال عندما يأتي دورهن يستحققن فعلاً الشفقة والرثاء. ومرة أخرى في المساء التالي اكتشفت أنا والدكتور عبد الله أن السيدات الشابات لم ينسيننا بالمرة، على الرغم من أنه في هذه المرة كانت واحدة فقط منهن، أصغرهن على ما يظهر، مجرد صبية في الثالثة عشرة من عمرها وآخر

(١) الشريعة الإسلامية سمحت للرجل أن يجمع بين أربع زوجات في وقت واحد، على أن يعمل بواجباته تجاههن، وعلى رأس تلك الواجبات العدل، وإذا كان لا يستطع القيام بواجبه الشرعي نحوهن، فإنه يقتصر على واحدة فقط. أما إذا كان عنده أكثر من زوجة وقصر في واجباتهن أو بعضهن فإنه يأثم على هذا التصرف، وشرائع الإسلام بريئة من سلوكه الخاطئ الذي جعله ينحرف عما نادى به القرآن الكريم والسنة النبوية. (ابن جريس).

المتزوجات قد برزت على السطح. وهي مرتدية جميع ملابس عرسها المبهرجة، عباءة بلون اللهب مع خمار شفاف من اللون البنفسجي الزاهي مُلقى بإهمال حول كتفيها حيث تخلصت منه تماماً بعد ذلك لتظهر خصلات شعرها المضفرة المتوجة برباط صغير مسطح على رأسها من الذهب والفيروز. ودون أي تظاهر بالحياء وقفت لنراها رؤية واضحة بينما هي تتجاذب أطراف الحديث مع شخص لا نراه. لقد كانت بالتأكيد فاتنة الجمال، صورة من نماذج الجمال والبهاء الشرقي، وهي تعد تقريباً طفلة بمقاييسنا.

بعد صلاة المغرب زرنا صالح الفضل وقضينا ساعة سارة في مجلسه الخارجي. وبعد دورة من القهوة قدموا لنا شربات بطعم التوت في كؤوس زجاجية طويلة موضوعة على صينية نظيفة من الخزف الأبيض لها حافة من النيكل. وقُدّمت فوط بيضاء نظيفة لكل واحد منا لكي يمسح فيها يديه وشفتيه، وتلا ذلك شرائح البطيخ والذي قُدّم بنفس مراعاة أصول النظافة. إن زوجة صالح، على الرغم من أنها هي نفسها من عنيزة، إلا أنها قضت أعواماً كثيرة في المدينة ولم تنس الدروس التي تعلمتها في المجتمع التركي الراقي في ذلك البلد[1]، إن المستوى العام لربات البيوت رفيعٌ في عنيزة، على الرغم من وجود بعض الاستثناءات التي يجدر ذكرها، إلا أن بيت صالح كان بلا ريب المثال بين البيوت. كانت مصابيح ديتز (Dietz) واللمبات الأخرى ذات الكرات الزجاجية توجد بصورة شائعة في تلك البيوت، ولكن النوع

---

(١) ما من شك في أن عادة صنع الطعام والشراب في الحجاز كانت أفضل من حيث الجودة والنوعية، وذلك مقارنة بأي جزء من أجزاء الجزيرة العربية، والسبب في ذلك يعود إلى عدة أمور منها:

أ - بلاد الحجاز، كونها أرض الحرمين الشريفين، يرتادها عناصر بشرية مختلفة من جميع أقطار الأرض، وكل عنصر يحمل معه ثقافات وأعرافاً تختلف مع غيره ممن شاهد ورأي بالحجاز (مكة المكرمة والمدينة المنورة) وبالتالي حدث الانصهار وتبادل الخبرات المتنوعة، وكل ينعكس إيجابياً على الحجازيين أنفسهم.

ب - دخل بلاد الحجاز تحت سيطرة حكومات وحضارات مختلفة من عهد خلفاء بني أمية حتى العصر العثماني، وهذا مما جعل سكان الحجاز أحسن تقدماً وتطوراً حضارياً وغيرهم في جزيرة العرب. (ابن جريس).

المعتاد هو لمبة بلا كرة زجاجية تعمل بآلة مثل آلية تشغيل الساعات، والتي كانت كافية تماماً وتغني عن الضرورة الملحة لتبديل الزجاجات المكسورة. والمصابيح الإعصارية شائعة الاستخدام أيضاً وبكل المقاييس أفضل نوع في الاستفادة. ولم يسمع المرء أبداً على ما يبدو عن بيوت تشب فيها حرائق في تلك البلاد، على الرغم بلا شك من أن مثل هذه الحالات لم تكن غير معروفة بالمرة. إن صالحاً يُكّن على وجه الخصوص في قلبه حباً للمدينة، بل ويبدو أنه يأسف «للتحسينات» التي تمكن الأتراك من تنفيذها من ناحية توسيع الشوارع بسبب الانخفاض الكبير في عدد السكان نتيجة الهجرة وقضايا الحرب الأخرى. ويقال: إنهم سوف يمدون السكك الحديدية حتى المنطقة المجاورة مباشرة للحرم، التي قد أزالوا منها بالفعل كل "الفساد الديني". وكان الرأي العام يقول: إن فخري باشا سوف يتمكن من الصمود وعدم الإذعان إلى ما لا نهاية إلا إذا أخترقت التحصينات القوية بهجوم مفاجئ، والذي كان من غير المرجح بصورة قوية. إن فرار السكان قد نتج عنه وجود مساحة واسعة من النخيل مهملة بسبب الحاجة إلى العمال، ولعدم وجود الماء سوف تهلك تدريجياً.

في التاسع عشر من سبتمبر جاءت أولى الأخبار التفصيلية عن تحركات ابن سعود، التي سوف يرد ذكرها في القسم التالي من هذا الفصل. وفي تلك الأثناء كان واجب استضافتنا في هذا اليوم قد خُصّص لعبد الله البسام وأخيه، عبدالرحمن[1]، وأن دعوة خاصة قد أعدها لنا على هيئة زيارة «للريف».

ففي حوالي السابعة صباحاً، كنت والدكتور عبدالله مصحوبين بمحمد السليمان وابن صغير لأخيه والذي كان أبوه تاجراً في الأحساء، قد مشينا ببطء على أقدامنا عن طريق ملح، وبعدما غادرنا الضبة على يميننا، مشينا في درب غير ممهد

(١) أخوان آخران توفيا منذ اثنتي عشرة سنة وسنة واحدة على التوالي (فيلبي).

متفرع من الطريق الرئيس، وبعد مرورنا تحت قنطرة، أي قناة ماء من جذوع النخل، وصلنا إلى حديقة الرميحية. وهي بستان رائع كثيف من النخل الطويل المحمل بالثمار مع أشجار الفاكهة الغزيرة التي تنمو تحته من التين والليمون والذي يخص علي البسام، الذي قابلناه عند مرورنا خلاله. هذه الحديقة لم تكن مسورة، وكانت تجاور بستان المحيرية المسور الذي دعانا إليه عبد الله البسام للفطور. قبل دخوله، على كل حال، ملنا جانباً لنفحص مجموعة من الآبار الغارقة حتى عمق ثماني أو عشر قامات في جيب من الماء العذب وتستعمل في سقاية عدد كبير من الحدائق. كان على أحدها تركيبات علوية من عشرة دواليب، خمسة على كل جانب، ونصفها يعمل في المرة الواحدة بجر الجمال. وكانت معظم جمال عنيزة سوداء، على الرغم من أن الألوان الأخرى لم تكن غير موجودة تماماً والأكثر شيوعاً هو الكُميت الداكن.

لقد رحّب بنا عبد الله وأخوه الذي كان لقائي الثاني له قد جرى في لندن عام (١٩٢٧م)، بحرارة شديدة عند دخولنا في حديقتهما، حيث تجولنا الآن في أرجائها ونحن نشرب القهوة أو نتناول فطورنا في بيت صيفي من أغصان النخيل مع فرش من رمل أحمر ناعم من النفود ليحل محل السجاد. ومكثنا على هذا المنوال إلى أن حان الوقت لنعود أدراجنا من الطريق الشمالي في حوالي منتصف النهار.

هذه الحديقة تشتهر بأنها الأفضل في الواحة كلها، على الرغم من بعض التدهور الذي أصابها في السنوات الأخيرة؛ لأنه ذات يوم ـ كما قال عبدالله ـ يوجد هناك عدد كثيف من أشجار الفاكهة النامية تحت، كما كانت النخلات الرائعة ترتفع في صفوف هزيلة فوق غطاء من الدُخن الأخضر. وتتكون التربة من الطفل الرملي الخفيف التي تستلزم تكرار إضافة السماد[1] لها.

---

(١) سماد (والجمع أسماد) تعني مواد التخصيب بشكل عام، أما دمل فتنطبق فقط على روث الإبل والحيوانات الأخرى، ومياه الصرف الصحي وأقذارها تعتبر غير نظيفة ولا تستخدم. (فيلبي).

وتغطي الحديقة مساحة من ستة أجربة[1] أو ثلاثة أفدنة. وفي وسطها توجد بئر عمقها عشر قامات، يستخرج الماء منها بجر الجمال، ويُصب في حوض من الحجر، ومنه يتدفق الماء إلى حمام سباحة مسور يعكس لمسة بهيجة من الحضارة[2]. من هنا يمر الماء على كلا الجانبين إلى خزانات طويلة مبنية من الحجر، ومنها تنقله قنوات التوزيع الصغيرة إلى كل أجزاء الحديقة. قرب المدخل يوجد صف من أكواخ الطين للعمال وعوائلهم، بينما يقوم المنزل الصيفي عند حافة النخل، المزروع في صفوف مستقيمة ويحتل حوالي ثلثي المساحة كلها، والباقي مخصص لزراعة البرسيم. ويتكون المنزل الصيفي نفسه من عدة غرف، مجلس وغرفة طعام وشقق لعبد الله وأخيه وعوائلهم عندما يخرجون للتغيير من بيتهم في المدينة[3]. كان ابن عبد الله، محمد، يقوم بالواجب عند موقد القهوة، ولكنه خلال ذلك لم يشارك في سير عمليات الضيافة. بدأت النزهة الخلوية بتقديم البطيخ والشمام في المجلس، بعدها انتقلنا إلى غرفة الطعام للفطور، الذي يتكون من أرز مسلوق عادي ولحم ضأن مع تشكيلة من الطيور الصغيرة، تشمل الصفراء، التي كانت بلا طعم إلى حد ما، ومع كثير من أطباق اللحم الصغيرة في مرق مبهر كثيراً مثل بهارات الكيري الهندية.

وهناك طبعاً التمور بأنواع مذهلة، حوالي إثني عشر نوعاً مختلفاً، كلها من الحديقة التي كانت في الحقيقة تحتوي على حوالي ثمانية وعشرين نوعاً مختلفاً.

---

(١) الجريب من الطعام والأرض، يقول الأزهري: الجريب من الأرض مقدار معلوم الذراع والمساحة وهو عشرة أقفزة، كل قفيز منها عشرة أعشراء، فالعشير جزء من مائة جزء من الجريب، وقيل: الجريب من الأرض نصف الفنجان. للمزيد انظر: ابن منظور. لسان العرب (بيروت: دار إحياء التراث العربي) ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م٩ ج٢ ص٢٢٨. (ابن جريس).

(٢) عرفت معظم أجزاء الجزيرة العربية طريقة رفع المياه من الآبار بواسطة الجمال والأبقار، وأحياناً الحمير منذ عهود سابقة للاسلام، واستمر تتمارس حتى أواخر القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي). (ابن جريس).

(٣) لمزيد من التفصيلات عن أنواع العمران في بلاد القصيم خلال القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي). انظر: الهويمل، بريدة، ص ١٧٢-١٧٧، محمد الربدي، بريدة، ج٢، ص ١٦٩-٢٢٦، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٩٧-٢٠٨. (ابن جريس).

وكان عبد الله يزعم أن هذه تمثل بالكامل الأنواع الموجودة في الواحة كلها؛ لأنه لم يُقصّر أبداً في غرسه بحديقته الخاصة أي نوع جديد جُلب إلى عنيزة، وكان هو نفسه قد استورد أنواعاً كثيرة من العراق[1]. هنا، لأول مرة في الجزيرة العربية تذوقت تمر البريم والحساوي من البصرة والبرحي من المنشأ نفسه، وأراني بفخر أول نخلة من البرحي الوحيدة التي وصلت عنيزة، جذع طويل زرع منذ خمسة وثلاثين عاماً مضت. وأقدم نخلة في هذه الحديقة كان عمرها سبعة وثلاثين عاماً، وهكذا تكون الحديقة نفسها قد برزت إلى حيز الوجود منذ عهد داوتي.

والأنواع الأخرى التي رأيتها أو تذوقتها في هذه المناسبة كان السكري، وأم الخشب، وسميت بذلك بسبب الظروف التي تستدعي دعم أعذاقها الثقيلة من الفاكهة الحمراء الكبيرة بأعمدة خشبية خشية أن تنخلع من النخلة. وهذا النوع لا يُجمع مثل التمور الأخرى؛ لأن الغصن كله يجب فصله عن النخلة وتعليقه طول فترة الشتاء، وتظل التمرة طازجة طول هذه المدة، والحلوة، والقطار، والروسينية التي تشتهر بأنها ألذها جميعاً، وهي فاكهة رقيقة ذات لون بني خفيف من الحجم المتوسط، وأم الحمام، والكثير غيرها. وخلال الحديقة كلها كنت أمشي حافي القدمين على الرمل أو الحشائش الناعمة.

في هذه المناسبة ولاحقاً على العشاء في بيتهم بالمدينة، عندما صار عبدالعزيز، الذي كان حاضراً متحمساً للموضوع، تحدثنا عن طرق ووسائل زيادة إمداد المياه، وعن المضخات التي تعمل بالمحركات وعن الآبار الارتوازية. وربما ظنوا أن زيارتي الحالية قد تؤتي ثمارها في النهاية نحو هذا الاتجاه، على الرغم من أن عنيزة في حدود علمي ما تزال تُروى بالطريقة القديمة، بينما المدينة تملك مضخاتها منذ

(١) للمزيد عن أنواع التمور في بلاد العراق، انظر: عباس الغزاوي. النخيل في تاريخ العراق (بغداد، د. ن، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م) ص ١٥ وما بعدها. (ابن جريس).

سنين. وقلت مقترحاً: إنه من غير المجدي من الناحية الاقتصادية إقامة محطة ضخ لحديقة صغيرة، بيد أن عبدالعزيز نظر إلى الموضوع من جهة تقليل العمل. فقال: «لماذا؟ إننا نستطيع أن نستخدمها لمدة ساعة كل يوم ونتركها عاطلة عن العمل باقي الوقت». ونصحتهم بأنه ينبغي لهم أن يختاروا ستة من الأولاد الأذكياء ويرسلوهم للهند ليدرسوا هذه الآلات، ولكنه قال: «هذا يتجاوز ذكاءنا. أنتم أيها الإنجليز مفعمون بالحيوية والطاقة، ولكننا مجرد قوالب من الطين إن العرب لهم عقول، ولكنهم لا يهتمون باستخدامها».

وقد تحدثنا أيضاً عن الطب، وهو موضوع كان المواطنون الكبار في المدينة يهتمون به كلهم ولهم فيه القليل من المعرفة[1]. وقد أخذنا عبدالله للخارج لنرى منطقة مسورة ثانية يملكها على الطرف الشمالي من حديقته. وقد سمح لهذه المنطقة بأن تنمو نمواً طبيعياً بأشجار الأثل لتشكل حاجزاً واقياً ضد هجوم رمل النفود. وهنا أشار إلى عشب متمدد منخفض يسمى جلب (Jalab)، الذي كانت جذوره تغلى لتشكل دواءً مقيئاً قوياً. هذا مع نبات آخر حددهما بعد ذلك من موسوعته بأنهما كانا على التوالي (Ipecacuanha) و (Jaborandi)، منها يُستخرج Pil-ocarpin. وقال لنا إنه اكتشف بالقرب من جدة نبات الكافيين المعروف في الجزيرة العربية باسم روح القهوة، ويعتقد أنه لم يصادفه في أي مكان آخر منذ ذلك الحين. في النفود كما قال ينمو نبات يسمى (غلقة)، الذي لا يمسه أي حيوان؛ لأنه سم قاتل. وبالنسبة للداتورة فإنهم اتفقوا على أنها لا توجد على الإطلاق أو ربما نادراً جداً في نجد، واعترفوا بجهلهم التام بنبات ذكره بلجريف وقال إنه يؤدي إلى نوبات

(١) يظهر من شروحات فيلبي في أكثر من مكان من هذا الكتاب أنه يؤكد على وجود نشاطات علمية وفكرية عند أهل عنيزة. فهناك من كان يعرف بعض الأشياء عن الطب، وآخرون عن النجوم والفلك، وفئات أخرى عندها بعض المعارف تجاه التعامل مع الصناعات المختلفة، والآلات الدقيقة كالساعات وغيرها، للمزيد عن الحرف والصناعات القديمة في عنيزة، انظر: حافظ وهبة، جزيرة العرب، ص ٤٣، السويداء، نجد في الأمس القريب، ص ١٣٥-١٥٤، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٥٤-١٥٧. (ابن جريس).

من القهقهة في أولئك المتهورين الذين يجربوه[١]. ولقد دُهشت من رضا مضيفي بأخذ صور لهما دون أي تردد، وتركتهما في حديقتهما على أن أراهما مرة أخرى في المساء بالمدينة.

كان مجلسهما كبيراً ذا جدران طينية جرداء ومتسخة نسبياً بالسخام من أثر الدخان، لا لياسة ولا محاولة في الزخرفة المعتادة، وكان فهد موجوداً أيضاً وجلس مرة أخرى بجواري، ولكنه أخذ الحذر وتعشى في بيته وتلاعب فقط بطبق من المهلبية. وبعد العشاء قدم عبدالله مجلداً مغلفاً تغليفاً جميلاً كتب فيه بخط يده، صفحة بعد صفحة، شجرة النسب الكاملة لعائلة البسام حتى اليوم، وهو موضوع كرّس له كثيراً من العناية والعمل. ولفرحتي سمح لي أن آخذه معي لأنسخ محتوياته. وتبدأ الشجرة من أصغر أعضاء الجيل الحالي إلى حمد، أول فرد من العائلة هاجر إلى عنيزة في عام (١١٧٣هـ)[٢] من وشيقر بسبب الاضطرابات المحلية. ومن هناك تتبعت الشجرة حتى بسام، الجد الأعلى الذي تسمت القبيلة باسمه، حتى تميم[٣] وتمتد بعد ذلك حتى النقطة التي يتفرع عندها الخط من السلالة التي انحدر منها النبي. وأخيراً من هناك عبر عالم من الأساطير المحضة حتى إلياس وما بعده.[٤] ومن المصادفة العجيبة أنه قال لي إنه قصر بسام في قرية بارود ليس له صلة بالعائلة، وإنما اشتق اسمه من رجل كان يسمى بذلك الاسم دون أن يكون له صلة بهم[٥].

---

(١) لمزيد من المعلومات عن أنواع الأشجار والنباتات في الجزيرة العربية، انظر: كتاب النبات، للدينوري بجميع أجزائه المنشورة. (ابن جريس).

(٢) (١١٧٣هـ) توافق بالميلادي عام (١٧٦٠م). (ابن جريس).

(٣) للمزيد عن قبيلة تميم وفروعها ومواطنها، انظر: الحقيل، كنز الأنساب، ص ١٥٥، وما بعدها. (ابن جريس).

(٤) للمزيد عن قبائل نجد الكبيرة، انظر: الحقيل، كنز الأنساب، ص ٦٢، ١٣٠، ١٤٣، ١٥٥، ٢٥٩. (ابن جريس).

(٥) انظر الشجرة النسبية المنسوبة إلى آل البسام في نهاية هذا الكتاب، وهي من إعداد/عبدالله بن محمد بن عبدالعزيز البسام. (ابن جريس).

في طريق عودتنا من حديقة البسام وعند مرورنا خلال السوق قابلنا العجوز مقبل الذكير جالساً على العتبة المرتفعة في محل متواضع، محل عمله التجاري في بيع التجزئة، فكل صفقات البيع بالجملة تُعقد عادة هنا في البيوت الخاصة. واستجابة لدعوته سرنا إلى بيته في وقت لاحق لنلتقي مع أولاده وأخيه. وكان في تلك الجلسة الأمير السابق والأمير عبدالله نفسه، ودار النقاش على موضوع حقوق الورثة بالنسبة لوفاة حمد البسام حديثاً، الذي نشأ بعض النزاع في العائلة على عقاراته.

إن حكم الشرع بالطبع يُلتزم به هنا، والذي يعطي الثمن من جميع ممتلكات أي شخص متوفى لزوجاته الأحياء يُقسّم بينهن، ثم يُقسّم الباقي بين أولاده بمعدل سهمين لكل ولد مقابل سهم واحد لكل بنت. في القضية الحالية لم يكن هناك ورثة من الدرجة الأولى محل التساؤل، ولكن يوجد أطفال أبناء الإخوان والأخوات، ودار النزاع حول ما إذا كان للبنات من أولاد الأخوات حق في الميراث. كان المستفيدون من الذكور المحتملون يطعنون في الرأي العادل والمشهور بصورة عامة من أن البنات لهن حق في الأسهم وعلى الرغم من أن الذكور كانوا أغنياء موسرين إلا أنهم يحاولون أن يستبعدوا عشيرة من النساء الفقيرات نسبياً من أي شيء ما عدا حصة زهيدة. وتحسر الأمير السابق العجوز العطوف قائلاً: «هذه طريقة العالم، القوي لا يستحي، ولا يخاف الله، والضعيف يضرب رأسه بالجدار». في جميع مثل هذه اللقاءات كان عبد العزيز يأخذ الأسبقية دائماً على أولئك الحاضرين، وفي هذه المناسبة كان الأمير عبدالله، بعدما عُرض عليه الفنجان الثاني من القهوة قد أشار إليّ، ولكن عندما اقترب الرجل مني ليصب القهوة لي استنكرت هذا الشرف وقبل عبد الله بكلمات لطيفة الإجلال والتقدير لرتبته[1].

---

(١) يظهر من هذا الوصف أن فيلبي نفسه أصبح على دراية جيدة بعادات العرب في شبه الجزيرة العربية. ومن يقرأ عن رحلاته وحياته الطويلة التي قضاها تحت حماية ورعاية ابن سعود يتأكد له صحة ما ذكرنا. (ابن جريس).

هذه كانت أخلاقهم الدمثة الجليلة، نفائس فاتنة من عالم قديم. عندما ينهض المرء لينصرف يقوم المضيف يحتجزه دائماً للحظات قليلة، قائلاً «تطيب»(١)، ثم يأتي بالمبخرة(٢) ويعد الجمر والبخور(٣) بنفسه للضيوف الذين بعد هذه المراسم الجليلة يصبحون أحراراً في الانصراف(٤).

في المساء زرنا محمد بن سليمان الشبيلي، الذي، مثل ناصر ابن عمه، كان عراقياً أكثر منه نجدياً، ذا ملامح غير طبيعية نسبياً ومتذللاً وخنوعاً. لقد تزوج في بغداد عام (١٣١٨هـ)(٥) وقضى معظم عمره فيها وفي البصرة، حيث لم تكن مظلمته سوء تقدير التعويض الذي ناله مقابل أرضه، فقد كان يعتقد أنه معقول تماماً، وإنما احتلال بيت عائلته قرب جسر وايتلي (Whiteley Bridge) ويعيش في عنيزة مؤقتاً في بيت مستأجر إلى حين إعادة بناء بيته الخاص. وعلى يديه جربنا الابتعاد عن عادات نجد، فقد رش ماء الورد فوق رؤوسنا بعد تناول البطيخ والشربات الذي يبعث على الغثيان بشدة.

قضينا اليوم التالي، الجمعة، العشرين من سبتمبر، في هدوء نسبي، وكان واجب استضافتنا قد وقع على سليمان الذكير. وقبل الذهاب إليه للفطور عرجت ومحمد السليمان على سليم، الذي كان مجلسه مثالاً في النظافة والروعة. ومن بين الحاضرين أبو الفرج، وهو تاجر كبير من المدينة على الرغم من أن الحرب قد حطمته وهو مقيم هنا منذ مدة. وهناك أيضاً سليمان القبلان الذي يحتمل أن يكون زوجاً لواحدة من الجميلات الثلاثة، ولكنه ظل صامتاً تماماً. وكان يحيى بن سليم ذو

---

(١) خذ البخوب (فيلبي).

(٢) مدخن (فيلبي).

(٣) عود (فيلبي) أي عود البخور الذي يبخر به الضيف. (ابن جريس).

(٤) وعادة البخور عند سكان المملكة العربية السعودية ما زالت تمارس بشكل كبير في كثير من المناسبات الاجتماعية (ابن جريس).

(٥) (١٣١٨هـ) يوافق هذا التاريخ بالميلادي عام (١٩٠٠م) (ابن جريس).

السنوات الثلاثة يجلس بجواري، ولأنني في يوم أمس كنت رأيت خالداً، ابن الأمير السابق، وعمره ثماني سنين، وسمعت منه أنه قد تلقى لتوه أول درس له في الرماية، فقد سألته إن كان يستطيع أن يرمي. ودار الحديث على البنادق وصيد الطرائد. وطبقاً لما قاله سليم لم يؤد التقصير والتخفيض التدريجي للبندقية العسكرية الطويلة إلى أي أثر يذكر في دقة السلاح، الذي تعد خفته أمراً أساسياً لأولئك الذين يحاربون على ظهور الخيل السمة الآيلة للزوال سريعاً من حياة العرب. وقلت إنني حتى الآن لم يحالفني الحظ في مقابلة أي عربي يمكن في الواقع أن نسميه رامياً ماهراً[1].

وحكى لنا قصة ذلك الشخص «بعيون حادة» الذي صادف خلال سفره مع بعض رفاقه، خمس غزلان ترعى معاً. عندئذٍ، حذر أصدقاءه بعدم الرمي مهما كانت الظروف، ثم حشى بندقيته بالذخيرة وبخمس رصاصات حمل الغزلان جميعاً في كيس. إن البندقية العسكرية البريطانية القصيرة تعرف باسم شرفا والطويلة باسم سمحة أو أم أحد عشر. وبندقية اينفيلد (Enfield) القصيرة تعرف من تاجها وتسمى «أم تاج»، بينما النموذج القديم والجديد من ماركة موسر (Mauser) يسميان على التوالي أم عشرة وأم خمسة بسبب سعة خزانة الطلقات فيهما. أما البندقية من طراز وينشستر ربيتر (Winchester Repeater) فتعرف باسم أم سبعة عشر. من بين هذه البنادق كانت أم تاج هي الأشد تقديراً ورواجاً، وتليها البندقية الجديدة من طراز موسر وبعدها الشرفا، والأخيرة تأتي هذه الأيام بصورة حصرية من الشريف الذي يسربها للبدو دون تمييز لكي يبيعوها بدورهم في الداخل. كذلك فإن موظفي الشريف أيضاً قد ربحوا أرباحاً طيبة من هذا العمل التجاري في بيع البنادق بقصد

(١) كان عرب شبه الجزيرة العربية يمارسون مهنة الصيد، وكانت البنادق من الأدوات التي يستخدمها بعض الصيادين، بل كان بعض الصيادين جيداً في الرماية وتحديد أهدافه بدقة. وكون فيلبي لم ير ويشاهد رامياً بارعاً فهذا ليس مقياساً على أنه لا يوجد في الجزيرة العربية رماة جيدون (ابن جريس).

استخدامها ضد الأتراك إلى أتباع شخص سيكون في المستقبل القريب منافساً ناجحاً لسيدهم[١]. فقبل هذا بأيام قليلة فقط تمكن رجل من عنيزة من جلب نحو عشرين صندوقاً من الذخيرة أخذها معه حتى الأحساء، وهناك وافق ابن جلوي على شرائها. وفي أثناء عملية عد محتويات الصناديق سقط الرجل الذي لابد أنه قد أجهد قلبه في نقل الصناديق الثقيلة، فجأة مع نزيف شديد من الدم ينهمر من فمه. وقد نُقل، على أمل إنقاذ حياته بعد ذلك، إلى بيت صالح السليمان ولكن ومع استمرار تدفق الدم طول الليل، لم يسترد وعيه أبداً. ورافق سليم، وهو الآن في الخامسة والثلاثين من عمره، عندما كان صبياً بقيت عائلته في الغربة عن الوطن وزاول التجارة في مسقط وخلالها في أحد المرات صاحب والده ومعهم شحنة من البنادق إلى الكويت.

على الفطور، الذي قدم في الهواء الطلق على سقف منخفض مظلل بالنخل في حديقة مجاورة، كان يحيى ومقبل حاضرين بالإضافة إلى مضيفنا. أما على العشاء فقد تشرفنا بصحبة الأمير السابق وعلي بن محمد السليمان. وهذا الأمير كنت قد زرته أثناء النهار في بيته الجديد بالشارع نفسه الذي نقطن فيه، والذي اشتراه حديثاً بغرض اقتراب زواجه. والسبب الرئيس من زيارته الحالية لعنيزة، وذلك مقابل ست مئة دولار. وهو يستحق، كما قالوا، ثمان مئة تامة، ومن السهل أن يدر إيجاراً قدره أربعون دولاراً في السنة. كانت زخرفة المجلس منمقة بآيات قرآنية متنوعة ونقش يبين التاريخ (كرونوغرام) موضحاً بالأرقام بناء البيت في (١٣٢٨هـ)[٢] .

لقد قضى علي أربعة أعوام في العمل التجاري ببومباي وستة أشهر في الجبيل وسنتين أو ثلاثة في الأحساء، حيث تعلم هناك شيئاً من تجارة اللؤلؤ. يُباع اللؤلؤ

---

(١) يقصد فيلبي في هذا المنافس للشريف، أي ابن سعود (ابن جريس).

(٢) (١٣٢٨هـ) تعادل بالتاريخ الميلادي (١٩١٠م) (ابن جريس).

بالوزن طبقاً لنظام معقد في تقسيم عوائد البيع بين جميع المعنيين، وأكبر منظمة مشترية تمثلها إم. روزنثال في باريس (M. Rosenthal of Paris)، التي تعرف للعرب باسم (حبيب). وحسب ما قاله كانت الجبيل قرية بدوية لها ميناء طيب، يعوقه إلى حد ما حاجز أو سد، ولكن ليس بصورة شديدة السوء مثل مدخل العقير وهي أفضل من القطيف؛ لأن فيها مياهاً عميقة تصل حتى أرصفة الميناء بدلاً من المياه الضحلة التي تستلزم استخدام الصنادل لنحو ميل تقريباً.

لقد أذاع مقبل مرة أخرى مظلمته الصغيرة المتصلة ببعض أملاكه في البحرين، والتي ذكرناها آنفاً. ففي عهد الرائد تريفور (Major Trevor)، الذي كان وكيلاً سياسياً في ذلك الحين، عُقدت اتفاقية مرضية بموجبها يمر الطريق عبر أراضيه، ومنذ ذلك الحين ظلت الأرض خالية. ومع ذلك، في الآونة الأخيرة بيعت قطعة من الأرض لأغراض البناء عليها، وظهر موظف حكومي، فارسي يخفي حقداً وضغينة لمقبل، وجدد النزاع القديم حول الطريق المنحرف، الذي كان المبنى المقترح يتعارض معه على حد زعمه.

طرح الدين موضوعاً للحديث أثناء وجبة المساء. فقال عبدالعزيز: «ألاحظ أنك تقول إن شاء الله، ولكن هذه ليست بالتأكيد طريقة الإنجليز. لقد ركبت على متن سفنكم أحياناً، وعندما كنت أستفسر عن الميعاد المتوقع لوصولنا كان الربابنة يجيبون دائماً بكبرياء من الثقة المطلقة قائلين : سنكون هناك في وقت كذا أو كذا». وشرحت قائلاً: إنه في إنجلترا توجد صيغة لاتينية بمعنى نفسه إن شاء الله ليست غير نادرة الاستخدام، وأردفت، لسعادتهم الكبيرة، أن التجربة قد علمتنا أن ننسب الطقس للإله في مثل هذه الظروف. فقال الرجل العجوز مواصلاً حديثه: «إن شاء الله سوف يصبح فيلبي مسلماً؛ لأننا لن ندعه يذهب إلى النار». فأجبت: «سوف أنتظر حتى قدوم المسيح، الذي تؤكده لنا كتبكم وإذا أكد تعاليم النبي، فسوف أنضم لكم».

فقال عبد العزيز بن بحيى: «ولكن، سيكون الأوان قد فات، لأن الخلاص والنجاح فقط لأولئك الذين وضعوا ثقتهم وإيمانهم بمحمد»(١).

إن الخوف من النار حقيقي جداً عند العربي الورع، واقتبس الأمير السابق مع حسرة الحديث الذي يذكر طوائف اليهود، والنصارى، والمسلمين، الذين قُدّر عليهم كلهم أن يذهبوا للجحيم إلا طائفة واحدة. لقد كان مسروراً حقيقة عندما وافقته في الرأي وأكملت له الاقتباس أو الاستشهاد، علامة أكيدة على أني كنت أدرس تعاليم النبي، وازداد سروراً عندما اقتبست مرة أخرى من المصدر نفسه الحديث التالي: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُنصرانه أو يهودانه أو يمجسانه»(٢). وتحدث مقبل العجوز عن إنجيل برنابا، الذي فيه رأى نبوءة بقدوم نبي يسمى أحمد(٣)، وبلهجة رقيقة مؤثرة اقتبس قطعة طويلة من القرآن عن كهنوت عيسى. وفي أثناء اقتباسه حذف المقدمة الجوهرية :"قال الله"، وبكل حلم قبل تصحيح الأمير السابق له، وبدأ الآية كلها مرة أخرى. وكان يشير إلى تلاميذ المسيح باسم الحواريين.

بعد صلاة المغرب أنهينا أنشطة يومنا بزيارة لعبد الله ومحمد، أولاد علي الزامل، اللذين كان معهما ناصر الشبيلي. كانت عنيزة تنتظر الآن بشغف كل نتفة من الأخبار عن تقدم سير حملة ابن سعود العسكرية وفي كل اجتماع كان الموضوع يبرز على السطح. وفي أحد كتبه صادف عبد الله قطعة ذكرته بشكسبير. وسألني: «هل كان هو شكسبير الذي جاء هنا، أو ربما أخوه أو أبوه؟». لقد كانت الإشارة إلى كاتبنا المسرحي العظيم(٤).

---

(١) يتضح من هذا النقاش أن فيلبي ما زال على نصرانيته، وكان هناك من يعرض عليه الدخول في الإسلام باستمرار، حتى نجده بعد عدة سنوات من رحلة هذا الكتاب يدخل الإسلام، ويقوم بأداء جميع شعائر الإسلام. (ابن جريس).

(٢) يتضح من نقاش فيلبي مع بعض وجهاء عنيزة أنه يعرف قضايا شرعية إسلامية عديدة وردت في القرآن والسنة النبوية. (ابن جريس).

(٣) المقصود بـ (أحمد) هنا أي الرسول محمد ﷺ. (ابن جريس).

(٤) الكاتب الإنجليزي يختلف عن الرحالة شكسبير الذي قدم إلى الجزيرة العربية، وفقد حياته في معركة جراب التي كانت بين ابن سعود وابن الرشيد (ابن جريس).

تشتق عائلة سليم اسمها من الجد الأكبر لزامل، الذي كان له خمسة أولاد: عبدالله، ويحيى، وإبراهيم، ومحمد، وعلي، كان الأخير[1]، كما ذكر عبدالله، رجلاً قاسياً بلا لباقة أو حس سليمٍ. ومن المفترض أن يشبه عبدالله في البنية الجسمانية زاملاً أكثر من أي فرد آخر على قيد الحياة من العائلة، ولكن عندما كان يبتسم بطريقته اللطيفة المستهجنة كنت أظن أنني أرى الابتسامة المميزة للأمير عبدالله. ومن بين أشياء أخرى أخبرني عن بعض النقوش غير العربية على وجه جرف الصفراء على اليمين من الرفيعة سنجر، ولكن لم تسنح لي أبداً فرصة فحصها بصورة صحيحة، على الرغم من أنني والدكتور عبدالله قد خرجنا إليها في رحلة غير موفقة اليوم التالي، ولم نعثر على أي شيء إلا قليل من الوسوم ونص عربي قصير أو اسماً لم نستطع أن نفك طلاسمه.

ومرة أخرى في الجلسة الصباح التالي عندما زرت، والدكتور عبد الله سليمان السعيد، الطبيب الدجال، الذي ـ مثلما فعل المرة السابقة ـ غمرنا بكرم الضيافة، وأصر على تناولنا التمر، والبطيخ، واللبن الزبادي وعلاوة عليها قدم لنا سلطانية من عصير البطيخ الذي لم أشعر بملاءمته في هذه الساعة المبكرة. وكان غازي، الحربي أحد أعضاء مجموعتي، قد أظهر في الآونة الأخيرة علامات أصابته بمس من الشيطان، ففي اليوم السابق وبعد نزاع تافه سحب سيفه على أحد الأشخاص. ويؤيد الدكتور عبد الله ومحمد السليمان بقوة فصله من الخدمة فوراً، بيد أنني اقترحت أنه سيكون من الأفضل أن نُسلمه لمضيفنا ليعالج أمره، وعلى هذا وافق سليمان بحماس. وبتواضع شديد احتج على عدم زيارة عبد الله بصورة متكررة، كما كان يأمل، وكما قال، ليزيد من معرفته الطبية بالتحدث معه، وأجاب الأخير بشيء من الفظاظة، حسبما ظننت، كما كان يفعل أحياناً عندما يكون غير مهتماً، وتدخلت

(١) الأمير المسؤول عن عنيزة أيام زيارة داوتي لها. (ابن جريس).

لإنقاذ مضيفنا قائلاً: «مهتم كانت الأسباب في أي موضوع فليس لديك ما تتعلمه من عبد الله، لأنه ليست لديه قوة ضد الجن والعفاريت». لقد سُرّ الرجل العجوز كثيراً، على الرغم من أنني اعتقدت أن بعضاً من جديته في موضوعه المفضل ربما كانت مجرد تصنع[١].

بعد ذلك قضينا الوقت قبل الفطور في المشي على مهل خلال الحدائق جنوب المدينة مباشرة. فبعدما تجاوزنا حديقة المنيحية التابعة لفهد البسام، انتهينا في حديقة كبيرة رائعة من حوالي ثمانية أو تسعة فدادين تقريباً تخص عبد الرحمن العبد العزيز الزامل، التي توجد فيها أشجار تين كثيرة، خالية في الواقع الآن من الفاكهة، وكميات من الطماطم والباذنجان[٢]. تروى هذه المنطقة من بئر عمقها حوالي (٨) أو (٩) قامات، وتمد أيضاً بالماء خزاناً طويلاً ضيقاً مبنياً من الحجر مظللاً بصف مزدوج من أشجار التين، وتجاوره حديقة تخص إبراهيم الزامل. وقال لي العامل البستاني أن أعذاق (سبائط) التمر تترك دائماً على أشجار النخل إلى أن يأتي أول وابل من المطر عندئذٍ، سواء كان ناضجاً أو لا ، يُجمع التمر ويُخزّن. إن التمر، مهما كان مستوى نضوجه لا يسقط على الأرض، وعلى قول بالجريف تتكمش قشرته فقط.

في طريقنا لبيت ناصر الشبيلي لتناول الفطور صادفنا مجموعة تعبر المجلس الصغير الذي كان فيه إبراهيم القاضي وعبد الله العلي الزامل وآخرون، الذين حصلت على إذن منهم بتصويريهم. وبعد العملية اضطررت إلى شرح عمل الكاميرا، وكان إبراهيم على وجه الخصوص مثل طفل مسرور عندما نظر من خلال فتحة

---

(١) للمزيد عن النواحي الصحية والممارسات الطبية في الجزيرة العربية خلال القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، انظر: محمد مفتي، تطور الخدمات الصحية في المملكة، ص ٥ وما بعدها، بدر الربيعة، تطور الخدمات الصحية في المملكة خلال مائة عام، ص ٧ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) للمزيد من التفصيلات عن الحياة الزراعية في بلدة عنيزة، انظر: السويداء، نجد في الأمس القريب، ص ٣٣، ٢٤٦، ٢٤٧، الشريف، منطقة عنيزة، ص ٩٠ (ابن جريس).

العدسة. وبدا ناصر مضطرباً إلى حد ما عندما دخلنا حيث همس بسرعة شيئاً ما في أذن محمد السليمان. وكما علمت فيما بعد فلم يكن يتوقع إلا ثلاثة منا، ولكن في سلوكه ذاك كان مخطئاً تماماً طبقاً لآداب الذوق المحلية، التي تفرض عليه واجب استضافة حاشية الضيف كلها. وتبعاً لذلك نتج تأخير طويل في تقديم الفطور على مهل، وقد كان هناك ما يكفي لإطعام خمسين شخصاً، والخوخ يشكل إضافة سارة وممتعة لقائمة الطعام الخفيفة المعادة.

سرت عائداً إلى البيت مع علي الشعثان، الذي قابلته في المجلس الكبير ووجدت فهد البسام وصالح الفضل ينتظراني أو بالأحرى ينتظران آخر أخبار الحرب، بعدما سمعا أن ساعي البريد من الكويت قد جلب لي بريداً. لم يكن هناك شيء ذو أهمية على أنني أعطيتهما نسخاً من جريدة «بصرة تايمز» باللغة العربية ليقرؤوها ويرسلوها للأمير[١]. بعد ذلك زرنا جارنا الثمانيني، عبد العزيز الميمان الذي استقبلنا بحرارة في مجلسه الرحب ولكنه بسيط، والذي كانت جدرانه مزخرفة في الجزء السفلي بالجص الأبيض المتميز بأبراج مدرجة في الجزء العلوي منه. وهناك فرق بسيط عن الزينة المعتادة بخط أبيض يمتد عند قمة الأبراج، يوحي إلى حد ما بالإفريز الموجود على واجهات البتراء. وفوق الجزء السفلي المزخرف كانت الجدران من الطين الأجرد، باستثناء نقش يبين تاريخ البناء في عام (١٣٣٤هـ)[٢].

(١) كان المستوى الثقافي والفكري في عنيزة حسناً خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) للمزيد انظر: عبدالله الشبل. عن التعليم في عنيزة، ضمن كتاب: الملك عبدالعزيز والتعليم، تأليف عبدالله أبو راس وبدر الدين أديب، ص ٧٥، إدارة التعليم في عنيزة، نشرة عن التعليم في عنيزة عام (١٤٠٧هـ) ص ٥ أو ما بعدها، السويداء، نجد في الأمس القريب، ص ١٢٤، ٢١١، محمد القاضي، روضة الناظر، ج١، ص ١٦١، ٢٦٧. (ابن جريس).

(٢) (١٣٣٤هـ) تعادل بالتاريخ الميلادي عام (١٩١٦م). للمزيد من التفصيلات عن الحياة العمرانية في عنيزة خلال القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٩٧- ٢١٨. (ابن جريس).

أعدت القهوة بالطريقة المعتادة على الموقد، ثم جيء باثنين من الصواني للداخل، أحدهما محملة بالكؤوس الزجاجية والأخرى بثلاثة من غلايات الشاي، فالشاي، الذي أعدته خصيصاً لنا زوجته، أكبر الجميلات الأربعة، كان من نوعين، أسود أو هندي، مع آخر أبيض ويُعرف أيضاً باسم إسطنبولي؛ لأنه شاي روسي يُستورد عن طريق القسطنطينية. إن الشاي لم يستخدم بصورة منتظمة في وسط الجزيرة العربية إلا منذ نحو خمسة وثلاثين عاماً، وقبلها كان مزيج الليمون الساخن مع السكر هو الشائع. واهتمام رائع آخر من الزوجة الشابة، التي ربما كانت تعلم أو لا تعلم من هم ضيوف زوجها، هو إسقاط حزمة من المراوح من نافذة علوية غير مرئية في الفناء الذي تناثر فيه الرمل، عندئذ أحضرها مضيفنا العجوز ووزعها بيننا. لقد كان يعاني من الأكزيما أو مرض ما فظيع آخر في الجلد، وكانت يده اليمنى مسلوخة الجلد بسبب المرض وأنفه مشوه بالجرب الشنيع[1].

ورحلنا إلى الأمير عبد الله الذي وجدناه منكباً على قراءة جريدة بصرة تايمز. واعترف أنه ليست لديه فكرة واضحة جداً عن الموقع الذي ربما يكون فيه بحر قزوين، وعند ملامسة موضوع الذهب أخبرنا أنه من سنوات مضت وجد خام ذهب ذي لون أحمر متلألئ في جبل حُليطة على مسيرة يومين جنوب غرب إلى جنوب جنوب غرب من عنيزة. وكان أحد البدو كلّفه شخص ما في البصرة، قد حمل إلى هناك عدة أكياس منه، ولكن منذ ذلك الحين لم يُسمع أي شيء إضافة على ذلك عن هذا الموضوع. وفي المكان نفسه يُقال إنه توجد بقايا مدينة قديمة، ربما مركز للتعدين من عهود موغلة في القدم[1].

---

(١) كان في الماضي ينتشر بين الناس العديد من الأمراض الفتاكة التي يصعب على الإنسان أن يجد لها علاجاً مفيداً، ومن تلك الأوبئة: الجدري، والطاعون، والسل وما شابهها. (ابن جريس).

(٢) عن المعادن والتعدين في الجزيرة العربية انظر: كتاب الهمداني الموسوم بـ (الجوهرتين العتيقتين ...) . (ابن جريس).

تناولنا العشاء في بيت الشبيلي وفي أثناء مجريات الحديث عن النقوش القديمة تطوع أحدهم بمعلومات عن وجود آثار على بُعد مسافة ساعة من عنيزة، ربما في الصفراء، وهي تل يسمى قرة الكس ويقال إنه هذا التل يحتوي على غرفة أو ممر كالكهف الغائر تحت الأرض والذي ـ بدءاً من المدخل بارتفاع قامة رجل تقريباً ـ يزداد في الحجم ولم يستكشفه أحد أبداً بصورة صحيحة خوفاً من مس الشيطان أو العفاريت. وفي كل مرة تُبذل فيها محاولة لدخوله كانت المصابيح تنطفأ فجأة. وقد أعربت عن رغبتي في النجاح فيما فشل فيه الآخرون، ووعدت بفرصة لبذل محاولة، ولكن أملت الظروف علينا خلاف ذلك. فالدكتور عبدالله بعدما شعر بالتعب، لم يُرد أن يخرج للعشاء، ولكن بعد شبه موافقته على اقتراحي بأنه ليس هناك حاجة لأن يأكل بالضرورة، قرر أن يخرج معنا على أساس أنه لن يكون من اللائق لضيف ذكر أن يتخلف في البيت بعدما يغادره مضيفه وجميع أعضاء العائلة الذكور، ولا يتركوا وراءهم في البيت إلا النساء. فقلت له: «ولكن ذلك قد حدث لي في يوم الجمعة عندما خرجتم كلكم لصلاة الجمعة». فأجاب قائلاً؟ «معك، الأمر مختلف تماماً». في طريق عودتنا للبيت دخلنا لنسلم على الأمير السابق الذي لاحظنا في مجلسه أن الأمير عبد الله يجلس في أوضع مكان، وعندما ذهبت نحوه لأسلم عليه، ابتسم كما لو كان يستنكر إظهاري لأي اهتمام به في حضرة الأقدم منه في الخدمة. في مثل هذه المناسبات يأخذ كل أفراد العائلة، ومن الحاضرين أيضاً إبراهيم الحمد وسليم وعبدالرحمن أبعد الأماكن ولا يجلس مع المضيف إلا الغرباء.

كان تعدد الزوجات الموضوع الرئيس في الحديث، وجازف الأمير عبد الله برأيه في أن خسارة أوروبا للرجال خلال الحرب سوف تجبرها على التخلي عن مبدئها في أحادية الزوجات لكي تعوض النقص الحقيقي في عدد السكان، وأيضاً تحقيقاً للعدل مع النساء اللائي حرمن من جميع فرص الزواج. وسألني: «وأنتم يا أهل أوروبا ألا تمارسون تعدد الزوجات أبداً؟» وشرحت له أن هذا بيننا يعتبر جريمة

جنائيـة على الرغم مـن أنه ربما توجد حـالات نادرة من الجـمع سـراً بين امـرأتين[1]. وتدخل الدكتور عبد الله الذي ربما لم يكن في أحسن حالاته، قائلاً: «لا، إن عشرة بالمائة تماماً من السكان الذكور في إنجلترا يعيشون في حالة تعدد الزوجات». وضغطت عليه ليقدم الدليل الذي بنى عليه قوله، فاتضح أنه بين العدد الصغير جداً من الرجال الإنجليز الذين عرفهم في القسطنطينية وأماكن أخرى قبل الحرب كان هناك واحد فقط عنده أكثر من زوجة. ثم سحب التهمة على أساس أنها كاسحة بشدة. إن الفاحشة والزنا كما قيل لي ليست نادرتين جداً في نجد كما تصورت، على الرغم من أنهما لا يُرتكبان إلا بسرية تامة؛ لأن الموت لكلا الطرفين هو عقوبة اكتشافهما[2].

وجدنا في بيت صالح الفضل في اليوم التالي فهد البسام وعلي السليمان، ابن مضيفنا، شاب رائع ذو وجاهة وسلوك رصين جداً، مقرون بنغمة خفيفة متشدقة بالكلام والتي يكون لها أحياناً سحرها الخاص. وقال فهد: إن حكايته عن دخول روسيا الحرب مرة أخرى في جانب القوى المركزية كان فقط من استنتاجه الشخصي ومن تفسير كويتي خاطئ لتقرير وكالة رويتر عن حديث لأحد الأعضاء السوفييت، الذي قال: إنه من الضروري تماماً لروسيا أن تشارك بدور فعال في الحرب. والترجمة العربية لذلك قيلت بطريقة تجعل المرء يعتقد أن روسيا قد أجبرت فعلاً على الدخول في الحرب.

وانتقلنا إلى موضوعات أخف وطأة وتبعث في النفس السرور مثل مزايا التمارين البدنية المنتظمة، التي كان بطلها عبدالله بن عبد العزيز البسام، الذي على

---

(١) هذا النقاش بين فيلبي وبعض أعيان عنيزة يدل على وجود نوع من الوعي الثقافي والفكري عند السكان المحليين، وإلا لما ناقشوا هذا الرحالة في أمور علمية دقيقة شاهدناها على صفحات عديدة من هذا الكتاب (ابن جريس).

(٢) الفاحشة والزنا في الشريعة الإسلامية يعاقب فاعلها بأشد العقوبات، أما في أوربا فإنها من الأعمال المستحبة والممارسة عند شريحة كبيرة جداً من المجتمع (ابن جريس).

الرغم من أنه فوق الستين بكثير، فهو يعيش في الواقع بأرض حديقته ومنها يقوم يومياً بانتظام بنزهة على القدمين في النفود المتموجة. والحديث عن السباحة التي يبدو أنهم يعنون بها الاستحمام فقط بشكل عام[١]، قد قادنا إلى قصص صيد الأسماك، وإلى أسماك القرش في شط العرب، وهكذا إلى حكاية حكاها محمد عن حوت منذ بعض سنوات مضت قد سار مسافة بعيدة حتى وصل إلى القرنة؛ ولأنه قد انحبس بسبب انحسار المد فقد أصبح تائهاً وسدّ مجرى المياه، وقد جازفت بأن عرضت شكي وقلت كيف أن الأتراك في جزء ضيق من النهر قد فشلوا عند بداية الحرب في سد القناة بإغراق السفينة إكباتانا (Ecbatana) وسفينتين أخريتين، عندئذٍ، عُدّلت قصة الحوت تعديلاً طفيفاً، فالنهر، بشكل حقيقي بما فيه الكفاية، استمر في التدفق على كلا الجانبين، ولكن ممر السفن قد انسد مؤقتاً، وقتل الحوت بنار البنادق من الضفتين، وتلوث الجو برائحته النتنة إلى أن قطعوه بالمنشار وأزالوه.

في فترة العصر مشيت والدكتور عبدالله على مهل متجاوزين القاع ومتجهين نحو الغرب خلال بساتين النخيل حتى وصلنا إلى ضفة رملية عالية تشكلت في فجوة بالسور الدائري بجوار حدائق حيفا الجميلة، وهي ملك فرع يحيى من عائلة سليم، الذي كان جميع أفراده الأحياء إما في حائل أو في العراق. وبينما كنا جلوساً هناك، نتمتع براحتنا على الرمل الناعم، انضم إلينا شاب ذو وجه مرح من المزارعين، وأخذ يثرثر عن حياته. لقد كان في القنفذة عندما استولت عليها قوات الشريف[٢]، وتحدث برقة وود عن البريطانيين الذين كانت قضيتهم قضيتنا كما قال، حالنا واحد. وفي الماضي كان يزاول مهنة صيد اللؤلؤ على الساحل الشرقي، ولكن مع

(١) بعض المنازل في بلاد نجد والقصيم والحجاز كانت لا تخلو من أماكن مخصصة للاستحمام، مع أن عامة الناس في الماضي كانوا يقومون بعملية الاستحمام في العراء، أو في مكان مستتر بالمنزل. (ابن جريس).

(٢) القنفذة: ميناء على البحر الأحمر، تقع إلى جنوب مكة المكرمة بحوالي (٣٠٠) كم، وكانت من الموانى الرئيسة لبلاد تهامة والسراة الممتدة من الطائف حتى أبها، وبخاصة في القرن الثالث عشر الهجري، والنصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري (التاسع عشر والعشرين الميلاديين). (ابن جريس).

تدهور هذه الصناعة خلال الحرب فكر في أن يغير حياته بالخدمة لدى الشريف. ولأنه سرعان ما تعب من ذلك، فقد قرر العودة إلى أرض وطنه، التي فعلها في صحبة إبراهيم الجميعة وجماعته. وهؤلاء كانوا عائدين من جدة بعدما ودعوا القنصل المتجه إلى مصر. وذكر أنه لم يقابل هذا الأخير. وقد تركته في جهله بأنني كنت «القنصل» الذي يتحدث عنه.

وشاهدنا القوم وهم يعملون في قطع الأراضي الزراعية حولنا، بينما مجموعة من الرجال منكبة على الحفر في بقعة من الأرض نرى امرأة عجوزاً تفتح سدود قنوات الري لتنساب تيارات الماء حتى تصل البرسيم العطشان. وكانت شجيرات الباذنجان بثمارها الفاتنة ذات اللون الأرجواني الداكن تنتصب واقفة في صفوف على كلا جانبي القنوات[1]. وهناك عدد من الآبار في حالة تشغيل تام، ففرق الإبل تقودها جيئة وذهاباً على منحدراتها النساء اللائي كن يسحبن بسرعة خمرهن الساقطة عند مرورنا. وبينما كانت الشمس تغرب خلف النفود بدأنا نعود أدراجنا نحو البيت سالكين الدروب المسورة بين البساتين، وعندما وصلنا البيت، جلسنا على وجبة عائلية فوق السطح، مجرد مضيفنا ونحن، وذلك تغيير سارٌّ عن دعوات الاستضافة التي لم تتوقف في الأيام السالفة.

بعد العشاء انضم إلينا عبد الله الحمد السليم، الذي جاء ليرى ما إذا كان عند الدكتور عبد الله غسول لعيني ولده الصغير المريضتين، وجلس معنا إلى حين وقت صلاة العشاء الأخيرة. وقلت له : إننا نفكر بعد فترة وجيزة في الذهاب إلى بريدة للتغيير، كما عزمنا حقاً أن نفعل حتى نخفف عبء وجودنا على القوم الكرام في عنيزة. فأجاب «لماذا تعود بلا سبب إلى مكان تضيق فيه قلوبكم؟». وحكى لنا عن

(١) للمزيد عن الحياة الزراعية في بلاد القصيم عامة وفي مدينة عنيزة خاصة، انظر: محمد الربدي، بريدة، ج٢، ص ٢٧١، ٣٢٩، حافظ وهبة، جزيرة العرب، ص ٦٠ - ٦٣، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٢٣-١٤١. (ابن جريس).

شخص بغدادي (اسمه على ما أظن ابن صالح) جاء ليستقر في نجد وحط رحاله أولاً في بريدة، التي وجدها لا تطاق تماماً، ولذلك جاء إلى عنيزة، وفي النهاية انتقل إلى الرياض، وهو يعلن بصوت عال في كل مكان يذهب إليه رأيه السلبي عن أهل بريدة على الرغم من نصيحة أصدقائه بأن يظل صامتاً إن لم يجد خيراً يقوله. هذه هي حكمة العرب، أن يتحملوا في صمت كل شيء إلا الكفر[1]. وواصل حديثه، عندما تحول الحديث إلى داوتي، قائلاً: «إننا أهل عنيزة نفخر بحق باحترام كل واحد يحترمه ابن سعود، حتى ولو خلعنا عليه العباءة من أكتافنا، بينما إذا لم ينل الشخص احترام الإمام، فإننا لا نرغب فيه، حتى لو كان والدنا. ولم يكن لخليل[2] أن يأتي بالطريقة التي أتى بها رجلاً بسيطاً دون توصية، وإذا كنت أتيت مثله لكنا قد رفضناك. لقد جاء هوبر بأسلوب رفيع من ابن رشيد ووجد الاحترام والتقدير، مثلما وجدته أنت أيضاً، عندما جئت مثله. ولم يكن ينبغي لخليل أيضاً أن يأتي مثلنا فعلا إلا إذا كان مستعداً للنطق بالشهادتين". وحكى أيضاً عن نصراني، ربما يكون أوروبياً على الرغم من أنه لا يذكر اسمه، عاش في الرياض لعشر أو إثنتي عشرة سنة أيام فيصل، معلناً دين أجداده، بل يقدم وعظاً في المساجد ولقي الاحترام والتقدير[3]. بعد ذلك بسنوات عندما كان ابن مانع، تاجر الخيول، يمشي في أحد شوارع بومباي قد سمع الرجل نفسه يناديه، على الرغم من أن الأخير اضطر إلى أن يتذكر تفاصيل ذكرياته قبل أن يتعرف عليه التاجر. ولقد ظننت أن هذه القصة ربما تكون صدى من بلجريف ولكن الحقائق كما قيلت لا تتناسب مع هذه النظرية.

---

(١) الكفر والشرك أعلى مراتب الخروج من ملة الإسلام، والله عز وجل يغفر ويتجاوز عن المذنب، ماعدا الشرك والكفر بالله عز وجل. (ابن جريس).

(٢) خليل: المقصود به داوتي الذي تسمى بهذا الاسم، انظر معلومات أكثر، روبن بدول، الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ص ٧٧ وما بعدها (ابن جريس).

(٣) هناك العديد من الأوربيين جاؤوا إلى نجد والقصيم وغيرها من أجزاء الجزيرة العربية خلال القرون الماضية، وكانوا يختلفون في أهداف رحلاتهم، للمزيد، انظر: روبن بدول، الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ص ١١ وما بعدها، جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب، ص ١٩ وما بعدها. (ابن جريس).

وكان عبد الله الحمد، خلال فترة اغترابه في الكويت برفقة أعضاء آخرين من عائلة سليم وآل سعود وآل مهنا، قد رافق حملة غازية ضد العجمان والعوازم نظمها مبارك، الذي وصفه بأنه طاغية قديم. وقد تكونت ثلاثة بيارق تمثل على التوالي الكويت نفسها، وعنيزة وبريدة، وبلد الساحل الشرقي، التي مروا خلالها، وهي مليئة بمواقع آثار وواحات وقرى. وقال: «هذه هي بلد السكن القديم، بينما هنا في نجد لا يوجد شيء قديم جداً».

كان الثالث والعشرون من سبتمبر آخر يوم كامل لي في عنيزة، وبدأنا بجلسة قهوة في بيت عبد الله الحمد. ولأنه يتوقع وصولنا، فقد ترك مكان الشرف الأقرب إلى الموقد خالياً لي، ووجدت نفسي بجوار أحد أفراد عائلة الربدي من بريدة، الذي لم أكتشف هويته إلا بالصدفة من خلال ملاحظة عابرة، على الرغم من أنني أدركت أنه ليس من عنيزة وأحسست بعدم الود في تصرفه. ولم تسنح فرصة مناسبة للإعلان عن رأيي في مدينته الأصلية؛ لأن الدخول المباشر في الموضوع سوف يخالف حدود الأخلاق الحميدة؛ لذلك جلسنا معظم الوقت في صمت بليد بينما يقوم عبدالله بعمل القهوة ويعد اللبن الدافئ الذي يحل في كثير من البيوت محل الشاي في مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح، فلم تكن الساعة قد تجاوزت السابعة إلا بقليل. وانصب الحديث المتقطع على آخر أخبار حملة حائل العسكرية، وعلى الوقائع البعيدة في الغرب حيث أصبح الشريف مرة أخرى نشطاً بشكل مشؤوم[١].

ثم مشيت على مهل مع عايض خارجين إلى سنجر رافع لنستمتع بالرياح المنعشة من الشمال، ولكي نلتقط بعض الصور الضوئية للواحة التي ـ بسبب الضيافة النشطة قد تركتها لآخر لحظة ـ وبينما كنا على وشك أن ندخل الواحة مرة أخرى من البوابة الشرقية فقد حيانا مزارع منهمك في ري قطعة أرض مزروعة بالبطيخ

(١) للاطلاع على تفصيلات أكثر من العلاقات السياسية الحربية بين ابن سعود، والشريف، ابن رشيد، انظر: العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ص ٥٧ وما بعدها. (ابن جريس).

تسمى المغيثة خارج الأسوار مباشرة ونادى علينا: "تعالوا من خلال الخضرة"[١]، وانتقى بطيختين ناضجتين من زراعته وسلمهما لنا لنأخذهما للبيت. لقد كان يسقي حديقته الصغيرة مرتين يومياً، وهي تحتوي على أنواع من البطيخ والشمام المحلي، رديئة الطعم نسبياً، ومساحة صغيرة من نوع فريدوني الحلو ذي الأوراق الصغيرة الذي استورد أصلاً من الزبير. ومن البوابة الشرقية، أو بالأحرى ربما الجنوبية، الشرقية، دربٌ يوجد إلى ضاحية الضليعة التي تقع أمامها تماماً على الجانب الأيمن كتلة بركانية مرتفعة من الصخر الأسود توحي بوجود حديد أو فحم[٢].

بعد تناول الفطور بهدوء في البيت انطلقنا فوراً بعد الظهر لشرب القهوة مع عبدالعزيز ابن قنير، حيث فوجئنا بوصول أخبار سارة من الجبهة وخطابات من ابن سعود للأمير ولي. وقضيت باقي اليوم في إعداد رسائل وبرقيات لتذهب مع ساعي البريد إلى الكويت بأخبار أحدث التطورات، وقد كان في نيتنا مغادرة عنيزة في اليوم التالي. وفي الساعة التي تعرف باسم بين العشروين (أي بين غروب الشمس وصلاة المغرب) مشيت على مهل متجهاً إلى بيت الأمير السابق عبد العزيز لنسلم عليه سلام الوداع، ووجدنا هناك الأمير عبد الله وآخرين من العائلة. وكان هناك فرح في الخارج بأخبار "النصر"، التي جعلتني مرتاباً وأجلت تحقيق آمالي إلى يوم آخر. ولم أدرك كثيراً أن الأصدقاء الذين كانوا شديدي الكرم والذين ودعتهم بحزن حقيقي، لن يسلموا عليّ مرة أخرى إلا بعد أن تتوسع الموجة الصغيرة من النجاح الابتدائي شمالاً وغرباً لتضم الأقاليم الشاسعة من جميع أعداء العاهل الوهابي[٣].

(١) يقصد بـ (الخضرة) هنا: أي المنطقة الخضراء والمكسوة بغطاء نباتي أخضر في الأرض المزروعة (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن أماكن التعدين في بلاد نجد وعموم الجزيرة العربية، انظر، الهمداني، كتاب الجوهرتين، ص ٤٨ وما بعدها. (ابن جريس).

(٣) يقصد بذلك أنه لن يقابل بعض أعيان عنيزة الذين قضى معهم أوقاتاً جميلة أثناء زيارته بلادهم. وربما هذا لن يتم له إلاّ بعد اتساع نفوذ ابن سعود وضم بلاد الحجاز وبلاد الشمال من الجزيرة العربية. للمزيد عن كيفية توحيد المملكة العربية السعودية تحت لواء ابن سعود، انظر: العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ص ٣٥ وما بعدها (ابن جريس).

فقد قُدّر لنا أن نتقابل في جدة مرة أخرى في يناير ١٩٢٦ الشهر الذي مات فيه خليل ونفس الشهر الذي جلس فيه ابن سعود على العرش في مكة بصفته ملكاً على الحجاز. بحلول ذلك الوقت كانت الجزيرة العربية القديمة التي عرفها داوتي، والتي رأيتها بنفسي، قد زالت وقامت الجزيرة العربية الجديدة من الآن فصاعداً عملاقاً متجدد القوى جارياً في دربه[1]. ومن بين الأوائل الذين جاؤوا إلى هناك ليشاهدوا المعجزة، التي كنا عنها نتحدث أحياناً في عنيزة وجدنا الدليل الخائن لداوتي، إبراهيم السليم، وحفيد صديقه المخلص ذا الحديث العذب، عبدالرحمن بن عبدالعزيز الزامل.

(١) الرحالة الأجانب مثل داوتي وفيلبي وغيرهما يعدون من المصادر الجيدة التي حفظت لنا كثيراً من تراث الجزيرة العربية خلال القرون الماضية، ولا يمكن لأي باحث أن يتجاهل ما أفادونا به من معارف مع تفاوتهم في السلبيات والإيجابيات. للمزيد انظر: روبن بدول، ص ١٥ وما بعدها، جاكلين بيرين، ص ٣٨ وما بعدها. (ابن جريس).

٧ــ أول أزهار التفوق العربي

بين الفينة والأخرى خلال إقامتنا المؤقتة في عنيزة تأتينا الأخبار أو الشائعات تترى عن تقدم حملة ابن سعود العسكرية ضد الأسرة الحاكمة التي تنافسه في الشمال؛ فالحشد الأولي في الطرفية عندما غادر إلى هناك من بريدة، قد تبعه حشد آخر أشد ما يكون شبهاً بالعمل التجاري في القصيباء على الحدود الشمالية للقصيم، وهناك انضمت كتيبة الغطغط التي تأخر وصولها إلى بقية الجيش، الذي يتكون الآن من الحرس الشخصي الملكي من قوات من المدنيين قوامها حوالي ثلاث مئة رجل وسبع كتائب من الإخوان تفصيلها كما يلي:

المسلسل	اسم الكتيبة	القوة بالرجال (راكبين الإبل أو راجلين)	القوة بالخيول
١	الأرطاوية	١٠٠٠	١٠٠
٢	الغطغط	٨٠٠	١٠٠
٣	الداهنه	٧٠٠	٨٠
٤	فريثان	٧٠٠	٧٥
٥	ساجر	٥٠٠	٦٥
٦	مبايض	٥٠٠	٥٨
٧	الضيعة	٣٠٠	٥٠
٨	حرس ابن سعود الشخصي	٣٠٠	٣٠٠
٩	**المجموع**	**٤٨٠٠**	**٨٢٨**

إن قوة قوامها خمسة آلاف رجل كبيرة تقريباً بالقدر الذي يُمكنها أن تظل بصورة ملائمة في الميدان طول الوقت بالصحاري العربية. وهكذا كان ابن سعود قوياً بقدر ما يستطيع ما يتمنى لأي عملية أقل من الهجوم على حصون حائل نفسها. لقد كان هدفه الواضح أن يلقي القبض على ابن رشيد المعروف بغاراته على

قبيلة حرب، في العراء ويضطره للقتال. بهذه النية انطلق من القصيباء قبل أيام قلائل من العيد ومعه مؤن لستة أيام. وسار في اتجاه شمال ـ غرب لمسافة سبعين ميلاً في خط مستقيم حتى وصلوا إلى آبار الأجفر على بُعد خمسين ميلاً إلى الشرق تماماً من حائل، في يوم العيد نفسه (السادس عشر من سبتمبر). وكانت الدوريات (صبور) التي نشرت مبكراً في المقدمة، قد عادت في اليوم نفسه لتعلن أن العرب الذين قيل سابقاً إنهم عند مورد مياه سدر شمال أجفر قد حولوا فجأة معسكرهم إلى العدوة عند أقصى الطرف الشرقي من جبل سلمى «هجوا»[1]، قالها المطيري الذي كان هو نفسه واحداً من الدوريات وأول رسول إلى عنيزة، «وجدنا هجوجهم». ومن الأخبار ذات الأهمية القصوى التي جلبوها أن ابن رشيد نفسه يحتفل بالعيد في السبعان[2] شمال جبل سلمى وغرب العدوة، إنه لمن الواضح استطاعة ابن سعود أن يجبر خصمه على القتال، ولكن لكي يفعل ذلك كان عليه أن يقاتل وظهره إلى حائل حيث يتعرض لخطر قطع انسحابه في حالة الفشل.

في هذه الظروف عقد مجلساً للحرب سعياً منه لنصيحة كبار الرجال في قوته، وكان ابن لامي من مطير أول[3] من تكلم «بكلمات مجنحة». فقال: «لقد خرجنا من أجل شرفك ومن أجل شرف الإخوان، ومن أجل شرف القصيم. ونحن خُدامك. مُرنا ونحن نطيع". ثم وقف وتكلم الدويش: "سوف أرد نيابة عن الإخوان. إننا خرجنا لنهاجم ابن رشيد وأقسمنا ألا نعود إلا بعد أن نفعل ذلك. دعنا نتقدم ونسوي حساباتنا معه". وأجاب ابن سعود قائلاً: "إنني في الحقيقة مسرور تماماً بنصيحتكم

(١) لقد رحلوا ووجدنا (آثار) رحيلهم. (فيلبي).

(٢) قرية السبعان: تقع جنوب شرق مدينة حائل وعلى بعد (٧٥) كم، وهي في سفح جبل سلمى، وقد وصفها الرحالة الفلندي جورج اجست فالن سنة (١٢٦٢هـ/١٨٤٥م)، وذكر أن المياه فيها جارية وتنزل فيها أحياناً عائلات البدو وتقطنها لغرس النخيل وزرع الذرة. أما الرحالة لويس موزل التشيكوسلوفاكي فهو الذي زار تميم، وشيخهم خيرالله التميمي، انظر: العريفي، حائل، ص ٤٦، ٩٥، ٩٦. (ابن جريس).

(٣) للمزيد عن قبائل مطير وفروعها، انظر: الحقيل كنز الأنساب، ص ١٣٦ وما بعدها. (ابن جريس).

وعواطفكم، ولكن أحذركم إننا ندخل في عمل خطير هذه المرة. أقسموا لي بالله أنكم سوف تنقادوا حيثما أقود ولن تعودوا إلا بعد أن ننته من القتال مع ابن رشيد. فليأت معنا كل من يتوق إلى الشهادة، ويستطيع الباقون أن يعودوا لزوجاتهم". عندئذ رفع الإخوان أصواتهم بالبكاء وأقسموا على الولاء حتى الموت، وهم مستعدون له فوراً بمراسم التحلل المتبادل من جميع الأخطاء التي ارتكبوها وكابدوها. وفي الختام أملى كل رجل وصيته الأخيرة وشهادته، وجمعت الوثائق وأرسلت إلى بيوتهم المختلفة[١].

قام الآن ابن سعود بتشكيل ثلاث مجموعات في الطليعة على التوالي تحت قيادة ابن أخي فهد بن معمر، وابن أخي مشاري بن مسيس من مطير، وابن أخي الفرم شيخ حرب[٢]. ولدى هؤلاء أوامر بإغراء ابن رشيد على الخروج من تحصينات قرية السبعان إما بالتحدي المباشر أو بالتظاهر بالهجوم على حائل نفسها، بينما ابن سعود يتابع القوة الرئيسة في الاحتياط ليستغل أي موقف قد ينشأ. كان رسولنا المطيري وآخرون قد تخلفوا؛ لأن ذلولهم قد انهارت وآخر مرة رأوا فيها القوة الرئيسة بعد انطلاقها في السابع عشر من سبتمبر توحي بأن ابن سعود يهدف إلى الذهاب نحو الشمال من حائل. والأخبار، بقدر ما جاءت، تبعث على الأمل بدرجة كافية، كما يبدو هناك احتمال أكيد أن ابن رشيد سوف يُجبر على القتال في العراء أو يُفصل عن حائل، التي يمكن في هذه الحالة أن يتم فتحها اعتماداً على الخيانة.

في اليوم التالي تقاطرت تفاصيل إضافية، فقد سقى ابن سعود حيواناته من بئر يسمى سدراً، وهاجم ابن رشيد مخيم قبيلة حرب في حميلية دون نجاح كبير في لحظة كانت جميع حيواناتهم في الواقع ترعى بعيداً في النفود. وخسر رجال القبيلة

---

(١) هذا المنهج الذي سلكه ابن سعود مع رجاله قبل الاشتباك مع ابن رشيد عام (١٣٣٦هـ/١٩١٨م) تدل على حنكته، وسعيه إلى حفز الهمم والمعنويات عند رجاله، وبث روح الشجاعة والاستبسال في نفوسهم كي يصلوا إلى أهدافهم، ومن أهمها القضاء على ابن الرشيد (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن قبائل مطير وحرب وفروعها وشيوخها انظر: الحقيل، كنز الأنساب، ص ١٣٦-١٤٣، ١٥١-١٥٥ (ابن جريس).

حوالي ثمانية أو عشرة رجال قتلى وثلاثين جملاً سلبت في هذه المناوشة، بينما تكبد ابن رشيد خسائر أكبر من ذلك إضافة إلى أنه اضطر إلى الرحيل بأقصى سرعته عندما تلقى أخباراً عن تحركات عدوه في منطقة حائل. وبالتالي كانت قبيلة حرب قادرة على استرداد إبلها المسلوبة. وبالنسبة لنا، المنتظرين على جمر الأمل في عنيزة فإن التطورات المتلاحقة تتجه بسرعة نحو الذروة. وأخيراً، في الثالث والعشرين من سبتمبر انفض واحد من مجالس القهوة المعتادة بقدوم علي الشعيثان ومعه بشرى بأن أخباراً طيبة قد وصلت من الجبهة. واضطررنا إلى أن نتمالك أنفسنا صبراً من أجل التفاصيل حتى نستطيع الوصول إلى بيت الأمير، حيث وجدنا البشير[1]، رشيد الهمزاني من شمر حامل الرسائل للأمير ولي من ابن سعود. تحتوي الخطابات على أخبار النصر ودعوة لي بالانضمام إلى المنتصر في القصيباء حيث يفضل أن يستريح مدة من الزمن مكللاً بأمجاده.

كان ابن رشيد قد نجح في دخوله حائل، وبعدما ترك الكتلة الكبرى من جيشه هناك داخل الأسوار ذهب بنفسه إلى المعقل الرهيب في معويج بقعاء على بُعد حوالي أربع أو خمس ساعات إلى الشمال الشرقي من العاصمة. وبقي ابن شريم مع أعرابه في سبعان، بينما بنو يهرف، هم قبيلة من الرعاة، يتولون بشكل عام مسؤولية قطعان ومواشي ابن رشيد. ولهؤلاء قرابة به مثل ما لفخذ الصخيل من فرع المطارفة من عنزة من قرابة مع غريمه. وكانوا يشغلون المساحة بين هذه النقاط القاصية في شبه دائرة خلف حائل، وتجمعاتهم الرئيسة في الضبعه وعكاش والسويفلة[2] وهذه

(١) الذي يجلب التنبوءات السارة. والكلمة من مبشر أي رسول. (فيلبي). والذي يجلب البشارة أو الأخبار السارة غالباً ما يُعطى بعض الهدايا من المبشرين أو المستفيدين بهذه الأخبار الحسنة، وما زالت هذه العادة سارية في المجتمعات العربية وغير العربية حتى الآن (ابن جريس).

(٢) ضاحية السويفلة: تقع أسفل مدينة حائل، وربما تكون هي الأصل في بداية مدينة حائل، وتستقر في هذه القرية الأسر المعروفة في مدينة حائل منذ تأسيسها، كأسر آل ضمار، وآل ريشان من شمر وغيرها من الأسر العريقة. انظر فهد العريفي، حائل، ص ٤٣ (ابن جريس).

الأخيرة تبعد ميلان فقط من شمال حائل. وبعدما احتفظ ابن سعود بالقوات المدنية وقوة كبرى من الإخوان في الاحتياط، أطلق عنان القسم الرئيس من المذكورين أخيراً على بني يهرف، الذين أخذوا على حين غرة تماماً في صفيلة وتكبدوا خسائر كبيرة. وقد قدرت الغنائم بألفي جمل والغنم لا تحصى. وتباهى الإخوان بالنصر حول أسوار العاصمة نفسها، التي منها أطلق عليهم النار، على الرغم من أنه يبدو أن المدفعية لم تستخدم. والسؤال الآن ماذا بعد ذلك؟ هل ينبغي تعزيز الهجوم على معقل ابن رشيد أم لا. وعُقد مجلس حرب وأعلن فيه المسلمون الفرحون بالغنائم[1] أنهم "ما رأوا ذلك"، أي أنهم لا يحبون مشهد العمل الأكثر تجهماً وصرامة المعروض عليهم الآن. واحتجوا قائلين: «ليس عندنا نزاع مع ابن رشيد شخصياً، وقد حصلنا على ما أردناه، لذا فلنعد إلى بيوتنا». كان هذا قرار المجلس. ووقع الحادث الوحيد الجدير بالإكبار في الحملة العسكرية خلال عملية الانسحاب، عندما صادف ثلاثة رجال من القوة الوهابية، الذين يعملون كقوة استطلاع في مؤخرة الصفوف، قافلة ذخيرة من خمسة أبعرة في طريقها إلى ابن رشيد. وفر الرجال الأربعة المسؤولون عنها عندما رأوهم. وقد جلبت عشرة آلاف طلقة من الذخيرة إلى معسكر ابن سعود في سدر التي قضى فيها ليلة العشرين من سبتمبر.

في اليوم التالي انتقل الجيش إلى الأجفر، وفي الحادي والعشرين ساروا عائدين إلى قصيبة. وكان رشيد، البشير، الذي أعيد ابتعاثه إلى المقدمة ليجلب لنا الأخبار، لم يستطع أن يقول شيئاً عن احتمالات المستقبل باستثناء أنه ما لم يخرج ابن رشيد للقتال من أجل استرداد حيواناته المفقودة وبالتالي يجبر ابن سعود على التوقف أو العودة لمواجهته، فإن الأخير يفكر في الانسحاب أكثر إلى الطرفية ومنها إلى بريدة.

(١) إن المتقاتلين من الطرفين يدينون بدين الإسلام، لكن أثناء الحروب يظهر بعض المصطلحات العسكرية والسياسية التي هدفها النيل من الخصوم بأي طريقة ووسيلة ممكنة (ابن جريس).

وهكذا سُلمت المبادرة بصورة وديعة إلى ابن رشيد، وكما برهنت الأحداث بعد ذلك كانت الفرصة العظيمة لاستئصال قوة شمر من نظام الشؤون العربية قد ضاعت، ولن تعود إلا في (١٩٢١هـ)[1]، وكما وقفت الأمور ـ على كل حال ـ كان يبدو من المرجح أن الصراع الذي بدأ بهذا الشكل للقضاء على التحدي سوف يستمر. فلقد قال الإخوان المنتصرون «وطئنا الديرة» أي أننا «وصلنا المدينة نفسها». وكان يبدو من غير المرجح أن ابن رشيد سوف يقعد هادئاً تحت وطأة الإهانة، فهذه أول مرة على الإطلاق تصل فيها أيدي أسرة آل سعود إلى أسوار المدينة منذ أن أصبحت حائل قوة مستقلة. ومن المؤكد أن ابن رشيد سوف يرسل رسلاً ليغري شمر بالقدوم من كل حدب وصوب ليستأنف القتال المتوقف. وفي خضم خيبة أملي من ضآلة النتائج التي تحققت فقد سجلت النتيجة المحزنة من أن حملتي العسكرية كانت بكل المقاييس قد انطلقت بجد وعزيمة حقيقية، ولكنها لم تعد تعتمد في استمرارها على رغبة ابن سعود في الحرب؛ ففي رأيي كان مستقبل الجزيرة العربية كله يعتمد على موضوع هذا الصراع بين نسيجين لا يتوافقان في قلبها نفسه. وإلى أن ينبض هذا القلب بصورة طبيعية وبانسجام تام مع نفسه لن يستطيع أن يأمل في السيطرة على الجنب المشلول وإنعاشه من القارة الكبرى، التي كان الأطباء، أي الأطباء البريطانيون، مشغولين في ترقيعها إلى ما يشبه الجسم الحي بالجبيرة والخياطة.

إن توحيد قسمي نجد كان خطوة جوهرية لتوحيد الجزيرة العربية، وفي هذه الأيام يُعتبر من المثير للضحك والاستهزاء الحديث عن ـ أو حتى مجرد التفكير في ـ وحدة الجزيرة العربية من ناحية الهيمنة الوهابية. ومع ذلك في سبتمبر (١٩٢٠هـ)[2]، عندما قابلت بعد ذلك ابن سعود في العقير حيث جاء إلى هناك للاجتماع مع السير بيرسي كوكس (Sir Percy Cox)، الذي كان في ذلك الحين في

---

(١) هذا التاريخ (١٩٢١م) يقابل بالهجري عام (١٣٤٠هـ) (ابن جريس).

(٢) عام (١٩٢٠م) يعادله بالهجري عام (١٣٣٩هـ) (ابن جريس).

طريقه لتولي وظيفة المندوب السامي في العراق، اكتشفت أن حملة حائل قد بقيت حيث وقفت في نهاية سبتمبر (١٩١٨هـ)[١]، والعاهل الوهابي يميل إلى إثارة اعتراضات تافهة على التحيز المفرط وغير الملائم للحكومة البريطانية إلى جانب أسرة الأشراف الحاكمة[٢]، - على الرغم من تربة[٣] - أكثر من ميله إلى وضع يده على العلاج الواضح في حدود متناول يده. وقلت له في ذلك الحين إن الحكومة البريطانية لن تنظر إليك أبداً نظرة الجد إلا بعد أن تستأصل ابن رشيد وأسرة شمر الحاكمة من صورة الجزيرة العربية. فأجاب "سيكون كل شيء على ما تتمنى، إن شاء الله". وسقطت حائل في أغسطس التالي، وفي خلال ثلاثة أعوام كان ابن سعود بصورة عملية سيد الجزيرة العربية كلها[٤].

٨ ـ السير ليلاً إلى بريدة

أكدت لي دعوة ابن سعود رغبتي في مغادرة عنيزة، وتقرر أنه علينا أن ننطلق في الرحلة مبكراً قدر الإمكان في صباح الغد. وقضيت بقية اليوم في تحرير التقارير والرسائل إلى بغداد، ولكن ـ لسبب ما ـ وهو تراخي وكسل العرب الذي يتعذر تفاديه[٥]، لم يُعثر على ساع ليحملها إلى الساحل تلك الليلة، وحيث إنني لم

(١) عام (١٩١٨م) يعادله بالهجري عام (١٣٣٧هـ) (ابن جريس).

(٢) للاطلاع على العلاقات بين الحكومة البريطانية والأشراف في الحجاز وموقف ابن سعود من تلك العلاقات، وبخاصة في العقد الرابع من القرن الهجري الماضي، انظر: لوريمر، تاريخ البلاد السعودية في دليل الخليج، ص ٥٢٩ وما بعدها، عبدالفتاح أبو علية. دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر، ص ٩١، ١٧١، محمود شاكر شبه جزيرة العرب (الحجاز) (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م) ص ١٥٩ وما بعدها، مديحة درويش، تاريخ الدولة السعودية، ص ٧٨ وما بعدها (ابن جريس).

(٣) لمزيد من التفصيلات عن الصراعات بين الأشراف وابن سعود في الحزمة وتربة، انظر: العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ٢ ١٨١ وما بعدها (ابن جريس).

(٤) استطاع ابن سعود أن يوحد الجزيرة العربية تحت راية واحدة وأن يقضي على جميع القوى المتناحرة في البلاد، للمزيد انظر: إبراهيم عبده، إنسان الجزيرة، ص ٧٧ وما بعدها، عبدالواحد راغب، فجر الرياض، ص ٣٩ وما بعدها، فان درمولين، الملك ابن سعود، ص ٥٥ وما بعدها، إيفبيسون، ابن سعود ملك الصحراء، ص ٦٩ وما بعدها، بدر عادل الفقير، عناصر القوة في توحيد المملكة، ص ٦١ وما بعدها (ابن جريس).

(٥) يتهم فيلبي العرب بالكسل وهذا اتهام يحتاج إلى برهان مع أننا لا نقدر أن ننفي قوله فربما يكون فيه نسبة من الصحة (ابن جريس).

أكن أقدر على الرحيل إلا بعد إرسالها، فقد استيقظت في صباح الرابع والعشرين من سبتمبر وأنا عازماً على تقليد البطء المعوق لأصدقائي وعلى عدم إظهار أية لهفة على الانطلاق. وتبعاً لذلك نهضت من نومي متأخراً لأجد مقبل الكبير وصالح الفضل ينتظراني ليودعاني حيث ضيعت ساعة سارة في آخر حديث معهما.

وعند مغادرتهما ذهبت في نزهة أخيرة على الأقدام بين الحدائق البهيجة مع عبد الله الرشيد، الذي كان عن عمد يتفاداني كل هذه الأيام بسبب حبي للنزهات الطويلة، ولكنه ربما اعتقد أنه قد حان الوقت ليظهر في الصورة في آخر لحظة ليضمن أي هبة أو منحة قد تقدم من أجل الخدمات السالفة. وقادنا سيرنا إلى حديقة معاوية الخنيني، التي دخلناها مجازفة لنجد ثلاثة من أعضاء العائلة، علي وسليمان، وأولاد صالح أخي عبدالله، صديق داوتي، ومحمد بن حمد العبدالله. وقد استقبلونا بترحاب حار وعرضوا علينا الحديقة كلها، التي تمتاز عن جميع الأخريات في الواحة من ناحية أشجار الفاكهة[1]. وبعد مدة طويلة جلسنا لنستريح فترة تحت الغصون المتدلية من شجرة خوخ هائلة، وأفطرنا على الفاكهة بجوار قناة صغيرة من البئر المجاورة، التي شربنا منها ماءً بارداً بأكفنا. إن الخوخ والرمان الذي وضعوه أمامنا كان بالتأكيد أفضل ما ذقت في جزيرة العرب، وختمنا بتمر الصبيحية الذي يقطر منه العسل الحلو. كانت هذه الحديقة حوالي خمسة عشر جريباً في مساحتها، الثلث منها مخصص للنخيل، الذي يبلغ خمس مئة نخلة تقريباً وبلغ عائد إنتاجها هذا العام، باستثناء ما أخذه أصحابها والعاملون فيها لاستخدامهم الخاص، أربعة آلاف ريال، قسمت بالتساوي بين المالك والعاملين. وقسمة مشابهة للأرباح بين المالك والعاملين تنطبق أيضاً على كل إنتاج هذه الحديقة بالذات بسبب كثرة

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن الزراعة في بلاد القصيم وبخاصة عنيزة وبريدة، انظر: محمد الربدي، بريدة، ج٢، ص ٢٧١، ٣٢٩، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٢٣-١٤١. (ابن جريس).

إنتاجيتها غير العادية، على الرغم من أنه في معظم الحدائق كان نصيب العاملين من المنتجات الأخرى غير محصول التمر مرتفعاً بما يصل إلى الثلثين أو حتى الثلاثة أرباع. وهناك نحو مئة شجرة رمان والعدد نفسه تقريباً من أشجار الخوخ، وجميعها من الطائف، بينما كان الملاك قد استوردوا حديثاً وزرعوا ستاً من شتلات المشمش المخصوص من البصرة. بالإضافة إلى ذلك يوجد عدد كبير من أشجار الليمون والتين، والأخيرة تلقي بظلالها الوارفة على خزان مستطيل من الحجر الذي يمر من خلاله ماء البئر المبطنة بعمق تسع قامات، إلى سد صغير والذي ينساب من فوقه في شلال صغير صاف إلى قنوات الري تحته. كانت الحديقة تضج بخرير الماء الجاري وموسيقى الساقية على البئر، متعة بهيجة من جداول الماء والخضرة في كل مكان ظليل. وهناك مشهد النخيل الداكنة فوق محاصيل الذرة الصغيرة من الرقع الغنية بالبرسيم في المساحات الخالية. والملاك مسرورون بحرفتهم اليدوية، ولكن مثل آبائهم من قبلهم في عهد داوتي، ما يزالون يفكرون في أنابيب للبئر ومضخة آلية لتجعلها تصل إلى حد الكمال(١).

في طريق عودتنا مررنا على واحدة من حدائق البسام التي استأجرها الأمير عبد الله على أسس مجزية جداً تقوم على إعطاء ربع الإنتاج للمالك بينما يتكفل المستأجر بكل أعمال الصيانة. وبصرف النظر عن نصيبه المشترك بالوراثة في حديقة قرية الأمير السابق، لم يكن للأمير أية عقارات أو أراض في عنيزة. وبينما كنا نواصل طريقنا نحو البيت صادفنا جماعة عائدة من منافسة رماية في النفود هدفها قطعة من الورق مثبتة على بُعد أربع مئة ياردة. وكان مع أحدهم البندقية العسكرية البريطانية القصيرة، وآخر معه ماوسر (Mauser) الألمانية، وتقدر قيمة

(١) كان أهالي الجزيرة العربية قديماً يعتمدون على السواني في رفع المياه من الآبار لري مزارعهم، لكن منذ النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) صاروا يمتلكون تدريجياً مضخات وآلات متنوعة تستخدم بدلاً من السواني في ري المزارع وتزويد منازلهم بالمياه المطلوبة لاستخدامهم. (ابن جريس).

الأخيرة بأحد عشر أو إثني عشر جنيهاً إسترلينياً، تقريباً ضعف ما يمكن أن تجلبه الأولى في السوق[١].

لقد قضيت باقي الظهيرة ومعظم ما بعد الظهر في قراءة ترجمة عربية لرواية جنسية فرنسية لطيفة، كنت قد وجدتها بين المجلات القليلة التي تشكل مكتبة مضيفي، ثم أعلنت أنني مستعد للانطلاق، ثم حدث التأخير الذي يتعذر تفاديه المصاحب لإحضار الإبل، وقُدّم لنا العشاء عند الساعة الرابعة عصراً، وبعد أن حُمّلت الإبل انطلقنا، دون دليل، عند الساعة السادسة إلا ربعاً.

خلال عشر دقائق كنا قد خرجنا من البوابة الشمالية وسرنا في اتجاه شمالي ـ غربي على طول درب واضح وضوحاً تاماً يمتد بين السويفلة سفيلة الطرف الشمالي من الواحة، وتلال مصابح الرملية الشاهقة على يميننا. والطريق المباشر، الذي أخطأناه نتيجة عدم وجود دليل يقع بصورة أكبر إلى اليمين، ويمتد نحو الشمال تماماً، ولكن دربنا نحو وادي الجناح كان الطريق البديل. وفي فترة قصيرة قد وصلنا إلى قنة النفود، عندئذٍ نزل الدرب بتموجات رقيقة وسط مزارع حمض وأضهر. وعلى يسارنا تقع قرى شعيب الملقاء، بينما خلفنا يوجد الجزء الأعظم لواحة عنيزة مثل زمردة داكنة في اللون، وفي الأمام تظهر أشجار نخيل الوادي. وبعد ميل من خروجنا من البوابة الشمالية مررنا على يميننا بمنخفض الروضان الضحل، وبه مجموعة من أشجار النخيل المتناثرة والأثل، وبئر واحدة وحولها بعض بقع البرسيم إضافة إلى كوخ وحيد. وبعدما سرنا مسافة قليلة إضافية، وعلى يسارنا، يقع منخفض النقرة وفيه أرض مسورة مزروعة بالبرسيم وبعض الأثل تروى من البئر. وهكذا نزلنا المنحدر إلى قاع وادي الرمة على يمين قرية وادي الجناح بحوالي مئتي ياردة.

(١) للاطلاع على معلومات أكثر عن الحياة التجارية في بلاد القصيم، انظر: سيد بكر. الملامح الجغرافية، لدروب الحج، ص ١٨ وما بعدها، السويداء، نجد في الأمس القريب، ص ١٢١، الشريف، منطقة عنيزة، ص ١١١، ١١٣، ٢٢٤، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٤٧-١٤٩ (ابن جريس).

بحلول هذا الوقت أظلمت الدنيا، وسرنا في مسار منحرف عبر الوادي لنصل إلى الجسر حيث كنا سنسلك الطريق الرئيس من هناك، وقد كان من المستحيل التحكم في سيرنا بأي قدر من الدقة. ففي البداية سرنا في درب واضح المعالم تماماً يجري مرة بين بساتين النخيل وأخرى في العراء، ولكن سرعان ما وجدنا أنفسنا في متاهة من قنوات الري بلا مخرج واضح. هنا قررت التوقف فترة لإرسال كشافة للاستطلاع، ولكنهم لم يقطعوا إلا مسافة قصيرة حيث تم اعتراضهم، وفي نفسها اللحظة، لاح رجل بشكل غامض من الظلام ووقف على مسافة قريبة يسألنا من نحن. وصحنا رداً عليه «أصدقاء»، «تعال هنا». فصاح صوت نسائي قريب «لا تذهب يا إبراهيم». ولكنه لم يلتفت إلى زوجته القلقة واقترب منا. في اللحظة نفسها كان كشافتنا قد بثوا الذعر في جزء آخر من القرية؛ لأننا على ما يبدو كنا قد زلت أقدمنا في قرية وادي أبو علي الكبرى، وفي لحظة تحوّل جو الليل الساكن إلى صخب من عويل النساء واعتراضات الرجال الأشد فظاظة. وصرخت النسوة «جاؤونا، جاؤونا»، أي قد انقضوا علينا، ظانين أن عدواً ما، ربما واحدة من دوريات ابن رشيد، تقف على عتبات أبوابهم[1]. في غضون ذلك كان إبراهيم، الذي جاء إلينا، قد صرخ برده عليهم مؤكداً أننا مسافرون غير مؤذين، أخطأنا الطريق المستقيم. ولكن الأمر استغرق بعض الوقت إلى أن هدأ الاضطراب والهيجان، وفي الأثناء نفسها أرشدنا خلال النخيل والقنوات ووضع أقدامنا مرة أخرى على الطريق.

هذه محاذير الحياة اليومية في جزيرة العرب خلال تلك الأيام[2]. وفي الظلام ضللنا الطريق مرة أخرى، ولم يكن من السهل علينا أن نجد الجسر الذي عبرنا فوقه إلى أول جبل في نفود بريدة. وهنا، بعدما قررنا التوقف لانتظار القمر، رقدنا وارتحنا على الرمل الناعم حتى الساعة التاسعة والنصف.

---

(١) كان الأمن في الماضي مفقوداً، وبالتالي فعموم الأسر والعشائر تجدها مستعدة ببعض الأسلحة والأدوات الدفاعية عما قد يداهم أموالهم وأعراضهم في الليل والنهار. (ابن جريس).

(٢) كان المسافر في الماضي كثيراً ما يتعرض للاعتداء بالسلب والنهب، وأحياناً بالقتل، وسبب ذلك هو فقدان الأمن في الأوطان، وربما الجهل والجوع قد يساعدا في نشر الفوضى والاضطراب في البلاد (ابن جريس).

كان سيرنا بعد ذلك ممتعاً بعد ذلك على درب ممهد فوق قفر رملي بارد تحت ضوء القمر. في البداية تحركنا بخفة ونشاط، نتجاذب أطراف الحديث ونغني لنسيم الليل، ثم، بعدما تقدمت الساعة وتأخر الوقت، هبط علينا الصمت والسكون الذي لا يقطعه إلا حفيف أقدام الإبل. لقد كانت تجربة سعيدة أن نسير بالليل مثلما يُغرم العرب بها، وهي متعة حرصت دائماً عن عمد أن أتحاشاها لكي أرى أكبر قدر ممكن من معالم البلاد. وفي هذه المرة كنا نسير فوق أرض مطروقة بالفعل، واستطعت أن أستسلم للاستمتاع باللحظة دونما تفكير في بوصلة أو قرطاس. كان النجم القطبي يدلنا خلال الليل ونحن نمر على بساتين الخضر المظلمة والحافة السوداء لنخيل الصباخ الذي تظهر صورته في الظلام مقابل الجبل الرملي فيها(١). وعند منتصف الليل المدينة الطينية الكبيرة نفسها تلوح أمامنا في ضوء القمر. وبعد ذلك بربع ساعة كنا نقف أمام البوابة الشرقية طالبين الدخول. «من أنتم؟». جاءنا سؤال الاعتراض الليلي من الداخل، والذي عليه أجابوا «أصحاب الإنجليزي». وحُملت البوابة للخلف لتسمح لنا بالدخول، وقد أعد الخادم الطيب شلهوب العشاء لنا. وكان علينا أن نستأنف سيرنا قبل الفجر وكم كنت سعيداً، بعدما تأكدت أن كل شيء جاهز، بأن أتمدد على سطح مسكننا لأنام ساعات قليلة(٢).

٩ـ شمال القصيم

بعد الرابعة صباحاً مباشرة نهضنا من سباتنا، وبعدها بساعة تحركنا على سهل رملي يقع إلى الشمال ـ الغربي من بريدة بين النفود على اليسار وقفر البطين المكوّن من الحجر الرملي على اليمين. ولمدة نصف ساعة أو أكثر كان مسارنا يشبه ذلك

---

(١) للاطلاع على أسماء بعض القرى والهجر والمدن في بلاد القصيم انظر محمد الربدي، بريدة، ج٢، ص ٣٩٢-٣٩٣. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن جغرافية وتاريخ مدن القصيم الرئيسة مثل عنيزة، وبريدة، والرس، والبكيرية وغيرها، انظر: علي المقوشي، البكيرية، ص ١٧ وما بعدها، عبدالرزاق المسعود، الزلفي، ص ٢١ وما بعدها، عبدالله العيد، البدائع، ص ١٩ وما بعدها، محمد الربدي، بريدة جزءان، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٥ وما بعدها (ابن جريس).

الذي سرنا فيه متجهين إلى الخبوب مارين على برج شمس المتهدم وبستان نخيل الغاف ثم انحرفنا عنه في اتجاه شمالي ـ غربي حتى دخلنا الصفراء نفسها. وهي سهل متموج منخفض قابلنا فيه عدداً غفيراً من عبادلة مطير[١] عائدين من «النصر» في حائل بحوالي مئتي جمل تمثل نصيبهم أو ما يعتقدون أنها تمثل نصيبهم من الغنائم ، حيوانات أخذوها بأنفسهم. ومن زعمائهم عليان بن ضمناء، الذي لم نره لكي نتحدث معه، وضيدان بن درويش الذي ثرثرنا معه للحظات قليلة، وكان رجلاً رقيقاً عذب الحديث في حوالي الأربعين من عمره. وقد كان ودوداً على نحو غير متوقع معي، ولم يكن هو ولا أتباعه يُعدّون بعد من الإخوان. وقد اتضح بعد ذلك أن هؤلاء القوم قد أخذوا غنائمهم دون إذن وفي سرعة شديدة من ميدان العمليات ليبعدوها عن التقسيم المعتاد للغنائم الذي تحدده أحكام الشرع. وطبقاً لذلك فإن لخزانة ابن سعود الخمس، على الرغم من حقيقة أن حكمه في مثل هذه الحالات كان بصورة عامة هو بيع نصيبه وتقسيم العوائد بين أفراد حرسه الشخصي الذين لا يتمتعون بفرص ضمان الغنيمة بأنفسهم. وهكذا كان على مطير أن تتخلى في النهاية عن جزء من غنيمتها أكبر مما لو تنازلوا عنه طبقاً للأحكام. والجماعات مثل هذه العائدة من غزوة تعرف باسم مناكف[٢].

تعود هنا الحافة الملتوية من النفود إلى حدود ربع ميل من الصفراء، وعلى مسافة بعيدة إلى اليمين ظهر جرف الوطاة[٣] الرمادي الذي يوجد على جانبه القريب شعيب وديعي الذي يمتد نازلاً نحو سهل بريدة. وهناك قصر وحيد على

(١) بنو عبداللاة (فيلبي للمزيد عن قبيلة مطر وفروعها، انظر: الحقيل، كنز الأنساب، ص ١٣٦ وما بعدها (ابن جريس).

(٢) منكف: تعني «أولئك الذين أعيدوا أو عادوا) (فيلبي).

(٣) جرة الوطاة: أو (جال الوطاة) ويعتبر هذا الجرف أكثر المرتفعات الصخرية قرب بريدة (١٥كم) شمال شرق. وهناك من يطلق عليه اسم (جبل الوطاة) أو جبل القويطير، انظر: محمد الربدي، بريدة، ص ٥٢ وما بعدها. (ابن جريس).

حافة النفود قريباً منه وآخر صغير على مسافة أبعد حيث تصل الرمال حتى الطريق. وأمامنا يوجد بستان نخيل الشقة ووراءها جرف يعلوه برج في الصفراء.

بعدما قطعنا سبعة أميال تقريباً من بريدة كنا قد دخلنا في منخفض رملي فيه تقع السويفلة أو القسم السفلي من قرية الشقة، وكان الجرف وبرجاه الصغيران يقعان على يميننا خلف بستان نخيل مسور بمساحة معقولة. وهناك قلة من البساتين الأصغر منه تتناثر في المساحة بين هذه القرية وقرية صغيرة بها حوالي أربع مئة نسمة، منهم العاملون في البساتين النائية، وهي عبارة عن مجموعة غير مسورة من أكواخ الطين الصغيرة، التي توجد في خارجها الكتل البيضاوية من الملح الذي يميل إلى اللون البني، والذي جُلب من ملاحات القرعاء. هذه الأخيرة كانت تتلألأ بلونها الأبيض على بعد مسافة إلى الغرب، ولم تبد لي شاسعة مثل مملحة العوشزية، على الرغم من أن ملحها يعده القصمان أفضل جودة(١).

ترتد النفود للخلف في شبه دائرة واسعة حتى جنوب منخفض السويفلة ـ القرعاء، وبينما كنا نواصل سيرنا نحو الجنوب ـ الغربي والجرف على يميننا، مررنا على مجموعة متناثرة من الأكواخ والقصور بالقرب منها أحواض مزروعة. وفي أحد الأماكن عثرنا على بركة جافة كان من الواضح أنها اصطناعية ولها ضفاف مبطنة بالحجر وقنوات مائية تصل إليها من الجرف العالي، ولا شك أنها خزان لاستخدام السكان وحيواناتهم. وبعد ذلك صعدنا مرتفعاً بسيطا من الأرض لندخل في منخفض الرفيعة أو القرية العلوية(٢)، التي تطل عليها ثلاثة أبراج في الجرف. هذا

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن هجر وقرى عنيزة وبريدة وما حولهما، انظر: الهويمل، بريدة، ص ٥١-٥٧، محمد الربدي، بريدة، ج٢، ٢ ٢٩٢-٢٩٣. (ابن جريس).

(٢) قرية الرقيعة: كانت من مزارع بعض أمراء بريدة في السابق مثل: حسن بن مهنا، وقد أشار إليها بعض الرحالة الغربيين، ويمر بها طريق بريدة الرياض القديم، وأصبحت الآن من الأحياء السكنية الحديثة، الهويمل، بريدة، ص ٥٢ (ابن جريس).

المنخفض مثل منخفض السويفلة، يُصرّف ماؤه في أحواض الملح التي لا يوجد مخرج منها. وقرية الرفيعة الرئيسة عبارة عن مجموعة غير مسورة من أكواخ الطين المتواضعة، وتحتوي مع القصور النائية وغيرها على نحو مئتين من السكان. وهناك قرية أخرى أصغر منها في هذا القسم مهدمة ومن الواضح أنها مهجورة، ويوجد عدد من أشجار النخيل المتناثرة على طول سفح الجرف[1].

وآخر بئر من قرية الشقة، التي تنتشر بكاملها فوق مساحة ثلاثة أميال تقريباً، يقع في رقبة واد وعر يهبط بين أجراف الصفراء من الشمال ـ الغربي باتجاه المنخفض. هنا توقفنا مدة لنتزود بالماء ونتشارك في وجبة من التمر. كانت البئر، بعمق حوالي ست قامات، توجد في بقعة مساحتها أربعة فدادين من المليسة (Mulai-sa) والقرع، وكان يجري سحب الماء بالإبل في خزان غير مبطن، ومنه تتفرع القنوات لري المحاصيل. وفي إحدى هذه القنوات كان هناك هبوط صغير ينزل منه الماء صافياً ومحدثاً خريراً ليروي محصول المليساء على مسافة منه. والتربة هنا وفي الوادي الذي مشينا عليه بعد توقفنا القصير، مكونة من الحجر الرملي الناعم ذي اللون الأحمر قليلاً مع وجود الصخر الأسود، الذي يزداد انتشاراً كلما تقدمنا في الوادي. ويبلغ عرض الوادي نحو نصف ميل يفصل بين ضفتيه المستويتين. بعد حوالي ميل في الوادي وصلنا إلى قاع أو حوض طيني مسطح، شققته الشمس وتناثرت فيه شظايا من الصخر الأسود، وهو الأول من سلسلة من مثل هذه الأحواض المسطحة التي تعرف بصورة جماعية باسم قيعان الأبلق. والاسم يعود للمبنى الوحيد المهجور المعروف بقصر الأبلق في الثاني أو الثالث من هذه المنخفضات، وقد كانت هذه في الماضي مكاناً للآبار الزراعية من النوع الصحراوي العربي المعتاد.

(١) للاطلاع على الطبيعة الجغرافية في بريدة وما حولها انظر: محمد الريدي، بريدة، ج١، ص ٢٣ وما بعدها. (ابن جريس).

هذه السلسلة من الأحواض المسطحة ـ التي تنفصل عن بعضها بألسنة من الصفراء والرمل الخفيف ـ تبدو أنها تشكل امتداداً للوادي، الذي دخلناه عند بئر الشقة وكانت ضفافه مستمرة بلا انقطاع على الرغم من بُعدها كثيراً عن بعضها بنحو ستة أو سبعة أميال. وتوجد خمسة أو ستة مسطحات في مجموعها، وأكبرها يبلغ عرضه نحو ربع ميل، وبين الفينة والأخرى كنا نصادف أجزاء مما يبدو بوضوح أنه قاع جدول ماء مستمر. وينتشر الصخر الأسود بشدة، وفي بعض المناطق يبدو مثل كتل كبرى من الصخور البركانية[١]، ولكن لم يكن هناك إلا قليل مما يضفي تنوعاً على رتابة السير إلى أن وصلنا فجأة تماماً وبعد شيء من الدهشة إلى رأس الوادي، حيث وجدنا أنفسنا على حافة محيط صحراوي. فأمامنا امتد قفرٌ هائلٌ، ولا يمكن تخيله، قاحلٌ تماماً وخال من المعالم الأرضية، ومنبسطٌ إلى ما لا نهاية إلا من بعض المرتفعات التي يمكن بالكاد إدراكها. ولقد ظل هذا القفر في ذاكرتي دائماً يمثل المقت الشديد للمكان الكئيب الذي لا حياة فيه، وهو النموذج الأصلي نفسه للصحراء التامة في الخيال البشري، الذي لا يوجد منه، حتى في الجزيرة العربية إلا الشيء القليل. فقد كانت الأرض من الحصباء ذات اللون البني ـ الرمادي مثل الدبدبة التي ينتشر فيها القليل من العرفج والشيح والحشائش الذابلة، وبقع قليلة من المسطحات الطينية. وهنا لم يكن هناك شيء ينبض بالحياة إلا أرواحنا، قفر كئيب موحش يبعث في النفس الأسى. ومن السهل أن يفقد المرء حياته فيه إذا ضل عن الدرب المطروق، لأنه لا يوجد أي معلم أرضي من أي نوع للتوجه نحوه إلا قلة من أكوام الحجارة التي تنصب لتبين أماكن التخييم لقبيلة عنيزة التي تنزل أحياناً إلى هنا، مثلما فعلوا العام الماضي سعياً وراء المرعى. كل هذا القفر يعد جزءاً من البطين ويُعد بصورة عامة من مناطق قبيلة حرب[٢].

(١) المرجع نفسه. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن الثروة الحيوانية والرعي والمراعي في بريدة وعنيزة، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٢٣ وما بعدها، محمد الربدي، بريدة، ج١، ص ٩٣ وما بعدها (ابن جريس).

بعد أن سرنا نحو أربعة أميال بين المشهد الكئيب ظهر لنا على مسافة بعيدة إلى الشمال والشمال الشرقي خط ساحلي كما لو كان جزءاً من أرض مرتفعة، بعيداً بعيداً لدرجة أنه بدا بلا معالم واضحة. وهو في الغالب الأعم صفراء القعراء باتجاه الطرفية على الرغم من قول البعض إنها نفود الأسياح. ولقد كان بكل المقاييس دليلاً مفرحاً على الرغم من بُعده حيث واصلنا سيرنا ببطء وكآبة في القفر الذي لا نهاية له. وفي الأخير جئنا إلى نهايته بعد ستة أميال عندما عبرنا منخفضاً ضحلاً معشوشباً يتجه نحو الشمال الشرقي. وبعد نصف ساعة من ذلك، صادفنا مجموعة صغيرة من شجيرات السدر قيل إنها واحدة من مجموعات مماثلة لها تسمى بصورة جماعية روضة الدكمانية. ومن هنا إلى أن وصلنا رأس واد واسع معشوشب يسمى الخناسة بعد أن قطعنا أربعة أميال، كانت الصحراء تضج بالحياة، وتعج بحشود كبيرة من الإبل ترعى، وهي لقبيلة فرم حرب، نوق ولود، وأخرى حلوب مع صغارها التي تمرح بجوارها. وكان الأبيض والأسود هما اللونين السائدين، ولم يسبق لي أن رأيت هذا العدد من الحيوانات البيضاء مجتمعة في مكان واحد، وهذه الحيوانات العظيمة تبدو للعالم مثل الخيام البعيدة.

لقد بدأت الصحراء المنبسطة الآن تصبح أكثر خشونة وأشد تموجاً لتشكّل الخنسة التي دخلناها قرب رأسها، وسرنا نازلين بين ضفافها المنخفضة في الصفراء باتجاه شمال غرب نحو منخفض القصيباء الذي تصب فيه مياه الوادي. وبعد مسافة من نزولنا يضيق الوادي لوجود نتوءات الصفراء والصخر الأسود، التي يمر خلالها شعيب صغير عرضه نحو عشرين ياردة. وبعدما قطعنا ثلاثة أميال نزولاً في الوادي التزمنا ضفته اليسرى حيث ألقينا من قمتها نظرة رائعة على هدفنا، بستان القصيباء التي ترتفع عالياً في الجانب البعيد من السهل الطيني الكبير أمام خلفية من جرف صغير ارتفاعه (١٥٠) إلى (٢٠٠) قدم تقريباً. وعندما نزلنا نحو المنخفض أعدنا عبور قناة الخناسة، وبعدما تركنا البستان عن يسارنا، واصلنا السير طالعين ونازلين فوق الأرض الخشنة عند حافة منخفض في اتجاه قصرين يسميان

عموديات. وبعد ذلك، عندما نزلنا في سهل طيني مالح واصلنا السير لنصف ساعة أخرى حتى قصر المشقوق وبستان النخيل المسور الملحق به، حيث كان المعسكر الحربي لابن سعود ينتشر بين التلال الرملية[1].

لم يكن الوقت قد تجاوز أربعاً وعشرين ساعة إلا بقليل منذ أن غادرنا عنيزة في المساء السابق. وفي غضون ذلك الوقت قطعنا حوالي أربعة وخمسين ميلاً خلال ثلاث ساعات فقط من النوم. والإقامة الطويلة في بريدة وعنيزة قد جعلت عضلات الركوب عندي مرتخية؛ ولذلك كنت متخشباً في كل طرف من أطرافي، والألم يعتصر جسمي كله. بيد أن العادة فرضت زيارة فورية لمضيفي. وأول شخص قابلته عند دخول المعسكر كان أخاه سعوداً، الذي تقدم نحونا بترحاب شديد الود. وابن سعود نفسه يعقد مجلساً في خيمته، وعندما رآنا من خلال النظارات التي كانت دائماً جاهزة إلى جواره، أومأ إلينا بالاقتراب. ولقد حياني بحرارة شديدة، وكان من الواضح أنه في أفضل حالاته المزاجية بسبب نجاحه الأخير. وبعد ذلك بلحظة كان يطفح بالسعادة والحبور. فقد جيء بخطابات فيها أخبار، لا زالت أخباراً بالنسبة له على أننا قد سمعناها من قبل في عنيزة وهي عن هجوم شاكر الأخير على الخرمة وإبادته قوته. "لماذا"، قالها وهو ضاحك، "لماذا لم تطلقوا بنادقكم وأنتم داخلون بمثل هذه الأخبار الطيبة؟ اذهبوا، كذا وكذا وكذا وكذا، وقولوا للإخوان أن إخوانهم في الخرمة قد أبادوا جيش الشريف[2]. وأردف قائلاً: "وقولوا لهم أنها بشارة الصاحب!!" وعلاوة على ذلك كان عندي أخبار طيبة إضافية له عن موافقة حكومتي على صرف ألف بندقية ومائة وخمسين ألف طلقة من الذخيرة وبعض الخيام له[1].

(١) للاطلاع على جغرافية بلدة بريدة المتصلة بمنطقة حائل، انظر: محمد الريدي، بريدة، ج١، ص ٤٥-٥٤، ج٢، ص ٢٧١ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) عن الصراعات بين ابن سعود والشريف في بلاد الخرمة وتربة عام (١٣٣٦هـ/١٩١٨م) انظر: العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ص ١٨١-١٨٦. (ابن جريس).

(٣) عن العلاقات السعودية البريطانية أثناء توحيد أطراف المملكة، انظر: لوريمر، ص ٥٢٩-٥٣٧. (ابن جريس).

ولما كان الغروب قد دنا فقد استأذنت منصرفاً، ولأن خيمتي لم تكن قد وصلت بعد فقد تمددت على سجادة حيث بلغ مني التعب والإعياء مبلغاً، لأنام أو أغفو في هواء المساء البارد إلى أن يُؤتى بالعشاء، وقد كانت وجبة سارة من الأرز ولحم الإبل من غنائم الحرب. بعد ذلك رقدت مرة أخرى لأستأنف نعاسي ولكن أوقظت بوصول دفعتين من البريد، واحدة من الكويت والأخرى من البحرين على التوالي، اللتين لابد أنهما لم تجداني في عنيزة. وعلى عجل ألقيت لمحة على الخطابات الرسمية فلربما كان فيها شيء ذو أهمية يجب تبليغه في الحال لابن سعود، وبعدما تركت الباقي للغد، نمت مرة أخرى نوماً عميقاً ومنعشاً.

إن منطقة التلال التي كنا نخيم فيها كانت ذات مساحة عظيمة، وتشكل نتوءاً منفصلاً من الصفراء على الجهة الشرقية من حوض القصيباء، الذي يبلغ عرض الجزء الرئيس منه نحو ميل من الشرق للغرب وأكثر من ضعف ذلك في الطول، ويمتد جنوب ـ شرق مع شمال ـ غرب. ويوجد بين التلال والصفراء الغربية جرف حاد الانحدار شاهق الارتفاع، خلف واحة القصيباء نفسها، ولكنه يصبح أقل ارتفاعاً كلما امتد نحو الشمال، كما يوجد نتوء ثانوي متوسط الارتفاع نسبياً من الحوض الرئيس في اتجاه شمال ـ شمالي ـ غربي حتى نقطة على بُعد ميلين تقريباً من المشقوق، حيث ينتصب القصر وجبل السوال، بينما عند نقطة على بُعد نصف ميل جنوب ـ شرق هذا القصر يجري وادي في اتجاه شمال ـ غرب في الصفراء بين منحدرات منخفضة نحو الساقية على مسافة عدة أميال. ويبدو أنها هي الأخرى قصر تحيط به حقول زراعية. وسطح المنخفض الذي ينحدر برفق إلى الغرب والجنوب، يشبه تماماً سطح قاع في هذه المناطق مع ميل شديد إلى الملوحة، كما أنه متشقق كثيراً في بعض أجزائه بفعل مياه الفيضان.

وعلى بُعد ميلين تقريباً جنوب شرق المشقوق يوجد قصرا عموديات اللذان ذُكرا من قبل عند حديثنا عن سيرنا إلى المشقوق، التي كان قصرها الوحيد من طراز

معماري غريب وجذاب. وسبب وجوده حماية بستان مساحته ثلاثة أفدنة عند حافة منطقة التلال.(١) والبستان يُروى من عين في التلال، كما تؤخذ أيضاً إلى القصر بواسطة الكارز (Kariz) تحت الأرض فيه فتحات متتالية مغطاة بألواح من الصخر.

على بعد ميلين من المشقوق عبر السهل الطيني تقع واحة القصيباء الضئيلة المحمية من الهجمات المفاجئة من الغرب بخط من خمسة أبراج مراقبة صغيرة على طول قمة الجرف العالي خلفها. وتمتد الواحة لنحو ميل من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي مع بستان ناء وبقعة من الأثل على مسافة في الاتجاه الأخير، ولكنه هزيل بصورة مخيبة للآمال، حيث يتكون من خط ضئيل جداً ومتناثر من النخيل وليس فيه إلا قليل من البقع الكثيفة. إن موقعها عند سفح جرف شاهق يضفي بالتأكيد روعة شديدة على منظرها، وتأثير الوعورة يزداد جمالاً بالطبيعة ذات الصخور الكثيرة المتحدرة في وجه الجرف الذي تتدلى منه أغطية من فتات الصخور حتى حافة حزام النخيل. وتنعم الواحة بالعيون الكثيرة التي يتدفق منها الماء محدثاً خريراً عند مستوى سطح الأرض لينشئ جداول جارية تسقي النخيل، بينما في بعض الحالات، حيثما يكون سطح الأرض مرتفعاً أو سطح الماء منخفضاً، كانوا يلجؤون إلى الري برفع الماء. ويتراوح عمق الماء بين ثلاثة وستة أقدام(٢).

على مسافات فاصلة بين سفح الجرف وحزام النخيل توجد ثلاث قرى في الواحة الوسطى منها مدمرة تماماً، وأكبرها هي الجنوبية بينما مجموع السكان جميعاً في الواحة لا يمكن أن يتعدى خمس مئة نسمة معظمهم من العبيد أو العبيد

---

(١) بناء الحصون والقصور قريباً من المزارع والبساتين تكاد تكون منتشرة في عموم الجزيرة العربية بهدف استخدام مثل هذه المرافق للسكن وحماية المزارع مما قد يداهمها من بشر وحيوانات وغيرها. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن الزراعة، وطرق الري، وأنواع المزروعات في بلاد القصيم، انظر: عبدالرحمن السويداء، نجد في الأمس القريب، ص ٣٣، ٢٤٦، ٢٤٧، جاكلين بيرين، اكتشاف، ص ٣١٠، عبدالرحمن الشريف، منطقة عنيزة، ص ٩٠ (ابن جريس).

المحـررين[١]. والطراز المعـمـاري الطريف لبـعض القـصـور مع الجـرف العظيم الذي يعلوها في أحد الجـوانب والنـخيل على الجانب الآخـر، يتـرك أثراً بهيـجاً في النفس، ولكن ما أثّر في نفسي أكثر هو عدد القبور، فجميع الفجوات تقريباً الاثنتي عشرة أو أكثر بين الأغطيـة المتدلية من فتات الصخور كانت تشغلها مقابر، التي بدت أنها تفوق بجـمـيع النسب أعـداد السكان الأحيـاء. إن القصـيـبـاء تشـتـهـر حقاً بـعـدم مـلاءمتـها للصحة. فقد قال أحد رفاقي: "بإذن الله، سوف ينزل عليهم المرض ويموتون عن بكرة أبيهم". ربما يعلل هذا حقيقة أن العبيد وحدهم هم الذين يقطنون المكان فيما يبدو. وقد أعـارني ابن سعـود حـصـاناً صـغـيـراً مع سـرج عـربي ولجـام ولكن بلا ركـاب لكي أمتطيه لزيارة المكان. وتمتعنا بركوب ممتع، ولكن كان هناك شيء ما في جو القصيباء يجـعل المرء سـعـيـداً بالفـرار منه. وعلى الـرغم من أنني ندمت على عـدم إتاحـة وقت لزيارة أبراج الجبل ورؤية مـا يقع خلفها، إلا أنني شـعـرت بالراحـة الحقـيقـيـة من عبء ثقيل عندما زاد حصاني الصغير ـ بركضه نحو مقرنا ـ المسافة بيني وبين المجتمع البـائس النـتن حتى الموت من أجل مـحـصـول نـخـلات قليلة. هذه هي القـصـيـبـاء، أبعـد نقطة شمالية من القصيم، والحد الشمالي لجولاتي وأسفاري في الجزيرة العربية في هذا الوقت. وبعـد مضي سنوات قُدّر لي أن أرى الجـوف والصـحـراء حولهـا، آتيـاً من الشمال، ولكن حتى هذا اليوم لم يتعطف عليّ القدر بلمحة من «أرض الميعاد[٢]» في جبل شمر، وهي المنطقة التي تنصب عليها كل أفكاري وطاقاتي خلال السنة الأولى من إقامتي في الجزيرة العربية. لقد رأيت كل شيء تقريباً من أقاليم ابن سعود، كما كانت في ذلك الوقت من وادي الدواسر حتى القصيبة، ومن الشرق للغرب، بيد أن ترحالي إلى الشمال قد ترك عندي ندماً واحداً شديداً، فقد كانت العيون بعيدة عن

(١) العبد المحرر يطلق عليه أيضاً اسم (مولى) وبخاصة إذا كان من أصل غير عربي، وكتب السنن وغيرها من كتب التراث الإسلامي فصلت الحديث في الحقوق والواجبات على العبيد والموالي والأحرار. (ابن جريس).

(٢) المعلوم أن أراضي (الميعاد) في بلاد الشام ولا ندري ما هو المقصود عند فيلبي بذكر هذا المصطلح، وهويتكم عن بلاد شمر وبخاصة أرض حائل. (ابن جريس).

الدرب ولم يكن رفاقي يجازفون بالانحراف عن هذا الاتجاه خشية أن يكون محاربو ابن رشيد على درب الحرب استعداداً للقتال.

تُعدّ القوة المخيمة في المشقوق بما يتراوح بين خمسة وستة آلاف رجل، يضمون مختلف عناصر الإخوان الزيجرت[١] الخاص لابن سعود. وهو الآن قد أصدر أوامر للتجنيد العام لجميع عناصر المواطنين في وسط نجد ليواصلوا العمل الطيب الذي بدأه. وفي الأثناء نفسها خلال اليومين اللذين قضيتهما في المعسكر كان هناك نشاط كبير في جمع، واستعراض وتقسيم الغنائم التي ـ بالإضافة إلى الأغنام المذبوحة في ميدان القتال لتؤكل فوراً ـ كانت تتكون تقريباً من تسع مئة جمل موجودة فعلاً في القصيباء ونحو ثلاث مئة أخذت خلسة من قبل آسريها ليتفادوا إدراجها في المجموع العام، إضافة إلى ثلاث مئة حيوان صغير في السن. وقد خصص جمل واحد ليذبح طعاماً لكل مئة رجل؛ لأن المؤونة العامة خلاف ذلك مقصورة على التمر حيث كان الأرز للقلة فقط. وقد سقط نصف درزنة[٢] من الخيول في أيدي المنتصرين علاوة على قافلة الذخيرة المشار إليها آنفاً. والخيام، والسروج والمواد الأخرى المستولى عليها من بني يهرف قد بلغت أربعة آلاف ريال في مزاد، ونحو أربع مئة جنيه استرليني أو خمس مئة إسترليني أخذت نقداً. ولقد جاء واحدٌ من الإخوان إلى ابن سعود ومعه مائتا جنيه إسترليني في يده ليضيفها إلى المجموع العام. وسأله غير مصدق لمثل هذه الأمانة «من رآك تأخذها» فأجاب «لا أحد غير ربي»[٣].

(١) الزيجرات: الحراس الخاصين لابن سعود. (ابن جريس).

(٢) نصف درزن: أي ما يساوي عدده ستة، لأن الدرزن يساوي اثني عشر. (ابن جريس).

(٣) هذا التصرف يدل على إيمان صادق في قلب هذا الرجل الذي أعاد ما وجد إلى المال العام، وربما كان في جيش ابن سعود كثيرون أمثال هذا الرجل. وهذا السلوك يوحي بأن الإيمان بدأ يترسخ في قلوب الناس نتيجة لتلك الدعوة المباركة التي بدأها محمد بن عبدالوهاب في أوائل القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي). للمزيد عن تلك الدعوة وأهدافها، وما كانت تنادي به، انظر: محمد السكاكر، الإمام محمد بن عبدالوهاب، ص ٢٣ وما بعدها، حمد آل أبو طامي، الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ص ٣٤ وما بعدها (ابن جريس).

لقد قيل، في بداية هجوم الوهابيين، إن بني يهرف يظنون أن ابن رشيد هو الذي خرج عليهم لمعاقبتهم على جريمة ما. فقد صرخت امرأة عجوز من القبيلة قائلة "لماذا جئت أنت، إذاً، هكذا؟ إذا كنت قد خرجت لتعاقب، فما عليك إلا أن تعلن الحكم ونحن نسلم لكم، أنت يا ابن رشيد!؟. فقال واحدٌ من الوهابيين "ولكننا لم نأت منه، لقد جئنا باسم ابن سعود". فزعقت الشمطاء "ابن سعود!!، أه يا محمد بن رشيد!! أين، أين أنت، لترى أن حائل قد وصلت لهذا الحد!!". إن الكثير من النساء قد عثر عليهن وهن يجلسن صامتات في خيامهن. فقال لهن المنتصرون "قمن، على ماذا تجلسن؟". وقد أخذ معظم النقد بهذه الطريقة؛ لأن النساء قد دفنّ المال وقعدن عليه أملاً في إنقاذه. وكانت أكياس من الأرز عليها علامة «الكويت» قد وجدت في المعسكر، وهذا دليل دامغ ضد سالم، كما أن التمور كانت من خيبر. إن الغنائم كلها، بعد تنازل ابن سعود عن نصيبه(١)، قد قُسّمت بين الجيش، والإخوان والحضر على السواء.

خلال هذه الأيام كنت بالطبع أرى ابن سعود كثيراً في لحظات فراغه. وفي أحد هذه المرات كان لتوه يقضي في قضية عندما دخلت، ولاحظت أن المدعي، وهو واحد من الإخوان، يخاطب سيده بلا اكتراث بكلمة "يا الإمام" أو "يا أخي" ببساطة. والقضية تتعلق باسترداد مبلغ اثنين وستين دولاراً من ستة عشر مدعى عليهم مجتمعين، وقد تنازل المدعي عن مطالبة اثني عشر منهم على أساس أنهم مثله من الإخوان. ومن الأربعة الآخرين في القائمة واحد قد قضى نحبه. فقال القاضي: «أنت تقول إثنان وستون دولاراً وستة عشر مديناً». ثم قال بعد تأنٍ وتفكير: «حسناً، هذا يجعل ثلاثة دولارات على كل رجل واثنا عشر، تقول، من الإخوان، وهذا يُبقي أربعة». وقاطعه واحد من المدعى عليهم قائلاً «ولكن واحداً مات». «نعم، ولكن

---

(١) يتضح أن ابن سعود لم يكن هدفه الرئيس هو جمع المال، وانما كان يسعى إلى توحيد البلاد تحت راية واحدة، هي راية (لا اله إلا الله، محمد رسول الله) وقد وفته الله لهذا الهدف السامي، حتى استطاع أن يجمع شتات القبائل والبلاد تحت كلمة واحدة، وهو ما نشاهده اليوم تحت علم (المملكة العربية السعودية). (ابن جريس).

جماعتك مسؤولون عن دينه. ولكن، دعني أرى، النصيب ليس ثلاثة ولكنه أربعة دولارات ناقصاً كسراً، وأربع أربعات يساوي ستة عشر، اطرح اثنين مقابل الكسر أربع مرات. وهكذا يبقى أربعة عشر؛ لذلك ادفعوا أربعة عشر دولاراً وانتهى الأمر». وفي أحد المراحل كان هناك جدال عما إذا كان غير الإخوان أربعة فقط أو أكثر. فقال ابن سعود: «أنت قلت كانوا أربعة فقط». وردّ المدعى عليه «هم أربعة فقط؛ فواصل القاضي كلامه قائلاً: «قل: أقسم بالله أربعة فقط». فقال المدعى عليه: «أقسم بالله أربعة فقط»، وهكذا حُسمت هذه النقطة[١].

وحكى له واحدٌ من الإخوان حلماً حلم به، فقد رأى خمسة أقمار معاً في السماء، اثنان منها في الغرب لهما ضوء خافت جداً ويقتربان من الأفول وهذان هما الشريف والأتراك. وآخر كان منخفضاً وأفل تقريباً، على الرغم من أنه كان أشد بريقاً من الآخرين، في الأفق الشمالي وذلك ابن رشيد. والرابع كان يلمع ببريق شديد في السماء عند منتصف النهار، ويلقي بريقه على الأرض كلها، والقمر الخامس أيضاً واحدٌ ذو لمعان كبير يطلع بسرعة من الشرق، وهذان القمران عقدا اتفاقية صداقة لمدة مئتي عام وساد على الأرض السلام والرخاء. وقد حكى لي عن حلم آخر رآه هو نفسه. فقد رأى نفسه في السوق بعنيزة، وقد خرج ثعبان كبير ليهاجمه، والتفت ليذبحه وعندئذٍ ناداه رجل بصوت عال: "اترك الكبير وشأنه، إنه غير مؤذ، ولكن انظر إلى ذلك الصغير، اقتله أولاً، لأنه خطير ولدغته قاتلة" لذلك التفت مرة أخرى وذبح الثعبان الصغير، ثم تعامل مع الحية الكبرى على مهله. وفسر ذلك قائلاً: «ابن رشيد، هو الخطر الحقيقي، ولست أحتاج للخوف من الشريف».

وعلى الرغم من ذلك نبهني بجد إلى هذه النقطة فقال: «الشريف مجنون وسوف يجد سبباً للندم على سلوكه تجاه أهل الخرمة، لاحظ كلامي، سيكونون في الطائف منذ

(١) لمزيد من التفصيلات عن القضاء في المملكة العربية السعودية، انظر: عبدالله الزهراني، تاريخ القضاء والقضاة في العهد السعودي (عدة مجلدات) (ابن جريس).

زمن طويل، وإذا أراد الله سوف يضعون نهاية للشريف نفسه. وبالنسبة لشاكر، إذا أمسكوا به هذه المرة فلن يفلت منهم بالتأكيد، وقد قيل إن شاكراً في هذه المرة معه مدفعان ورشاشان، اللذان على ما يظهر استولى الإخوان عليهما. وقد أكد ابن سعود أيضاً بكل قوة أن هناك تفاهماً سرياً بين الشريف وابن رشيد، فقد كان الأخير متشجعاً على مقاومة الهجوم الوهابي الذي انطلق بموافقة إيجابية من الحكومة البريطانية، وبوعود بهجوم الشريف على جناح ابن سعود. مثل هذه الاتفاقية لم تكن غير مستبعدة تماماً على الرغم من أنه في هذه اللحظة لا يوجد دليل ملموس عليها. بيد أنه من المؤكد أن العلاقات مع حلفينا العربيين الاثنين تقترب بصورة خطيرة من نقطة الانهيار، وبغض النظر عن نفور ابن سعود الأكيد والطبيعي جداً من قبول أي سلطان للشريف عليه بأي صورة من الصور، فإنني لم أستطع أن أرى أي سبب لتحميله أي مسؤولية عن تردي الأوضاع بشدة. فلم يكن المعتدي بأي حال من الأحوال، ولا يمكن أن يكون هناك شك معقول مهما كان في أن حسيناً يحاول عن عمد إثارة بعض الأعمال ـ التي في ظل الظروف المصاحبة ـ سوف تجبر الحكومة البريطانية على التدخل نيابة عنه(١). لقد كنت في المشقوق حقاً بين جيش الرب، محاطاً بالإخوان في كل اتجاه، حتى طامي(٢)، الذي كان من بين الزيجرت، قد تجنب صحبتي، وأولئك الذين أوقعهم حظهم العاثر في الالتحاق بخدمتي كان المتقون ينظرون إليهم شزراً، فلا يلقون عليهم التحية ولا يردون

(١) لمزيد من التفصيلات عن الأوضاع العسكرية في الجزيرة العربية خلال العقد الرابع من القرن الهجري الماضي، وكيف كانت الصلات السياسية بين ابن سعود في الرياض والقصيم، وابن رشيد في حائل، والشريف في الحجاز، ثم ما هو دور بريطانيا من تلك الأحداث. انظر: مديحة درويش، ص ١٩ وما بعدها، العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ص ٦١ وما بعدها، أيف بيسون، ابن سعود، ص ٦٩ وما بعدها، إبراهيم عبده، إنسان الجزيرة، ص ٦٧ وما بعدها، لوريمر ص ٥٢٩-٥٣٧. (ابن جريس).

(٢) في الحقيقة كان طامي في حالة خزي ويخضع لحكم الفصل من خدمة ابن سعود، الذي ربما يعلل سبب تفاديه لي. وخلال العمليات الأخيرة كان يُرسل للخارج للاستطلاع ومراقبة قافلة الذخيرة من الإبل الخمسة (التي ألقي عليها القبض بعد ذلك) في طريقها إلى ابن رشيد، وبعدما فقد صوابه، أسرع عائداً إلى المعسكر وحذر ابن سعود من أن العدو قد استولى عليه بالقوة. وعندما أصبحت طبيعة التحذير معروفة ضربه ابن سعود حتى استغاث طلباً للرحمة ثم صرفه من الخدمة. هكذا اختفى طامي عن العيون في عار وشنار، ليموت بعد ذلك بسنة أو سنتين في خدمة الشريف بالمدينة. (فيلبي).

تحيتهم، وأحياناً كانوا يأتون يستكشفون حول خيامهم على أمل أن يمسكوهم وهم يدخنون[١].

وفي إحدى المرات سار اثنان من الإخوان طويلاً حيثما كان يجلس منوّر. وقال أحدهما للآخر: «هل سنلقي عليه التحية؟». فأجاب الآخر: «لا، حوّل وجهك إلى الاتجاه الآخر، إنه من جماعة الأنجريز[٢]، وهذا ليس خيراً". وهكذا مروا عليه دون أن ينظروا إليه. وفي مرة أخرى، عندما كان منوّر يمر على خيمة من خيام الإخوان، نظر داخلها وطلب جرعة من ماء. فأجابوا "لا، أنت كافر وخادم لكافر"[٣]. ورد عليهم "لم آت لأتحدث عن ذلك، إنني طلبت جرعة ماء، أعطوني أشرب". وصبوا له الماء، وبعدما شرب قال لهم: "انظروا لقد شربت من هذه السلطانية وقد جئت الآن لتوي من غمس يدي في نفس طبق الأرز الذي أكل منه الأنجريز[٤]، فمن الأفضل لكم أن تكسروا هذه السلطانية، لأنها نجسة". وقد صبوا عليه جام لعناتهم عندما مشى مبتعداً عنهم وهو يضحك بين نفسه على مزحته الصغيرة.

بالنسبة لي لم يكن عندي أي شيء أشتكي منه، وتركت وشأني في خيمتي أدخن وأنغمس في أي معصية حسب رغبتي[٥].

قرر ابن سعود، بعدما أرسل طلباته للتجنيد الجديد في القوة، أن ينتظر تعزيزاته في بريدة. وطبقاً لهذه الخطة قوض المعسكر بمشقوق وكنا نسير على الطريق مرتحلين قبل شروق شمس الثامن والعشرين من سبتمبر. وعندما سرنا جنوب شرق في منطقة من التلال المتموجة برفق تجاوزنا قصري عموديات على

(١) مضايقة الإخوان لمن كان يرافق فيلبي، كونه نصرانياً، يدل على التعصب الأعمى الذي يجعلهم ينظرون إليهم بازدراء واحتقار، مع أن الملك عبدالعزيز كان يملك إدراكاً واسعاً وثاقباً فلا يتورع من الجلوس مع النصارى والنقاش معهم، كما شاهدنا مجالسه لفيلبي في مواقع عديدة من هذا الكتاب. (ابن جريس).

(٢، ٣، ٤) يقصد بـ (الانجريزي) أو (الكافر) أي فيلبي نفسه (ابن جريس).

(٥) كان فيلبي في جميع رحلاته يتمتع بالحرية في جميع تحركاته، لأنه كان تحت حماية ورعاية ابن سعود. (ابن جريس).

يميننا وصعدنا منحدراً مطرداً مع تلال منخفضة تتقارب من كلتا الجهتين نحو فجوة في الصفراء الشرقية.

توجد حول القصرين نحو أربع مئة إلى خمس مئة خيمة تابعة لقبيلة الفرم التي بدت أنها تتناثر كيفما اتفق دون أي محاولة للنظام والتنسيق، على الرغم من أن مرور جيشنا الكبير ربما قد أدى إلى زيادة أثر الانتشار الجزافي. ولأبعد مسافة وصل إليها بصري كانت أغنامهم كلها سوداء.

إن قبيلة الفرم فرع من بني علي[١]، الذين ينتمي إليهم أيضاً القوم من ابن شريان الذين كانوا يخيمون في ثلاث مئة خيمة تحت جبل سوال الصغير. وكانت جماعة أخرى من قبيلة حرب، من فخذ ابن سعدة من الوهوب[٢]، تتجمع أيضاً في منطقة القصيباء، ربما في ثلاث مئة خيمة في مجموعها وذلك كانت حرب ـ التي لا تعد من الجيش ـ لا تقل عن ألف خيمة، ملتزمين التزاماً تاماً بقضية ابن سعود، ويُرجّح من موقعهم الجغرافي أنهم أول من يشعر بالوطأة العظمى لأي تحرك من تحركات ابن رشيد[٣].

بعد ساعة بالضبط من مغادرتنا المعسكر وبعد تجاوزنا مباشرة تلاً مخروطي الشكل منخفضاً على المنحدر الرملي الذي يبلغ اتساعه من جرف إلى جرف نحو نصف ميل، تسلقنا بسرعة منحدراً وعراً شديد الانحدار حتى شفة قفر الصفراء، كلها ما تزال من البطين، وهو سهل رملي هائل هنا مغطى بالحصباء الوعرة وفتات الصخور.

---

(١) من بطن الكراشيف (فيلبي). بنو علي من الفروع الرئيسة لقبيلة حرب الخولانية، ومنهم فرع الجبور الذي ينتسب إليهم الكراشيف، انظر: الحقيل، كنز الأنساب، ص ١٥١. (ابن جريس).

(٢) الوهوب فخذ رئيس آخر من قبيلة حرب، وأغلبهم يسكنون نجد، ومن فروع هذا الفخذ، المضيخ، والخلصاء، والشراذين. للمزيد عن قبيلة حرب وفروعها ومواطنها وأصولها، انظر: الحقيل، كنز، ص ١٥١-١٥٥ (ابن جريس).

(٣) لمزيد من التفصيلات عن الصراعات بين ابن الرشيد وابن سعود خلال العقد الرابع من القرن الهجري الماضي انظر: إيف بيسون، ص ١٨٥، وما بعدها، إبراهيم عبده، إنسان الجزيرة، ص ٦٧-٧٧. (ابن جريس).

إن القوم رسموا هنا صورة زاهية وهم يسيرون في جبهة لا تقل عن ميلين، والبيرق على اليسار وقليلاً في المقدمة، وابن سعود نفسه مع الزيجرت[١] في كتلة صلبة في الوسط، وجموع الإخوان على اليمين. وكان منصور بن رميح المشهور مع إخوانه في الجزيرة العربية كلها بمعرفته بالإبل، قد تبادل التحية معي في أثناء مروره. وقد قدّر قيمة الإبل التي أخذت في حائل بمبلغ ستين ألف ريال، وبهذا المبلغ انتقلت ملكيتهم إلى ابن سعود، الذي قام بتوزيع المبلغ نقداً على أفراد جيشه. وكان سعد اليميني وهو يسابق خطاه للانضمام إلى الحرس الشخصي قد أتيح له بعض الوقت خلال مروره ليحكي لي عن أعماله البطولية الفذة من البسالة في القتال الأخير، حكايته عن قتل أربعة رجال والاستيلاء على بعض الغنائم. ثم جاء الأمير الصغير، سعود[٢]، الولد الثاني للحاكم الوهابي، الذي استطعت تزويده في مخيمنا، ببعض الذخيرة لبندقية رياضية من نوع مانلشر (Mannlicher)، كانت قد نفدت منه. وأخيراً أرسل ابن سعود نفسه فهيداً للوراء ليدعوني إلى الانضمام إليه، وركبت معه في مقدمة جيشه طوال ما بقي من السير حتى توقفنا للفطور[٣].

عند الفطور احتشد الجيش في السهل المستوي مثل الجراد، ويحكى عمل مائة موقد للنيران القصة السعيدة لصنع القهوة. كانت وجبتنا من لحم الإبل البارد، والأرز والتمر. من بين الجماعة محمد آل خليفة من فرع من الأسرة الحاكمة بالبحرين والذي خلعه البريطانيون منذ زمن طويل عندما نصّبوا عيسى، الذي بدوره قُدّر له أن يكابد إهانة الخلع على أيدي الحكومة البريطانية مكافأة له على ما يزيد عن خمسين سنة من الخدمة المخلصة.

(١) الزيجرات: من الحراس الخاصين للملك عبدالعزيز (ابن جريس).

(٢) الآن ولي للعهد لملك الحجاز ونجد وملحقاتها. (فيلبي).

(٣) لمزيد من الإيضاح عن حملة ابن سعود ضد ابن الرشيد عام ١٣٣٦هـ/١٩١٨م). انظر: إيف بيسون ص ١٨٥ وما بعدها، إبراهيم عبده، ص ٦٧ وما بعدها. (ابن جريس).

إن التاريخ الحديث للبحرين لا يشكل جزءاً من موضوعي، ولكن من الصعب أن نذكر اسم حاكمها القديم دون أن نوضح أن أحداثاً قليلة في تاريخنا الاستعماري قد أعطتنا سبباً كافياً للخجل. والجزيرة العربية، وهي ترى وتفهم، لا تتعجب من خجلنا ولكن من أخطائنا الفاضحة[1]. وكان جاسم بن رواف المشتبه بخرقه للحصار، وصديقي ببريدة عباس الفلجي من بين الحاضرين، ومنصور بن رميح المذكور آنفاً، والمحارب الرهيب الحاكم لبريدة فهد بن معمر، وفيصل بن رشيد، وهو يتأمل بارتياح خبيث في الهزيمة الأخيرة لأسرة حاكمه، التي كانت امتيازاتها قد استغلها فخذه هو نفسه لمدة قصيرة منذ عقد أو ما يقرب من الزمان، وسعود آل عرفة، الذي بحكم الميلاد كان أكبر عضو في أسرة العرافة، وآخرين، ليس آخرهم المتعصب فيصل الدويش[2].

عند انتهاء الفطور استأنف السير، وكنت قد انطلقت قبلهم لأترك لمضيفي حريته. وعندما تجاوزوني بعد ذلك بفترة قصيرة سمعت واعظ المخيم العقيري يخطب في الناس ببعض الأحاديث ليرفع روحهم المعنوية[3]. لقد مشينا على السهل الكئيب وما به من جذور ذابلة لنباتات العرفج والشيح والعوشز، وعلى مسافة بعيدة نحو الشمال الشرقي، ربما على بُعد سبعة أميال، قطع جبل القعراء رتابة الاستواء. وخلال الربيع الماضي، كما قالوا، كانت الأمطار مواتية حيث امتلأت كل هذه المنطقة بالعشب الأخضر، والآن جف كل شيء ومات عشب سما الذي يشبه الشعير. ويُسمى الطرف الشمالي من القعراء مُدرّج.

---

(١) للاطلاع على علاقات بريطانيا مع دول الخليج العربي، انظر: ديكسون، الكويت وجاراتها، ص ٤٣ وما بعدها، الخترش، ص ٦٥ وما بعدها، محمد علي الداود. محاضرات عن الخليج العربي والعلاقات الدولية (١٨٩٠-١٩١٤م) (القاهرة، ١٩٦١م) ص ٥٦ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) للاطلاع على معلومات أكثر عن حملات ابن سعود على ابن الرشيد، انظر: العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ص ١٢١، ١٤٥ (ابن جريس).

(٣) كان الوعاظ والفقهاء ورجال العلم يصاحبون جميع حملات الملك عبدالعزيز أثناء توحيد المملكة، وذلك بهدف إرشاد الجيوش، وإقامتهم الصلاة، والفصل في قضاياهم الشرعية والعرفية. (ابن جريس)..

لم يكن هناك غير تموجات قليلة في السهل الشاسع، ولم نأت بعد الإفطار على معلم أرضي واضح إلا بعد أن مشينا خمسة أميال تقريباً، ومن ذلك نقرة أو منخفض يسمى نغبج، يمتد شمالاً وجنوباً لمسافة أربعة أميال، ويحتوي على بئر واحدة. بعدما سرنا طوال هذا صعدنا مرة أخرى إلى القفر، وبعد ذلك مباشرة توقفنا للراحة وقت الظهر في منخفض مجهول ولا يمكن تمييزه إلا بالكاد، حيث ينتشر فيه بعض العرفج اليابس الذي ترعى منه الإبل.

قبل أن نصل هنا مباشرة وعندما أصبحت مقدمة الجيش ضيقة لكي تمر من خلال منخفض النغبج، حدثت حادثة بسيطة تستحق الذكر. فقد كنت راكباً في طريقي مع أربعة أو خمسة من رجال جماعتي وتصادف أن تجاوزنا مجموعة صغيرة من الإخوان على بُعد مائة ياردة تقريباً عندئذ، ودون أي نوع من الاستفزاز ما عدا منظري، صاح قائلاً: "أشهد الله على كرهي لكم"[1]. هذه الملاحظة المهينة هي الأولى التي أسمعها حقيقة خلال إقامتي المؤقتة كلها في البلد، وهي على الأرجح موجهة لرفاقي بسبب وجودي وليس لكي تسمعها آذاني. وقد قبلوا بكل المقاييس التحدي فوراً وبدؤوا يصرخون بالإهانات والشتائم رداً عليهم عندما قاطعتهم قائلاً: "اتركوهم لحالهم. هل ستردون على كل كلب ينبح عليكم؟". بيد أن العربي، لاسيما الأسود الزنجي بشكل عام، لا يمكن كبح جماحه عندما يرزح تحت الشعور بالضيم والجور، وسرعان ما لاحظت أن منوّر قد تخلف قليلاً ليفتح نار السباب على الإخوان.

وواصلت سيري متجاهلاً إياه وعزمت على التخلص من واحد لا يملك إلا القليل من ضبط النفس خشية أن تؤدي صحبته وأي نزاع ينتج عنها إلى رفض ابن سعود أن يلحقني به في الحملة العسكرية التي على وشك أن تبدأ. وكان عضو آخر من جماعتي، العنزي، حمد بن هذال، قد استأذن منا قبل أن نترك المشقوق، حيث كان

(١) أي (أشهد الله على بغضكم) (فيلبي). ربما قال القائل هذه الكلمة عندما رأى فيلبي، لأنه ما زال على دين النصرانية، ويضعونه في منزلة الكافر. (ابن جريس).

قريباً نسبياً من الوصول إلى مراعي موطنه في الصحراء الشمالية. وقد ثبت أنه أقل فائدة مما كنت آمل منه، وهو أحياناً مضجر وثقيل بشكل فظيع؛ ولذلك لم أشعر بالأسف على التخلص منه، وقد فشل في أن ينال بالتملق مزيداً من العطايا النقدية وبندقيتي من طراز مانليشر (Mannlicher) التي كان يستخدمها مؤقتاً. وفي الحقيقة تركناه هناك بلا مطية أو سرج أو أسلحة وبلا شيء ما عدا علبة من الكبريت، وغليون بغطاء معدني وما تبقى له من عطية مقدارها خمسون دولاراً أعطيتها إياه في عنيزة.

قبل الساعة الثانية ظهراً بقليل كنت أفكر في حط الرحال لنوم القيلولة، فقد بلغت درجة الحرارة في خيمتي مائة وثماني درجة فهرنهايت، وهذا اليوم يمثل أعلى درجات القيظ بالتأكيد. حينذاك انطلق أمر بأن يُنشر البيرق لاستئناف السير. ولذلك اضطررت إلى أن أحذو حذوهم، وأنا أتعجب من الجنون والسخف الغريب في طرائق العرب. فإذا كان السير طويلاً هو هدف هذه المناورة لكان ذلك معقولاً ومقبولاً، ولكن في الحقيقة لم نمش في ذلك العصر إلا ما يزيد قليلاً عن ساعة واحدة قبل أن نخيم للمبيت. لا ريب أن ابن سعود لم يستطع النوم وأصابه الملل فجأة من الجلوس ساكناً، مجرد نزوة جعلت كل شخص غير مرتاح بلا داعي لمدة ساعة ولم تزد شيئاً يذكر في إجمالي تقدم السير ذلك اليوم.

خلال تلك الساعة أو بعدها بقليل قطعنا أربعة أميال تقريباً فوق سهل متموج أكثر عن ذي قبل، فيه رواب وآكام من الأرض الصخرية المتغيرة ببعض البقع من الأرض الجرداء. وهنا وهناك تمتد قنوات رملية صغيرة بها بعض النباتات، وعلى مسافة بعيدة جهة اليسار سد جبل قعرا مجال الرؤية عنا، باقترابه ببطء وثبات من مسارنا حتى ـ على مسافة قصيرة منه ـ نصبنا خيامنا في منخفض ضحل شاسع يسمى البيد[١] الذي تكثر فيه أشجار العرفج المناسبة للإبل.

(١) ربما يكون اسمه عُبيِّد (فيلبي).

خلال اليوم كانت الجبهة الممتدة للجيش الزاحف تجعل عدداً كبيراً من الأرانب البرية تخرج من مكامنها حيث تم صيد الكثير منها تماماً بعد استعراضات للمهارة والطاقة التي كانت جديرة بالإعجاب حقاً. وقد رأيت أربعة يُقبض عليها كلها بأم عيني، بواسطة العرب الحفاة الذين يطاردون الحيوانات ويوجهونها من واحد للآخر إلى أن تجلس مرهتة وتستسلم بكل بساطة للاصطياد. وخلاف ذلك كانت الحياة بغيضة لعدم وجودها على الرغم من أنه في مخيمنا على التلال الرملية بالمشقوق كانت الجرابيع كثيرة بغزارة لدرجة أنها تدخل خيمتي أثناء الليل، بعدما جذبها نور المصباح، وقد شعرت بالراحة والرضا من قتل عقرب كان يبدو أنه يبحث عن قدمي.

لقد كان إبراهيم الجميعة، الذي منعته عينه المريضة من المشاركة النشطة في القتال الأخير، من بين أوائل زواري هذا المساء، على الرغم من أنه بدا لا يملك إلا قليلاً مما يقوله وربما قد صده الاستقبال البارد كثيراً. وبعد ذلك اجتمعت مع سعد اليميني ورشيد لقضاء وقت المساء في ثرثرة فارغة. والظروف قد جعلت الحديث يدور حول موضوع التبغ. فقال رشيد في إحدى المرات خلال السنة الماضية أن ابن سعود على وشك أن ينطلق في غزوة. وقبل الساعة المحددة مباشرة استدعى دون أي إنذار ستة أشخاص ليتخلفوا معه، وأصدر الأمر لباقي القوم أن يسيروا إلى زحفهم. وقال لهؤلاء الستة "استمعوا لي، ليس عندي سبب يجعلني أشتكي منكم أو أكرهكم، ولكن تدخنون، هذه ذلولكم وسيوفكم، وبنادقكم، والآن، الله معكم، خذوها وارحلوا عن بلدي". فأعلن الستة بصوت واحد، إذا كان الدخان هو حقاً ذنبهم الوحيد الذي يأخذه عليهم، فإنهم سوف يقسمون على نبذه أفضل من أن يهجروا بلده(١).

---

(١) من صفات الملك عبدالعزيز أن يعلم رجاله الاتزان والاتصاف بالفضائل والابتعاد عن الرذائل، ولهذا فهو أراد أن يؤدب الذين يشربون الدخان بالطرد من الخدمة العسكرية. وهذا نوع من العقوبة الجيدة التي جعلتهم يعطونه وعودهم بترك الدخان تماماً على شرط أن لا يتم طردهم. لمزيد من سلوكيات الملك عبدالعزيز في تعليم رجاله دروساً في الأخلاق والاحترام والأدب وما شابه ذلك. للمزيد انظر: كمال الكيلاني، عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود والإصلاح الإسلامي المعاصر، ص ٥٩ وما بعدها، إبراهيم السماري، الملك عبدالعزيز: الشخصية والقيادة، ص ٣٨ وما بعدها، عبدالله التركي، الملك عبدالعزيز آل سعود: أمة في رجل، ص ٥٦ ومابعدها. (ابن جريس).

وبهذا القسم أخرجوا غليوناتهم وتبغهم وحطموها أمامه، وسحب حكم الطرد بشرف، والتزم أربعة من الستة بأمانة بقسمهم منذ ذلك الحين. أما الاثنان الباقيان فقد استمرا في طريقهما الشريرة دونما أدنى اكتراث. وقد حاولوا أن ينتزعوا مني معلومات عن الخطط المقبلة لابن سعود ، وأخبروني بالشائعة المنتشرة، المبنية على استراق السمع لجزء من حديثي معه، أن القوة سوف تنحل الآن وتعود إلى أوطانها استعداداً للتجنيد العام للجهاد المعتاد. فقال سعد بصراحته المعهودة: «ما من أحد هنا سواك عنده أدنى رغبة في الاستيلاء على حائل أو يهتم بأي شكل بمصيرها». لقد كان ذلك حقاً على ما يبدو[1]، بالنسبة للغالبية العظمى من القوة المخيمة حولنا وبدا أن مزيداً من التأخير الطويل في العمليات سيكون حتمياً إذا سادت فكرة حل القوة. ولقد حدث في الحقيقة التجنيد العام في وقت لاحق من السنة نفسها في ظل ظروف شديدة الاختلاف عن تلك التي كانت سائدة في وقت هذا الحديث. وكان هدفه في ذلك الحين ليس ابن رشيد ولكن الشريف، وكان نتيجته تربة وقد وقعت هذه المعركة في مايو من العام التالي، وكانت واحدة من أشد المعارك الحاسمة التي وقعت على الإطلاق في الجزيرة العربية[2].

وقد سمع سعد خلال النهار اثنين من الإخوان يتحدثان عني، فقد سأل واحد من الذين لم يروني أبداً رفيقه الذي رآني قائلاً: "أين الرجل؟ إنني لم أر أحداً حولنا هنا يرتدي كبوس"[3]. فرد عليه الآخر"لا، إنه يرتدي ملابس مثل أي عربي".

بينما كنا نتحدث دوت طلقة من بندقية في جو الليل الهادئ وتبعتها أخرى ثم أخرى، إنها أخبار لا ريب من الخرمة وقد كانت فعلاً. فقد جاء قحطاني من الذين

---

(١) لمزيد من الإيضاح عن حملة ابن سعود على حائل ومحاولة السيطرة عليها انظر: إيف بيسون، ص ٢٠٣-٢٠٩. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفضيلات عن أسباب وأحداث معركة تربة بين الشريف وابن سعود عام (١٣٣٧هـ/١٩١٨م)، انظر: إيف بيسون، ص ١٨٥، العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ص ١٨٣-١٨٦. (ابن جريس).

(٣) كبوس: أي (قبعة) (فيلبي).

شاركوا في المناوشة الأخيرة حاملاً بشرى النصر الكبير للمسلمين، الذين استولوا على أربع بنادق وخمسة رشاشات. ولم يأت تأكيد رسمي بالانتصار بعد، ولكن لا يمكن أن يوجد بعد ذلك أي شك في صحة الأخبار. هل هناك إهانة أشد من ذلك لواحد يزعم أنه ملك العرب يتلقى ثلاث هزائم متتالية في وضح النهار، مع خسائر فادحة في الرجال وخسارة ثمانية مدافع وعشرة رشاشات، على يد قرية صغيرة مثل الخرمة؟[١]

كانت الساعة بالكاد الثانية صباحاً عندما أيقظوني في الصباح، بيد أن ابن سعود، والبيرق والقوة كلها قد ارتحلوا منذ زمن طويل قبل أن نتمكن من تجهيز أنفسنا. وبناءً على ذلك، سرنا في إثرهم على مهل، نمشي على ضوء القمر بين مشهد رتيب وكئيب مثل ما كان في الأيام السابقة. وقبل الفجر مباشرة توقف رفاقي للصلاة عند نقطة كان عندها جبل القعراء، القادم من اليسار، يبدو أنه يتلاشى منتهياً في السهل، المنبسط مثل الخط الضئيل لنفود الطرفية من ورائه، بينما امتد السهل الذي عن يميننا حتى جبل منخفض غير واضح المعالم. ويقع بين هذا الجبل وبين النفود ممر عرضه في البداية خمسة أميال، ولكنه يضيق بسرعة إلى نصف ميل فقط، ويمتد مسارنا خلال هذا الممر الطبيعي.

وكلما تغلب ضوء الصباح تدريجياً على الضوء الخافت للقمر وجدنا أنفسنا بصورة مستمرة نتجاوز القوم، ثم تجاوزنا جماعة ابن سعود، التي ـ بعدما مالت جانباً لصلاة الصبح ـ فضلت أن تنعم بلحظات قليلة من النوم. وفي أثناء مرورنا عليهم بدؤوا يتحركون مرة أخرى، ولكن لم يسيروا إلا قليلاً ليتوقفوا مرة أخرى للفطور، في حين واصلنا نحن طريقنا عازمين على الوصول إلى الطرفية عند أول وجبة لنا. وعندما مررنا قريباً من جماعة مرتحلة من الإخوان صاح واحد من

---

(١) لمزيد من الإيضاح عن الصراعات بين الأشراف وأهل الخرمة وتربة وموقف ابن سعود من ذلك الصراع، انظر: إيف بيسون، ص ١٨٥ وما بعدها، العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ص ١٨٣-١٨٧. (ابن جريس).

المزارعين الأجلاف بصوت عال هائجاً وقال بعصبية: "لماذا تأتون بهذا الكافر قريباً منا؟"[١]، فرد عليه سعد اليميني، الذي ركب معنا من البداية وتصادف أن يكون أقربنا إلى الرجل الآثم قائلاً: "اذكر الله!!"، فأجاب الرجل "لا إله إلا الله".

بحلول هذا الوقت كنا قد ابتعدنا ولم نستطع أن نسمع المزيد، ولكن مترك ومروج وعايض أظهروا علامات على رد الإهانة بمثلها، واضطررت إلى التذمر منهم ليظلوا صامتين[٢]. في ظل هذه الظروف كانت هناك طريقة واحدة محتملة من طريقتين، إما أن نتجاهل تماماً التبجحات التافهة للمتعصبين الجاهلين أو نثير جلبة وضجيجاً كبيراً بإبلاغ الأمر إلى ابن سعود، ولقد كان عندي من الأسباب القوية ما يمنعني من تبني الطريقة الأخيرة. وبعدما سرنا لمسافة إضافية أنزلوني من المطية لكي يعيدوا تعديل سرجي، وفي أثناء ذلك مر علينا رجلان قريباً منا يُحتمل أنهما كانا يتحدثان عني، وخلال مرورهما قام أحدهما بحركات مخيفة برفع البندقية إلى كتفه، والتصويب وشد الزناد ثلاث أو أربع مرات علينا. وبينما سعد مشغول بسرجي، فقد ثبّت عينيّ بصورة مستمرة على هذا المهرج، الذي أدار ظهره مبتعداً في خجل وارتباك مثل طفل سيء السلوك.

وهكذا واصلنا سيرنا نازلين في الوادي، ذي السطح الرملي مع بقع من الطمي الصلب، ويبلغ عرضه بين ميل وربع ميل كلما تقدمت النفود وارتدت. وفي وسطه يوجد جبل منخفض من الحجر الرملي المتفتت، وبه جرف منخفض ولكنه واضح في

---

(١) (لماذا تأتون بهذا الكافر قريباً منا) أي ليش تجيب ها الكافر يمّنا؟ (فيلبي +ابن جريس). كان فيلبي يعرف ويدرك أن هناك شريحة كبيرة في المجتمع لا ترغب أن تراه ولا تجلس ولا تأكل معه لأجل أنه غير مسلم (ابن جريس).

(٢) كان فيلبي يسعى إلى عدم الاصطدام بمن يوجه له إهانة أو سباباً أو شتيمة، وكذلك ينصح رفاقه الخاصين أن يتجنبوا الاحتكاك بمن يعاديهم بسبب مصاحبتهم له، كونه نصرانياً. وهذا التصرف من فيلبي يعد حكمة ليصل إلى أهدافه العلمية والسياسية التي جاء من أجلها. وعموم الرحالة الغربيين الذين جاؤوا إلى جزيرة العرب خلال القرون الماضية كانوا يقابلون مشكلات مع السكان، ويتفاوتون في التعامل مع تلك المشكلات. للمزيد عن الرحالة الذين قدموا إلى جزيرة العرب خلال القرون المتأخرة الماضية، انظر: جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب، ص ٢٦ وما بعدها، روبن بدول، الرحالة الغربيون، ص ١٨ وما بعدها، (ابن جريس).

طور التحلل ليصبح رملاً، وبعد مدة طويلة صعدنا إلى الصفراء، التي تلقي عنا لساناً بارزاً من الصخر إلى ما يقرب من مائة ياردة من النفود. وبعد عبورها دخلنا مرة أخرى في الوادي، الذي يجري جنوباً نحو الطرفية، وقد أشار سعد لي على بُعد ميل جهة الشرق إلى مكان معركة كبرى، تعرف عادة باسم الصريف التي نشبت في (١٣١٨هـ)[1]. فقد كان ابن رشيد، عبد العزيز بن متعب، خليفة محمد الكبير، يقيم في خيامه بالصريف، على بُعد مسافة ما في النفود، مع قبيلته شمر وعناصر مخلصة له من بريدة الذين ثاروا عليه وأغلق أبوابها. ويقيم مبارك بن الصباح في الطرفية مع حلفائه سعدون من قبيلة المنتفق الكبرى بالعراق[2]، وعبد الرحمن، والد الحاكم الوهابي الحالي، مع عناصر نجدية أخرى من بريدة.

وأرسل ابن رشيد دورية فرسان صغيرة لاستطلاع العدو وقد فتحت عليها النار سريعاً قوة مماثلة تعمل من الطرفية. عند سماع أصوات الطلقات أصدر ابن رشيد الأمر بالتقدم، وفعل ابن صباح الشيء نفسه، ووقعت المعركة على أول منحدر في النفود وجزء من سهل الطرفية. وقد هزم ابن الصباح هزيمة نكراء واحتل العدو معسكره، بينما هو وحلفاؤه أطلقوا أرجلهم للريح فراراً ولم ينقذهم من عيون الجماعات التي بثها المنتصر لمطاردتهم إلا سقوط المطر بغزارة وفي الوقت الملائم. لقد كانت المذبحة كبيرة خلال المواجهة نفسها لدرجة أن الفيضان، كما قالوا، انساب بلون الدم الأحمر، حاملاً أمامه جثث القتلى ورصها في صفوف على حافة منخفض سبخة عريضة تمتد على طول الجهة الشرقية من حوض الطرفية. وكان عبد العزيز ابن سعود، الذي لازال صبيا، قد فرض في الوقت نفسه حصاراً على الرياض، ولكنه

(١) (١٣١٨هـ) يقابل هذا العام بالميلادي (١٩٠٠م)، للمزيد من التفصيلات عن معركة الصريف بين ابن الرشيد وابن الصباح، انظر: السعدون، ص ٥٢-٦٢، سعود بن هذلون، ملوك آل سعود، ص ٥٥، خزعل، ج٢، ص ٥٠، ١٥٦، الخترش، ص ٥٨ عبدالعزيز الرشيد، تاريخ الكويت، ١٦١ وما بعدها (ابن جريس)..

(٢) لمزيد من الإيضاح عن قبيلة المنتفق، انظر: الحقيل، كنز الأنساب، ص ١٨٨. (ابن جريس).

رفعه فور ورود أنباء الهزيمة وانسحب للكويت. في هذه الأثناء هرب ابن الصباح عن طريق الزلفي، وطُورد النجديون بوحشية لمسافة بعيدة حتى حدود العارض وتعرضت قرى كثيرة للسلب والحرق على يد المطاردين. وزحف ابن رشيد نفسه على بريدة التي كانت أبوابها مفتوحة له بالخيانة، ولقن أهلها درساً عن التبعات الوخيمة للتمرد بإعدام مائة وثمانين من مواطنيها، وانتزاع غرامات مالية باهظة من البقية، فالعائلات مثل الربدي والشريدة قد تحملت بغباء عشرة آلاف ريال لكل منها. بيد أن المعاملة القاسية والانتقامية من المنتصر للمغلوبين قد جعلت اسم عبدالعزيز بن رشيد مكروهاً في نجد كلها، وكان عبد الرحمن ـ بعدما وصل سالماً إلى الكويت ـ قد تنبأ بأن نجداً سوف تعود سريعاً إلى حكامها الشرعيين، وهي نبوءة بدأ تحقيقها في العام التالي على أيدي ولده، الذي يخبأ القدر له كثيراً في جعبته(١).

عندما وصلنا قمة المرتفع وجدنا أنفسنا على حافة حوض الطرفية الكبير المستقل بذاته والمحاط من أحد الجوانب بالصفراء ومن الجانب الآخر بالنفود ويبلغ قطره ميلين تقريباً. وفي الجهة الشرقية من الحوض توجد السبخة المذكورة آنفاً، التي ينحدر نحوها السطح الرملي في بقية المنخفض برفق من الصفراء. وخلال لحظات قليلة كنا قد نصبنا خيامنا قريباً من قصر في وسط الحوض، وفيه عدد قليل من أشجار النخيل والأثل من حوله. والقصر هذا واحد من نحو خمسة عشر منزلاً مماثلاً تأوي مئة شخصاً تقريباً من فرع التواجر من عنزة الذين أتوا إلى هنا أصلاً من المجمعة(٢). وهناك رقعتان أخريان من الأثل أكملت حالة القفر البادية الآن على هذه القرية التي يبدو أنها كانت ذات يوم أشد ازدهاراً.

---

(١) للاطلاع على الأحداث التي سبقت فتح الرياض عام (١٣١٩هـ/١٩٠١م) وموقف ابن الرشيد وابن الصباح منها، انظر: السعدون، ص ٣٢ وما بعدها، ديكسون، ص ١٣٠، الخترش، ص ٣٣ وما بعدها، صلاح الدين المختار. تاريخ المملكة العربية السعودية (بيروت، ١٩٥٧م) ج٢، ص٢٤. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن التواجر، انظر: الحقيل، كنز، ص ٨٣. (ابن جريس).

بعد وصولنا مباشرة تبعنا ابن سعود في الدخول للمخيم راكبين، ووراءه الكتيبة القوية من حرسه المرافق. وتعقبته فوراً إلى خيمته للاجتماع به، وقد ثبت أن هذا الاجتماع شديد الكآبة؛ لأنه كان نعساناً مثلي تماماً. وجاء الأميران الصغيران، فيصل وفهد، اللذان قد تركا في المخيم هنا خلال الغزوة، فوراً بقبلة الترحيب بوالدهما على كلتا جهتي الأنف وفوقه، ثم أخذا مكانهما في خيمة الاستقبال بوقار جذاب. بعد ذلك سألهما ابن سعود عن صحتهما بطريقة رسمية كما لو كانا غريبين محترمين وليسا أطفاله هو نفسه اللذين لم يبلغا بعد سن المراهقة. لاشك أن هذا جزءاً من الروتين التعليمي المصمم لتعليمهم الأخلاق والسلوك بالممارسة العملية بدلاً من المفاهيم النظرية. وقد تركتهم على عجل بعد ذلك لكي أعود إلى خيمتي أملاً في ساعة أو ساعتين من النوم تعوضان استيقاظي المبكر، ولكني اضطررت إلى استقبال ضيف غير متوقع هو سلطان بن عبدالعزيز آل حسن، الذي جلس يثرثر ويدخن لمدة نصف ساعة، وفي وقت لاحق بعد الظهر جاء مرة أخرى مع أخيه، حسن. ولم يبد أن أياً منهما لديه موضوع ذو أهمية ليناقشه معي، وربما كان حافزهم هو الشعور بالزمالة في المنفى بقفار الجزيرة العربية والفرص الواضحة للتدخين بهدوء التي جعلتهما يسعيان في طلبي.

لقد برزت الطرفية مرة أخرى في التاريخ عام (١٣٣٦هـ)[١]، عندما نشبت معركة عند الطرف الجنوبي لمنطقة السبخة بين ابن سعود وسلطان بن رشيد، الذي كان معه فرع الدويش من مطير وأهل بريدة. في الفترة الممتدة بين معركة الصريف و (١٩٠٦م) كان عبد العزيز بن سعود قد حقق قدراً كبيراً من نبوءة والده باسترداد الرياض، وجميع المناطق جنوب القصيم. في هذه السنة المذكورة كان عبد العزيز بن رشيد يرقد في روضة آل مهنا بعد سير طويل، عندئذٍ حذره الدويش وآخرون

(١) (١٣٢٦هـ) أي ما يعادل عام (١٩٠٨م) (فيلبي + ابن جريس).

ليحترس من هجوم وشيك. وقد تجاهل تحذيرهم، وفي اليوم التالي عند الفجر انقض عليه ابن سعود ونشب قتال شرس، وفيه قام رشيد الذي صاحب ابن رشيد في معركة الصريف والفرسان الذين يعمل معهم بالاستيلاء على كل ما كان أمامهم في قطاعهم من القتال، بينما دار اليوم ضد قوة حائل ككل حيث قتل عبد العزيز نفسه. وقد خلف الأخير ابنه متعباً، على العرش، ولكن سرعان ما اندلعت الاضطرابات والقلاقل في عاصمة شمر، حيث اغتصب فرع عبيد من الأسرة الحاكمة مهام الطفل الحاكم. ومن هذا الفرع يأتي سلطان الذي واجه ابن سعود في الطرفية بعد ذلك بسنتين، وقد أصيب الأخير بجرح في كتفه، وقد أحرز نصراً حاسماً. وفرّ سلطان، تاركاً أخاه غير الشقيق، فيصل بن رشيد، الذي رافقنا في هذا المسير، ليحكم بريدة، التي هاجمها ابن سعود بغير نجاح، وعانى من هزيمة قرب الصباخ (صبخ)[1].

وبسبب بعض المعاملات التي كان على ابن سعود أن ينهيها في هذا المخيم، القاعدة، فقد مكثنا في الطرفية طول اليوم الأخير من سبتمبر، يوم كامل من الفراغ التام بقدر ما كان الأمر يهمني. ففي الساعات الباكرة من الصباح جلست في خيمتي أرقب قوات الإخوان تمر، والكثير منهم يختلسون النظر عابسين بخبث في اتجاه مسكن الكافر، إلى مستودع المؤن القريب، حيث يسحبون تباعاً مؤونة شهر من الأرز، والقهوة، والضروريات الأخرى. وبعضهم يحمل الأكياس المخصصة لهم على رؤوسهم، بينما جاء آخرون بإبلهم معهم ليحملوا عليها الأحمال الثقيلة. وفي وقت لاحق لم يقطع رتابة الصباح إلا ظهور امرأة عجوز من الصلبة، عندما جلست عند باب خيمة رفاقي تعرض عليهم للبيع لحم غزال مجفف، وظلت تثرثر في مزاح مرح من البذاءة والفحش مع رشيد، الذي يكون دائماً في محيطه الملائم بين حثالة المجتمع. وقد

(١) لمزيد من التفصيلات عن الصراعات بين ابن سعود وابن الرشيد في الثلث الأول من القرن الهجري الماضي، انظر: إيف بيسون، ص ٢٠٣ وما بعدها، العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ص ٦٣١، ١٢١، ١٤٥. (ابن جريس).

وجدت من الصعوبة الشديدة أن أضم معاً كلمات الحديث الذرب لهذه العجوز الشمطاء التي تقتبس أبياتاً كثيرة من الشعر بل وشاركت حتى في أغنية مألوفة. وفي النهاية اشتريت منها زوجاً من قرون الغزلان وكيساً لحفظ الدراهم مزيناً بشُرّابة مصنوع من حلق غزال، وبه رسم زخرفي بسيط باللون الأسود.

كان واحد من الإخوان عند مروره غافلاً بجوار الخيمة التي يجلس عبد الله فيها وحده في ذلك الوقت، قد نظر داخلها ودلف فيها محيياً مضيفه المذهول، الذي على كل حال ردد كلمات الترحيب واستضافه بحديث لدقائق قليلة كما لو كان شيء غير عادي قد حدث. وبعد مدة طويلة وربما بسبب خيبة أمله من عدم وجود قهوة نهض لينصرف، وبعد مسافة قليلة دنا منه زميل له من الإخوان، الذي رآه يخرج من الخيمة، وبادره بأسئلة عن سبب زيارته لخيام الإنجليزي، وبما أنه قد أصابه الهلع من جريمته غير الحكيمة فقد استدار نحونا وفعل كفارة علنية بالبصق في اتجاهنا. وكان غازي، دليلنا الحربي في رحلة الجنوب والآن في خدمتي مرة أخرى، قد أخذ تقريباً الإجراء ليصبح أخو، ولكنه انسحب قبل الدخول الفعلي، على الرغم من أنه دائماً يلبس غطاء الرأس المميز لهم. وقال لي: إن ابن عم له أخبره في معسكر الأرطاوية أن الإخوان قد أقسموا أن يعاملوه بشر على خطيئته في البقاء معي، إذا ظهر بينهم. وقال لي رشيد إن أخو، الذي تبادل معه الحديث في يوم أمس، قد عاتبه بشكل خطير على الطول الزائد في سرواله، الذي طبقاً للأحكام لا ينبغي أن ينزل أكثر من نصف الساق. وقد وعده بطريقة رزينة أن يكون أكثر التزاماً في المستقبل، وانصرف الرجل سعيداً باعتقاده أنه أسدى خدمة لزميل آدمي[١].

(١) يظهر في هذا الموقع وغيره من صفحات هذا الكتاب، أن الإخوان كانوا مندفعين أحياناً في دعوتهم وتوجههم، وربما ذلك ناتج عن عدم الفهم الحقيقي لتعاليم الدين. بل إن الملك عبدالعزيز كان يعاني أحياناً من سوء تصرفاتهم، ويعمل جاهداً على تحمل أخطائهم، وإرشادهم وتوجيههم، وأحياناً معاقبة بعضهم. (ابن جريس).

وقد شرفني إبراهيم الجمعية بزيارتين، واحدة في الصباح والأخرى في المساء، عندما تحدثنا بسرور كاف عن المعارك الكبرى في الماضي. وأمضيت جزءاً من فترة العصر في تصفح ترجمة عربية باللهجة المصرية لرواية رخيصة من روايات العنف والجريمة تسمى "فتاة النهلستية" التي تكوّن مع عدد من الكتب المماثلة القسم الأكبر من مكتبة محمد السليمان بعنيزة. وبعد مقابلة خالية من الأحداث مع ابن سعود تناولنا عشاء من الأزر ولحم الضأن، تغيير سار من غذاءنا الأخير على لحم الإبل عسير المضغ. والماء في الطرفية غزير وعذب وخاصة في بئرين، أما الباقي ففيه معادن خفيفة أو يميل إلى الملوحة.

عندما انطلقنا في الصباح التالي كنت قد عزمت على التزام الطريق المباشر لبريدة، على أن الدكتور عبد الله ورشيد، اللذين وعداني بالحصول على دليل كفء لهذا السير، قد فشلا في ذلك، وأظهرت ضيقي بالانطلاق فجأة على درب كنت أعلمه جيداً إلى الشرق من الطريق الصحيح. وقال رشيد بضعف: إن الطريق المباشر كان إلى اليمين بشكل أكبر، ولكني لم أعره اهتماماً، ورددت قائلاً: إنه ما دام ليس معنا دليل فإنني لا أستطيع أن أثق في كلمته، وواصلت السير في طريقي. عندئذٍ، بعدما أصابه القلق كثيراً من احتمال السير طويلاً، انطلق متعجلاً إلى قصر بحثاً عن دليل، وبعدما عثر عليه دون صعوبة، مثلما أن باستطاعته أن يفعل من قبل لو بذل جهده، فصاح قائلاً: «تعال هنا، لقد وجدت دليلاً».

وواصلت السير في طريقي وفي النهاية لحقني رشيد والدليل. وقال: «هذا هو الدليل، وذلك طريقنا هناك». فتوجهت إلى الدليل متسائلاً: «إلى أين يؤدي هذا الدرب؟ فأجاب ببراءة وصدق: «إلى روضة الربيعية»[1]. عندئذٍ، وللكرب الواضح

---

(١) بلدة الربيعية تقع في شرق منطقة القصيم وشرق مدينة بريدة عاصمة المنطقة، وتبعد عنها بحوالي (٢٥كم). للمزيد انظر: عبدالعزيز السنيدي. الربيعية (الرياض: مطبوعات الرئاسة العامة لرعاية الشباب)، ص ١٧ وما بعدها. (ابن جريس).

لدى الجماعة كلها، قلت: «حسناً جداً، هذا سوف يعود علينا بالنفع الكثير الآن؛ لأننا قد قطعنا كل تلك المسافة».

وتصادف أن كان اليوم واحداً من أشد الأيام حراً في الآونة الأخيرة، فلقد التهبت النفود مثل فرن ولم تكن هناك رياح. وكان عبد الله شديد الغضب من العالم كله بصورة عامة، ومني بصورة خاصة، بينما رشيد على الرغم من الصداع الذي يشق رأسه، قد أصلح خطيئته السابقة بلعب دور الشخص الوحيد المسرور في الجماعة طول اليوم بالإضافة لي. وانتهزت كل فرصة بمباركة الصدفة التي جعلتني أرى مناطق أكثر مما كنت أتوقع. وأردفت قائلاً: "وأقترح أن تفعل مثل ما فعلنا اليوم عندما لا نجد دليلاً كفؤاً يوجهنا". وفي الحقيقة كان رفيقنا، رجلاً طاعناً في الثمانين من عمره يُدعى سليمان، يتمتع بكفاءة فائقة على نحو فذ ومسل، فقد أمتعنا بقصص عن الحروب والمعارك القديمة، واستشهد بنتف من الشعر ليضيّع الوقت. وفي نهاية اليوم استنزل عليّ كل بركات ونعم الله القوي مقابل عطاء نقدي تجاوز أقصى ما يطمح إليه خياله الجامح.

انطلقنا من المخيم بعد السادسة صباحاً مباشرة، وفوراً أتينا تقريباً على بستان مسوّر فيه خمسون نخلة تقريباً، وبعض الأثل وقصر يقابل ويسد تماماً شعيب الطرفية الذي يمتد نازلاً من الصفراء إلى الشبخة. وعلى طول الشعيب تتناثر هنا وهناك قصور متفرقة وآبار يتراوح عمق الماء فيها بين أربع إلى خمس قامات. وبعد مرورنا بجوار قصر آخر وبستان نخيل صغير وأشجار الأثل على يسارنا، دخلنا في منطقة شاسعة من حقول الذرة، بها قصور متناثرة وآبار، وأخيراً على مسافة ميل من نقطة انطلاقنا أتينا على أكبر هذه القصور، وهو في الحقيقة قرية صغيرة محاطة بسور هائل عليه أبراج وبوابة وحيدة بقدر ما استطعت أن أرى على الجهة الشمالية. وراءها، وبعد المرور على بعض أنقاض من قرية قديمة على الجرف الذي يشكل الضفة اليسرى من الشعيب دخلنا ثم عبرنا قطاع السبخة التي ربما تمتد لميل على جانبينا في اتجاه الشمال والجنوب.

تمتد النفود، التي خرجنا منها على الجهة الأخرى، عند هذه النقطة نحو الشمال والجنوب تماماً تقريباً، وفي النهاية تنحني ملتفة حول الطرف الجنوبي من الصفراء التي تبتعد عن النظر نحو الجنوب الغربي. ولمسافة ميل ونصف كنا نكابد النفود طالعين ونازلين وهي تتناثر فيها على مسافات متقطعة منخفضات ضحلة فيها نباتات غزيرة من الطرفاء (في التجاويف) والغضا، والأرطي ونباتات أخرى معتادة حتى وصلنا بئراً تسمى عسيلان، عمقها قامة واحدة ومياهها مالحة بصورة شديدة، وفي تجويف ومعها شجيرة حش واحدة. بعد هذا كانت جبال النفود حادة الانحدار، وعالية، وجرداء بصورة عامة من النباتات. ومررنا على بئر أخرى هي الحيسية مالحة المياه ضحلة مثل سابقتها، وتوجد في منخفض على هيئة حدوة الحصان تقريباً، مثل حُفر الفلج التي يقولون عنها في النفود الشمالية الكبرى، على الرغم من أنني لم أسمع أبداً هذه الكلمة تستخدم لوصف مثل هذه المنخفضات، التي تشتهر بصورة عامة باسم النقرة.

بعدما وصلنا الآن إلى مرتفع كبير من الرمل نظرنا إلى الخلف على سبخة الطرفية التي ظهرت تلمع مرة أخرى مثل بحيرة من الزئبق. ووراء الجبل تقع قناة بها شجيرات الطرفاء، وبعد الجبل التالي وراء محيط حقيقي من أمواج الرمل ظهر جبل روضة الربيعية ذو الصخر الرملي. وعلى مدى الساعة التالية كافحنا بضراوة طالعين وهابطين على الموجات المنحدرة في النفود، حتى وجدنا أنفسنا فجأة في قناة وادي الرمة[1] وهي جرداء ذات قاع طيني يتراوح عرضه بين عشرين وخمسين ياردة، تتلوى وسط متاهة من التلال الرملية من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، ولا يمكن تمييزها إلا لمسافة ميل أو نحوه على كلا جانبي خط عبورنا.

---

(١) وادي الرمة يخترق بلدة الربيعية أثناء مروره بمنطقة القصيم، ولمرور هذا الوادي بها دور في إكسابها أهمية عظيمة من الناحية الزراعية والاقتصادية. (ابن جريس).

وبعد الوادي استمر التتابع نفسه من الجبال الرملية، ومن إحداها ألقينا نظرة واضحة على القناة الثعبانية الممتدة في البداية شمال ـ شرق ثم شمال ـ شمال ـ شرق حتى ضاعت معالمها مرة أخرى في الرمال. وبعد ميل تقريباً وراء الوادي، اضطررنا إلى التغلب على منحدر رملي شديد الارتفاع حاد الانحدار الذي نظرنا من قمته إلى أسفل لنطل على بستان روضة الربيعية وخلفها خندق الجبل الذي رأيناه آنفاً على بُعد. وفي غضون ربع ساعة كنا قد وصلنا قرية صغيرة غير مسورة تحت الخندق تماماً، الذي يوجد على قمته برج للحراسة(١).

وإلى الشمال من هذه النقطة تقع مجموعة من بساتين النخيل المسورة الممتدة مسافة ربع ميل، بينما كان الجزء الرئيس من الواحة المكون من نحو درزن من البساتين تمتد نحو الجنوب مسافة ميل تقريباً على طول قاعدة الخندق، التي تمتد نفسها شمالاً لنحو ثلاثة أميال حتى قناة الوادي، وجنوباً لعشرة أميال تقريباً نحو الشماسية، وهي قرية مشابهة في موقعها للمذكورة آنفاً نحو الشرق تمتد الصفراء نحو عشرة أو اثني عشر ميلاً، حتى رمال نفود الثويرات تجاه الزلفي، وتشكل كما بدت جزيرة من الصخر محاطة تماماً ببحر من الرمال.

يبلغ متوسط عرض المجرى الذي تقع فيه الواحة نصف ميل بين الخندق والنفود. وفيه على بُعد ميل تقريباً نحو الشمال يقع قصر واحد وبستان نخيل روضة أو رويضة الزايدي(٢)، التي سميت باسم صاحبها إبراهيم الزايدي وهو مواطن من بريدة على

(١) لمزيد من التفصيلات عن جغرافية وتضاريس بلدة الربيعية، انظر: محمد العبدوي، معجم بلاد القصيم (طبعة مطابع الفرزدق، (١٤١٠هـ/١٩٩٠م) ج٣، ص ٨٤٦، ج٤، ١٦٠٢، ج٦، ٢٤٢٢، محمد محمود محمدين «أودية نجد وسدودها» مجلة كلية الآداب جامعة الرياض سابقاً (الملك سعود حالياً) ١٩٧٧-١٩٧٨م)، ص ٢٤، محمود شاكر. شبه جزيرة العرب، نجد (بيروت؛ المكتب الإسلامي، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م) ص ٦٣، ٦٦، حسين حمزة بندقجي. جغرافية المملكة العربية السعودية (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ص ٧١. (ابن جريس).

(٢) رويضة الزايدي: تسمى أيضاً روضة ابن صالح، وهي أبعد الأحياء شمالاً في بلدة الربيعية، وهي قديمة العمران، انظر: السنبدي، الربيعية، ص ١٠١. (ابن جريس).

الرغم من أنه ذو أصل دوسري[١]. وكان هناك برج حراسة ثان على الخندق على بُعد ميل تقريباً جنوب الأول وعدد من القصور المتناثرة في بساتين النخيل وكلها مسورة، لتكمّل صورة القرية الفاتنة المدفونة بعيداً عن العالم. كان أكبر القصور في واحد من أكبر البساتين قرب الطرف الجنوبي من الواحة يخص الأمير المحلي، عبدالله بن البازعي وهو من أصل شمري يحكم كل سكانها البالغ عددهم أربع مئة نسمة تقريباً من أصل تميمي[٢]. وتشمل بساتين النخيل، مثل أي مكان آخر، على عدد معقول من أشجار الأثل ومساحات واسعة من البرسيم. صعدت برج الحراسة الشمالي لألقي نظرة على المنطقة المحيطة ولم يكن هناك شيء يُرى إلا النفود والخط الأشد قتامة لصفراء العوشزية.

عند العودة إلى حيث تركت إبلنا وبقية الجماعة وجدت أننا قد دعينا على القهوة من أحد القرويين، وبناءً على ذلك دخلنا مجلسه، الذي كانت جدرانه الكالحة بالدخان تحمل شكلاً منمقاً من الزخرفة بالدهان الأبيض، كما كان الدولاب الطيني بجوار الموقد مزخرفاً من أعلاه إلى أسفله بطراز بارز على هيئة سن سمك القرش. وسرعان ما اجتمع عدد من السكان في المجلس ليسمعوا آخر أخبار الغزوة الأخيرة، ولكنها كانت على العموم استضافة كئيبة مملة، خالية من الحيوية؛ لذا كنا مسرورين بالفرار فور انتهاء دوران القهوة علينا. ومن سخائهم بمحصولهم قدموا لنا تمراً أشبع جوعنا، ولكنه كان أسوأ وأجف تمراً تذوقته على الإطلاق. ومن الحكايات والإشاعات المحلية لم يكن هناك شيء، على الرغم من أنه لسبب ما تحوّل الحديث إلى الساعات، وقيل: إنه لا توجد ساعة واحدة من أي نوع كان في القرية كلها[٣].

(١، ٢) لمزيد من الإضافات عن قبائل الدواسر وبني تميم ومواطنها وفروعها، انظر: الحقيل، كنز، ص ١٥٥-١٦٦، ١٩٢-١٩٧. (ابن جريس).

(٣) لمزيد من التفصيلات عن الحياتين الاجتماعية والاقتصادية في بلدة الربيعية، انظر: السنيدي، الربيعية، ص ١١٢-١٤٠. (ابن جريس).

عندما استأنفنا سيرنا بعد الظهر مباشرة مشينا جنوباً على طول حافة الواحة حتى حديقة ابن البازعي(١) عند النهاية، ومنها استدرنا نحو الجنوب الغربي ودخلنا في خليج من النفود، وفيه توجد حقول الذرة الخاصة بالمواطنين. وبعدما دخلنا الرمال وجدنا أنفسنا على درب بريدة الواضح المعالم الذي يتغلب على النفود عند مستوى أكثر سهولة وانخفاضاً مما كابدناه باكراً في النهار. وعلى بُعد ميل تقريباً من حديقة ابن بازي صعدنا جبلاً منخفضاً لنجد أنفسنا مرة أخرى نواجه قناة وادي الرمة، التي تبدو هنا منبسطة في سهل طيني هائل دائري يُعرف باسم الدهورة محاطاً بالكامل تقريباً بمرتفعات رملية. ربما يكون قطر الدائرة نحو ميلين، وسطح أرضها القاسي كان يتنوع هنا وهناك ببقع رملية مع الرمث والنباتات الأخرى التي يبدو أنها تبين تقريباً المجرى العام لقناة الفيضان الرئيسة. نحو الجنوب الغربي كلما تقدمنا يوجد درزينة أو أكثر من قصور الطومية (التومية) المهجورة، وخلفها خط صفراء العوشزية وامتداده في شريط نفود الطعمية والخط الرئيس للقناة يبدو أنه يأتي من الجنوب الغربي ماراً بهذه النقطة، والمسافة التي قطعناها بشكل منحرف أو قطري من النقطة التي دخلنا عندها الدهورة حتى النقطة التي صعدنا عندها أول منحدر من نفود بريدة كانت سبعة أميال في مجموعها تقريباً. وبعد ثلاثة أميال من السير فوق جبال وتجاويف النفود وصلنا إلى خب القبر(٢) الذي تنتشر فيه أشجار النخيل مع الأكواخ القليلة، وهو يمتد على يسارنا لنحو نصف ميل على طول المرتفع الرملي، بينما القصر الوحيد ورقعتا نخيل نقر الثنا على بُعد نصف ميل إلى يميننا.

بعد مرورنا على برج حراسة فوق الجبل التالي أتينا عندئذ إلى قصر كبير وقرية تسمى الرفيعة التي كانت قبل ثلاثين سنة مضت واحة مزدهرة عندما كان

---

(١) ابن البازعي: ذكره فيلبي باسم (ابن بازي)، والصحيح ما أوردناه، انظر: السنيدي، الربيعية، ص ٩٢. (ابن جريس).

(٢) خب القبر: مجموعة مزارع في بريدة بين الضاحي وخضيراء، وكانت أرض سبخة زحف عليها العمران من كل الجهات. الهويمل، بريدة، ص ٥٢. (ابن جريس).

محمد بن رشيد يخيّم فيها لمدة طويلة بعد انتصاره في المليدا. وعلى مسافة ميلين نحو الشمال ـ الشمال ـ الغرب تقع نخيل وقصر العودة بين النفود والصفراء، بينما على يسارنا مباشرة تقع العجوزة وهي مجموعة مماثلة. بعد ذلك شاهدنا خضير والصوير على يسارنا وعكيرشة وهي واحدة من أكبر خبوب بريدة، على يميننا. وهكذا في النهاية، بعد يوم شاق وتجاوزنا يمين وهطان تماماً وصلنا إلى الصدّة وآبار الصقعة الواقعة بينها وبين زاوية المدينة الكبرى التي دخلناها من البوابة الشرقية[1].

كان فهد آل معمر يعقد مجلسه عندما وصلنا، في المكان المعتاد خارج مسكننا، جلست مدة معه على المصطبة الطينية الممتدة على طول الجدار، نشرب القهوة ونتحدث عن القتال الأخير، الذي أبلى فيه بكل المقاييس بلاءً حسناً حيث قتل تسعة رجال في المعركة راكباً وهو أعور بعين واحدة. وبعدما أويت للراحة فترة سرعان ما استدعاني فهد لأنضم إليه على العشاء، ولأننا كنا جوعى، فقد التهمنا الوجبة الشهية من الأرز ولحم الضأن التهاماً، وقد وضعت أمامنا، على طبق كبير مرتفع لم أر مثله بهذا الارتفاع إطلاقاً. وعندما انتهى العشاء[2]، أويت إلى سطح المنزل البارد لأستريح وأقرأ حتى يحين وقت النوم.

(١) لمزيد من التفصيلات عن أسماء أحياء وقرى وهجر بريدة، انظر: محمد الربدي، بريدة، ج٢، ص ٣٩٢-٣٩٣، الهويمل، بريدة، ص ٥١-٥٧. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من المعلومات عن الحياة الاجتماعية في بريدة، انظر: الهويمل، بريدة، ص ١٢٩ وما بعدها. (ابن جريس).

الفصل الرابع

العودة للوطن

١- مفاجأة مذهلة

٢- الزلفي

٣- الأرطاوية - منبع الأخوان

٤- الطريق الصحراوي

٥- الكويت

الفصل الرابع

العودة للوطن

١ـ مفاجأة مذهلة

بزغ فجر الثاني من أكتوبر يوماً جميلاً صافياً من الغيوم كما قد يتمناه المرء، بنسيم عليل بارد من الشمال يهز نخيل بريدة تحت سماء مشرقة. ومع ذلك كان بالنسبة لي يوماً من الغيظ والمرارة، فلم يكن ابن سعود قد وصل بعد من الطرفية، ولم يكن هناك شيء من أحوالي يوحي بأن إقامتي المؤقتة في الجزيرة العربية تقترب من النهاية.

جاء عباس الفلجي زائراً في الصباح بغرض ترتيب زيارته المرتقبة لبغداد، حيث سيكون بحاجة إلى خطابات تزكية. وقد تفاديت طلبه على أمل أن أتمتع أكثر بصحبته في الأيام القادمة. فسوف أزور بيته وربما أتمكن من الدخول في بيت أصدقائه، لقد كان هو نفسه شديد التذلل والخنوع لدرجة منفرة، ولكني أردت أن أذيب الثلج الذي يغطي المياه الراكدة في مجتمع بريدة، الذي يخفي الحلاوة والعذوبة التي يدركها المرء بصورة كافية تماماً في المواكب المتصلة التي تنتشر منه إلى أطراف الدنيا بغداد، ودمشق، والقاهرة. وقد أخذته على حين غرّة باتهامي الصريح لمجتمع بريدة بأنه لم يعاملني بأهمية أو اعتبار أو لطف كما ينبغي لمثل قوة عظمى التي على كرمها وحمايتها يعتمد الكثير من مواطنيه في رخائهم وازدهارهم(١). فأجاب: "يا سعادة الصاحب !! إن سعادتكم يعلم أننا كلنا لسنا متساوين وأقلهم أنا". لقد كنت مستعداً

(١) أعتقد أن هذا ادعاء باطل من فيلبي فلم يعرف عن بلدة (بريطانيا) إلاّ التسلط والاحتلال لبلدان الأرض، وابتزاز ثرواتها وإهانة سكانها (ابن جريس).

لخوض تجربة جديدة، ولكن انقطع حبل حديثنا بوصول حقيبة البريد من الكويت. ولم نتقابل مرة أخرى أبداً ولا أدري إن كان قد ذهب إلى العراق على الإطلاق أم لا.

وفي محتويات حقيبة البريد أشد الخطابات فزعاً وإحباطاً أتلقاها منذ أن بدأت مهمتي، ففي الحقيقة كانت الأوامر التي تلقيتها، ما لم تُعدّل بصورة أساسية أو تلغ تماماً تساوي إنهاء تلك المهمة. لقد صعقت واغتظت غيظاً شديداً وأنا ضعيف أمام حماقة حكومتي. فقد قررت حكومة جلالته أنهم لم يعودوا بحاجة إلى أن يمضي ابن سعود قُدماً في حملته العسكرية ضد حائل خشية أن يكدر نجاحه مزاج الملك حسين. والحجة كانت على ما يبدو أن تعكير مزاجه قد يعرّض تقدم حملة لورانس العسكرية في سوريا للخطر، ولكننا الآن نعلم أن هذه الحجة يصعب تأييدها أو الدفاع عنها؛ لأن لورانس وفيصل قد تشاجرا مع الطاغية العجوز عبر أسلاك البرق من أبي اللسان، وأنهما قد انضما إلى جيش اللنبي، ومهما يكن من أمر، فقد توصلت حكومة جلالته إلى هذا القرار، وتبعاً لذلك قررت أيضاً سحب هدية من ألف بندقية وما يقابلها من الذخيرة التي سُلمت من قبل فعلاً لعبدالله النفيسي وكيل ابن سعود في الكويت، بدلاً من الهدية السابقة من البنادق عديمة القيمة من طراز ونشستر التي ألقى عليها العاهل الوهابي نظرة كئيبة وصريحة بما يُخزي المتبرعين. ولا يمكن أن يكون هناك عذر لمثل هذا الإجراء من سحب هدية منحت سلفاً. وأخيراً قيل: إن المندوب السامي في القاهرة يعارض بشدة اقتراحاً، يروق للحكومة للبريطانية، بإرسال لجنة بريطانية لبحث وتسوية مسألة حدود الخرمة. في ضوء التطورات اللاحقة خلال عقد مليء بالأحداث، فقد كان من مصلحة ابن سعود أن مستشاري الحكومة البريطانية يقودهم الجهل والتحيّز[1].

---

(١) لمزيد من الإيضاح عن سير الأحداث السياسية في الجزيرة العربية أثناء هذه الرحلة لفيلبي (١٣٣٦هـ/١٩١٨م)، وما هي مواقف الحكومة البريطانية من القوى السياسية، في الجزيرة العربية، وبخاصة من الأشراف في الحجاز، وابن سعود في نجد، وابن الرشيد في حائل، انظر: لوريمر، ص ٥٢٥ وما بعدها، إيفبيسون، ص ٦٩ وما بعدها. (ابن جريس).

وبحلول الوقت الذي رأيت فيه ابن سعود بعد عودته في وقت لاحق من اليوم كان قد تلقى وقرأ تقرير وكيله في الكويت عن حجز البنادق ومصادرتها، ولم يكن في أفضل حالاته المزاجية لأقدم له كأس المرارة الذي أمرت أن أكرهه عليه. واشتكى بمرارة من كل قلبه من حكومة صاحب الجلالة.

فقال: "من بعد هذا سوف يضع ثقته فيكم؟ إنني لم أرد أن أهاجم حائل وأنتم ألححتم عليّ لفعل ذلك. والآن تقول لي توقف. وتجعلني موضع سخرية من قومي أنفسهم بتزويدي بأسلحة عديمة القيمة، في حين الآن تضيف جرحاً إلى الإهانة بسحب البنادق الصالحة للخدمة التي قدمتموها بديلاً عن سابقتها". وهكذا عدنا إلى كل الحجج القديمة في المناقشات السابقة مرة أخرى بلا مواربة من ابن سعود لاستيائه وشعوره بالخزي والعار، بينما لم يكن عندي ساق أقف عليها ولا شيء أرد به.

إن كفاحي الطويل لرسم صورة حقيقية وعادلة لجزيرة العرب الوهابية قد باء بالفشل، ولكن لم يكن في ذهني أدنى شك في أن حكومة صاحب الجلالة، وهي تضع خططها خلف ستارة دخانية معتمة من سوء الفهم، قد دخلت في مسار من الزلل والخطأ سوف يؤدي بها إلى تبعات لم تحلم بها. وهناك أمل واحد فقط في تفادي هذه التبعات، ولكن هذا الأمل يكمن في استخدام القوات البريطانية بالجزيرة العربية وهذا مسار لم يرق، إلا بعد انقضاء مدة قصيرة من (١٩١٩م)[1]، لأولئك الذين كانوا في كرسي السلطة. في الوقت الحالي كان خطي واضحاً. فلا يمكن أن أقبل السياسة التي أمرت أن أنقلها إلى ابن سعود بصفتها نهائية أو مرضية. وعرضت أن أذهب في الحال إلى بغداد لأرى ما يمكن عمله ووافق مضيفي على اقتراحي. وأردف قائلاً: "وإذا رفضت حكومتكم تعديل سياستها، فما من فائدة من عودتك. إنني سوف أريهم ماذا يمكن أن أفعل. والله!! إنه الشريف المسؤول عن هذه

(١) (١٩١٩م) يقابل هذا العام بالهجري عام (١٣٣٨م). (ابن جريس).

الضربة الموجهة لي. لقد خدع تماماً حكام مصر، ولسوف أهاجمه إذا أصرت حكومتك على مسايرته في التعامل معي بسوء"[١].

وهكذا خرجت من حضرته بقرار مغادرتي يوم الرابع من أكتوبر. وفي اليوم التالي تأجل لقائي مع ابن سعود حتى وقت متأخر من المساء. تم اللقاء فوق سقف جناحه الخاص في القصر. وقد تجنب كل مناقشة للموضوعات التي كانت تشغل بالنا بالأمس. وبعد بعض الحديث العام أرسل لاستدعاء رشيد ومترك، اللذين سيكونان مسؤولين عن السفر للكويت. ولم أهتم كثيراً بالتعليمات المفصلة التي زودهما بها للعمل كأدلاء؛ لأنني كنت أدرك أن ذلك سوف يخضع للعراقيل التي قد يسببها رفاقي، وبالتالي فإن أمر السير سيكون خاضعاً لرأيي. وتركت ابن سعود لأكمل حزم أمتعتي وفي الصباح التالي أوقظت عند الفجر.

لم يكن عندي أي رغبة غير الرحيل، وكنت على أهبة الاستعداد قبل السادسة صباحاً. وبعد ذلك بساعتين كنت ما أزال أنتظر بفارغ الصبر تجميع الإبل وتحميلها، وفي هذه المرحلة استدعيت لمقابلة الوداع. هذا اللقاء لم يحدث في القاعة الكبرى الجديدة، حيث يستقبل ابن سعود الضيوف عادة، ولكن في غرفة تعرف باسم "المجلس القديم" وهو شقة ذات تهوية جيدة مفتوحة للنسائم العليلة الآتية من الجهة الشمالية حيث توجد شرفة فيها أعمدة. كنا بمفردنا، وأرسل ابن سعود، بكياسة تميز بها كثيراً بما فيها من السحر والجاذبية[٢]، في طلب الفطور، الذي تناولناه معاً، وجبة

(١) يسعى الملك عبدالعزيز أثناء توجيه كلامه إلى فيلبي، أن يقوم الأخير بنقل ما سمع إلى حكومته بريطانيا. وهذا القول من الملك عبدالعزيز يدل على عزمه وإصراره في مهاجمة أعدائه كالشريف في الحجاز وغيره بأجزاء الجزيرة العربية. كما أن وضوح مبادئه وأهدافه، ثم عمق إيمانه بالله جعله يقول رأيه بوضوح وصراحة حتى ولو كان مع بعض القوى الكبرى في ذلك الوقت. (ابن جريس).

(٢) امتاز الملك عبدالعزيز بالكثير من الصفات الأخلاقية الحميدة، إلى جانب الذكاء وقدرته على التعامل مع الأمور حسب ظروفها وملابساتها. وهذا فيلبي يشهد له ببعض صفات الحنكة والحكمة ليس في كتابه هذا، ولكن في عموم كتبه ودراساته عن الجزيرة العربية. (ابن جريس).

مقتصدة من الأرز المطبوخ بالزبد مع التمر. ثم ناقشنا أمور الدولة بجد حقيقي؛ لأن بيانات ابن سعود الأخيرة قد فهمت عن عمد على أنها إنذار. إن مستقبله كله كان على خطر، وكان بحق يرغب في اتباع طريق الصداقة مع بريطانيا العظمى.

وقال ابن سعود: «أكد لهم، نيابة عني، أن حكومة صاحب الجلالة يجب أن تتبنى واحداً من خطين في السياسة، لأنه لا يوجد بديل عنهما سوف يرضيني. دعهم، إن أرادوا، أن يتركوني وشأني مع ضمان امتناع جميع الدول المتحالفة معهم عن انتهاك حقوقي أو بلادي، لا أرغب في أكثر من أن أعيش بسلام في بلادي، وإذا تركت بسلام أتعهد من جانبي أن أظل هادئاً. أو دعهم يحافظون على التحالف النشيط الحالي بيننا ضد أعدائهم وأعدائي وأتعهد بأن أعطيهم الرضا مقابل الأسلحة والمال. ولكن بالنسبة لابن رشيد، لا أستطيع أن ألزم نفسي بالتراخي في هذا الاتجاه إلا إذا كانت حكومتك مستعدة لأن تضمن عدم هجومه هو أو رجال قبيلته، لكن تذكر، أن الضمان لا ينبغي أن يكون من النوع الذي أعرفه تمام المعرفة من تجربتي مع اعتداءات الشريف والعجمان[1]. بالنسبة للأول فقد أعطيت ضماني من زمن طويل لأهل الخرمة أنهم لن يهاجموا مرة أخرى، وقد هاجمهم الشريف؛ لذلك الآن سوف أنفذ وعدي بالمساندة ما لم تكن الحكومة البريطانية مستعدة لقبول واحد أو آخر من البديلين اللذين شرحتهما لك[2]. الاختيار من رأيي، تذكر، أنني قلق من رعاياي، لأنني حتى الآن قد وقفت وحدي ضد ميولهم الطبيعية،

(١) لمزيد من التفصيلات عن الصراعات بين ابن سعود والشريف في الحجاز وقبائل العجمان في الخليج العربي. انظر: السعدون، ص١٧٠-١٧٨، أمين الريحاني. نجد وملحقاتها (بيروت، ١٩٦٤م) ص ٢٢٥، سعود بن هذلول، ص ١٠٥، عبدالعزيز الرشيد، تاريخ الكويت، ص ٢١٤، خزعل، ج٢، ص ٢١٧، حافظ وهبة، جزيرة العرب، ٢٣٩ العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ص ١٨١ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) سياسة ابن سعود كانت واضحة في إبلاغ رسالته إلى البريطانيين مع ممثلهم فيلبي، عندما عزم، هذا الأخير على العودة من القصيم إلى بغداد ليطلع على خطط وسياسات الحكومة البريطانية تجاه ابن سعود وغيره من القوى الأخرى في الجزيرة العربية. (ابن جريس).

وأقنعتهم أن الصداقة البريطانية لمصلحتهم المطلقة. لكن ماذا أستطيع أن أقول لهم الآن؟ من سوف يثق فيكم مرة أخرى بعد هذا؟".

ثم، لتخفيف الضغط عن مشاعره المكبوتة، تحول للحديث ببراعة عني حيث عبّر عن أسفه لرحيلي بكلمات ودودة مؤثرة ورغبة صادقة في عودتي إليه مرة أخرى بعد أن أعيد الأمور إلى نصابها مع الحكومة البريطانية. وأردف قائلاً: "لكن إذا لم تستطع أن ترتب هذه الأمور لا ترجع، لأنني لن أستطيع بعد ذلك أن أصمد أمام مشاعر وتقديرات شعبي، ولن أقبل مندوباً آخر"(١).

أجبته بأنني سوف أبذل قصارى جهدي واستأذنت منه بقلب يجيش بالإحباط الثقيل من الكارثة التي حطمت عمل سنة كاملة في لحظة كانت عندها كل العوائق للنجاح تبدو مذللة. لقد كان من المحتمل، في أقصى حدود علمي، أن يكون هذا الوداع نهائياً، ذلك عندما ودعته وخرجت من حضرته المهيبة الودودة إلى الإبل التي تنتظر في الخارج لتحملني في رحلة ربما تكون الأخيرة لي في جزيرة العرب، عندما كانت الأمور تسير على خير وجه كنت نادراً ما أدرك التعب والقلق الذي صاحب مهمتي في أرض المتعصبين الذين، بالبغض الشديد الخفي وأحياناً بالتصريح غير الموارب بكرههم للكافر بين ظهرانيهم، قد جعلوا حياتي وحيدة وكئيبة، ولم يخفف من وطأتها ويجعلها محتملة إلا الصداقة الثابتة مع ابن سعود(٢). ثم الشعور بالنجاح

(١) يتضح من هذا القول لفيلبي، أثناء عودته إلى ممثلي حكومته في العراق بعض الأمور منها:

١- رغبة الملك عبدالعزيز في عودة فيلبي إلى الجزيرة العربية، وصرح له بذلك. وهذا مما جعل فيلبي يعود ويبقى في جزيرة العرب حوالي أربعين سنة زينّها بكتاباته ودراساته المختلفة.

٢- أوصل الملك عبدالعزيز الرسالة بوضوح إلى فيلبي، الذي أكد عليه توضيح الصورة لحكومته حتى تسانده، وإذا لم يستطع إقناعها فأخبره بعدم العودة إليه، لأن رجوعه دون نتائج إيجابية لا قيمة له عنده. (ابن جريس).

(٢) اعترافات من فيلبي أنه كان يواجه مشكلات عديدة مع سكان الجزيرة العربية، لأنهم كانوا ينظرون إليه أنه على ملة الكفر، ولكن ابن سعود عرف قيمة هذا الرجل العلمية والسياسية فاستقبله وسانده، وهذا مما جعله يفضل البقاء في الجزيرة العربية لمدة طويلة. (ابن جريس).

الذي انطوت عليه، وبالإثارة التي نشأت من الفرص التي مكنتني من الترحال بطول وعرض بلاد الوهابيين، من الشرق للغرب ومن الجنوب للشمال. بيد أنني كنت الآن أشعر بالتعب، وسررت عندما أدركت أن وجهتي الآن نحو الوطن. في ساحة الجردة المفتوحة لم أجد سوى ثلاثة من الجماعة المرافقين لي مستعدين للانطلاق، ولأنني لست في وضع يطيق التأخير، فقد ركبت وانطلقت معهم، تاركاً الباقين ليتبعونا إذا أرادوا. ولم ينضم إلينا الجزء الرئيس من القافلة إلا بعد أن توقفنا للراحة في أول ليلة، وبحلول هذا الوقت كان روتين الترحال والعمل الجغرافي قد خفف من حدة الألم بداخلي بنسيان الهموم الأخرى.

٢ـ الزلفي[(١)]

كان رفاقي الثلاثة في هذه المرحلة الأولى من سيرنا الطويل هم مروج وهو عبدٌ من أهل البيت الملكي ومن حائل أصلاً، والذي استمر الآن في خدمتي نحو ثلاثة أشهر، وخزيم، وهو شمري من فخذ أسلم، والذي من واجبه أن يكفلنا في حالة وقوع اشتباك مع الجماعات المغيرة من قبيلته، ورشيد من قبيلة الرشيدي، وهي قبيلة ترتبط بعلاقات مصاهرة مع مطير تحت الشيخ أضعان ويؤدي وظيفتين مزدوجتين بصفة دليل ورفيق. وهذان الرجلان لم يكونا معروفين لي من قبل.

تركنا بريدة من البوابة الشرقية، ومشينا في اتجاه شرقي نحو برج حراسة الرفيعة، وبعدما سرنا في الأرض التي ذكرناها آنفاً خلال رحلتي قبل أيام قليلة من الطرفية، مشينا وسط بستان نخيل خب القبر حتى وصلنا إلى السهل الطيني بعده. والآن بعد سير لمدة ساعة جئنا إلى أول جبل في النفود الحقيقية، التي تمتد بموجات من الرمل الناعم بيننا وبين وادي الرمة. من المرتفع الثاني رأينا قصر

(١) لمزيد من التفصيلات عن بلدة الزلفي تاريخياً وحضارياً، انظر: عبدالرزاق السعودي، الزلفي (مطبوعات رعاية الشباب بالرياض)، ص ١٣ وما بعدها. (ابن جريس).

ومزارع الطعمية في الوادي نفسه تحتنا نحو الجنوب نسبياً من الشرق، بينما على مسافة بعيدة أمامنا وراء بحر عظيم من الرمل ظهرت الخطوط الداكنة لمرتفعي مستوِي وخرطم الصخريين، والأخير كان إلى اليمين نسبياً من اتجاهنا، بينما الأول يبين موقع هدفنا الأول، واحة الشماسية.

من آخر جبل مألوف نزلنا على منحدر بسيط في التربة الصلبة بقاع الوادي، حيث كان الدرب واضحاً تماماً أثناء مروره بين رواب متناثرة قاصية من رمل النفود. وعلى بُعد ثلاثة أميال تقريباً نحو الجنوب جنوب شرق توجد أكواخ قليلة وبستان نخيل ضليّم أسفل مرعى جبل خرطم، حيث يتاخم الأخير الوادي. ثم عند المرور على مسافة ميل تقريباً من قصور الطعمية دخلنا في منطقة من التلال الرملية المكسية بالرمث والتي سرنا خلالها بصورة ملتوية عبر الوادي الذي من ضفته اليمنى كانت بقع من الرمل المغطى بالحصى الأسود تتداخل في خط سيرنا. ويبلغ عرض القناة نحو ثلاثة أرباع الميل وفي أماكن أخرى يتراوح بين مئات قليلة من الياردات وميلين. وأكبر عرض لها كان في حوض سهل الدهورة الطيني الكبير، الذي يظهر أنه نقطة التقاء لما لا يقل عن قناتين مختلفتين. وأصبح سطح هذا الحوض أكثر وعورة بسبب قشرة خفيفة من ذرات الملح كلما تقدم سيرنا نحو الشرق إلى نفود صعفج التي وصلناها من وادي الرمة. هذا الحزام من رمل النفود يشكل الضفة اليمنى من الوادي بين ضليم عند الطرف الشمالي من جبل خرطم والنبقية عند الطرف الشمالي من جبل مستوِي. ويمتد إلى الجنوب دون انقطاع ـ كما قالوا ـ بين منطقتي الصفراء هاتين حتى مروى الشريمية على بُعد حوالي ثلاثين ميلاً جنوب الشماسية، حيث إن رمال نفود الثويرات الواقعة شرق جبل مستوِي، تلتقي به لتشكل الحزام الرملي المعروف باسم نفود شقراء أو بتراء. وتتكون منطقة وادي الرمة هذه من صخر رملي متحلل أو في طور التحلل. ولمسافة ميلين مشينا على تل متموج مغطى بكل ما في الكلمة من معان بشجيرات الغضا وبقع من الرمث المالح والأرطي المتشابكة، حتى دخلنا منطقة نفود أكثر ارتفاعاً وتجرداً، تمتد شمالاً وجنوباً ولكنها مضلعة بجبال

متعارضة من الرمل الذي كان محوره شرق وغرب ، ومكشوفة لرياح الشمال. في هذا الجزء لا توجد النباتات إلا في بقع ضئيلة في التجاويف أو المنخفضات. ومن قمة هذه النفود أو بالأحرى من ورائها نسبياً، ظهرت أولى بساتين نخيل الشماسية للعيان، ومن خلفها الحاجز الأسود لجبل مستوٍي، الذي يبدو أنه الآن يتكون من جرف متدرج مع رف مسطح عرضه نحو ربع ميل، يربط قمة القطاع الأول مع سفح القطاع الثاني منه. والواحة نفسها تقع في قناة بين رمال النفود والقطاع الأول.

بعد الساعة الثانية ظهراً بقليل، وبعد أن قطعنا نحو خمسة عشر ميلاً، خيمنا في القسم المتوسط من الواحة. ودُعينا على القهوة في مجلس رجل من المحررين يقيم في القرية، وكان مجلساً قذراً بسيطاً من الجدران الطينية المسودة بالدخان ودون زخرفة. لقد كان مضيفنا وأصدقاؤه القليلون الذين جاؤوا ليسلموا علينا في منتهى الود وذوي نزعات خيرة بصورة فذة. إن أهل القرية، كما قالوا لنا، معظمهم من العبيد المحررين، ويعملون مستأجرين لدى أصحاب الأراضي من بني تميم الذين جاؤوا أصلاً من الوشم[1]، والأمير المحلي واحدٌ يدعى ابن فوزان. وربما يكون عدد السكان حوالي خمس مئة نسمة متناثرين في مساحة كبيرة في عدد من القرى تغطي نحو ميل. عند الطرفين الشمالي والجنوبي من المنطقة المأهولة تقع قرى صغيرة تشبه إلى حد كبير القصور المتامية، ذات أسوار وأبراج، بينما القرية الوسطى دون سور ومن الأكواخ الطينية البسيطة. بدت بساتين النخيل أقل ازدهاراً من تلك التي في روضة الربيعية وربما غرست بعدها وإنتاج البساتين الرئيسة من نوع التمر مكتومي[1]، الذي اشترينا منه تلاً بدولار واحد. والقسم الجنوبي كان

(١) للاطلاع على تفصيلات أكثر عن قبيلة بني تميم ومواطنهم في نجد وفروعهم، انظر: حمد الحقيل، كنز، ص ١٥٥-١٦٦. (ابن جريس).

(٢) مكتومي: نوع من أنواع التمور، ولونه في الغالب أحمر أو أصفر، ويؤكل رطباً، وهو لذيذ الطعم. ويوجد في بلاد الزلفي وما حولها من بلاد القصيم أكثر من ستين نوعاً من التمور، للمزيد انظر: عبدالرزاق المسعودي، الزلفي، ص ١٢٢-١٢٤. (ابن جريس).

الجزء الأشد ازدهاراً من المنطقة المأهولة، وعمق الآبار يتراوح بين عشر وأربع عشرة قامة، غاطسة في طبقة تحتية من الصخور الرملية الصلبة وغير مبطنة بالحجارة إلا في ستة إلى عشرة أقدام نازلة. والماء فيها عذب وغزير، وتستخدم الإبل والأبقار بصورة عامة لسحبه من أجل أغراض الري، بينما كانت أفضل بئر، حيث نصبنا خيامنا بجوارها تعمل يدوياً فقط لغرض محصور في إمداد مياه الشرب. وحفر آبار الري بشكل عام مستطيلة طولها (١٢) قدماً وعرضها ستة أقدام ويوضع في البناء العلوي منها دولابان أو أربعة على الأكثر. وعلف حيوانات الآبار كان وفيراً، في معظمه من حشائش النوصي (النوصي) الممتازة والمنتشرة في نفود الثويرات، التي اشترينا منها حمل جملٍ كاملاً بثمانية دولارات.

هناك عدد من المزارع المتناثرة على مسافات متفاوتة في المنطقة المأهولة يمكن أن تعد ضواحي الشماسية، ومنها بالتحديد الرويضة، وهي مجموعة من القصور في مساحة من حقول الذرة على بُعد نصف ميل نحو الجنوب، وقصور البرجسية على بُعد ميلين في الاتجاه نفسه، وتلك الموجودة في الدويحرة على بُعد ميل إضافي نحو الجنوب، التي يمر عبرها درب القوافل من عنيزة إلى الزلفي. وكل هذه المزارع النائية يزرعها ناس من الشماسية نفسها، الذين يديرون أيضاً رقعتين من حقول الذرة على بُعد ميل نحو الجنوب التي توجد بها مجموعة من القصور. ويرتفع برج حراسة يسمى الأبرق لا يمكن رؤيته من مخيمنا، وهو ينتصب فوق الجرف على بُعد ميلين في اتجاه روضة الربيعية، ويطل برج آخر مماثل على الطرف الجنوبي من الواحة[١].

وقد قيل لنا إن هذه المنطقة المأهولة أقدم من بريدة نفسها، وهي قد أخذت اسمها من قرية الشماس المتهدمة الآن خارج أسوار المدينة في جهة الشمال.

---

(١) للمزيد من الاطلاع على بلدة الربيعية، انظر: عبدالعزيز السنيدي، الربيعية، ص ٢١ وما بعدها. (ابن جريس).

ويحتمل، بناءً على ذلك، أن يكون المستأجرون من العبيد المحررين قد جاؤوا من هناك بدعوة من أصحاب الأرض وجلبوا معهم اسم قريتهم.

لقد كنت أتمنى أن ننطلق انطلاقة مبكرة في الصباح التالي، لكن الشمس كانت في كبد السماء قبل أن نبدأ التحرك لمسير يوم كامل لمسافة ستة وعشرين ميلاً تقريباً. لم يمثل صعود أول جرف أي صعوبة لنا، ولكن الثاني لا يمكن التغلب عليه إلا بالسير في صف واحد طويل صاعدين منحدراً حاداً تتناثر فيه جلاميد مفككة صغيرة من الحجر الرملي. وفي ربع ساعة تمكنا من الوصول إلى قمة الجبل، وهناك برزت لعيوننا مشاهد واسعة من المنظر الكئيب المخيف، ففي الأسفل منا تقع المستطيلات الرائعة لبساتين نخيل الشماسية وقراها، ووراءها يمتد النفود لمسافة تنقطع في منتصفها بقناة وادي الرمة. وأمامنا يقع سهل أجرد منبسط من الصخور الرملية يغطي سطحه طبقة جيرية متكسرة هنا وهناك، وبعده ظهر الخط الطويل الأصفر لنفود الثويرات.

ينحدر القفر برفق نحو الشرق، ويقطعه بالعرض مجرى ضيق لقاع سيل يتجه عائداً إلى قناة الشماسية. وبعدها أصبح سطح الأرض وعراً وقاسياً تتناثر فيه بقع من الحجارة والحصباء تضفي عليه تنوعاً يخفف من الرتابة. وكلما تقدمنا يفسح هذا المجال لمنطقة من المرتفعات المتموجة مع جبال من الصخر ومنخفضات صخرية جرداء، تتجه بصورة عامة من الجنوب للشمال داخلة في وادي الرمة أو للشرق في قناة مستوِي أمامنا. ومشينا بجوار تل من الجلاميد السوداء العظيمة والتزمنا منخفض وادٍ صخري عرضه مئتا ياردة، ويمتد خلال سلسلة من الجبال المتقاطعة، كل واحد منها أقل نسبياً من سابقه. وفي وسطها صادفنا بقعة تعرف باسم رجوم الشيوخ[1]، ومنذ سنوات عدة مضت كان ابن سعود قد نصب خيامه هنا خلال

(١) رجوم الشيوخ: أي صخرات الشيوخ. والرجم عبارة عن صخرة، أو هضبة حجرية تسمى بهذا الاسم. (ابن جريس).

أحداث غزوة هجومية ضد شمر. إن موقد قهوته المؤقت من حجارة الصحراء لا يزال باقياً ليروي قصتها، وكذلك الدوائر المرتفعة التي تبين مواقع الخيام أو الملاجئ، وأحياناً تضفي نتوءات من الصخر الأسود تنوعاً على المنظر كلما نزلنا، عابرين أو نعيد عبور قاع شعيب صغير، في وادي مستوى عند تل برومة الأسود.

إن مستوِي في الحقيقة ليس أقرب إلى الوادي من السهل، فعرضه يبلغ ثلاثة أميال، ويشكل مرحلة انتقالية من الصخر الرملي في الصفراء من ورائنا إلى رمال النفود أمامنا. وكان عبورنا في منطقة مجاورة لمستجمع أمطار تتصرف منه مياه السهل على التوالي شمالاً وجنوباً نحو وادي الرمة، وحوض معشوشب بالنباتات مساحته نحو خمسة عشر إلى عشرين ميلاً باتجاه الجنوب يُعرف باسم أرمح. ويتكون سطح الأرض، الذي يظهر عليه في بعض الأجزاء علامات من فيضانات سابقة، من الطين الرملي تتناثر فيه حصباء سوداء وشظايا من الصخر الرملي مع جبال سوداء ناتئة، توجد فيها بقع من الصخر الأحمر الداكن.

وكلما اقتربنا من النفود، التي تمتد أمامنا في قوس مترامٍ لمسافات بعيدة الذي تلتف أطرافه حولنا، كان هناك غطاء هزيل من الرمل فوق الطين الأحمر مع شجيرات العرفج الغزيرة. وفي وسطها تناولنا طعام الفطور على أول جبل رملي منخفض. وخلال الميلين الأولين كان السير يسيراً بدرجة كافية، وبحر الرمال منقطاً بجزر من الصخر الأسود وثنايا من الطين المنخفض الأجرد. ثم سرنا داخلين في النفود الحقيقية ذات الرمل الأحمر، موجة فوق موجة وفي وسطها صادفنا جماعة من الصلبة قادمين من المجمعة[1]، رجالاً ونساءً يكابدون المشاق عبر الرمل المجهد وهم على حمير من سلالة غريبة خاصة بهم. ومعهم رجل يُدعى أبو حمزة، طاعن

(١) بلدة المجمعة تبعد عن مدينة الرياض تجاه الشمال الغربي بحوالي (١٧٥) كم. وتعتبر المركز الإداري لمنطقة سدير، تعرض لذكرها بعض المؤرخين العرب، وكذلك الرحالة الأجانب. للمزيد، انظر: عبدالكريم بن حمد الحقيل. المجمعة (الرياض: مطابع الفرزدق، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م)، ص ١٨ وما بعدها. (ابن جريس).

في السن ذو شهرة محلية بأنه متسول محترف ومن أهل الرس[١]. إلى أين يتجهون؟ لا أعلم، لأننا لم نضيع وقتاً معهم أكثر مما استغرق توزيع دولارات قليلة كانت من حظهم، له هو ولبعض النسوة اللائي جئن معه يتسولن. ومقابل ذلك أخبرنا ببعض القرى الصغيرة التي تحتضنها رمال هذه النفود وهي قرى من بساتين النخل تضم ثوير التي أعطت اسمها للقفر الرملي الثويرات، والمنسق والقصيبة بيننا وبين الوادي الكبير، وآبار الأرطاوية (لا يجوز الخلط بينها وبين قرية الإخوان بالإسم نفسه) والحمودية نحو الجنوب والشمال من الزلفي على التوالي[٢].

ثم واصلنا سيرنا طالعين نازلين جبل بعد جبلاً من الرمال العميقة، الحمراء الجرداء، وكنا نمر أحياناً على منخفضات من الطين. وبصورة عامة تبدو محاور الموجات ممتدة شمالاً وجنوباً، ولكن لم يكن هناك انتظام حسابي (رياضي) مما سبب إحساساً بالارتباك إلى أن دخلنا ـ بعد صلاة العصر ـ أعلى وأكبر قسم من النفود، شريط زليغيف المكوّن من الجبال الشاهقة ذات الرمل الأحمر الصافي التي تفصل بينها أودية عميقة تتجه من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي. كانت القمم ترتفع لنحو ثلاث مئة قدم فوق قيعان الأودية التي امتد سيرنا فيها حتى الممرات المؤدية بين الآكام العالية من واحد إلى آخر، وهكذا أتينا إلى بستان نخيل العبد الصغير وتوقفنا عنده وهو في قاع طيني مستدير.

وهنا توجد قلة من الأبراج الطينية التي تأوي نحو عشرين من المستأجرين الذين يزرعون خمسة عشر فداناً من النخيل لمصلحة ملاك يقطنون في الزلفي[٣].

---

(١) للمزيد عن تاريخ وحضارة بلدة الرس في القصيم، انظر: عبدالله الرشيد، الرس، ص ١٦ وما بعدها (ابن جريس).

(٢) القرى الأخرى التي ذكرت أسماؤها لي كانت: جنوب الطريق الرئيس: علقة ومر وكلاهما بستانا نخيل مع قصر أو قصرين، ونحو الشمال زحلولة وإثيلة ورجمية وروحية وحضية وأم أرطي ونثيل وحرارة وقويع وأبو طرقة. (فيلبي).

(٣) للاطلاع على معلومات أكثر من تاريخ وجغرافية الزلفي، انظر: عبدالرزاق المسعود، الزلفي، ص ٢١ وما بعدها. (ابن جريس).

وقد انضم بعضهم إلينا ليشربوا القهوة وليجلبوا لنا تموينا من تمور الخضري المحلية التي تشتهر بأنها تسبب الاحترار. وكانت الحيوانات التي تحمل عفشنا، بسبب ثقل السير، قد وصلت متأخرة عنا بمدة طويلة، ولكننا استطعنا أن نشتري تيساً من راع محلي لعشائنا، الذي شاركنا فيه اثنان من القادمين الجدد اللذين لحقا بنا ومعهما رسالة من ابن سعود خلال النهار. أحد هذين الرجلين يُدعى زبارة صديق حربي قديم من أيام رحلتي للحجاز، والآخر بالتأكيد مطيري، يُقال له دابي والذي أرسل لينضم إليّ رفيقاً إضافياً، ولكنه، إما بسبب الفظاظة الفطرية في مزاجه أو بسبب التحيز الديني، جفاني عن عمد وحرص طول النهار على الابتعاد عني إذ لم يجلس بالقرب مني حتى على الطعام. ولا يلومن إلا نفسه على ضياع أفضل اللحم منه. كان رشيد، الذي أرشدنا حتى الآن، قليل المعرفة بجغرافية المنطقة، علاوة على الطريق نفسه. وهو يستمع بتذلل وخنوع لمناشدتي المتكررة لتوفير أدلة أكفاء دون أن يبدي نية للوفاء بطلباتي. على العموم كان هذا اليوم من السير خلال النفود قد أثار كل انفعالاتنا وشعرت فيه بالتعب قليلاً من رفاقي.

بالإضافة إلى رقعة النخيل المستديرة الرئيسة المذكورة آنفاً تضم قرية نخيل العبد مجموعة هزيلة من النخيل القريبة منها جهة الشمال مع برج حراسة رائع المنظر على المنحدر الرملي الفاصل بين القسمين. إن المياه الجوفية هنا شديدة القرب من سطح الأرض لدرجة أن النخيل الذي يمتص الرطوبة بجذوره لا يحتاج للري، بينما يسحب ماء الشرب من الثمايل[1] غير المبطنة التي لا يزيد عمقها عن قامة واحدة. لقد كانت قرية صغيرة غريبة مثل الأخريات الكثيرة غيرها في قلب النفود، ضخمة ورائعة مثل أي قرية يمكن أن ترى في الجزيرة العربية. إن فضلها

(١) الثمايل جمع ثميلة، ويقصد بها حفرة ماء (فيلبي). وقد تسمى في بعض أجزاء جنوب الجزيرة العربية بأسماء عديدة مثل: (ركية)، أو (وقرة) وأحياناً تلفظ (وكره) والاسم الأول أصح. (ابن جريس).

في إنقاذ حياة المسافرين يكمن في أن الطريق الرئيس الممتد في معظم أجزائه في منخفض أو سلسلة منخفضات وليس فيه إلا القليل من الجبال التي لا تمثل صعوبة تذكر. ويبلغ إجمالي عرضها على طول خط الطريق من سهل مستوٍ حتى سهل الزلفي نحو ستة عشر ميلاً، تبقى لنا منها أربعة أميال تقريباً لنقطعها عندما ركبنا لنواصل سيرنا في الصباح التالي.

بعد مسافة ميل من نقطة انطلاقنا وممر منخفض فوق مرتفع رملي يفصل بينها وبين رقعتين متناثرتين من النخيل والخضراوات تقعان في منخفض ضحل على يسار الطريق الرئيس. هذه كانت تسمى حمضية التي تختلف عن نخيل العبد في أنها تتمتع بالري الاصطناعي من آبار بعمق ثلاث قامات، تعلوها أبنية السواني العلوية المعتادة. كانت فوهات هذه الآبار، غير المبطنة بخلاف ذلك، محصنة بخشب الأشجار القوي. والأبقار، التي تعمل طالعة نازلة على منحدر قصير تسحب قرب الماء لتفرغها في قنوات الري التي ينمو على امتدادها البطيخ والشمام والقرع. وقد زرعت منطقة واسعة بفسيلات النخيل الجديدة في هذه القرية خلال العام السابق ويبدو أنها تزدهر. وفي أثناء مرورنا بالقرب من بقعة نخيل صغيرة أخرى على مسافة ربع ميل جرى نحونا رجل يعمل عند أحد الآبار وأهدانا عدداً من ثمار القرع[١].

هكذا جئنا إلى أعلى جزء من زيليغف الذي كانت قممه الجرداء الكبرى من الرمل نحتتها الرياح في أخاديد تنتشر كلها من حولنا. وأمامنا برزت للعيان قمة جبل طويق، وبعد دقائق قليلة عندما خرجنا من النفود الضيق إلى سهل الزلفي كانت قرى الواحة تتناثر أمامنا، وخلفها خط من الأجراف يمتد من

(١) للاطلاع على الأوضاع الزراعية في بلاد الزلفي وما حولها، انظر: عبدالرزاق المسعودي، الزلفي، ص ١٠١-١٢٤. (ابن جريس).

مرتفع خشم جزرة في أقصى الشمال حتى اختفى عن الأنظار في أفق الجنوب البعيد[(١)].

خلال عشر دقائق وصلنا أمام أسوار الزلفي الشمالية، أقصى قرية شمالية من القريتين، وشرعنا في نصب خيامنا أمام عيون أطفال القرية وهم يحدقون فينا باستغراب ولكن بصمت. وعلى مدى الساعة التالية أو نحوها كان هناك كثير من الذهاب والإياب بين القرية ومخيمنا، فقد جُلب الحشيش وسيقان الذرة للإبل، وخروف ومواد أخرى لطعامنا، وفي تلك الأثناء حاولت التوصل إلى نتيجة مع دابي الذي لا يزال مصراً في الظاهر على عدم التعامل معي. ورداً على سؤال مباشر عن هذا الموضوع أجاب أنه لا يُكن أي نية للجفاء أو الوقاحة، على أنني قلت له إنني لم أعد بعد الآن في حاجة إلى خدماته. وأضفت قائلاً: "انظر أنت يا، إنك تعترض على كوني كافراً. لقد خلقت هكذا وإن شاء الله سوف أبقى كذلك. والحمد لله! ولكني لست محتاجاً إلى مكرك وخداعك وخيانتك على الرغم من أنه هو ابن سعود الذي تخونه. كيف أستطيع أن أوافق على بقائك معي في هذه الظروف؟". عندئذ تركته يفكر في الموقف، وسرعان ما تلقيت إجابته بعد ذلك في بيت الأمير، حيث جلس بجواري يأكل تمراً من الطبق المشترك بيننا.

كان أمير الزلفي، سلمان بن بداح[(٢)]، غائباً عن بيته في زيارة لابن سعود مع

---

(١) جزيرة: موقع قريب من نفوذ الثويرات، ويذكر أنها منهل معروف. أشار إليه بعض الشعراء القدماء في أشعارهم، فذكره متمم بن النويرة أخو قيس بن النويرة بقوله:

فيا لعبيد حله أن خيركم
بجزرة بين الدعستين مقيم

وقال السكري: جزرة ماء لبني كعب بن العنبر، وقال في شرح قول جرير:

يا أهل جزرة: لا علم فينفعكم
أو تنتهوا فينجي الخائف الحذر
يا أهل جزرة إني قد نصبت لكم
بالمنجنيق ولما يرسل الحجر

انظر: ياقوت الحموي. معجم، ج١، ص ١٢٤، المسعودي الزلفي، ص ٢٩. (ابن جريس).

(٢) سلمان بن بداح من عشيرة الروقة من عتيبة، وهناك عدد من الأمراء الذين تولوا بلدة الزلفي لكل من ابن الرشيد، ثم ابن سعود، وبعضهم من أسرة آل بداح العقيبية. للمزيد انظر: سعود بن هذلول. تاريخ ملوك آل سعود (الرياض: مطابع الرياض، ١٣٨٠هـ) ص ٣٢، عبدالرزاق المسعودي، الزلفي، ص ٢٧-٢٨. (ابن جريس).

سلفه في الوظيفة، عثمان بن عثمان، الذي كتبت عن فصله من الخدمة بسرعة في مكان آخر. خلال غياب سلمان، كان أخوه، بجاد، يتولى المهام، وهو الذي دعانا لتناول القهوة معه، مشتكياً بكرم من تقصيرنا في إشعاره بقدومنا حتى يتمكن من إعداد الفطور وقت وصولنا ودعانا على العشاء في المساء، دعوة قبلتها بسرور لأنني قررت أن أقضي اليوم مستكشفاً القرى المتنوعة في الباطن كما كان يسمى السهل. لقد كان مجلسه، على الرغم من حجمه المعقول، بسيطاً بصورة شديدة وبائساً كما تعكسه الجدران الطينية غير المشذبة السوداء من الدخان وبلا أثاث خلاف شرائط الحصير المصنوعة في الأحساء والمفروشة على أرضية من الرمل.

وحكى لنا مضيفنا عن نبع جديد اسمه السيح ذي ماء عذب، اكتشف حديثاً لراحة القوم العظيمة الذين عاشوا سنين طويلة على الماء المالح الذي لا يُعرف غيره في هذه الأصقاع. ولقد بدا من المؤكد لي أن الماء الذي أعطانا إياه كان طيباً مثل أي ماء في الجزيرة العربية. وبعد دورة أو اثنين من القهوة أحضر بجاد بنفسه حصيراً عليه كوم ضخم من الأعذاق الكبرى لتمر الحلوة الطازج، أحمر اللون مثل الخضري، ولكنه ذو شهرة أفضل منه[1]. في هذه المنطقة كانوا بالفعل قد قطعوا أعذاق التمر من النخل، على الرغم من أن الطريقة المعتادة في القصيم أن ينتظروا حتى أول مطر في الموسم. وهنا كان فصل الخريف أو الفصل الفرعي الذي يشتهر باسم الوسم لم يبدأ بعد حسب التقدير المحلي[2]، على الرغم من أن أسبوعين قد انقضيا منه في القصيم بالفعل. وسواء وجد أو لا يوجد أي تبرير طبيعي لهذا الفرق بما يقترب من شهر؛ لأن بداية الوسم ستكون قد جاءت هنا منذ عشرة أيام، في تصنيف الفصول لدى جيران شديدي القرب من بعضهم فإنني لا أستطيع أن أحكم على ذلك

(١) لمزيد من التفصيلات عن أنواع التمور في بلاد الزلفي، انظر: المسعودي، الزلفي، ص ١٢٢-١٢٤. (ابن جريس).

(٢) للاطلاع على مواسم الأمطار في جزيرة العرب، وأوقات نزولها ومسمياتها، انظر: عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. كتاب الأنواء في مواسم العرب (الهند: حيدر أباد، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م) ص ١٤ وما بعدها. (ابن جريس).

بصورة موثقة على أنه لا يساورني أي شك في أن بعض التغير الحقيقي في الأحوال المناخية قد وقع. فقد اختفى الصيف في ليلة كما لو كان بالسحر. وسجل مقياس درجة الحرارة معي درجة أقل من ٦٢ درجة فهرنهايت في الصباح الباكر، وهي أقل درجة عرفتها منذ الربيع الماضي. كما أن حر الظهر أصبح أكثر لطفاً بصورة يمكن إدراكها على الرغم من وجود النفود.

إن الزلفي والقرى حولها في سهل الباطن تشكل منطقة منفصلة ومستقلة مع تشابهها وقربها مع كل من القصيم وسدير[١] والأخيرة هذه تبدأ بصورة صحيحة عند الغاط نحو خمسة عشر ميلاً إلى الجنوب عند فوهة ممر طويق. إن قرية الشمالية أقدم هذه القرى، وسكان المنطقة، كما يتشكلون حالياً، يقال إنهم يعودون إلى خمسة أجيال مضت. ويتكونون بالكامل تقريباً من عناصر عتيبة[٢]، التي تنتمي إليها عائلتا الأمير الحالي والأمير السابق. كما أن الشمالية بسكانها البالغ عددهم حوالي ألف وخمس مئة نسمة ذات شكل دائري تقريباً، وكأنها محاطة بجدار بسبب ظهور بيوتها المتلاصقة. وعند الزوايا الناتئة توجد أبراج حراسة، وبالإضافة إلى المداخل الخلفية لبيوت مختلفة، توجد أربع بوابات عادية في جهات الشمال والشرق والجنوب والغرب على التوالي. وفي داخلها هناك انتظام شديد كأنه خطط طبقاً للتخطيط العلمي للمدن، فالشوارع مستقيمة وعرضها يتراوح من عشرة إلى خمسة عشر قدماً. ويرتفع مبنى كبير مثل الحصن عند الزاوية الجنوبية الشرقية، ولكن فيما عدا ذلك فالبيوت بسيطة ومتواضعة. وقد دخلنا القرية من البوابة الغربية لنذهب إلى بيت الأمير، وكان مصلى العيد، مسجد معتاد مبني من الطين، به

(١) تقع المجمعة، عاصمة سدير، نحو الطرف الشرقي من طويق بحوالي خمسة عشر ميلاً شرقاً أو جنوب شرق الغاط (فيلبي). للمزيد عن بلاد المجمعة، انظر: عبدالكريم الحقيل، المجمعة، ص ١٩ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من المعلومات عن قبيلة عتيبة وفروعها ومواطنها، انظر: الحقيل، كنز، ص ١٤٣-١٥٠ (ابن جريس).

صفوف من الأعمدة على عكس المساحات المفتوحة المعتادة في أماكن أخرى، يوجد خارج البوابة نفسها وغير بعيد عن مخيمنا[١].

بينما كنا نجلس متحلقين انتظاراً للقهوة جاء رجل كبير في السن من قبيلة مطير وجلس بجواري، ولكن بعد لحظات قليلة، عندما أدرك الموقف على ما يبدو، نهض فجأة وأخذ مقعده عند أبعد جهة من موقد القهوة. ولم أتمكن من معرفة ما إذا كان ذلك بسبب الاحترام أو التعصب. على كل حال فالسكان الآخرون الذين جاؤوا وانضموا إلى الجماعة عند سماع النداء من الهاون ويده يتحدثون بحرية معي وبدا أنهم خالون من أي اعتراض على وجودي، على الرغم من أنهم لم يلقوا عليّ التحية بالتحديد عند دخولهم.

وعند عودتي لخيامنا كان رشيد مدركاً النواقص الماضية في وظيفته كدليل، وفيلسوف، وصديق لي قد أحضر غلاماً صغيراً من القرية الذي زعم أنه يبلغ خمسة أعوام من العمر وهو بالتأكيد لا يزيد عن سبعة. لقد كان الطفل من النوع العبقري، فقد جلس أمامي، ومضى يلقي قصيدة وراء قصيدة بطريقة شديدة الإعجاب. ولحسرتي يجب أن أعترف أنني لم أفهم إلا قليلاً من إلقائه، بيد أنني ذهلت من أدائه الرجولي لمقتطفات من ذخيرة غير محدودة على ما يبدو من الشعر والملاحم وأنبت نفسي بإعطائه هدية ثمينة من خمسة دولارات بعدما ألقى قصائد قصصية كثيرة[٢]. وقد ابتهج بشدة واندفع خارجاً من الخيمة وهو يدعو: "الله يغنيك، أي حفظك الله من الفقر والحاجة". وفي أثناء دعائه تعثر في حبل غير

(١) للاطلاع على جغرافية بلاد الزلفي وأهم معالمها، انظر: عبدالرزاق المسعودي، الزلفي، ص ٢١ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) أولاد البوادي يمتازون في الغالب بالفصاحة والجرأة في الحديث مع الكبير أو الغريب. كما أن بعضهم يمتازون بذاكرة جيدة تحفظ الحكم والأشعار المختلفة. ونجد كتب التراث مليئة بنماذج من هؤلاء النوع على مر التاريخ. (ابن جريس).

ظاهر من حبال الخيمة وانفجر بالبكاء. وبعد مواساة الطفل المسكين من إصابته جرى عائداً إلى القرية سعيداً مثل عصفور صغير.

بعد صلاة الظهر جاء بجاد بنفسه ليأخذني إلى بيت واحد يدعى سليمان كنت قد قابلته في الصباح ودعاني للقهوة. وعندما طوقنا القرية نحو البوابة الشمالية وجدنا بيت مضيفنا في الشارع الرئيس المؤدي إلى السوق، وهو ساحة مربعة غير منتظمة بها خمسة وأربعون دكاناً تفي باحتياجات قرى الزلفي كلها[1]. كان مجلسه نظيفاً ومشيداً بطريقة حسنة من الجدران الطينية غير المزخرفة وضعت مخدة خصيصاً لي على حصير الأرضية الذي يشكل مع أواني القهوة كل أثاث الغرفة. ودارت القهوة، والشاي، والبخور على فترات زمنية متكررة بينما كان مضيفي والأمير بالنيابة يتحدثان إليّ عن ظروفهما. لقد أصبحت الحياة شديدة الغلاء في الزلفي بسبب الحرب؛ ولأنه لم تأت قافلة واحدة من الكويت خلال الأشهر الثلاثة الماضية. وكانا شغوفين بمعرفة متى قد تنتهي الحرب، وكنت أشك قليلاً في ذلك الحين أن الإجابة المتفائلة ستكون معقولة ومبررة.

والحجم الأكبر من تجارة الزلفي هو من نوع عمليات الشحن والنقل، والمكان يشبه بورصة السلع لمنطقة ذات اتساع عظيم[2]، تضم قرى النفود وقرى الحمضة التي تعد الامتداد الجنوبي للباطن. بيد أن احتمالات التنمية الزراعية في الأخيرة تظل على ما يبدو موضوعاً من موضوعات التأمل المستمر هنا. فعلاوة على عين نبع السيح الجديد المذكور آنفاً فقد قالوا لي عن بقايا قائمة من نظام ري قديم عند حافة طويق على بُعد خمسة أميال جهة الشمال.

---

(١) لمعرفة بعض المعلومات عن الحياة الاقتصادية في بلدة الزلفي، وبخاصة التجارة، انظر: المسعودي، الزلفي، ص ٧٤-٧٥. (ابن جريس).

(٢) عن أهمية بلاد الزلفي التجارية وعلاقتها تجارياً بما حولها من البلدان، انظر: ابن خميس. معجم اليمامة، ج٢، ص ٣٩٥، المسعودي، الزلفي، ص ٣٧-٣٨. (ابن جريس).

هذه الآثار تدل على وجود نبع، ولكن باءت جميع الجهود لإخراجه إلى الضوء بالفشل. ثم ـ عندما انتقلنا إلى موضوع خارج المنطقة ـ ناقشنا ما إذا كان من الممكن أو من المفيد الوصول إلى مستوطنة الإخوان الكبرى في الأرطاوية الضخمة، كما قالوا، مثل بريدة وما تزال تتسع. وبصوت واحد أشاروا عكس ذلك. حتى قوافل الكويت ليس مسموحاً لها بأن تمر خلالها أو حتى تسحب من مائها، ناهيك أن تقضي ليلة هناك. وإشاعة من الكافر قد تجلب تماماً عش الدبابير هذا حول آذاننا. على العموم لم يكن بوسعي أن أعترض على مثل هذا القرار، وروضت نفسي على الامتناع حتى عن لمحة عابرة عن مكان سيئ السمعة.

في وقت لاحق خلال العصر مشيت متباطئاً لأزور بساتين النخيل والقرى جهة الشمال من قرية الشمالية. وكانت الإبل التي قضت يوماً قاسياً في النفود لدرجة أنها في هذا الصباح كانت ترعى بتهور من عشب الأضهر الأخضر وغير المحبب وقد نالت علفاً طيباً خلال الصباح مما جعلها تخطو بمرح فوق السهل الرملي المغطى بالرمث. وبعد ركوبنا لعشرين دقيقة وصلنا إلى منطقة شاسعة من أشجار النخيل الصغيرة والبطيخ والشمام، والقرع، وبعض القطن الذي يمتد نحو الشمال حتى المجموعة الرئيسة من النخيل مكتملة النمو. هذه مزرعة السيح التي تروى من آبار كثيرة تغذيها العيون. ويتراوح عمق هذه الآبار من ثلاث إلى خمس قامات، ويقال إنها اكتشفها صدفة منذ حوالي خمس عشرة سنة مضت رجل كان يحفر جُحراً بحثاً عن جربوع اختبأ تحت الأرض. منذ تلك الأيام تطورت القرية تطوراً كبيراً، واتسعت لمسافة ميل على طول الضفة اليسرى لشعيب عريعرة[1] الذي ينزل من مرتفعات طويق عند رقعة عريرة الصغيرة من أشجار النخيل وقليل من القصور في ثنية من

---

(١) هناك شعيب آخر، اسمه سمنان، ينبع من الجرف بعد مسافة بعيدة جهة الشمال بالقرب من بستان نخيل صغير بنفس الاسم. وهذا أيضاً يتدفق عبر الوادي وينحني جنوباً. (فيلبي). وقد ذكر فيلبي اسم عريعرة باسم (عريرة) والاسم الصحيح هو ما تم ذكره. انظر: ياقوت. معجم، ج٤، ص ١١٥، المسعودي، الزلفي، ص ٣٤. (ابن جريس).

الجرف وتمتد عبر الوادي حتى النفود. هذه المزرعة تتمتع بميزة عن كل جاراتها بأن ماءها قريب نسبياً من سطح الأرض، إذ إن مستوى المياه في الأماكن الأخرى كان عشر قامات.

وقد سرنا الآن الآن في القاع المغطى بالحصباء لشعيب عريعرة[١] حتى أتينا بعد ميل آخر من السير إلى مجموعة من أربعة بساتين كبرى تعرف باسم اللقاء الذي ترتكز المجموعة الرئيسة منه على حافة النفود مع وجود اثنين من البساتين أمامها وهما مفصولان عن بعضهما بمسافة ضيقة. وخلال مرورنا بين هذه البساتين من النخيل أتينا على البستان الرئيس الذي فيه قرية صغيرة، وبعد مسافة فاصلة توجد أخرى أكبر حجماً، وأخيراً واحدة كبيرة عند الطرف الشمالي، ومجموع السكان في القرى الثلاثة يبلغ ثمان مئة نسمة تقريباً[٢].

نحن الآن عند الطرف الشمالي من مزارع الزلفي، ولا يوجد شيء غير قصرين في بقعة متناثرة من أشجار النخيل تعرف باسم قصور العبد على بُعد ميلين في جهة الشمال تماماً، ثم استدرنا نحو الجنوب فوق درب واضح المعالم يمتد عبر القرية وبعدها باتجاه الزلفي. هنا قابلنا رجلاً كبير السن الذي حيانا بصوت ضعيف مرتجف، وقيل: إن عمره يبلغ مائة عام. وكان في الماضي أميراً على قرية اللقاء، ويدعى ابن فرهود، ولكنه أحيل من زمن طويل للتقاعد لشيخوخته وجاء محله ابن عمه، ابن دهش.

---

(١) قال ياقوت، عريعرة، تصغير عرعرة، وعرعرة الجبل، غلطة معظمة، وهو ماء لبني العنبر. وقالت امرأة من بني مرة يقال لها أسماء.

أيا جبلي وادي عريعرة التي
نأت عن لوى قومي وحم قدومها

ويقول شاعر آخر:

عسى الحيا يروى زبابير زليغيف
ويسقي غروس عريعرة من قبالة

انظر: ياقوت، معجم، ج٤، ص ١١٥، عبدالرزاق المسعود، الزلفي، ص ٣٤. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن تاريخ وجغرافية الزلفي، انظر: المسعودي، الزلفي، ص ٢١ وما بعدها. (ابن جريس).

على بُعد ميل أو أكثر وراء هذه البساتين رأينا بعض الآثار القديمة من قرية منزلة[١] العتيقة، وتتكون من قصر كبير وآبار متعددة على مسافة نصف ميل عن يميننا. وتقول الروايات المحلية إن هذه القرية وقصور العبد كانت القريتين الأصليتين في هذه المنطقة وكانت دائماً على عداء وضغينة. وسواء كان إمدادهما من المياه قد نفد أو لبعض الأسباب الأخرى فقد هجرت كلتا القريتان لصالح مواقع أخرى، فأصبحت الزلفي (أي الشمالية، التي نادراً ما تستخدم في اللغة المحلية) معمورة بأهل المنزلة واللقاء من منافستها.

بهذا انتهت جولتنا في القرى النائية وعدنا إلى المخيم، تاركين العقدة أو الزلفي الجنوبية، لنزورها عند استئناف سيرنا في الغد، واكتفينا بنظرة قاصية فقط من المخيم على سلسلة غير منقطعة تقريباً من البساتين على طول خط شعيب سمنان[٢]، والسلسلة هذه تضم من الشرق للغرب ثمائل وحيطان مع العقدة التي توجد أمامها نسبياً من طرفها الشرقي، ولغف الأقرب للنفود والتي يلتف الشعيب عليها في اتجاه الجنوب نحو بقعتي نخيل غيفة والطرغشة[٣] على بُعد ميل وثلاثة أرباع الميل باتجاه المجرى من لغف.

إن تجربة الطفل العبقري في الصباح قد خلقت لدينا انطباعاً إيجابياً محبباً عن السكان الشباب في القرية، فالعديد من الأرواح الجسورة التي تجمعت، قد

---

(١) قرية منزلة: اسمها في الأساس المنيزلة، وما زالت باقية حتى اليوم على شكل قصر قديم يسمى (قصر المنزلة) بقرب مقبرة قديمة فيها قبور طويلة توشك معالمها أن تندثر، انظر: السعودي، الزلفي، ص ٣٦ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) سمنان: يذكر أنه واد كان يسكنه جد أمرئ القيس ذي الحجر الكندي، ويقصد به موضع في ديار تميم قريب اليمامة. ويقال: سمنان من السمن شعيب لبني ربيعة الجوع من مالك وسمنان في الزلفي يقع على الطريق التي تصل بين بلدة الزلفي والأرطاوية. انظر: ياقوت، المعجم، ج٣، ص ٣٥١، ج٥، ١٢٨، للمزيد انظر: المسعودي، الزلفي، ص ٣٣. (ابن جريس).

(٣) الطرعَشة: روضة بالقرب من طريق مغيرا، يذكر أن الرمال قد طمرت مبانيها، لايزال فيها آبار ونخل، ويقوم إلى الشرق منها بقايا قصر قديم، يذكر أنها كانت ماء لبني العنبر باليمامة. (ابن جريس).

لازمت تحركاتي في القرية وحولها بفضول ودود، وتأتي لتسلم عليّ يداً بيد، تجربة فذة نادرة. بيد أنني لم أنظر في احتمال الاستماع لقصاد[١] آخرين أو راوٍ للملاحم القصصية غض السن في مجتمع صغير محدود، وبحجة التعب والإرهاق صرفت واحداً من أمثال هؤلاء المدّعين خشية أن أقضي المساء كله مستمعاً ودافعاً للهدايا لسلسلة متوالية منهم.

تناولنا العشاء مع بجاد والتهمت كثيراً من مأدبته الكريمة على الرغم من بساطتها من الأرز، والعدس، ولحم الضأن وهو يتحدث عن الحقائق والأحداث المعتادة في حياته القروية. وكانت الحدرة أو القافلة التي انطلقت إلى الكويت من شقراء عندما كنت هناك لإحضار الإمدادات لجيش ابن سعود قد وصلت أثناء النهار، وإبلها البالغ عددها خمس مئة جمل ترسم مشهداً رائعاً وهي تتهادى عند حافة طويق وتنزل المنحدر باتجاه القرية. وفي اليوم التالي سوف يواصلون الرحلة إلى بريدة[٢]، ولكن في الوقت الحاضر كانت الزلفي تعج بالحياة. إن الحشد العسكري من هذه المنطقة قد وصل، كما يقول بجاد، إلى أربعة آلاف رجل، ولكن مما رأيته وسمعته عن القرى المختلفة، فإن هذا العدد يقارب بدرجة معقولة إجمالي السكان كلهم[٣]، رجالاً ونساءً وأطفالاً. وحول مخيمنا لاحظت عدداً من الآثار القديمة عليها علامات من الإسمنت الجبسي على أن البناء الحديث يبدو بصورة رئيسة من الطين مع بعض البيوت المبنية بأكوام من الطين. والخشب وفير أو كان وفيراً، مع أن الطلب الشديد من مدينة

(١) يقصد فيلبي بكلمة (القصاد) أي من يقول القصيد، أو الشعر الشعبي، الذي شاهد بعض فتيان الزلفي يقولونه في حضرته كي يحصلوا على بعض النقود التي كان يوزعها عليهم. وظاهرة الشعر الشعبي، والأحاجي، والألغاز، والأمثال والحكم الشعبية منتشرة بشكل كبير في الجزيرة العربية. وقد قام بعض الدارسين بجمعها، لكن ما زال هناك الشيء الكثير لم يجمع ويدرس دراسة علمية أكاديمية. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن النشاط التجاري بين بلاد نجد والكويت، انظر: الهويمل، بريدة، ص ١٢٥-١٢٨، محمد الربدي، بريدة، ج٢، ص ٣٣٨-٣٤٦، حافظ وهبة، جزيرة العرب، ص ٥٦ وما بعدها، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٤٥-١٤٩. (ابن جريس).

(٣) الزلفي (١٥٠٠)، والعقدة (١٠٠)، واللقاء (٨٠٠)، ولا يبقى إلا نحو (٧٠٠) في القرى الكثيرة الصغيرة (فيلبي). للمزيد عن قرى وجغرافية الزلفي، انظر: المسعود، الزلفي، ص ٢١ وما بعدها. (ابن جريس).

الأرطاوية سريعة النمو قد أدى إلى زيادة زراعة الأثل في الباطن. وقد كان أهل تلك المدينة يذهبون بعيداً حتى القصيم ليحصلوا على خشب السقف. والكمرة القوية الطيبة من خشب الأثل يمكن أن يكون سعرها الآن باهظاً بما يصل إلى ثلاثين دولاراً.

بعد عودتنا إلى المخيم من حفل العشاء أرسلت لبجاد هدية من خمسين دولاراً، نصفها كان مقابل تكلفة العلف والإمدادات الأخرى، وزوج من النظارات الميدانية رديئة الجودة. لقد تأثر تأثراً بالغاً بمثل هذا الاعتراف بخدماته لدرجة أنه جاء بأقصى سرعة يسألنا إن كان يستطيع أن يفعل أي شيء إضافي لنا، وفي الصباح التالي أتى ليسلم علينا في الوداع. وقد ترك انطباعاً رائعاً من الود والصداقة في ذاكرتي فقد كان رجلاً طيب القلب حسن المظهر، أطول من المعتاد قوي البنية، وربما أقل من الأربعين في العمر.

في الصباح التالي انطلقنا عند انبلاج الفجر وفي ربع ساعة وصلنا العقدة، قرية مربعة مسورة من جميع الجهات ومساحتها نحو ثلاث مئة وخمسين ياردة. وكانت وصلة الأسوار في الشمال والشرق يعلوها برج، أما الأبراج الأخرى تتناثر على الأسوار وتفصل بينها مسافات متساوية. وفي وسط القرية تقريباً ارتفعت مئذنة طويلة مربعة مستدقة الطرف قليلاً نحو القمة. وهناك ممر مقنطر تحت الأبراج المركزية في الأسوار الشمالية والشرقية تؤدي للدخول من هذه الجهات للقرية، وقد خمنت أنه ربما توجد مداخل مماثلة في الجهتين الأخريين. وتبدو العقدة أكبر من الزلفي في المساحة الظاهرة، ولكن بيوتها أقل ازدحاماً على بعضها[١].

من هنا قضينا ربع ساعة من السير في رافد شعيب أم الذر[٢] قد أوصلنا إلى سفح جبل طويق بعد أن مررنا على سد مبني بناءً ليحوّل مجرى الفيضان خلال

(١) لمزيد من التفصيلات عن جغرافية وتضاريس بلاد الزلفي، انظر: السعودي، الزلفي، ص ٢٨ وما بعدها. (ابن جريس).

(١) رافد شعيب أم الذر يصب في شعيب سمنان (فيلبي + ابن جريس).

عبّارة ذات قنطرة مزدوجة إلى المجرى الرئيس. وقد سرنا ببطء كما لو كنا نزحف لمدة قصيرة فوق أرض وعرة وفيها أهجنا سرباً صغيراً من طيور الصيد[١]، التي هربت جاثمة على الأرض، ولكنها لم تطر، ثم زحفنا متسلقين مساراً صخرياً حاد الانحدار حتى وصلنا قمة الجرف، التي لا تزيد عن خمسين قدماً في الارتفاع عند هذه النقطة، حيث توقفنا لحظات قليلة لنلقي نظرة أخيرة على سهل الزلفي. ثم انطلقنا مرة أخرى نحو الشرق.

٣ـ الأرطاوية منبع الإخوان

أثناء شربنا القهوة في بيت الأمير صباح اليوم السابق توسلت لمضيفنا أن يوفر لي دليلاً كفأً بحق لما تبقى من الرحلة، ولكن رشيداً تدخل قائلاً: " لا تقلق على ذلك، فقد أعطانا الله الرجل الذي تحتاجه فعلاً، إنه يعلم كل شجرة وحجر من هنا حتى الكويت". فأجبت وما فائدة قولك هذا؟ لقد قلت الشيء نفسه تقريباً كل يوم منذ مغادرتنا الرياض، ولم أر إلا قلة من الأدلاء المهرة، وأصر على رأيه قائلاً: "اترك عنك هذا الكلام انتظر وسترى، إنه صلبي الذي وجدته". وقد بدأت أفكر، والشك ما زال يساورني في أن كلماتي قد آتت ثمارها، لاسيما عندما جاء رشيد، في وقت لاحق من الصباح برجل أقسم بمعرفته كل شيء لعمه[٢]، دليلنا الجديد. هكذا رتبنا على وجوب نوم الأخير في مخيمنا حتى يكون مستعداً للرحيل مبكراً.

لقد كنت أنا نفسي أفكر في الذهاب لفراشي عندما دخل الأمير ورشيد خيمتي وجلسا لحديث أخير فيما حسبت. فقال رشيد بانفعال عصبي: "قل له"، وثارت ثائرة

(١) هذه الطيور كانت بلا شك من نوع السيسي، وليست طيور الحجل كما كنت أتصور إلى أن فجر الخبراء خطئي، انظر آر. تشيرفان في كتابه: في شبه الجزيرة العربية المجهولة (فيلبي).
للمزيد انظر: تفصيلات أكثر في كتاب تشيزمان باللغة العربية، والذي قامت مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بترجمته وتدقيق معلوماته. (ابن جريس).

(٢) يقصد بكلمة (لعمه) أي عم رشيد. (ابن جريس).

الشكوك في صدري. لقد فهم الدليل أنا سوف نسافر بالدرب الرئيس المعروف باسم منشرحة وعلى هذا الطريق فقط يقوم زعمه بمعرفة كل شيء. والطريق الأكثر ميلاً نحو الجنوب الذي نوينا أن نسلكه كان مجهولاً له، وفي كل الأحوال سوف ينام مع زوجته هذه الليلة. وسوف ينضم إلينا في الصباح على أمل أن نكون قد غيرنا رأينا بشأن الطريق لنتمتع بأن كامل معرفته تحت تصرفنا. فأجبت بأنني سوف أذهب بأي طريق يحبه، فكلاهما جديد تماماً بالنسبة لي، ولكنه يجب عليه أن يأتي إلى مخيمنا فوراً ليكون مستعداً. وانصرف الأمير، على ما أظن، بقلب كسير كئيب، مدركاً أنه كان يؤجل فقط خيبة حتمية، ولكن حتى هو نفسه لم يكن مستعداً لما حدث في الحقيقة. ومهما كانت الظروف فقد نمت لنصف ساعة عندما أيقظني صوت هامس بجوار فراشي. لقد ذهب بجاد إلى بيت الرجل ليفاجأ بأنه قد شد ذلوله وهرب دون أي تفكير في حضن زوجته. وقال الأمير: «هل تسمح لي أن أحرق بيته تماماً! إنني مستعد لمعاقبة الرجل حسب توجيهك". فأجبت "لا، لماذا ينبغي أن يصاحبني إذا لم يكن يريد؟ إنني فقط طلبت من رشيد أن يعثر على دليل لي، وهذا ما يحدث دائماً عندما أطلب منه خدمة. فكل ما يستطيع أن يفعله أن يتكلم بصوت عال بلا طائل". عندئذ بدأ رشيد يتحدث عن الجهود الشاقة التي بذلها. وإذا استطعت الآن أن أعفو عن دابي فسوف يكون كل شيء على أحسن وجه. على أنني رفضت أن أفعل ذلك، وفي اليوم التالي اكتملت المسرحية الصامتة ونلت انتقاماً وفيراً ومرضياً. لقد تبعني دابي مثل كلب ضُرب بالسوط، وظل دائماً في مرمى السمع، وأظهر رفاقي اهتماماً مذهلاً بالمعالم الجغرافية في السير على أمل أن أجد شعاعاً من نور في الإجابات الصاخبة من الدليل الكاذب.

في البداية مضى كل شيء على ما يرام، فطويق هي طويق ولا يمكن أن تكون شيئاً آخر، هضبة كلسية قاحلة تنحدر برفق مرتفعة حتى حد فاصل، ومنه تنحدر برفق نازلة. وخلفنا يقع الخط الطويل للرمال الوردية اللون التي عرفناها من قبل

باسم الثويرات. على بُعد عدة أميال نحو الشمال كانت علامة خشم جزرة تبين النقطة التي عندها يغرق طويق إلى الأبد في بحر من الرمل. وعلى يسارنا في الأمام ترتفع تلك الرمال في جبل عظيم يسمى نفود الضويحي(١)، وتمتد نحو الجنوب بجوار قفر حمضة مجزّل الصخري، ووراءها جبل مجزّل نفسه وآخر يُدعى جبل وديعان يتوازيان مع مسارنا على اليمين ويحجبان المجمعة. عند هذه النقطة لا يتجاوز عرض الهضبة ثلاثة أميال، وانتقلنا منها إلى سهل التربة الطفلية يسمى السبلة(٢) مما يكسوه من الرمث والشيح، انطلق طائر السمان في رعب بمفرده، بينما نرى الجربوع يلعب حولنا من حفرة إلى حفرة. وبعد مجموعة من أشجار الطلح عبرنا المنخفض الأوسط في السهل، وهو قاع رملي لمجرى مائي يتجه نحو الشمال الشرقي إلى روضة عقلة(٣) التي يوجد فيها بئر ماء. كان المنخفض ثرياً بالنباتات والشجيرات، وفيه اختبأ زوج من الحباري اللذين خفقا بجناحيهما مبتعدين في كسل قبل اقترابنا.

هناك قاع آخر لمجرى مائي فيه خط من شجيرات السدر والسلم يقطع دربنا متجهاً نحو الشمال إلى النفود الموازية لنا الآن، ثم دخلنا في قفر حمضة حث انسل ثعلب خلسة فوق سطح أسود كما لو كان مكسياً بطبقة من رماد الفرن. وأجبرتنا بقعة من شجيرات العرفج على التوقف لفطور الجمال والرجال، وكان نصيبنا لحم الغزال المجفف (جلّه) الذي اشتريناه في الزلفي مع الأرز وماء الزلفي الممتاز. ثم واصلنا السير فوق سهل صخري قاحل حتى منخفض يتجه نحو الشمال الشرقي،

(١) نفوذ الضويحي: يعرف أيضاً باسم (نفوذ السبلة). عبدالرزاق المسعودي، الزلفي، ص ٤٥ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) السبلة: روضة دارت فيها معركة بين الملك عبدالعزيز وبين الإخوان، انتهت بهزيمتهم في (١٩/١٠/١٣٤٧هـ) (١٩٢٨م)، وما زال فيها بقايا وآثار الموقعة ومقابر القتلى في هذه الحرب. للمزيد انظر: العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ص ٢٢١-٢٣٧. (ابن جريس).

(٣) روضة عقلة: يطلق عليها أيضاً (روضة العقل). المسعودي، الزلفي، ص ٢٥ وما بعدها. (ابن جريس).

اسمه الشبيرمة على وجه التحديد بسبب نمو نباتات الشبرم فيه والتي امتزجت بنبات الميرمية الصحراوي، ووراءه يقع سهل حصوي شاسع. يمتد جبل مجزّل المنخفض أمامنا، مع تل ومروى أم غور على مسافة بعيدة من جهة اليمين.

وبعد سير طويل وصلنا أفق الجبل نفسه، وسرنا بمحاذاة رأس وادي شعيب(١) الذي يمتد نازلاً عبره نحو الشرق، بين ضفاف منخفضة تبعد بينهما مسافة ميلين، وعندما سئل دابي، بصوت جهوري لتنبيه آذاني غير المنتبهة في الظاهر قال لنا إن هذا هو شعيب بطيره الذي سوف يوصلنا إلى آبار الديجاني هدفنا الحالي. وهكذا واصلنا السير على طول الطريق المتعرج لقاع مجرى السيل، نعبره ونعيد عبوره، بينما الوادي يضيق إلى نصف ميل أو أقل. وفجأة، قرب منتصف فترة العصر، أدركنا أغناماً سوداء ترعى على طول الضفة اليمنى للوادي وتعجبنا متسائلين عن متى أو كيف جاءت هنا كل هذه المسافة ومن أين؟ ثم مشينا مارين بقطيع صغير معزول تحرسه النساء، حيث تقدمنا بسؤالهن: "وش بُعد الماء؟"، أي كم يبعد المروى عن هنا؟ فأجبن مشجعات لنا: "قريب ستكونون هناك قبل غروب الشمس". وسألتهن: "هل هي الديجاني أم القيعية؟" وأحدثت إجابتهن ذعراً في صفوفنا: "لا، يارجّال ـ الديرة(٢) ـ الأرطاوية !!". ومضيت في طريقي دون إبداء أية ملاحظة، ولكن دابي الذي كان خلفي لحقني وعليه علامات بادية من الارتباك والقلق. لقد عزمنا على تفادي الأرطاوية مثل خوفنا الطاعون، وهو دليلنا، بغلطة مضحكة بسبب ثرثرته عن شعيب بطيرة قد قادنا تقريباً إلى باب عرين الأسد. وواصلت طريقي على الرغم من توسلاته بأن نتحول جانباً لنصعد المنحدر عن يميننا، وبدا لهم أن كارثة جهل الدليل سوف تكتمل بعنادي. ولكي أصرف انتباههم، مع أنني ليس عندي أدنى نية في

(١) هذا كان في الحقيقة رأس شعيب الأرطاوية. (فيلبي).

(١) «لا، يا رجل! المدينة».. (فيلبي).

المجازفة بجلدي في الأرطاوية، ذكّرتهم بأنه قد حان لهم وقت صلاة العصر، وأنخت بعيري على الرمل الناعم في الشعيب، وأخرجت غليوني وأشعلته. ثم أدوا صلاتهم بقلق وتوسلوا إليّ أن نتعجل في مغادرة هذا الدرب اللعين. فقلت لهم إنني سوف أنتهي من غليوني أولاً. ثم قلت للدليل: "إنك لدليل رائع، أليس كذلك؟ لأنه، لولا هؤلاء النسوة اللائي تحدثنا معهن لتونا، لكنا الآن على أبواب الأرطاوية. ألن يضحك ابن سعود عندما أكتب له قائلاً إن دابي قد أخذنا للأرطاوية بينما هو يظن أنه متجه إلى الديجاني؟".

بحلول هذا الوقت أصبح رشيد مضطرباً من الخوف حيث أذعنت لتوسلاته. وصعدنا المنحدر لنجد أنفسنا على ما يشبه التل[1] وفي وسط قطعان الماشية. وقد اضطر دابي الآن إلى أن يسأل القوم الرعاه (الذين كانوا رجالا هذه المرة) عن الطريق والذين تدل أغطية رؤوسهم البيضاء دلالة واضحة على الحماسة المتقدة في إيمانهم على الرغم من أنهم لم يلاحظوا أو يعثروا على أي شيء فيه خطأ فينا. تبدو التلال قاحلة جرداء بصورة شديدة لا تصلح للرعي، ومع ذلك كان هناك بعض العرفج والحشائش المتفرقة في التجاويف والمنخفضات، التي منها أخيراً صعدنا إلى هضبة تمتد نحو الشرق لميل حتى سهل منخفض، وفي وسطه، في بيئة موحشة منفرة تماماً، تقع مدينة الأرطاوية.

يبدو أن باركلي راونكر (Barclay Raunkiaer) كان آخر أوروبي يتجاوز هذه البقعة، وذلك في (١٩١٢م)[2]، كما قد يظهر، عندما ما لم يشيد فيها بيتاً. ولم تمض ستة أعوام ونصف إلا وبرزت مدينة فيها ما لا يقل عن (١٠٠،٠٠٠) نسمة، وقد كنت

---

(١) من هذه النقطة كان مسار شعيب الأرطاوية واضحاً للعيان لنحو ميل متجهاً نحو الشمال الشرقي حتى شاع في ثنايا الهضبة التي بعدها ويبرز من جديد في سهل الأرطاوية. (فيلبي).

(٢) (١٩١٢م) يقابل التاريخ بالهجري عام (١٣٣١هـ). (ابن جريس).

أول أوروبي يلقي عليها نظرة من بعيد. منذ ذلك الحين ربما قد أصبحت عاصمة حقيقية للتعصب المتزمت، ولكن لم يزرها أي أجنبي. ولأنها أول مستوطنة يؤسسها الإخوان، فإنها تعد مثالاً على التجديد الوهابي، الذي بالتوجيه الحكيم والماهر من ابن سعود قد جلب نعمة السلام والأمن، وإلى حد ما الوحدة للجزيرة العربية[١].

إن المدينة التي نظرت إليها خلال منظاري من مسافة ثلاثة أو أربعة أميال تقريباً كانت علامة بارزة في التاريخ، وبالفعل في هذا الوقت كانت مرهوبة في طول الجزيرة العربية وعرضها، ويتجنبها حتى المسلمون الذين يعتنقون عقائد الوهابية بمعناها الواسع. وهي تخضع للافتراء وتشويه السمعة والصورة والدعاية المعادية في مجالس الحجاز وحتى في غرف الانتظار بالمجلس العربي في القاهرة[٢]. إن انتصار الحركة على الرغم من كافة العوائق التي وضعت في سبيلها ودون أسلحة إلا البنادق المتفرقة والإيمان المتقد ليعتبر واحداً من الأحداث الأشد إثارة وحسماً في التاريخ.

تقع المدينة شمال شرق من نقطة رؤيتنا، مقارنة ببريدة؛ لأنها تمتد منفرجة الساقين على جبل في وسط سهل متموج، مدينة كبيرة مسورة وأسوارها الغربية محاطة ببرج عظيم على كلا الطرفين، وكانت ترى بوضوح، مع ذلك الجزء من داخلها الذي يشغل المنحدر على جانبنا. ولم أتمكن إلا من رؤية

(١) دبلوماسية الملك عبدالعزيز وحكمته ودرايته بعلوم السياسة، وكذلك معرفته بطبيعة مجتمع الجزيرة العربية. كل هذه الأمور وغيرها جعلته (بعد توفيق الله عز وجل) يستطيع جمع شتات القبائل المتناحرة المتصارعة في أنحاء البلاد حتى تكون موحدة تحت راية واحدة شعارها (لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله). للمزيد عن صفات وعبقرية الملك عبدالعزيز، درمولين، الملك ابن سعود والجزيرة العربية، ص ١٨ وما بعدها، فيلبي، العربية السعودية من سنوات الفحط إلى بوادر الرخاء، ص ٢٣ وما بعدها، عبدالله التركي، الملك عبدالعزيز: أمة في رجل، ص ٣٣ وما بعدها، إبراهيم السماري، الملك عبدالعزيز الشخصية والقيادة، ص ٢٦ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) المجلس العربي في القاهرة: هو أحد المواقع الحساسة للحكومة البريطانية، والذي يوجد به العديد من الخبراء الإنجليز الذين يدرسون أحوال المجتمع في الشرق الأوسط، والتي على ضوء تلك التقارير تتخذ الحكومة الكثير من قراراتها حيال هذا الجزء من العالم والمستعمرات آنذاك من الحكومة البريطانية وبعض الحكومات الغربية الأخرى. (ابن جريس).

جـزء مـن السـور الجنـوبي، حيث كـان البـاقي مـحـتـجـباً وراء جـبل مـتـقـاطع والذي منعنا أيضـاً من رؤية الجـهـتين الآخـريتين. والبـيـوت مـبـنيـة من الطين، وتقع ضـاحـيـة متناثرة من القصـور والأكواخ خارج المدينة المسورة على بُعد ميل للشـمال، لا ريب أنها حـول مـوقع الآبار التـي جـعلت هذا المكان في الماضي نقطة توقف هامـة على طريق الكـويت. مـن النبـاتات لا يوجـد أي أثر، على الـرغم من أنه قـد قيل لي: إن النـخيل قد زرعت حـديثاً وإن الـذرة والخـضـراوات قد زرعـها الأهالي لتوفر احتيـاجـاتهم. تقع النفـود على مـسـافـة ميلين تقـريبـاً وراء المدينة، بينمـا البطين كمـا يُسـمى الوادي، كان سهلاً متموجاً شاسعاً بين هضبة مجزّل وأقصى الطرف الشمالي للعـرمة مجرد جبل منخفض.

بعدما أمـتعنا عيوننا متعـة بالغـة بالمدينة المحـرمة نزلنـا في وادي شـعيب بطيـره الموازي ونصبنـا خيـامنا للمبيت في قاعة بين كتلة من شجيرات السدر. وعلى مـسافة ميل تقـريبـاً فـوق وتحت هذا الـوادي تتـنـاثر حفـر مائيـة غـيـر مبطنة لا حـصـر لهـا، منها عشرون أو أكثر تحتوي على الماء، على الرغم من أنه في معظم الحالات قذر ومغطى بالطين الأخضر. والآبار الأكـثـر نظافـة فيـها مياه طيبـة بشكل ملحـوظ، وعمقـها بين ثلاث قـامات في الأرض المرتفـعـة على كـلا الجـانبين إلى أقدام عـديدة في قاع السيل نفسه، الذي يتكون من حصبـاء رملية ويبلغ عرضه ثلاثين ياردة تقريباً. والسطح حول الآبار كان أسـود بروث الأغنام، ويمتلئ بكل ما فـي الكلمة من مـعنى بحشود كثـيرة من النمل الأسـود الكبيـر الـذي جعل الإبل تفـر مـذعـورة عند المروى(١). وقبـع نسـرٌ وحيـدٌ في سكون، مـنتفـخـاً من وجبـة حديثة، ولم ينهض مـتـثـاقـلاً إلا عندمـا اقـتـربت منه لأتفـحـصـه. وأصـبـحت سـقيـا إبلنا سـهلة باكتشـاف دلو وتجـهـيـزات أخـرى في إحـدى الحـفـر المهـجـورة، لا شك أنهـا من ممـتلكات بعض الـرعـاة من المـدينة. وانتـهى اليـوم

(١) المروى: أي مكان سقاية الحيوانات والتزود بالماء لاستهلاكات الانسان. (ابن جريس).

بعشاء من الأرز ولحم الغزال المجفف، وبلمحة من الغضب العصيب بسبب الخلافات في النهار. بيد أنني كتمت في السر متعتي بالرؤية غير المتوقعة لمدينة عجيبة، التي نلنا منها نظرات خاطفة إضافية خلال الجزء المبكر من سيرنا في اليوم التالي لمسافة ثلاثة عشر ميلاً فقط حتى الديجاني.

بعد أن تتبعنا وادي بطيرة لمسافة ميل إلى أسفل حتى مخرجه من الهضبة حتى البطين انحرفنا نسبياً نحو الجنوب من مساره الشرقي، وبعد أن عبرنا قاع شعيب الأرطاوي المليء بالحصى، أتينا في الوقت الملائم إلى منخفض يسمى دبان الذي عندما يتجه نحو الشمال يلتحم باثنين من مجاري السيل ذكرناهما آنفاً ليشكلوا معاً المجمعة. وهذه تلتقي بشعيب الأرطاوية لتكوِّن المنخفض أو الحوض الذي تقع فيه آبار الأرطاوية نفسها.

بعد دبان سرنا برتابة فوق تلال إلى أن أتينا على منحدر عرمة الصخري المرتفع برفق، ومن قمته المرتفعة لما لا يزيد عن مئة قدم فوق البطين نظرنا إلى أسفل إلى حوض قيعية الدائري الواسع، على بُعد ميلين أمامنا، وكان مكسواً بالخيام السوداء[1] لبني عبدالاله (مطير)، تتراقص في السراب. وتحوّلنا جانباً، على كل حال، على امتداد قمة الجبل ثم انحدرنا برفق نازلين لدائرة الديجاني الكبرى، التي عند حافتها الجنوبية الشرقية توقفنا في هذا اليوم.

(١) توجد حوالي مائتي خيمة منها والشيخ المسؤول كان ابن ضمنة. (فيلبي) وقد يطلق على هذا الشيخ أيضاً اسم (ابن ضمناء) (ابن جريس).

٤ـ الطريق الصحراوي

حتى عهد قريب نسبياً كانت الزلفي أول مكان مأهول على درب القوافل القادمة من الكويت إلى المدينتين التوأمتين الكبيرتين في القصيم. هذا الشرف انتقل الآن إلى الأرطاوية، غير المضيافة كما هي الآن للأجنبي عابر السبيل. وهكذا تتقلص الصحراء بثلاثين ميلاً تقريباً. ومع نمو حركة الإخوان سوف يحمل منخفضا الديجاني والقيعية بمرور الزمن نصيبهما من البيوت، والمراوي جهة الشرق سوف تتحول بالمثل إلى مساكن للبشر. إن مخاوف وأهوال الرحلة في الصحراء الكبرى بين وسط الجزيرة العربية والخليج العربي محكوم عليها بالفناء بسبب التطورات الطبيعية، وهذه التطورات سوف تتسارع الآن نسبياً بالإنتاج الحديث من صناعة الإنسان، ولو كانت صناعة الإنسان الغربي، فقد اجتازت السيارات الجزيرة العربية مراراً أكثر من الأوروبيين.

وفي العهد الذي أكتب عنه لم تكن السيارة معروفة في بلاد الوهابيين، ويفصلنا عن الساحل مائتا ميل من الصحراء القاسية، تقطعها عدد من الدروب البديلة المتقاربة من بعضها في المنطقة المجاورة لمقاصدها النهائية الشرقية والغربية. والدرب الذي اخترناه سوف يصل إلى الماء بعد ذلك عند آبار القرعاء على مسافة خمسة وثمانين ميلاً، ولا يوجد ماءٌ مرة أخرى إلا في الصبيحية بعد خمسة وتسعين ميلاً إضافياً داخل حدود إمارة الكويت. لمثل هذه الرحلة يجب أن تكون الإبل قد ارتوت تماماً من الماء، وكان وصولنا المبكر والراحة الطويلة خلال النهار في ديجاني قد منحها فرصة كافية لترعى حتى التخمة.

يبلغ قطر دائرة منخفض الديجاني نحو ميل، والآبار كانت موزعة في مجموعتين كبيرتين تعرفان باسم الحرملية (جنوب) وأم الفناجين (شمال). ويختلفان في العمق من عشر إلى اثنتي عشرة قامة، ويحتويان على ماء عذب وغزير. والآبار غير مبطنة ومحفورة بصورة بدائية، ويبلغ قطر فوهة الواحدة ثلاثة أقدام، ونازلة

تحت طبقة الحجر الجيري تحت السطح. وترقد مجموعات من الأغنام والماعز حول الآبار طول النهار، وخيام الرعاة التي يبلغ عددها خمساً وسبعين خيمة تتناثر في المنخفض، وفيها بدو مطير ومجموعات من فريثان وحتى الغطغط.

من الطبيعي أن لا تتاح لنا فرصة للتحدث بلا كلفة مع المواطنين المختلفين في قريتي الإخوان، ولكن زارنا بعض الرجال من مطير. لقد كانت طريقة نطقهم مميزة وغريبة في حديثهم، والحبس الخفيف للنفس في الحلق يضفي عذوبة موسيقية بهيجة على كلامهم، والذي أعتقد أنه أعذب ما سمعت في الجزيرة العربية. حديث ذو رقة أنثوية على شفاه رجال. وأخبرونا بغزوة حديثة في المنطقة المجاورة لقرية مبايض الخاصة بالإخوان قرب المجمعة والتي خلال أحداثها استولت جماعة من العجمان على بعض قطعان من الإبل، ويُحتمل أن يكونوا الآن قد انطلقوا بها تماماً في طريق عودتهم مع غنيمتهم نحو إقليم الكويت الذي يأوون فيه ليطلقوا سهام مضايقاتهم الصغيرة على ابن سعود[1]. كانت هذه الأخبار طيبة من ناحية ما بالنسبة لنا؛ لأن المهاجمين كانوا أمامنا وليسوا خلفنا. ومن حسن حظنا أننا لم نصادفهم ونصطدم بهم في اليوم السابق، حيث إن دربنا لابد أنه يتقاطع مع دربهم، على الرغم من أنهم في الغالب قد قطعوا معظم سفرهم بالليل. ومع ذلك، في هذا الوقت يحتمل أن تكون كل من شمر والعجمان على أهبة الاستعداد للحرب، وكان أمامنا وقت عصيب كلما اقتربنا من حدود الكويت، وهي واحدة من أشد الأجزاء اضطراباً في جزيرة العرب[2].

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن العجمان في الأجزاء الشرقية من الجزيرة العربية ودورهم السياسي والعسكري مع بعض القوى في الجزيرة العربية كابن سعود وابن الرشيد، وغيرهما، انظر: الريحاني، نجد وملحقاتها، ص ٢٢٥، ابن هذلول، ص ١٠٥، محمد الأحسائي. تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد (الرياض، ١٩٦٠م) ص ٢١٤، وهبة، جزيرة العرب، ص ٢٣٩، السعدون، ص ١٧٠ وما بعدها، عبدالعزيز الرشيد، تاريخ الكويت، ص ٢١٤، خزعل ج٢، ص ٢١٧. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن أوضاع الكويت السياسية خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري والعشرين الميلادي)، وعلاقتها ببعض القوى السياسية في الجزيرة العربية. انظر، السعدون، ص ٥٢، وما بعدها، سيف مرزوق الشملان. من تاريخ الكويت (القاهرة، د.ن، ١٩٥٩م) ص ٣٤ وما بعدها، ديكسون، الكويت وجاراتها. ترجمة عبدالله الحاتم (بيروت، ١٩٦٤م) ص ٥٣ وما بعدها، حافظ وهبة، جزيرة العرب، ص ٧٦، ٢٥٧. (ابن جريس).

قضيت معظم النهار هادئاً في خيامي، وبينما كنت أتنزه متجولاً في المساء صادفت غلامين صغيرين لهما شعر كث من البدو يلعبان لعبة بسيطة بدا أنها تبعدهم عن شرور أخرى لساعات حتى النهاية. فكل واحد بدوره كان يرمي قرص صفيح صغيراً في الهواء للآخر ليصوّب عليه حجراً بالنبلة، وعلى الرغم من أنه لم يصبه إلا مرة واحدة في الدقائق الخمس التي وقفتها مشاهداً اللعب، إلا أنه كان من الواضح أن هذه الطريقة في التصويب بقوة على هدف ما تمثل إعداداً ممتازاً للحياة البرية في الصيد والرعي التي عليهم أن يحيوها[١]. في ذلك المساء كان عندنا نعجة للعشاء، ومن رحمها استخرجوا حملاً كامل التكوين عند الذبح. لقد كنت أتخيل دائماً أن العرب لن يبيعوا نعجة حاملاً للذبح. وقد كُتفت الذبيحة بربطها على عمود يمتد على أكتاف رجلين بينما بدأ الباقون في سلخ الجلد كله قطعة واحدة وتقطيع الأوصال. وقد شارك كل شخص بصورة واقعية مشاركة فعالة في هذه العملية، وعندما جاءت امرأة عجوز تتسول منا تلّقت الحمل الجنين، والأقدام والأحشاء من الشاة، وقربة قديمة مهترئة وبعض التمر والسكر. هذه الأصناف المتنوعة حملتها معاً في طيات ثوبها القذر، وعندما انصرفت وهي تدعو الله لنا لاحظت أن أحشاء الشاة كانت موضوعة فوق السكر[٢].

في اليوم التالي، التاسع من أكتوبر، عبرت الدهناء للمرة الثالثة في خط يمتد إلى حد ما جنوب الخط الذي سلكته في رحلة عودتي من البصرة خلال إبريل الماضي لأنضم مرة ثانية إلى ابن سعود. وكنت أتعجب في ذلك الحين كيف سيستلم النتائج العامة للبرنامج الذي ذهبت إلى الحجاز ومصر لمناقشته. منذ ذلك الحين

(١) هناك أنواع كثيرة من الرياضات التي كانت تمارس في الجزيرة العربية خلال القرون الماضية، ولكنها اندثرت اليوم، لأنه حل محلها العديد من الرياضات الحديثة التي نشاهدها عند الناس اليوم. (ابن جريس).

(٢) هذا الوصف الذي يذكره هذا الرحالة يدل على الجوع والفقر الذي يعيشه الناس آنذاك، فلا يمانعون أكل وشرب كل ما يجدون نتيجة للحاجة والفاقة التي يعيشونها. (ابن جريس).

تطورت الأحداث بشكل حسن وإيجابي، وبدا أن هناك فرصاً مواتية لتطورات كبرى. ومع ذلك كنت الآن في طريق عودتي مرة أخرى للساحل بوعي تام لما سيحدث.

استمر التوتر بيني وبين رفاقي الذي نشأ بسبب حماقة دابي طوال اليوم في الديجاني، وظل بيننا خلال عبور الدهناء. ولم يكن مترك بالطبع يخضع لحظر استيائي، ولكنه فيما يبدو قد نقد كل اهتمام بمجريات السير بانحراف شديد في منطقة أصابته بالملل؛ ذلك لأنه بالطبع كان غريباً عنها رغم أنه اجتازها مراراً من قبل. وعلاوة على ذلك، فهو ما يزال يعاني من آثار حيلة لعبتها عليه في عنيزة يوم وصول أخبار انتصار ابن سعود أمام حائل. لقد كنت طبعاً أريد أن أنقل الأخبار إلى بغداد بأقل قدر من التأخير، وبعدما انتهيت من إعداد خطاباتي أرسلت إلى مترك. وقلت له: "ترى، هذه الخطابات ذات أهمية قصوى. اركب الآن ولا تقصر في أن تكون بالكويت خلال ستة أيام". ولم أقل له إن من بين الخطابات يوجد طلبٌ للوكيل السياسي في الكويت أن يدفع لحامله مائة دولار بشرط أن يخضع ذلك لوصوله خلال سبعة أيام. وقد أظهر حماسة كبرى وأحضر ذلوله عند الباب وشد عليها تجهيزات الركوب وأخذ الخطابات في يده ثم تذكر فجأة أنه ليس معه لا طعام ولا قربة ماء. وقدّم مضيفي كليهما له في الحال، ثم اعترف أن حاجته كانت للمال. عندئذ نفد صبري وقلت له إنه ليس بحاجة للقلق من ذلك بعد الآن، وبعد يومين، ليس مباشرة مني، سمع بما كتبته في الخطاب. ومنذ ذلك الحين لم يسامح نفسه ولا عفا عني؛ لأنه يريد المال من أجل ملذاته وعبثه في الكويت، وكان سينال أكثر مما يكفي لمتعته لو كان أقل أنانية.

غادرت حملتنا[1] المخيم قبلنا بنصف ساعة، واستغرقنا ساعة ونصف حتى لحقنا بها. من تلك النقطة أبطأنا سرعة السير بشكل يضيق الصدر إلى ميلين

(١) قافلة العفش. (فيلبي).

ونصف في الساعة؛ لأنه من الآن فصاعداً سيكون من الخطر أن نتفرق عن بعضنا خشية الاصطدام بالجماعات المغيرة في أي مكان بيننا وبين خط المراوي المعروف باسم طوال آل مطير(١). بعد ربع ساعة من انطلاقنا تسلقنا مرتفعاً بسيطاً في السهل الصخري القاحل لنرى الخط الطويل للدهناء أمامنا في ضباب الصباح، وصار مستواه يتقطع بقمم رملية كبيرة، عددها اثنتان وثلاثون قمة في مدى رؤيتنا. ثم سرنا على طول الدروب الواضحة فوق السهل المتموج شمال العرمة المكسو بالعرفج، وواصلنا السير هكذا حتى عبرنا جبلاً رملياً نائياً يدعى عريق مجده، وبعده اقتربنا من طريق بيحس القادم من القيعيه في قناة لغف قبل الجزء الأول من الدهناء نفسها. هنا توقفنا للفطور قبل أن نبدأ العبور المرهق المعروف للرمال.

كنت أركب بمفردي سائراً أمام الجماعة عندما صادفت راكباً وحيداً، حشاشاً أو جامع حشائش ذاهباً لجمع حشيش النوصى في الدهناء لإبله بديجاني. عندما اقتربت منه لاحظت الغترة البيضاء للإخوان على رأسه، ولكن ألقيت عليه التحية مع ذلك ورد تحيتي بحرارة ومودة(٢). وسرنا لمسافة راكبين معاً نتحدث عن المنطقة. ولما رأى أنني أعلم شيئاً عنها تعجب قائلاً: "ما أنت بهيّن؟، أي لست رفيقاً سيئاً، ثم أردف أن مثل هذا المديح يستحق بعض التقدير العملي، ورددت على ذلك بأن نقودي كانت متخلفة عني مع الحملة. وقد قبل هذا الرفض بإذعان ولم يكرر طلبه علانية عندما ـ في أثناء مروره ـ ناديته لينضم إلينا على الفطور، هذه الدعوة قبلها بلا شكليات ومراسم، وعندما انتهى من طعامه نهض وركب منصرفاً دون كلمة شكر. إنه

---

(١) تشمل الصفا، والقرعاء، والحبة وغيرها. (فيلبي). كانت الطرق وحملات الحج والتجارة قديماً تتعرض لاعتداءات من اللصوص وقطاعي الطرق، وغالباً كانوا من أبناء القبائل التي تقطن قريبة من الطرق التجارية التي يرتادها الحجاج والتجار والمارة على حد سواء. (ابن جريس).

(٢) كان الإخوان في عهد الملك عبدالعزيز يميزون أنفسهم بألبسة معينة، من تلك الألبسة عمامة بيضاء يضعها الواحد منهم على رأسه، ويضع عليها أحياناً عقالاً من القماش. (ابن جريس).

سوف يقضي الليلة في الدهناء ويعود في الغد لقومه. وإذا قابلني مرة أخرى فلن يُلقي عليّ التحية على الأرجح ولربما لن يظهر أي إشارة على معرفته إياي.

إن أقصى جزء غربي من الدهناء يسمى جضمة وربما يبلغ اتساعه ميلاً، وفيه واجهنا قطيعاً من الأغنام، سوداء بلا استثناء، تحت مسؤولية صبي صغير ومعه الحمار المعتاد حاملاً قربة ماء مملوءة. تشرب الأغنام في الديجاني مساءً وتمشي في برد الليل حتى الدهناء لترعى، حيث تظل هناك طول النهار، وتمشي مرة أخرى لتصل عند الماء في الفجر التالي، وهكذا إلى الأبد، حياة قاسية رتيبة للغنم والراعي معاً. وبينما الأغنام تتجول في المرعى لاحظت عدداً من الطيور الصغيرة صدورها صفراء تتحرك في صحبتها بمعدل طائر واحد مع كل خروف ليستفيد من ظله البارد.

بين جضمة والقسم التالي أرض الأجل يقع منخفض من الرمل الصلب فيه نتوءات من الصخر، والتي سماها عياض الذي تجول في الماضي بهذه المنطقة خلال خدمة بعض شيوخ مطير، لي باسم خب الرضم على الرغم من أن غازي دليلي الأسلمي في رحلة ابريل قد سماها خب الرضم وهو اسم نقله عائض إلى منخفض لاحق. ومما لا ريب فيه فروق قبلية في أسماء مناطق شديدة التشابه بصورة مملة وبدون معالم واضحة تماماً، ولكن ربما في مثل هذه الحالات ينبغي للمرء في هذه المنطقة أن يتبع عادة مطير[1]؛ لأنها بلا شك أرضهم. وقد مرت علينا جماعة صغيرة من تلك القبيلة هنا قادمة من القرعاء ثلاثة رجال وامرأة واحدة ومعهم أربعة من العير، أحدها يحمل حمولة من حشائش النصي لفرس رائعة المنظر تمشي بخطى رشيقة مع الجماعة وهي طليقة.

(١) للمزيد عن قبيلة مطير تاريخها، وفروعها، ومواقعها، انظر: الحقيل، كنز، ص ١٣٦-١٤٢. (ابن جريس).

إن أرض الأجل، هضبة متموجة بصورة طفيفة من الرمل وبها شجيرات الأضر والأرطي بصفتهما أهم النباتات هنا، ويبلغ عرضها نصف ميل، وتنفصل عن الجزء الثالث بخب ضيق، وهو منخفض مماثل يعزل الخب عن الجزء الرابع. لا الخبوب ولا الأجـزاء قـد ذكـرت أسـمـاؤها لـي في هذه المرة، ولكن الجـزء الرابع كـان الأول من سلسلة جبال متماثلة في الدهناء لها ثماني قمم رملية كبرى متراصة على طولها بمسافات غير منتظمة فاصلة بينها، بينما ظهرت مجموعة من تسع من مثل هذه القمم على بُعد نحو عشرة أميال نحو الجنوب من الشرق. وكان مسارنا يتجه نحو الشمال الشرقي. وقد مرّ علينا اثنان من جامعي الحشائش في طريقهما إلى الديجاني، وكانت إبلهم محملة بأحمال عالية من حشيش النصي، الذي ينمو بغزارة شديدة في البقاع الوسطى. والآن كنا نمر بين قمتين رمليتين وننزل على منحدر من الرمل العميق في منخفض واسع تتناثر فيه الإبل التي اندفعت عليها جماعتنا اندفاعاً وحشياً متفرقاً لتتمتع بحليب الضروع الممتلئة التي لا يمكن أن يقاومها أي عربي.

تتلألأ حشائش النصي طيبة المذاق في الشمس، وقد أكدت فتاة صغيرة، يبدو أنها الحارسة الوحيدة على القطيع، اسم خب الرضم الذي ذكره عايض لهذا المنخفض، الذي ذكر لي سابقاً باسم خب النوم. يمتد خط هذا الخب والجبال الرملية على كلا الجانبين من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، كما يمتد جبل رملي ثانوي بدءاً من على بعد ميل واحد نحو الشمال منا نازلاً في منخفض إلى أبعد ما يستطيع المرء أن يرى مع قمة وحيدة ومشهورة تدعى نقع المطوع، راكبة فوق ظهره على بُعد نصف ميل. وقد استغرق عبورنا للمنخفض ساعة وربع الساعة، وثلاثة أرباع الساعة لعبور الجزء الخامس، وهو بقعة من التلال الرملية، ونصف ساعة أخرى للتغلب على المنخفض التالي، خب النوم كما قال عائض، والدرب فيه واضح المعالم بخمسة عشر مساراً ملتوياً.

كانت نصف ساعة كافية لعبور الجزء السادس، وهو أعلى جزء من الدهناء، حيث كان السير صعباً نسبياً. ومن قمته نظرنا إلى الخلف على الخط العظيم للقمم، العمود الفقري المتشابك في القفر الرملي، الأبيض الفضي الضبابي تحت وهج شمس ما بعد الظهر. وهناك خب ضيق يفصل هذا الجزء عن الجزء السابق والأخير اسمه جهام على وجه التحديد، بحرٌ متدرج منخفض من أمواج الرمل اكتشفت في وسطه زوجاً من الغزلان البيض، بينما كان مروّج قد جرّب بلا نجاح بندقيته على نسرٍ قابع فوق قمة جبل. وفوق سطح هذه البقعة مشينا ساعة حتى أبعد جبل فيها، حيث نصبنا خيامنا في الرمل المطل على سهل الجندلية الواسع وخلفه الخط القرنفلي المنخفض لعريق دحل. إن المشي القاسي الذي تبعته وجبة رديئة لا تزال تتكون من الأرز ولحم الغزال المجفف، قد أسلمنا إلى النوم العميق على الرمل الناعم تحت لحاف السماء؛ لأننا لم ننصب الخيام. رقدت الإبل حولنا تجتر طعامها بصوت منتظم من صرير أسنانها، ورفاقي جلسوا يثرثرون أو يغطون في نوم عميق، بينما رحت أكتب مذكراتي اليومية في ضوء المصباح، وفي أثناء تلك هوجمت بجيش من الخنافس والحشرات الأخرى. ولقد ثبت أن طريق بيحس كان يسيراً بصورة كافية وكذب السمعة الشريرة للدهناء، التي تشكل للرحالة هدنة من العراء القاتل في القفر الصخري وللرعاة جنة حقيقية من الرعي الخصيب.

لقد استغرقنا ساعتين تقريباً في عبور سهل الجندلية وجبل إمار الرملي من ورائه (امتداد جنوبي من عريق دحول على ما يبدو، خاصة وأنه قيل إن الأخير لا يمتد حتى هذه المسافة الطويلة). ثم وطأنا صحراء الصمان الصلبة، حيث الدرب، ينغرس بعمق تحت سطح الأرض، ويمر أولاً فوق سهل منبسط ثم عبر منطقة وعرة نسبياً وسط الامتداد المتناهي المعروف من الجبال والمنخفضات المتراصة في دوائر وشبه دوائر، في الصمان الحقيقية.

وواصلنا السير ببطء ورتابة، ومتعت نفسي باختبار رفاقي ضد بطونهم. فقد انطلقنا عند الساعة الخامسة والنصف صباحاً بلا طعام، وطلعت الشمس أعلى

وأعلى ومـا من دليل أبداً على الفطور، وبدأت العـزائم تخـور والأرواح تيـأس بشكل واضح. ومع ذلك لم يتفوه أحد بكلمة. وبعد ذلك حاولوا أن يجذبوا انتباهي، ولكنني تفاديتهم حتى انهار عائض في النهاية وانتحب بصورة مثيرة للشفقة عندي قائلاً: "أنا جويع، أي أنني جائع قليلاً". فأجبته : "نعم، إنكم كلكم مستعدون بصورة كافية للتفكير في بطونكم وبطون إبلكم، ولكن ماذا عن جوع عقلي للمعرفة؟ وتتركني أموت جوعاً". على أنني شخصياً لم أكن غير مستعد للطعام، وتوقفنا بجوار تلين توأمين منخفضين يسميان جنيحاً. وقبلهما بعدة أميال مررنا عند مسافة ما إلى الشمال من دحل وهي بركة صخرية، جافة في هذا الفصل، وقيل إن عمقها ثلاثون قدماً. هذه القياسات أخذت بواسطة حبل أنزلناه في البئر وسحبناه مرة أخرى بالجمل، ثم تقاس المسافة التي قطعها الجمل بالخطوة تقريباً. توجد قرب دربنا قناة تسمى رجم عقاب على رابية منخفضة، وقبل أن نصل إلى جنيح كنا قد مررنا عبر منخفض به مجموعة من شجيرات السدر.

عند الساعة العاشرة والنصف استأنفنا سيرنا وواصلنا حتى الساعة الرابعة والنصف مع توقف نصف ساعة لصلاة العصر. وكان هناك ثلاثة منخفضات هي أم عدن وجو ابن رشدان المسمى على اسم شيخ مطير من فخذ جبلان وجو مرزوق المميز بركامين من الحجارة. وقد أضفت هذه المنخفضات تنوعاً كسر رتابة السير، وثارت لمحات خاطفة من المتعة والمزاح على محاولة راشد الرشيدي غير الناجحة في قتل أفعى كانت تتمدد على قمة شجيرة عرفج لتتمتع بالهواء. وربما كان طولها ثلاثين بوصة أو أكثر وسمكها نصف بوصة وذات رأس مدبب، وقد هربت مختفية بعيداً في حفرة.

بعد هذا مباشرة وقعت حادثة هزت مشاعرنا للخروج من بلادتنا ونعاسنا المتزايد. فعندما تسلقنا قمة جبل لاحظنا رؤوس جماعة تقترب منا نازلة في منخفض أمامنا دون أن ترانا. كنا في موقع أفضل ووقفنا ننتظر ما سيحدث من تطورات، وكل رجل منا يفك بندقيته من الشداد. وهناك نصف ميل يفصلنا عنهم

عندما أصبحوا، بعدما صعدوا الجبل، ملتصقين في الأرض بسبب المفاجأة. وللحظة عصيبة وقفنا نراقب بعضنا البعض. كنا عشرة وهم سبعة على ما يبدو؛ ولذلك هرول دابي وراشد متقدمين للتفاوض، بينما من جانبهم ركب رجل الحصان وتقدم في خبب. عند مئة ياردة بينهما وقف الطرفان وصار تبادل للاستفسارات والشرح بصوت عال. ثم اقتربوا من بعضهم وتبادلوا كلمات التحية وعند رؤية ذلك تقدمت كلتا الجماعتين للتآخي. لقد كانوا قادمين من آبار قرية جنوب القرعاء وهم قاصدون القصيم لمقابلة ابن سعود. وأحدهم يُدعى ابن حلف شيخ على ما أظن من ظفير، وآخر يقال له ابن منديل من بني خالد على صلة قرابة مع العاهل الوهابي بالمصاهرة. لم يكن لديهم أخبار ليزودونا بها، وسألني ابن حلف، وهو رجل في منتصف العمر ذو مظهر حسن، إن كنت أنا الرجل الإنجليزي الذي اشترك في الحملة العسكرية مع ابن سعود. فقال: "أنت اللي غزيت على حايل؟، أي هل أنت الذي ذهب للهجوم على حائل؟ ثم أضاف لراشد عند مرورنا قائلاً: "والله! بدوي[1]!!".

قبل هذا الحادث بقليل كنا قد عبرنا الدورب، التي عمرها يومان عندما سلكها الثلاثون مهاجماً من العجمان الذين استولوا على الإبل من مبايض وهم متجهون على ما يبدو نحو حفر الباطن.

على بعد حوالي خمسة أميال إلى الشمال يقع تل مخروطي يسمى أميثة ومن المعالم الأرضية الأخرى ركام رجم الدب. وخلاف ذلك كان المشهد خالياً من المعالم الأرضية حيث نصبنا خيامنا في منخفض ضحل بعيداً عن الطريق لنتفادى المواجهات العرضية. صارت عليه المياه التي معنا قليلة، كما أن مخزوننا من لحم الغزال المجفف قد انخفض إلى نسب لا تذكر، ووضعت الحصة كلها بصورة لافتة

(١) فعلاً كان فيلبي قد لبس زي البدو، وحرص أن يلبس الألبسة المحلية أينما ذهب حتى لا يكون نكرة بين الناس، ثم حرصه للوصول إلى ما يتطلع إليه من اندماج مع الناس ومعرفة معارفهم وثقافاتهم وعاداتهم وتقاليدهم المختلفة. وهذا يتضح في دراساته وكتبه التي وصلتنا عن أجزاء عديدة في الجزيرة العربية. (ابن جريس).

للأنظار في جانبي من الطبق. وقد نثرتها في الطبق كله بشكل أكثر عدلاً، وتعشيت أنا شخصياً على الأرز وحده المخلوط بالبصل الكثير، ومرة أخرى نمنا في العراء، والحشرات لم تكن كثيرة جداً مثلما هي في الدهناء، على الرغم مما بدا من وجود ذباب كثير، وفي اليوم التالي كانت تطير حولنا بأعداد كبيرة.

لقد ركبنا طول النهار كله بصورة مرهقة في الصمان، والاختلاف الوحيد من الرتابة العامة وجود منخفض أشد عمقاً من غيره، أو أن يكون اسمه مميزاً. وتهادت إبلنا بصورة يُرثى لها، وخلال فترة ما بعد الظهر صمتت من شدة الظمأ، ومع ذلك يبدو أنها تأكل عن طيب خاطر من تلك الشجيرات التي تعثر عليها، فلربما تستمد بعض السوائل منها. تناولنا فطورنا من توليفة من الفتات، الأرز، ولحم الغزال المجفف، والبصل والخبز الردي، والماء في قربنا تحوّل إلى اللون البني الداكن مليئاً بالشوائب لكنه بارد. ولم أشرب إلا جرعتين خلال النهار من أجل الاقتصاد، على الرغم من أن المزيد سيكون مبهجاً وساراً؛ لأن الرياح، على الرغم من عدم حرارتها، إلا أنها كانت جافة، وحمصت شفاه المرء تحميصاً. وقد لف العرب أغطية رؤوسهم على أفواههم، معتقدين أن هذا يمنع العطش، وربما يكون الأمر كذلك إذا اعتاد المرء على ذلك.

بعد ساعة من السير لحقنا بالحملة في منخفض بزم، ثم امتد مسارنا فوق منطقة متموجة بها أحواض صغيرة متناثرة تسمى صبغاً، وبعدها يقع جبل في قمته ركام من الحجارة كنصب تذكاري يسمى رجم الرجد. وهناك منخفض آخر هو فيضة الحمل يمثل انتقالاً واضحاً إلى قسم الصلب من الصمان، وهو نوع من السهول الواسعة الخالية من الأشجار النازلة برفق من جبل إلى جبل مواز له. ويوجد منخفض أم سدير[1]، وفيضة الصلبي حيث رأينا زوجاً من النسور تنظف موقعاً لمخيم قديم،

(١) ربما سمي هذا المنخفض بهذا الاسم لتواجد شجر السدر بكثرة فيه، وإذا كان ما ذهبنا إليه صحيحاً فالمفروض أن يسمى منخفض (أم سدر). (ابن جريس).

ومنخفضات أخرى متكررة بها أشجار سدر تقل أو تكثر كلها كانت مراحل في الطريق إلى الفطور. كانت أشجار السدر بصورة جزئية في فترة الازهار، وبدأت تكوّن ثمارها غير الجذابة، ثم صعدنا تلاً رتيباً خالياً من المعالم الواضحة أدى بنا إلى جبل عال يمتد شمال غرب مع شرق جنوب عبر مسارنا، وبه نصب تذكاري عبارة عن كوم من الحجارة على قمته يسمى رجم الشيوخ تخليداً لذكرى مناسبة قام فيها ابن سعود، الذي كان في معيته مترك، "يأخذ" مطير المحتشدة في منخفض الخمة الواسع، وقتل ما لا يقل عن مئتين وخمسة وأربعين منهم.

إن الدرب إلى آبار حبة ينحرف إلى اليمين في هذا المنخفض العظيم، الذي يبلغ طوله ثلاثة أميال وعرضه نصف ميل مع أيكة صغيرة من السدر في وسطه. وقد واصلنا السير حيث صعدنا إلى الصحراء بعده مارين عبر سلسلة من المنخفضات تشمل منخفض الجنينة حتى جبل عليه نصب تذكاري يسمى رجم المجلس، وبعده قطعنا هضبة ظهرات الظبي الوعرة. بعد ذلك تظهر منطقة مليئة بالحصى، متموجة برفق، تسمى الدبدبة فيها وجدنا جملاً ضالاً استولينا عليه وهو في منتهى العطش. توقفنا للصلاة، ثم مزيداً من السير على هضبة وعرة تسمى حزيمة سدوى مكونة من الصخر الجيري، وبعدها تجاوزنا منخفض مجهرة الذي أدى بنا إلى قمة منحدر رقيق فيه تقع رأس شعيب سديرة وهو واد عرضه نصف ميل يمتد شمالاً على طول الجرف الشرقي من الجبل، بارتفاع (٣٠) قدماً تقريباً. والضفة اليمنى من الشعيب عبارة عن تل منخفض، وقرب رأسه يوجد خزانان محفوران في الصخر يسميان ملزم (ملازم) لحجز الماء وتخزينها وقت الفيضان. ونصبنا في وسط أيكة من السدر.

لم نر أثراً طول النهار كله لإنسان، ولكن الشعيب يعج بالغنم ورعاتها، واستطعنا أن ننال ماءً كافياً لتعويض النقص في مخزوننا. واشترينا أيضاً خروفاً بخمسة دولارات فقط، بينما دفعنا عشرة في الديجاني لمثله، وتناولنا عشاءً طيباً من لحم الضأن والأرز والذي ساعدنا فيه عدد من الرعاة.

خلال النهار، وفي أثناء السفر مع الحملة، دخلت في نقاش مع واحد من الخدم الذي بدت ملامحه غير العربية أو بالأحرى غير النجدية التي أثارت فضولي. وفي الحقيقة رغم أنه يمني، ويحتمل أن تجري في عروقه دماء أخرى، فقد كان فتى قصيراً قوياً بوجه مستدير ريان ممتلئاً جميلاً، يقال له محمد، ويُلقّب بـ (البيه)[١] بسبب مظهره الأجنبي. لقد كان مواطناً من صنعاء وابن صاحب دكان أراد له أن يعمل في خدمة قوة الدرك الضبطية التركية، ولكن لأن لديه أفكار أخرى لمستقبله فقد هرب مستخفياً من بلده مع قافلة قهوة وصلت خلال (٤٥) يوماً عن طريق نجران إلى السليل، حيث قابلني، وبعد ذلك سار شمالاً لينضم إلى أهل بيت ابن سعود. وقام خزيّم الأسلمي يقتل أفعى أخرى خلال النهار، كما شاهدنا عدداً من الحباري منها واحدة قد صيدت بطلقة ثانية من بندقية بعدما جرحتها الأولى.

إن الألوان "الواقية" في هذا الدجاج الرومي الكبير بالصحراء لشديدة الوضوح والتميز. فعلى الأرض، سواء كان ثابتاً أو متحركاً، لا يمكن أن يُرى تقريباً على خلفية سطح الصحراء الرمادي البني، ولا يمكن أن يظهر بسهولة إلا عندما يطير في السماء. ومع طيرانه الكسول فهو يبتعد عن صائده بسرعة مذهلة. وحيوانات الضب أو السحالي ذات الذيل البوقي التي تؤكل قد شوهدت أيضاً بكثرة، ولكننا لم نقبض على أي منها.

أدى بنا المسير لمسافة قصيرة نحو ثمانية أميال نزولاً على طول شعيب سديرة إلى القرعار في الصباح التالي. والوادي بين الجبال يتسع هنا ويضيق هناك، ويمتد في البداية شمالاً ثم يتحول إلى الشمال الشرقي. وفي بطن الوادي كانت النباتات المتنوعة غزيرة وكثيرة، وكلما اقتربنا من الآبار كان صف طويل من الإبل يمر

(١) البيه: كلمة تركية يقصد بها الباشا، وما زلنا نسمع الأخوة المصريين يستخدمونها إلى اليوم، حتى أنها أصبحت كلمة دارجة على ألسنتهم، بل انتشرت في كثير من البلدان العربية الأخرى. (ابن جريس).

بمحاذاتنا وهو يقاوم صعود الوادي في الطريق إلى الصمان المرتفعة خلفنا للرعي. وخلال الجفاف الطويل في الصيف تظل على مقربة من منطقة آبار طوال مطير، وتتحرك جيئة وذهاباً بين المراوي المختلفة، ولكنها الآن سوف تبقى في الصحراء الخارجية طول الشتاء كله، ولا تأتي للماء إلا أحياناً إذا كانت الأمطار غير كافية. ويمشي الرعاة المختصون مع الإبل لرعايتها. هذا الموكب البطيء المتثاقل من الحيوانات التي ضاقت ذرعاً بالوجود بدا لي مثالاً على الحياة العربية، كفاحٌ شرسٌ لملكة الحيوانات ضد شبحي الجوع والعطش.

في القرعاء بئران، كل منهما بعمق خمس وثلاثين قامة، جاثمتان فيما يبدو من جميع الجهات على قمة هرم ذي رأس منبسط والذي تشع منحدراته الخارجة والنازلة بمسارات الإبل التي أثرت فيها أخفاف حيوانات السحب وهي تصعد وتنزل لسحب الدلو الجلدي وإعادته. هذه المسارات امتدت مثل النجم من المركز، فهناك ثمانية مسارات عند كل بئر، تسمح لثمانية من الإبل أن تعمل في الوقت نفسه. وكل جماعة توفر ما يخصها من أدوات مطلوبة تشمل الحبل والدلو والبكرة؛ لأن الآبار ليس عليها تجهيزات علوية دائمة.

يبلغ قطر المنخفض الذي تقع فيه البئر نصف ميل تقريباً، وهو شبه دائري، محيط به تلال منخفضة وهضاب صغيرة مدورة، وحوض من الرمل الخفيف تنتشر فيه الصخور والحصباء، ومليء بخيام البدو. وقد أحصيت منها مائة وسبعاً وستين خيمة، كبيرة وصغيرة، تخص قبائل مختلفة منها مطير بالطبع وبعض الصلبة وجماعة من شمر عبده من أتباع ابن جبرين(١). وقد كان الذباب مروعاً، كما تغيّر لون الماء بصورة سيئة، وبخلاف ذلك فهو لم يكن غير مستساغ.

(١) لمزيد من التفصيلات عن قبائل مطير وشمر وفروعها ومواطنها، انظر: الحقل، كنز، ص ١٣٦-١٤٢. (ابن جريس).

إن شعيب سديرة في الحقيقة يُفرّغ مائه ليس في منخفض القرعاء كما قد يظن المرء من وجود الماء فيه، ولكن في منخفض غير ذي ماء أو فيه آبار قليلة على بُعد ميل أو نحوه جهة الشمال. وفي الشمال يقع حوض الصفاء، ومعه ثلاث آبار لا يزيد عمق الواحدة عن اثنتين وعشرين قامة، وعلامته الطبيعية حبل طويل منخفض كما يُرى من هنا، ويغذيه شعيب عشيري، وإلى الجنوب تقع حبا (هبه) وفيها بئران عمق الواحدة (٣٥) قامة، بينما في جهة الشرق على بُعد ثمانية أو تسعة أميال تقع القرية العليا والقرية السفلى وهما مجموعتان من آبار كثيرة بها ماء قريب من السطح على عمق قامتين أو ثلاث، وجنوب الأخيرة على المسافة نفسها تقع أبواب التي يتراوح عمقها بين أربع قامات في الصيف إلى مستوى سطح الأرض تقريباً في موسم الفيضان. وعلى مسافة بعيدة لجهة الجنوب أيضاً يوجد أنجابية الذي تكتمل به مجموعة المراوي المدرجة بصورة عامة تحت اسم منطقة طوال مطير، ونظيرتها الشمالية تسمى طوال ظفير بعد الباطن.

تتكون التربة والروابي المحيطة من الحجر الجيري الجبسي، التي يبني فيها البدو أفران الإسمنت البدائية، حيث تحفر حفرة في الأرض، وتملأ بوقود الصحراء الذي تشعل فيه النار، ويترك ليحترق لمدة أربع وعشرين ساعة، بعدها يؤخذ الحجر الجيري أو رماد الجبسي لتشييد قنوات الري حوال الآبار. والصلبة ليس لديهم غير الماعز. وإبل مطير كانت في معظمها ذات لون أسود أو بني داكن، بينما إبل شمر بيضاء وبنية. هذه الجماعات، بما فيها تلك التي ذهبت للمراعي[1] في الصباح، ظلت على هذه الآبار لشهرين تامين. وكان معشر جبرين من الإخوان، على الرغم من أنهم لم يستقروا بعد ليحيوا حياة القرى، ولم يبد عليهم بأي شكل من الأشكال أنهم مستاؤون من تطفلنا. وزعيمهم يُدعى مقبلاً.

(١) نداء = يذهب إلى المرعى، ومندى = أرض المرعى.. (فيلبي).

تمثل مطير ثلاثة بطون من جماعة علوى وتضم البرصة تحت حكم منيف السر، وشقير تحت حكيم بن هزاع، وجزء صغير من الدوشان ومعظمهم تحت إمارة عبدالعزيز الابن الشاب لفيصل الدويش، وتقيم في الصفاء مع فخذ الجبلان بزعامة ابن شبلان. وكان بعض من مجموعة بريح تقيم في القريتين[١].

من الطبيعي بصورة عامة أن يندفع الصلبة الذين ثار اهتمامهم بوصولنا في أعداد هائلة رجالاً ونساءً محتشدين حول مخيمنا طول النهار بحثاً عن الصدقات والتوافه غير الجديرة بالاعتبار. فالبقايا الهزيلة من فطورنا، حيث لم يبق إلا العظام الجرداء وقليل من الأرز، قد جمعت لتقدم إلى جماعة تجلس القرفصاء من النساء، اللائي التهمنه كله مع أطفالهن بنهم شديد إما من الطبق أو من القدر الذي طبخنا فيه الطعام، بينما استخدم بعضهن طية من ثيابهن القذرة كوعاء مرحلي أشد اتساعاً من أفواههن. وكانت العظام قد قضمت ولحست نظيفة. وحمل طفل صغير رأس الذبيحة الفارغة ليبحث فيها عن البقايا الكامنة من المخ والفضلات. ومرة أخرى في العصر، عندما ذبحت شاة للعشاء، تجمعوا حولنا ليحملوا الأمعاء والأجزاء غير المرغوبة. وفي الوقت نفسه اجتمعت قلة من النساء وزمرة كبيرة من الأطفال حول خيمتي يجمعون كرات صغيرة من روث الإبل[٢] وقد أتاحوا لي فرصة رائعة لمراقبتهم من خلال فتحة الخيمة.

كان الأطفال لا سيما البنات الصغار، ذوات وسامة فذة وجمال أكيد مشوب برزانة ووقار يناسب أعمارهن. لقد كن يرتدين الثوب النسائي الأحمر المعتاد، الذي يكشف عندما يتحركن عن أجسام نحيلة رائعة بداخله، وأغطية الوجه أيضاً من اللون الأسود، ولكنها مهملة لدرجة أن وجوههن كانت مكشوفة تماماً. والصبية الصغار، المختونون بطريقة المسلمين، يرتدون أسمالاً لا يريدها أحد. وبدت النساء

---

(١) للمزيد عن قبيلة مطير، أنسابها، فروعها مواطنها، انظر: الحقيل، كنز، ص ١٣٦-١٤٢. (ابن جريس).

(٢) روث الإبل: يسمى أيضاً (جلّة) أو (الجلّة). (ابن جريس).

ذوات أجسام طيبة وجمال على الرغم من التعب البادي من قسوة العيش. وملامحهن تدل على وجود نوعين مميزين تمييزاً تاماً، أحدهما من ملامح الغجر المعتادة ومن الهيئة السامية، والآخر ملمح ريان ممتلئ عريض ومنغولي. وكنّ يرتدين الخمار، ولكن دون أي محاولة لإبقائه حيثما ينبغي له، وعندما اعتدن على صحبتنا تبادلن مزاحاً خفيف الظل مع رجالنا. وكان رشيد قد ظهر في معدنه الحقيقي وهو يمزح بنكات فاحشة مواربة باستمتاع شديد. وفي المساء تجمعن حولنا مثل النسور يراقبن انتهاء الطعام، وبعده انقضضن في قتال حار على الفضلات، فكل سيدة أو آنسة تندفع بعيداً بما استحوذت عليه مثل كلب لتزدرده في هدوء وسلام. وفي معظم الأحيان تتبعها صديقة لها أقل نجاحاً منها.

أثناء النهار ضايقتنا الجهود المثابرة للمطيري الأبله، العاري تماماً إلا من إزار صغير، للدخول في مخيمنا. وقد عومل بقليل احترام، وطرده بعيداً في كل مرة رشيد أو واحد من الآخرين وهو يرميه بالحجارة وبأقذع السباب، له ولوالديه. على أنه جدد محاولته تحت جنح الظلام، من أجل السلام والهدوء، قُيّد بحبال وترك ينام بيننا حتى الصباح وهو غير قادر على إزعاجنا. وقد رضي بهذه المعاملة دون كلمة احتجاج؛ لأن امرأة في يوم أمس كان قد ضايقها، قد جرحت فكه بحجر. وقد ذكرتنا معاملته هذه بحادث بسيط وقع أثناء السير صباحاً عندما اندفع كلب نحو مسارنا وتظاهر واحد من جماعتنا دوسري يدعى محمداً، كما لو كان يفك بندقيته من الرباط ليطلقها. وقد اعترضت قائلاً: "هل ستأكله؟". فأجاب بوجه بدأ عليه الخزي "أطال الله عمرك! لا ولكنها تأكل العرب" ربما لأنها تأخذ شيئاً من مؤنتهم الهزيلة.

لقد قطعت إبلنا سبعاً وثمانين ساعة منذ آخر شرب لها حيث أخذت اليوم كله تشرب وترتاح من عنائها. وفي الوقت نفسه اتخذت ترتيبات مع صلبي، اسمه عيد، ليأخذ خطابات قبلنا إلى الكويت، ورتبت أيضاً مع واحد من قبيلته اسمه سويعد[1]،

---

(١) تصغير سعد. (فيلبي).

ليعمل دليلاً لنا فيما تبقى من الرحلة. لم يكن ذا مظهر خلاب، وخلق انطباعاً سيئاً بإصراره على أن يكون أجره محدداً قبل بدء الرحلة. ربما تعرض للخسارة في هذه الصفقة، التي تم الاتفاق فيها على عشرين دولاراً، مبلغ ضخم بالنسبة له، ولكنه ربما كان أقل مما قد يناله لو ترك الأمر لي. وفي الحقيقة أثبت أنه رفيق مقبول دون أي كفاءة خاصة تمكنه من أن يكون دليلاً.

وعلى مدى خمسة وعشرين ميلاً مشينا في قفرٍ كان لعنة الخراب والدمار، وعيوننا تترصد تماماً لأي عدو في الأفق الممتد بعيداً مثل البحر. على أنه لم يظهر أي عدو ولا أي أثر على وجود حياة بشرية في ذلك اليوم بعدما تركنا خيام القرعاء وراء ظهرنا. كان سويعد يسليني بثرثرته الغريبة والمضحكة، وقد أثار وجوده في رفاقي الآخرين رغبات التحدث والكلام، الذي بدأ على هيئة نقد وتفنيد لمعلوماته الجغرافية التي قدمها لنا. من هذا الغموض العام جمعت معاً في مذكراتي النتائج التي حصلت عليها من أدلة متناقضة. وكان التحسن العام في الجو الاجتماعي بالجماعة قد بورك بتحسن ملحوظ في الأحوال الجوية فوراً بعد وصولنا المخيم. فقد هبط علينا وابل خفيف من المطر من غيمة كبيرة كثيفة برزت فجأة من سماء صافية في الشمال الغربي، وذلك أول مطر في موسم الوسم[1]، وأول مطر أراه منذ السادس من مايو. ولأكثر من ستة أشهر كانت الصحاري جافة عطشى. وتحدثنا بتفاؤل عن العشب الذي سوف يصل بعد ذلك إلى الأحزمة المربوطة على متون الإبل.

تكلم سويعد عن الصيد وعن أقاربه. وسألته: "من أين جئت؟". فنظر إليّ بأناة مع ابتسامة غريبة على محياه الغجري الصغير، فقد كانت ملامحه داكنة بمسحة من النحاس اللامع، فقال: "يقولون أننا ننبع منكم، من الأنجريز"[2]. وأسعدته

(١) الوسم: يطلق عليه أيضاً كلمة (الوسمي)، وللمزيد عن أيام الأمطار وعلاقتها بالنجوم والسحب والكواكب، انظر: ابن قتيبة الدينوري. كتاب الأنواء في مواسم العرب (الهند: حيدر أباد، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م) ص ١٤ وما بعدها. (ابن جريس).
(٢) الانجريزي: يقصد بذلك الإنجليزي. (ابن جريس).

باعترافي أن الإشاعة كانت صحيحة. فقلت: "إننا فعلاً أولاد عم". في الماضي لم يكونوا يهتمون إلا قليلاً بعادات الإسلام في الصحراء، ولكن الآن يوجد التزام أكبر خوفاً من الإخوان حيث يؤدون الصلاة ويمارسون الختان[(١)].

خرجنا من منخفض القرعاء عن طريق واد يتجه شمال شرق بين جبلين منخفضين ريش النظيم على اليمين امتداداً للتلال على الجهة الجنوبية من الحوض، وبريقة على اليسار بدءاً من رابية دامغ على بُعد ربع ميل شمال البئر الأوسط. تشتت الوادي من عرض ميلين وراء تل صغير يسمى مزبوراً، وظهر جبل منيصفة الصفاء المنخفض فوق الضفة الشمالية على بُعد خمسة أميال تقريباً، ويعد علامة منتصف الطريق بين المرويين. وبعد شعيب صغير ينتهي في منخفض معشوشب بالشجيرات على يسارنا صعدنا إلى سهل رملي، فيه انطلق طائر سمان من شجيرات العرفج والأندة. ووصف سويعد ثعباناً ساماً طوله خمس عشرة بوصة، وبه خطوط رمادية على خلفية قشدية اللون وثلاثة خطوط رمادية على رأسه. لا تزال تنسب هذه المنطقة إلى الصمان وتسمى مشالف.

أدت مجموعة من المنخفضات التي تشبه الأحواض إلى سلسلة من القنوات تعرف معاً باسم شعيطات أولها شعيط رويان المتجهة شمال شرق. توقفنا هنا للفطور في بقعة كثيفة من الشجيرات في منخفض. في مجراها الأدنى تلتقي رويان بشعيطة عطشان في طريقها إلى آبار الوبرة. ويتكون قاع عطشان من ألواح الحجر الجيري، وضفتها اليمنى كانت جرفاً طوله عشرة أقدام. وقد سرنا في مجراها حتى

---

(١) دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب كان لها آثار حميدة على مجتمع الجزيرة العربية، حيث حاربت كثيراً من البدع والشركيات، ووجهت الناس إلى العودة والاحتكام إلى ما في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ. للمزيد انظر: محمد الخميس. عناية الملك عبدالعزيز بالقصيدة اللفية، ص ٢٥ وما بعدها. آل أبو طامي، الشيخ محمد بن عبدالوهاب، عقيدته السلفية..، ص ١٧ وما بعدها، السكاكر، الإمام محمد بن عبدالوهاب، ص ٢٢ وما بعدها. (ابن جريس).

منبعها تقريباً، حيث وجدنا أنفسنا في سهل حصوي واسع به تموجات جميلة، على بُعد خمسة أميال عن يسارنا يوجد جبل كرع الذي ينتهي في هضبة مدورة معزولة تسمى فيصل. وفي الاتجاه نفسه جبل وريع وعلى يميننا الساحل المنخفض لطويّل النضيم. واكتشفت غزالاً وحيداً على مسافة ودهشت عندما علمت كيف استطاعت قلة من رفاقي أن تمسك به. كان جبل وريع يقترب منا، وفي الوقت الملائم صعدنا منحدره الرقيق لنجد أنه عبارة عن بقعة واسعة من الحصى والحجارة ذات الألوان المتعددة، الأسود والأبيض والأخضر والأحمر القاني وألوان أخرى. وفيه يوجد وادٍ ضحل واسع، اسمه صبان يمتد شرقاً وغرباً. وقد دخلناه قرب روضة تسمى سديرة، ومشينا على روضتين توأمتين اسمهما خبيرة ورمادي. وبعدهما وجدنا أنفسنا على دبدبة قرب حوض رجلة الضبع الذي تغطي مساحته الواسعة الرمل والحصى مع كثير من النباتات، التي رأينا فيها قطيعاً من عشرين غزالاً تقريباً. حاول دليلنا الصلبي اطلاق النار عليهم دون نجاح، ولكنه قتل ثعباناً نحيفاً غير مؤذ طوله ثماني عشرة بوصة والذي سماه زروقاً. وعند الغروب خيمنا في منخفض عند جبل الحمر وتعشينا بلحم الغزال المجفف والأرز، ومع احتمال وجود أعداء فكان من الضروري تغطية مصباحي بأوراق من جريدة تايمز[1].

في القرعاء وجدت فراشي في العراء مشبعاً بالندى، والهواء أثناء الساعات الباكرة من النهار، كان رطباً وحاراً إلى أن جففت الشمس وجه الصحراء. وهذه أول مرة أشعر فيها برطوبة في الجو منذ الربيع. في هذا المخيم أيضاً بعد المطر كان الجو ندياً، وانطلقنا على غير العادة مبكرين، فيما ثبت أنه سيرٌ لنحو ثلاثة وثلاثين ميلاً. لا تزال الدنيا مظلمة، وارتفع الفجر الكاذب مثل قمع عظيم في الشرق،

(١) يبدو أن بعض وسائل الإعلام العربية والغربية بدأت تصل إلى بلاد نجد والقصيم منذ النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، مع أن اتصال أهالي بلاد الحجاز مع خارج الجزيرة العربية قد سبقوا غيرهم من سكان الجزيرة العربية. (ابن جريس).

يتلاشى تدريجياً في الضوء الأصفر الضبابي للفجر الصادق. وكانت الدبدبة شاسعة بتموج شديد طويل الرقة كما لو في بحر هادئ. وسطحها من الحصباء الرملية يغطي طبقة الصخر الجيري. وقد شاهدنا بعض الغزلان مرة أخرى عند الفجر. ويقع جبل الضبع على مسافة بعيدة عن يسارنا، ومنطقة قرعة، مثل جبل آخر، أمامنا في البعيد. وقد سرنا ببطء وتثاقل متعبين، وقطعت الوقت في عد خطوات الإبل المتعددة. فكانت ناقتي، العمانية التي ركبتها بصورة منتظمة منذ مغادرة الرياض[١]، تمشي تسعاً وثمانين خطوات في الدقيقة، وناقة رشيد، وهي حيوان ذات أطراف كبيرة بلون أبيض شاحب مأخوذ من الغنائم الحديثة من شمر، أخذت ثماني وثمانين خطوة. ومع ذلك كانت ناقته تسبق ناقتي بعيداً بخطواتها الأطول.

لقد أتينا على بقعة بها خطوط طبيعية واضحة تماماً، وتبدو تقريباً اصطناعية في مظهرها، تفصل بوضوح منطقة الدبدبة المكسوة بالرمث عن منطقة قرعة، وهي سهل متجهم كالح خال من الشجيرات، وفيه بقعة من التربة الرملية الخفيفة فوق أساس طيني مع تموجات رقيقة جداً ورقع أخرى متفرقة من الحصى. ولم نر أي شجيرة في قفرها الهائل، ولكنها كانت مصفرة بحشائش الخريف[٢] التي أثلجت صدور إبلنا وراكبيها، ما عدا أنا لأنه كان حتاً مملاً بالعصا لبهائم جائعة، وهي بكل عناد تلوي أعناقها الطويلة إلى تحت نحو الحشائش أو القش اللذيذ. تعج هذه المنطقة بالغزلان، التي ظلت منها قطعان كبيرة في مدى الرؤية طوال اليوم، على الرغم من أن صيادينا تقدموا نحوها مرة بعد مرة دون جدوى.

إن ضرورة البقاء معاً خوفاً من الأعداء صارت مضجرة لرشيد وخزيم الأسلمي اللذين كانا دائماً يتخلفان وراءنا ليتمتعا بالتدخين في هدوء. في إحدى المرات

---

(١) الإبل العمانية: هي من أنواع الإبل الجيدة وكانت غالباً ما تُصَّدر إلى الحجاز ونجد واليمن وبلاد الشام وغيرها. (ابن جريس).

(٢) النصي ورمم وحثره وحليبه وغيرها. (فيلبي) للمزيد من المعلومات عن النباتات في الجزيرة العربية انظر: الدينوري، كتاب النبات، (عدة أجزاء). (ابن جريس).

أرسلت لهما رسالة مع واحد لم يكن يخفى عليه سبب هذه التأخرات، مفادها أن أي شخص يريد أن يتوقف لأي سبب من الأسباب يجب عليه أن يهرول أمامنا بحيث نستطيع اللحاق بهم. وقد لحق بنا رشيد في لحظة كلمح البصر وهو يتذمر من الاستخفاف والازدراء الواضح في رسالتي، ومشى عابس الوجه حتى لم يعد بإمكانه أن يتحمل الامتناع عن الأكل والشرب. فتوقف، ونزل، وبكل تباه نظر إلى أحزمة سرجه وبدأ يشرب الماء. وقد واصلت سيري، ولكن قبل أن نبتعد عن مدى السمع جعلت عائضاً ينادي بصوت جهوري نداءً رسمياً فحواه أن أي شخص يرغب في شرب الماء أو التدخين عليه أن يسبقنا قبل التوقف لهذا الغرض. وأردفت أن أي شخص بحاجة إلى التبغ ما عليه إلا أن يطلب مني. وقد قوبل الإعلان بقهقهات من الضحك، وظل رشيد أمامنا تماماً فيما تبقى من اليوم مما أثر تأثيرات مفيدة على معدلنا في السير. وقبل أن نصل منطقة القرعاء مباشرة حذرني من أنه لا ينبغي لنا أن نبحث عن شجيرات للحطب أمامنا، ولكن، لأنني شعرت باحتمال نشوب مطالبة صاخبة بالتوقف مبكراً إذا كان الحطب معنا وكنت أتمنى أن عدم وجوده قد يؤدي إلى بذل جهد عظيم للوصول إلى منخفض الشق، فقد اعترضت على اقتراحه قائلاً: إننا يجب أن نحمل معنا الحطب. وكانت النتيجة أننا قضينا تلك الليلة دون وقود إلا من روث الإبل والحشائش[١].

أثناء هذا السير تأكدت لنا مزايا البقاء معاً بشكل ملائم بسبب إنذار مفاجئ. فعلى مسافة بعيدة عن يسارنا نحو ميل رصدنا جماعة ماشية. وبعد الفحص الدقيق من خلال النظارات تعرفنا على أنها حدرة أو قافلة، ولم نكد نصل إلى هذه النتيجة إلا وانطلق رشيد وثلاثة أو أربعة من الآخرين ليحصلوا على الأخبار منهم. ولم

(١) في القديم كان روث الإبل (الجلة) يستخدم في الوقود للتدفئة من أجل طهي بعض الأطعمة وبخاصة في حالة عدم وجود الحطب والأخشاب الصالحة للوقود. (ابن جريس).

يستشيروني في ذلك، ولكي أبيّن استيائي من هذا التعطيل لسيرنا أوقفت بقية الجماعة، وأشعلت غليوني، وبدأت أتفحص الجماعة الأخرى من خلال منظاري. لقد كانوا جماعة من عشرين شخصاً تقريباً، معهم ما يزيد قليلاً عن هذا العدد من الإبل. ومن بينهم منصور بن شريدة من بريدة عائداً نحو بلده من الكويت وبرقش ابن جبرين راجعاً إلى قومه في قرعة.

هذه المقابلة أدت إلى حادث مشؤوم، فعندما وضعت منظاري جانباً أخذه عائض ليفحص الغرباء، عندئذٍ وبخه دابي ربما انطلاقاً من فضوله المحض ودون أية نية في إهانتي. وردّ عليه عائض بحدة وعنف كما يفعل العبيد دائماً، وأصبح النزاع مشتداً نسبياً عندما استأنفنا السير بعد عودة رشيد والآخرين. وتطور الأمر بسرعة فقال عائض، وهو يميل إلى إغاظة الآخرين مستفيداً من حجة أن دابي عنفه على استخدام ممتلكات كافر أنه لا يأبه بالمرة بواحد مثل دابي. وصاح بأعلى صوته: "أنا هنا بموجب أوامر من ابن سعود في خدمة الأنجريزي[1]، وأنا فخور بهذه الخدمة". وفجأة حيث لم أكن متأكداً من أيهما بدأ أولاً، فك الاثنان بندقيتهما من شدادة الرحل وبدءا يدوران حول بعضهما البعض في مناورة لاتخاذ موقع. وكنت حتى الآن مجرد مشاهد مستمتع بالنزاع، ولكني ظننت أنه قد حان الوقت للتدخل. فركبت إلى دابي واستنزلت عليه لعنة الله؛ لأنه محرّك الشر والأذى، وصحت على رشيد أن ينزع البنادق من كليهما. فتردد وبدت الأمور مروعة فظيعة. وعلى الفور أنخت ذلولي، وبعدما وبخت رشيداً بأعنف العبارات المختارة بعناية، أعلنت عزمي على البقاء هنا إلى أن يطاع أمري. عندئذٍ نزع السلاح من كليهما فوراً، وبعد تحذيرهما من تجدد الثرثرة بينهما ركبت مرة أخرى، ولم يتكلم أحد بشيء بعد ذلك.

(١) الانجريزي: أي الانجليزي نسبة إلى فيلبي الذي من بريطانيا، بلاد الانجليز. (ابن جريس).

أصبحت منطقة السهل المكتسي بالرمث الآن متداخلة في القرعاء تحت اسم حميضة التي يُظّن أن فيها فخذ برية من مطير يرعون مواشيهم من مركزهم في وفرة ومعهم أقارب عائض ومروج، اللذين سمحت لهما أن يذهبا للبحث عنهم. وقد انضما إلينا مرة أخرى في اليوم التالي لحظة وصولنا صبيحية بعدما خاب أملهما في العثور على أصدقائهما، على الرغم من أنهما وجدا إبل الفخذ ترعى. خلال أربع وعشرين ساعة من غيابهما كانا يقتاتان تماماً على لبن النوق. وقد نصبنا خيامنا تلك الليلة في منخفض ضحل واسع بالقفر، وكنا ضايقنا قطيعاً كبيراً من الغزلان التي فرت هاربة نحو الغرب عند اقترابنا.

امتدت منطقة قرعاء أمامنا ظاهرة بلا نهاية؛ ولأنه انتشرت شائعات عن تجول الرجال والإبل حولنا، فقد استغنيت عن مصباحي وهيأنا أنفسنا للنوم مبكراً، عازمين على بلوغ صبيحية غداً إذا أمكن. ومشينا طول النهار كله في سهل خال من المعالم الأرضية، ولم يكن بوسعي سوى أن أتعجب من المهارة التي سلك بها دليلنا الصلبي، الذي لقبه رجالنا بأبي الخلاء أي "رجل الصحراء"، مساراً مستقيماً تماماً بلا أي شيء يوجهه إلا الموهبة الطبيعية. لقد كان من فخذ ماجد، وقال لي: إنه مع قدوم الحضارة بدأ الصلبة يميلون إلى تفضيل ارتداء الملابس العادية على جلود الغزلان التي كانت ردائهم الوحيد في الماضي.

لقد أصدرت أوامري بالتحرك مبكراً، ولكن دهشت من إيقاظي عند منتصف الليل. وقد اعتبرت أن ذلك شيئاً فلسفياً بدرجة كافية؛ لأن أمامنا صحراء منبسطة بلا تضاريس أرضية لنعبرها، وعلى مدى أربع ساعات سرنا بالنجم القطبي في الظلام. وفي نهاية ذلك الوقت كنا ما نزال في الصحراء نفسها التي أرهقتنا في اليوم السابق. ولم يظهر المنحدر البعيد لجبل الشق إلا عند الخامسة صباحاً أمامنا على اليمين وهو يلتف في دائرة حولنا معترضاً طريقنا. وعند الثامنة صباحاً، بعدما

أصبحت تلال فوارس الشق المتقطعة على يميننا، وصلنا منخفض الشق وعبرنا خطه الضيق إلى الأرض المرتفعة من بعده. عند ذلك انتهينا من القرعاء وقطعنا صيامنا بالفطور احتفالاً بهذا الإنجاز، فقد مشينا لما يقرب من ثماني ساعات بلا انقطاع ما عدا وقفة قصيرة لصلاة الفجر.

من هنا سلكنا سهلاً متموجاً مكسواً بالعرفج، وتتناثر فيه المنخفضات. هذا سهل الشقيق الذي عبرناه بعد ساعة من السير، ويمتد جهة الشمال الغربي بين جبال من الحجر الجيري وليس له مخرج على ما يبدو. بعد ساعة تجاوزنا على يميننا منخفض رديفات الشقيق الضحل، وبعد ساعة أخرى من التموجات الرتيبة أدت بنا إلى رؤية هدفنا وهي القمم المنخفضة لجبل برقان الذي يقع على بُعد نصف ميل تقريباً وراء آبار الصبيحية. وقد بدا قريباً بما يبعث السرور في النفس؛ لأننا كنا متعبين، ولكن لم يزل أمامنا ثلاث ساعات من السير المرهق. نحو الشمال الشرقي، عندما سرنا متوجهين إلى قمة برقان الرملية الرئيسة ظهرت قمة ورة المخروطية السوداء الوحيدة. وفي أثناء مرورنا بمنخفض يسمى ثميلة تركي وجدنا سطح الأرض محززاً بقنوات رملية ومنحدراً بتدرج نحو حوض صبيحية. تصب مياه منخفض ثميلة تركي في منخفض آخر يسمى مجوع الذي بعد أن تجاوزناه أتينا في مدى الرؤية إلى آبار تقع أسفل منا في الأمام، فلا زال الطريق طويلاً بعيداً فوق السهل المنحدر المخادع. وحول الآبار وبمقربة منها من جهة الشمال شاهدنا قطعاناً هائلة من الإبل. والمكان ينبض بالحياة مما دفعنا نتقدم نحوه بأسرع ما تستطيع إبلنا المجهدة أن تحملنا.

وفجأة أدركنا أن نوعاً من الرعب قد دب بين العير الأقرب إلينا، وهي تلك القريبة أيضاً من الآبار. لقد فعلنا الإشارات المعتادة التي تدل على نوايانا السلمية واستأنفت العير سيرها كما لو قد رضيت. بيد أن طلقة قد صوبت علينا من مسافة

بعيدة، أصابت الأرض خلف مترك، الذي كان أمامي مباشرة، مما يعني أننا من الواضح لا نزال موضع شك واتهام. وقد واصلنا تقدمنا، ونحن نرفع إشارات الصداقة، بينما انطلق راشد الرشيدي أمامنا بمفرده، ولكن شاغلي الآبار ما يزالون يرفضون الاقتناع ودوت طلقات متقطعة فوق رؤوسنا. ونحن ما نزال نواصل التقدم، على أن الأمور أصبحت تزداد خطراً، والطلقات لسوء الحظ تزداد تكراراً وقرباً. وأصبح راشد الآن أمامنا بمسافة بعيدة، أما رشيد ومترك وواحد أو اثنان آخران فكانوا على مقربة منه. وعلى مسافة ما من ورائهم وببطء شديد تابعت السير مع الجزء الرئيس من القافلة. وظلت إبل العفش على مسافة ميل في المؤخرة. من الواضح أن شيئاً خطأ قد حدث حيث أصبح إطلاق النار وابلاً منتظماً. ولم تكن عندي أدنى رغبة في أن أصبح الضحية لحادث في آخر يوم لي بالجزيرة العربية، وانزلقت نازلاً من رحلي. وحذت باقي المجموعة حذوي، وأنخنا إبلنا انتظاراً لما يحدث من أحداث. كان خزيم وشخص آخر أمامي وأنا أقف خلفهما تماماً أراقب تقدم جماعة المقدمة، عندما انطلقت فرقعة بشعة في الهواء، كما لو كانت من رصاص متهشم، نبهتنا لتوخي مزيد من التعقل والحذر.

وجلسنا كلنا عاجزين على الأرض خلف حاجز من إبلنا. بحلول هذا الوقت وصل راشد الآبار وبدأ التفاوض، بيد أن إطلاق النار، على الرغم من أنه أصبح متقطعاً، إلا أنه لم يزل مستمراً لفترة. ولم يتوقف تماماً إلا بعد أن وصل رشيد وتلقينا إشارة أن كل شيء قد أصبح على أفضل حال. وبعد قليل وصلنا إلى الآبار لننصب خيامنا ونعلم سبب هذا الهجوم الغريب. كانت العير تخص قافلة من قوم الكويت الذين هاجت أعصابهم بقدر عظيم من الغضب بسبب احتمال السير الطويل في الصحراء الذي ينتظرهم. نتيجة سياستنا نحن المتذبذبة في السماح لشيخ الكويت وأصدقائه من العجمان وشمر بمضايقة ابن سعود بلا قيد فقد أصبحت

المنطقة كلها تعيش في حالة من الخوف والقلق وعدم الاستقرار(١). إن الشك الذي أثاره ظهورنا المفاجئ قد خلق ذعراً، ولم يكن هناك من أحد في القافلة يستطيع أن يحتفظ بأعصاب الجماعة تحت السيطرة. وإن صح تقديرهم لنا لكانوا قد خسروا في موقف يضعهم تحت رحمتنا. لقد كانوا حمقى ولم يمنع وقوع حادث لن يكون له تعويض مؤسف إلا إطلاقهم النار بتهور. ومن الغريب كما قد يبدو أن هذه أول مرة أتعرض فيها لنيران حقيقية خلال السنة كلها من إقامتي المؤقتة في جزيرة العرب(٢).

٥ـ الكويت(٣)

لأنها لا تنعم بالبرق أو بالوسائل الأخرى من الاتصالات السريعة فقد ظلت الجزيرة العربية دائماً أرض الشائعات، التي تتطاير عبر مسافات صحرائها مثل التبن أمام الريح مع حبة بين الفينة والأخرى من الحقيقة الضالة في وسطها، تقع غير مرئية، لا يهتم بها أحد. فالمحتمل يقبله المرء كما لو كان ممكناً، والمستحيل أو غير المحتمل بصورة كبرى يرميه المرء جانباً في دهاليز النسيان للحكايات التافهة، وربما يتساءل عن الأسباب والبواعث الكامنة وراء ترويجها. وفي تلك الليلة الخامس عشر من أكتوبر (١٩١٨م)، عند آبار الصبيحية على حدود صحراء جزيرة العرب دونت ببساطة في مذكرتي اليومية قائلاً: "أحدث إشاعة كويتية كانت عن الاستيلاء على

(١) لمزيد من التفصيلات عن موقف بريطانيا من الكويت وابن رشيد وابن سعود خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري، (العشرين الماضي). انظر: لوريمر، ص ٥٢٩-٥٣٧، ايف بيسون، ص ٦٩-٨٣، الرشيد، تاريخ الكويت، ص ١٧٤، ٢٥٣، خزعل، ج٤، ٢٤١-٢٤٤، الخترش، ص ١٠٩-١١٠. (ابن جريس).

(٢) من يستقرئ رحلات فيلبي المتعددة في جزيرة العرب يجده تعرض أكثر من مرة للعديد من المخاطر البشرية والطبيعية مثل: اعتداء بعض أفراد القبائل، التي كان يمر من أرضها، عليه، أو تعرضه لأمراض الحمى والبرد وغيرها. (ابن جريس).

(٣) للمزيد عن تاريخ الكويت السياسي والحضاري في النصف الأول من القرن الهجري الماضي. انظر: عبدالعزيز الرشيد، تاريخ الكويت، ص ٢٣ وما بعدها، الخترش، ص ٣٦ وما بعدها، ديكسون الكويت وجاراتها، ص ٤٦ ومابعدها، خزعل، تاريخ الكويت السياسي، (الجزءان الثالث والرابع). (ابن جريس).

دمشق"، تلك الإشاعة سوف تطير بهدوء متضخمة في الجزيرة العربية، وفي الصباح التالي كان موظف بريطاني من إدارة النقل البحري الداخلي في الشويخ، ذو وجه بني، وركب بنية ومكسو بقميص يشبه قميص العمال، وسروال قصير من الكاكي، قد جاء إلى مدخل مكتبه ومسكنه متعجباً من إناخة الإبل أمام بيته. وتعجب أكثر عندما خاطبه غريب ملتح في ثياب متهدلة بلغته نفسها مستفسراً عن مكان الوكيل السياسي البريطاني. عندئذ جاء دوره في إثارة دهشة الغريب. فلم تكن الإشاعة إلا نصف الحقيقة برغم كل شيء. فدمشق وبيروت كانتا في أيدينا. وقد قام اللنبي ولورانس بإعاقة تقدم الجيوش التركية في سوريا بالاستيلاء على أعداد هائلة من الرجال والبنادق. وكانت بلغاريا بعد سلسلة من الهزائم الساحقة قد خرجت من الحرب باستسلام غير مشروط. وتركيا والنمسا كانتا تطالبان بأعلى صوتيهما بالسلام الفوري على مضض لكي يتخذا إجراءات منفصلة لضمها إليهما. وحتى ألمانيا فقد قدمت عرضاً مغرياً بالسلام والذي كان بمثابة اعتراف واضح بالهزيمة.

وهكذا فمن كافة النواحي العملية فإن الحرب قد انتهت، وفي غضون شهر شهدت احتفالات الهدنة في بغداد. ولكن بالنسبة لي سيظل هذا اليوم وليلة السادس عشر من أكتوبر دائماً باقيين في ذاكرتي، عندما، كنت عائداً لتوي بعد سبعة أشهر من التجوال في الصحاري والقفار، قوبلت بأخبار غير متوقعة ومثيرة جداً، ومفرحة مثل أي أخبار يقابلها على الإطلاق مسافر متعب في تاريخ العالم. فالأمس كان مثل أيام السنوات المضنية في الماضي المحملة بأعباء الدم والرعب في ضمير البشرية، وفي عالمي الخاص كنت مجهداً ومكتئباً. واليوم يمثل عهداً جديداً من السلام والرخاء، ورنّت الأخبار العظيمة في أذني مثل أجراس الفرح في بهجة العالم الكبرى. وطارت أفكاري في أمواج من الامتنان للرجال الذين قاتلوا أو كافحوا خلال رعب تلك السنين ولا سيما لأولئك الذين لن يتمتعوا بالشعور بالنصر وثماره.

يقع منخفض الصبيحية داخل حدود إمارة الكويت، شبه المستقلة، المحمية البريطانية، التي تمتد حدودها الطبيعية الداخلية تقريباً على طول قناة الشق، وفي المنخفض عدد كبير من الآبار، أكثر من خمسين كما قالوا لي، فيها ماء غزير قليل الملوحة عند عمق لا يزيد عن اثنتين أو ثلاث قامات. والفوهات منحوتة بصورة بدائية في الصخر الجيري بسلسلة من الدوائر المتناقصة دائماً في قطرها. ولا يوجد تبطين بالحجر في هذه الآبار. والماء، العذب في عدد قليل منها كان يسحب باليد. والجو يماثل ذلك الجو السائد في ساحل الخليج العربي، رطباً ونديا، وكنت سعيداً بالماء الغزير لأتنظف من أدران السفر لأول مرة منذ رحيلنا من بريدة. ولم يكن تغيير الملابس غير مكروه، وقد رقدت لأرتاح أملاً أن يتركوني في هدوء حتى الفجر. على أن رشيداً وأصدقاءه كانوا متشوقين كثيراً إلى مواخير الكويت، ولم أقاوم نداءاتهم بالانطلاق قبل الثانية صباحاً.

وعلى مدى ساعتين من هناك مشينا في الظلام وانتشر أمر بالمحافظة على الصمت التام خشية أن يكون هناك أعداء أو غزاة كامنين حول الطرق المؤدية إلى الآبار. ولسبب ما لم يستطيعوا أن يحافظوا على الصمت، وفي إحدى المرات طلبت التوقف احتجاجاً على ثرثرتهم التافهة. وقلت إذا كان ولابد أن يتحدثوا، فليتحدثوا في أمان ويتوقفوا، خشية أن نقع في كمين. ثم انطلقنا في المشي مرة أخرى، في صمت هذه المرة، فوق سهل رملي وعر، يبرز عن يميننا في الصحراء القاحلة المتموجة برفقه، ويحده على يميننا أولاً جبل برقان ثم الخط المنخفض لتلال رملية ساحلية تسمى العدايم. على مسافة غير بعيدة نسبياً شمالاً من شرق يقع جبل ورا المخروطي، وعلى بُعد حوالي ستة أميال نحو الغرب يقع جبل مناقش المنخفض.

بعد ساعتين ونصف من السير فوق سهل يسمى السودة فيه نتوءات متكررة من الصخور الجيرية، مررنا بعد مسافة ميل على يسارنا، بآبار مشاش الطويل وهما

اثنتان، كما قالوا لي، فيهما ماء مالح قليلاً عند عمق أربع قامات. وحولهما يرقد قطيع كبير من الأغنام السوداء، ولكن في الضوء الخافت لما قبل الفجر مررنا غير مرئيين. كنا بعيدين عن الدرب الرئيس، الذي يقع على مسافة ميل تقريباً عن يسارنا وذلك لنتفادى صدفة المواجهات، ومشينا قريباً نسبياً من آبار ملح في منخفض السبخة عند حافة التلال. في هذه المنطقة عبرنا آثار سير حديثة نسبياً لتسعة من الغزاة متجهين نحو الشمال الغربي على ما يبدو من أحد المراوي الكثيرة التي توجد على مسافات فاصلة بطول حافة المنطقة الرملية، في شريط السبخة الذي يقترب تدريجياً من مسارنا حتى عبرناه في الوقت الملائم، ويبلغ عرضه نحو ميل، ويبدو أنه ينتهي تماماً بعد ذلك بميلين تقريباً عن يسارنا، بدروب الطريق الرئيس. وهناك درب آخر عن يميننا يقطعه متجهاً عن طريق ملح إلى الصبيحية، بينما يذهب الدرب الرئيس، الذي سلكناه الآن، عن طريق مشاش الطويل. والحزام المالح يسمى بارود أو بوارد.

ينتشر في التلال الرملية التي عبرناها بتموج خفيف العرفج وحشيش خشن مثل القصب يسمى ثاندوه الذي ينمو في آجام مجتمعة معاً، واندمجت بعد مسافة في سهل واسع من الرمل الأبيض على تربة صلبة، ممتداً إلى أقصى ما استطعنا أن نرى في كل اتجاه. وبين الحين والآخر، عندما نرقى مرتفعاً، كنا نلمح منطقة الجهراء المحيطة بنا مثل الجرف وهي تومض في ضوء الصبح على مسافة بعيدة نحو الشمال الغربي. وخلال توقفنا القصير للفطور أرسلنا رجلاً بعيداً عنا ليحرسنا من الأعداء، وعندما ركبنا مرة أخرى صاح بأنه قد رأى لتوه خمسة رجال راكبين على نوق ذلول متجهين على ما يبدو نحونا على الرغم من أن تحركاتهم كانت مخفية بسبب ارتفاع طفيف في الأرض. وقد ظل يراقبهم، وبعد دقائق قليلة أبلغنا أنهم قد انصرفوا مبتعدين، وعلى كل حال فإن عددهم صغيراً جداً بما لا يسبب لنا أي قلق، بالرغم من أنهم في الغالب كانوا عصابة تبحث عن الأذى. والآن حافظنا على ارتياد

الدرب الواضح تماماً ولاحظت أثر جر الحطب وراء ذيول حمير الكويت لبيعها في سوق الوقود بالميناء[١].

عند التاسعة والنصف صباحاً بلغ المسير ذروته ونظرت فجأة إلى سلسلة طويلة من الواحات الزرقاء الخضراء في فضاء الصحراء. إنه البحر، وابتهجت بهجة عظيمة، مع مسحة من الحزن والأسى عندما فكرت أن أسفاري في جزيرة العرب قد وصلت نهايتها. وبعد نصف ساعة كانت القمم العالية لمباني الكويت تُرى بصورة ضعيفة باهتة، ومن الجبل التالي انحدر السهل نازلاً بتموجات رقيقة إلى المدينة التي ما زالت بعيدة ولكنها ظاهرة بوضوح كامل الآن بطولها وعرضها، على الرغم من أنها محجوبة بغمامة من الغبار والسراب. وهناك قابلتنا الإبل التي لا تحصى من بُريح صاعدة المنحدر في جماعات ضخمة، وهي محملة بالأرز والتمر لأهل القبائل في الوفره بالصحراء العالية خلفنا. ومن كل جماعة تمر علينا كنا نواجه بسؤال عن أخبار الصحراء. فسألونا: "هل جئتم بخيامنا في الوفرة؟ وهل صحيح كما يقولون في الكويت، أن ابن سعود قد فرّ في خطر شديد من أمام حائل ولم يصل بريدة إلا بأتباع قليلين؟"[٢].

في تلك الأيام كانت الأخبار المزيفة تلفق عن عمد بكل من الكويت ومكة لإضعاف الثقة في ابن سعود وتشويه سمعته. وكان بعض من إبل برية هذه قد أسرت في حملة على شمر المعادية ولكنها صودرت لاحقاً من قبل الشيخ سالم ليضايق ابن

---

(١) للمزيد عن تاريخ الكويت السياسي والحضاري خلال النصف الأول من القرن الهجري الماضي انظر: خزعل، تاريخ الكويت السياسي (عدة أجزاء)، عبدالعزيز الرشيد، تاريخ الكويت، ص ٣٣ وما بعدها، أحمد أبو حاكمة، تاريخ الكويت (الكويت، ١٩٦٧م) ج١، ص ٣٤ وما بعدها، راشد عبدالله الفرحان. مختصر تاريخ الكويت (القاهرة، ١٩٦٠م) ص ٦٢ وما بعدها، محمد بهجت سنان. الكويت زهرة الخليج العربي (بيروت، ١٩٥٦م) ص ٣٨ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) للاطلاع على نتائج الصراعات بين ابن سعود وابن الرشيد في النصف الأول من القرن الهجري الماضي، انظر: إيف بيسون، ص ٢٠٣-٢٠٨، العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ص ٦٣ وما بعدها. (ابن جريس).

سعود، الذي كانت مطير من رعاياه بالطبع، ولم تعد إلى آسريها بصفتها غنائم شرعية إلا بموجب أوامر مباشرة من السلطات البريطانية على أساس التقارير التي قدمتها أنا. ولم يدرك هؤلاء القوم إلا قليلاً، فمن واجبهم أن يشكروني على استرداد غنيمتهم القيّمة. وكان أحد الشيوخ الذين تحدثنا معهم يُدعى طلّة أبو شويربات زعيم فخذ البرزان، وآخر يقال له سطام أبا الخيل من فخذ الجبلان من جماعة علوة[١].

وقد ابتعدنا الآن عن الدرب الرئيس متجهين إلى مجموعة من المباني الجديدة المشيدة بالحجر تسمى الشويخ، والتي أقيمت لتكون بمثابة مكاتب ومقار سكن لمجموعة من الموظفين البريطانيين العاملين في الكويت. هناك قيل لنا إن الوكيل السياسي السيد / ماكلوم (Mr. MacCollum)، موجود في الوكالة داخل المدينة. وفي الوقت الملائم شققنا طريقنا على طول الواجهة البحرية حتى الأبواب الرحبة لذلك المبنى. هناك استقبلت بود وترحاب، وبعدما أرسلت رفاقي الصحراويين إلى وكيل ابن سعود، عبد الله النفيسي، سلمت نفسي للتمتع بملذات الحضارة الحديثة. وكان كرم ضيافة ماكلوم سخياً وفخماً، وشربت الخمر (الشمبانيا) في تلك الليلة بعد شهور من الجفاف، إلا من ماء الصحراء. وهناك كانت الرسائل من الوطن والصحف جاهزة لقراءتها والكثير مما يمكن التحدث فيه.

في الصباح التالي عند ساعة مبكرة كان الشيخ سالم، حاكم الكويت وابن مبارك الشهير، يتوقع الزيارة التي كنت أنوي أن أقوم بها له بصورة شخصية. ذلك هو أول اجتماع لي مع واحد كانت أعماله وتصرفاته مصدراً دائماً للمتاعب والمشاكل بالنسبة لي طوال أيام مهمتي كلها. ولقد ترك عندي أثراً طيباً على الرغم من كل ما أعرفه عنه من أنه قد اختير ليؤدي بصورة حتمية لا تتغير دور المزعج لسلام الجزيرة العربية. إن المجاملة الساحرة بزيارته لواحد كان يجب عليه أن يزوره أولاً

(١) البرزان والجبلان أفخاذ عشائرية تعود أنسابها إلى قبيلة مطير، انظر: الحقيل، كنز، ص ١٤٠-١٤١. (ابن جريس).

لهي منسجمة مع رقته العامة ودماثة خلقه وروعة حديثه. فقد كان بالميلاد والنشأة ضمن السلسلة المباشرة لأفضل فرسان الجزيرة العربية، على أن داء الحسد، والحقد، والبغض والمكر قد دفن في روحه عميقاً. إنه وريث تقاليد عظيمة التي على أيدي مبارك قد أرضعت عبقرية ابن سعود نفسه ووجهت خطواته، إلا أن ابن مبارك قدر له أن يؤدي وظيفة خسيسة، وقد ربط نفسه بصورة مناسبة وبتباه لافت للأنظار بالقضية الخاسرة للأسرة الهاشمية[1]. ومن قدر الكويت أن تعاني من جراء ذلك، ولكن المستقبل لا يزال تحت أقدام الآلهة[2] وكانت سياسة سالم في هذا الوقت، التي تبناها عن عمد عدائية ومزعجة لابن سعود. في هذه المناسبة وأثناء المساء عندما زرته رداً على زيارته ناقشنا بطريقة غير رسمية قدر الإمكان الموضوعات الأكثر جدلاً، ولم يبتعد أبداً ولو للحظة عن مسلك الحوار الهادئ، واللطف والمجاملة بل وحتى الاكتراث برأي الآخرين. وبالنسبة لي فقد بادلت مسلكه بالمثل، وامتنعت عن اللوم أو الاتهام، على أمل أن يقع في يوم ما الاختيار عليّ للتوسط في قضية السلام العربية. ولم يأتيني هذا اليوم أبداً. على الرغم من أنه في الكويت بعد ذلك بست سنوات وبعدما لحق سالم بآبائه من زمن طويل، قد تحطم سلام الجزيرة العربية إلى شظايا، ولم يُسترد إلا بالانتصار النهائي للقضية الوهابية التي مقتها سالم مقتاً شديداً[3].

قام على خدمة الشيخ في كلتا المقابلتين معاونه السري، المُلا صالح، والاجتماع المسائي حضره أيضاً واحدٌ من كبار التجار. كان الأول رجلاً قصيراً، أنيقاً، وضئيلاً،

(١) لمزيد من الاطلاع على الأوضاع السياسية في كل من الكويت والحجاز ونجد خلال الحرب العالمية الأولى، وبخاصة عام (١٣٣٧هـ/١٩١٨م) انظر: السعدون، ص ٨٨، خزعل، ج٣، ص ٢٧ وما بعدها، خير الدين الزركلي. شبه جزيرة العرب في عهد الملك عبدالعزيز (بيروت، ١٩٧٠م) ص ٢٣٧. (ابن جريس).

(٢) عبارة: (المستقبل لا يزال تحت أقدام الآلهة)، صياغة غير مقبولة في شريعة الإسلام، لأن المستقبل بيد الله عز وجل. ومثل هذه العبارات تقال في المجتمعات الغربية، وتعد من الأمور العادية في ثقافاتهم وأعرافهم. (ابن جريس).

(٣) لمزيد من الإيضاح عن موقف سالم الصباح من ابن سعود خلال الحرب العالمية الأولى، انظر: عبدالعزيز الرشيد، ص ٢٣٣ وما بعدها، خزعل، ج٤، ص ١٨٦ وما بعدها، الخترش، ص ٩٣. (ابن جريس).

ماهراً وذكياً، وشارك مشاركة بارزة في النقاش، الذي ذهلت خلاله من بساطة تصرفات سالم والانعدام التام لأي ميل إلى الرسميات. وكان الشيخ في حوالي الخمسين من العمر، ومظهره يبدو أكبر من عمره، فقد أضناه القلق والهم، على أنه متحدث لبق يبتسم بين الفينة والأخرى تقريباً في سره خفية كما لو كان من غير اللائق أن يظهر الضحك دون إشارة استنكار. وفي أول اجتماع لنا كنت ما زلت ملتحياً ومرتدياً ثياب الصحراء، ولكن سالماً بدوي المولد ومسلم غيور، ألمح تقريباً إلى أنه من غير اللائق ارتداء مثل هذا المظهر الخارجي، فربما كان ذلك ضرورة كريهة في جو الجهل والتعصب بمملكة ابن سعود غير المتحضرة، ولكن من الأفضل التخلص منه بأسرع ما يمكن. واستفساري عن حلاق قد قوبل بتعهد متحمس لتقديم واحد منهم بلا تأخير، مقروناً بشرط أن أحلق لحيتي وأرتدي هنداماً حسناً قبل أن أزوره في المساء. إن الحلاق لم يخلصني فقط من لحيتي بل جعلني أشبه بمجرم سجين وذلك بجز شعري من جذوره قبل أن أدرك ماذا فعل. كما أن نبذ الملابس العربية والاستحمام قد أتما تحويل الهيئة التي رضي عنها بلا حدود حاكم الكويت عندما حضرت أمامه. فلم يعد يتعامل مع مبعوث من ابن سعود ولكن مع موظف ورجل بريطاني كريم. وقد ابتسم رفاقي في السفر ابتسامة عريضة ملء أشداقهم من هذا التغير الفظيع[1].

ولم يضيع سالم أبداً أي فرصة في إظهار ولائه الذي لا يهتز للقضية البريطانية، ولا ريب أن التحول الحاسم الأخير للأمور في صالحنا قد جعل تأكيداته حقيقية بدرجة كافية. وعلى الرغم من ذلك، وكما أدرك ماكلوم وسابقوه لأسباب

(١) كانت العلاقات بين سالم الصباح وابن سعود متوترة بسبب مساعدة الأول لقبائل العجمان بالإغارة على بلاد ابن سعود، وقد توسطت بريطانيا في حل المشكلة بين الطرفين، وكلفوا مندوباً من قبلهم، وهو الكولونيل هملتون، الوكيل السياسي البريطاني في الكويت، ليتوسط بين الطرفين عام (١٣٣٦هـ/١٩١٧م)، ولكنه لم ينجح فحل محله في الانتداب والوساطة - جو فيلبي عام (١٣٣٧هـ/١٩١٨م). للمزيد انظر: خزعل ج٤، ص ٢١٠ السعدون، ص ١٩٦-٢٤٤. (ابن جريس).

وجيهة[١]. فقد ظل دائماً وعن عمد خائناً من اللحظة التي جلس فيها على عرش أسلافه. لقد تآمر مع شمر، ومن خلالهم، مع الأتراك، وجنى ثروة عظيمة من هذه العملية. وكان محظوظاً بنجاته من العزل نهائياً من منصبه على أيدي السلطات البريطانية، التي تعاملت دائماً معه بشهامة ونبل ومعاناة طويلة. وبطريقة غامضة تحدث عن بلاده بصفتها تشمل جزءاً كبيراً من منطقة مطير، التي تضم "حفرنا وصفاتنا وقرعتنا وحياتنا" . ولكنه بالقدر نفسه استنكر مناقشة الحدود قائلاً: "إن قدرنا مثل قدر آل سعود". ولقد كان ابن سعود يتحدث أحياناً بالكلمات نفسها عن علاقات نجد مع الكويت في عهد مبارك، على أن هذه العلاقات تعاني من انتكاسة بسبب سالم، ومن الواضح أن قطعاً لها يتعذر اجتنابه وليس ذلك ببعيد. وفي (١٩٢٢م)[٢] كانت حدود إمارة الكويت قد رسمت بدقة تحت رعاية بريطانيا العظمى، التي دفعت بطائراتها مؤخراً لتدافع عن الكويت مع تهديد هجوم الإخوان عليها[٣].

ومن المؤكد أن سالماً قد قبل حسيناً سلطاناً عليه، ويعتبره في الظروف القائمة مستحقاً لتولي خلافة الإسلام. ولكن في كل تلك الأمور كان مسلكه تمليه عليه بوضوح رغبته في معارضة ابن سعود. وهناك شك قليل جداً عندي من أنه لو كان الشريف قريباً منه بدرجة كافية للتدخل بصورة فعالة في شؤونه فإنه سوف يرفض أي عرض بفرض سلطانه عليه. وحتى في التبادل الأخير للبرقيات بين الحاكمين كان هناك برود مؤكد واضح. فقد طلب منه الملك حسين أن يتخذ إجراءات لمنع "رعاياي من عتيبة" من الوصول إلى أسواق الكويت، ورد عليه سالم بأنه ليس هناك ضرورة لأي إجراءات لأن "رعاياك من عتيبة لا يأتون أبداً للكويت". لقد كان الهدف

(١) يقصد بـ (ماكلوم Maccollum) أي الوكيل السياسي البريطاني في الكويت. (ابن جريس).
(٢) (١٩٢٢م) يعادل هذا التاريخ بالهجري عام (١٣٤١هـ). (ابن جريس).
(٣) لمزيد من التفصيلات عن الصراعات بين ابن سعود وآل الصباح بعد الحرب العالمية الأولى، انظر: ديكسون، ص ٢٥٨ وما بعدها، ابن هذلول، ص ١٢٦، الخترش، ص ١١٢ وما بعدها، عبدالعزيز الرشيد، ص ٢٥٤ وما بعدها، خزعل، ج٤، ٢٥٨، السعدون ص ٢٤٧ وما بعدها. (ابن جريس).

ماكراً وجارحاً، رفض ضمني للاعتراف بمطالبة الأشراف بصورة عامة بالسلطان على قبيلة ظل معظمها تحت سلطة ابن سعود.

وأصبحت الآن قضية الحصار النكدة بما يبعث على السرور عديمة القيمة في خطط المستقبل، وقد أعلن سالم أنه قد اتخذ الآن ترتيبات كافية لمنع مرور الغزاة أو المهاجمين عبر بلده. وقد ذكرت له الجماعة التي رأيناها والدروب الجديدة التي عبرناها، وعاتبته على التجربة التي وقعت لنا في الصبيحية وقد أثارته هذه الواقعة تماماً. فقال: "لو أردت، فلسوف أعاقب هؤلاء القوم فوراً". وقد استنكرت أي إجراء مثل هذا، لأني أدرك أن المعتدين كانوا من رعايا ابن سعود. وأخيراً أخبرني عن رسل جاؤوا من بريدة في ذلك اليوم بأخبار مفادها أن ابن سعود قد أرسل وفداً بمقترحات سلام إلى حائل. وبعد ذلك بنصف ساعة سمعت من عبد الله النفيسي والرسل أنفسهم رواية أخرى، وهي الرواية الحقيقية للقصة نفسها، فقد جاء وفد من ابن رشيد ليعرض السلام على ابن سعود!.

خلال يومي إقامتي المؤقتة في الكويت لم يكن عندي وقت ولا ميل لرؤية كثير من المدينة أو قاطنيها، فلقد كانت مدينة هائلة بالنسبة للجزيرة العربية، بها ما يقرب من خمسون ألف نسمة في هذا الوقت، وهي الميناء البحري الرئيس في وسط الجزيرة العربية، وبها صناعة نشطة لبناء السفن. كل ما كنت أريده أن أبتعد عنها بأسرع فرصة ممكنة، والعودة إلى بغداد، وإذا أمكن، إلى إنجلترا التي لم أرها منذ عشر سنين؛ ولذلك في صباح الثامن عشر من أكتوبر ركبت متن سفينة صغيرة تسمى كاليكا (Kalika) ونفضت تراب الجزيرة العربية عن قدمي، بكثير من الأحزان وبعض الارتياح، متسائلاً ما إذا كان من قدري في يوم ما أن أتغلغل مرة أخرى في البيوت التي تشبه بيوت الأشباح لأهل الصحراء هؤلاء الأجلاف المتعصبين.

وقبل أن أرحل حزت الرضا بإفادة عبد الله النفيسي أن الخطر على تسليم الألف بندقية قد رفع. وسوف تذهب الآن إلى داخل الصحراء إلى ابن سعود، وأرسلت معها خطاباً شرحت فيه تفاصيل الموقف الجديد الذي نشأ ونصحته بالصبر في وجه المصاعب التي تقع أمامه(١).

(١) يظهر من أسلوب فيلبي في كثير من صفحات هذا الكتاب أنه كان معجباً بشخصية ابن سعود، بل كان متعاطفاً معه لما رأى فيه من صفات حميدة لا توجد إلاّ في القلائل من الزعماء والقادة. لمزيد من المعلومات عن شخصية ابن سعود، انظر المراجع التالية: درمولين، الملك ابن سعود والجزيرة العربية الناهضة، ص ٣٣ وما بعدها، الكيلاني، عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود والإصلاح الإسلامي المعاصر، ص ٢٢ وما بعدها، عبدالله التركي، الملك عبدالعزيز أمة في رجل، ص ٣٦ وما بعدها، إبراهيم السماري، الملك عبدالعزيز الشخصية القيادية، ص ٤٥ وما بعدها، محمد الخميس، عناية الملك عبدالعزيز بالعقيدة السلفية، ص ٤٧ وما بعدها. (ابن جريس).

الملاحق

١- شجرة نسب عربية نموذجية

٢- فروع وشيوخ قبائل حرب

٣- بيت آل سعود

ملحق (١)

شجرة نسب عربية نموذجية

شجرة النسب التالية لأسرة البسام بعنيزة أعدها واعتمدها عبد الله بن محمد ابن عبدالعزيز البسام[١]:

الصفحة الأولى:

قائمة بأسماء ملوك الحجاز منذ مولد جرهم.

١- جرهم بن قحطان، هو الحاكم الأول لمملكة الحجاز منذ الاحتلال العربي.

	ابن السابق		ابن السابق
٢- عبد ياليل		١٠- عمر	
٣- جرشم	« »	١١- بشر	« »
٤- عبد المدان	« »	١٢- مضاض	« »
٥- نفيلة	« »		
٦- عبد المسيح	« »		
٧- مضاض	« »		
٨- عمر	« »		
٩- الحارث	« »		

(١) هذه الشجرة التي دونها عبدالله البسام من أسرة آل البسام بمدينة عنيزة تحتاج إلى مراجعة دقيقة من أفراد هذه الأسرة، مع العلم أنني اعتقد أنها ما زالت تحتاج إلى نوع من التمحيص والتثبت في كثير من الأسماء التي أوردها، وخير من يدقق معلوماتها هم أفراد هذه الأسرة المعنية، وبخاصة المهتمون بالجوانب العلمية والفكرية والثقافية والأدبية منهم. (ابن جريس).

الصفحة الثانية:

بسام بن عقبة هو جدنا الأول، آل بسام من عنيزة وآل فيروز وآل قضاة وآل الحسانة وآل الخراشة وآل بن حسن من وشيقر وآل بجاد وآل فهيدان وآل عتيق وآل مقبل وآل هبدان ابن مقبل في وشيقر وآل عثيمين بن مقبل في القرائن وعنيزة أبناء عمومتهم، آل حسن بن مقبل المعروفين في حرملاء والمجمعة وآل عنيّق وآل دهان في الزبير وفروعهم التي تربطهم ببسام بن عقبة. وفي هذا رائس (Raiis) نأتي نحن: آل بسام ابن عقبة وآل بسام بن منيف وكذلك آل قضاة وآل الحسانة وآل خراشة وينحدر منهم المذكورين آنفاً، وكذلك آل مشارفة ومنهم شيخ محمد بن عبد الوهاب ومنهم الخراقة في شقراء (وتحديداً مشرف بن عمر بن معضد بن رائس) وفخوذ مشارفة العديدة ومنهم آل برادة وآل خليفة وآل شنانة وآل نشواة وآل سكران وآل مغامس في حضامة في سدير وآل طوال في حريق وآل مهنا في الحريق وآل الجريفة وآل الفاخيري في حرمة ولهم فروع كثيرة تجمعهم في مشرف.

الصفحة الثالثة والرابعة والسطور الأربعة الأولى من الصفحة الخامسة خصصت لمقدمة شكلية تنتهي في الصفحة الخامسة كالتالي:



لقد كتبت هذه الشجرة بقلمي، أنا، عبد الله بن محمد العبد العزيز البسام، وهي تتعلق بنسبنا آل البسام القاطنين في مدينة عنيزة من مدن القصيم وذلك في السنة (١٣٢٢هـ)[١] من الهجرة المباركة المشرفة. وقد جمعت كل ذلك في السنوات الماضية وقد راجعت كتابتها في هذا الكتاب هذه السنة في مدينة بومبي من مدن الهند.

وهؤلاء هم حكام الحجاز وتاريخ حكمهم، كل واحد منهم حسب التاريخ الميلادي،

(١) (١٣٢٢هـ) يعادل هذا التاريخ بالميلادي عام (١٩٠٤م). (ابن جريس).

لأنهم كانوا قبل بعثة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، وهو حسب ما ورد في كتاب إدوارد فانديك (Edward Vandyk) المطبوع في سنة (١٣١٠هـ)[1].

هكذا قال غيلان ضاوي عرمة في قصيدته التي جاراها هشام بن عمر القيسي ابن سعد بن زيد مناف بن تميم من مدينة مراة إحدى مدن الوشم وهي الأولى بينها :[1]

(١) (١٣١٠هـ) يعادل هذا التاريخ بالميلادي عام (١٨٩٢م). (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن مدينة مرات، انظر: عبدالله الضويحي، مرات (مطبوعات الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م) ص ١٢ وما بعدها. (ابن جريس).

شجرة النسب المعنية[1]

عدنان	١٢٢ ق.م
معد	٨٩ ق.م
نزار	٥٦ ق.م
مضر	٢٣ ق.م
إلياس	١٠ م

مدركة	(٤٣م)	طابخه
خزيمة	(٨٦م)	أد
كنان	(١٠٩م)	مر
النضر	(١٤٢م)	تميم
مالك	(١٧٥م)	زيد مناف
فهر	(٢٠٨م)	مالك
غالب	(٢٤١م)	ابن أبي سعود
لؤى	(٢٧٤م)	ربيعة
كعب	(٣٠٧م)	شهاب
مرة	(٣٤٠م)	زهير
كلاب	(٣٧٣م)	شداد
قصي	(٤٠٦م)	نهشل
عبد مناف	(٢٣٩م)	صنيع
هاشم	(٤٧٢م)	عقبة
عبدالمطلب	(٥٠٥م)	مسعود
عبدالله	(٥٣٨م)	موسى
		محمد
		(الرسول ﷺ)

قاسم
وهيب
علوي
محمد
زاخر
رائس
عقبة
بسام
عبدالله
محمد
أحمد

الذي هاجر في (١٠١٠هـ) من ملهم إلى العيينة حيث أصبح قاضياً وتوفي حوالي (١٠٤٠هـ).

(١) لمزيد من التفصيلات عن أنساب عدنان التي ينتسب إليها الرسول الكريم ﷺ انظر: كتب النسب الرئيسة مثل: على بن أحمد من حزم. جمهرة أنساب العرب. تحقيق عبدالسلام هارون القاهرة: دار المعارف، ١٣٩١هـ/١٩٧١م)، الزبير بن بكار. جمهرة نسب قريش وأخيارها. تحقيق محمود محمد شاكر (القاهرة: مكتبة دار المعرفة، ١٩٦١م). (ابن جريس).

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
عبدالله(١)	إبراهيم	حمد	عبدالعزيز	محمد	حمد	عبدالعزيز		
		استوطن				عبدالرحمن		
		عنيزة في				سليمان*		
		١١٧٤هـ				عبدالعزيز*		–
						عبدالله*	–	
						محمد*	حمد*	
							(ولد ١٣٢٨)	
							صالح*	
							علي	–
					عبدالعزيز*	محمد	–	–
						محمد	–	–
						أحمد*		
						(ولد ١٣٢٥)		
						محمد		–
						عبدالكريم*	–	
						(ولد ١٣٢٧)		
						سليمان*		
						ولد (١٣٠٠)		–
						صالح		
					عبدالله	محمد*	–	
						حمد*	سليمان	
							عبدالعزيز*	
							علي*	–
						سليمان*	حمد*	–
							(ولد ١٣٢٨)	–

(١) كما ذكرنا سابقاً أرجو من أفراد أسرة آل البسام في عنيزة أن يعيدوا النظر في هذه الشجرة ويمحصوا كل ما ورد فيها من أسماء ومعلومات. والتي أعتقد أنها بحاجة إلى جهود متضافرة من قبلهم كي يصلوا إلى المعلومة الصحيحة مع ذكر المصادر والمراجع الرئيسة التي اعتمد عليها مدونها وجامع معلوماتها. (ابن جريس).

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
						علي	–	–
						عبدالعزيز	–	–
					عبدالرحمن*	محمد	–	–
						عبدالله	–	–
						محمد	–	–
					صالح	حمد	–	
						عبدالله*		
						سليمان*		
						أحمد*		
						عبدالرحمن*		
						محمد*		
						عبدالعزيز*		
				فهد*	عبدالله	–	–	–
					إبراهيم*			
					عبدالله*			
					عبدالعزيز*			
					حمد*			
			عبدالرحمن					
				حمد	–	–	–	–
				عبدالعزيز	–	–	–	–
				حمد	عبدالله	–	–	–
				عبدالمحسن	حمد*	فهد*	عبدالرحمن*	
						صالح*	آخر*	
						سليمان*		
						علي*		
						عبدالله*		
						حمد*		
						عبدالرحمن*		

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
						عبدالمحسن*		
						عبدالرحمن*		
						محمد*		
						عبدالعزيز*		
						محمد*		
						عبدالمحسن*		
					عبدالرحمن	عبدالمحسن*	–	–
						إبراهيم*	عبدالرحمن*	
						عبدالله*		
						عبدالحميد*		
						بسام*		
						رشيد*		
						محمد	–	–
				عبدالله*	عبدالعزيز	–	–	–
					صالح	–	–	–
					إبراهيم*	عبدالعزيز*		
					فهد*	عبدالعزيز*		
						محمد*		
						عبدالله*		
					سليمان*	حمد	–	–
						محمد	–	–
						آخر	–	–
						علي*		
					محمد*	علي	–	–
						عبدالله*		
						عبدالعزيز*		
						إبراهيم	–	–
						إبراهيم*	–	–

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
						إبراهيم*		
					حمد	عبدالعزيز*		
						سليمان		
					علي*	حمد*		
						عبدالرحمن*		
						عبدالله*		
						محمد*		
					عبدالرحمن	محمد	–	–
						محمد	–	–
						إبراهيم*		
						حمد*		
				محمد	سليمان	–	–	–
					حمد*	محمد	–	–
					عبدالله	عبدالعزيز*		
						فهد*	حمد	
							محمد*	
							عبدالعزيز*	
							عبدالله*	
						سليمان*	عبدالله*	
				إبراهيم	صالح	حمد	صالح*	حمد*
								عبدالله*
					حمد	صالح (توفي ١٣٢٨)	محمد*	
						محمد	حمد*	
							عبدالله*	
					محمد*	عبدالرحمن	–	–
						إبراهيم	–	–
						عبدالله*	ابنه*	

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
					عبدالله	عبدالعزيز	–	–
						عبدالرحمن	–	–
						صالح	عبدالله	–
							محمد*	
						سليمان*	محمد*	
						محمد*	عبدالله	–
							إبراهيم*	
							حمد*	
							عبدالله*	
			سليمان	عبدالعزيز	عبدالله	سليمان	–	–
						عبدالرحمن	–	–
					صالح	–	–	–
					محمد	عبدالله	–	–
					عبدالرحمن*	محمد*		
						عبدالعزيز*		
					سليمان*	عبدالله*		
						محمد*	حمد*	
							إبراهيم*	
							آخر*	
				إبراهيم	سليمان	–	–	–
					عبدالله	محمد*	عبدالله*	
					محمد*	عبدالعزيز*		
						حمد*		
						سليمان*		
						إبراهيم*		
				حمد	عبدالله*	حمد	–	–
						إبراهيم*	حمد*	
							عبدالعزيز*	

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
						محمد*	حمد*	
							عبدالرحمن*	
							سليمان*	
						حمد*		
						صالح*	محمد*	
							عبدالعزيز*	
						فهد*	سليمان*	
							عبدالعزيز*	
						علي*	محمد*	
							عبدالعزيز*	
					سليمان	حمد*	سليمان*	
						إبراهيم*	سليمان*	
						محمد	إبراهيم	–
							عبدالعزيز*	
							عبدالله*	محمد*
								عبدالرحمن*
							حمد*	صالح*
								عبدالعزيز*
								عبدالله*
								سليمان*
								محمد*
			إبراهيم	حمد	محمد	إبراهيم	–	–
						عبدالله*	محمد*	
						حمد*	عبدالله*	
			عبدالقادر	حمد	عبدالله	–	–	–
				حميد	علي*	عبدالرحمن*		
						عبدالله*		
						عبدالعزيز*		

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
						محمد*		
					سليمان*	محمد*		
						عبدالعزيز*		
					فهد*	عبدالله*		
						آخر*		
						آخر*		
						عبدالعزيز*		
						محمد*		
				علي	سليمان*	محمد*		
					عبدالمحسن*			
				إبراهيم	عبدالله	–	–	–
					عبدالرحمن	–	–	–
					عبدالرحمن	–	–	–
					عبدالعزيز	–	–	–
					سليمان	عبدالعزيز*		
						إبراهيم*		
						عبدالله*		
		محمد			محمد	عبدالعزيز*	محمد*	
							عبدالله*	
			إبراهيم	محمد	–	–	–	–

* كان قيد الحياة في (١٩١٨م)[١].

- انقطاع الخط.

(١) (١٩١٨م) يقابل هذا التاريخ بالهجري عام (١٣٣٧هـ) (ابن جريس).

ملحق (٢)

فروع وشيوخ قبيلة حرب[١]

أ: الفروع تتوزع بين عين فهيد وسهل حبلة، الأسياح والدهنا ولكنها لا تمتد غرب القصيم[٢]:

الفرع	كبير الشيوخ	البطن	الشيخ
١- بنو علي	محسن الفرم	الكراشيف	محسن الفرم
		الكلاهة	عاصم بن جويعد
		ولد مرير[٣]	نايف بن معيان وخلف بن شريان
		القرون	سليطان القرن
		المدارين	؟
		آل نامي[٤]	ابن مامي؟
٢- الوهوب	ذعار بن سعدة	المضيخ	ذعر بن سعدة ومحمد بن عفير
		العويط	نقاء المهرول
		الدريبسة	لافي بن راضي
		الخلصاء	زهيان بن سران
		الشراذين	دايس بن شريثان

---

(١) (١٩١٨م) يقابل هذا التاريخ بالهجري عام (١٣٣٧هـ) (ابن جريس).

(٢) ذكر بعض النسابة أن قبيلة حرب من خولان القحطانية، وكانوا يسكنون قديماً في بلاد خولان شرق صنعاء فيما بينها وبين صعدة، ثم هاجروا في العصر الإسلامي إلى بلاد الحجاز ونجد، وانتشروا من جنوب ينبع إلى القنفذة على محاذاة ساحل البحر الأحمر، وحول المنطقة الجبلية الممتدة من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، ثم تمتد شرقاً إلى داخل نجد قرب وادي الرمة، وحدها الجنوبي طريق الحج من بريدة إلى مكة وقسمها بعض الباحثين إلى ستة بطون هي: بنو علي، الوهوب، الفردة، بنو سالم، مشروح، بنو عمر. وهذه الفروع الستة منها أفخاذ تعيش إلى اليوم في نجد وأخرى تعيش في بلاد الحجاز، والبطون التي ذكرها فيلبي تعيش جميعها في نجد. للمزيد عن فروع وبطون حرب، انظر: الحقيل، كنز، ص ١٥١-١٥٥. (ابن جريس).

(٣) ولد مرير: ذكرها فيلبي (ولد مريد) (ابن جريس).

(٤) آل نامي لم يذكرها فيلبي، وإنما ترك مكانها فارغاً (ابن جريس).

الفرع	كبير الشيوخ	البطن	الشيخ
		المضحان	ذعار بن زبيل
٣- الفردة	علي بن حمد	الحماد	علي بن حمد وزيد بن حمد
		الهضبان[١]	هدول بن هديب
		الفريد	صالح الفريد
		التومان[٢]	محمد التومان
		الدواميك	حمد بن داموك
		الخليفة	نايف بن نومان

ب: الفروع في غرب نجد حول نقى وهيد ودخنة وغرب القصيم:

الفرع	كبير الشيوخ	البطن	الشيخ
١- بنو سالم			حجاب بن ناهت (في الدخنة)[٣]
			وحجاز بن ناهل
		ولد سالم	عيسى بن ناجي
		الزكيبات	عجاج بن مشلوت وناصر بن الزكيبي
		الهبيرات	عيد الهبيرة
		الذوباء	هندي بن ناحس[٤] ومجهم بن الذويبي
٢- بنو عمر		الشطارة	براز بن شطير
		البيضان	نماء بن مشدق
		القربان	ناصر القرابي
		الشعوب[٥]	عيد العفيهج

(١) الهضبان: ذكرها فيلبي باسم (الهدبان). (ابن جريس).
(٢) التومان ذكرها فيلبي باسم (النومان). (ابن جريس).
(٣) استقر في مستوطنة إخوانية. (فيلبي).
(٤) قتل والده ناحس بن الذويبي أثناء غارة قامت بها مطير في (١٩١٨م). (فيلبي).
(٥) الشعوب ذكرها فيلبي باسم (الشعب). (ابن جريس).

ملحق (٣)

بيت آل سعود(١)

الذكور المتحدرون من المرحوم الإمام عبدالرحمن بن فيصل بن تركي بن عبدالله بن عبدالعزيز بن سعود بن محمد بن سعود.

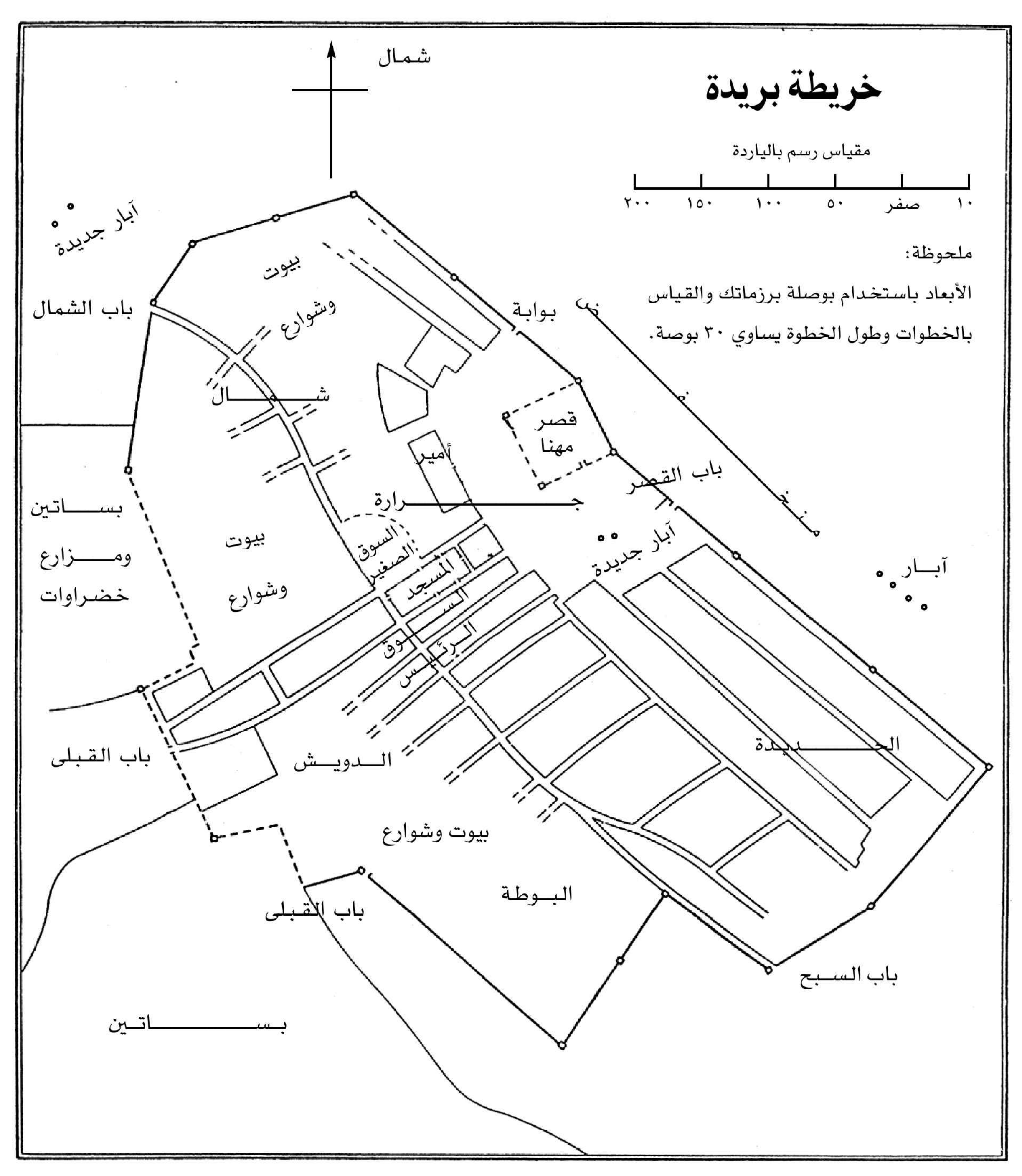
١	٢	٣	٤	٥
فيصل (سلطان نجد ١٨٣٤ ـ ١٨٦٧م)	عبدالله* (لم يترك أبناء)			
	سعود*			
	محمد (لم يترك أبناء)			
	عبدالرحمن (توفي ١٩٢٨م)	عبدالعزيز + (ملك الحجاز ونجد وملحقاتها منذ ١٩٢٦/١/٨م)	تركي (توفي ١٩١٩م)	فيصل
			سعود	فهد
				سلطان
			فيصل	عبدالله
			فهد (توفي ١٩١٩م)	
			محمد	فهد
			خالد	
			سعد (توفي ١٩١٩م)	
			ناصر	
			سعد	
			فهد	فهد
			منصور	
			عبدالله	
			بندر	
			مساعد	

(١) لمزيد من التفصيلات عن أنساب وتاريخ آل سعود خلال الدول السعودية الثلاث، انظر: عثمان بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، عبدالرحمن عبدالرحمن عبدالرحيم. الدولة السعودية الأولى (١٧٤٥-١٨١٨م/١١٥٨-١٢٣٣هـ) (مجلد واحد)، منير العجلان. تاريخ البلاد العربية السعودية عدة مجلدات، سعود بن هذلول. تاريخ ملوك آل سعود، عبدالله العثيمين، تاريخ المملكة العربية السعودية (جـ١) (ابن جريس).

١	٢	٣	٤	٥
			عبدالمحسن	
			سلطان	
			مشعل	
		محمد	خالد	فهد
			فهد	
			سعود	
			عبدالله	
			عبدالعزيز	
			فيصل	
			بندر	
			محمد	عبدالله
			عبدالله	
			فيصل	
		عبدالله	فيصل	
		سعد (قتل ١٩١٩م)		
			فيصل	
			فهد	
			سعود	
		أحمد		
		مساعد		

* متنافسون على حكم نجد خلال الحروب الأهلية الممتدة بين ١٨٦٧م و ١٨٩١م.

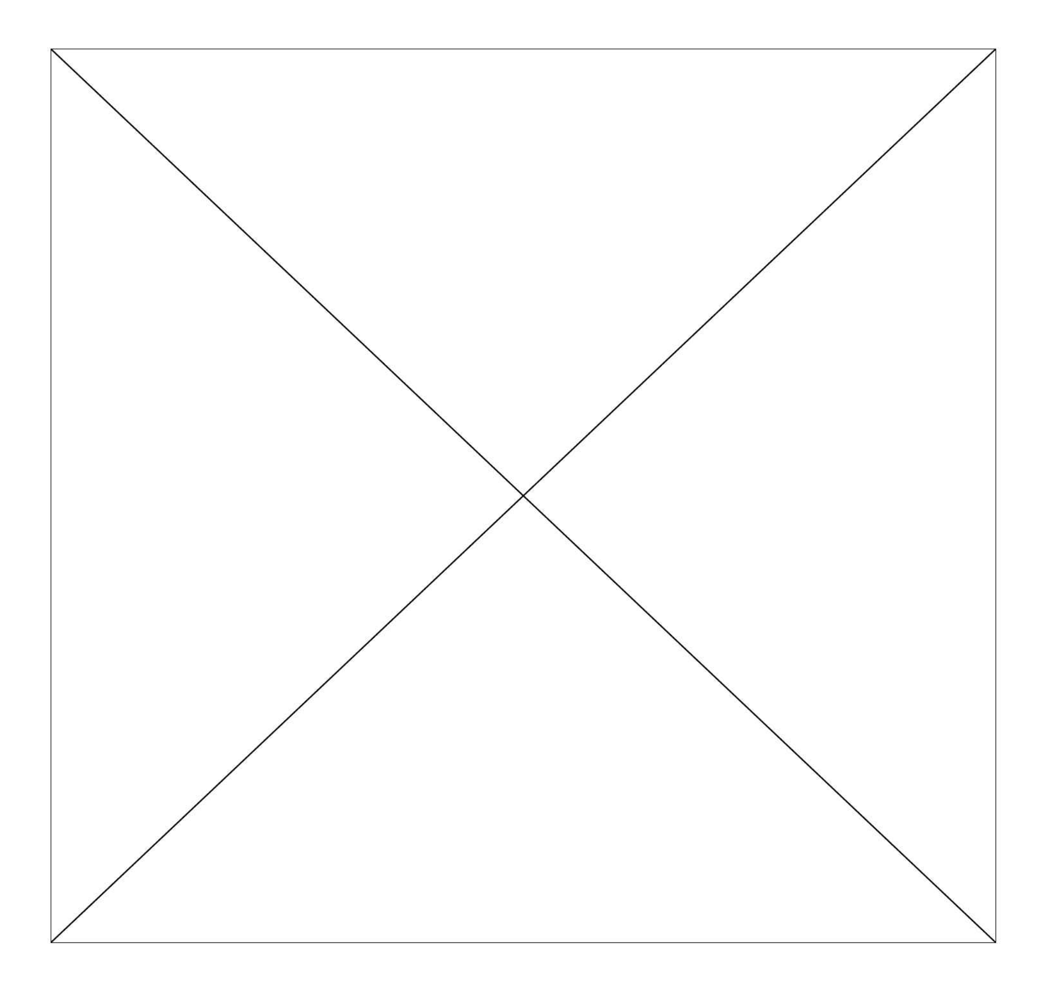
+ حاكم نجد (١٩١٠م).



شمال
خريطة بريدة
مقياس رسم بالياردة
١٠ صفر ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠
ملحوظة:
الأبعاد باستخدام بوصلة برزماتك والقياس
بالخطوات وطول الخطوة يساوي ٣٠ بوصة.
آبار جديدة
بيوت
وشوارع
باب الشمال
بوابة
شمال
قصر
مهنا
أمير
جرارة
باب القصر
بساتين
ومزارع
خضراوات
بيوت
وشوارع
السوق
الصغير
المسجد
آبار جديدة
آبار
السوق الرئيس
باب القبلى
الدويش
الجديدة
بيوت وشوارع
البوطة
باب القبلى
باب السبح
بساتين

فهرس الصور
الفوتوغرافية

فهرس الصور الفوتوغرافية



فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

م	الموضوع	الصفحة

م	الموضوع	الصفحة

مصادر ومراجع استعان بها
مراجع ومحقق الكتاب

مصادر ومراجع استعان بها مراجع ومحقق هذا الكتاب

- **الاحسائي** ، محمد بن عبدالله. تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد (الرياض: د.ن، ١٩٦٠م).
- **الأحيدب** ، إبراهيم سليمان. جلاجل (معلومات النشر بدون).
- **الألمعي** ، محمد غريب. النباتات في عسير (أبها نادي أبها الأدبي، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).
- **أويتنج** ، يوليوس. رحلة داخل الجزيرة العربية. ترجمة: سعيد بن فائز السعيد (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- **الأيوبي** ، محمد شوقي. ديوان الملاحم العربية - (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- **بدرل** ، روبن الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية. ترجمة عبدالله آدم نصيف (الرياض: د. ت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).
- **ابن بشر** ، عثمان. عنوان المجد في تاريخ نجد (الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، د. ت) (الجزءان).
- **بكر** ، سيد عبدالحميد. المامح الجغرافية لدروب الحج (جدة تهامة للطباعة والنشر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م).
- **البلادي** ، عاتق غيث. قلب الحجاز (مكة المكرمة: دار مكة للطباعة والنشر، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).
- **بلي** ، الليفتنات كولونيل لويس. رحلة إلى الرياض، ترجمة عبدالرحمن عبدالله الشيخ وعويضة بن متيريك حامد الجهني (الرياض: جامعة الملك سعود، عمارة شؤون المكتبات، ١٤١١هـ/١٩٩١م).
- **بيرين** ، جاكلين. اكتشاف جزيرة العرب: خمسة قرون من المغامرة والعلم.

ترجمة قدري قلعجي، (بيروت: دار الكتاب العربي، الرياض: منشورات الفاخرية، د.ت).

- **بيسون** ، ايف، ابن سعود ملك الصحراء، تأسيس المملكة العربية السعودية. ترجمة عبدالله بن حمد الدليمي، وعبدالله بن عبدالرحمن الربيعي (الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- **تاكاهاشي** ، سارة. الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربية (١٣٥٨هـ/١٩٣٩م) (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٦هـ).
- **التركي** ، عبد بن عبد المحسن التركي. الملك عبدالعزيز أمة في رجل (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- **تشيزمان** ، آر. أي. في شبه الجزيرة العربية المجهولة. ترجمة عبدالله محمد المطوع، ومحمد بن عبدالله الفريح (الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- **تمبرلي** ، هارولد، و. أ. ج. جرانت. أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين (١٧٨٩-١٩٥٠م)، ترجمة محمد علي أبو درة، ولويس أسكندر القاهرة: مؤسسة سجل العرب، د. ت) جزءان.
- **الجاسر** ، حمد. أبو علي الهجري، وأبحاثه في تحديد المواضع. (الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٣٨٨هـ).
- **الجاسر** ، حمد. مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ، (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٢هـ).
- **ابن جريس** ، غيثان بن علي. أبها حاضرة عسير (دراسة وثائقية). الرياض: مطابع الفرزدق، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م).
- **ابن جريس** ، غيثان بن علي. بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية. تقديم

ومراجعة أ. د. سعيد عبدالفتاح عاشور رئيس اتحاد المؤرخين العرب (الاسكندرية). دار المعرفة الجامعية، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م) جزءان).

- **ابن جريس** ، غيثان بن علي. دراسات في تاريخ وحضارة جنوب البلاد السعودية (جدة: دار البلاد للطباعة والنشر ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).
- **ابن جريس** ، غيثان بن علي. صفحات من تاريخ عسير (الرياض: مطابع العبيكان، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م). (الجزءات الأول والثاني).
- **ابن جريس** ، غيثان بن علي. عسير: دراسة تاريخية في الحياة الاجتماعية والاقتصادية (١١٠٠-١٤٠٠هـ/١٦٨٨-١٩٨٠م) (جدة: دار البلاد للطباعة والنشر، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م).
- **ابن جريس** ، غيثان بن علي. عسير في عصر الملك عبدالعزيز (دراسة تاريخية للحياة الإدارية والاقتصادية) (الرياض: دار البلاد للطباعة والنشر، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).
- **ابن جريس** ، غيثان بن علي. «العمائم تيجان العرب» مجلة بيادر الصادرة من نادي أبها الأدبي، أبها، ١٤١٣هـ) عدد (٨) ص ٦٦-٧١.
- **الجميعي** ، عبدالمنعم إبراهيم. ارتباط عسير بالدعوة لاصلاحية، (خميس مشيط: دار جرش للنشر والتوزيع، د. ت).
- **الحربي** ، أبو اسحاق. كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة. تحقيق حمد الجاسر (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م).
- **الحربي** ، فائز بن موسى البدراني. ابن مضيان الظاهري وعلاقته بالحملات المصرية في عهد الدولة السعودية الأولى (الرياض: دار البدراني للنشر والتوزيع، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م).
- **الحربي** ، فائز بم موسى البدراني. من أخبار القبائل في نجد (٨٥٠-

١٣٠٠هـ/١٤٤٥هـ-١٨٨٣م) (الرياض: دار البدراني للنشر والتوزيع، ١٤٢٣هـ).

- **الحربي** ، فائز بم موسى البدراني. من أخبار القبائل في نجد (٨٥٠-١٣٠٠هـ/١٤٤٥-١٨٨٣م) (الرياض: دار البدراني للنشر والتوزيع، ١٤٢٣هـ).
- **الحقيل** ، حمد بن إبراهيم بن عبدالله. كنز الأنساب ومجمع الأداب (الرياض: مطابع الجاسر، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- **الحقيل** ، عبد الكريم بن حمد بن إبراهيم. المجمعة (الرياض: مطابع الفرزدق، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- **الحليسي** ، نواف بن صالح. عصر العقيلات (الرياض: مطابع التقنية للأوفست، د. ت.
- **حمزة** ، فؤاد. البلاد العربية السعودية (الرياض: مكتبة النصر الحديثة، ١٣٨٨هـ).
- **الحمود** ، محمد بن سعود. من آثار الرياض وما حولها (الرياض: د. ت، ١٤٢٩هـ).
- **الحموي** ، ياقوت. معجم البلدان (بيروت: دار صادر، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).
- **الحنبلي** ، إبراهيم بن صالح بن عيسى النجدي. عقد الدرر فيما وقع في نجد من الحوادث في آخر القرن الثالث عشر وأول الرابع عشر (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- **الحنبلي** ، راشد بن علي بن جريس. مثير الوجد في أنساب ملوك نجد. تحقيق: محمد ابن عمر بن عبدالرحمن العقيل (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

- **الحيسوني** ، هندي بن حمود. وسوم الإبل عند قبيلة حرب (الرياض: دار البدراني للنشر والتوزيع، ١٤٢٤هـ).
- **الخترش** ، فتوح عبدالمحسن. تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية (١٨٩٠-١٩٢١م) (الكويت، د. ن، ١٩٧٤م).
- **خزعل** ، حسين خلف. تاريخ الكويت السياسي (بيروت، د. ن، ١٩٦٢-١٩٦٥م) (الجزءان الثالث والرابع).
- **الخميس** ، محمد بن عبدالرحمن. عناية الملك عبدالعزيز بالعقيدة السلفية ودفاعه عنها (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- **درمولين** ، فان. الملك ابن سعود والجزيرة العربية الناهضة: ترجمة ويسي آي. سي (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- **درويش** ، مديحة أحمد. تاريخ الدولة السعودية حتى الربع الأول من القرن العشرين (جدة: دار الشروق للنشر والتوزيع ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م).
- **ديدية** ، شارل. رحلة إلى الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي (١٨٥٤م). ترجمة محمد خير البقاعي (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).
- **ديكسون** ، هـ . ر. الكويت وجاراتها. ترجمة عبدالله الحاتم (بيروت. د. ن، ١٩٦٤م).
- **الدينوري** ، أبو حنيفة أحمد بن دأود. كتاب النبات، القسم الثاني من القاموس. تحقيق محمد حميد الله. (القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٧٣م). هذا المعجم مفهرس على الحروف الأبجدية، والمادة الموجودة به من حروف (س - ي). أما القسم الأول والمفهرس من حروف (أ) حتى (ز) فقد عثرنا على نسخة مترجمة إلى

الإنجليزية بجامعة ازيزونا في أمريكا واعتمدنا عليها ولم نستطع حتى الآن الحصول على النسخة العربية. أما النسخة الإنجليزية فهي ضمن مكتبة الباحث.

- **الدينوري** ، أبو حنيفة أحمد بن دأوود. كتاب النبات الجزء الثالث والنصف الأول من الجزء الخامس. تحقيق برنهارد لفين. (المانيا: بفيسبادن، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م).
- **راغب** ، عبدالواحد محمد. فجر الرياض: دراسة تاريخية (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- **الريدي** ، محمد بن صالح العبدالله. بريد: دراسة في الحضارة الطبيعية والسكانية (الرياض: مطابع العبيكان، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، الجزء الأول.
- **الريدي** ، محمد بن صالح العبدالله. بريدة: نموها الحضاري وعلاقاتها الإقليمية (الرياض: مطابع العبيكان، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، الجزء الثاني.
- **الربيعة** ، بدر بن عبد العزيز «تطور الخدمات الصحية في المملكة العربية السعودية (خلال مائة عام). بحث مقدم في مؤتمر المملكة العربية السعودية للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- **الرشيد** ، ضاري بن فهيد. نبذة تاريخية عن نجد. كتبها وديع البستاني، وقدم لها وحققها عبدالله الصالح العثيمين (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- **الرشيد** ، عبدالعزيز. تاريخ الكويت (بيروت: د. ن، ١٩٧١م).
- **الرشيد** ، عبدالله بن محمد. الرس (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

- **الرشيد** ، عبدالرحمن سليمان. قصر الحكم في الرياض أصالة الماضي وروعة الحاضر (الرياض: مطابع دار الشبل للنشر والتوزيع والطباعة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
- **الريحاني** ، أمين. تاريخ نجد وملحقاتها (الرياض: د. ن. ١٩٨١م).
- **الريحاني** ، أمين. ملوك العرب (بيروت: دار الجيل، ١٩٨٧م). (ط ٨) (جزءان).
- **الزركلي** ، خير الدين. الأعلام (بيروت: ادر العلم للملايين، ١٩٨٤م).
- **الزركلي** ، خير الدين. شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبدالعزيز (بيروت: د. ن، ١٣٩٠هـ).
- **الزهراني** ، عبدالله بن محمد بن عائض. تاريخ القضاء والقضاة في العهد السعودي ١٣٤٤-١٤١٦هـ (مكة: مطابع بهادر، ١٤١٩هـ).
- **سادلير** ، ج، فورستر. رحلة عبر الجزيرة العربية خلال عام (١٨١٩م). ترجمة أنس الرفاعي (دمشق: دار الفكر ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).
- **السباعي** ، أحمد. تاريخ مكة: دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران (مكة المكرمة. نادي مكة الثقافي، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).
- **السبيت** ، عبدالرحمن بن سبيت. رجال وذكريات مع عبدالعزيز (الرياض: رئاسة الحرس الوطني، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م) (الجزء الثاني).
- **السبيت** ، عبدالرحمن بن سبيت. من وثائق الملك عبدالعزيز (الرياض: رئاسة الحرس الوطني، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م).
- **السبيعي** ، عبدالله سعد الحضبي. الخرمة (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م).
- **سحمان** ، سليمان. ديوان عقود الجواهر المنضدة الحسان: - شعر علامة الزمان الشهير سليمان بن سحمان (١٢٦٦-١٣٤٩هـ. اشراف وتعليق عبدالرحمن بن سليمان الرويشد (القاهرة: مطابع الأهرام التجارية،

د. ت.

- **السـرياني** ، محمد محمود. ملامح التحضر في المملكة العربية السعودية (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، ١٤١٢هـ.
- **السعدون** ، خالد حمود. العلاقات بين نجد والكويت (١٣١٩-١٣٤١هـ/١٩٠٢-١٩٢٢م) (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).
- **السكاكر** ، محمد بن عبدالله. الإمام محمد بن عبدالوهاب حياته، آثاره، دعوته السلفية (الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- **السلمان** ، محمد عبدالله. الأحوال السياسية في القصيم في عهد الدولة السعودية الثانية (م. ن: ١٤٠٨هـ).
- **السلمان** ، محمد عبدالله. التعليم في عهد الملك عبدالعزيز (الرياض/الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- **السلمان** ، محمد عبدالله. مدينة عنيزة بين الأمس واليوم. (الرياض/مطابع الفرزدق، ١٤١١هـ/١٩٩٠م).
- **السلمان** ، خالد بن حمد. معجم مدينة الرياض (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- **السماري** ، إبراهيم بن عبدالله. الملك عبدالعزيز الشخصية والقيادة (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- **السنيدي** ، عبدالعزيز بن راشد بن عبدالكريم. الربيعية. (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م).

- **السويداء** ، عبدالرحمن بن زيد. الـ (١٠٠٠) سنة الغامضة من تاريخ نجد (الرياض: دار السويداء للنشر والتوزيع، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).
- **السويداء** ، عبدالرحمن بن زيد. نجد في الأمس القريب (الرياض: دار العلوم، ١٤٠٣هـ.
- **شاكر** ، فؤاد إسماعيل. رحلة الربيع (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- **شاكر** ، محمود. شبه الجزيرة العرب: الحجاز (بيروت: الكتب الإسلامي ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م).
- **شاكر** ، محمود. شبه الجزيرة العرب: عسير (بيروت: المكتب الإسلامي ١٤٠١هـ/١٩٨١م). ط٣
- **شاكر** ، محمود. شبه جزيرة العرب: نجد (بيروت: الكتب الإسلامي، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م).
- **الشامخ** ، أحمد عبدالرحمن، عبدإله أبو عياش. توظين البدو في المملكة العربية السعودية (الهجر) (الكويت: جامعة الكويت، كلية الآداب والتربية، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).
- **شاهين** ، سيف الدين حسين. لمحات تاريخية عن توحيد المملكة العربية السعودية (الرياض: مطابع دار الشبل للنشر والتوزيع والطباعة، د. ت).
- **الشريف** ، عبدالرحمن صادق. جغرافية المملكةالعربيةالسعودية. الرياض: دار المريخ ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).
- **الشريف** ، عبدالرحمن صادق. منطقة عنيزة: دراسة اقليمية (القاهرة: مطبعة النهضة المصرية، ١٩٦٩م).
- **الشهيل** ، عبدالرحمن محمد. فترة تأسيس الدولة السعودية المعاصرة (١٣٣٣-١٣٥١هـ/١٩١٥-١٩٣٢م) (دراسة تاريخية تحليلية) (الرياض: دار الوطن، د. ت).

- **شيرياتوف** ، أ. غ، والكونت. س. أستردغانوف. الخيل العربية الأصيلة. مراجعة وتحرير عوض عطا البادي (الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- **الضويحي** ، عبدالله بن عبدالعزيز بن ضويحي. مرات (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية والشباب ١٤١٩هـ/١٩٩٨م).
- **آل أبو طامي** ، حمد بن حجر. الشيخ محمد بن عبدالوهاب، عقيدته السلفية الإصلاحية، وثناء العلماء عليه (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- **الطبري** ، أبو جعفر محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: دار سويدان، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م).
- **الظاهري** ، أبو عبدالرحمن بن عقيل، وعبدالحليم عويس. بنو هلال: أصحاب التغريبة في التاريخ والآداب (الرياض: النادي الأدبي، ١٤٠١هـ/١٩٨١م).
- **عبده** ، إبراهيم. إنسان الجزيرة: عرض جديد لسيرة الملك عبدالعزيز آل سعود (الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- **العبودي** ، محمد بن ناصر:المعجم الجغرافي للبلاد العربية: بلاد القصيم (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٩هـ).
- **العبيد** ، عبدالله بن محمد. البدائع (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).
- **العثمان** ، أحمد محمد. شقراء (الرياض: دار طيبة للطباعة والنشر، د. ت).
- **العثيمين** ، عبدالله الصالح. بحوث وتعليمات في المملكة العربية السعودية (الرياض: مكتبة التوبة ١٤١١هـ/١٩٩٠م).
- **العثيمين** ، عبدالله الصالح. تاريخ المملكة العربية السعودية (الرياض: الأمانة

العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م). (جزءان).

- **العريفي** ، فهد العلي. حائل (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).
- **عسيري** ، موسى بن علي مبروك. الخيل ورياضة الفروسية قديماً وحديثاً (الدمام: د. ن، ١٤١٢هـ/١٩٩١م).
- **الغضان** ، سعد بن خلف. التجارة في منطقة حائل (حائل: اصدارات الغرفة التجارية بحائل، ١٤١٩هـ).
- **العقاد** ، عباس محمود. مع عاهل الجزيرة العربية (بيروت: منشورات المكتبة العصرية، د. ت).
- **علي** ، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (بغداد: جامعة بغداد، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- **أبو علية** ، عبدالفتاح حسن. الاصلاح الاجتماعي في عهد الملك عبدالعزيز (الرياض: مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز، ١٣٩٦هـ).
- **أبو علية** ، عبدالفتاح حسن. تاريخ الدولة السعودية الثانية (١٢٥٦-١٣٠٩هـ/١٨٤٠-١٨٩١م) (الرياض: دار المريخ، ١٤١١هـ/١٩٩١م).
- **أبو علية** ، عبدالفتاح حسن. دراسة في مصادر تاريخ الجزيرة العربية الحديث (الرياض: دار المريخ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).
- **أبو علية** ، عبدالفتاح حسن. محاضرات في تاريخ الدولة السعودية الأولى (الرياض: دار المريخ، ١٤١١هـ/١٩٩١م).
- **أبو علية** ، عبدالفتاح حسن. محاضرات في تاريخ الدولة السعودية الأولى (الرياض: دار المريخ، ١٤١١هـ/١٩٩١م).
- **العمار** ، إبراهيم بن عبدالله. شقراء (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

- **العـمـري** ، عمر بن صالح بن سليمان. الملك عبدالعزيز والعمل الخيري دراسة تاريخية وثائقية. (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة ١٤١٩هـ/١٩٩٩).
- **ابن عيسى** ، إبراهيم بن صالح. تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد وووفيات بعض الأعيان وأنسابهم وبناء بعض البلدان (من ٧٠٠هـ/١٣٤٠هـ) (الرياض: منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م).
- **العوسجي** ، محمد بن حمد بن عبَّاد. تاريخ ابن عبَّاد. تحقيق عبدالله يوسف الشبل (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- **العـيـسى** ، مي بنت عبدالعزيز. الحياة العلمية في نجد، منذ قيام دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وحتى نهاية الدولة السعودية الأولى (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- **ابـن غـنـام** ، حسين. تاريخ نجد. تحقيق ناصر الدين الأسد (بيروت: دار الشروق، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م).
- **الـغـنـائـم** ، عبدالرحمن بن عبدالله. المذنب (الرياض: الرئاسةالعامة لرعاية الشباب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).
- **الفـقـيـر** ، بدر بن عادل. عناصر القوة في توحيد المملكة العربية السعودية: دراسة تحليلية في الجغرافيا السياسية (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- **فـيـدال** ، ف. ش. واحة الاحساء. ترجمة عبدالله بن ناصر السيف (الرياض: مطابع الجمعة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م).
- **فـيـسي** ، وليام. الرياض المدينة القديمة. ترجمة عبدالعزيز بن صالح

الهلابي، (الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

- **الفيصل** ، عبدالعزيز بن محمد. عودة سدير (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).
- **فيلبي** ، هاري سانت جون. بنات سبأ رحلة في جنوب الجزيرة العربية، ترجمة: يوسف مختار الأمين، (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).
- **فيلبي** ، هاري سانت جون. العربية السعودية: من سنوات القحط إلى بوادر الرخاء، ترجمة: عاطف فالح يوسف (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).
- **قاسم** ، جمال زكريا. الخليج العربي: دراسة لتاريخ لإمارات العربية (١٩١٤-١٩٥٤م) (القاهرة: د. ن، ١٩٧٣م).
- **قدح** ، فريدة بنت محمد بن حسين. الغطاء النباتي الطبيعي في الإقليم الجنوبي الغربي (أبها: نادي أبها الأدبي، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م).
- **الكاظمي** ، أحمد علي بن أسد الله. يوميات الرياض من مذكرات أحمد علي بن أسد الله الكاظمي مساعد مدير مدرسة الأمراض بالرياض ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧/١٣٧٣ - ١٩٥٢م) (الرياض: دار الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- **قاسمية** ، خيرية. جوانب من سياسة الملك عبدالعزيز تجاه القضايا العربية: دراسة تحليلية من خلال أوراق نبيه العظمة (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- **القاضي** ، صالح بن عثمان بن أحمد. تاريخ نجد وحوادثها (الرياض: دار مطابع المنار، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م).
- **القاضي** ، عبدالعزيز محمد. قصيدة تضم مختصر تاريخ عنيزة منذ تأسيسها حتى وقتنا الحاضر (بغداد: مطبعة الصباح، ١٣٦٧هـ).

- **القــاضـي** ، محـمـد بن عثمـان بن صـالح. روضـة الناظـرين عن مـآثر علمـاء نجـد وحوادث السنين (القاهرة: مطبعة الحلبي، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) (جزءان).
- **القــاضـي** ، محـمـد بن عـثـمـان بن صـالح. الموسـوعـة في تاريخ نجد وحوادثها ووفيات أعيانها (د. م) .، د. ن: ١٤١٤هـ/١٩٩٣م).
- **ابن قتيبة** ، أبو محمد عبدالله بن مسلم. كتاب الأنواء في مواسم العرب (الهند: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م).
- **الـكـلـيـب** ، فـهـد بن عـبـدالـعـزيز. الرياض (الـرياض: الرئاسـة الـعـامـة لرعـاية الشباب، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- **الكيـلاني** ، كـمـال. عـبـدالعـزيز بن عـبـدالرحـمن آل سـعـود والإصـلاح الإسلاميالمعاصر (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة ١٤١٩هـ/١٩٩٩).
- **اللمـــيلم** ، عبدالعزيز. نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثرها في قيام مدينة سامراء من (٢٢١-٢٧٩هـ) د. م) . د. ن، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م). (جزءان).
- **لـــوريمـــر** ، ج. ج. تاريخ البلاد السعودية في دليل الخليج. جمع وتعليق محمد بن سليـمـــان الخـــضـــيـــري (الرياض: دارة الملك عـــبـــدالعـــزيـز ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).
- **مـــبـــروك** ، أحـمـد. رحلة إلى بلاد العـرب (الـرياض: دارة الملك عـبـدالعـزيز، ١٤٢١هـ).
- **المحـــامـي** ، مـحـمـد رفـعت. أسـد الجـزيرة قـال لي (الرياض: مكتـبـة الملك عبدالعزيز العامة ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- **المســعــود** ، عبدالرزاق بن أحمد اليوسف. الزلفي. (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤٠٨هـ/١٩٩٩م).
- **المعـــارك** ، إبراهيم بن عـبـدالعـزيز. بريدة: مـاضـي مـجـيـد وحـاضـر مـزدهر

ومستقبل مشرق (الرياض: مطابع العبيكان للطباعة والنشر، ١٤٠٧هـ.

- **مغربي**، محمد علي. ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة (جدة: دار العلم للطباعة والنشر، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).
- **مفتي**، محمد حسن. «تطور الخدمات الصحية في المملكة العربية السعودية» بحث مقدم في مؤتمر المملكة العربية السعودية للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- **المقوشي**، علي بن سليمان. البكيرية (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).
- **موزل**، أ. أخلاق الرولة وعاداتهم. ترجمة وتعليق محمد بن سليمان السديس (الرياض: مكتبة التوبة، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م).
- **مولين**، فان در. الملك ابن سعود والجزيرة العربية الناهضة. ترجمة ويسي آي. سي (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- **موكي**، مارشيللو. رحلة عبر المملكة العربية السعودية سنة (١٣٥٩هـ/١٩٤١م)، ترجمة: أحمد عبدالرحمن (الرياض: مؤسسة التراث، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).
- **ناتنغ**، انتوني، ولويل ثوماس. لورنس لغز الجزيرة العربية (بيروت: مكتبة المعارف للطباعة والنشر، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧).
- **النويصر**، محمد بن عبدالله. خصائص التراث العمراني في المملكة العربية السعودية (منطقة نجد) (الرياض. دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

- **ابن هذلول** ، سعود. تاريخ ملوك آل سعود (الرياض، د. ن، ١٣٨٠هـ).
- **الهمداني** ، الحسن بن أحمد. صفة جزيرة العرب. تحقيق محمد علي الأكوع (الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م).
- **الهويمل** ، حسن بن فهد. بريدة (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).
- **وهبة** ، حافظ. جزيرة العرب في القرن العشرين (القاهرة ز د. ن، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م) (ط ٢).
- **ابن يوسف** ، محمد بن عبدالله. تاريخ ابن يوسف. دراسة وتحقيق عويضة بن متيريك الجهني (الرياض: الأمانةالعامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).